رجالهم العظام ومؤسساتهم الشامخة

العثمانيون



عثمان نوري طوباش





إستانبول: ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

إستانبول: ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م

اسم الكتاب باللغة التركية: Âbide Şahsiyetleri ve Müesseseleriyle OSMANLI

الترجمة للعربية: العثمانيون - رجالهم العظام ومؤسساتهم الشامخة

ترجمة: د. محمد حرب

مراجعة وتصحيح: محمد أوقومش

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٥٢٥١

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

Language : Arabic

العنوان:



▸ Address : Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)

Fax : +90 212 671 07 48

E-mail : info@islamicpublishing.net

Web site : www.islamicpublishing.net

رجالهم العظام ومؤسساتهم الشامخة



عثمان نوري طوبّاش





قال الله ﷻ:

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾ (النور، ٥٥)

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ (آل عمران، ١١٠)



قال رسول الله ﷺ:

«السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه الضعيف وبه ينتصر المظلوم، ومن أكرم سلطان الله في الدنيا أكرمه الله يوم القيامة»

(المناوي، فيض القدير، ٤/ ١٤٣)





قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

«العدل أساس المُلك»



توطئة

بمناسبة ذكرى مرور ٧٠٠ عام على تأسيس الدولة العثمانية العظمى، يسرُّ دار الأرقم أن تنشر هذا الكتاب القيِّم الذي يُعرِّفنا بهذه الدولة العظيمة التي تربَّعت على عرش قلوب أمَّتنا، ويقدم لنا «كبار الشخصيات والمؤسسات» المهمة فيها.

وعلى الرغم من إساءة بعض الجهَّال للعثمانيين منذ قرن، والسعي الحثيث للأعداء في الخارج للإساءة بصورة أقبح، لم يستطيعوا إنزال هذه الدولة العظيمة من الموقع الرفيع الذي احتلته في قلوب الناس. وإذا ما وجِّهت الانتقادات إلى تركيبة الدولة المتعددة الأعراق بسبب انتشار مفهوم القومية العقيم الذي بدأ مع الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩، نجد اليوم أن العالم يتحرق شوقًا، ويتطلع ليكون مثل الدولة العثمانية في تمازج مجتمعاتها وتناغم ثقافاتها الكثيرة. ومن المظاهر الجديدة والجادة في زماننا هذا التي تثبت وجود هذا الميل، هو سعي الاتحاد الأوروبي إلى جمع أعراق الدول الأوربية وتوحيدها في جسد واحد لطالما كانت في حالة حرب مع بعضها بعضًا لقرون طويلة - بأسلوب مشابه للأسلوب العثماني- .

وبسبب هذا التوجه الجديد، وجدت بعض الصحف- وغايتها الأساسية هي إزالة البعد المعنوي الذي يُبقي العثمانيين أحياء في القلوب- نفسها مجبورة على تحسين سمعتها لدى الناس، عبر سعيها لإظهار علاقتها إيجابيةً مع العثمانيين. وقد احتفل اليهود قبل سنوات مضت- شاكرين العثمانيين- في ذكرى مرور ٥٠٠ سنة على إنقاذ العثمانيين اليهودَ من المذبحة في إسبانيا، وإحضارهم إلى القسطنطينية. وفي هذا العام زارت الهيئة الدينية الأرمنية قبر الفاتح ومسجده، ودعت هناك بمناسبة ذكرى



مرور ٥٤٦ سنة على فتح القسطنطينية. وبسبب هذه المظاهر التي تعكس التسامح الذي كان موجودًا في المجتمعات ذات الثقافات المتنوعة في ظل الدولة العثمانية، وجدت بعض الصحف- التي هي في الواقع ضد العثمانيين في غاياتها- نفسها في حاجة إلى الإقرار بحسن سمعة العثمانيين التي لا تشوبها شائبة. وقد أهدت إحدى الصحف لقرائها كتاب المؤلف النمساوي «هامر» الذي يتحدث عن العداوة بين المسلمين والأتراك، وهو كتاب بعيد عن البحث العلمي. في حين أهدت صحيفة أخرى كتاب «البروفسور د. إسماعيل حقي أُزون شارشلي» الذي يعد أكثر الكتب تفصيلًا وصحة بين الكتب الأخرى، لكن المنية وافته قبل أن يكمل كتابه، فتعهد الكتابة كاتب آخر- يُلقَّب بروفسورًا- للحديث عن ما بعد حقبة الإصلاح في الدولة العثمانية ، ولكنه لم يكن موضوعيًّا أبدًا.

ولأن جيل الشباب اليوم قد تعلم باللغة التركية الحديثة، فأمام الباحثين في المستقبل مهمة كبيرة لوجود ما يقرب من مئة وخمسين مليون وثيقة لم تمسسها يد في الأرشيف العثماني، وتحتاج إلى تصنيف وعمل دؤوب، كي تكون مرجعًا موثوقًا للمعلومات، ومصدرًا صحيحًا للأحكام. ولا يمكن لأحد أن ينكر أننا بحاجة إلى اللجوء بمحبة ونشاط إلى التاريخ العثماني الذي يعد خزينة غنية بالعبر والحِكم التي نحتاجها من أجل الخلاص من الفوضى التي تحيط بنا من كل جانب في أيامنا هذه. إن التاريخ العثماني يعد بالنسبة لنا حبل النجاة الذي يُنقذنا من تأثير الهجمات المتتابعة التي تحاول إبعادنا عن هويتنا الأصيلة. ولسنا نبالغ هنا إن قلنا إننا تأخرنا في البحث في هذا التاريخ بحثًا كافيًا بعينَي المؤمن الحقيقي، كي نأخذ الدروس التي نحن في حاجة إليها.

ومن أجل هذا كله، نقدم لفائدة القراء هنا الكتاب القيِّم الذي كتبه- بحسب المعايير التي ذكرناها- المؤلف المحترم عثمان نوري طوبَّاش الذي لطالما كنَّا نقرأ بشغف كتاباته في مجلة ألتون أولوق.

إن هذا الكتاب وسيلة لإنارة الطريق الذي تسير عليه أجيالنا الشابة، وذلك بالعِبر التي نحتاجها من التاريخ العثماني. ونحن موقنون تمامًا بأننا بتقديمنا لهذا الكتاب إليكم نلبي حاجاتكم كلها. والحق أن الاطلاع على التسلسل الزمني ومجموعة من الأحداث لا يكفي لفهم الدولة العثمانية، بل لا بُدَّ من الوقوف على البعد المعنوي والروحي وراء هذه الأحداث. ولتحقيق هذه الغاية الأساسية يلفت هذا الكتاب نظر القارئ إلى المؤثرات المعنوية للأحداث العسكرية والسياسية العظيمة التي ملأت التاريخ العثماني، وذلك من خلال الحديث عن حياة الكثير من الشخصيات العظيمة وكفاحها. ونحن إذ نقدم هنا لقرائنا المحترمين هذا الكتاب بكلِّ فخر، نهنِّئ المؤلف المحترم على هذا الإنجاز العظيم، وندعو الله العلي القدير أن يبارك في عمره، ويمدَّه بالصحة والعافية، ويكرمه بكتابة مثل هذه المؤلفات القيمة.

دار الأرقم للنشر

الحمد لله الذي رزق عباده المؤمنين العاجزين حلاوة وطمأنينة الإيمان، والصلاة والسلام أبد الآبدين على فخر الكائنات الذي أخرج الإنسانية من الظلمات إلى النور.

وبعد؛ فإن الأمم تعمل على استمرار حياتها على ساحة التاريخ من خلال عناصر الدين واللغة والمشاعر التاريخية. والغاية من الدين والخلقة والفطرة هي أنها تمثل مجموعة قوانين إلهية أعدت لتنظيم الحياة بين الحياة والموت، لتكون وسيلة لسعادة العبد في الدنيا والآخرة.

فاللغة وسيلة للتعبير عن الحق والحقيقة، أما التاريخ فهو الشعلة التي تضيء للأمم طريق المستقبل بتحليل وتثبيت أسباب الأحداث، التي عاشتها الإنسانية في إطار هذين العنصرين، وتحليل نتائجها.

ولهذا وضعنا نصب أعيننا أن هذه العناصر لا يمكن أن تنفصل عن بعضها البعض، فاجتهدنا هنا أن نعرض لقرائنا المحترمين مجموعة من العِبَر والحِكَم من خلال الشخصيات، التي هي بمثابة النصب التذكاري في تاريخنا.

إن مجرد ترميم الآثار المادية لأجدادنا وهي أصبحت أطلالاً، ليس كافيًا لجعلنا جديرين بأن نكون أصحاب هذا الميراث الديني واللغوي والثقافي، الذي تركه أجدادنا لنا كأمانة مقدسة. بل علينا أن نعمل على إحياء هذه الحضارة وهذه الروح، ونقلها إلى الأجيال القادمة. فإنَّ لغتنا التي كانت أساس الحضارة العثمانية عُقِمت وخُرِّبَتْ بتدخل آقوب دِلْ آجار[1] وأمثاله لكي يجردونا من الثقافة الإسلامية، نعم إنهم جعلوها عقيمة بشكل لا تتيح فرصة التمكن من التفكير الجدي.

١. هو أحد الأعضاء في مجمع اللغة التركية في العقود الأولى بعد تأسيس الجمهورية، وهو من أصل أرمني. (المترجم)



وإذا لم نعمل على إنقاذ لغتنا فإنه لا يمكننا إنقاذ هذه الأمة من هذه النزاعات المختلفة الكثيرة المسلطة على رؤوسنا؛ لأن الناس يفكرون بالكلمات، ولا يمكن أصلاً الانفتاح على أفق الفكر الإسلامي المتعمق بلغة متخبطة وناقصة في مفهومها وكلماتها التي تعبر عنها.

وإذا لم نَفعل ذلك، فلا يمكن ظهور ذلك الفكر الذي هو الدافع الأصلي للحركات، ولا يمكن وصوله إلى مرتبة جادة، ولهذا لم نلتفت ولم نهتم أصلاً فيما نكتبه بِتلك اللغة المزوّرة التي تقدم مفهومًا مخالفًا لطباعنا وثقافتنا ومشاعرنا القومية.

ومن ناحية أخرى يجب علينا معرفة تاريخنا بهويــّـته الحقيقية، وإلا فإننا لن نتمكن أبدًا من تقديم تلك الحضارة العالمية بشكل صحيح. وذلك بسبب الأعمال، التي كتبها المؤرخون المحليون من أصحاب النوايا السيئة، والمؤرخون الأجانب الذين عُرِفُوا بعداوتهم للإسلام والأتراك، ولا يمكننا معرفة ماضينا بالشكل اللائق وتقويم مستقبلنا من خلاله.

ولهذا فإن اغتنام ميراثنا التاريخي الذي تركه أجدادنا المشرفون، وجعل هذا الميراث ينعكس على إدراك وشعور أبسط فرد في أمتنا لَيُعَد وظيفة دينية وقومية. ويذكّر محمد عاكف- رحمه الله- العهود والأجيال بتلك الحقيقة الكبيرة فيقول:

حق على البلاد التي لا صاحب لها أن تغرق

وأنك إذا ملكت هذا الوطن، فلن يكتب له الغرق..

والتاريخ يشهد على أن الأمم والأفراد ينظّمون حياتهم في ضوء التجارب التي عاشوها، والتاريخ هو ذاكرة الأمة، ونتاج التجارب القومية. ولهذا فإنه كما أن الفرد لا يستطيع العيش بدون تلك التجارب التي عايشها، فإن الأمم أيضًا دائمًا تحتاج إلى إيقاظ وإرشاد الأحداث التاريخية السابقة.

إن الصعود والهبوط في أقدارَ الأمم، إنما يعني مجموعة متراكمة من التجارب، التي ستنقل إلى مستقبلها. ومقارنة أسباب ونتائج تلك التجارب القديمة بشكل سليم مع الأحداث الجديدة، تضيء المستقبل للأمم.

و إذا تعرفت الأمم على تاريخها الحقيقي وعلى مرشدها المادي والمعنوي وقدّرهما حق تقدير، فإنها تكون بذلك الأمة المتحضرة العظيمة. وإذا الأجيال الجديدة تعرفوا على تاريخهم بشكل أفضل من تواريخ الآخرين، واعتبروا بالماضي فلا داعي للقلق حينئذ من المستقبل.

وإذا تربى ونشأ جيل يعرض عن تاريخه، لا يتعرف على مرشده المادي والمعنوي، وتغرّب من داخله، وأصبح وارثًا منكرًا لجميل هذا الميراث العظيم، ويخوّن أبطال ماضيه، ويجعل الخونة أبطالاً، فإن هذا – بلا شك- سيجعل المستقبل مظلمًا كئيبًا. لأن مستقبل من لا يستندون إلى الماضي، لا يكون آمنًا أبدًا، ولهذا يجب أن تمتد جذورنا إلى الماضي، وفروعنا إلى المستقبل.

ومن الخطأ الكبير فهم علم التاريخ على أنه مجموعة مجردة من الوقائع الجافة، بل على النقيض من هذا، فعلم التاريخ علم مبارك يوضح الأرضية الأصلية للصواب والخطأ والحق والباطل في حياة المجتمعات الممتلئة بالمفاجآت والمغامرات.

علينا أن نتعرف على تلك الأرضية بشكل سليم وأن نستخرج منها العِبر والدروس اللازمة حتى نستطيع تنظيم حال المجتمعات أكمل التنظيم ونقارن بين الأسباب والنتائج التي يضعها التاريخ أمامنا.

ولهذا فإن كتابنا العظيم القرآن الكريم نقل للإنسانية العِبر والحكم من الأحداث المختلفة الإيجابية أو الأحداث السلبية التي عاشتها المجتمعات الماضية.

ومن ذلك، على سبيل المثال، أخبرنا القرآن الكريم بأن الأمم الظالمة التي عصت الله تعالى تعرضت للقهر الإلهي وبعدها اختفت في سلة مهملات التاريخ بعاقبة محزنة، يقول الله تعالى:



﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ﴾ (الزخرف، ٥٦)

ويقول أيضًا:

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ (الدخان، ٢٩)

وفي مقابل هذا أخطرنا القرآن الكريم بأن الأمم التي لم تبتعد عن الهداية الإلهية وثبتت على الدين المبين ورفعت راية التوحيد، وحملتها إلى جهات الدنيا الأربعة، أورثها الله الأرض، يقول الله تعالى:

﴿...أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء، ١٠٥)

وهذا أيضًا يُظهر لنا أنه لا يمكن الاستغناء عن هذا المنهج القرآني، الذي يُشخص لنا تصرفات السابقين صحيحة كانت أم خاطئة، ويُسهّل لنا الاستفادة منها. وقد عبّر محمد عاكف على أهمية العِبر اللازم أخذها في هذا الشأن فقال:

يعرِّفون التاريخ بأنه تكرار

ولو اُستفيد منها هل كانت تتكرر؟؟!

إن التاريخ يعتمد على الأرشيف، وأثناء عمل المراجعات الجديدة للوثائق الخاصة بحضارة عظيمة كالحضارة العثمانية، سيتضح تدريجيًّا أن لا قيمة قط لتلك الاتهامات الجاهلة الظالمة التي نُسبت إلى هذه الحضارة أو نُقلت عنها.

إن الأمم الغنية بتاريخها، العظيمةَ بحضارتها أممٌ عظيمة. وحتى إن أقيمت اليوم العديد من الآثار الحضارية، فإن «جامع السليمانية» سيظل أثرًا عظيمًا ووقورًا. وهنا توجد حقيقة يجب الإشارة إليها، وهي أن أكثر الأماكن التي يرغب السياح في زيارتها، ويأتون إليها، ويظلون ينظرون إليها بإعجاب، ويرتاحون لها روحيًا، إنما هي الآثار العثمانية.

إن الباحثين المحليين والأجانب على السواء يعملون على النهل من فهم وذكاء هذه الدولة العالمية، ويبذلون جهودهم من أجل الاستفادة منها، ويسعون لأخذ نصيب مما تعلموه منها. ولهذا فإن دور الأرشيف لدينا يمتلئ بالباحثين ورجال العلم الأجانب أكثر من المحليين. ولهذا نحن مضطرون لأن نعرّف الأجيال الجديدة، ونحن في أوائل القرن الواحد والعشرين، بحضارتنا وثقافتنا المتسمة بالرفعة والشرف، وبالبنية المعنوية التي عملت على إيجاد تلك الحضارة، والتالي علينا أن نسير على هذا الطريق العظيم الفاخر.

وكما أنه لا يمكن فهم ماضي وحاضر التاريخ العالمي دون معرفة التاريخ العثماني، فإنه لن يمكن أيضًا فهم مشكلات المناطق الحساسة الموجودة في تركيا اليوم والمستعدة للانفجار في كل لحظة، دون معرفة مجرى التاريخ العثماني. ونفس الشيء أيضًا بالنسبة للأزمات التي يتعرض لها العالم الإسلامي اليوم، لن يتم الوصول إلى حلول لها دون البحث والتدقيق بشكل سليم في ميراث التاريخ العثماني.

❁

وقد أُمرنا في القرآن الكريم بأن ننفق مما نحب حتى يكتمل إيماننا، ونتمكن من الوصول إلى الرضا الإلهي. وهناك الكثير من الحكم في هذا الشأن، يمكن إيضاح أهمها فيما يلي:

إن المال والروح أهم وأغلى ما يملكه الإنسان في هذه الدنيا. ويمكن بإنفاقهما في سبيل الله شراء الجنة، والحصول على رضا الله ﷻ. ولذا لا يمكن نشأة شخصيات خالدة كالنصب التذكاري وكذلك نشأة إنسان الوقف من هؤلاء الذين يَنذُرون أنفسهم لله إلا بإنفاق هاتين الثروتين الثمينتين. وهذه مسألة مهمة للغاية.

وذلك لأن الفرق الوحيد بين الأمم الحاكمة والأمم المحكومة هو الفرق في رجال الوقف أي في تلك الحفنة من البشر الذين أسهموا بأموالهم وأرواحهم في سبيل الله والمجتمع.

وبهذا فلا يمكن استمرار طمأنينة المجتمعات وسكينتها إلا باستمرار حياة رجال الوقف المذكورين وشأن ورفعة المجتمعات أيضاً يكون بقدر أعمار رجال الوقف المذكورين. ونحن اليوم في أمسّ الحاجة أكثر من أي وقت مضى، لأن نَنزِل إلى الأعماق الروحية للقلوب الممتلئة بالوجد والإيمان لهؤلاء الرجال، والشعور بهم وفهمهم، وأخذ نصيب من بنية قلوبهم. ما أحوجنا أيضًا في هذا اليوم، الذي تعيش فيه الإنسانية شهوة القوة وسلطة النفس، إلى رجال مخلصين قدموا أنفسهم وقلوبهم وحياتهم في سبيل الله ﷻ من أمثال «الغازي عثمان» ونسله. ومن الضروري لنا أن نغوص إلى أعماق أرواحنا بالأنوار المعنوية، وأن نصل اليوم من جديد إلى تلك البنية.

ويأتي على رأس رجال الوقف الأنبياءُ والصحابة والأولياء ومنْ تربوا على أيديهم. فهم قد حملوا إلى جميع أنحاء العالم بسرعة فائقة الحماسَ الإيماني الموجود في قلوبهم. وهم الذين خطوا أجمل صفحات التاريخ الذهبية.

إن المؤسس الأصلي للدولة العثمانية هو«الشيخ أدبالي» من خواص أولياء الله. وبه لحقت الإنسانية بالطمأنينة والسكينة التي كانت تبحث عنها، وتم توجيه سلاطين العالم طوال الفترة التي استمرت فيها سلسلة «أدبالي».

ولهذ علينا أن نشاهد عن قربٍ عشقَ ووجد سلاطين الظاهر والباطن الذين تربوا على يد أدبالي وسلسته، ونعيش هذا الشعور من جديد ونُقوّم أنفسنا من خلاله.

إن الدولة العثمانية التي كتبت أعظم صفحات التاريخ الإسلامي بعد عصر الصحابة الكرام، كانت دولة تتميز بحب شعبها الشديد لرسول الله ﷺ بدءًا من السلطان وحتى الراعي.

لقد وجّه السلاطين العثمانيون الذين حكموا الدولة العثمانية مظاهر الاحترام ورعاية الأدب للرسول ﷺ حتى ظهرت عادات وآداب معينة عند كل فرد في الدولة. ومنها؛ أنهم كانوا يضعون أياديهم اليمنى على قلوبهم ويصلّون على النبي في كل مرة يذكر فيه اسمه وعند سماعهم توشيح المولد الشريف كانوا يقفون احترامًا

وتبجيلاً عندما يرد البيت الذي يذكر ولادته عليه الصلاة والسلام وعندما كانت ترد الرسائل من المدينة المنورة إلى إستانبول كان السلاطين لا يقرؤون الرسالة إلا بعد تجديد الوضوء وتقبيل الأوراق والنهوض وقوفًا أمامها، ولا يوجد سلطان عثماني واحد أخل بهذه القاعدة.

لقد كان العثمانيون الذين يعملون هناك أثناء ترميم المسجد النبوي يتوضؤون قبل وضع أي حجر، ولا يضعونه إلا بالبسملة، كما أنهم كانوا يربطون قطع قماش على مطارقهم تأدبًا مع رسول الله ﷺ وذلك حتى لا يزعجوا روحانية رسول الله أثناء طرقهم. وهذه بالطبع كلها نماذج على التأدب ورعاية الاحترام لم ير التاريخ مثلها من قبل.

وموكب الصرة الهمايونية الذي كان يتجه من إستانبول إلى المدينة المنورة، كان يحط رحاله في المنازل القريبة من المدينة قبل الدخول إليها، وكانوا يستعدون للمناخ المعنوي للمدينة ويقتربون إلى مقام رسول الله ﷺ بعد الاستخارة بإشارة معنوية، ثم يزورنه ﷺ بأدب، ويجلبون معهم أثناء عودتهم مقدارًا من تراب المدينة إلى بلداتهم تبركًا وشفاءً.

ويا تُرى من يعلم ربما أن هذا الريش الموجود على جانب الطرة التي كانت تزين العمامة في صور السلاطين العثمانيين، إنما هي رمز مكنسة. وبهذا كان السلاطين العثمانيون يعتبرون أنفسهم عاملي النظافة في الحرمين الشريفين. وكانت رواتب عمال النظافة في الحرمين تُصرف من ثروات السلاطين الخاصة.

ولعل وضع شعرات من شعر لحيته ﷺ في أربعين لَـفَّة وحفظها في منابر الجوامع باسم «اللحية الشريفة» وجعلها رحمة وبركة للأمة منذ عدة عصور، إنما هو أكبر دليل على احترام وحب الرسول ﷺ.

ويتضح لنا مما ذكرنا من حبّهم وخصائصهم السامية أن الكلمات الأخيرة لـ«عثمان الغازي» التي قال فيها:



«إن غايتنا ليس الحكم لمجرد الحكم، وإنما هي إعلاء كلمة الله» إنما كانت دليلاً ونبراسًا لكل السلاطين من بعده، وقد أبدوا حساسية ورعاية تاريخية في سبيل عدم البعد عن تلك الوصية.

والتعليمات التالية التي أصدرها «أورخان الغازي» إلى ابنه «مراد خان» كافية لإظهار أفق هذا الوجد الإيماني:

«لا يكفي للعثماني أن يحكم قارتين من العالم، لأن إعلاء كلمة الله دعوة كبيرة لن تسعها القارتان فقط. وكما أننا ورثنا السلاجقة، فإننا ورثة روما (آوروبا) أيضًا!».

والكلمات الأخيرة التي قالها شهيد قوصوواه السلطان الشهيد والولي الكبير «مراد خان الأول» عندما كانت الشهادة المباركة تُخضب نعشه النظيف، أجمل مثال على شهادته الحقيقية:

«لقد دعوت الله بأن يسقيني شراب الشهادة إن كان انتصار الإسلام مرتبطًا بشهادتي... وهذا يعني أن دعائي قد استجيب، فالحمد لله أن حياتي قد انتهت بعد أن رأيت نصرة جنود الإسلام».



لقد كان العثمانيون دائمًا يقفون بجانب المظلوم، وحملوا للبلدان التي فتحوها الإنسانية وأجمل الخدمات، حتى النصارى الذين كانوا يعيشون في البلدان التي فتحها العثمانيون لم يكن بينهم عريان أو جائع. وعمل العثمانيون على حماية الأرامل، وضمنوا لهم المأكل والمشرب والمأوى. لقد اجتمعت هِمَم السلاطين العثمانيين على فكرة «نظام العالم»، وجعلوا وجود الدولة مستقرًّا على فكرة «الحكم على العالم بالأسس الإنسانية والإسلامية.»

وهذا التعبير الذي عبر فيه «نوتراس» المسيحي البيزنطي النبيل عن عهد الفاتح قبلِ فتح إستانبول من أجمل الأمثلة على عدالة الإسلام وسماحته الحقيقية، لقد قال:

«لأن أرى العمامة التركية في إستانبول خير لي من أن أرى قبعة الكاردينال».

لَكَمْ نحن محتاجون في تلك الأيام إلى هذا السمو، وهذه المثالية وهذه الأخلاق، وهذا الحب الذي يدل على عمق الإيمان. وما أحوجنا اليوم إلى هذا العشق والأخلاق الفاضلة وإلى هذه الهمة العالية التي أخرجت سلطاناً مثل ياووظ وجعلته يقول أمام قول معلمه «حَسَنْ جَانْ» «لقد حان وقت الكينونة مع الله!» وهو على فراش الموت:

«يا مولانا، يا مولانا! ومع من كنت تظنني حتى الآن؟!»

يجب علينا أن نفكر: ما الذي أخرج السلطان العظيم «السلطان القانوني» الذي حكم لمدة نصف قرن إلى الجهاد وهو شيخ هرم مريض؟! وأن نفكر في حال «السلطان عبد الحميد الأول» الذي لم يتحمل خبر خروج قلعة أوزي من يد الدولة العثمانية وتوفي حسبة. فما أشد هذه الحرارة الإيمانية التي ملأت قلبه بالألم والآهات وتسببت في موته وهو يقول:

«تمزق أبنائنا الجنود والأهالي المعصومون».

يجب تحليل الشخصيات والوقائع بشكل سليم كي نتمكن من الشعور عن قرب بتلك الحقائق، وحتى يمكن الإحساس بالمعاناة، والعيش بالمشاعر التاريخية، والتعرف على الإقليم المعنوي الذي أعطاهم ذلك الوجود.

فلا بُدَّ أن نقرأ ونكتب الكتب في هذا الشأن لكي نجعل كل ذكريات أجدادنا حية في القلوب، ونجعل الحماس المعنوي وخاصة حب رسول الله متجددة دائمًا.

ولهذا سعينا في هذا الكتاب إلى إظهار البطولات والخدمات الممتلئة بالمحبة والشفقة والرحمة، التي قام بها الكثير من رجال القلب والوقف، الذين كانوا نموذجًا للمحبة، وشرفًا للتاريخ، وأسطورة للإنسانية، كما سعينا لإظهار أفعالهم ونصائحهم التي وجهت المجتمع، وسيرة حياتهم التي تركوها لنا كذكرى عزيزة والتي تحمل الكثير من العبر والحكم.

وبينما كنا نعد الطبعة الثانية من هذا الكتاب بمناسبة الذكرى السبعمائة عام لتأسيس الدولة العثمانية، شعرنا بضرورة إضافة العديد من أرباب العلم والعرفان



والفن الذين زينوا عهودهم، بالإضافة إلى الشخصيات المتميزة من آل عثمان. وذكرناهم في قسمين رئيسيين.

ولهذا فإنكم ستجدون بين سطور هذا الكتاب بعض السمات الممتازة للسلاطين، الذين حكموا تلك الإمبراطورية العالمية، ورجال الدولة والعلماء والأولياء، الذين قاموا بتوجيههم. كما ستشاهدون عالمهم القلبي، الذي يعرض علينا شخصياتهم النموذجية. وهؤلاء الرجال العظام قد أظهروا للعالم كله أن الأمة التركية كما أنها احتلت القمة في تأسيس الدولة من الناحية العسكرية، كانت أيضًا صاحبة مكانة متميزة في العلم والفن والخط والأخلاق والعرفان. وقدموا في أجمل صورةٍ تلك الخصائص المادية والمعنوية التي جعلتهم أمة سجلت الملاحم في كل ساحة من الساحات.

لقد استلهمت الدولة العثمانية، وخاصة في القرون الثلاثة الأولى لها، الصدقَ والإيمانَ من الخليفة «أبي بكر»، والشجاعة والعدالة من الخليفة «عمر»، والحياء والحب والوجد من الخليفة «عثمان»، والعلم والعرفان والإقدام من الخليفة «علي» -رضي الله عنهم - أجمعين. لقد كانوا بمثابة المصباح الذي أضاء طريق إعلاء كلمة الله التي أحاطت بالعالم أجمع.

ولم تأت أمة في التاريخ بسلسلة من السلاطين العالميين من الدهاة يلي بعضهم بعضًا لمدة ثلاثة قرون متواصلة، ولم تُؤسّس دولة في التاريخ قط كانت شعلة للإنسانية والحق والحقوق، وكانت أطول عمرًا مثل الدولة العثمانية. ويكفي أن نذكر بأن الدولة التي أسسها «عثمان الغازي» قد استمرت ٦٢٣ عامًا، كَشَاهِد على تلك الحقيقة.

لقد نمت تلك النواة الصغيرة لتلك الدولة المشرّفة بأربعمائة فارس، حتى أصبحت شجرة صنوبر ضخمة، وأصبحت فروعها تظلل القارات الثلاث، وعاشت ستمائة سنة بعزة وشرف، ثم خلفت بعدها مجموعة من الدويلات اليتيمة.

وتسترت في ضريح مشرّف في المقبرة المسماة بالتاريخ. ووظيفتنا الآن هي أن نكون خدامًا لهذا الضريح كما ينبغي.

إننا لسنا مؤرخين، ولهذا فقد سعينا إلى تناول الشخصيات المتميزة في تاريخنا الديني والقومي وإظهار موقعهم المتميز في العلم والعرفان، وكذا الأرضية المعنوية التي أدت إلى رقينا الظاهري والمادي، وإظهار الأسباب والحكمة الداخلية لانهيار الدولة المحزن، بدلًا من كتابة تاريخ مفصل.

ومن المؤكد أن شخصيات الوقف التي أضفناها لهذه الدعوة المقدسة ليست عبارة عما تناولناه وإن كان ما تناولناه من الشخصيات يقبل الزيادة، إلا أننا حددنا العدد بالمقدار الذي يكفي لحصول القناعة والفكرة الكاملة.

أما إظهار المصادر في مثل تلك الأعمال فكما أنه عادة عامة، فإنه أيضًا تكتيك جُلب ليعطي العملَ الشكلَ العلمي، ولكننا في هذا العمل لم نتبع هذه الأصول حتى لا ندعي العلمية، وحتى لا نضيق على القارئ بهذا الكم الكبير من المصادر، خاصة وأن هذا العمل بمثابة تجربة قلمية متواضعة لا ادعاء لها.

ونرجو من القراء الأعزاء أن يسامحونا عما بدر من خطأ أو نسيان، ونأمل أن يكون هذا العمل مفيدًا نافعًا لأجيالنا وشبابنا، الذين نتمنى أن يتربوا على الحماس الديني والقومي. وأرجو من الله أن يتقبل طلبنا هذا، ونلجأ إلى رحمته التي لا حد لها.

وأتقدم بالشكر لكل من أسهم في إعداد الكتاب من إخواننا، وأخص منهم المؤرخ الذي قام بالتحليل والنقد وأعاننا بآرائه القيمة الأخ «قدير مصر أوغلو» ومن طلابنا الشاب «محمد علي أَشْمَه لِي» الذي عمل بجد وإخلاص. وأرجو من الله العلي القدير أن تكون خدماتهم هذه صدقة جارية لهم.

وبهذه الوسيلة أود أن أقول هنا إنه لا يوجد مؤلف قط وُلِدَ ومعه تلك الأحكام القيمة والعلم الذي قدمه. بل إن هناك مجموعة من المرشدين هم الذين يبثون الشكل في رأسه وفي روحه، ويوجهونه إلى الحق أو الباطل. أما المحرومون من هذه الهمة

فإنهم يأتون ويرحلون عن هذه الدنيا بصوت جاف غير متوازن وصدى غير مريح، وكتبهم أيضًا تكون بمثابة كومة من معلومات جافة. ولهذا لا يظهر إنسان مؤثر ولا يبرز عمله دون أن تكون لديه الهمة المعنوية. فالشكر لله على أننا نشأنا في بيت مبارك يغذي قلوبنا بالنفحات المعنوية، ويوجه إدراكنا وأرواحنا إلى الحق بلطف مستثنى.

مرت حياتنا منذ صغرنا تحت تأثير مصدر فياض. وما تعلمناه في تلك المدة من العلوم والآداب الإسلامية كان نابعا من ذلك المصدر المعنوي؛ ألا وهو والدنا المحترم موسى طوباش أفندي الذي لم نستطع أن نخدمه حق الخدمة. فقد نقل بإيمانه وعرفانه ولطفه وظرافته ورقته الخصوصياتِ المعنويةَ التي جعلت الدولة العثمانية دولة عظيمة فمزج قلوبنا بهذه الخصوصيات. وبهذه الوسيلة فإن عبارات الشكر له، وذكر تلك الحقيقة إنما هو بمثابة وفاء الدين، وإشارة إلى المصدر الأصلي لتلك الفيوضات التي صدرت عن أقلامنا.

نرجو من قراءنا الأعزاء تقديم الفاتحة وثلاث من سورة الإخلاص لروح الولي والدنا «موسى أفندي» الذي ودعناه إلى رحمة الله في (١٦ تموز ١٩٩٩م) رحمة الله عليه!..

ونترككم الآن مع كتابنا المتواضع بعد أداء هذا الواجب لكرم ولطف الحق تبارك وتعالى أولا، ثم لوالدنا الذي تربينا على يديه المباركتين.

ومن الله التوفيق،،،

عثمان نوري طوب باش
وقف عزيز محمود هدائي
٢٢ يوليو ١٩٩٩
أُسكدار– إستانبول

القسم الأول

السلاطين العثمانيون





سلطان الغزاة الذي وضع أسس إمبراطورية عظيمة عالمية
في سبيل إعلاء كلمة الله ﷻ.

السلاطين عثمان الغازي

(١٢٥٨-١٣٢٦م)

ينتسب العثمانيون إلى عشيرة «قَايِي» من عشائر أتراك «الأوغوز» الذين هاجروا من آسيا الوسطى إلى الأناضول. وعثمان الغازي هو أحد الأبناء الثلاثة لـ «أَرْطُغْـرُلْ غَازِي». وكان يلقب بـ«فخر الدين».

وتذكر الروايات أن والده «أرطغرل الغازي» أُخطر معنويًّا بالأعمال الكبيرة التي سيحققها ابنه قبل مولده. فبسبب خبرته في الإدارة واستعداده العالي الذي منحه الله

توجد في العَلم العثماني الشمس والقمر وأسلحة مختلفة والزهرة والميزان والكتاب وأشكال مستديرة والطغراء في دائرة فوق العلم؛ يمثل كل من هذه الرموزات معنى خاص؛ فالشمس تمثل الخلافة، والقمر يمثل السلطنة، والأسلحة تمثل قوة الدولة، والزهرة تمثل الود والحب، والميزان يمثل العدل، والكتاب يمثل الحقوق والارتباط بالقوانين الإلهية، والأشكال المستديرة تمثل المداليات التي تمنح للأشخاص الناجحين في عملهم، والطغراء في دائرة فوق العلم يمثل السلطان الحالي، ويكتب في الطغراء العبارة التالية: «... خان المظفر دائماً» ويكتب داخل القمر العبارة التالية: «المستند بتوفيقات الرباني، ملك الدولة العثمانية».





إياه، اعترف بِهِ كل الأمراء رئيساً على العشيرة بعد وفاة والده، بالرغم من أنه كان أصغر أولاده. وعندما أصبح «عثمان» أميرًا على تلك الإمارة نظم الشعراء الأبيات التالية:

تَقَلَّدَ سيف الدين على الخصر
فَلْيظهر الإسلامَ على كل العالم
وقد فُتِح باب فرصة الإسلام
إنه رئيس أمة محمد

وبذلك اتفقت الآراء على أن «عثمان الغازي» أصبح أميرًا على العشيرة. إنه قام بإيصال حجم الأراضي التي ورثها عن والده من ٤٨٠٠ كم٢ إلى ١٦٠٠٠ كم٢. وقد سُكَّت أول عملة في عهده.

❀

وقد اتخذ والده «أرطغرل» الشيخ «أدبالي» مرشدًا له طوال حياته وبتلك التربية المعنوية التي حصل عليها من الشيخ، كان رئيسَ عشيرةٍ صاحب كلمة. ولهذا كان يريد أن ينال ابنه أيضًا من تلك التربية المعنوية. فكان «عثمان الغازي» يذهب إلى الشيخ «أدبالي» باستمرار ويسأله الدعاء.

وفي إحدى الليالي التي كان فيها «عثمان بَكْ» ضيفًا عند الشيخ «أدبالي» عاش لحظات ممتلئة بالحماس الممزوج بسكينة الصحبة والحديث، الذي يمنح الروح الطمأنينة، ويزيل التخبطات النفسية.

فتذكر الرواية أنه وجد في الغرفة التي كانت مخصصة لنومه مصحفًا معلقًا على الحائط فخشي أن ينام مادّا قدمه أمام المصحف، فانكَبَّ جالسًا على الأرض وراح في النوم ورأى في منامه أن هلالًا يخرج من صدر الشيخ «أدبالي» وأن طرفًا منه يدخل في صدره، ويخرج منه بينهما برعومة لتكون شجرة دُلْب كبيرة تظل بفروعها على

قارات العالم الثلاث. وكان الأذان يُتلى على المآذن والقباب الفخمة العظيمة في تلك الأماكن، وكانت البلابل تتلو القرآن الكريم، فأصبح كل السماء جنة خضراء.

وبينما كان «عثمان» يشاهد تلك المناظر الجميلة في منامه إذا به يرى غزالا يظهر فجأة، ولما صوّب «عثمان» سهمه إلى الغزال استيقظ من الرؤيا.

توضأ «عثمان بَكْ» واستأذن في الدخول على الشيخ «أدبالي» ودخل. وبدأ يحكي له الرؤيا، وبينما كان «عثمان» يحكي للشيخ ما رآه في رؤياه بدأت علامات التبسم تظهر على وجه الشيخ، وفي عينيه حب نوراني. لأنه كان يحل أسرار تلك الرؤيا بعين قلبه. ولما صمت «عثمان بَكْ» رفع الشيخ رأسه، ونظر إلى عين «عثمان بَكْ» وبدأ يتحدث إليه بصوت عذب هادئ:

"يا بُني! لا يعلم الغيب إلاّ الله ﷻ. ولكن تلك الرؤيا تحمل من المعاني الجميلة الكثير والكثير. فسيجعل الله تعالى السلطنة فيك وفي ذريتك، وسيكون العالم تحت حماية أبنائك، وستتزوج بفتاة من ذريتي، ويقوم الأبناء عن هذا الزواج برئاسة تلك الدولة الكبيرة التي ستقوم أنت بتأسيسها، والتي ستكبر بمرور الوقت، وتتوسع إلى جهة الغرب".

وقد نظم «عاشق باشا زاده» ما حدث بين «عثمان بَكْ» وبين الشيخ «أدبالي» بتلك الأبيات الشعرية:

مرتبة الهداية نعمة لك
والدولة من الأزل إلى الأبد لك
والدعاء من الرجل الصوفي لنسلك
فلتَــفْرِشْ الولائم، الضيافة لك
والبرهان بالنسب والذرية لك
والدوران في الدنيا لك
والأمر للإنس والجن أيضًا لك

وقبل أن يمضي وقت طويل على تفسير الشيخ للرؤيا، تزوج «عثمان» بالسيدة «مَالْ خَاتُونْ» ابنة الشيخ «أدبالي». وبهذا الزواج اجتمع حول «عثمان الغازي» أرباب الفتوة والقوة الاقتصادية. وبذلك وضع الحجر الأساسي المادي لتلك الدولة الكبيرة، التي ستعمل على تأمين نظام العالم، وستنير الدنيا بأثرها، لأكثر من ستة قرون، بنور الهداية وإعلاء كلمة الله ﷻ.

ومن ناحية أخرى اتفق كافة رجال الدين والصوفية على زعامة «عثمان الغازي» وذريته، وخاصة الشيخ «أدب آلى» و«حاجي بَكْتَاشْ وَلِي» و«أَخِى أَوْرَنْ»، وتضرعوا إلى الله بأن يكون الحكم والزعامة في نسل «عثمان».

وكان السبب في هذا الرجاء هو ظهور بعض الإشارات المعنوية قبل ذلك. فيذكر «جَوْدَتْ باشا» أن «محيي الدين بن عربي» بشّر قبل ٧٠ عامًا من تأسيس الدولة العثمانية بتأسيسها. فقد استنبط ذلك من الآيات الموجودة في القرآن الكريم بواسطة علم الجفر في مؤلّف سمّاه بـ«الشجرة النعمانية في الدولة العثمانية» وذلك قبل تأسيس الإمارة العثمانية. في هذا الكتاب إشارات توضح أن أول خليفة من بني «عثمان» سيكون «السلطان سليم».

وقد ارتفعت تلك الراية التي حملها العثمانيون بتلك البشارات العُلوية في ظلال الأجنحة المعنوية لأولياء الله. فهذا الإنسان المؤمن الذي يعيش في الأناضول هرع إلى هؤلاء الأولياء ليحتمي بظلهم من تلك الأزمات الكبيرة التي عاشها وعانى منها خلال فترة استيلاء المغول على الأناضول. وبذلك وصل هذا الإنسان المؤمن إلى السكينة والطمأنينة، وكأنه دبت فيه الروح من جديد. ولو لم يقدّر الله ذلك لفقد الأناضول كله هويته المعنوية، لأن تحركات المغول -الذين كانوا يعبدون الأصنام- صوب الغرب هازمةً أقوى الجيوش الإسلامية، فقد جعلت أهالي الأناضول يشعرون بالألم والحزن بل وحتى بفقدان الأمل. حتى ظهرت على الناس أمارات السأم بدرجة كبيرة، وَأخذ أهالي الأناضول يبتعدون عن أصالتهم. وبذلك بدأت

العادات المغولية تطل برأسها، لدرجة أنها باتت تصبح موضة وطرز حياة في المنطقة. إلا أن العثمانيين باتصالهم المعنوي مع سلسلة «أدبالي»، استطاعوا أن يقولوا "قف" لهذا الوضع الأليم. وكانوا يدركون تمامًا أن هذه الهزائم إما هي ابتلاء من الله ﷻ أو نتيجة للانحراف عن الحق، وأعلنوا لرعيتهم بأن المؤمنين الذين سيكونون مظهرًا لتأييد الحق تبارك وتعالى سينصرون مرة أخرى.

لم يخض العثمانيون حروبًا عبثا مع إمارات الأناضول، بل اتجهوا بحروبهم صوب الغرب لتكون جهادًا في سبيل الله ﷻ. ولأنهم أظهروا الإخلاص في هذه الدعوة فقد شكّل عثمان الغازي هالة توحيد لا يمكن هز أركانها. وبدأ كل فرد يشعر بأن إعلاء كلمة الله إنما هو أمر إلهي خاص به هو فقط. فهرعوا جميعًا تحت الراية المقدسة التي رفعها «عثمان الغازي». وفي تلك الأثناء أيضًا قدم الأمراء السلاجقة الذين تفرقوا من قبلُ بسبب الغزو المغولي إلى «عثمان الغازي» وبايعوه. وقد لعب في هذا توجه آخر السلاطين السلاجقة بـ«عثمان الغازي» دورا كبيرا، حيث قال له:

"يا ولدي! أيها الغازي عثمان! إن علامات السعادة كثيرة وواضحة فيك، وليس في العالم ند لك ولا لنسلك، وأوجه دعائي لك بأن تكون عناية الله، ومعجزة النبي ﷺ وهمة الأولياء معك".

وبسبب جهوده في سبيل الله ﷻ ونجاحاته في إعلاء كلمة الله ﷻ أرسل إلى عثمان الطوغ والعلم والسيف والفرمان.

ولهذا السبب ظل «عثمان الغازي» تابعًا للدولة السلجوقية حتى انهيارها من على مسرح التاريخ. وبالرغم من أن السلطان السلجوقي منحه الاستقلالية شرعًا، إلا أن «عثمان الغازي» لم يتصرف بشكل مستقل قط. وهذا كله يُظهر أن الدولة العثمانية كانت هي الوارث الطبيعي للدولة السلجوقية.

وأهم خاصية تلفت الانتباه في عهد «عثمان الغازي» هي أنه أسس دولته على أساس معنوي وثابت. وكان عديد من العلماء ورجال العلم والعرفان حوله أمثال

«أدبالي» والشيخ «محمود» و«دُورْسُونْ فقيه» و«قاسم القره حصاري» والشيخ «مخلص القرماني» و«عاشق باشا» و«ألوان جلبي». فلقد كانت هذه الأسس المعنوية مهمة إلى درجة كبيرة في بناء الدولة، وقد تم التصديق على إمارة «عثمان الغازي» بخطبة الجمعة، التي ألقاها «دورسون فقيه» بعد فتح عثمان «قَـرَجَه حِصَار».

ومن الشخصيات المعنوية التي عاشت في عهد «عثمان الغازي»، وأنارت العالم؛ والتي كانت بمثابة سلاطين القلوب في ذلك العهد «خوجه عارف الريوْكري» من سلسلة النقشبندية و«خوجه محمود الإنجير الفَـغْـنَوي»، والشيخ «سعد الدين الجباوي» و«بهاء الدين ولد» والشيخ «أدبالي».

وتذكر العديد من الروايات أن الشيخ «أدبالي» كان من "عترة رسول الله ﷺ". ولهذا نال بنو «عثمان» الشرف من ناحية الأم من هذا الجانب، لأنهم بذلك وصلوا بالسلسلة من ناحية الأم إلى النبي ﷺ.

وقد أوصى «أرطغرل الغازي» ابنه «عثمان» بتلك الوصية القيمة بضرورة الاهتمام بأولياء الله، وكانت تلك الوصية بمثابة البوصلة الموجهة لـ«عثمان» ذاته ولأرواح كل خلفائه من بعده: "انظر يا بُني! يمكن أن تؤذيني، ولكن لا تؤذ الشيخ «أدبالي» فهو الشمس المعنوية لعشيرتنا ولا يخطئ ميزانه قدر درهم! كن ضدي ولا تكن ضده، فإنك لو كنت ضدي سأحزن وأتأذى، أما لو كنت ضده فإن عينيَّ لن تنظرا إليك، وإن نظرتا فلن ترياك! إن كلماتي ليست من أجل الشيخ «أدبالي» بل هي من أجلك أنت، ولتعتبر مقالتي هذه وصية لك!.."



تعهد الشيخ «أدبالي» بتربية الشاب «عثمان الغازي» الذي كان نشيطاً للغاية، وجعله يتذوق حلاوة معرفة الله، وأوصله بذلك إلى النضوج والإيثار والأخلاق الجميلة. وهو بذلك أعده لرئاسة دولة ستشمل وتحكم العالم كله.

وقد قام الشيخ «أدبالي» بتربية مجموعة الشباب المحيطين بـ«عثمان الغازي»، وكان يدرك أن الشباب هم بذرة المستقبل، وأنه برعاية روح تلك البذرة يُسَهل اكتشاف المستقبل. وشباب كل عصر سيعيش في العالم الذي سينفق فيه طاقته، ولهذا فقد دلَّ على الطريق ووجه طاقة الشباب الموجودة في «عثمان الغازي» ولدى المجموعة المحيطة به، ورباهم ووجههم في أكمل صورة بجهاد النفس ومشاعر الخدمة إلى الدرجة التي ستمكنهم من وضع أسس هذه الدولة العالمية.

ولهذا فإن الشيخ «أدبالي» يعد هو المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية. ولعدم وجود شيخ مثل الشيخ «أدبالي» في الإمارات الأخرى، أزيلت تلك الإمارات عن مسرح التاريخ، ولكن الإمارة العثمانية قد تمكنت من أن تتحول إلى دولة، ومن دولة إلى دولة عالمية في فترة قصيرة. لقد عرّفت الدولة العثمانية العالم بالإسلام لمدة ستة قرون، وقامت بتوزيع العدل والحق، وكانت ميزانًا للحق.

وهذه بعض الوصايا التي قالها الشيخ «أدبالي» في سبيل توجيه واستقامة الغازي «عثمان» ومن سيأتي بعده كرجل دولة:

"يا بُني! أنت سيد قومك؛ ولذا منذ الآن:

لنا الغضب وعليك الحلم

ولنا الامتعاض وعليك أخذ الخاطر

ولنا الإتهام وعليك التحمل

ولنا الخطأ والعجز وعليك التسامح

ولنا النشوز والاشتباك وعدم الوئام وعدم التفاهم وعليك العدل

ولنا النظر السوء والتشاؤم والتأويل على الباطل وعليك العفو والصفح".

"يا بُني! منذ الآن؛

لنا التقسيم وعليك الإكمال

لنا الكسل وعليك الإنذار وعليك التشجيع والتشكيل".

"يا بني! منذ الآن؛

لنا التفرقة والرخاوة، وعليك التوحيد والعزيمة وأن تحفز على العمل".

"يا بني! إن حملك ثقيل وعملك صعب، فليسهل الله عملك، وليبارك إمارتك، ولينفع بك في سبيل الحق، ولينر لك طريقك، وليصل بك إلى أبعد الأماكن، وليمنحك القوة التي ستعينك على حملك، والعقل والقلب اللذين يحفظانك من زلة القدم.

ويجب عليك أنت ورفاقك أن تفتحوا ما وُعدنا به بالسيف، وأن نقوم نحن الدراويش بفتحه بالتفكير والدعاء، ويجب علينا أن نزيل هذه السدود أمام الطريق".

"بُني! أنت قوي وعاقل ومتحدث، ولكن لو لم تعرف كيف تتصرف في هذه الملَكات ومتى تستخدمها، فإنك ستذهب مع رياح الصبا، ولن يكون لك وجود. وبالتالي يتحد غضبك ونفسك، ويهزمان عقلك، ولذا يجب عليك أن تكون دائمًا صبورًا، وصاحب إرادة وثبات".

"إن الصبر مهم للغاية، ويجب على الأمير أن يعرف كيف يصبر، فلن يتفتح الزهر قبل أوانه. والكمثرى النيئة لا تُؤكل، وحتى لو أكلت فإنها تظل باقية في المعدة وهضمها عسير، والسيف دون العلم والمعرفة مثل الكمثرى الغير الناضجة تمامًا".

"ولتحيِ أمّتك في عرفانها، فلا تُدِرْ لها ظهرك، واشعر بوجودها كل وقت، فالعرفان هو الذي يدير المجتمع، وهو الذي يجعله حيًّا".

"بُني! من الناس منْ يولد وقت الشفق ويموت في أذان المغرب. واعلم أن الدنيا ليست كبيرة كما تراها، واعلم أن كل الأسرار التي لم تفتح وكل ما لا تعرفه لن يظهر في ضوء النهار إلا بعَدْلك وفضلك".

"عليك أن تهتم بتعظيم الآباء والأمهات فالبركة مع الكبار، إن تفقد اعتقادك في تلك الدنيا تكن مثل صحراء جرداء بعد الاخضرار".

"كن صريحًا في كلامك، ولا تهتم بكل كلمة تقال. انظر، ولكن لا تتحدث بكل ما رأيته، واعلم ولكن لا تتكلم بكل ما علمته".

"ولا تقل إني رأيت، ولا تقل إني أعلم. زُر غبّاً تزدد حباً".

"ارحم ثلاثةً: عزيزَ قومٍ ذلّ، وغني قومٍ افتقر، وعالمًا بين جُهَّال".

"ولا تنس أن الذين يكونون في أماكن عالية ليسوا في أمان مثل الذين بالأسفل".

"لا تخش من الجدال إذا كنت على حق. فاعلم أن الجيد من الخيل يُقال له «جواد» واعلم أن الجيد من الفتيان يُقال له «مجنون» [المراد من المجنون؛ الرجل الشجاع والجريء]. ولتعلم أن أكبر انتصار هو معرفة النفس. والعدو هو نفسك، أما الصديق فهو من عرف نفسه".

إن الدولة ليست ملكًا مشتركًا يتقاسمه من يديرها مع أبنائه وإخوته، فالدولة خاصة بمنْ يديرها فقط. وعندما يموت، تكون الدولة تحت إدارة من يحل محله أيًّا كان. وأجدادنا قد قسموا دولهم بين أبنائهم وإخوانهم وهم أصحاء، ولهذا لم تتمكن دولهم من البقاء، ولم يتمكنوا هم من المحافظة على دولهم (لقد جعلت تلك النصيحة الدولة العثمانية تعيش ٦٠٠ سنة).

"وإذا جلس الإنسان مرة فإنه لن يتمكن من النهوض مرة أخرى بسهولة. فالمرء لا يزال يجلس حتى يصبح كأنه مخدر فإذا تخدّر بدأ يتحدث عبثاً، وهذا الحديث يتحول إلى الغيبة، وإذا بدأت الغيبة فإن الأمر لن يفلح، ويكون الصديق عدوًّا والعدو سَبعًا متوحشًا".

"واعلم أن قوة الإنسان تنفد في يوم من الأيام، ولكن العلم يحيى. إن نور العلم يسري حتى إلى عيون غامضة وينيرها".

"اذا مات الحيوان يبقى سَرْجُه، وإذا مات الإنسان يبقى أثره. لا تبكِ على منْ راح، بل ابكِ على منْ لم يترك خلفه شيئًا. يجب علينا أن نكمل لمن لم يف



عمره للإكمال. لا أحب الحرب، ولا أفرح بإراقة الدماء، ورغم ذلك أعلم أنه يجب أن يرفع السيف وينزل، إلا أنه يجب أن يُرفع ويُنزل من أجل إقامة الحياة. فضرب الشخص شخصًا آخر بالسيف جناية. ومكانة الأمير ليس أعلى من مكانة الدولة. والحرب لا تتحقق من أجل الأمير فحسب".

"ليس لنا حق في الوقوف أو الاستراحة، لأنه لا يوجد وقت لدينا، والمدة قليلة".

"الوحدة لمن يخاف. والفلّاح الذي يعرف وقت الزرع في أرضه لا يستشير أحدًا ولو بقي وحده. يكفيه أن يعرف حينونة الزرع في الأرض".

"يجب أن يكون الحب أساس الدعوى. إن الحب ينمو في الصمت، ولا يُحب بالصيحة ولا يُحب بمجرد الرؤية".

"إن الذي لا يعرف ماضيه لن يستطيع معرفة مستقبله. يا عثمان! عليك بمعرفة ماضيك جيدًا، لتخطو بقوة وثبات في المستقبل. ولا تنس من أين أتيت، لئلا تنسى إلى أين ستذهب".

كان الشيخ «أدبالي» بأحكامه القيمة تلك يشكل شخصية «عثمان الغازي» وكأنه يشكّل قطعة من العجين في يده. فقد كان الواجب على الشيخ أن يشكّله، ذلك لأنه كان في موقف سياسي صعب، أيتّحد مع الإمارات التي قدمت إليه من كل ناحية لتتحد معه؟ أم يحافظ على التوازن؟ أم يترصد البيزنطيين أوالجَرْمِيَانِيين؟ أم يراقب المغول، أم يحارب أمراء الروم في الأناضول؟

وبهذا كان الشيخ «أدبالي» مرشدًا معنويًّا لـ«عثمان بَكْ» في كل تلك الموضوعات المهمة وما شابهها. وكان يزين بفيض تقواه الطريق التي سيسير عليها.

وبتلك التربية المعنوية العالية جعل «أدبالي» «عثمان» ورعيته يطبقون الأخلاق الإسلامية في أكمل صورة لها في الحياة العملية، وجعلهم بذلك مجتمعًا صالحًا. فبتلك القوة العشائرية الصغيرة العدد تمكنوا من هزيمة جيش بيزنطة وأمراء الروم،

وأسسوا سلطنة عالمية. إن هذه العشيرة التي بدأت بأربعمائة خيمة استطاعت ببركة تلك التربية المعنوية أن تكون مظهرًا لإحسان كبير، وإكرام إلهي عظيم، واستمرت بذلك سلسلة الذكاء الخارق والدهاء لفترة طويلة من الأب إلى الابن. وقد شهد العالم بالعثمانيين مظاهر لا تُحصى من السعادة والعدالة، فقد كانوا بمثابة عنصري التوازن والنظام حيثما حلوا.

كان «عثمان الغازي» هو السبب في إحياء هذا التشكيل الكبير، فلا شك أنَّ له شرفاً كبيراً في كونه أكثر الشخصيات التي تلفت الانتباه في تاريخنا. ولهذا فإن الدولة العثمانية التي هي أكبر دولة في العالم قد تسمَّت باسمه.

❁

كان «عثمان الغازي» الذي تربى تربية معنوية ودينية جيدة، أميرًا صالحًا متدينًا للغاية. وكان يميل إلى الآخرة أكثر من ميله إلى الدنيا. لقد كان يحترز جدًّا من الأشياء التي حرّمها الدين. كانت غايته مقصورة على الجهاد في سبيل الله ﷻ. كان في الواقع شخصية تتصف بالحلم، عذْبَ الكلام. ويُروى أنه لم يغضب طوال عمره قط، إلى جانب هذا كانت لديه القابلية لحسن الإدارة كصاحب سلطة. كان فتى غازيًا لا يعرف التحكم أو التسلط.

والعبارات التالية التي كتبها عنه المؤرخون النصارى ممنْ راعوا حيثية العلم، تدل على أنهم اضطروا إلى التسليم لعثمان الغازي والاعتراف بحقه.

يقول المؤرخ «هَامَّر»:

"لقد كانت الأسس الخاصة بالتشكيلات والأسس في الدولة التي خلفها قوية إلى درجة أن الدولة العثمانية أصبحت أكبر دولة في العالم بعد فترة قصيرة من تأسيسها. ولو افترضنا فرض محال بأنه لو قيل لمنْ كانوا في عهده "إن أحفاد هذا الغازي عثمان سينتصرون على العديد من الدول التي ستخرج عليهم، وإنهم سيخضعون أوروبا، وإنهم سيسيطرون على تلك المناطق على الخريطة"، لَقالوا: "إن

هذا كله خيال وأسطورة". إلا أن هذا الغازي المشهور ومَن كان بجواره من العلماء وأرباب التصوف كانوا يؤمنون بذلك جيدًا، ولهذا كانوا يتحركون ويجاهدون دومًا دون أية راحة من أجل تحقيق هذا الظهور الكبير".

حقيقة إن «عثمان الغازي» ورفقاءه لم ينزلوا من فوق صهوة جيادهم، وكانوا يهرولون من غزو إلى غزو ليلًا ونهارًا، حتى نَمَوا بسرعة وكبروا وزادوا. وكانوا بمثابة الحلم المخيف لبيزنطة، لقد كان الواحد منهم يحارب من السابعة حتى السبعين من أجل نشر صوت الإسلام إلى العالم كله، لدرجة أن الكفار كانوا لا يخرجون من قلاعهم.

ويقول «لامارْتينْ» أيضًا:

"لقد كان الاستعداد الطبيعي لـ «عثمان الغازي» بسيطاً، وصادقاً وعادلاً. وقد حصر ذكاءه وعقله في توحيد الله، وكان يسعى من أجل منع المعتقدات الباطلة وعبادة الأصنام التي كانت ضد وحدانية الله على وجه الأرض. وبالرغم من هذا تعقب سياسة الفاتحين، فكان يبدأ بسياسة التوطين في الأماكن التي فتحها. تقدم «عثمان الغازي» رويدًا رويدًا، ولكنه لم يتقهقر قط".

وبالرغم من أن «عثمان الغازي» كان مشغولًا بإتمام تأسيس دولته إلا أن أكبر هدف لديه كان التقدم صوب القسطنطينية «إستانبول» لينال بشارة النبي ﷺ. ويُعَبِّر «يازِيجي أوغْلو عَلِي» عن هذا في الأبيات التالية:

عثمان أنت ابن أرطغرل

وأنت نسل الأوغوز وقره خان

وأنت عبد عاجز أمام الحق سبحانه

فافتح إستانبول وحوّلها إلى جنة

وإذا ما دققنا في الخريطة في الفتوحات التي قام بها عثمان فسيظهر أمامنا بكل سهولة هذه الغايات التي كانت تحير العقول:

١. رغبته في جعل البحار حدودًا له.

٢. تقدير أوضاع بيزنطة التي كانت تسير في طريق الانهيار، وإحكام الضغط والتضييق عليها من البحرين.[يعنى بالبحرين بحر مرمره والبحر الأسود].

٣. فصل الأراضي الرومية إلى نصفين، وفتح الأجزاء التي انقطعت روابطها بها.

وكما قام «عثمان» نفسه بهذه الجهود، أوصى أولاده من بعده بالسير على نفس الخطى. فذات يوم قبل وفاته جاء وابنه أمام مدينة بورصة التي لم تفتح بعد وأشار إلى قبة كنيسة تلمع من بعيد قائلاً: "لتضعني تحت تلك القبة الفضية."

قضى «عثمان الغازي» حياته كلها في جهاد وغزو مستمرين، وانتهز بشكل جيد فرصة وجود حدود له مع بيزنطة، حيث أكسب هذا الوضع دولته ديناميكية مدهشة، قطع عثمان الغازي مسافة كبيرة في سبيل تحويل إمارته المتواضعة إلى دولة عالمية. كما أنه لم يجعل حروبه أو غزواته وسيلة لتحقيق عظمة شخصيته، ولهذا أطلق على ورثته "سلطان الغزاة".

لقد صنع «عثمان» حقيقة مثالية من شيء كان من المعتقد أنه خيال. وقد قدّره «جِيبُّونْس» قائلاً:

"لَيْسَ «عثمان الغازي» ابن سلطان، وبالرغم من أن أراضيه كانت صغيرة وأتباعه قليلين، إلا أن دولته كانت تكبر سنة بعد سنة بشكل مستمر. وهذا النمو المستمر إنما يدل على شدّة ذكائه، الذي أسس به الدولة، وبالرغم من أن الحكام الأتراك الآخرين أمثال «آتِيلا» و«جنكيز» كانوا أصحاب فتوحات وانتصارات تدهش الأبصار، إلا أنهم كانوا مجرد مُغِيرِين فقط. كما أن إمبراطورياتهم أيضًا كانت عبارة عن فتوحات بلا هدف لا تمثل شيئًا. لأنهم كانوا حكّامًا يتصفون بالجفاء وعدم النموذجية، ينتقلون من مكان إلى مكان، يحرقون ويهدمون وسط دقات الطبول والنفيخ في الأبواق. أما ما تركه «عثمان الغازي»، وما فعله فكان مختلفًا تمامًا. ولهذا فإن كل من كانوا خلفه كانوا دائمًا في الصفوف الأولى في تمثيل الحق وإحقاقه،

وكانت دولتهم بمثابة الدولة الأبدية. وبهذا الحال فإن «عثمان الغازي» لا يمكن أن يُقارَن بأي حال من الأحوال بمنْ سبقوه".

وعند وفاة «عثمان الغازي» وهو الذي عاش حياة تتصف بالتقوى وتتسم بالورع، وجدوا أن ثروته الشخصية التي تركها عبارة عن درع وحذاء، وعدة رايات، وسيف ورمح وقطيع من الخيول وثلاثة قطعان من الأغنام وأمثالها.

رحمة الله عليه!

❁

إن «عثمان الغازي» وأمثاله لم يركنوا إلى الدنيا، ولم يرضخوا لمطالبهم النفسية، ولم تجعلهم قوتهم أو تفوّقهم العقلي والإرادي وانتصاراتهم المفعَمة بالشرف يميلون إلى التكبر أو الغرور.

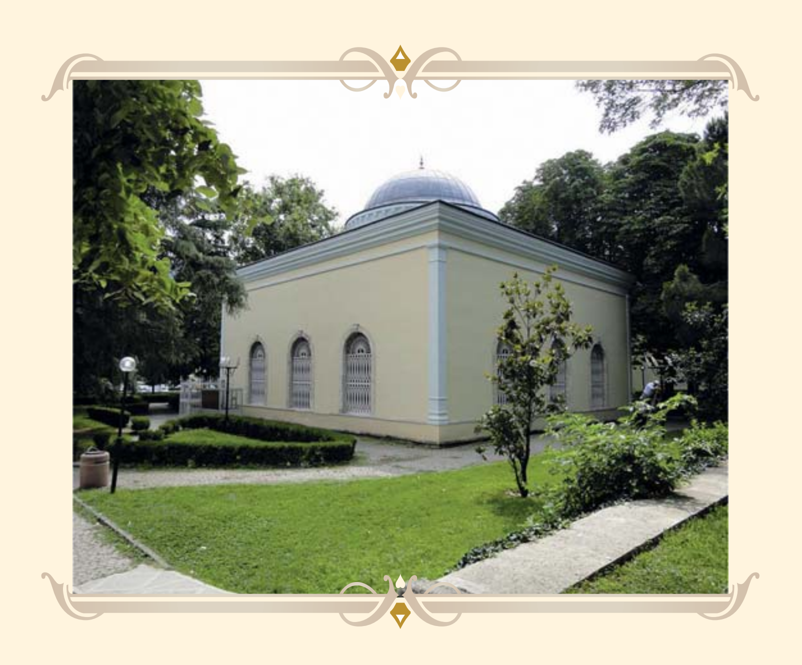
لم ينحنوا أمام مال الدنيا الزائف أو المنصب أو الموقع، ولم يصغّروا أنفسهم بذلك. وحافظوا على حيثية وعزة العمامة، التي يحملونها فوق رؤوسهم. بل كان كل فرد منهم صاحب شرف لدعوة (إعلاء كلمة الله) المعظمة التي حملوها على عاتقهم.

لقد كانت النعم التي نالوها- وهم يدركون أن السعادة الحقيقية تتمثل في العبودية لله وحده- وسيلة إلى زيادة شكرهم لله وإلى حماسهم القلبي وإلى معرفتهم بالله تعالى.

إنهم لم يلقوا بالا إلى النعم الدنيوية، بل كانوا ينفقون كل ما في أيديهم من أجل الآخرة، فلم يُهزَموا قط أمام مخالب الحرص على دعوى الحكم الجافة. ولهذا فإن التاريخ كتب من أجلهم الصفحات المفعَمة بالعزة والشرف.

اللهم أحسن إلينا، نحن الذين أصبحنا غرباء وأيتامًا ومظلومين من بعدهم، بحياة وهزة جديدة في سبيل إعلاء كلمة الله!

آمين!





هو الذي ارتقى إلى الذرى آخذًا إخلاص وإرادة والده،
ورضاء أخيه الأكبر ودعاء الأولياء

السلاطين أورخان الغازي

(١٢٨١-١٣٦٠م)

ثاني سلاطين بني عثمان.

والده «عثمان الغازي»، أما أمه فهي السيدة «مَالْ خاتون» ابنة الشيخ «أدبالي» المؤسس المعنوي للدولة العثمانية.

شارك «الغازي أورخان» وهو في سن الشباب في الغزوات التي خرجت لمحاربة أمراء بيزنطة. وتزوج بالسيدة «نِيلُوفَرْ خاتون» التي أسلمت، وكانت ابنة لأمير «يَارْ حِصَار» البيزنطي الذي أُسر.

تشكلت شخصية «الغازي أورخان» ورجال دولته على التربية المعنوية للشيخ «أدبالي» مثل والده «الغازي عثمان».

فتح «أورخان» «بورصة» عام ١٣٢٦ م، وقد شعر والده «عثمان» الذي كان على فراش الموت بالسعادة الغامرة لهذا الفتح، فأمر بدعوة ابنه أورخان إليه. وبمجرد أن تلقى «أورخان» أمر والده هرع إليه، كان القراء يتلون آيات من القرآن الكريم بأصواتهم الجميلة العذبة من ناحية، ومن ناحية أخرى كان «أورخان» و«أَخِي شمس الدين» و«أَخِي حسن» و«تورجوت آلْبْ» و«صَالْتُوقْ آلْبْ» وبقية الأبطال يجلسون بجوار «عثمان» وأعينهم تفيض بالدمع.

ولما علم «عثمان» أنَّ ابنه «أورخان» قد وصل أشار إليه بيده للجلوس بجواره، بعدها أخبر «عثمان» مَن حوله بأن ابنه أورخان سيتولى الأمر من بعده.

وأمر عثمان أبناءه وقادته أن يطيعوا «أورخان» ويبايعوه. ثم أوصى «عثمان» ابنه «أورخان» بهذه الوصية التي كانت تمثل حجر الأساس للدولة العثمانية:

"يا بُني! هذه وصيتي إليك، لا تفعل سوى ما أمرك الله به. واسألْ أهل العلم عما لا تعرفه وتعلّمْه منهم. ولا تفعل شيئًا لا تعرفه جيدًا. ولا تقصر في الإحسان والإنعام على جنودك، واعلم أن الإنسان عبد الإحسان".

"يا بُني! قدّم أمور الدين على كل شيء، لأن القيام بالفرض، سبب تقوية الدولة والدين. لا تقصر في احترام العلماء، ولا تهمل رعاية حقوقهم، حتى تستقيم أمور الشريعة.

وإذا سمعت بأهل العلم في مكان ما فارغب فيهم، وأظهر لهم الشفقة والإقبال. واحذر من الذين لا يملكون الحمية الدينية، والذين يعيشون حياة السفهاء، ومن ليس عندهم خبرة، واحذرهم ولا تولهم شؤون الدولة، لأن منْ لا يخاف الخالق لا يرحم المخلوق".

"ابتعد عن الظلم وعن البدع، حتى لا يأخذك هذا إلى الانهيار. ولتعلم أن طريقنا هو طريق الله، وهدفنا هو نشر دينه. وأن دعوتنا ليست دعوة الحكم الجافة، بل إن دعوتنا هي إعلاء كلمة الله، إذا كنت دومًا على الجهاد فستسعد روحي".

"يا بُني! إنْ حاد أحد من ذريتي عن الطريق القويم، فليحرمه الله تعالى من شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة".

"يا بُني! كن وفيًّا دائمًا لرجال الدولة الصادقين، الذين يفنون أعمارهم في خدمة الدولة ابتغاء مرضاة الله. وارعهم، وارع أُسرهم بعد وفاتهم".

"وأحْسن وأكْرم واحترم العلماء الصالحين أصحاب الفضيلة الذين يمدون الدولة بالقوى المعنوية. وإذا سمعت بوجود عالم فاضل أو عارف ناضج في بلد ما فادعه إلى بلدتك بالتوقير والاحترام، حتى تستقيم أمور الدولة ببركتهم وهمّتهم!".

"احترس من أن تغتر بجيشك أو ثروتك، وخذ العبرة من حالي هذا، فأنا الآن مثل النملة التي لا قوة لها، وقد أصبحت مظهرًا للكثير من ألطاف الله دون أن أكون أهلا لها".

"سر أنت أيضًا في ذات الطريق الذي سرتُ منه، وارع حقوق الله والعباد. واقتنع بدخلك من بيت المال، ولا تنفق مصروفات زائدة عن الاحتياجات الضرورية للدولة. لتتخذك الأجيال القادمة من بعدك قدوة لهم. لا تظلم، وكن عادلا ومنصفًا على الدوام. الجأ إلى الله في كل عمل، واطلب منه العون والمدد".

وبتلك الكلمات أصبح «أورخان» على رأس الإمارة بتأييد خاص من والده، ولكنه بعد وفاة والده أخذ يدرك مدى خطورة وعظم تلك المسئولية، فقام في أصالة وأدب كبيرين ليقول لأخيه الأكبر «علاء الدين»: "هيَّا اجلس أنت على العرش الذي تركه والدي". إلا أن «علاء الدين» الذي تربى تربية معنوية سامية، لم يوافق على اقتراح أخيه بدعوته إلى العرش، وهو أمر نادر الوجود في التاريخ. وقال لأخيه «أورخان»:

"لا، إن والدنا -جعل الله مثواه الجنة- أودع لك هذه الأمر، وكان دعاؤه وهمته موجهة لك. وكما جعلك قائدًا على الجيش في حياته، فأنت الآن في نفس الوظيفة، والإمارةُ حق لك".

لقد كانت تلك الوصية التي أوصى بها «عثمان» ابنه «أورخان» بمثابة الدستور للدولة العثمانية العالمية لمدة ٦٢٠ عامًا.

وقد طبّق «أورخان» وصية والده هذه بإخلاص كأنها دستور حياتي له. وببركة هذا تمكن «أورخان» من توسعة الأراضي التي تركها له والده ستة أضعافًا، خلال مدة سلطنته التي استمرت ٣٠ عامًا. بلغت أراضي الدولة ٩٥ ألف كم٢ بعد أن كانت ١٦ ألف كم٢ في عهد والده.

ومن ناحية أخرى كانت أول حرب مباشرة بين سلطان عثماني وبين الإمبراطور البيزنطي قد تمت في عهده، وقد انهزم الإمبراطور البيزنطي بشكل واضح. فأصبحت بيزنطة بعد تلك المعركة المسماة «بَالاقَا نُونْ» ضعيفة بشكل واضح، ولا تستطيع المقاومة في الأراضي التي خرجت من يدها. وفتح طريق الفتوحات العثمانية صوب الغرب.

❁

لقد ورث «أورخان» إخلاص وإرادة والده، ورضاء أخيه الأكبر، ودعاء الأولياء. وبذلك أصبح شخصية نموذجية مستثناة لكل السلاطين الذين أتوا من بعده. أو باختصار يمكن القول بأن الإنسان النموذجي كان مشخصًا في شخصية أورخان. فإنَّ قيامه بنفسه بإشعال مصابيح الجامع الذي بناه ضمن كليته المسماة بـ «أورخانية» في مدينة بورصة وتوزيعه الطعام على الفقراء في المطعم الخيري ضمن تلك الكلية وخدمته إياهم إنما هي نموذج واضح لتلك الشخصية المثالية. فإنَّ خطواته التي خطاها بتلك الأعمال الصالحة قد شكلت الأرضية لآلاف الأوقاف التي أُقِيمَت من بعده في الدولة العثمانية.

كان «أورخان» متدينًا للغاية، وارتباطه بالأوامر الإلهية كان من أكبر واجباته. كما كان يحب أهل العلم والعرفان، وحُفاظ القرآن حبًا جمًا. لقد كان «الغازي أورخان» كريمًا على أرباب الفنون والفقراء، يحترم المجاهدين، ويأمر ببناء المنازل لهم، ويهتم

برواتبهم. وكان يقدر العلماء، لقد كان غازيًا ذا رأي صائب وفكر متقدم، عادلا وشجاعًا ومحاربًا. كان صاحب صفات سامية لا توجد في الحكام إلا نادرًا.

يقول عنه الرحالة المسلم «ابن بطوطة»:

"لقد كان أعظم ملوك التركمان في عهده، وكان له ما يقرب من ١٠٠ قلعة".

وقد افتتحت أول مدرسة عثمانية في «إزنيك» في عهده، وعيّن «داود القيصرى» أكبر علماء الظاهر والباطن في عهده مدرسًا في تلك المدرسة. وقد شرح «داود» هذا كتاب «فصوص الحكم» لـ «محيي الدين ابن عربي»، فأصبح هذا الكتاب بمثابة الأرضية التي ساعدت على نشر الفكر الصوفي في الأراضي العثمانية.

وبينما كان «أورخان» ينفذ وصية والده، أمر بتأسيس الزوايا والتكايا في كل أرجاء الدولة لتأمين النضج المعنوي لدى الأهالي. ومن مشاهير الدراويش في عهده «كَيكْلِي بابا» و«الدرويش مراد». وقد كانت شجرة الدُلب التي غرسها «كَيكْلِي بابا» رمزًا على عظمة الدولة العثمانية فيما بعد.

والحادثة على ما يلي:

كان «كَيكْلِي بابا» يعيش في «أُولُو دَاغْ»، ولما سمع «أورخان» بشهرته دعاه للحضور إليه، إلا أنه رفض الحضور إلى «أورخان» وقال:

"وهو أيضًا لا يأتِ إليّ!".

ولما سمع «أورخان» هذا الرد تحير وسأل عن السبب فكان الجواب كالتالي:

"إن الدراويش أهل بصيرة، وأهل قلب، ومن الضروري أن يكون تصرفهم في موضعه، ولو انحرفوا عن الاستقامة لن يقبل دعاؤهم. أما أنت يا سلطاني فإنك مؤتمن على الأمة، وعلى هذا فأنتم جنود الحدود، ونحن جنود الدعاء. والانتصارات تأتي بالجهود المشتركة بين أهل الدعاء وأهل القتال، وكما أن جنود الحدود عليهم التجهز بالشجاعة وعلم فنون الحرب لكي ينالوا التوفيق والانتصارات، فإن جنود

الدعاء أيضًا عليهم التسلح بالبعد عن الدنيا وعن محبتها. وأنا أخشى أن يدخل حب الدنيا في قلوب دراويشنا ويقلل من حب الآخرة بالهدايا المحتمل أن تعطوها لنا عند قدومي إليكم، وبذلك يكون الضرر قد لحق بي وبك. ولكن يا سلطاني عليك أن تعرف أنه حينما يأتي وقت لقائنا فإن الله سييسر ذلك بمشيئته".

وبعدها بفترة حضر «كَيكْلِي بابا» إلى «بورصة»، وغرس بيده شجرة دُلب في ساحة منزل أورخان. وأخبروا السلطان بالأمر، فحضر «أورخان» على الفور إلى ذلك المكان، فقال له «كَيكْلِي بابا»:

"لقد غرسناها تبركًا، وسيكون دعاء المتصوفة لك ولنسلك طالما بقيت واقفة".

رغم أنَّ «كَيكْلِي بابا» كان قد أعلم موقفه أمام الهدايا والعطايا، إلا أن «أورخان الغازي» اقترح على الشيخ أن يمنحه «إيـــنَه كُولْ» وما حولها كعطية له ولكنه رفض قبولها وقال:

"إن الملك لله، يهبه لأهله، ونحن لسنا أهله".

فأصرّ «أورخان» على ذلك، فخشي الشيخ أن يُفهم رفضه على أنه تكبر، فقال:"لتكن كل تلك الأراضي الواقعة من الهضبة وحتى ما خلفها ساحة للدراويش".

لم يقصر «أورخان الغازي» الذي مزج روح الدولة بهمة الأولياء في إظهار الاحترام لأهل الله. وعندما قبل «كَيكْلِي بابا» إكرام «أورخان»، انكب «أورخان» على يديه من السعادة وظل يقـــبّـــلهما.

لقد كان هذا هو السر والقوة والعظمة الراقدة في أسس هذه الإمبراطورية الكبيرة. لم يكن انكباب سلطان عظيم كهذا ينحني أمامه جيوش العالم وتأتمر بأمره، وتقبيله يديه بدموع السرور بالحادثة البسيطة، بل كان في الحقيقة أساسًا معنويًّا وساميًا لفتوحات كبيرة. ويشهد التاريخ على أن تعظيم السلاطين العثمانيين لأولياء الله كان من الأسباب الرئيسية للتأييد الإلهي لهم.

وقد حاز «أورخان الغازي» الذي أدرك هذه الحقيقة على دعاء الشيخ «كَيِكْلِي بابا» بتأسيس مسجد وقبر للشيخ بعد وفاته.

❁

ومن كبار هذا العصر أيضًا «الحاج محمد بابا السماسي» من سلسلة النقشبندية والشيخ «أدبالي» و«الحاج بَكْتَاشْ ولي» فقد أدركوا جميعًا عهد «عثمان» وعهد ابنه «أورخان».

لقد كان عهد «أورخان» عهدًا تكثفت فيه الخميرة العُلوية التي ستحمل في داخلها القوة والعظمة لمستقبل الدولة العثمانية. لقد كان هذا العهد يشكل صفحة الاستعداد للحملات الكبرى والجديدة، التي ستتم في المستقبل. وهذا التركيب الفريد الذي يجمع بين الإيمان والقوة، والذي لا يمكن الحصول عليه بسهولة، تحقق بشكل ثابت وماهر بالأيدي المباركة لكبار رجال القوة المعنوية. ولهذا فإن «أورخان» هو الشخصية التي استطاعت أن تُضفي على الإمارة خاصية كونها دولة بالمعنى الحقيقي للدولة.

سار «أورخان» على نفس نهج والده في غزو الكفار أكثر من التعامل مع القوى الموجودة في الأناضول. فقد وضع «أورخان» إستانبول وما خلفها نصب عينيه، ولهذا أطلق عليه لقب "مرزبان الآفاق" [بمعنى محافظ الآفاق]. ويروى أنه لم يستقر في مكان واحد شهرًا كاملًا، بل كان في حالة جهاد دائم ومستمر لإعلاء كلمة الله. وكان يفضل أن تتجلى الفتوحات الأصلية في القلوب، وكان يقول في سبيل ذلك "المروءة أفضل من الجهاد".

ولهذا فإن الفتوحات الظاهرية التي صنعها بالسيف نتيجة للحملات القوية والسياسة الذكية، أصبحت أبدية بالفتوحات القلبية. فكان أهل القلب والأولياء والصالحون هم أول منْ يسكنهم «أورخان» في الأراضي المفتوحة حديثًا؛ حيث كان يدرك أن طرز حياتهم سيكون وسيلة لهداية الأهالي.

لقد كان هذا الجيش من الأولياء يُنقش ثراء قلبه على قلوب البشر بقدر ما ينقش على أحجار وتراب البلدان المفتوحة حديثًا. ولهذا فإن كل الأفراد في الدولة، بدءًا بالأهالي وحتى رجال السلطة، كانوا يسعون لبناء مؤسسات الخدمة من أجل أن ينالوا الرضاء الإلهي.

لقد كان النصارى المحليون الذين يعيشون في تلك الأراضي التي يفتحها العثمانيون حديثًا يتحيرون من طرز معيشة الأهالي العثمانيين ومن أخلاقهم، ومن مشاعر الرحمة والشفقة التي لديهم. وهذا الوضع كان يعمل على تسهيل نشر الإسلام بين هؤلاء النصارى، حتى إنَّ المعاملة التي تعامل بها «أورخان» مع أهالي «إزنيك» بعد فتحها جعلتهم مسرورين. ولهذا لم تقع حوادث هجرة من البلدة، وعاش كل فرد منهم في سعادة.

وكانت المدن النصرانية الأخرى التي تسمع بهذه الرحمة وهذا العدل العثماني، كانت تتمنى أن يأتي العثمانيون ويفتحوا بلدتهم. فبدؤوا يكتبون الرسائل السرية إلى إدارة الدولة العثمانية وذلك لأن الأمراء البيزنطيين الذين كانوا يحكمونهم كانوا يعاملونهم بالجفاء والظلم، حتى لم يعد عند أحد من الأهالي طاقة على تحمل ذلك. فإن أهل الأمراء البيزنطيين أيضاً سئموا من نكالهم وظلمهم. وقد فتحت قلعة «آيْدُوسْ» على يد «الغازي عبد الرحمن» بفضل الخطة التي وضعتها ابنة الأمير البيزنطي بنفسها.

إن «أورخان» يعد من أعظم الحكام العثمانيين، لأنه سار على نهج والده، ولأنه أوجد هذا الكيان العظيم للدولة. إن التخطيط السياسي والعسكري والاقتصادي الذي قام به «أورخان» لا يجعله في صفوف حكام العصور الوسطى فقط، بل يجعله من كبار مؤسسي الدول في العصور الحديثة.

لقد كان كل عمل له يتم بدقة، وكل تصرف يحدث بانتظام. لقد كان غازيًا يعرف كيف يصل إلى غايته؛ خطوة خطوة، بحذر وثبات. لقد استمر «أورخان»

في العمل على التوحيد السياسي في الأناضول بمهارة عالية مثل أبيه. وذلك نتيجة جاذبيةِ راية الفتح التي رفعها، وعدالته في الملك، وبركة خدمته بالإخلاص للدين المبين. هذا وإلى جانب اقتراح أهل الكفر بأن يفتح «أورخان» بلدانهم، كان هناك يوجد العديد من الشخصيات الممتازة، التي كانت تتحرك بروح الوحدة الإسلامية منذ تأسيس الإمارات في الأناضول بعد انهيار دولة السلاجقة تلك الشخصيات الممتازة انضمت طواعية للدولة العثمانية من أجل الوحدة الإسلامية.

إن هذه الدولة التي استندت في أساسها على تقدير القرآن الكريم واحترامه، بعدما حصلت على الأمانات المقدسة حافظت عليها أيضاً باحترام لم يسبق له مثيل.

وببركة هذين الاحترامين حكمت الدولة العثمانية بالعزة والشرف لمدة ستمائة عام ونيف، وأُطلق عليها لقب (الدولة الأبدية).

وكانت الغاية الأساسية لتلك الدولة العالمية العظيمة «إعلاء كلمة الله ﷻ» و«انتظام أمور العالم». لقد شرّفت الدولة العثمانية العالم بسرور وطمأنينة القرآن، وبذلك أوجدت عهدًا من العدالة والطمأنينة لم يشهد التاريخ مثله.

لقد جعل حب الجهاد والغزو بروحانية وفيض المرشدين الكاملين في الدولة العثمانية، رايةَ الهداية ترفرف أمام العالم كله. فظهرت التكايا، التي كانت مراكز للتربية المعنوية للتصوف، وكانت تلك التكايا تعمل على تربية الأهالي، وكانت في معظمها قائمة بالأوقاف التي أسسها الأفراد وأسستها الدولة. لقد أصبحت رقة القلب والإيثار وحب الغير بمثابة الطبيعة الأصلية في الأهالي. فإنَّ الرجال الذين تخطَّوْا عقبة النفس بخدماتهم الإرشادية والمعنوية كانوا ينثرون الفيض في كل ناحية وكأنها أمطار ربيع مباركة هطلت من أجل الدولة، وذلك لأن القلوب لا تفنى في التراب بل الجسد هو الذي يفنى.

فكان الخلود يُكتب لتلك المؤسسات التي كانت تعبيرًا عن تلك القلوب السامية. فقد أسِّسَ المساجد والمكتبات والمدارس والمطاعم الخيرية في الأماكن

التي تم فتحها آنذاك. فكان الفقه الإسلامي يطبق مع مراعاة الأسس الشرعية في الشؤون القضائية وفي شؤون الدولة.

أما بالنسبة للرفاهية الاقتصادية فيمكن القول بأنها كانت مرتفعة للغاية، ويقول «نِيشَانْجِي محمد باشا» عن ذلك:

"لقد زال الفقر والعجز والضرورة عن جميع الناس، وكان الأثرياء من المؤمنين يجدون صعوبة في العثور على فقراء يعطونهم الصدقات والزكاة الواجبة عليهم".

أو بتعبير آخر يمكن القول بأن الدولة العثمانية أصبحت دولة عالمية أسطورية بالجهود، التي قام بها الشيخ «أدبالي» ومن معه من المؤسسين المعنويين. وقد تحققت عظمتها في المادة وفي المعنى.

لقد اكتسبت الدولة العثمانية في فترة قصيرة القوة والعظمة، لدرجة أن «السلطان أورخان» كان يتدخل في شؤون بيزنطة، وكان يستطيع خلع إمبراطور وإقعاد آخر مكانه على العرش البيزنطي. وقد عَبَرَ ابنه «سليمان باشا»[1] إلى الروملي، وطبّق هناك خطة استقرار قوية بشعلة الإيمان، وقد عبّر «الشيخ محمود» عن هذا بالبيت التالي:

لقد أظهرتَ للناس كرامة ووضعتَ السجادة على الماء

وأخذتَ أطواق الروملي بيد التقوى...

حمل «أورخان» بعناية ورعاية كبيرتين الأمانة التي تركها له والده «عثمان» ولكنه – أي أورخان– مرض بعد وفاة ابنه «سليمان باشا» في حادث، فجعل ابنه الآخر «مراد بَكْ» وليًّا للعهد، ونصحه بالنصائح التالية:

---

١. إن الأمير سليمان هو أول شخصية في تاريخنا تلقب بلقب «الباشا»، وفي اللغة التركية القديمة كان لفظ «الأغا» يطلق على الأخ الأكبر، وقد اشتقت كلمة «أغَا بَكْ» منها، وإن كان الأخوة الكبار عددهم كبير فيطلق على كبيرهم حينئذ « بَاشْ أغا»، -يعني السيد الرئيس- وقد اشتقت كلمة « باشا» من هنا أيضًا، ويقع قبر الأمير سليمان فاتح الروملي في « بُولايِرْ»، رحمة الله عليه.

"يابُني! لا تغتر بقوة السلطنة. ولا تنس أن الدنيا لم تبق لأحد حتى لسيدنا سليمان (النبي عليه السلام)، وكانت عاقبة عرشه الخراب، إذ كل سلطنة في الدنيا فانية ولكِنَّ الحياة التي نعيشها فرصة كبيرة لنا. ولهذا فإن الواجب علينا أن نقيّم تلك الإمكانيات بشكل طيب حتى نتمكن من الخدمة في سبيل الله عز وجل ونكون أهلاً لشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم".

"لو نظرت إلى الدنيا بمقياس الآخرة، فسترى أنها لا تستحق أن تضحي بها السعادة الأبدية في الآخرة".

"يا بُني! إن النصارى في الروملي لن يرتاحوا لنا بل يسعون للقضاء علينا فسِرْ أنت إليهم، فإما أن تفتح القسطنطينية أو أن تعدها للفتح. واسْعَ إلى أن تتعايش بالسلم مع الإمارات في الأناضول، فلو رغب الأهالي فينا فإن الأمراء لن يرغبوا في التخلي عن إماراتهم. فلنترك الأمراء وأهاليهم فترة من الزمان يستمرون في حياتهم، وهم سيسقطون بأنفسهم فيما بعد، وكأنهم حبات ثمار ناضجة. وإن لم تظهر مشكلة في الأناضول فإنك ستتمكن من حل شؤون الروملي بسهولة، ولهذا اعمل دائمًا على ألا تخل بالأمن والسكون في الأناضول. وبفضل تلك السياسة تمكن والدي «عثمان» -جعل الله الجنة مثواه- من أن يجعل حفنة الأراضي «دُومَانِيجْ» و«سُوغُوتْ» إمارةً قوية في فترة قصيرة. ونحن بإذن الله قد حولنا الإمارة دولة، وأنت ستفعل بها ما هو أكثر من ذلك بإذن الله عز وجل".

"إن الحكم في قارتين فقط لا يكفي للدولة العثمانية. لأن إعلاء كلمة الله عز وجل دعوى كبيرة وعظيمة بالدرجة التي لا تسعها قارتان فقط! وكما أننا ورثنا السلاجقة فإننا ورثة لروما أيضاً".

"يا بُني! لا تبتعد عن أحكام القرآن، فاحكم بالعدل، وارع المجاهدين، وأطعم الفقراء، واعرف شرف خدمة رجال الدين، ولا تتأخر عن معاقبة الظالمين، وأسوأ عدل هو الذي يتأخر، وفي النهاية حتى لو كان الحكم مصيبًا فإن العدل المتأخر حينئذ يكون نوعًا من الظلم".

"يا بُني! لقد وصلنا نحن في نهاية الطريق. أما أنت ففي أوله، وليبارك الله سلطنتك".

وقد حوّل «صولاق زاده» هذه النصيحة إلى أشعار فقال:

احترس أن تغتر بهذه الدنيا الفانية
ولا تبتعد عن طريق الشرع
لأنك وجدت الاستقلال في السلطنة
فاحكم بالعدل دومًا في البلد
لتكن مدار نظام العالم يا بُني
ولتكن مستقرًّا على سرير السلطنة



تُوفي «أورخان الغازي» الذي كان سلطانًا لا مثيل له، وسجل اسمه في الصفحات الذهبية للتاريخ بشخصيته وحاله في عام ١٣٥٩م، وقد دُفن في ضريحه المسمى «كُمُوشْلُو كُومْبَتْ» في «بورصة». رحمة الله عليه!..

وحتى نستطيع أن نصل في تلك الأيام التي نعيشها، والتي أصبح معظم الناس فيها عبيدًا للقوة وسلطة النفس، وحتى نصل إلى تلك المرتبة للقلوب الممتلئة بالوجد والإيمان وحب الغير لهؤلاء الأناس أمثال «أورخان الغازي» صاحب صفة الإيثار، يجب علينا أن نجد من جديد رؤساء أمثال هؤلاء الخالدين.

ولهذا فإننا مضطرون لأن نسمعهم ونفهمهم، وأن نأخذ نصيبًا من بنية قلوبهم. علينا أن ننير ظلمة أرواحنا بالأنوار المعنوية، وأن نتمسك بهذا البناء الأخلاقي المتين القديم الذي نشتاق إليه اليوم.

يا رب! امنحنا نصيبًا من إقليم قلوب هؤلاء الذين كانوا يؤثرون الآخرين على أنفسهم، واجعل لنا نصيبًا من تربية أناس خالدين أمثالهم من جديد، فنملأ القرون التالية بعدالة الإسلام السامية! آمين!..





سلطان الغزاة والشهداء مراد خان الأول (خُدَاوَنْدِكَارْ)
من الشخصيات النادرة في التاريخ.

السلاطين مراد خان الأول

(١٣٢٦-١٣٨٩م)

ثالث سلاطين بني عثمان.

أمه السيدة «نِيلُوفَرْ خَاتُونْ» وقد شهدت السنة التي ولد فيها وفاة جده «عثمان» وفتح «بورصة»[١].

تربى «مراد خان الأول» على يد خيرة علماء عصره في علوم الظاهر والباطن. عُين وليًّا للعهد بوفاة أخيه الأكبر «سليمان بك» وبعدها بفترة قصيرة تُوفي والده فدُعي

١. تصادف وقت فتح عثمان الغازي لـ «قَـرَه جَه حِصَارْ» مع وقت ولادة أورخان ابنه، وقد تصادف فتح بورصة مع ولادة السلطان مراد الأول أيضاً، وكان هذا توافقًا غريبًا، كما كانت ولادة مراد الأول تتوافق مع وفاة عثمان الغازي وجلوس أورخان، وولادة يِلْدِرِيمْ تتوافق مع وفاة أورخان وجلوس مراد. وتولي المصادر العثمانية أهمية كبيرة لهذا التوافق.



إلى «بورصة» وجلس على العرش العثماني، ولقب بلقب «خُدَاوَنْدِكَار» أو «الغازي خُنْكَارْ».

كان مراد الأول يمتلك الصفات المميزة اللازم تواجدها في رجل الدولة، إلى جانب هذا كان صاحب عمق قلبي. وبسبب هذا العمق القلبي وصل إلى أعلى المقامات ومنها الولاية ومشيخة الآخية، والشهادة.

وبعد أن قام مراد الأول بتأمين الأمن والطمأنينة والسكون في الأناضول في فترة قصيرة تَوَجَّهَ صوب الروملي حيث انتشرت الفتوحات الإسلامية في عهده إلى أوربا. فقد أصدر قانون الخُمُس، لأن خمس الغنائم التي تأتي من الجهاد من حق الدولة طبقًا للفقه الإسلامي. وأسس بشكل كامل المؤسسات العثمانية في الأماكن التي فتحت بالإسلام. ولم يكن بها شخص جائع أو عريان، فالكل غنيًّا كان أو فقيرًا مسلمًا أو غير مسلم كان يعيش في طمأنينة وسعادة.



وبينما كانت كل تلك الحملات الإسلامية العثمانية الرائعة مستمرة، قامت الدول المسيحية الأوروبية بتجهيز حملة صليبية تتكون من ٦٠ - ١٠٠ ألف جندي، وذلك لأنها خافت من أن تقوم الفتوحات العثمانية في الغرب باكتساحها. ولما علم مراد الأول بهذا أرسل سرية مكونة من أربعة آلاف مقاتل بقيادة الحاج «إِلْ بَكْ» بهدف الاستطلاع، وكان الجيش الصليبي قد تمكن من عبور نهر «مَرِيجْ» دون أن يجد أية مقاومة، وظن أنه انتصر انتصارًا كبيرًا، فأكل أفراد الجيش وشربوا حتى ناموا وهم سكارى، فانتهز الحاج «إِلْ بَكْ» هذه الفرصة وهجم عليهم ليلًا من ثلاث جهات. وهذا جعل الجيش الصليبي يتخبط يمينًا ويسارًا، وتعرض في النهاية لهزيمة منكرة على يد أربعة الآف جندي. حتى إنه في أثناء هروبهم ليلًا كانوا يتخبطون بعضهم في بعض ويقتلون بعضهم بعضًا، ومن نجا منهم غرق أثناء عبور نهر «مَرِيجْ»، وما نجا إلاّ القليل، وبحلول الفجر كانت فئة الكفار قد هلكت كلها، وعُرف هذا الانتصار في التاريخ باسم «صِرْبْ صِنْدِيغِي».

لقد اندهش المسيحيون من هذا الانتصار، أما العثمانيون فقد نقلوا عاصمتهم بعده إلى «أدِرْنَة»، وتم تأسيس المساجد والمدارس والعديد من المؤسسات الخيرية والثقافية فيها. وبذلك أصبحت «أدِرْنَه» مركزًا من مراكز الحضارة، ولما فتحت تلك الأماكن الجديدة بالإسلام أخذ المسلمون الموجودون بالأناضول في الانتقال صوب تلك الأراضي الجديدة ليعيشوا فيها، وعرضوا هناك الشكل السامي للحياة الإسلامية، وكانوا بحق نموذجًا فريدًا للأخلاق والفضيلة. وكانت الإدارة العادلة للدولة والمؤسسات الخيرية التي تم تأسيسها هناك قد شَكَّلت نوعًا من السعادة والرضاء في كل مكان. وتوسعت حدود الدولة حتى وصلت أوروبا، وبذلك حان وقت القضاء على الصِّرْب الذين كانوا يمثلون رأس الفتنة في أوروبا.



لقد تقابلت الجيوش العثمانية مع القوات الصليبية المتحالفة في ساحة «قُوصُووَاه» الواقعة جنوب غرب «بِـرِيشْتِينَا». كان الجيش الصليبي به ما يقرب من ١٥٠ ألف جندي، أما الجيش العثماني فكان ٦٠ ألفًا فقط.

ومع الشفق بدأ الجيش العثماني يتخذ وضعية الحرب، أخذ مراد خان مكانه في المركز، أما الميمنة فكان يقودها «الأمير بايزيد» والميسرة يقودها الأمير «يعقوب جلبي». لقد كان الأب وأبناؤه يمثلون الروح الواحدة والقلب الواحد. فقد كانوا جميعًا يعيشون حماس الاستعداد للغزو والشهادة في سبيل الله. وكأن ريحًا قادمة من الصحابة الكرام تقول على لسان حالها:

"فداك أبي وأمي وروحي يا رسول الله!"

وكانت تموج فوق ساحة «قُوصُو وَاه» الواقعة وسط أوربا. وإن «السلطان مراد خان» الذي قد تنشّق من هذه الرياح السامية كان سيستشهد في نهاية تلك المعركة؛ وكان سيعيش إلى يوم القيامة كرمز على الغيرة والوجد والإيمان الكامنة في أساس هذا الانتصار الأسطوري الذي سيتحقق.

لما دخل «السلطان مراد» وادي «قُوصُو وَاه» في ٨ أغسطس ١٣٨٩ م استقبلته عاصفة من الضباب والغبار؛ كانت عاصفة مدهشة لدرجة أنها لا ترى العين شيئا. لقد كانت تلك الليلة ليلة البراءة، وبعد أن صلى «مراد خان» ركعتين، أخذ يدعو وعيناه تفيضان بالدمع قائلاً:

"يا رب إن كانت تلك العاصفة قد هبت بذنوب عبدك «مراد» فلا تعاقب جنودي بها!.."

"يا رب ما أتوا إلى هنا إلاّ من أجل إعلاء كلمتك وتبليغ الإسلام!.. يا رب إنك لم تحرمني من النصر حتى الآن، ودائمًا ما كنتَ تقبل دعائي، وأنا ألجأ إليك الآن فاقبل دعائي! وأغثنا غيثا، حتى تزول عنا سحابة الغبار تلك، ونتمكن من رؤية جنود الكفار ونحاربهم وجهًا لوجه!.."

" إلهي إن الملك لك، و هذا العبد لك، وأنا عبدك العاجز، وأنت تعلم ما أسر وما أعلن، وتعلم أن هدفي ليس المال أو الملك. بل هدفي هو رضاك فحسب! يا رب، لا تهزم تلك الفئة المؤمنة على يد الكفار وتهلكها على أيديهم! اللهم فالطف عليهم بنصر من عندك، ليكون عيدًا عند كل المسلمين! وإن شئتَ جعلت عبدك «مراد» فداء في يوم العيد هذا!.."

" إلهي! لا تجعلني سببًا في هلاك جنودك المسلمين، اللهم أمدهم بمددك وامنحهم النصر! وأنا أجعل روحي فداء لهم، يكفيني أن تقبلني في زمرة الشهداء!.. فأنا أرضى أن أسلم الروح من أجل جنود الإسلام والمؤمنين، لقد جعلتني غازيًا فالطف عليّ بكرمك واقبلني شهيدًا. آمين!!".

وبعد هذه المناجاة التي تمت في إطار العبادة بدأ السلطان في قراءة القرآن الكريم بخشوع، وبعد فترة قصيرة انقشعت السحب بفضل الله ﷻ، وتوقفت الريح، وانتهى الغبار والضباب ولما توقفت الرياح، وهطل المطر شعر الجيش العثماني كله بالفرح، فسجد «مراد خان» سجدة شكر لله ﷻ، واختلطت دموع الفرح بماء المطر.

وقبل بدء المعركة خطب «مراد خان» في جنوده تلك الخطبة التاريخية:

"أيها الأبطال! إن اليوم يوم الغيرة، ووقت إبراز الحمية، ووقت الشجاعة. إن الوطن يفتخر بكم منذ سنوات، والآن تنتظر منكم نجاحات وانتصارات كبيرة ستؤيد ماضيكم الممتلئ بالشرف والعزة والذي نشرتموه على العالم كله. وهذه رايتنا راية العزة سترفرف بإذن الله ﷻ بالنصر على ميدان «قُوصُو وَاه» الذي يهتز من مهابتكم، وستدخل إلى أواسط بلاد «المَجَرْ» ولن تتمكن قوة من قوى الأعداء من إيقافها. إن النصر المشرف الذي سنكسبه اليوم يكون سببًا بإذن الله في إعلاء كلمة الله في كل أوروبا. ومهما طال عمر الإنسان فلن يكون أبديًّا، والبقاء لله فقط، وهذا الميدان هو ميدان الجلادة والشرف ينتظر من يريد أن يعلي كلمة الله ويلحق بالجنة.

أيها المجاهدون! اهجموا معي صائحين باسم: الله!."

وبهذه الكلمات أخذت طبول الحرب تقرع بين أصوات الغزاة يرددون الله الله، وبدأ الهجوم على صفوف الأعداء، بدأ القتال في صباح يوم الثامن من أغسطس عام ١٣٨٩ م، واستمر ٨ ساعات، تمكن الجيش العثماني من القضاء خلالها على الجيش الصليبي كلية.

وبعد انتهاء المعركة وتأكد السلطان «مراد خان» من النصر، بدأ يتجول في ساحة المعركة، وعندما كان يقابل شهيدًا كان يقول: "**إنا لله وإنا إليه راجعون**" (البقرة، ١٥٦)

وإذا ما قابل جريحًا كان يهون عليه ويمسحه برفق، ويسأله إذا ما كان يحتاج شيئًا أم لا. وفي تلك الأثناء نهض جندي صربي جريح من بين الأموات وقال:

"دعوني، فأنا سأعتنق الإسلام وسأقبّل يد السلطان، ولكم عندي بشارة لقد قُبض على الملك «لَيَانْ»، وسيقتادونه إليكم".

وبينما كان حراس «السلطان مراد» ينظرون حولهم ليروا هذا الملك الأسير، الذي تحدث عنه الجندي، إذا بالجندي الذي ادعى أنه جريح يقوم ليقبل يد السلطان، فيخرج خنجرًا، ويطعن السلطان في صدره في لمح البصر، ذُهِل الحراس وقاموا على

الفور بتمزيق الجندي. وبهذا قبل الله تعالى دعاء «مراد خان». لأنه قبل المعركة كان قد سأل الله الشهادة.

وقبل أن يستشهد السلطان قال هذه الكلمات المشهورة في التاريخ:

"لقد دعوت الله بأن يسقيني من كأس الشهادة إذا كان فيه نصر الإسلام، والحمد لله أنه استجاب دعائي، وجعل آخر حياتي أن رأيت نصر جنود الإسلام! أستودع الله إياكم ودولتي وجنودي المنصورين".

وبعد تلك الكلمات تخطب نعشه المطهر بدماء الشهادة المباركة، وارتحل السلطان إلى الرحلة الأبدية!..

وقد نظم الشاعر «أحمدي» البيت التالي في التعبير عن هذه المرتبة السامية، التي وصل إليها السلطان «مراد خان»:

اطلب المدد المعنوي من روحه،

لتنال أنت أيضًا فتحًا كالذي ناله...

وقد دُفنت الأجزاء التي تمزقت بالخنجر في المكان الذي استشهد فيه السلطان وبُني عليها قبر، أما باقي الجسد فنقل إلى «بورصة» فدُفن إلى جوار الكلية والجامع، الذي أسسه السلطان في منطقة «جَاكِيرْجَه» في «بورصة» وبُني فيها ضريح ثان.

وأصبح هذا المكان الذي دُفنت فيه هذه الأجزاء من السلطان مراد في «قُوصُووَاه» معروفًا باسم (مشهد الخُدَاوَنْدِكَارْ). ولأن المشهد اسم مكان فقد أطلقوا اسم مشهد الخُدَاوَنْدِكَار على المكان، الذي اُستشهد فيه السلطان مراد. ويعد هذا المكان مقدسًا عند الأهالي هناك، لدرجة أن الدولة العثمانية أمرت بإعداد مادة خاصة بهذا المكان في الاتفاقية، التي وقّعتها عند انسحابها من البلقان.

وكان أستاذي المرحوم «علي يعقوب أفندي» من أهالي «قُوصُووَاه» ومن أصل ألباني يحب العثمانيين جدًّا، ويذكرهم دائمًا بالرحمة ويقول:

"كيف لا أحب العثمانيين، ولولا قدومهم إلى هناك لعشنا في ظلمات الكفر إلى يومنا هذا، لقد امتزج حب الدين بالعثمانيين في بلادي، لقد كان لفظ الإسلام مرادفًا لكلمة العثمانيين لدرجة أنه في بعض الأحيان كان الأهالى يسألون "كم شرطًا للعثمانيين؟" ويقصدون "كم شرطًا للإسلام؟" وأنا لو قرأت كل يوم ختمة شريفة، ولو دعوت الله ﷻ في كل نفس بالرحمة لهذه الأمة، فلن أستطيع أن أوفي العثمانيين حقهم!.. اللهم ارحم الجميع".

❁

كان السلطان «مراد خان الأول» محبوبًا جدًّا من الأهالي ومن الجنود، وكان يلقّب بألقاب كثيرة منها:

«سلطان الغزاة والمجاهدين»،

«ملك المشايخ»،

«غياث الدنيا والدين»

«أبو الفتح»،

«السلطان العدل»،

«ليث الإسلام».

أما أشهرها وهو «**الخُدَاوَنْدِكَار**» فيعني المجاهد أو البطل أو الصاحب أو الملِـــك.

كان «السلطان مراد» ينتقل من نصر إلى نصر طوال فترة حكمه، التي استمرت ٢٩ سنة. ولم يعرف الهزيمة قط. فالدولة التي ورثها عن والده، أصبحت بمثابة الإمبراطورية الكبيرة في فترة قصيرة. لقد بلغت مساحة الأراضي التي ورثها عن والده ٩٥ ألف كم٢، أما في عهده فقد بلغت ٥٠٠ ألف كم٢.

❁

لقد خاض «السلطان مراد» طوال فترة حكمه التي استمرت ٢٩ سنة ٣٧ معركة، وهذا يعني أنه قضى حياته بين ميادين الحروب، وبهذا فهو من الشخصيات النادرة في التاريخ.

حتى البابا الذي كان يمثل الزعامة للعالم المسيحي وقف عاجزًا أمام قوته. وقد عبر الشاعر عن هذه القوة بقوله:

لأن الحظ كان قد وصل إلى السلطان مراد الغازي،

فإن العرش والتاج قد وجدا الزينة به...

وقد طوّر «السلطان مراد خان» بعزم وإخلاص كبيرين الفتوحات التي بدأها أخوه الأكبر في الروملي، ففي وقت قصير وصل إلى أواسط أوروبا، وجعل البلقان كله مسلمًا، وكانت بيزنطة وبلغاريا والصرب تدفع الجزية للعثمانيين.

كان «السلطان مراد» يأمر بإسكان المشايخ في الأماكن التي يفتحها، وكان يأمر بتأسيس الزوايا والتكايا وهي من أكمل مؤسسات العلم والعرفان في ذلك العصر. لقد تعقب «السلطان مراد خان» سياسة إسكانية جادة، فكان يجلب العشائر التركمانية ويسكنها في تلك الأماكن المفتوحة حديثًا. وبفضل تلك الهجرات استطاعت فتوحات أحفاده أن تصل إلى أبواب «فِـيـيَـنَّا»، وهو بذلك وضع حجر الأساس للحكم العثماني في أوروبا والذي استمر ٥٠٠ عام.

❁

وبينما كان السلاطين العثمانيون يحاربون ويجاهدون الكفار، كانوا يتعرضون بين الحين والآخر لهجمات من الإمارات الإسلامية الموجودة في الأناضول.

وقد حدث هذا مع «السلطان مراد الأول» فبينما كان «مراد» يجاهد الكفار في الروملي، إذا بالأمير «علاء الدين القرماني» يهجم على الأراضي العثمانية، ولما علم «السلطان مراد» بذلك حزن للغاية، وقال لمن حوله:

"انظروا إلى ما فعله هذا الظالم، بينما نحن على مسيرة شهر من أراضينا نحارب الكفار ونغزوهم ليلًا ونهارًا، وهو يدخل أراضي المسلمين ويهجم عليها، أيها الغزاة كيف أترك الجهاد الآن، وأحارب إخواني في الإسلام بالسيف؟!"

وبهذا أظهر السلطان مراد تسامحًا وتحملا وصبرًا تجاه الإمارات الموجودة في الأناضول من أجل توحيد كلمة الإسلام. وذلك لأنه كان مثل جده لا ينظر بنظرة العداوة إلى الإمارات الموجودة في الأناضول. وكان يرى محذورًا في إجبارهم على طاعته قهرًا؛ فهو يعلم أن الوحدة التي تقوم على الجبر والقهر تزول بسرعة. ولهذا فإن ما قام به السلطان مراد وبقية السلاطين العثمانيين الآخرين من عدم الأخذ بقوة على الإمارات الموجودة في الأناضول لم يكن نابعًا من ضعفهم، بل كان نابعًا من خشيتهم على وحدة أهل الإسلام، لقد كانوا يرون الإقناع أفضل طريق. ولهذا فإنهم لم يكونوا يفضلون جانب القوة طالما أنه لم يكن هناك حاجة لاستخدامها. ونتيجة لهذه الفراسة وهذا الصبر الطويل لم تتحقق وحدة الأناضول إلا في عهد «السلطان سليم الأول» وبالرغم من أنها تأخرت نسبيًّا، إلا أنها كانت على أساس محكم، حتى في الأوقات التي تشتتت وتوزعت فيها الأراضي العثمانية كلها، رأينا الأناضول محافظًا على وحدته وتماسكه.

وعندما أوصى «أورخان» ابنه «مراد» – الذي كان وليّا وشهيدًا – قال له:

"كما أننا ورثة السلاجقة فإننا ورثة الروما أيضا!"

وبذلك أظهر له أن هدفه هو أوروبا.

لقد فتح «السلطان مراد» الطريق لمن بعده، وهيأهم لفتح أوروبا، ولا تزال سهول ووديان أوروبا ممتلئة بآثار أقدام خيله الجوال.



وهذا كله يُظهر لنا أن «السلطان مراد» كان صاحب أخلاق وإدارة وإرادة قوية. وقد فعل كل ما فعله بذكاء ودهاء. وكان يطبق الأحكام الشرعية بعناية كبيرة،



ويعمل على تطويرها وتقويتها. أما صفة المهارة في إصدار القرار بسرعة فقد أكسبته الكثير من الانتصارات. لقد كان «مراد» حاكمًا متدينًا للغاية، يحب العلماء والمشايخ ويقدرهم كثيرًا.

ويتحدث المؤرخ البيزنطي «خَلْقُونْدِيلْ» عن «السلطان مراد» قائلاً:

"لقد أدار «السلطان مراد» ما يزيد عن ٣٧ معركة في الأناضول والروملي، كان ينتقل فيها من نصر إلى نصر. ولم يُرَ قط أنه فر من الأعداء أو ولَّاهم الأدبار. لقد كان يعمل كثيرًا حتى في الأوقات، التي يرغب أن يريح جنوده فيها، كان ينفر من الكسل، ولا يعرف معنى الراحة. وبينما كان الجنود يستريحون كان يخرج هو بذاته إلى الصيد، حتى في شيخوخته لم يفقد من نشاطه شيئا. كان يعامل الأمم التي تخضع له بسكونة كاملة، والأطفال الأجانب الموجودين في قصره بشفقة كبيرة. كما كان سريعًا في منح المكافأة، سريعًا في الكرم. وعندما يدخل الحرب كان يحث الجنود على القتال ويشجعهم. وكان يعاقب كل منْ يخطئ بلا مسامحة. وكان يفي بالوعد. لقد كان مَنْ في معيته يرتعدون مِن هيبته، ولكنه في نظير هذا كان يعامل كل مَنْ بجواره بالشفقة والرحمة، والحب".

إن ما صرّح به المؤرخ «جِيــبُّونْسْ» ليستوجب التأمل:

"لقد أدار «السلطان مراد خان» مقدرات الدولة العثمانية لمدة ٣٠ سنة بكياسة لم يتفوق عليه فيها أي رجل من رجال الدولة في عهده. ولأننا نعلم الكثير عن «السلطان الفاتح» و«السلطان العظيم القانوني» فإننا لا نرى أن «السلطان مراد» كان من أكثر سلاطين بني عثمان تفوقًا ومهارة كرجل حرب ودولة. وإذا ما أردنا أن نقارن بين ما كان في عهد «مراد خان» من المشاكل التي واجهها والمسائل التي حلها ونتائج حكمه، بإجراءات خلفاءه الذين تنبهر بهم العيون؛ نرى أنه استطاع أن يتخذ موقعًا إلى جانبهم، وإن لم يكن متفوقًا عليهم.

إن التغيرات التي وقعت في عهده كانت من أكثر الوقائع التي تدعو إلى الحيرة في التاريخ. لقد استمرت فتوحاته خمسة قرون، أي إلى معاهدة برلين ١٨٧٨م. وبالرغم من أن أرباب الكنيسة البيزنطية يرون السلطان مرادًا عدوًّا لعيسى، إلا أنه كان يعاملهم بشكل أفضل من الباباوات، لقد كان شخصًا عاقلا حذرا، يخشى الله، وينصف المغلوب. ولهذا فإن كل منْ كان يرى خاتمه كان يخر راكعًا.

لقد قام «عثمان» بجمع الناس حوله، أما «أورخان» فأسّس الدولة، ولكن «مراد خان» هو الذي أسس الإمبراطورية".

لقد تمكّن «السلطان مراد خان» صاحب تلك الصفات الجميلة التي أجبرت حتى الأعداء على الاعتراف بها، من تأسيس عرش في قلوب الناس بالمؤسسات التي قام بتأسيسها في الروملي والأناضول. وبعد انتصاره في معركة «صِرْبْ صِنْدِيغِي» عام ١٣٦٤م قام بتأسيس مسجد في كل من «بورصة» و«بِـــيلَجِيكْ» و«فِـلِيبَه»، كما أسس مطعمًا عامًا خيريًا ومدرسة وخانًا في كل من «يكي شهر» و«جَاكِيرْجَه» في «بورصة» شكرًا منه لله على هذا الانتصار.



وقد عبَّر الشاعر في الأبيات التالية عن أن السلاطين العثمانيين نالوا تلك القوة الكبيرة، لأنهم كانوا أشخاصًا مقبولين عند الله نتيجة لهذا الإخلاص الذي أظهروه فقال:

كان الإخلاص علمًا خاصّا لآل عثمان

كانوا مختصين بذلك عند الحق

والحادثة التالية توضح هذه الحقيقة بشكل بَيّنْ:

كان «السلطان مراد» سلطانًا صاحب مشرب صوفي، فكان يحيل نهاية كل أمر يعجز عنه إلى الحق تبارك وتعالى بعد أن يبذل كل ما في وسعه، لم يترك الدعاء أو



التضرع قط. حتى إنه بعد أن حاصر «بِلَوْنَه» خمسة عشر يومًا تركها وعاد بعد أن ترك هناك حامية عسكرية. وقد حزن كثيرا على انسحابه بالرغم من تلك الجهود الجبارة، فدعا الله والتجأ إليه قائلاً:

"أسأل الله تعالى أن يقهر هذه القلعة ويجعلها خراباً!"

وبعدها بفترة قصيرة وصلته الأخبار بأن أحد جدران تلك القلعة تهدم دون سبب معروف. فحمد «السلطان مراد» ربه وشكره، ودخل جنود الإسلام القلعة من هذا الجدار المنهدم وبذلك تيسر فتحها.

وما يلي أيضًا موقف من المواقف التي تظهر مدى تقوى وإيمان ووجد «السلطان مراد» شهيد «قُوصُووَاه»، ولَكَم هي لوحة معبرة عظيمة لنا:

قال «السلطان مراد» لإمام القصر والدمع يملأ عينيه:

"عندما أكبر في الصلاة لا أستطيع أن أرى الكعبة إلا بعد التكبير ثلاثًا، ولا أستطيع أن أخشع دون أن أرى الكعبة ".



إن وجود كل الأهالي المسلمين اليوم في بلدان البلقان إنما هو أثر من آثار هذه الفتوحات العثمانية الأولى، وسياسة الإسكان التي تم اتباعها. وهؤلاء الأهالي أمانة حمّلها العثمانيون لنا اليوم، ومن الضروري حمايتهم في الأماكن التي يوجدون بها، لأن صدى الأذان في أوروبا يستمر بهم.

و«قُوصُووَاه» تعد أول مخفر إسلامي في وسط أوروبا. لقد أصبحت «قُوصُووَاه» ملكًا للمسلمين بدم مبارك لـ«لسلطان مراد» وميراثًا منه لنا، ويتذكر عاكف رحمه الله هذا الميراث بهذه الأبيات الجميلة فيقول:

أينما أنظر يظهر أمامي هذا الوادي الدامي

هل أنت أم خيالك أيتها الـ«قُوصُووَاه» غير الوفية ؟

في كل خطوة لك كان ألف فخر؟

أين الطريق الذي شق في صدرك وسار فيه يِلْدِرِيمْ؟
أين الجندي، وأين الشهيد اللذان يرقدان في باطنك؟
آه أين أضحية النصر اليوم ؟ وأين عظيم الشهداء الذي يرقد في قلبك؟
قل أيها المشهد! لأقَـبِّـل ترابك واسجد لله عليه.
ألا يوجد فيك قطرة أو قطرتان من دماء مراد؟

...

هل سيدوُس حذاء الصرب على صدرك؟

...

إن صرب الأمس هم صرب اليوم، لا فرق بينهما سوى فرق الوقت. يا تُرى بينما نرى أبناء الفاتحين أحفاد «السلطان مراد» يُبادُون ويقتلون على أيدي الصرب الظالمين، ترى إلى أي مدى نصل في تقديم المساعدة لإخواننا المظلومين المقهورين، الذين يخفقون كأنهم طيور جريحة الجناح؟

إنَّ الرسول ﷺ يقول:

"مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ، مَثَلُ الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ والحُمَّى" (البخاري، الأدب، ٢٧؛ مسلم، البر، ٦٦)

ويقول أيضاً:

"الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً" (البخاري، صلاة، ٨٨؛ مسلم، البر، ٦٥)

ألا تقتضي الأحاديث الشريفة المذكورة أن نكون كلنا كمؤمنين مثل الإنسان الواحد الذي له قلب واحد ونبض واحد؟ ألا تقتضي أن يكون فرحنا واحدًا وحزننا واحدًا؟

اليوم ونحن الوارثون الطبيعيون للبُوسْنَة و«قُوصُووَاه»، مضطرون لأن نحاسب أنفسنا تاريخيًّا!..



فالذي يجري أمام أعيننا هو عاقبة حزينة لأمرين؛ أحدهما ما يحدث في بلدنا منذ مائة سنة من رفض للميراث المقدس الذي تركه أجدادنا، مِن قِبَلِ بعض الجهال؛ والثاني الأسلوب السيئ الذي يزعج ذكريات أجدادنا هؤلاء.

إن هذه الأحداث التي تحمل من العِبَرَ الكثير والكثير مثل أحداث «قُوصُووَاه» و«البُوسْنَة» إنما تذكرنا من جديد بالروح العثمانية، التي كان المنكرون يمدحون أنفسهم بقولهم «دفناها» في الماضي، وتضطرنا لأن نكون الآن أصحاب تلك الأمانة عن جدارة وحق. ولهذا فإننا مضطرون للصحوة ولتذكر مسؤولياتنا التاريخية وللعودة إلى أنفسنا.

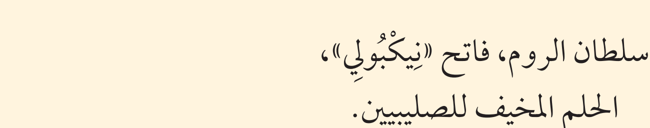
طوبى للأبطال الذين يحققون الصحوة والإحياء من جديد، فينظر الناس إلى المستقبل بالرجاء ويزدادون عزما!..

اللهم ارزقنا بقوة حملة جديدة من إقليم قلوب أجدادنا حتى لا نضيع تلك الفرص الكبيرة التي تظهر أمامنا ونحن في مشارف القرن الواحد والعشرين!..

آمين!..







سلطان الروم، فاتح «نِيكْبُولِي»،
الحلم المخيف للصليبيين.

السلاطين يلدريم بايزيد خان

(١٣٦٠-١٤٠٣م)

رابع سلاطين بني عثمان.

لقّبه الجنود بـ«الصاعقة» بسبب سرعته الشديدة للغاية في المناورات والشجاعة، التي أظهرها في الحروب التي خاضها. جلس على العرش بناء على الوصية التي أوصى بها والده «مراد الأول» وهو في الأنفاس الأخيرة في معركة «قُوصُووَاه»[١].

وحتى يتمكن «بايزيد الأول» من الحصول على نتيجة من تلك الانتصارات الكبيرة استمر في فتوحاته وتقدّم، ففتح العديد من البلدان الجديدة، ومن بينها «أُسْكُوبْ».

١. التوافق الذي تحدثنا عنه من قبل حدث بنفسه هنا، فقد تصادف وقت استشهاد مراد خان مع وقت جلوس بايزيد وولادة الأمير محمد.



وقد شرح الشاعر ذلك في الأبيات التالية:

«أُسْكُوبْ» هي ديار يلدريم بايزيد خان؛

لتكون ذكرى لأبناء الفاتحين...

«أُسْكُوبْ» استمرار لـ«بُورْصَة «في «جبل شَارْ»،

الدماء النظيفة انتثرت عليها فأصبحت حديقة خزامى...

وعندما أتى السفراء الأجانب لتهنئة «بايزيد» بجلوسه على العرش، وكان ذلك يتواكب مع تلك الفتوحات، قال لهم:"سأتقدم حتى روما!.."، وهذا كان يظهر الأفق الكبير الذي رسمه لنفسه في سبيل عزة وقوة الإسلام.

وإلى جانب شجاعته وجرأته في الحروب، كان أيضًا صاحب دهاء سياسي كبير. فقد عرف جيدًا كيف يستفيد من هذا النزاع على العرش في بيزنطة. حتى إنه كان يخرج من في الحبس ويجلسه على العرش ويضع من على العرش في الحبس. وفي مقابل تلك السياسة التي انتهجها زاد من الخراج الذي تدفعه بيزنطة للدولة العثمانية، ووصل الأمر إلى درجة أنه أمر ببناء جامع في بيزنطة، ومحكمة من أجل النظر في القضايا والاختلافات التي تقع بين المسلمين الذين يعيشون هناك في بيزنطة.

والشيء المثير للدهشة والتعجب هنا هو أنه عندما سار لفتح «ألا شَهِرْ» استخدم البيزنطيين لمحاربة البيزنطيين حتى فتحوا تلك المدينة باسمه. وهذه الحادثة من أندر الحوادث في التاريخ، وهي تظهر مدى قوة وعظمة السلطان «بايزيد» وأنه كان صاحب فراسة وعدل في سبيل إعلاء كلمة الله، ومدى المذلة التي كانت تعيشها بيزنطة التي كانت تسعى للصمود بمظالم لا تحصى.



لقد خطا «السلطان بايزيد» الذي حصل على نجاحات كبيرة في السياسة الخارجية، خطوات كبيرة في سبيل تحقيق وحدة الأناضول. فتمكن من ضم قسم

كبير من «الإمارة القَرَمَانِــيَّـة» التي كانت أكبر إمارة في الأناضول إلى أراضي الدولة العثمانية. إلا أن هذا الضم كان بناء على رغبة الأهالي، ويروي «عاشق باشا زاده» هذه الحقيقة على ما يلي:

"..عندما وصل «بايزيد خان» إلى أبواب «قُونْيَة» أغلقت أبوابها أمامه، ونظرًا لأن الوقت كان وقت حصاد كانت أكوام القمح والشعير تملأ جوانب وادي «قُونْيَه» ولم يتمكن الأهالي من نقلها، لأنهم احتموا بالقلعة، ولهذا أمر «بايزيد خان» جنوده بأن يقتربوا من أسوار القلعة وينادوا الأهالي:

"أقبلوا لنشتري منكم القمح والشعير لنطعم به خيولنا"،

فخرج بعض الأفراد من القلعة، وذهب إلى الجيش العثماني لينظر أصدقٌ ما قالوه؟.

ولما علم «بايزيد خان» بالأمر أعطى التعليمات التالية لجنوده:

"إن هؤلاء إخواننا في الدين، فاحترسوا من أن تظلموا أحدًا منهم، وارعوا حقوق العباد، واشتروا منهم بالثمن الذي يطلبونه!.."

وبهذا قام من أتى منهم ببيع محصوله بالثمن الذي طلبه، وبعد أن حصلوا على نقودهم كاملة عادوا إلى القلعة فرحين مسرورين.

ولما رأى أهالي «قُونْيَة» هذه العدالة والإنسانية التي تدمع لها الأعين قاموا على الفور بفتح أبواب القلعة، وأدخلوا الجنود العثمانيين، ولما علمت بعض المدن المجاورة بهذا الأمر دَعَوْا العثمانيين قائلين:

"هيا تعالوا واحكموا بلادنا".

لقد أدرك شعب الأناضول المؤمن النظيف هذه الميزة الموجودة في الدولة العثمانية، فاحتضنوها وأحبوها من قلوبهم، كما قال الشاعر:



إذا كان السلطان عادلا يصير وليًا أيضًا،

لو صار العالَم عبدًا للسلطان العادل ليس بعيب...

سليمان النبى ملك العالَم بعدله،

وإذا كان السلطان عادلا فهو مثل سليمان...

وهذا الاحتضان الذي شاهده التاريخ بغبطة كان أبرز مثال على أن العدالة العثمانية لم تكن بالسيف، وأن هذه العدالة كانت سببًا في زيادة قوة وعظمة الدولة، وأن هذه العظمة وهذه القوة لم تُؤسس على أسنّة الرماح بل تأسست في قلوب الأهالي والأمة على الحب والمحبة.

وتكمن في أساس قوة وعظمة الدولة العثمانية التي عمت العالم كله، وصايا الشيخ «أدبالي» والتوجيهات التي ظهرت بفعل تلك الوصايا التي أوصى بها.

انتبه «بايزيد خان» لهذا، وأولاه عناية كبيرة، وعمل على تقوية دولته لأقصى حد. وسجل تلك القوة العالمُ كله.



وقد بدأ العالم المسيحي كله يضطرب من هذا التطور وهذه القوة التي امتلكتها الدولة العثمانية، ونتيجة لهذا بدأ الغرب يجهز لحملة صليبية كبيرة.

تحرك الجيش الصليبي الذي تشكل للقضاء على الدولة العثمانية وإنقاذ بيزنطة، والاستيلاء على القدس التي كانت في أيدي المسلمين، ودخل أراضي الدولة العثمانية، وحاصر قلعة «نِيكْبُولِى» التي بجانب نهر «طونا».

ولما علم «يلدريم بايزيد» بهذا أعد جيشًا يليق باسمه، وسار نحو «نِيكْبُولِى»، وأراد أن يخبر قائد القلعة بعدم التسليم للجيش الصليبي ركب جواده ليلا، واخترق صفوف الأعداء بمهارة فائقة حتى وصل إلى أسوار القلعة، ونادى قائدها العثماني بأن قال:

"يا دوغان بكْ! يا دوغان بك!"

ولما سمع «دوغان بك» صوت «السلطان بايزيد» عرفه، ووقف عند برج القلعة وأجاب قائلاً:

"تفضلوا يا مولاي السلطان!"

فأمره السلطان قائلاً:

"يا دوغان! جئت مع الجيش، عليك أن تصمد ولا تسلم القلعة!"

عاد بايزيد بسرعة البرق إلى الجيش العثماني في ظلام الليل.

وفي الصباح دارت معركة طاحنة، بين جيش «يلديرم» والجيش الصليبي الحاشد انتهت بنصر «يلدريم بايزيد» وكانت الدول الأوروبية، كبيرة كانت أو صغيرة، قد شاركت بجيوشها في تلك الحملة. حتى إن فرنسا شاركت بعشرة آلاف فارس، كانوا يفتخرون بقولهم:

"لو سقطت السماء لرفعناها على أسنة رماحنا".

إلا أن معظم هؤلاء الفرسان قُتلوا ولم ينجُ قائدهم المغرور «جان» من الأسر في تلك الحرب. وذاب الجيش الصليبي أمام الجيش العثماني المفعم بالإيمان، وجُرح «السلطان بايزيد» في هذه المعركة جروحًا كثيرة، حتى أن فرسه جرح، وسقط «بايزيد» من فوقه، ولكنه لم يستسلم بل ركب جوادًا غيره، وأكمل الحرب حتى أدرك النصر.

لقد كان انتصار «نِيكْبُولِي» الذي حققه «بايزيد» بمفرده باسم كل الأمم الإسلامية واحدًا من أكبر الانتصارات التي حقّقها المسلمون أمام الجيوش الأوروبية المسيحية.

وقد أرسل الخليفة العباسي الموجود في مصر رسالة تهنئة لـ«لسلطان بايزيد» على هذا الانتصار، وخاطبه الخليفة في الرسالة بعبارة «سلطان إقليم الروم».

لقد تمكن «بايزيد» من أسر الكثير من الأمراء والفرسان الأوروبيين في تلك المعركة، وكان من أشهر مَنْ أسر فيها القائد الفرنسي المشهور بـ «جَانْ الذي لايعرف الخوف»، وقد أطلق السلطان «بايزيد» سراحهم مقابل فدية.

وفي اليوم الذي كان مقررًا فيه خروجهم وعودتهم إلى بلادهم أعدّ لهم «السلطان بايزيد» مائدة الطعام، فتعجبوا من هذا الصنيع الإنساني، الذي قام به السلطان معهم، وخجلوا من أنفسهم لما كانوا يقومون به من معاملة ظالمة للأسرى الذين يقعون في أيديهم. وحتى إنهم أقسموا بأن قالوا:

"لن نعاود الكَرة مرة أخرى بالهجوم على أراضي الدولة العثمانية في الأناضول أو الروملي، ولن نرفع السلاح في وجه الجيش العثماني!"

ولما سمع «بايزيد» هذا منهم رد عليهم بقول يظهر مدى قوة وعظمة الإسلام:

"إني أعفيكم من هذا القسم أنتم و«جان» المغرور الملقب بـ"الشجاع الذي لا يهاب" وجنوده. اذهبوا إلى بلادكم، وأعدوا الجيوش وتعالوا مرة أخرى، ولتعلموا أن قدومكم هذا سيكسبني انتصارًا جديدًا، لأنني سلطان أقتنع بأنني ولدت من أجل إعلاء كلمة الله، وفي سبيل رضائه. فإن الله معنا ومؤيد لنا وناصرنا، ومنْ كان الله عونًا له لا توجد قوة على الأرض تستطيع هزيمته أبدًا!".

وأمام هذا العدل وهذه الأبهة والفخامة لم تنبهر أعين الفرسان الذين حضروا المائدة فحسب بل انبهرت أعين الدنيا كلها. فدعا «قسيس صَالُونَه» وغيره «السلطان بايزيد» لينقذ بلدانهم من الظلم، وبهذا تحقق فتح بلاد اليونان.

وبعد سنوات يصف «تَرَافِيجانِى» البَنَدِقِي جيش «بايزيد» المظفر بقوله:

"لم يكن في الجيش العثماني خمر أو ميسر أو فواحش كما كان الوضع عندنا، والجنود لا يهملون التدريبات العسكرية أبدًا، بالاضافة إلى ذلك يذكرون اسم الله ويتعبدون ليلا ونهارًا، ولذا كان لابد وأن ينتصروا دائمًا".

ومن الحقائق الكبرى أن الشيخ «أدبالي» وأتباعه الذين كانوا موجودين في البنية العثمانية قد لعبوا دورًا مهمًّا في وصول الدولة العثمانية إلى هذه المرتبة الكبرى، التي اعترف بها حتى الأعداء. لاسيما وأن قدوم الشيخ «أمير سلطان» - وهو كان بمثابة الشيخ أدبالي في ذلك العصر - إلى بورصة بإشارة معنوية وكونه صهرا للسلطان، إنما كان دلالة واضحة على سلسلة الإرشاد المعنوي التي لازمت الدولة العثمانية.

❀

وقد كان لقاء «السلطان بايزيد» بالشيخ «أمير سلطان» يحمل الكثير من العِبر والعِظات:

تذكر الروايات أن «أمير سلطان» لما قدم إلى «بورصة» كان «السلطان بايزيد» في حملة «المَجَرْ» ولأن المعركة كانت شديدة في المجر فقد جرح الكثير من الجنود العثمانيين، إلا أن شابًّا ذا وجه نوراني أبيض كان يضمد جروحهم، ويدعو لهم. ولأن «السلطان بايزيد» أيضًا جرح في تلك المعركة فقد نادى هذا الشاب ذا الوجه النوراني، وقال له: "أيها الشابّ! ذراعي مجروحة أيضاً، ضمدها".

على الفور قام «أمير سلطان» بإخراج منديل من جيبه وربط به ذراع السلطان، ثم اختفى بين الجنود. ولما رأى الجنود أن جروحهم برأت في فترة قصيرة جدًّا تحيروا وأخبروا السلطان بالأمر. فشغف السلطان بمعرفة حال الجرح الذي في ذراعه، ففك الرباط وإذا به يجد ذراعه قد برأت فتحير هو أيضا. وزاد من حيرته أنه انتبه إلى أن هذا المنديل الذي رُبط به ذراعه هو نصف منديل خطوبة تهدى من قبل المخطوبة إلى الخَتَن وبالرغم من أنه أمر بالبحث عن هذا الشاب كثيرًا، إلا أنه لم يعثر عليه.

وفي نفس تلك الحملة أيضًا كان الجيش العثماني يتقدم، وفي أثناء فتح إحدى القلاع واجه الجيش صعوبات كبيرة، وفقد الكثير من الجنود، وبينما كان «السلطان بايزيد» على وَشْك فَقْد الأمل في فتحها، رأى أبواب القلعة تفتح أمامه. وانتبه السلطان إلى أن من فتح أبواب القلعة هو نفس الشاب صاحب الوجه النوراني الذي

ضمد جرحه. وفجأة تنبه السلطان للوضع وأمر بالهجوم، وبعد أن تم النصر أمر السلطان بالبحث عن هذا الشاب. إلا أنه وكما حدث في المرة السابقة لم يتمكن من العثور عليه. لقد كان هذا الشاب ذو الوجه النوراني الذي يأتي في أصعب الأوقات للمساعدة بمثابة اللغز الكبير.

مرت الأيام وعاد الجيش العثماني إلى «بورصة» منتصرًا، وكان بين المستقبلين له «أمير سلطان» الذي كان زوجًا لابنة «السلطان بايزيد».

وعندما نزل «السلطان بايزيد» من فوق جواده، وصافح «أمير سلطان»، أدرك أنه هو الشاب الذي كان يعالج جروح الجنود في ميدان الحرب، فقال معبراً:

ما هذه السرعة في يدك؟

فأجاب «أمير سلطان» بشكل متواضع قائلًا:

يا مولاي السلطان! يقول الله ﷻ: ﴿**يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ (الفتح، ١٠)، وهذا يعني أنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

فسأل «بايزيد»: وما هذا المنديل؟

أجاب أمير سلطان بتبسم:

"يا مولاي السلطان! إن نصفه الآخر في جيبي. أنا «شمس الدين بخاري» ختنك".

شعر «السلطان بايزيد» بفرح شديد، ثم نظر مرة أخرى بتمعن إلى وجه «أمير سلطان» وقال:

"إذن أنت الذي فتح باب القلعة لنا، أليس كذلك؟"

فقابل «أمير سلطان» هذا السؤال بابتسامة لطيفة، وحينئذ تعانق هذان السلطانان؛ سلطان الدنيا وسلطان الآخرة، وحمدا الله وشكراه.

❀

ويقول عاشق باشا زاده:

"لقد كانت شجرة آل عثمان شجرة صادقة، لم يصدر منهم أي عمل غير مشروع، كانوا يحترزون للغاية من الأعمال والأفعال، التي يقول العلماء عنها: إنها ذنوب."

ولذلك لم يجد القاضي «منلا فناري» أية صعوبة في رد شهادة «السلطان بايزيد» لأنه لم يكن يداوم على صلاة الجماعة، ولما سأل «السلطان بايزيد» عن سبب هذا أجاب «القاضي فناري»:

"مولاي السلطان! لا أراك في صلاة الجماعة، مع أنه يجب عليك أن تكون في الصفوف الأولى كمرشد للأمة، أي يجب أن تكون صاحب عمل صالح، وإذا لا تشارك الجماعة في الصلاة فستكون قدوة سيئة للناس، وهذا يمنع قبول شهادتك".

وتذكر رواية أخرى أنه بعد تلك الحادثة قام «يلديريم بايزيد» بتأسيس الجامع الكبير المشهور في بورصة باسم «أُولُو جامِعْ» كشكر منه لله على فتح «نِـيكْبُولِي»، وكان يصلي الصلوات الخمس جماعة فيه.

وعند افتتاح هذا الجامع دعا «السلطان بايزيد» كل العلماء والمشايخ، وكان على رأسهم «أمير سلطان البخاري» فقد كان افتتاحه في صباح يوم الجمعة، وبعد أن اجتمع الناس لأداء الصلاة وحضور مراسم الافتتاح، حضر «السلطان بايزيد» وقال لصهره «أمير البخاري»:

"يا أمير! هيا افتح المسجد وصلّ بنا، فهذا الشرف لك"،

ولكن «أمير البخاري» اعترض مظهرًا تواضعًا كبيرًا، وقال:

"لا يا مولاي السلطان! ففي الأمة مَنْ هم أفضل مني، يجب أن يكون هذا الشرف للشيخ «أبي حميد الدين الأقْسَرَايِي»".

ولأن السلطان لم يسمع بهذا الاسم من قبل قط، سأل: ومَنْ يكون؟



فأجاب «أمير البخاري»:

"ربما سمعتم به من قبل، إنه الخباز المعروف بين الناس باسم «صومونْجِي بابا»، وقد أنفق الكثير من الخبز على العمال في بناء الجامع، إن هذا الشخص من كبار أولياء الله".

ولما صدّق «السلطان بايزيد» على هذا قام «أمير البخاري» بتعريف الناس بـ«صومونجي بابا» ثم دعاه للصعود إلى المنبر، فقال الرجل وهو في قمة الخجل: "يا أميري! ماذا فعلت لقد أفشيت سري"، ثم سار إلى المنبر بتواضع، ولما صعد المنبر قام بتفسير سورة الفاتحة على سبعة أوجه، ولكنه بسبب إفشاء سره أخذ معه تلميذه «الحاج بَـيْرامْ الوَلِيّ» وغادر «بورصة».

وعلى هذا، كان المُلْك العثماني تحت تأمين أولياء الله أصحاب القدر العالي. والأمراء الذين أصبحوا سلاطين المستقبل تربوا على يد أمثال هؤلاء العظام، فكان هناك اهتمام خاص بتعيين معلم للأمراء ليربيهم معنويًّا، والحادثة التالية التي وقعت، وحدثت أيضًا مثلها أثناء تربية الفاتح تستحق التأمل كثيرا:

كان لـ«لسلطان بايزيد» ابن يُدعى «الأمير سليمان» عاقبه أستاذه بشكل خفيف بسبب عدم مبالاته بالدرس، وقد غضب الأمير لهذا كثيرًا وذهب إلى القصر، وشرح الأمر لوالده السلطان. وعلى الفور أمر السلطان بإحضار المعلم، ولما حضر سأله قائلاً:

"لماذا عاقبت «سليمان»؟"

فقام المعلم بالإجابة على السلطان بوقار وسكينة بهذا الرد التاريخي:

"يا مولاي السلطان! إن ابنك هذا سيكون في إدارة الدولة في المستقبل، وستكون الأمة أمانة لديه، ولو كان جاهلا فإن هذا يضر بالأمة، نعم إنه الآن أمير، ولكنه لم يصبح من أرباب العلم والحال بعد، وأنا مكلف بتربيته، ومضطر لمعاقبته بالشكل اللازم".

نظر «السلطان بايزيد» إلى الأرض باحترام، وقال:

"نعم، أنت على حق أيها المعلم، لك أن تعاقبني فضلاً عن معاقبة الامير إذا اقتضى الأمر ذلك، فطالما هناك معلمون أمثالكم على رؤوسنا فإننا بالتأكيد سنحكم العالم".

لقد أدرك هذا المُعلم الملاحظة البارعة التي أظهرها هذا السلطان المتسم برقة الروح في جوابه، ولهذا عندما أتى المعُلم إلى الدرس في اليوم التالي لم يلتفت بصفة خاصة إلى «السلطان بايزيد» الذي سأله لماذا عاقب ابنه. ولما رأى الأمير هذا، وأدرك هذه القيمة المعنوية للمعلم، أصبح من بعدها يحترم دروسه ويبذل أقصى ما في طاقته للتعلم.

❀

كان فتح «إستانبول» من أقصى أماني الفاتحين في الإسلام، كان أيضًا من أكبر مطالب «السلطان بايزيد» وكانت له جهود تستحق التقدير في ذلك، فقد حاصر إستانبول أربع مرات. وفي المرة الرابعة كانت بيزنطة على وشك السقوط في يديه وكأنها فاكهة ناضجة للغاية.

ونظرًا لأن الظروف المحيطة ببايزيد كانت ملائمة للفتح أكثر من الشروط والظروف التي كانت لدى الفاتح، فقد عرف «السلطان بايزيد» كيف يقيم تلك الظروف ويستفيد منها، واقترب من الفتح كثيرًا.

كان الفتح سيتحقق بسهولة للغاية، إلا أن ظهور فاجعة «تِــيمُورْ» في الأناضول جعلت هذا الفتح المقدس عقيمًا، فقد دخل «تِــيمُورْ» الأناضول بحجة سوء الخلاف مع الدولة العثمانية.

ولكنه في الحقيقة كان قد يريد السيطرة البحتة عليها. وكان ينوي أن يزيد من شهرته وسلطته بالقضاء على الدولة العثمانية التي اتسعت شهرتها وقوتها، وتقدمت في سبيل إعلاء كلمة الإسلام. وبعد تحقيقه لهذا الغرض النفساني بنصره، أرسل

رسالة إلى ملك فرنسا، الذي كان مريضًا نفسيًّا يخطره بانتصاره على الدولة العثمانية، والشيء المثير للدهشة والعجب وموجب للتفكير للغاية هنا إعلانه لملك فرنسا المريض نفسيًّا أن الدولة العثمانية عدو مشترك لهما.

وعندما نقوم بتحليل الأحداث الواقعة، سنرى للوهلة الأولى أن كلا السلطانين «يلديرم» و«تِــيمُورْ» انكبا على تحريضات متبادلة، إلا أن ما فعله تيمور يُظهر أمام التاريخ مدى عظم الخطأ الذي ارتكبه.

وثمة حقيقة تاريخية وهي أن «تِــيمُورْ» تعرض لتحريض كبير من البابا في الحرب ضد الدولة العثمانية. ولم يكن هذا التحريض بشكل مباشر، بل كان عن طريق الجواسيس الذين أرسلهم البابا متنكرين في صورة المسلمين. وكان هؤلاء الجواسيس منحازين جدًّا لـ«تِــيمُورْ» ونجحوا بدرجة كبيرة في تفعيل نشاط الجاسوسية التي كلفُوا بها.

ولأن البابا لم يستطع فعل شيء تجاه هزيمة «نِـيكْبُولِي» فإنه كان يحرض «تِــيمُورْ» بشكل دائم ضد الدولة العثمانية حتى تستطيع الدول الأوروبية المسيحية أن تتنفس الصعداء، ولهذا لم يكن هذا التحريض شيئًا سوى الحماقة.

أما بيزنطة فكانت تمثل الجناح الآخر لهذا التحريض، وإذا ما أضفنا طموح الإمارات الموجودة في الأناضول إلى هذه التحريضات لتبين لنا وبسهولة كيف انساق«تِــيمُورْ» خلف تلك التحريضات.

أما السير خلف تلك التحريضات فيظهر لنا الأنانية الموجودة في روح ونفس «تِــيمُورْ». ولو أنه قام بمجاهدة نفسه قبل محاربة الدولة العثمانية لكانت الأحداث قد اتخذت شكلا آخر تمامًا.

أي أن «تِــيمُورْ» لم يتغلب على نفسه، ومن أجل الحكم على العالم سار بفكرة "ومن يكون هؤلاء العثمانيون؟!". لأن المطالب التي كانت سببًا في سوء العلاقات

بين الدولة العثمانية وبين «تِــيمُورْ» كانت نابعة من «تِــيمُورْ» دائمًا، وبهذا حمل «تِــيمُورْ» جيشه خلفه وسار لمحاربة منافسه القوي وهو الدولة العثمانية.

وعندما قام «تِــيمُورْ» بحملته على الدولة العثمانية لم يكن يستمع أبدًا للتنبيهات ولا المحاذير القيمة، التي قالها له رجال العلم والمشايخ، لأن رأيهم كان ضد فكرة التحارب مع الدولة العثمانية، التي اكتسبت محبة العالم الإسلامي بسبب انتصاراتها على أهل الكفر.

ولما قام «تِــيمُورْ» بحصار قلعة «سِيوَاسْ» بأفياله كأنها دبابة الوقت الحاضر، جمع حاكم القلعة «أَرْطُغْــرُلْ» ابن «السلطان بايزيد» أشراف المدينة وقال لهم:

"إن وظيفتي هي حمايتكم، وإن قوات «تِــيمُورْ» أكثر بكثير من قواتنا، وهذا قدر الله علينا، وواجبي هو صد هذا الهجوم والدفاع عنكم، ولتعلموا أن «تِــيمُورْ» لن يدخل تلك المدينة إلا على أجسادنا!".

بعدها تحرك «أَرْطُغْــرُلْ» كما قال تمامًا، حيث أخذ حفنة من رجاله، وأظهر مقاومة لا يمكن تصديقها ضد «تِــيمُورْ» وجيشه، ولكنه في النهاية اُستشهد هو ومن معه أمام هذا الجيش الجرار الذي كان يشبه السيل.

وبعد أن قضى «تِــيمُورْ» على الأمير أرسل الأخبار إلى المدينة بأنه في حالة تسليم المدينة له فإنه لن يصيب أحدًا بأذى، وبالرغم من أن محافظي القلعة وثقوا بكلامه إلا أنه بمجرد دخوله القلعة قتلهم جميعًا.

ولما علم «بايزيد» بالأمر شعر بحزن شديد للغاية لسقوط القلعة من ناحية واستشهاد ابنه من ناحية أخرى. كان «بايزيد» في تلك الأثناء على جبل «أولو داغ» وكان راع في الجبل يرعى بقطيعه ولا يدري عن الموضوع شيئًا، وكان يعزف على الناي، وبعد أن استمع بايزيد للناي قال للراعي:

"اعزف أيها الراعي اعزف! لك الراحة ولك صفو المزاج، وليس عندك ما تهتم به. هل فقدت قلعة مثل «سِيوَاسْ»، أو فقدت ابنًا مثل «أَرْطُغْـرُلْ»؟ اعزف!."

ثم ركب جواده وسار إلى «بورصة». وأظهر «بايزيد» خشونة في الرد على رسائل «تِـيمُورْ»، وفي النهاية اضطر إلى خوض الحرب معه.

والكلمات التالية التي قالها لـ«مصطفى بك مالقوج أوغلو» محافظ «سيواس» تعبر عن هذا بشكل واضح للغاية:

"يا مالقوج! لا تفكر أبدًا بأنني سأقوم بعمل صلح مع ظالم مثل «تِـيمُورْ». أهلك الكثير من الناس مخلفًا وراءه صراخ ونحيب الأطفال الذين ليس لهم ذنب في هذه الدنيا."

يمكن القول بأن أسوأ حادثة مرت على «بايزيد خان» هي حرب «أَنْقَرَة» التي خاضها ضد«تِـيمُورْ». لقد انتهت تلك الحرب بهزيمة حزينة للدولة العثمانية، وكانت بمثابة بداية عهد الاضطراب والضعف. وبهذه الحرب التي كانت نتيجة لعناد جاف، أصبح الأناضول كله مضطربًا كسابق عهده، وتوقفت الفتوحات الإسلامية في الغرب ولو لمدة.

ولهذا فإن «تِـيمُورْ» حتى وإن كان في حياته الشخصية مسلمًا متدينًا، إلا أن الأفعال التي قام بها ليست عملًا يتناسب مع مشاعر وإيمان المسلم أبدًا؛ لأن قتله للناس بوحشية في «سِيوَاسْ» وما قام به من أعمال مشابهة لا يمكن عفوها بأي عذر من الأعذار.

ومن ناحية أخرى كانت فاجعة «تِـيمُورْ» كارثة أخّرت الفتوحات الإسلامية في الغرب على الأقل خمسين عامًا. وعلى افتراض أن هذه الأنانية كانت موجودة لدى رئيس عائلة فإنها لا شك تضر بأفراد الأسرة كلهم، وإذا ما كانت هذه الصفة موجودة لدى رئيس دولة فإنه يضر بطوائف الأمة كلها، ويكون سببًا في ظهور الكوارث في المجتمع.

وهذه الخاصية التي كانت لدى «تِــيمُورْ» ليست شيئًا سوى الأنانية، فقد تحرك بهدف "أنا الذي سأحكم العالم كله". مع أن الاختلافات التي كانت بينه وبين الدولة العثمانية لم تكن بالمشكلات الكبيرة إلى هذه الدرجة.

❁

وعلى هذا فإنه ليس صحيحًا أن ننظر إلى هزيمة «أَنْقَرَة»، ونعد من خلالها تقييمات خاطئة عن شخصية «بايزيد» التي كانت شخصية مستثناة في التاريخ العثماني. ولعل السبب في خسارة الدولة العثمانية في تلك المعركة لم يكن عدم خبرة بايزيد، بل إن السبب هو خيانة أمراء الأناضول الذين كانوا في جيشه، وانحيازهم إلى جانب «تِــيمُورْ»، وذلك لأن هؤلاء الأمراء كانوا يحرصون على السلطة منذ انهيار الدولة السلجوقية وحتى ذلك اليوم.

كما أن التاريخ يثبت أن بايزيد قبل تلك الخيانة كان يدير الحرب بشكل جيد للغاية، وكان على وشك الانتصار على «تِــيمُورْ»، لدرجة أن «تِــيمُورْ» فقد توازنه في أول ست ساعات من الحرب، وجثى على الأرض، وقرر طلب الصلح، ولكن في اللحظة الأخيرة نهض بإمداده بعض الأمراء الذين خانوا السلطان بايزيد سعيًا وراء الوعود الزائفة من «تِــيمُورْ». وبذلك انقلبت الكفة لصالح «تِــيمُورْ» لدرجة أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الاعتراف بذلك ولو ايماء حيث قال:

"لم يقصر هؤلاء الدراويش في القتال".

من ناحية أخرى نرى أن مقولته هذه توضح لنا حقيقة كبرى، فهي تظهر لنا إلى أي مدى كان المفهوم السائد بأن الدولة العثمانية دولة غزاة، كان منتشرًا في ذلك الوقت.

وبسبب هذا المفهوم لم يتمكن «تِــيمُورْ» من القضاء على الجيش العثماني بالرغم من انتصاره عليه وبالرغم من أسره لبايزيد. ولم يعمل هذا النصر على إكساب أمته أي شيء سوى الغنيمة فقط.

لقد كانت أنانية «تِـيمُورْ» سببًا في حرب كبيرة، ولكنه خلّف وراءه آلاف الأيتام والأطفال والأرامل. لم يهتم «تِـيمُورْ» بكون الأهالي في البلدان التي دخلها مسلمين، بل استعمل فيهم الظلم كثيرًا ولم يترك ظلماً لم يفعله في المال والملك والعرض والشرف وغيرها، خاصة في «بورصة» فلم يترك فيها بناءً واحدًا سليمًا، كما أمر بإحراق كل الوثائق العثمانية، وحقًّا إن هذه جناية كبرى.

وبهذا الاعتبار إذا ما أردنا أن نعقد مقارنة بين «تِـيمُورْ» وبين «بايزيد» سنجد أن «بايزيد» كان يتفوق عليه بكثير، لأن دولة «تِـيمُورْ» بالرغم من أنها انتصرت في معركة «أنقرة» إلا أنها انهارت بعدها بعشر سنوات فقط، أي أنه كان مثل مياه السيل الجارف فقط، تأتي ثم تذهب وذلك لأنه لم يكن تيمور صاحب حضارة تفوق الدولة العثمانية.

لم يتمكن «تِـيمُورْ» أو دولته من البقاء، فقد تشتت دولته بعد رحيله، ولم يستطع «اَلْإِيلْخَانِـيُّون» الذين حكموا بعده أن يحافظوا طويلًا على ثرواتهم. أما الدولة التي تركها بايزيد فتمكنت من القيام على أرجلها من جديد في غضون عشر سنوات، وأصبحت دولة الفتوحات من جديد.

ولعل السبب في ذلك هو القوة والثبات في الأسس المعنوية التي وضعت على يد سلسلة «أدبالي» فَأكبر خاصية لتلك الدولة العثمانية، التي قامت أسسها على يد سلسلة «أدبالي» أنها لم تكن دولة تدعي الحكم أو الرئاسة، ولم تسفك دماء المسلمين في سبيل تحقيق هذه الرغبة.

أما بقية الإمارات التي كانت موجودة في الأناضول فكانت تتحارب مع بعضها البعض بشكل دائم من أجل التفرد بالحكم وأخذ مكان الدولة السلجوقية، فضلا عن أن الدولة العثمانية رجحت كفة الحرب مع أهل الكفر، وجعلت خدمتها للدين المبين وليس لنفسها، وهذا يعد من أكبر الأسباب التي عملت على رقي الدولة العثمانية بشكل سريع للغاية.

وهذا يعني أن تحرك الدولة العثمانية بهذا الشكل كان يتفق مع روح الجهاد الموجودة في الإسلام، ولهذا فإنها رأت التأييد والمعونة بشكل دائم ومستمر من الكتل الإسلامية. أما بقية الإمارات التي كانت موجودة في الأناضول فقد كانت تتحارب مع بعضها البعض، ولكنها لم يرَ التقدير أو التصويب من رعاياها، لأنها كانت تحارب مع الطرف الآخر الذي يحارب على أصداء كلمة"الله، الله"؛ ولهذا لم يكن الأهالي يرتاحون وجدانيًّا، فينضمون إلى الدولة العثمانية.

ولا شك أن السلطان بايزيد كان من أكثر السلاطين الذين وفقوا في جذبهم لهذا الانضمام. ولهذا يجب هنا أن نقول إنه لو لم تكن هزيمة «أنقرة»، لما أسندت إلى «بايزيد» تلك الأخطاء التي أسندت إليه، وعليه يجب مطالعة أوجه القصور التي أسندت إليه من هذه الزاوية التي ذكرناها.

يقول «أحمدي» وهو أحد الشعراء والمؤرخين المشهورين في ذلك العصر في كتابه المسمى «تواريخ ملوك آل عثمان»:

"لقد كان «السلطان بايزيد» سلطانًا عادلًا وكاملا مثل والده وجَدِّه، يحب أهل العلم ويكرمهم ويكِنّ لهم التقدير، وكان يُسعِد الزهّاد والعبّاد، فكان زهده واضحًا. كان مشغولا بالزهد ليلا ونهارًا، ولم يتناول بيده كأس خمر قط، ولم يستمع إلى المعازف. لقد كان سلطانًا عثمانيًّا يتصف بعدالة عمر ﵁".

والحاصل أن لنا كلمة أخيرة وهي أن «بايزيد خان» كان سلطان الغزاة والمجاهدين، وقد قُبضت روحه وهو أسير، فكأنه بذلك نال درجة الشهادة. ويعد بطلا كبيرًا.

رحمة الله عليه!

وكان «السلطان بايزيد خان» هو أول سلطان عثماني يرسل موكب الصرة الهمايونية إلى الأراضي الحجازية المباركة، التي اتخذها السلاطين العثمانيون من بعده عادة.

هذا، ومن أكابر الأشخاص الذين عاشوا وماتوا في عهد بايزيد أيضًا «الحاج بهاء الدين النقشبندي» من سلسلة النقشبندية السعيدة، و«الحاج علاء الدين العطار»، والعلامة «سعد الدين التفتازاني»، و«الحافظ الشيرازي».

اللهم أحسن إلينا بنصيب من العالم المعنوي لهؤلاء الأشخاص الذين كانت خدمتهم في سبيلك تاجًا على رؤوسهم!

آمين!..







المؤسس الثاني للدولة العثمانية

السلطان محمد جَلَبِي

(١٣٨٩-١٤٢١م)

خامس السلاطين العثمانيين.

له مكانة ممتازة بين السلاطين العثمانيين البالغ عددهم ٣٦ سلطانًا؛ لأنه قضى على أكبر فتنة داخلية واجهتها الدولة العثمانية، وسعى لإيصال الدولة من جديد إلى قوتها وسابق عهدها.

والنتيجة التي حصل عليها، ليست فقط في الناحية المادية، ولكن من الناحية السياسية والمعنوية أيضاً، تفوق كل التقديرات، لأن القضاء على الفتنة الداخلية التي تصيب الدولة والاختلافات التي تعتريها أصعب بكثير من مقاومة الأعداء؛ لأن معظم الناس في الاضطرابات الداخلية يعانون في تشخيص الصواب، وبذلك يصعب تأمين الاتحاد مرة أخرى.

والسلطان «محمد جلبي» تمكن من النجاح في تخطي هذه الفتنة، وبذلك سُطِّر اسمه بأحرف من ذهب في صفحات التاريخ المشرفة على أنه المؤسس الثاني للدولة العثمانية.



وكما هو معلوم أن «تِـيمُورْ»الذي انساق خلف تحريض البابا وأراد الحكم والسيطرة فقط بالرغم من أنه كان مسلمًا، أتعب الأهالي والدولة بالمذابح والنهب والسلب، الذي قام به. وقد أظهرت تلك الفاجعة فترة من الاضمحلال في الدولة استمرت لمدة ١٠ سنوات وعُرفت باسم «عهد الفترة».

تمكن السلطان «محمد جلبي» من إنهاء تلك الفترة فاعتبر من الشخصيات الكبيرة، التي يجب الوقوف عليها بدقة واهتمام كبيرين. ففي جهاده ونضاله الكثير من العِبر والدروس لنا في زماننا هذا.

وبعد العاقبة المحزنة لـ«بايزيد» خاض أبناؤه الأمراء نزاعًا مع بعضهم البعض، مع العلم أن كلا منهم كان شخصية كبيرة وهنا نقتطان مهمتان يجب الوقوف عليهما بعناية عند دراسة هذا النزاع الواقع بينهم:

١- إن كل أمير منهم لم يكن يهدف في هذا النزاع إلى تأسيس دولة مستقلة في المكان الموجود فيه، بل كان كل واحد منهم يسعى للسيطرة على العرش العثماني، وأن يكون هو الحاكم الأوحد للدولة العثمانية، ولو لم يكن الوضع على ذلك لأصبحت الدولة العثمانية مقسمة إلى أربع أو خمس إمارات في الأناضول كغيرها من الإمارات، وأصبحت تحتاج إلى قرون من أجل استعادة قوتها العظيمة مرة أخرى.

٢- لقد كان الأهالي في هذا النزاع الدائر بين الأمراء أصحاب نضج وقوة ومشاعر تاريخية لا يمكن مقارنته بما هو موجود اليوم، فلم يكن لهم انحياز إلى أي أمير قط، فقد فضلوا انتظار نتيجة هذا الصراع الدائر بينهم.

ولما وصل «موسى جلبي» إلى سهول «بورصة» أرسل الأهالي مبعوثين منهم إليه وقالوا له: "نحن لسنا منحازين إلى أي أحد منكم، ولسنا ضد أي أحد، فأنتم إخوة، فحلوا هذا الأمر بينكم، وإذا ما أقحمتمونا في هذا الصراع فإنكم بذلك ستكونون سببًا في فتح جروح لن تـندمل، والجنود التي مع كل واحد منكم جنودكم، وواجب عليهم طاعتكم، أما نحن فنرجو منكم ألا يكون هذا الاختلاف سببًا في انقسام الأمة".

وقد أظهر هذا الرد قوة مؤثرة أخرى علاوة على الدراية التي كانت عند السلطان «محمد جلبي»، لقد كانت تلك القوة هي قوة شخصية الأهالي وثباتهم، وعكس ذلك كان سيؤدي بالطبع إلى ظهور تكتلات كما هو الحال اليوم، حيث يظهر كل شخص وكأنه زعيم حزب يريد أن يجمع الناس حوله وبالتالي يَدْخُلُ الحقد والدم بين الناس.

ولأن السلطان «محمد جلبي» كان على دراية كبيرة بهذه الحقيقة لم يقحم الأهالي في خلافه مع إخوته، وبعد أن أسس سلطته تصرف معهم بالعفو والصفح، وضمد الجروح التي انفتحت، وبذلك أنساهم هذه النزاعات.

ولأن استمرار هذا النزاع بين الإخوة كان سيؤدي في النهاية إلى سفك دماء آلاف المسلمين الأبرياء، فقد جعل السلطان «محمد الفاتح» في قانونه مادة "قتل الأخ والابن"[1] وذلك لتجنب انقسام الدولة والحفاظ عليها وعلى الدِّين.

❁

وعندما نطالع حياة السلطان «محمد جلبي» الذي كان من أكبر شخصيات تاريخنا، سيتضح لنا أنه استخدم القوة المادية في موقعها والعفو والإقناع في موقعه في سبيل إنهاء فترة الضعف والفتور، التي استمرت لعشر سنوات، وعندما هجم «تِـيمُورْ» على الأناضول كان «السلطان بايزيد» قد حاصر «إستانبول» للمرة الرابعة، ولم يكن هناك عائق أمام فتحها، ولكنه اضطر لفك الحصار والمسير لصد هجمة «تِـيمُورْ»، وبذلك تأخر فتح «إستانبول» ٥٠ سنة. فبالتالي تأخر العهد المسمى بعهد الازدهار، ولو أن السلطان «محمد جلبي» لم يقم بإنهاء تلك الفترة لربما لم تتحقق تلك الانتصارات، التي أضفت على تاريخنا الرفعة والشرف. ولهذا فإن السلطان «محمد جلبي» يعتبر بذلك شخصية بطولية كبيرة أعدت الأرضية لانتصارات خارقة فيما بعد.

---

١. سنقوم بشرح هذه المسألة فيما بعد بالتفصيل نظرًا لأنه ليس من السهل فهمها طالما لم تشرح بالأدلة العقلية والمنطقية.

لقد كان السلطان «محمد جلبي» شخصية على دراية كبيرة، فقد شارك في حرب «أنقرة» مع والده وهو لا يزال في الرابعة عشرة من عمره، وكان قائدًا على ٤٠ ألف جندي أي ما يعادل نصف الجيش العثماني، وقد حارب بشجاعة من الصباح وحتى المساء أمام «تِــيمُورْ» بأفياله[٢].

وفي ذلك اليوم لم يترك السلطان «محمد جلبي» والده وحيدًا إلى آخر لحظة. بل كان بجواره هو وجنوده، إلا أنه لما ظهرت نتيجة الحرب، اضطر للانسحاب بناءً على إصرار مجموعة من الأمراء، الذين كانوا على درجة عالية من الخبرة والدراية.

ولما أسر والده وتفرد كل واحد من إخوته بالحكم في المنطقة الموجود فيها، وجد «محمد جلبي» رغبة من الأهالي وخاصة من العلماء والمشايخ، في أن يتولى هو الحكم، وقالوا له: "إنك لن تقوم بعمل يخالف الدِّين، ولن تظلم الأهالي، وسترعى كل أوامر الله تعالى ونواهيه!.."

وبذلك أوضحوا له أنهم يريدونه، ولكن بالشروط التي أوضحوها. وما كان منه إلا أن وعدهم بتحقيق تلك الشروط، وبذلك أخذ أول خطوة في سبيل السلطنة.

وبفضل المساعدات التي قدمها له الأهالي نجح «محمد جلبي» في جمع الملك العثماني كله تحت راية واحدة[٣].

---

٢. لا يظنَّ الناس أننا نبالغ عندما نقول بأن «محمد جلبي» قابل قوات «تِــيمُورْ» وهو في الرابعة عشرة من عمره وكان قائدا على جيش كبير، وحارب ضد «تِــيمُورْ»، فعندما يتم التدقيق جيدا في الأمر يتضح أن الأمراء في ذلك الوقت كانوا يتلقون تربية وتعليما يتخطى حتى خيالاتنا اليوم، فبينما يتم الأمير عامه الرابع وشهره الرابع ويومه الرابع يبدأ القراءة بـ«البسملة» أمام شيخ الإسلام وبذلك يبدأ مرحلة التعليم، وكان يتعلم على يد خيرة علماء عصره في كافة الفنون والعلوم لأنه سيكون سلطان المستقبل، وبعد تعلمهم كانوا يتولون وظيفة الولاية في الولايات المهمة مثل «طِرابْزُون» و«آماسْيا» وغيرها.

٣. إن الدولة العثمانية في ذلك العهد كانت تنهض نهوضاً جديداً على أكتاف قوية لنظام أصيل، بأياد ماهرة للدهاة الذين نشؤوا في ظلها؛ وهذا النهوض كان أقوى بوسيلة مجتمعها العظيمة.

وبعد أن تمكن السلطان «محمد جلبي» من جمع المُلك العثماني كله تحت إدارة واحدة، بدأ يقوم بنشاطات كبيرة وخارقة من أجل إعادة تأسيس الدولة من جديد، وبينما كان يقوم بذلك كان يراعي أن يسير على خطى من قبله، وألا يحيد عن العدالة، فعمل على تخفيف الضرائب عن الأهالي، وعامل كل فرد بالمعاملة الطيبة، حتى في حربه مع إخوته رأيناه يقوم في أول الأمر بمحاولة الإقناع.

وإلى جانب سياسته الرقيقة، كان صاحب رحمة وشفقة، وكان صاحب عفو، حتى عندما قام بأسر «ابن قَرَمانْ» الذي هجم على «بورصة» والسلطان «محمد جلبي» في «أدرنة»، ونهب الأهالي وهدم الجوامع، ونبش قبر والده بايزيد وأمر بإحراق عظامه، عامله بالرحمة والشفقة، لأنه لم يكن يريد سفك دماء المسلمين.

فقد سيق «ابن قَرَمانْ» إلى حضور السلطان «محمد جلبي» وسأله السلطان محمد: "ماذا تظن أني فاعل بك؟".

أما تيمور الذي عرقل ازدهار الدولة العثمانية وأوقفه لعشر سنوات؛ فكان بمثابة اسم عقيم جاف في دوارة الدماء التي سفكها مثل السيل في سبيل جشعه وحرصه النفساني. فأدرك ذلك «تيمور» نفسه ذلك، ففتح يديه إلى المقام العالي ولجأ إلى عفو الله منكسراً متذللاً لما خلف وراءه من دم وصديد ونحيب فقال:

"يا ربي الذي لا يحيطه عقل البشر! إن لم تُعِنّي فسيكون كل اعتباري وجاهي وشهرتي وعظمتي هباء منثورا. فلا تخزني بما ارتكبته من الأخطاء!.."

ومن ناحية أخرى قرر في آخر عمره الخروج لحرب الصين انطلاقا من حقيقة "إن الحسنات يذهبن السيئات"، فجمع قادته وقال لهم:

"فتحت آسيا والسيف بيدي. ولأن فتوحاتي كانت عالمية وكبيرة جدا فبالضرورة تسببت في انقضاء حياة العديد من الناس. ولكنني أرجو العفو عن مثل هذه الذنوب الثقيلة التي لفقتها على ظهري. فلهذا قررت على غزو الصين الذي لا يجرأ عليه أحد. فهذا سيكون سفرا مقدساً خالصاً لوجه الله. إذ أعلم أن الحسنات يذهبن السيئات".

إن تيمور لم يبال بظروف الطقس الشتوية الباردة في طريق تحقيق نيته. إلا أنه لم يوافه الأجل، وتمزقت دولته في مدة قصيرة وفقد كل قدرته وعظمته وأبهته.

فأجاب «ابن قَرَمانْ»:

"الأمر لمولاي السلطان"

فقال السلطان «محمد جلبي»:

"تعال، وأقسم بأنك لن تضر المسلمين بعد اليوم."

فوضع «ابن قَرَمانْ» يده على صدره وأقسم قائلاً:

"إنى لن أحيد عن طاعة وصداقة الدولة العثمانية ما دامت هذه الروح في هذا البدن حيَّة."

وعليه قام السلطان بمنحه إمارته مرة أخرى، إلاّ أن«ابن قَرَمانْ» بمجرد أن خرج من عند السلطان «محمد جلبي» أخرج من جيبه حمامة كان قد أخفاها وهو داخل إلى السلطان من أجل حيلة القسم الذي أقسمه، وقام بذبحها، ثم قال لِمَنْ حوله:

"لقد أقسمت على تلك الحمامة، وطالما أنها ذبحت فإني بريء من قسمي"، واستمر في عداوته القديمة متخذًا من الدين وسيلة لتزويره.

وهذه الحادثة كافية لإظهار مدى السماحة التي عامل بها السلطان «محمد جلبي» الأهالي في الأناضول من أجل توحيد الكلمة والصف، ومدى الصعوبة التي واجهها في تأسيس تلك الوحدة. إلاّ أن البركة التي كانت نتيجة لهذا التحمل والصبر على تلك الصعوبات، كانت كبيرة جدًّا.

والمؤثر الأصلي الذي أعلى الدولة العثمانية هو هذا المنهج، فبينما كانت الإمارات في الأناضول تتصارع مع بعضها البعض من أجل الحكم بعد انهيار دولة السلاجقة، رأينا الدولة العثمانية تستفيد من وضعها الجغرافي، وتتجه إلى الغرب أي إلى الكفار، وبهذا لم يهتم العثمانيون بالنزاع الدائر في الأناضول، وقد أدى هذا النزاع بِجنود الإمارات والشخصيات الممتازة الموجودة فيها إلى عدم ارتياح نفسي، فبدؤوا يهربون

وينضمون إلى الدولة العثمانية، وهذا بالطبع كان أحد الأسباب التي أكسبت الدولة العثمانية قوة كبيرة في وقت قصير، وذلك لأن الحروب التي كانت تخوضها الدولة العثمانية لم تكن ضد المسلمين بل كانت ضد الكفار.

حقيقة القول: إن الدولة العثمانية منذ تأسيسها كانت قد ولت وجهها شطر الغرب، إلا أن السياسة التي انتهجتها مع الأناضول كانت تفرض عليهم عدم إعطاء الأمان لتلك المنطقة. ولذا رأينا أن أول حركة عسكرية عثمانية موجهة للأناضول لم تتحقق في عهد «بايزيد» الا بعد انتصار «نِيـكْبولِي».

❁

إن هذا التصرف العثماني لكم كان ضروريًا لنا وللعالم الإسلامي اليوم من أجل الحفاظ على وحدتنا. والذين لا يتدخلون في الاختلافات الواقعة بين المسلمين، ويحصرون ويوجهون قوتهم وجهادهم لما دون الإسلام، فإنهم سينالون بركة كبيرة مثل أجدادنا، وبناء عليه فإن فرضية وجود هدنة لم تعلن بين المؤمنين اليوم في وطننا أو في العالم الإسلامي والتحرك بموجبها، سيكون أصح منهج للمجادلة الحسنة.

❁

لقد كان السلطان «محمد جلبي» سلطانًا يخدم رعاياه بكل ثروته، يعمل على إزالة أية أشياء يمكن أن تقل من راحتهم، ويبذل أقصى ما في جهده من أجل استقرار وطمأنينة المجتمع. وفي سبيل ذلك أمر بهدم الأبراج الخاصة بفرسان «رُودُسْ» الموجودة في «إزْمير» خلال ليلة واحدة، وذلك لما تعددت الشكاوى منها بأنها تعرض الأهالي للظلم، فأتى الفرسان المذكورين إلى السلطان وأخبروه بأن ما صنعه قد يكون سببًا في هياج أوروبا والبابا عليه، وأرادوا بذلك أن يجعلوه يتراجع عن تصرفه، ولكنه رد عليهم بهذا الرد الدبلوماسي المفعم بالوقار:

"أنا أريد أن أحمي المسيحيين بقدر حمايتي للمسلمين بشكل أبوي، إلا أنني اضطررت إلى هدم أبراج «إزمير» التي كانت بمثابة موقد الفساد والشر، لأنه

يلزمني أن أقوم بتوزيع الحقوق بين الناس، وأن أنفذ كل ما ينتظره مني رعاياي وأهلي في سبيل طمأنينتهم. ولا تنتظروا مني أن أقوم بعمل يخالف العدل – حتى لو أصبحت كل أوروبا ضدي –".

ومن أهم الغوائل التي ظهرت في عهده أيضًا ثورة «الشيخ بدر الدين»[٤].

لقد كان أكبر هدف لـ«لشيخ بدر الدين» هو هدم الدولة العثمانية، ولأن «موسى جلبي» ابن «بايزيد» عيّنه قاضيًا دون أن يعرفه، ازدادت شهرة الشيخ ونفوذه، وبالتالي تمكن من جمع عدد كبير من المنحازين له إليه، وبدأت ثورة كبيرة ضد السلطان «محمد جلبي»، إلا أن ثورته أُخمدت في وقت قصير بمساعدة الأهالي الذين ملوا من فترة الفتور والضعف، وكانوا يشعرون بالحاجة إلى الطمأنينة والسكون. وتم القبض على «الشيخ بدر الدين» وأُعدم في محاكمة تشكلت من العلماء. وقد أصدر الحكم بإعدامه القاضي «مولانا حَيْدَرْ» العالم الكبير، وصدّق السلطان على الحكم، وأُعدم أمام «سُوق سَرَزْ».

أما بالنسبة للصرة الهمايونية التي أرسلت لأول مرة إلى الحرمين الشريفين في عهد «بايزيد»، فقد أصبحت مقننة ورسمية في عهد السلطان «محمد جلبي»، وقد خرج أول موكب للصُّـرّة بشكل رسمي في عام ١٤١٣م إلى مكة والمدينة بأربعة عشر ألف

---

٤. إن هذا الرجل شخصية كانت تدافع عن الأفكار الباطلة التي تسمى بـ«الاباحية» ويطلق عليها «الشيوعية» بالتعبير الحالي ويؤمن بالاشتراكية في المال والنساء، وأثناء فترة الضعف والفتور استحوذ على فرصة التطور، وتمكن من جمع عدد كبير حوله، ومما يلفت الانتباه وجود شخص من أصل يهودي كان من بين تلك الجماعة كان يلقب بلقب «طُورْلاقْ كمال» كان يرتب الثورة ويكون خليفة لـ«بدر الدين»، و«الشيخ بدر الدين» هو ابن شخصية اشتغلت بالقضاء في «سِيمَاوْنَه» بالقرب من «سَرَزْ» في الروملي، ولهذا كان يعرف بـ «بدر الدين السيماوي»، وقد لفتت أفكاره أنظار «ناظم حِكْمَتْ» فكتب «ناظم حِكْمَتْ» فيه رواية أسماها «ملحمة الشيخ بدر الدين» أظهر فيها بوضوح البناء الفكري لتلك الشخصية.

قطعة ذهبية، وهذه الخدمة الموقوفة لهاتين البلدتين المقدستين تظهر وبأجمل شكل مدى احترام وحب وارتباط العثمانيين بالنبي ﷺ من خلال بنيتهم الدينية والروحية.

كما قام «سليمان جلبي» أيضًا في هذا العهد بتأليف «المولد الشريف» الذي جسّد حب العثمانيين للرسول شعرًا. فتذكر الرواية أن أحد الواعظين كان على كرسي الوعظ وقال: "إنه لا فرق ولا أفضلية للنبي على باقي الرسل"، فاعترض أحد الحاضرين على ذلك وتلا قوله تعالى:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾ (البقرة، ٢٥٣)

واستمر هذا النزاع لشهور، وقد شعر «سليمان جلبي» الذي كان حفيدًا لـ«الشيخ أدبالي» من هذا النزاع بالحزن كثيرًا، فألف بإخلاص وحب كبيرين كتابه المسمى «وسيلة النجاة» عن النبي ﷺ.

وهذا العمل الذي كتبه ببركة حبه وإخلاصه، كان عملاً مختلفًا ومتميزًا عن بقية الموالد الأخرى، ولهذا استمر حتى يومنا هذا، وبالتأكيد هذا العمل إنما هو رمز لإخلاص «سليمان جلبي» في محبته للرسول ﷺ.

تربى «سليمان جلبي» في عهد «مراد الأول»، وانتسب بـ«الشيخ أمير البخاري» في عهد «بايزيد»، وكان إمامًا على قصر «بايزيد» قام بوظيفة إمامة «أولو جامع» بعد وفاة «السلطان بايزيد» إلى آخر حياته.

❁

لقد قام السلطان «محمد جلبي» بإنقاذ الدولة في وقت قصير من أكبر كارثة تعرضت لها بسبب فاجعة «تِيـمُورْ»، وقام بجهود عظيمة وأعمال كبيرة في الليل والنهار من أجل إيصال الدولة إلى عظمتها وقوتها الأولى، ولهذا عاش فترة سلطنة مليئة بالتعب، وهذه الكلمة المنقولة عنه توضح وبشكل ظاهر هذه الحقيقة:

"لم يعان أحد من مصائب مثل التي عانيت منها في طفولتي".



ولأنه تعب كثيرًا في بداية حياته فقد رقد على فراش الموت وهو في عنفوان شبابه، وكان حريصًا على مصلحة الأمة والدولة لآخر نَفَس في حياته نصح وزراءه وهو في النفس الأخير بتلك النصيحة، التي تحمل الكثير من العبر والعِظات:

"أرسلوا الخبر بسرعة إلى ابني الأكبر «مراد» ليأتي، لأنني سأفارق الحياة، ولو مت قبل أن يأتي فاحرصوا على ألا تشيعوا الخبر، وإلا فإن الدولة كلها ستغرق من جديد في دماء الإخوة كما حدث سابقًا".

لقد كان هذا السلطان المجهز بهذه المسئولية الإلهية شابًّا عند وفاته، ولم يتم إعلان وفاته، أي لم يتم تشييع جنازته إلاّ بعد قدوم ابنه بعد ٤١ يومًا بناءً على وصيته، إن هذا السلطان الذي خدم الأمة والدولة حتى بجسده هذا، جعل كل الناس يصدقون بأنه كان مباركًا إلى أقصى مدى.

رحمة الله عليه!

ويذكر المؤرخون عن «محمد جلبي» الذي كان في جسده أكثر من ٤٠ جرحًا كانت كلها كالذكرى للحروب التي شارك فيها قائلين:

"لقد قضى السلطان «محمد جلبي» معظم حياته مريضًا بسبب الجروح التي تلقاها في الغزوات. ومع هذا لم يتراجع، وحتى وإن كانت خدماته التي قام بها لم تكن عظيمة بقدر عظمة أعمال «السلطان سليم» أو «السلطان محمد الفاتح» إلاّ أنه يعد شخصية مساوية لهم بسبب عمله في القضاء على هذه الفتنة وهذا الاضطراب الاجتماعي، الذي كان يتطلب حله قوة كبيرة، ولأنه استحق بجدارة أن ينال لقب «المؤسس الثاني للدولة العثمانية»، واستلم الدولة وبها الكثير من الأزمات والفتن، وبذل من الجهد والمشقة ما لا تتحمله الأنفس من أجل إيصالها إلى بر الأمان والسلامة، لقد كان وسيلة لتأسيس الكثير من الخيرات، والجامع والمدرسة والمطاعم الخيرية والضريح الأخضر الذي أسسه في بورصة كلها من آثاره".

إن «بورصة» ممتلئة بالآثار التي تدل على طمأنينة وسكون الدولة العثمانية، أما «إستانبول» فكلها آثار تدل على القوة والعظمة العثمانية، وأميز مكان في «بورصة» يتصف بهذا الوصف المفعم بالطمأنينة والسكون هو المكان المجاور لقبر وجامع السلطان «محمد جلبي».

ويمكن القول بأن قبر هذا السلطان العظيم المسمى بـ«الضريح الأخضر»، بالمساحة الخضراء التي حوله وبالمناخ المعنوي المنتشر في المكان أصبح كأنه جنة من جنان الأرض.

وما أجمل ما عبر الشاعر عن هذا الحظ المعنوي الذي شعر به في «بورصة» عندما قال:

أشعر في نفسى كأنى في بداية معجزة

الوقت في بورصة نجفة من بلور

من صوت خرير المياه وخفقان أجنحة الطيور

لقد تجولنا بالأمس في الضريح الأخضر

وسمعنا صوت القرآن المكتوب على الخزف

من الزمان وكأنه موسيقى

وتوجد تلك العبارات التالية عن «محمد جلبي» على الآثار التي أسسها:

«سلطان الشرق والغرب»

«خاقان العرب والعجم»

«المؤيد بتأييد رب العالمين»

«معين الدنيا والدين»

«السلطان الأعظم»..

اللهم أحسن إلى أمة محمد التي أوشكت على الدخول إلى القرن الواحد والعشرين وهي لا تزال مشتتة، مشاعر وروح الاتحاد التي جعلت «محمد خان جلبي» يوحد أمته!

آمين!!!.







السلطان المهرول من نصر إلى نصر؛
سيف الإسلام الذي أرعب الصليبيين

السلطان مراد خان الثاني

(١٤٠٤ - ١٤٥١م)

سادس السلاطين العثمانيين.

جلس على العرش بعد وفاة والده، وكان عمره حينئذ ١٨ عامًا، وكان أول عمل له هو أمره بدفن والده في قبر الضريح الأخضر.[١]

وبعد الدفن بيوم، قام «أمير سلطان البخاري» صهر السلطان «بايزيد» بتقليد السلطان «مراد الثاني» السيف، وبذلك تحقق أول مراسم لتقليد السيف، الذي استمر مئات السنين في الدولة، وهذا التقليد تقليد السيف يتم بيد سلطان من سلاطين المعنى.



لم يكن التاج رمزًا للسلطنة عند العثمانيين، وبالرغم من ورود تعبير صاحب التاج في المتون الرسمية، إلا أن الرمز الحقيقي للسلطنة في الدولة العثمانية كان البيعة وتقليد

١. لقد كان أول أمر يصدره السلاطين العثمانيون عندما يجلسون على العرش هو أمرهم بدفن سلفهم.



السيف. واستمر هذا الوضع حتى السلطان «وحيدالدين» الذي كان ترتيبه السادس والثلاثين في السلاطين العثمانيين.

كان مكان تقليد السيف بعد فتح «إستانبول» عند قبر الصحابي الجليل «أبي أيوب الأنصاري» رضي الله عنه، ولهذا كان يُقال عن مراسم تقليد السيف «موكب السيف».

والسيف الذي كان يتقلده السلطان الجديد هو سيف سيدنا «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه المحفوظ حاليًا في قصر «طوب قابي سراي». وكان يقلده للسلطان أكبر رجل دِينٍ في الدولة، ثم يقوم بعدها بتهنئة السلطان بالدعاء له بشكل جهري، أما بالنسبة لتهنئة الأجانب فكان في خيمة سلطانية داخل سور «أَدِرْنَة قابي».

وحتى عام ١٨٣٩ م أي عام إعلان «فرمان التنظيمات»، لم يكن يُسمح لغير المسلمين أن يطؤوا المنطقة المحيطة بـ«أيُّــوب». وبعد تهنئة الأجانب بجلوس السلطان على العرش كان السلطان يذهب إلى معسكرات الانكشارية، التي تمتد من «زَيْـرَكْ» و«شَهْزادَه بَاشِي» حتى «قَرَه كُويْ»، أما البناء المركزي لهم فكان في «قَرَه كُويْ»، وكان السلطان هو القائد الأعلى لفرقة الانكشارية كلها، فقد كان الجيش الانكشاري بمثابة الجيش الخاص.

انظروا إلى تكامل هذا النظام، لقد كان الانكشارية الذين كان كل فرد منهم من «الدَّوْشِيرْمَه» بمثابة الحراس للسلطان، بل إنهم كانوا يستعدون بحماس كبير دائمًا لحملات الجهاد التي تخرج كل صيف إلى الأراضي، التي ولدوا فيها، كانوا يذهبون إلى تلك الأراضي التي ولدوا فيها من أجل الفتوحات وإعلاء كلمة الله عز وجل، وأكثر مظهر يستدعي الدقة هنا هو هذه المراسم التي كان يتم فيها تقليد السيف.

وكان «أغا» الانكشارية يكرم السلطان بقدح من الشراب عندما يذهب السلطان إلى مقرهم الرئيسي، وكان السلطان يكرم حامل القدح فيملأ القدح بالذَّهَب بعد أن يفرغ من الشراب. وعندما يأخذ «أغا» الانكشارية هذا الذهب يتراجع من أمام السلطان ويقول له:

"إن خدامكم الجنود يرجون أن تكون أول حملة لهم صوب روما الغربية"،

فيرد السلطان بقوله:

«إن شاء الله!»،

فيصيح الجنود كلهم في صوت واحد: «إن شاء الله!»

وقد استمرت تلك المراسم حتى إلغاء لواء الانكشارية عام ١٨٢٦م.

وهنا يجب أن نتوقف عند نقطتين مهمتين بخصوص مراسم تقليد السيف التي بدأت بالسلطان «مراد خان الثاني»:

١- كان السلاطين يأكلون بمفردهم تمامًا من أجل الحفاظ على هيبتهم ووقارهم، ومن أجل حماية أنفسهم من الاغتيال. كما كان الطعام يأتي في أوانٍ مغلقة ومختومة بأختام من الفضة، وكان رئيس الطباخين هو المسئول عن ختم تلك الأواني بخاتمه الشخصي، ولكن السلاطين كانوا لا يرون بأسًا من تناول المشروب الذي يقدمه «أغا» الانكشارية بعد انتهاء مراسم التهنئة، وكان هذا دليلا على تكامل النظام في الدولة العثمانية، لاسيما وأنه كان يعيش فيها أفراد من «الدَّوْشِيرْمَه»، إلا أن أحد العوامل الرئيسية التي أدت إلى استمرارية الدولة العثمانية هو ذوبان هذا العنصر الأجنبي في البوتقة العثمانية المفعمة بالإيمان والحب والعدالة والحق.

٢- لقد أحيى العثمانيون فتوحاتهم التي استمرت لقرون طويلة بنموذجية "التفاحة الحمراء" الخيالية، وبعد فتح إستانبول أصبحت روما الغربية هي التفاحة الحمراء، وإذا ما تذكرنا الأحداث المحزنة التي قام بها الروس في الجبهة الشرقية في «بايبُورْتْ» وفي الجبهة الغربية في «أَدِرْنَة» عام ١٨٢٨ م، لتبين لنا مدى أهمية تعاهد السلطان والجنود فيما بينهم بأن أول حملة سيخرجون إليها ستكون صوب روما الغربية منذ بدء مراسم تقليد السيف وحتى قبل أحداث الروس بعامين فقط.

❁

ولما جلس السلطان «مراد الثاني» على العرش، قام إمبراطور بيزنطة بتهنئته ولكنه تصرف بوقاحة لما طلب منه أن يرسل إليه إخوته. فكان يظهر أنه يريد الاعتناء بتربيتهم وأنه يريد أن يكون السلطان في سكينة وطمأنينة.

ولكنه في الحقيقة كان يهدف إلى أخذ هؤلاء الأمراء عنده رهائن بمقابل نشوب حملة محتملة عثمانية عليه.

وقد رد السلطان «مراد الثاني» على هذا الزيف بوقار وأدب وحزم، حيث قال لسفراء الإمبراطور عن طريق «بايزيد باشا»:

"قولوا لحاكم بيزنطة: إن تربية أولاد المسلمين عند غير المسلمين لا تتفق مع الشريعة المحمدية،

وقولوا له أيضًا:

"عليه ألا يخل بمثل هذا التصرف بعلاقات الصداقة التي بيننا".

وبناءً على هذا قام إمبراطور بيزنطة بتحريض الأمير «مصطفى» (عم السلطان) والذي كان موجودًا في بيزنطة. وكان يريد أن يمزق الدولة العثمانية ولكنه لم يوفق، وعُرفت حركته في التاريخ باسم «دوزْمَجَه مصطفى». إلا أن تلك الحركة قُضي عليها في وقت قصير بالمساعدات المعنوية التي وقعت. ويتحدث «أمير البخاري» عن هذه المساعدات المعنوية فيقول:

"لقد سُلبت السلطنة من يد «السلطان مراد خان الثاني»، وتقابلت مع حضرة النبي ثلاث مرات، وتوسلت إليه بأن يبقى «السلطان مراد» في السلطنة".

وببركة هذه الهمة وهذا الدعاء مرض «الأمير مصطفى» الذي كان قد خرج في تلك الأثناء بجيش قوي وكبير، بمرض في أنفه كان يجعله ينزف الدم بشدة منها لمدة ثلاثة أيام بلياليها، لدرجة أنه لم يكن يقدر على فعل شيء بسبب هذا، ولما رأى من معه الوضع على هذا النحو انتقلوا إلى ناحية «السلطان مراد»، إلى أن وصل «الأمير مصطفى» إلى درجة لا يمكن القتال بها، وبذلك قضي عليه بسهولة.

بعدها قام «السلطان مراد» بالقضاء على كل المؤامرات والتحريضات التي قام بها البيزنطيون، حتى قام في النهاية بحصار «إستانبول» ليكون مظهرًا لبشارة الرسول ﷺ. وقد استولى على أراضي بيزنطة الواقعة خارج السور.

وقد شارك في الحصار ٥٠٠ مريد بقيادة «أمير سلطان البخاري»، كما شارك فيها العديد من المشايخ وعلماء المعنى، واستمر الحصار أربعة أشهر، ولكن مع الأسف لم تصل إلى النتيجة المطلوبة بسبب ظهور الحوادث المختلفة في الأناضول والتي حدثت بتحريض أيضًا من بينزنطة.

وبالرغم من هذا أوصل «مراد خان الثاني» الدولة إلى نفس القوة التي وصلت إليها في عهد «بايزيد»، بل إنها فاقت ذلك، فقد تحرك «مراد الثاني» بإرادة وبصيرة وقوة، ونجح في الحصول على نجاحات عديدة في زمن قصير، فقد عمل على تأمين وحدة الأناضول، وفي الوقت نفسه عمل على استمرار الفتوحات في أوروبا بنفس الحيوية، وبذلك جعل الدولة العثمانية أكبر دولة في العالم.

لقد كان هذا السلطان الذي أعلى دولته بهذا القدر يخيف حتى الملوك الذين يخرجون لحربه، ويجعلهم يبحثون عن الحيل لإنقاذ حياتهم، ومن هؤلاء ملك ألمانيا الذي انهزم أمام «السلطان مراد» ركب حصانه وفرّ من ميدان المعركة. وأخذ يجري بسرعة حتى وصل إلى مكان يشعر فيه بأنه في مأمن. وبالرغم من هذه القوة، كانت السياسة التي تعقبها «السلطان مراد الثاني» في غاية الحكمة والتعقل، والحادثة التالية توضح ذلك بشكل جيد:

بعد هزيمة «السلطان بايزيد» في موقعة «أنقرة»، أصبحت الدولة العثمانية تدفع الخراج لـ«تيمور» لمدة استمرت بضع سنوات، ولما جاءت «الدولة الإيلْخانِـيّة» استمرت في تحصيل الخراج من الدولة العثمانية بدعوى أنهم ورثة «تِيمُور»، وقد استمر هذا الوضع حتى عهد «مراد الثاني»، وفي عهد «مراد الثاني» قال الباشوات الذين شعروا بقوة الدولة العثمانية:

"يا مولانا السلطان! لماذا ندفع الخراج لهم؟ إننا الآن أصبحنا قوة كبيرة ونستطيع عدم دفع هذا الخراج لهم، فأجاب «السلطان مراد» بهذا الجواب العاقل الحكيم: "إنهم غير منتبهين الآن لقوتنا وعظمتنا، وإذا ما قمنا في الوقت الحالي برفض منحهم هذا الخراج سيذهبون وسيعدون الجيوش ويأتون لحربنا، وسننتصر عليهم، ولكن سيضيع في هذا دماء الكثير من المسلمين، ولهذا عليكم بدفع الخراج لهم، ولتِعُدُّوا لسفرائهم المواكب، ولتظهروا لهم قوتنا العسكرية، وإذا ما علموا وتيقنوا من داخلهم بأننا أصبحنا قوة كبيرة لم يتجرؤوا هم من تلقاء أنفسهم على طلب المال منا".

وبالفعل حدث ما توقع «السلطان مراد»، وبهذا اشترى دماء المسلمين بهذا المال.

وتعرض هذه الحادثة دهاءً سياسيًّا وحنكة إسلامية كبيرة، فتجنب الحرب وسفك دماء المسلمين بهذه الصورة الحكيمة إنما هو مظهر براق ينم عن المسئولية، التي شعر بها «السلطان مراد الثاني» في سبيل الله. وهذا الفكر أيضًا كان أحد العوامل المؤثرة التي أعلت الدولة العثمانية.



وفي الليلة التي وُلد فيها «السلطان الفاتح» لم ينم «السلطان مراد الثاني» وظل طوال الليل يقرأ القرآن، وانتظر البشارة بميلاد ابنه، وبينما كان يقرأ سورة الفتح وصلته البشارة، حيث قالوا له: ابشر يا مولانا السلطان! لقد رُزقت بولد،

فقال «السلطان مراد» بشكل لا إرادي:

"الحمد لله، لقد تفتحت وردة محمدية في روضة مراد"،

وأسماه محمدًا، ثم أمر بأن تعم الأفراح كافة الأرجاء ابتهاجًا بقدوم محمد.

لقد ابتهج «السلطان مراد الثاني» كثيرًا لميلاد ابنه محمد، ولهذا أمّن له التربية الجيدة. لدرجة أن الأمير محمدًا أصبحت لديه قابلية للحكم وهو في الثانية عشرة من عمره، ولهذا رأى «السلطان مراد الثاني» أن يتنازل عن العرش لابنه الأمير محمد، وأن يعتزل هو في «مغنيسيا».



وقد كانت حادثة تنازل «السلطان مراد الثاني» لابنه الأمير محمد عن العرش من أهم الحوادث في التاريخ، ولعل أكبر حكمة في هذا التنازل هو أن «السلطان مراد الثاني» كان صاحب مشرب صوفي، حيث أراد أن يعتزل الحياة ويتفرغ للعبادة من ناحية، ويعد ويهيئ ابنه لفتح «إستانبول» من ناحية أخرى، لأن «السلطان مراد الثاني» كان يهتم اهتمامًا كبيرًا بفتح «إستانبول»، وبذل الكثير من المساعي في سبيل تحقيق تلك الرغبة، وقد استمرت جهوده هذه حتى قابل «الحاج بيرام الولي»، ولما أخذ البشارة منه بأن هذا الفتح المبين سيكون من نصيب ابنه محمد، بدأ «السلطان مراد» يعيد ترتيب أوراقه وتنظيم شئوونه من جديد، حيث صدق بعقله وقلبه كلام هذا الولي الكبير، ولأنه كان يرغب في أن يرى هذا الفتح في حياته تنازل عن العرش لابنه وهو لا يزال في الثانية عشرة من عمره.

وقد كان لقاء «السلطان مراد الثاني» بسلطان المعنى في عصره «الحاج بيرام الولي» على هذا النحو: كان عدد مريدي «الحاج بيرام الولي» - الذي كان من كبار أولياء الله الصالحين - يزداد يومًا بعد يوم، وتعدى اسمه حدود «أنقره»، وانتشر في كل أرجاء الدولة، وبالرغم من أنه كان يوجد له محبون، كان له أيضًا أعداء. وقد قام هؤلاء الحُسَّاد بنقل معلومات خاطئة لـ«لسلطان مراد الثاني» عن «الحاج بيرام الولي»، إلا أن السلطان كانت لديه معلومات سابقة عن الشيخ من محبيه، فقد قال حساد الشيخ: إنه يسعى للخروج على الدولة، إلا أن السلطان لم يغب عن فكره ما قيل عن الشيخ بأن مريديه كثيرون، وأنهم يعملون في الحقول ويساعدون الفقراء. فتحرك السلطان من هذا المنطلق، فأرسل مبعوثين إلى «الحاج بيرام الولي» ونبه عليهم بأن يحترسا ولا يظهرا أي تقصير تجاه الشيخ، وأمرهما بدعوته إلى «أدِرْنَة».

ولأن «الحاج بيرام الولي» كان يعلم بطريق المعنى بقدوم المبعوثين المذكورين، خرج هو وتلميذه «آق شمس الدين» إلى خارج «أنقرة» لاستقبالهما، وقبلا دعوة السلطان، ولما وصل الاثنان إلى أدرنة استقبلهما السلطان خير استقبال، وقال السلطان لـ«الحاج بيرام الولي»:

"سيدي لقد أتعبناكم كثيرًا في الوصول إلى هنا. فرد عليه الحاج بيرام:"لا تعب ولا مشقة إذا ما كانت النتائج مباركة وجيدة".

تناقش السلطان مع هذا الولي كثيرًا، وقد سأل «السلطان مراد الثاني» «الحاج بيرام الولي» أسئلة كثيرة ومختلفة، ولكنه فرح جدًّا بالأجوبة التي كان يتلقاها منه، ونهض واقفًا، وانكب على يد الشيخ طالبًا تقبيلها، إلاّ أن الشيخ سحب يده على الفور وقال للسلطان:

"أنت سلطان تهتم بأمور المسلمين في الدنيا، ومهمتك أن تحفظ نظام الدولة والأمة، أما وظيفتنا فهي أن نجعل الأهالي يليقون بتلك الدولة، نحن ندعو لكم، ونحن نعد خدمة الأهالي عبادة كبيرة، وأقول لك: إنك إذا ما تمسكت بوصية جدك بعدم ترك الجهاد، فإنك بالتأكيد ستصل بالفتوحات إلى روما".

وحينئذ بدأت العلاقة بين «السلطان مراد» وبين هذا الشيخ الكبير فكانت علاقة مريد بشيخه. ففي مصاحبات السلطان لهذا الشيخ، كان السلطان يتخلى عن عباءة السلطنة تمامًا، ويكتسي كسوة المريد.

لقد كان السلاطين العثمانيون من أولهم وحتى آخرهم علماء وشعراء ومتصوفة، فقد كان كل سلطان منهم ينتسب لأكثر المشايخ اعتبارًا في عهده، ويسير على إرشاده، وبهذا كانت هناك مساندة وعالم معنوي يكمن خلف كل هذه القوة وهذه الانتصارات الظاهرية.

وبالرغم من تلك القوة وهذه العظمة التي اكتسبتها الدولة، كان «السلطان مراد الثاني» متواضعًا للغاية، وكان سلطانًا في عالم المعنى بقدر سلطنته الظاهرية، وأكبر دليل على سلطنته في عالم المعنى لقاؤه بـ «الحاج بيرام الولي»، وتنازله عن طيب نفس عن عرش دولة عظيمة.

وعندما التقى «السلطان مراد الثاني» بـ «الحاج بيرام الولي» أحضر الولي مهدًا، نظر الولي إلى المهد وبدأ يقرأ سورة الفتح. تعجب الجميع، فلم يستطيعوا تفسير

معنى قراءة الشيخ سورة الفتح قبل أن يطلع على من هو في المهد، وبعد أن أنهى الشيخ القراءة، نظر إلى السلطان وقال له:

"أنت إنسان كامل، فهل تقرأ هذا المصراع الجميل الذي نظمته من أجل ولدكم مرة أخرى؟"

تعجب «السلطان مراد» ونظر إلى الشيخ، لأنه لم يُعلم الشيخ بهذا المصراع الذي قاله عندما بشروه بولادة ابنه، وسعى لمحاولة فهم المعنى الذي يقصده الشيخ، وقال:

"لقد تفتحت وردة محمدية في روضة مراد".

وبعد أن قرأ السلطان البيت، أدرك مدى علو درجة مصاحبته لشيخ كبير كهذا، فشكر الله ﷻ، وسكت لكي يدرك ويفهم الفضائل التي نثرها الشيخ أمامه، ولما سكت هز الشيخ «بيرام الولي» رأسه بشكل متواضع وركز بصره على مكان ما وقال:

"مولاي السلطان، لقد فعلت كل ما في وسعك أنت و«السلطان بايزيد» أثناء حصار «إستانبول»، إلاّ أن الله ﷻ لم يقدر فتحها لكما، وهذا لأن وقت فتحها لم يحن بعد، لأن كل شيء مرهون بقدر الله ﷻ لزمن مقدر".

عندئذ قال «السلطان مراد الثاني» بشكل لا إرادي:

"إذًا مَنْ سيقدر الله له فتح «إستانبول»، يا ترى هل أحظى أنا بهذا الشرف؟ ".

أكمل «الحاج بيرام الولي» كلامه قائلاً:

"مولاي السلطان، إن فتح «إستانبول» لن يكون مقدرًا لك، نعم إن هذه المدينة المباركة ستفتح بالتأكيد، ولكني أنا أيضًا لن أرى هذا الفتح، إن فتح تلك البلدة الطيبة سيكون من نصيب وردتكم المحمدية الذي في المهد وتلميذنا «آق شمس الدين»"

بدأ كل الحاضرين في البكاء ونزلت من أعينهم الدموع، وكأنها قطرات اللؤلؤ، وامتلأ المكان بجو معنوي ووجداني كبير. فقد أجاب الولي عن كل أسئلتهم دون أن



يسألوها، وبذلك فرح الجميع وعلى رأسهم السلطان من هذه الضيافة المعنوية، ثم اختتم «الحاج بيرام الولي» كلامه للسلطان بقوله:

"مولاي السلطان، يجب أن تترك محمدًا إلى معلمه أي إلى «آق شمس الدين»، فإننا نعلم قدرته ولياقته".

وحينئذ أحنى «آق شمس الدين» الذي كان سيحمل على عاتقه تربية هذا الفاتح الكبير رأسه بتواضع، وغاص في بحر من التواضع.

وبعدها بدأ «السلطان مراد خان» ينير الطريق لابنه، ولما وصل ابنه إلى الثانية عشرة من عمره ترك له السلطنة، وذلك لأنه كان يرغب بشدة في رؤية فتح «إستانبول» قبل مماته، ولهذا قضى على كل المخاطر التي يمكن أن تأتي من الغرب بالاتفاقيات التي عقدها معهم.

ولما ترك «السلطان مراد الثاني» العرش وانسحب إلى «مغنيسيا» كان فعله هذا في سبيل الله ﷻ، وقد نظم البيتين التاليين في توضيح ذلك:

لنذهب ونذكر الله يومًا أو يومين،

فهل استودعونا هذه الدنيا الكاذبة...

وكل هذا يُظهر أن تنازل «السلطان مراد» عن العرش لابنه إنما كان من أجل البشارة التي بشره بها «الحاج بيرام الولي»، وكذا من أجل التمكن من رؤية هذا الفتح المبين، لا سيما وأن النصيحة التي استمرت من عهد «الغازي عثمان» والتي كانت تقول: "افتح إستانبول واجعلها جنة"، ووصية «السلطان مراد الثاني» لابنه «محمد الفاتح» بقوله "بني! لتَفتح إستانبول!"، إنما هي كافية لإظهار شدة هذه الرغبة لديهم.



وقد كان «السلطان مراد» تنازل عن العرش لابنه البالغ من العمر ١٢ عامًا سببًا

في تحرك كل أعداء العثمانيين، حتى إن «ابن قَرَمَانْ» كتب رسالة إلى ملك المَجَرْ قال فيها:

"لن تجدوا فرصة أحسن من هذه، لأن ابن عثمان أصابه الجنون، فقد ترك العرش لابنه البالغ ١٢ عامًا، أنتم تهجمون من هناك، ونحن من هنا، ولنقض عليهم".

وبالرغم من أن ملك المجر كان قد عقد اتفاقًا مع «مراد الثاني» على الصلح بينهما مدته عشر سنوات، وأقسم على الإنجيل بأنه لن يخل بالاتفاق، إلا أنه أراد الاستفادة من تلك الفرصة، فحصل على فتوى من البابوية بالإخلال بالاتفاق، وقد جاء في تلك الفتوى ما يلي:

"لما أنّ الأتراك ينكرون ألوهية عيسى، -حاشا- فهم كفار، ومع الكفار يجوز الإخلال بالاتفاق حتى ولو كان هناك قسم على الإنجيل".

وبذلك حصل ملك المجر على الفتوى بأنه لا حكم للقسم تجاه المسلمين، فأمر بتشكيل جيش صليبي كبير، وهجم على الحدود العثمانية، وبدأ في التقدم بسرعة كبيرة.

وفي تلك الأثناء كان «محمد الفاتح» قد بلغ من العمر ١٣ عامًا، ولأنه كان ذكيًّا فقد جمع الديوان بسرعة، وقيّم الموقف، وقرر استدعاء والده إلى العرش مرة أخرى، ولما أُخبر «السلطان مراد الثاني» بقرار الديوان، لم يقبل ذلك وقال:

"لقد كان هدفنا من منح السلطنة إلى ابننا محمد هو قضاء ما بقي من عمرنا في الطاعة والعبادة، وعليه أن يحافظ على الدِّين والدولة بموجب هذه السلطنة".

فردَّ «محمد الفاتح» على والده مراد الثاني بهذه المقولة التاريخية المشهورة:

"أبي المحترم! إن الدِّين والدولة في خطر، وإن كنت أنت السلطان فأقبل وكن على رأس الجيش، وإن كنت أنا السلطان فأنا أعينك قائدًا عامًّا على الجيش".



اضطر «السلطان مراد الثاني» إلى تلبية دعوة ابنه، وخرج بالجيش إلى مكان يسمى «وَارْنَه»، ولما رأى الأعداء هذه التطورات السريعة اضطربوا، لأنهم رأوا «السلطان مراد الثاني» على رأس الجيش.

وقبل بدء المعركة قام «السلطان مراد» فصلى ركعتين ثم توجه بيديه إلى السماء ودعا الله من قلبه وروحه بما يلي:

"يا ربي! لا تقهر أمام الكفار هؤلاء المؤمنين الذين أتوا إلى هنا في سبيلك بسبب كثرة ذنوبي، اللّهم احفظ هذه الأمة بحرمة حبيبك، واجعل النصر حليفًا لهم".

ولكي يقوم بإظهار خيانة الكفار ونقضهم للعهد وأن الله تعالى سيعاقبهم على ذلك علق «معاهدة سَزَجَدِينْ» التي وقعها من قبل مع المجر على سن رمحه.

بدأت الحرب بشكل عنيف للغاية، وكان النصر حليف العثمانيين، وتشتت الأعداء، حتى أن ملك المجر قُتل، وقد أمر «السلطان مراد الثاني» بأن تُقطع رأس ملك المجر وتُعلق مكان المعاهدة، التي كانت على سن رمحه ليكون عِبرة، في ذلك اليوم اهتزّ «وَارْنَه» بنداءات "هذا جزاء الله لَمَنْ لم يف بالعهد" حتى انتشرت في كل أوروبا.

وقد كان من نتائج موقعة وَارْنَه حصول العثمانيين على العديد من الأماكن المهمة في أوروبا، وأصبحت تلك الأماكن تحت حكم العثمانيين لقرون طويلة، وقد تمكن «مراد الثاني» من إيصال الدولة العثمانية إلى أوج قوتها وعظمتها بهذا النصر.

وبعد انتهاء المعركة قام السلطان بتفقد ساحتها، فوجد أن معظم القتلى من الأعداء شباب، فقال لرجل كان يسير بجواره يدعى «عذاب»:

"يا عذاب! لا يوجد مسن واحد بين هؤلاء القتلى، يا للعجب لا أرى رجلا واحدًا ابيضت لحيته بين القتلى".

ولأن «عذاب بَكْ» أدرك المعنى الذي يريد السلطان قوله أجاب بقوله:

"نعم يا مولاي السلطان! لا يوجد مسن واحد بينهم، وإلا لو كان فيهم مسنون ما تجرءُوا على خوض حرب كهذه، وتعرضوا لمثل تلك المصيبة، يا مولاي! ربما أن المسنين منهم لم يشاركوا في تلك المعركة، لأنهم كانوا قد جربوا الدرس من قبل أيام بايزيد". رحمه الله.

وبعد النصر، كتب «السلطان مراد الثاني» رسائل بالفتح وأرسلها إلى كل الأطراف، وقد شعر كل المسلمين بالفرح في كافة بلدان الإسلام من هذا الانتصار، الذي تحقق على الجيش الصليبي، حتى إن السلطان المملوكي في «مصر» أمر بعدم قراءة الخطبة باسمه بعد اسم الخليفة العباسي في «مصر» بل جعلها باسم «السلطان مراد». وذلك تقديرًا منه له على هذا الانتصار.

وقد كانت رسالة الفتح التي أرسلها «السلطان مراد الثاني» بخصوص فتح «وَارْنَه» تنص على ما يلي:

"لقد منّ الله تعالى الذي أحاط كل المخلوقات برحمته وإحسانه عليَّ بإدارة المسلمين وحل مشكلاتهم، ودفعها، وتنفيذ أوامره، والعمل على طمأنينة وراحة المسلمين.

ولهذا فقد جعل الله تعالى دولتنا ثابتة بعنايته الربانية وحمايته السبحانية، وجعل سلطنتنا محكمة ثابتة، ونظام دولتنا متناغمًا. وقد أراد منا أن نكون أصحاب رحمة بقدر ما نحن أصحاب قوة، وأظهر لنا تجليات نصرته في كل وقت وحين، وجعلنا أرباب علم وعرفان وأصحاب بصيرة ورحمة وجود، وثبّت في قلوبنا الأمر الإلهي الموجود في الآية الكريمة رقم ٦٩ في سورة العنكبوت[٢]، كما أنه جعلنا مظهرًا للبشارة الواردة في سورة آل عمران في الآية رقم ١٦٩:

---

٢. وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾



﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (آل عمران، ١٦٩)

ولكي نستطيع أن نؤدي شكر الله تعالى على إحسانه ونعمه التي لا تحصى، فإننا نسعى جاهدين في كل وقت وحين لخدمة الدين الإسلامي، وسلامة وسعادة كل البشر من ناحية الروح والفكر والبدن والمال، وهم الذين استودعهم الله أمانة لنا. ولأن السعادة الدنيوية والأخروية للبشر لن تتحقق إلا باتباع الدين الإسلامي، فإننا قد حصرنا كل عمرنا وكل ما نملك من أجل إعلاء دين الحبيب المصطفى ﷺ ورفع رايته، وإيصال هذا الدين إلى كل البشر، وسعينا إلى نشر وإحياء سُنته السنية إلى كل البشر.

إن هذه هي غايتنا وهدفنا البحت في هذه الدنيا، فتحنا البلدان بهذه النية الخالصة، وسعينا لأن نكون دواء لآلام المتألمين من عباد الله، ولم نتأخر دقيقة واحدة في تأمين كل شيء يلزمنا من أجل الجهاد في سبيل الله ﷻ، والحرب ضد مَنْ يفسدون في الأرض أو ينشرون الفتن. وأعددنا لذلك أفضل الأسلحة والمهمات، لم نضعْ الوقت هباءً، ولم نعامل كل الأهالي الموجودين تحت إدارتنا بالظلم أو الجور بل عاملناهم بالعدل والإنصاف، ودائمًا ما كنا نتصرف بمشاعر الرحمة والإنصاف.

وقد كان هذا حالنا منذ تأسيس تلك الدولة وحتى الآن، فقد عاش ملايين الناس الذين تحت إدارتنا في سعادة ورفاهية وعدل، وحملنا سيوفنا المباركة وأسلحتنا المختلفة إلى كل معاند خائن سفيه من أعداء الدين وإلى كفار مقهورين، أسأل الله تعالى أن لا يوفقهم ويجعلهم مغلوبين مدمرين حتى لا يبقى على الأرض من الملاعنة أحد ويهلكوا هم وآثارهم. والحاصل؛ يجب على كل مسلم إعلام وإبلاغ رسالة الفتح هذه من على المنابر، وليعوا تمامًا النعمة العظيمة لله تعالى عليهم، ويشكروه ما

استطاعوا، وليقوموا بعمل الخيرات وتقديم الصدقات ليزداد عون الله ونصرته لهذا الدين، وليقوي ديننا ودولتنا ويرفع من شأننا، ولا يحرمنا من هذه السعادة.

ولينبأ هذا الفتح وينشر على كافة المسلمين، وليدعوا لدولتنا بالسعادة والبقاء، ولا ينقطعوا عن الدعاء. والسلام".

وبعد انتصار وَارْنَه عاد «السلطان مراد الثاني» الذي كان على رأس الجيش بصفة القائد العام إلى أدِرْنَة، وبعد سنة تنازل لابنه عن العرش مرة أخرى وذهب إلى مغنيسيا، ولكن إصرار ابنه ورجال الدولة على عودته مرة أخرى كان سببًا في رجوعه إلى العرش للمرة الثالثة.

ويمكن القول: إن أحد الأسباب الرئيسية التي كانت تدعو «السلطان مراد الثاني» إلى التنازل عن العرش لابنه «السلطان محمد الفاتح» هو الاستعداد والقابلية التي رآها «مراد الثاني» في ابنه، فقد كان ابنه بالرغم من صغر سنه يفكر في أشياء لا يفكر فيها الرجل الناضج، ويسأل والده عنها.

وذات يوم كان «الأمير محمد» يلعب في حديقة القصر، ولما رأى والده ترك اللعبة وهرول نحو والده، وبعد أن سلم عليه قال له:

"يا والدي المحترم!، ما الحكمة في ذلك، بالرغم من الأعباء الثقيلة التي على كاهلك والمسئولية الكبيرة، إلاّ أنني لم أرَ فيك علامات الشيخوخة أو الهرم، وأنت إنسان مسن، وبالرغم من ذلك لا تزال محتفظًا بحيويتك وشبابك وكل آرائك صائبة، كما أرى أنك قائد مظفر في ساحات الحروب، وأستاذ متعمق في مجالس العلم، وصوفي مخلص في خدمة الناس، لا فرق عندك بين الليل والنهار، فكيف تطيق ذلك دون أن ينحني قامتك، وتمتهن روحك؟ كيف ذلك يا أبي؟ كيف أن أفكارك دائمًا صائبة بالرغم من أن الفكر الدائم والانشغال يؤدي إلى إفساد الطمأنينة. ما الدواء الذي تستخدمه لتكون إنسانًا متميزًا بهذه العقلية؟ يا أبي! هل لي أن أتعلم منك لأسير على خطاك؟".

احتار «السلطان مراد الثاني» كثيرًا أمام تلك الأسئلة التي سألها له ابنه الصغير والتي لم يكن يتوقعها، إلا أنه سعد كثيرًا بها، ووجه إليه نصيحة تاريخية قال فيها:

"يا بُني الحبيب! لقد أسعدتني، زاد الله تعالى الذي تدين له كل المخلوقات وكافة البشر بالعبودية مزاياك المتفوقة، ومتعك بالعقل القادر على التفكر والبحث في مثل تلك المسائل الكبيرة.

يا بُني!، أنا أؤمن بأن أي عبد يسيرُ على الطريق القويم فإنه سيجد من النعم ما لا يخطر على عقل بشر في الآخرة بعد وفاته، ولا أشك في هذا الاعتقاد أبدًا، ولهذا فأنا أقوم بكل العبادات والواجبات التي عليَّ بشكل خالص لله، فإني أؤمن بأن ما أعانيه في هذه الدنيا من ابتلاءات وآلام فلسوف يعطي الله تعالى أجرها في الدار الآخرة وإني ألجأ إليه في كل شيء، غير هذا أفكر بأن قدر الله تعالى لي إنما هو صفاء كبير.

يا بُني، يجب عليك أن تبتعد عن تصديق كل ما يُقال لك، وأن تعلم باطن كل أمر على حدة وتفكر فيه، فتقترب من أصل الحقيقة.

وكما أن الفاكهة لا تُؤكل إلا ناضجة، فعليك أيضًا أن تختار دائمًا من الناس من كانت لديه التجربة والخبرة والعلم، وإلا فإن أكلك من العنب غيرَ ناضج يكون بمثابة ضعف في العقل.

يا بُني!، أنا أفكر في أجدادي بين الحين والآخر، وأغوص في التفكير بخصوص عاقبة الأجيال، التي ستأتي بعدنا، والحمد لله إننا رأينا الحب والاحترام والارتباط حتى هذا اليوم، وأنا أتمنى أن يستمر هذا في المستقبل، وأتمنى أن نرحل كما ولدنا.

وعليك أن تعلم هذا جيدًا، إن استمرار أي شيء لا يكون بقوة السيف البتار والقوة المفرطة، فالعقل والتدبير والصبر والحكمة والامتحان والتجارب المسبقة كلها مهمة. فالطريق الأول كما أنه غير مقبول دائما فإن له محظورات كثيرة أيضا. والطريق الثاني لا ينفع بشيء وحده، فعليك أن تتبع كلا الطريقين معا من أجل تحقيق الانتصارات والنجاحات الكبيرة، ولا تنس أن الانتصارات الكبيرة لأجدادنا

وإن كانت تبدو أنها قد تحققت تحت مظلة السيف في الظاهر، إلا أنها في الحقيقة لم تكن إلا بقوة العقل والمنطق والمحبة.

يا بُني!، احترس من أن تتخلى عن العدالة ولو للحظة واحدة، لأن الله تعالى عدل ويحب العادلين، وأنت خليفته في الأرض، وهو قد تلطف عليك بإرادته، وجعلك على رأس عباده، ولا تنس هذا. يا بُني! إن في هذه الدنيا ثلاثة أصناف من الناس:

الأول: وهم العقلاء الذين يفكرون بشكل جيد، وهم الذين يرون مستقبلهم، قليلا كان أو كثيرًا، ويفكرون فيه ولهم طبيعة سليمة

الثاني: وهم البعيدون عن معرفة الطريق الصحيح من الطريق الخاطئ، وهذا ليس باختيارهم وإنما بتأثير أفكار من حولهم، وإذا ما وجهت لهم نصيحة فإنهم يستمعون إليها، ويذهبون إلى الطريق الصحيح، مع ذلك فإنهم يعيشون طبقًا لما يسمعونه في أغلب الأحيان.

الثالث: وهم الذين لا يعلمون شيئًا عن حالهم، ولا يستمعون لنصيحة، بل يفعلون ما يحلو لهم، ويظنون أنهم يعرفون كل شيء، وهم أخطر صنف.

يا بُني!، لو أن الله تعالى خلقك من الذين عددتهم في الصنف الأول فسأكون مسرورًا، وسأشكر الله على ذلك، أما إن كنت من الصنف الثاني فأنا أوصيك بأن تستمع إلى النصح وتعمل به، واحترس أن تكون من الصنف الثالث فهم ليسوا في موقف جيد أمام الله أو الناس.

يا بُني!، إن السلاطين كأمثال الناس الذين يحملون في أيديهم الموازين إلا أن السلطان الحقيقي هو الذي يمسك الميزان بشكل صحيح، وعندما تكون سلطانًا أوصيك بأن تمسك الميزان بشكل صحيح، وحينئذ يريد الله بك خيرًا، ويجعلك من الصالحين، إنه بكل شيء عليم".

وتعد موقعة «قُوصُوَاه الثانية» من أعظم الانتصارات التي اكتسبها «السلطان مراد الثاني» لأن تلك المعركة انتهت بانكسار روح الهجوم كلية لدى الصليبيين، وجعلتهم في حالة لم يستطيعوا النهوض منها إلا بعد ١٥٠ سنة.

خاض المسيحيون معركة «قُوصُوَاه الثانية» بهدف الثأر لهزيمة وارنه، والتمكن من طرد العثمانيين من أوروبا، استمرت تلك المعركة ثلاثة أيام بلياليها، وقد انتصر فيها العثمانيون انتصارًا ساحقًا على المسيحيين، حتى إن القائد المشهور «جانْ هونْياذْ» استطاع أن ينقذ نفسه بصعوبة بالغة بعد أن هرب في جنح الليل من المعركة، وقد اشتركت أوروبا كلها في تلك الحرب ما عدا فرنسا وإنجلترا، والسبب في ذلك أنهم تلقنوا درسًا من هزيمتهم في «نِيكْبولى» وعلموا أن الحرب مع العثمانيين تعد ضربًا من ضروب المغامرة. ويعد انتصار«قُوصُوَاه الثانية» بمثابة الخطوة الأخيرة المهمة، التي عملت على توفير الأمن في البلقان من أجل فتح «إستانبول»، كما أنها أعدت الأرضية المناسبة من أجل تأمين حكم العثمانيين للعالم، لاسيما وأن العثمانيين بعدها أصبحوا أكبر وأعظم قوة على الأرض.



جلس «السلطان مراد الثاني» على العرش في سن مبكر، ولكنه على خلاف السلاطين الآخرين لم يفقد ذكاءه أو تواضعه كلما تقدم في الفتوحات.

وذلك لأنه كان سلطانًا عادلا متدينًا يراعي الواجبات الإسلامية عالمًا وفيًّا بالعهد، وكان يحب الإعمار. كما كان سلطانًا شاعرًا يحمي العلماء وأرباب الفنون ويساندهم. وقد أمر ببناء العديد من المدارس والمساجد والمطاعم الخيرية، وله في أدِرْنَة جامع مشهور وهو «جامع أوجْ شَرَفه لِي»، وله في بورصة الكلية المرادية. ولأن «السلطان مراد الثاني» كان مثل أجداده فقد سار على نهجهم، فكان يفعل مثل جده أورخان قبل مائة سنة فكان يقدم الطعام للفقراء بنفسه، ويوقد قناديل المساجد، لأن غايته كانت إعمار آخرته كما يعمر دنياه.

كان حاكمًا عالي الجناب يتصف بالشفقة والرحمة، بدأ حياة الجهاد وعمره ١٢ عامًا، واستمر به حتى آخر حياته، إلا أنه لم يحارب في حياته قط من أجل الحكم أو التسلط، ويسرد الفرنسي «بَـتْـرانْدُونْ» عنه ما يلي:

"لقد قيل لي إنه كان ينفر من الحروب كثيرًا، وقد رأيت أن هذا صحيح، ولو أنه كان يتصرف من منطلق القوة العسكرية والاقتصادية، التي يمتلكها لتمكن من فتح أوروبا كلها بسهولة، لأنه كان سيرى مقاومة أقل بسبب عدالته".

حتى المؤرخ البيزنطي «دُوقاسْ» الذي اشتهر بعداوته للأتراك لم يجد ما يقوله ضد «السلطان مراد الثاني»، فقال عنه:

"لقد كان «السلطان مراد» يتصرف حتى مع أعدائه مثل الأب يعاملهم بالحلم ولا يحقد عليهم، ويعلم الله كم كان كريمًا تجاه الفقراء والرعايا، ولم يكن هذا موجهًا تجاه أمته أو من هم على دينه فقط، بل شمل أيضًا النصارى، فكان يراعي أحكام المعاهدات، التي يبرمها مع المسيحيين، كان غضبه وحِدّته لا يستمر طويلا. وكان بعد انتصاره لا يرغب قط في القضاء كليًّا على هذه الأمة التي يحاربها، إنه لم يكن ظالمًا أو حقودًا مثلنا".

كان علم «السلطان مراد» وعبادته كثيرة، يتصف بالورع والزهد والتقوى، ولهذا فإنه تخلى في حياته مرتين عن العرش لابنه، ولم يكن هذا نابعًا عن عجز منه في إدارة الدولة، بل نتيجة لزهده، والانتصارات التي حققها كافية لإظهار ذلك.

لقد شهد عهد «السلطان مراد الثاني» تفوقًا في شتى الجوانب، وأصبحت الدولة العثمانية في عهده من أكبر القوى في العالم، وبالرغم من أنه قضى حياته بين صفحات الجهاد والقتال، إلا أنه لم يهمل مسألة العمران، فأسس الكثير من الآثار، ولهذا لُقب بلقب «أبو الخيرات».

ولم يقصر في إظهار الاحترام والرعاية للعلم والعلماء والعزة للأولياء. ولهذا أصبحت الدولة العثمانية في عهده وطنًا للعلماء، وقد أتى «المُنْلا كُورانِي» معلم الفاتح إلى هذا الوطن العثماني في عهد «مراد الثاني».



كان الجميع في الدولة العثمانية يدعون لـ«لسلطان مراد الثاني»، كما كتب الكثير من المؤلفات القيمة في عهده، ومن ذلك رسالة «دانِشمَنْدْنَامَه» لـ«مُنْلا عَارِفْ عَلِي»، وكتب «يازِجِي زادَه علي أفندي» كتاب «تواريخ آل سَلْجُوقْ»، وكتب «يازيجي زاده محمد أفندي» «المحمدية» و«أنوار العاشقين»، وكتب «أشرَفْ الرومي» «مزكّي النفوس»، وكلها مؤلفات يُستفاد منها حتى يومنا هذا، وعند التدقيق في تلك المؤلفات يتضح أن أكثر المؤلفات كتبت في عهد «السلطان مراد الثاني».

لقد كانت كل النجاحات التي ظهرت في ساحة السيف والقلم في عهد «مراد الثاني» نابعة من حرصه الديني. وكما أن خوفه من الله لم يعط الفرصة لأي تراخٍ، كان أيضًا يمثل قوة تعمل على حفظ حقوق العباد والعدل.

وذات يوم احتاج «السلطان مراد الثاني» مالا لبعض احتياجاته الشخصية، فأخذ قرضًا من وزيره «جَانْدَرْلي»، ولما رأى فضل الله باشا هذا تعجب وقال:

"مولاي السلطان!، يجب أن تكون هناك خزينة خاصة للسلاطين، أرجو أن تصدر أمركم بهذا، لكي نؤمن لكم هذه الخزينة".

فسأله السلطان: "كيف؟ ومن أين ستؤمنون هذه الخزينة؟"

فأجاب «فضل الله باشا»:

"يا مولاي!، إن هناك الكثير من الأموال لدى الأهالي في الولايات، ولا حرج للسلاطين أن يأخذوا من هذه الأموال بطريقة ما".

وحينئذ نهض السلطان من مكانه محتدًّا وقال:

"يا باشا! كيف يكون ذلك؟ كيف تفكر في هذا وتقترحه عليّ، ألا تعلم أن في ولايتنا ثلاث لقمات حلالاً، الأولى من المعادن، والثانية من الجزية، والثالثة من الغنيمة. ألا تعلم أن جيشنا هو جيش الغزاة، ويجب أن نطعمهم حلالا، ألا تعلم أننا لو أطعمنا جنودنا لقمة حرام فإننا بذلك نجعلهم لصوصًا، واللص جبان، إذا ما رأى أصغر صعوبة فر هاربًا، وحينئذ سيكون وضعنا صعبًا للغاية".

وبعد هذا الاقتراح الذي اقترحه «فضل الله باشا» بأن يعمل على تأمين خزينة غير مشروعة في الدولة، عزله السلطان من وظيفته، لأنه أدرك أنه لن يراعي حقوق العباد.

لقد كان «السلطان مراد» لا يفكر في راحته، بل يفكر في رضاء الله تعالى، وكان صاحب إرادة قوية وعزم ثابت في هذا الأمر بالدرجة التي تجعله لا يتراجع عن تقديم روحه فداء، لقد كانت أكبر غاية عنده هي الإيمان لآخر نفس في حياته، وأن يقف بين يدي الله ناصع الجبين خاليًا من الذنوب، وبعد أن زوّج «السلطان مراد» كل أولاده وبناته قال لوزيره «جانْدَرْلي إبراهيم باشا»:

"الحمد لله على أن أعانني على القيام بواجبي نحو أولادي، ولم يبق أمامي سوى الهجرة إلى الدار الآخرة بالإيمان."

❀

وقبل وفاة «السلطان مراد» خرج ذات يوم للتجول فقابل زاهدًا عند أحد الجسور، فسلم عليه، وبعد أن رد عليه الزاهد السلام قال له:

"يامولاى السلطان! لقد اقترب أملك عليك أن تزيد من التوبة والدعاء"

فشكر السلطان الزاهد ودعا له، لأنه كان يحب مَنْ يذكّره بالموت، وكان يستمع بكل انتباه إلى النصائح التي تقدم إليه في سبيل إرضاء الله تعالى.

وبعد فترة قصيرة من لقاء السلطان بالزاهد مرض، فأخرج وصيته التي كتبها، وأعطاها إلى وزيره، وعيَّن ابنه «الأمير محمدًا» سلطانًا على الدولة. وقد كان مكتوبًا في تلك الوصية ما يلي:

"الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، سيذوق السلطان مراد الموت ككل نفس. لأن الله تعالى يقول: ﴿**كل نفس ذائقة الموت**﴾ (آل عمران، ١٨٥)، وقد أوضح الرسول ﷺ أن المسلم يجب عليه أن يكتب وصيته قبل وفاته، ولهذا فإن وصيتي هي: يتم تخصيص عشرة آلاف قطعة ذهبية من ثلث مالي يكون منها ٣٥٠٠



لفقراء مكة المكرمة، ومثلها لفقراء المدينة المنورة. والثلاثة آلاف المتبقية يكون منها ٥٠٠ قطعة ذهبية لِمَنْ يقرؤون الختمة الشريفة وكلمة التوحيد سبعين ألف مرة عند الكعبة وفي الحطيم الشريف. وخمسمائة قطعة ذهبية أخرى توزع على مَنْ يقرؤون كلمة التوحيد سبعين ألف مرة في الروضة المطهرة، ومَنْ يقرؤون القرآن الكريم أمام الحجرة النبوية، والألفان المتبقيتان يُوزع منهما ألف وخمسمائة على فقراء القدس الشريف، والخمسمائة المتبقية توزع على مَنْ يقرؤون كلمة التوحيد في القبة الصخرة والمسجد الأقصى. وكل مَنْ يغير في وصيتي هذه عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين".

ولما شعر «السلطان مراد» بأنه في النزع الأخير واقتراب أجله، أضاف ما يلي إلى وصيته:

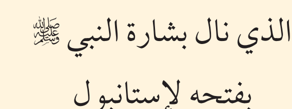
"عليكم أن تضعوا جسدى على التراب مباشرة من غير حائل بينى وبين التراب، ولتمطر عليَّ أمطار رحمة رب العالمين، ولا تصنعوا على قبري قبة كالسلاطين الآخرين، ويكفي أن تبنوا مكانًا يكفي لجلوس مَنْ سيقرؤون القرآن بجواري، أرجو أن يتم دفني يوم الجمعة، إن كل ثروتي في تلك اللحظة هي هذا الخاتم الذي في يدي، وهو من مالي الحلال، بيعوه، وأنفقوا ماله على مَنْ سيقرؤون القرآن عند رأسي".

تُوفي «السلطان مراد» تاركًا مساحة الأراضي العثمانية ٨٨٠ ألف كم بعد ثلاثة أيام من مرضه، رحمة الله عليه.

اللهم ارزقنا عيشا قائما على التقوى والإخلاص في سبيلك كعيش أجدادنا البواسل، وأحسن عاقبتنا في الدارين!.. آمين!!!.







الذي نال بشارة النبي ﷺ

بفتحه لإستانبول

السلطان محمد الفاتح

(١٤٣٢ - ١٤٨١ م)

سابع سلاطين بني عثمان.

كان مظهرًا لالتفات رسول الله ﷺ. كما كان سلطانًا كان عالمًا في كافة الفنون والعلوم، وكان شاعرًا ذا روح رقيقة، وإنسانًا حساسًا ذا روح صوفية وصاحبَ قلب متعمق.

جلس على العرش العثماني عام ١٤٥١م، وفتح «إستانبول» عام ١٤٥٣م، وتُوفي عام ١٤٨١م، وصلى الناس عليه صلاة الجنازة بإمامة الشيخ «أبي الوفاء»، ودُفن في القبر الذي في ناحية القبلة لجامع الفاتح الذي بناه.



وخلال فترة سلطنته التي استمرت لثلاثين سنة، اشتغل بالجهاد وإعلاء كلمة الله، فقضى على إمبراطوريتين، وأربعة ملوك، و١١ إمارة، وتمكن من زيادة الأراضي التي تركها لها والده والتي بلغت ٨٨٠ ألف كم٢ إلى ٢,٢١٤,٠٠٠ كم٢.

❀

بدأ «السلطان الفاتح» العِلم وهو في سن مبكر، كما تلقى العلم المعنوي على يد العالم «الشيخ آق شمس الدين». وقد كانت بداية تلك التربية على هذا النحو:

ذهب الشيخ «الحاج بيرام الولي» لزيارة «السلطان مراد الثاني» وكان معه تلميذه وابنه المعنوي الشيخ «آق شمس الدين»، وقد طلب «السلطان مراد» أن يقوم هذا الشيخ المبارك بتعليم ابنه «الأمير محمد»، ولأن «السلطان مراد» كان يحلم بفتح «إستانبول» كبقية السلاطين الآخرين، سأل الشيخ «الحاج بيرام» قائلاً:

"يا تُرى لِمَنْ سيتيسر فتح «استنابول»؟"

فأجاب الشيخ:

"إن هذا الفتح المبين سيكون ميسرًا لهذا الأمير وهذا الشيخ أي «آق شمس الدين»".

ولأن «السلطان مراد الثاني» شعر بتلك الكرامة الواضحة، طلب من «الشيخ بيرام الولي» أن يقوم «آق شمس الدين» بتربية ابنه معنويًّا. وبهذه الوسيلة حمل «آق شمس الدين» على عاتقه مهمة تربية «السلطان محمد الفاتح» معنويًّا، وأعدّه للفتح المبين.

فقد كان لأساتذته الآخرين أيضاً في هذا الإعداد دور كبير في منتهى التأثير.

وذات يوم رأى «المُنْلا كُوراني» مربي الفاتح النور ينبعث من غرفة «الأمير محمد» في وسط الليل، فدخل عليه وسأله:

"لماذا لم تنم يا أمير؟"

فأجاب الأمير «محمد الفاتح»:

"أقوم بمطالعة الدروس يا أستاذي!."

فسأله قائلاً:

"أي درس تطالع الآن؟"

سكت «الأمير محمد». وحينئذ شغف المعلم بالأمر، ورأى كومة أوراق على المنضدة أمام الأمير كانت كلها أوراقًا بها خطط مستقبلية لفتح «إستانبول». فقد كان الأمير يخطط كيف سيفتح المدينة في المستقبل.

ولما سأل المعلم الأمير:

"ما هذا يا بُني؟"

فاضطر الأمير بالإفصاح عما يخبئ في صدره، فقال:

"سأجيبك وأقول لك لماذا أسهر الليالى وأجتهد، ولكن بشرط أن يبقى سرًّا بيننا".

ولما رأى الفاتح معلمه يومئ إليه بابتسامة أكمل حديثه:

"يا أستاذي! إن هذا الأمر يحرق فؤادي منذ فترة، وأفكر فيه كثيرًا، لماذا لم يتسن فتح مدينة «القسطنطينية» رغم أنها حوصرت مرات عديدة إلى الآن، وأريق لأجله دماء الصحابة الكرام. ما هو الطريق لفتح تلك المدينة؟ وهذا يُؤَرِّقني وأظل مستيقظًا حتى الصباح أخطط لفتحها..."

ولما سمع المعلم هذه الكلمات النابعة من صميم قلب «محمد الفاتح» قدّر هذا الأميرَ الصغير تقديراً بالغاً، وليوفق في هذا الأمر وجه إليه نصائح مهمة في طريقه للوصول إلى الخصال والمزايا والمستوى اللازمة في تحقيق هذا الإنجاز فقال:

"يا بُني! إنني آمل من كل قلبي أن تنال هذا الفتح الكبير. إلا أنني لا أريدك أن تكون سلطانًا جاهلاً، بل أريدك أن تكون حاكمًا عالمًا من أهل القلب صاحب

فراسة، لاسيما وأن النبي محمدًا ﷺ أخبر بأن «القسطنطينية» ستُفتح، وأكد ذلك في حديثه الشريف:

«لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ، فَلَنِعْمَ الْاَمِيرُ اَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ »"[١].



إن هذا الفتح المشرف الذي بشر به النبي ﷺ ومدح صاحبه سيتحقق على يد قائد متثبت عادل عالم وصاحب مزايا متفوقة. ولهذا فإنني أرغب من كل قلبي أن تبادر هذا الفتح الكبير بعد إكمال تربيتك ماديًّا ومعنويًّا.

أدرك الأمير النكات التي في نصائح ووصايا معلمه النابعة من القلب، واستمد منها القوة المعنوية سنة بعد أخرى، وسعى ليلا ونهارًا من أجل الوصول إلى الدراية والكمال المنشود.

لقد شغل الأمير ذهنه منذ طفولته بهذا الفتح المبين، وأفنى نفسه في هذه القضية، فازداد شغفا بالعلم لدرجة أنه تعلّم في زمن قصير اللغات العربية والفارسية واللاتينية والصربية واليونانية.

وقد عمل الفاتح على تنظيم حياته الشخصية وشؤون الدولة بالعلوم الظاهرية والباطنية التي تعلمها، واستطاع أن يطور الآلات الحربية التي سيستخدمها في الحروب مستفيدا من العلوم والتقنيات. ومشهور أنه أول مَنْ استخدم المدفع الهاون الذي خططه بالذات في فتح «إستانبول».

وقد كان الفاتح يفكر كثيرًا في الأسباب والنتائج التي عملت على ظهور الدول وتقدمها ثم زوالها بعد ذلك من على ساحة التاريخ، وأصبح صاحب فلسفة تاريخية خاصة به.

---

١. أحمد، ٤، ٣٣٥؛ حاكم، ٤، ٤٦٨/ ٨٣٠٠.

لقد كان الفاتح سلطانًا عظيمًا نتيجة لمرتبته العلمية وتعمقه الروحي، ومحاربًا على كفاءة، وفي الوقت ذاته متصوفًا وشاعرًا يتميز بأنه ذو روح حساسة ورقة قلبية كبيرة.

لقد كان الفاتح سلطانًا تلقى العلم على يد خيرة علماء عصره، فكان يشارك في المناقشات العلمية، وأحيانًا كان يبين رأيه ويظهر مهارته في العلم، وإلى جانب العلم المعنوي الكبير الذي تلقاه من «آق شمس الدين»، درس علم الفقه أيضًا من «المُنْلا خُسْرَوْ»، والتفسير من «المُنْلا كُورَانِي» و«خِضِرْ بكْ جلبي» و«المُنْلا يَكانْ»، وعلم الكلام من «خوجه زاده»، والرياضيات من «على قوشجي».

وبهذا بذل الفاتح جهودًا كبيرة في سبيل العلم والعرفان، وخصص المبالغ الكبيرة من خزينة الدولة للمدارس التي ستخرج رجال العلم، الذين سيوجهون العالم بعلمهم، والحادثة التالية تبرز هذه الحقيقة بشكل جميل للغاية:

كان الفاتح يتباحث مع وزرائه في الميزانية، وكان المبلغ الذي خصصه السلطان للمدارس كبيرًا للغاية، لدرجة أن وزير المالية لما اطلع على المبلغ تعجب وتولته حيرة كبيرة، ولما أدرك «السلطان الفاتح» صاحب البصيرة والفراسة هذا الوضع قال:

"يا باشا! لماذا تصمت، وأنت الشخص الوحيد الذي يجب أن يتحدث في الأمور المالية؟"

ولم يرغب الوزير أن يفصح عن حاله فقال:

"إنني أصمت لأستفيد يا مولاي السلطان!"

فقال الفاتح:

"من الواضح أنك ترى المبلغ الذي خصصته للمدارس كبيرًا"

ولما شعر الوزير بأن السلطان يقف على ما يفكر فيه اضطر لأن يقول:

"نعم يا مولاي السلطان! لقد خصصتم مبلغًا كبيرًا على تحصيل العلم، الذي هو أحد ضروريات الدولة، في حين أن هناك أمورًا كثيرة تحتاج إلى أموال زائدة"



وحينئذ رد السلطان الفاتح برد مقنع وهادئ على الوزير فقال قولاً يجبر خاطره ويحلّ المسألة:

"يا باشا! من الطبيعي أن يكون لكل حرفة نسبة من الضياع وهذه النسبة في العلم أكثر. فقد قال النبي ﷺ:

"الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاء" (أبو داود، العلم، ١)،

وكون الشخص وارث الأنبياء ليس شيئًا سهلاً يمكن تحصيله بسهولة، ولهذا فإن الضياع في العلم يكون أكثر من غيره.

إن تفكيري في سائر الحرف كالتالي لو أني أغمس قماشًا ملونًا بلون رصاصي مسودّ أو بني في الماء الوسخ يمكن أن أستخدمه كعمامة بعد جفافه. لأن لونه لا يُظهر الوسخ، ولكن هل يمكن أن تقيس العمامة البيضاء بهذا القماش؟ كلا؛ إذا وقع ذباب على العمامة البيضاء يظهر ظهورًا بينًا، فضلاً عن أن تغمسها في الماء الوسخ. وهكذا حرفة العلم".

ثم سأل السلطان الوزير قائلاً:

"يا باشا!، إذا وفرنا الإمكانيات لمائة من طلاب العلم ألن يخرج منهم على الأقل ثلاثة أو خمسة من العلماء؟"

فقال الوزير:

"أجل يا مولاي!. ولكن هل يكون هذا العدد كافيا؟

فقال السلطان متبسمًا:

"يا باشا! إن هؤلاء الثلاثة أو الخمسة هم الذين ينيرون الدولة بعلمهم."

وحينئذ أومأ الباشا رأسه معترفا وقال:

"نعم هذا صحيح."

ثم قال السلطان الفاتح الذي حل المسألة بسهولة بفراسته وبصيرته:



"يا باشا! ما دام أننا سنخرج من كل مائة طالب في مدارسنا: ثلاثة أو خمسة من العلماء الذين سينيرون الأهالي بعلمهم، إذاً يجب علينا أن نعترف بفضلهم وأن نعطيهم حقهم وقدرهم وأن ندعم ماليًا سائر الطلاب الذين من المحتمل أن يضيعوا في المستقبل من أجل خاطرهم".

وكما هو واضح أن السلطان «محمد الفاتح» جعل أكبر ميزانية في الدولة العلية للعلم والعرفان، وقد أمر بتأسيس المدارس على شكل كليات بجوار الجامع الذي أسسه باسمه، وقد شكلت تلك المدارس أساسًا لـ«جامعة إستانبول الحالية». ولما طلب الفاتح تخصيص غرفة له في تلك الكلية، أصبح يدخل الامتحان كغيره من الطلاب ليستحق تخصيص الغرفة له.

❁

لقد قام الفاتح بدور القائد العام على آخر تلك الحملات التي بدأت منذ عهد الصحابة والتي كانت كالشرارة العلوية التي تهدف إلى فتح «إستانبول». وقد تم التوحيد بين الاستعداد الفطري الموجود في خلقة الفاتح وبين التعليم المادي والقلبي الذي حصل عليه وبذلك أعدت الأرضية لهذا الفتح المبين، الذي تحقق على يديه. لقد كان الفاتح مفعمًا بهذا القدر من المشاعر التي تفوق الوصف، لدرجة أنه كان يمسك منذ أن كان طفلا بالورقة والقلم ليعد الخطط لفتح «إستانبول».

وكان دائمًا ما يقول:

"إما أن تأخذنا بيزنطة، أو نأخذها" وجعل تلك العبارة وردًا له.

ولما صار «محمد الفاتح» سلطانا في واحد وعشرين من عمره جمع العلماء والأمراء واستشارهم في فتح إستانبول. إلا أن معظم الذين شاركوا في الاجتماع قالوا له:

"إن فتح «إستانبول» لن يتحقق إلا على يد المهدي"

ولم يوافقوا الفاتح على رأيه، ولما سمع «آق شمس الدين» بذلك تدخل وقال:

"كلا! إن «القسطنطينية» ستُفتح بيد سلطاننا محمد خان!"

وبمقولته هذه أثر في صدور قرار المبادرة لفتح «القسطنطينية».



وقد سر «السلطان محمد الفاتح» الذي كان قلبه يحترق شوقًا منذ الطفولة من هذا الكلام، وأمر على الفور بعمل الاستعدادات للفتح. وحينئذ امتلأت قلوب الأولياء والعلماء والقادة والجنود وعلى رأسهم السلطان بالوجد لتحقيق بشارة النبي ﷺ، التي بشر بها منذ ٩٠٠ سنة.

وقد كانت القوة الأصلية للفاتح وجنوده نابعة من هذا الوجد. فإنَّ كل حملة خرجت منذ عهد الصحابة وكل دم سُفك في سبيل تحقيق تلك الأمنية منذ الصحابي الجليل «خالد بن زيد» ولم تحقق الفتح المنشود، كانت بمثابة القوة التي تدفع هؤلاء الجنود لهذا الفتح. لقد كانت تلك الحملات الفاشلة والجهود التي ظلت دون نتيجة تبدو وكأنها سحب ممتلئة بأمطار الخير، التي ستجعل هذا الفتح المنتظر يخرج من حيز الفراغ إلى حيث الظهور الفعلي. لقد كانت الدماء التي سُفكت في الحملات العديدة التي خرجت منذ عهد الصحابة الكرام بمثابة الدَّين "الواجب الأداء" على الفاتح وجنوده.

لقد تمكن الفاتح بذكائه الخارق من تسيير السفن من البر، وأسس مدافع الهاون وقام بتثبيتها في مواقعها، وكانت القلوب تتلهف للدخول إلى «إستانبول» وسماع الأذان من على «آيا صوفيا».

كان الجنود يقولون:

"مهما يكن من أمر سيكون النصر لنا إن شاء الله!.."

"إما أن ننتصر وندخل بيزنطة أو نستشهد وندخل الجنة!.."

لقد كان كل واحد منهم يقول وهو يتسلق أسوار إستانبول تحت حمم بيزنطة وكأنه متعطش إلى الشهادة:

"إن دور الاستشهاد اليوم علينا!".

انتقل «عبيد الله الأحرار» من أواسط آسيا عن طريق طي المكان ككرامة له وشارك في هذا الفتح المبين، فقد نقل حفيده «الحاج محمد قاسم» هذه الرواية كالتالي:

أمر «عبيد الله الأحرار» بتجهيز فرسه بعد ظهر يوم الخميس فجأة، وركب جواده، وخرج بسرعة كبيرة من سمرقند، وكان قد قال لطلابه: "اجلسوا أنتم هنا!".

وقد تعقبه أحد طلابه ويُدعى «مولانا شيخ» لفترة من الزمن، ورجع وقال: إن الشيخ بعد أن مال بالجواد يمينًا ويسارًا اختفى عن الأبصار.

ثم عاد «عبيد الله الأحرار» بعدها بفترة، ولما سأله الطلاب عن سر تلك الرحلة المفاجئة قال:

"لقد استعان بي سلطان الترك «محمد خان»، فذهبت لمساعدته، وبإرادة الله تعالى انتصر «السلطان محمد»".

ويروي «الحاج عبد الهادي» ابن «عبيد الله الأحرار» الذي انتقل من «خراسان» إلى «إستانبول» ليشارك في فتحها ما يلي:

"عندما ذهبت إلى «إستانبول» وصف «السلطان بايزيد الثاني» والدي «عبيد الله الأحرار»، وذكر شمائله، على النحو التالي:

"قال والدي الفاتح:

"في أصعب أوقات الفتح التجأت إلى ربي، وطلبت منه أن يمدني بقطب هذا الزمان، حتى رأيته أمامي بجواده الأبيض بصفة كيت وكيت...

وقال: «لا تخف، إن النصر لك!..»"

فقلت: "إن جنود الكفار كثيرة جدا! "

ففتح جبته وقال: «انظر إلى داخله!»، فنظرت فوجدت جيشًا من الجنود،

فقال: "هذا الجيش أتى لمساعدتك، والآن عليك أن تضرب الطبل بالعصا ثلاث مرات ثم تأمر الجنود بالهجوم".

وفعلت مثلما قال، ووجدت أن هذا الشيخ مع جيشه يشترك معنا في القتال، وتحقق الفتح المبين".



والحاصل أن استفادة الفاتح من روحانية الأولياء أثناء الفتح كانت واقعة تاريخية ثابتة. خاصة الشيخ «آق شمس الدين»، فكما كانت له مساعدات كبيرة في الناحية المعنوية، كانت له أيضًا مساعدات كبيرة في الناحية الظاهرية. وبجانب مساندته بالدعاء له قام أيضا بتقديم النصائح القيمة من أجل إزالة بعض العرقلات التي تواجههم.

ومن ذلك الوصايا التي قالها الشيخ «آق شمس الدين» للفاتح عندما سار بجواده على الماء ليعوق السفن التي تجلب المدد والمؤن لبيزنطة من البحر، وكانت وصايا في غاية الأهمية، لقد كان هذا السلطان في عالم المعنى، يقول لتلميذه السلطان الشاب:

"بعد السلام والتحية المباركة أعرض على سلطاننا ما يلي: إن الإهمال في موضوع جنود الأسطول قد أحزننا جدًّا، وحزِنَّا كثيرا على ضياع فرصة كهذه من أيدينا، وفي اعتقادي أن أسباب هذا الخطأ يعود إلى ما يلي:

أولا: إظهار الضعف في الغيرة بإخلاص لوهلة، وإهمال أو إخلال أوامر سلطاننا.

ثانيًا: عدم الاعتبار بتبشير الفتح بناء على دعاء هذا العبد الضعيف وإشاراته المعنوية. ويمكننا أن نعُد محاذير أخرى...

ولهذا يا سلطاننا عليكم بعدم إظهار الرخاوة واللين في الهجوم، بل عليك أن تحافظ على الانضباط. ومَنْ عصاك، أو أبدى إهمالا لا بد من البحث والتحري عنه ومن ثم معاقبته بالعزل أو التعزير بشدة، وإلا فسيُظهر البعض الرخاوة في الهجوم غدًا على الأسوار وعند لزوم امتلاء الخنادق التي أمام الأسوار. وأنتم تعلمون أن البعض يخافون من العقاب.

ورجاؤنا الوحيد ألا تتركوا العزم والغيرة والجدية في الحكم وإلقاء الأمر بقدر

الإمكان، كما أوصيك بترك مسألة العقاب والجزاء لشخص قاسٍ وقليل الإنصاف، لينفذ الأحكام بالعدل ويقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة،٧٣)

أما الذين لا يتقدمون في الهجوم ففي قلوبهم ضعف، وهم في حكم المنافقين، وسيكونون مع الكفار في جهنم. وبموجب المصلحة عليك أن تجعل همتك عالية لئلا نصبح مغمومين محزونين.. ولننتقل إلى يوم القيامة ونحن منصورين ومظفرين أمام الله ﷻ. الحكم لله ﷻ، إلا أن العبد لا يجوز له التقصير في السعي بما تيسر له وما أمكنه. وقد كان هذا دأب الرسول والصحابة.

يا مولاي السلطان! لقد قرأت القرآن الكريم في تلك الليلة بشكل منكسر القلب، ونمت، ولله الحمد والشكر لقد تحقق الكثير من البشارات الغير المتوقعة، وإن ما قلته لكم لا تعتبروه كلامًا فضوليًّا، وإنما هو من محبتي لسلطاني".

امتد الحصار، وبدا أمارات الانزعاج ممَنْ كانوا يعارضون الفتح من قبل، وذهبوا إلى السلطان، وقالوا له:

"يا مولانا السلطان! قد هلك هذا الكم من الجنود بسبب كلمة قالها درويش؟ لقد طلب البيزنطيون المدد من الفرنجة وها هو آت إليهم في الطريق، ولم يبق لنا أمل في الفتح.."

أرسل السلطان محمد الفاتح الذي بدأ يتضجر من تأخر الفتح ومن تضييقات المعارضين له وزيره «أحمد باشا» إلى الشيخ «آق شمس الدين» ليسأله هل سيكون الفتح ميسرًا أم لا؟

فأجاب الشيخ «آق شمس الدين» على هذا السؤال قائلاً:

"إن هذا الجم الغفير من المؤمنين والغزاة من أمة محمد هاجموا قلعة الكفار، أرجو أن يكون الفتح ميسرًا إن شاء الله."



غير أن السلطان الفاتح لم يأخذ ردًّا شافيًا على سؤاله، وانطلاقًا من الحالة الروحية التي هو فيها بدأ الأمر يصعب عليه لكثرة شوقه إلى الفتح فقال لوزيره:

"يا أحمد باشا! إن هذا الخبر ليس بكاف! اذهب إليه واسأله عن وقت الفتح الذي بُشّر به".

إن الشيخ «آق شمس الدين» كان يعلم الحالة الروحية التي تعتري هذا السلطان الشاب ففكر قليلاً، وشعر بضرورة تقوية الحالة المعنوية للسلطان حتى لا يتعرض الفتح للتوقف، فالتجأ إلى الله تعالى، وفي النهاية قال للوزير ما يلي:

"ليبدأ الهجوم من الجانب الفلاني بصدق الهمة في وقت السحر في اليوم الحادي والعشرين من شهر ربيع الأول، وسيكون الفتح ميسرًا في هذا اليوم!.. وسيملأ صوت الأذان أرجاء مدينة «القسطنطينية»!.. "

وبهذه البشارة أمر الفاتح ببدء هجوم كبير وشامل من البر والبحر بعزيمة قوية لم ير مثله وذلك في صباح يوم ٢٩ مايو ١٤٥٣م، وقد اختلطت أصوات قرع الطبول مع أصوات التكبير وأصوات المدافع، وانهمر الفاتح وجنوده على المدينة ببشارة النبي ﷺ، وكأنهم سيل منهمر.

وما أجمل ما عبر يحيي كمال عن هذا الحماس الذي كان موجودًا في السلطان وجنوده أثناء الهجوم:

اضرب على حب السيف الموجود في قبضة عليّ [كرم الله وجهه]

اضرب على حب الشيخ الذي ارتفع صوت تكبيره للسماء

أيها الجنود الذين فتحوا الأبواب اضربوا اليوم

اضربوا على عشق بشارة الفتح المبين

اضرب من أجل ركز الهلال على ديار الكفار

اضرب على حب هذا السلطان الذي أتى على جواده

اضرب لتسقط تلك الطرة على رأس رئيس الأفرنج

اضرب أيها التركي لتنحني رأس هذا الأفرنجي

اضرب بكل قوة لتنفتح تلك الأسوار

اضرب على حب التكبير في هجوم الفجرَ

ونتيجة لهذا الهجوم الذي تم بشوق وحماس كبير، رفرفت الراية التي ركزها «أولوبَاتْلى حسن» على الأسوار. لقد فتحت «القسطنطينية». لقد تحقق فتح تلك المدينة التي حوصرت من قبل عدة مرات، على يد هذا «السلطان الشاب محمد خان».

وبعد الفتح دخل «السلطان محمد» المدينة برفقة العلماء والعارفين والباشوات بل وحتى برفقة القاضي «خضر بك» الذي سيحاكمه فيما بعد، وكان دخولهم باحتفال عظيم من جهة «أدرنة قابي».

وقد أعطى السلطان تعليماته للجنود من على جواده الأبيض على ما يلي:

"أيها الغزاة! حمدا لله ﷻ، لقد فتحتم «إستانبول»، فلا تمسوا بسوء مَنْ لا طاقة لهم على القتال وطلبوا الأمان، ولا تقوموا بأدنى ضرر للنساء والعجائز والأطفال والمرضى. ولكن خذوا فقط من الغنيمة ما أحل لكم".

إن هذه الأحكام التي أعلنها الفاتح قبل كثير من إعلان بيان حقوق الإنسان، تعد واحدة من أشرف وثائق تاريخنا القومي. ذهل بطريك «إستانبول» كثيرًا واغرورقت عيناه بالدموع من تصرف «السلطان الفاتح» فانكبّ على أقدام الفاتح الذي رفعه وقال له:

"في ديننا لا يجوز الانحناء للبشر كالسجود لله، انهض فأنا أمنحك وكل مَنْ معك من النصارى حقوقكم كاملة، ومن الآن لا تخافوا على حياتكم أو حرياتكم، وستحتفظ بطريركية الروم كرائد جماعة الأرثوذكس كل الامتيازات التي اكتسبتها طوال التاريخ".

وقد صدّق الفاتح بعد ذلك على هذا بفرمان أصدره ونشره، وكان هذا يعني أنه أحيا البطريركية التي أوشكت على الانهيار من جديد، وهذا بالطبع واحد من الأمثلة البراقة على رأيه الصائب؛ وذلك لأن بطريركية «إستانبول» كانت مركز الأرثوذكس في العالم.

و كان «الصرب» و«الروس» اللذان هما من أعداء الدولة العثمانية مرتبطين بهذا المركز. وكانت هناك خصومة منذ البداية بين العالم الأرثوذكسي وبين البابا وية الكاثوليكية، ولو قضى على مركز الأرثوذكسية في «إستانبول»، لأصبح البابا في روما هو راعي النصارى في العالم كله، ولهذا كان يجب العمل على استمرار الكنيستين من أجل التعادل والتوازن، وهذا بالطبع يعني تمزق وحدة العالم المسيحي؛ وعلى هذا اعترف الفاتح في فرمانه بوصف الشمولية والعالمية لهذه الكنيسة الأرثوذكسية.

وثمة جانب آخر لهذه السياسة التي اتبعها الفاتح وهو الجانب الإيجابي، الذي سيتحصل لدى العالم المسيحي من موقفه المتسامح والعادل معهم. ويمكن القول بأن هذا كان السبب الرئيسي في الطمأنينة والسلام، الذي تمكن المسيحيون- بالرغم من كونهم أقلية – من العيش فيه بروملي منذ ذلك الوقت وحتى ظهور التيارات القومية التي بدأت مع اندلاع الثورة الفرنسية. غير هذا إن هذه العدالة كانت سببًا أيضًا في هداية الكثير من النصارى.



تقدم الفاتح سالكًا طريق «شَهْزادَه باشي- بايزيد»، وتوقف على جانب الطريق للسلام على الجنود، أما الفتيات الروم فكن يلقين عليه أحزمة الزهور والورود، وفي تلك الأثناء قام على طريقه متصوف فجأة وقال للفاتح:

"لا تعتقد أن هذا القدر من الحظ سببه جهدك وتقول إنك فتحت «إستانبول»، اعلم أن فتحك «إستانبول» كان بدعاء الدراويش أمثالنا".

فأجابه الفاتح:

"صدقت أيها الدرويش، إلا أنه لو اشترك جنود الدعاء مع جنود الحرب في معركة، فإن النصر مؤكد بإذن الله، فالذين يتركون الدعاء تنتظرهم نار جهنم، والذين يتركون السيف أيضًا يتأسفون كثيرًا، الدعاء هو السائق الحقيقي، ولكن يجب علينا أن نضيف إليه الأسباب، وبالتالي نحصل على النتيجة، وهذا ما حدث اليوم، لقد دعونا وحاربنا، فتيسر لنا النصر، وسر النصر هو تعقب خطى الرسول ﷺ..."

وبهذا عبر الفاتح بشكل جميل للغاية للأجيال القادمة عن أن الشرط الأساسي للنصر إنما يتأتى باستخدام السيف على نهج روح القرآن.

ولهذا رأينا الخطيب حتى في أصغر المساجد في كل البلدان التي فُتحت بالسيف على مدار التاريخ العثماني يصعد إلى المنبر بالسيف، ويخطب وهو متكئ عليه هذا. وهذه إشارة إلى أن حرية وحق الخطيب في إلقاء الخطبة ممكنة إذا كان في يديه القوة والقدرة. وحتى اليوم نجد الخطباء في «جامع بايزيد» يصعدون إلى المنبر يوم الجمعة وفي يدهم السيف، أما إذا كانت البلدة المفتوحة فُتحت سلمًا فإن الخطيب يصعد المنبر وفي يده القرآن الكريم.

❁

وقد عطف «السلطان محمد خان» فتح إستانبول على همة رجال المعنى بقدر الأسباب المادية. ولهذا فإنه كان يشير إلى الشيخ «آق شمس الدين» للفتيات الروم اللاتي كن يلقين عليه باقات الورود، وكان يريد بهذا أن يوضح لهم حق رجال المعنى الملقى على كتفه في كل حروبه.

أما بالنسبة للتعظيم الذي أظهره «السلطان الفاتح» للشيخ «آق شمس الدين» فيمكن القول بأنه كبير جدًّا، ومما يلفت الانتباه قوله لِمَنْ حوله يوم فتح «إستانبول»:

"إن هذه الفرحة وهذه السعادة التي ترونها فيّ اليوم ليست من فتح هذه القلعة فحسب، وإنما هي من وجود هذا الولي الصالح بجانبي ومعي".



والبيتان التاليان اللذان نظمهما السلطان «محمد الفاتح» الذي تخلص بمخلص «عَوْنِي» في أشعاره يوضحان أنه استند في إعلاء كلمة الله إلى الأنبياء وإلى الأولياء:

" نيتي هي رعاية أمر الله (وجاهدوا في سبيل الله)،

وهدفي هو بذل الجهد بإخلاص في سبيل الإسلام،

إن لي استناداً الى ألأنبياء والأولياء،

وأملي في الفتح والنصر دائمًا إنما من لطف الله".

هذا الارتباط والاحترام اللذان أظهرهما الفاتح للأنبياء والأولياء أصبحا وسيلة الاستفادة من همتهم وفيضهم بصفة دائمة، لاسيما وأن كل الأولياء الصالحين وعلى رأسهم «آق شمس الدين» قدموا له كل المساعدات المادية والمعنوية أثناء فتح «إستانبول».

ومن جملة هذه المساعدات إخبار الشيخ «آق شمس الدين» بمعلومات تتعلق بالمستقبل. لما تم الفتح سُئِل الشيخ:

" لماذا أخبرت بفتح القسطنطنية وقلت كلمات عن المستقبل؟"

أجاب الشيخ قائلاً:

"كنا قد تعلمنا متى يتحقق الفتح من أخي الخضر عليه السلام".

❁

وبعد فتح «إستانبول» بدأ السلطان الفاتح عملية اكتشاف قبور الصحابة الكرام، الذين أتوا من قبل لفتح المدينة واستشهدوا هناك، وكان يسعى خاصة لاكتشاف وإيجاد قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري مضيف النبي ﷺ في بيته، ولكنه لم يتمكن من إيجاد قبره نظرًا، لأن الصحابة قديمًا كانوا قد أخفوه حتى لا يعبث به الكفار، فرجع الفاتح إلى «آق شمس الدين» وقال له:

"كيف نجد قبر أبي أيوب الأنصاري؟"



وبعد أن صمت «آق شمس الدين» لبضع دقائق حدد مكان قبرالصحابي الجليل، ووضع عصا على المكان. وقد قام الفاتح ليلاً بتغيير مكان العصا، وهذا ليس من أجل عدم اعتماده على كلام أستاذه، وإنما ليزداد اطمئنانًا. وفي اليوم التالي لما كان العمال على وشك الحفر، بدأ الشيخ «آق شمس الدين» في المراقبة مرة أخرى، ثم قال للفاتح:

"مولاي السلطان! لقد تغير مكان إشارتنا!.." وأعاد العصا مكانها مرة أخرى.

وبذلك لم يعد في قلب السلطان أي شك، وبدأ العمال الحفر، وبعد قليل وجد العمال شاهد قبر «أبي أيوب الأنصاري»، وتحققت كرامة الشيخ «آق شمس الدين».

وقد أمر الفاتح بأن يتم إخراج القبر كاملاً، وأمر بتأسيس ضريح له، وأمر بإنشاء جامع ومدرسة بجواره.

لقد كان الفاتح يحب معلمه «آق شمس الدين» الذي رباه على التربية المعنوية حبًّا كبيرًا، وكان يكن له التقدير والاحترام الكبيرين، وكان يزوره كثيرًا ويعود وهو مطمئن وسعيد.

ولما كان الشيخ «آق شمس الدين» يذهب لزيارة السلطان الفاتح غبّـا كان «السلطان الفاتح» يقوم له ويقابله بالاحترام والتعظيم الكبيرين. وفي يوم سأل الوزير «محمود باشا» السلطان متحيرًا:

"يا مولاي السلطان! أراك تتغير حالك حين يزورك «آق شمس الدين»، وتظهر له احترامًا وتعظيمًا لا تظهرهما لأي عالم آخر، ما الفرق بينه وبين الآخرين ؟"

فأجاب الفاتح:

"لأنني أرى في هذا الرجل هيبة وانجذابًا لم أرهما في شخص من قبل قط، وهذه الهيبة والمحبة تقلب قلبي رأسًا على عقب، وتسوقني إلى عالَم مختلف تمامًا. وفي حين أن المحبة والهيبة ضدان إلا أنهما يجتمعان في قلبي عند رؤيتي له. وأنا في حيرة كيف يتحقق هذا؟ أفهم أن هذا ليس من وجوده الجسماني وإنما من كون



الشيخ مَظهرًا للحق سبحانه. ففي حضوره ترتعش يدي، ويتلعثم لساني، وأظل كالطفل العاجز. إنني أرى من نافذة قلبه عالمًا مختلفًا ونقشًا مختلفًا. وحالي هذا هو انعكاس عالمه الروحي عليّ، وفي الوقت نفسه ترسم عمقه الروحي".

ولهذا فإن «آق شمس الدين» هاجر بعد فتح «إستانبول» إلى بلدته «كويْـنُـكْ» لأنه كان يخشى أن تتأثر شؤون الدولة بالفيض الذي سيتلقاه الفاتح منه، إلاّ أن السلطان استمر في مراسلته وبذلك أصبح الرباط القلبي الموجود بينهما متواصلا. والخطاب التالي يعرض لنا المحبة الكبيرة التي تفوق الوصف بين هذا السلطان ومعلمه. إن هذه المحبة كانت أكثر من المحبة الموجودة بين الأب وابنه. ويا لروعة هذه النصيحة النابعة من قلب «آق شمس الدين»:

"إن راحة الدنيا بالنسبة لراحة الآخرة كأنها غير موجودة، واللذة الجسمانية تعتبر معدومة بالنسبة للذة الروحية، لا تلتفتْ إلى العدم، فأشد البلاء يصيب الأنبياء ثم الأولياء ثم الخلفاء. عليك أن تعرف أن سلوكك طريق الأنبياء والأولياء أكبر نعمة!.. إذا سلكت هذا الطريق لا تشعر بألم أي بلاء، بل على النقيض ذق منه لذة!.. وقد ذُكر العسر بين يسرين في القرآن الكريم، وإن شاء الله ستنتهي الصعوبات قريبًا، وسيكون كافة الأعداء أذلاء وحقراء. واحترس من الأشياء التي عاهدت الله عليها أمامي، احذر ألا تنقضها، وإن كنت كذلك فاعلم أن الله سينصرك ويوفقك بإذنه في كل وقت.

إن أحوال البلد مرتبطة بأحوالك، لأن السلاطين بالنسبة للبلدة كالروح بالنسبة للجسد، والروح هي التي تدير الجسد. ولا تظن نفسك مثل سائر الخلق، ولا تشغل نفسك بشيء سوى إصلاح البلدة! والسلام".

وقد كان «السلطان الفاتح» الذي وجه حياته بهذه الإرشادات الكبيرة يعطي أهمية كبيرة للعبادة. وكان يريد عدم تقاعس رعيته في مسألة العبادة والطاعة.

والفرمان التالي الذي أرسله إلى الولايات بخصوص إقامة الصلاة يوضح بشكل واضح مدى حساسيته في هذا الأمر:

"يسر الله لنا تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، إن الواجب عليّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك بموجب قول الله ﷻ:

﴿وأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾،

وقول النبي ﷺ:

«اَلصَّلاةُ عِمَادُ الدِّينِ، مَنْ أَقَامَهَا فَقَدْ أَقَامَ الدِّينَ وَمَنْ هَدَمَهَا فَقَدْ هَدَمَ الدِّينْ»[٢].

ولذا فقد وظفت شخصًا، سيقوم بعمل التحريات والإجراءات اللازمة. وإذا ما رأى شخصًا لا يصلي سيقوم بإرشاده كما ينبغي، وسيكون أركان الدولة معينين له في هذا الأمر.

وعلى هذا يجب ان لا يتقاعس أو يتباطأ أحد في تنفيذ الأوامر واجتناب النواهي، حتى لا تصبح المساجد والجوامع خربة بترك الجماعات. فليعمر تلك الأماكن المباركة ليعلو شأن الاسلام ويتحقق النصر المادي والمعنوي!..

وما أمر الفاتح به في الفرمان إنما هي أخلاق إسلامية تم الثناء عليها في القرآن الكريم، فقد قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج، ٤١)

❁

كان «السلطان محمد الفاتح» يبذل جهودا خالصة في سبيل الله ﷻ وفي سبيل خدمة المسلمين، دون أن يسأم من أي تعب أومشقة يلاقيه. وهذا مثال رائع لأحفاد هؤلاء الأجداد المباركة:

---

٢. البيهقي، شعب الإيمان، ٤، ٣٠٠/ ٢٥٥٠



كان السلطان قد خرج في حملة لفتح إمبراطورية الروم في «طِرابْزونْ»، ولكي يصل إلى القلعة من الخلف كان عليه أن يسير من غابات جبلية، كان حاملو الفئوس يسيرون في المقدمة لقطع الأشجار أمام الجيش، وبينما كان السلطان يسير بجواده، إذا بالجواد يتعثر ولما أراد الفاتح أن يتمسك بصخرة ليرتقي الفرس، إذا بيديه تدميان. وكانت معه في تلك الحملة السيدة «سارة» أمّ «أوزُونْ حَسَنَ»، فقالت له منتهزة الفرصة:

"أيها السلطان، أنت سلطان ابن سلطان، وحاكم كبير، هل هذه القلعة الصغيرة تستحق منك كل هذا العناء؟".

قالت السيدة «سارة» هذا الكلام، لأن ابنها « أوزُونْ حَسَنَ» كان قد أسس علاقة قرابة مع إمبراطور «طِرابْزونْ» البيزنطي، وأرادت بقولها هذا أن تجعل «السلطان الفاتح» يتخلى عن فتحها، وقام الفاتح وعلى يديه خدوش فقال:

"أيها السيدة العجوز، ألا تعلمين أن السيف الذي نمسكه في أيدينا هو سيف الدين الإسلامي، ولا تعتقدي أن المتاعب التي نلاقيها إنما هي في سبيل قطعة أرض، ولتعلمي أن كل سعينا لخدمة دين الله، وتبليغ الدين الإسلامي للناس. فغدًا سنقف بين يدي الله ﷻ، ونريد أن تكون وجوهنا بيضاء أمام الله ﷻ. وإن اخترنا راحة البدن على التعب في سبيل الله ﷻ مع وجود الإمكانيات لتبليغ دين الله ﷻ وإعلاء كلمته، فهل نستحق أن نسمى غزاة؟ إن لم نبلغ الإسلام لأهل الكفر ولم نكفهم عن طغيانهم فبأي وجه نلقى الله ﷻ يوم القيامة؟!..



كان السلطان الفاتح يجد متعة واطمئنانًا كبيرين من زيارته للأولياء. وذات يوم أراد أن يزور حضرت الشيخ «أبا الوفا» أحد أولياء عصره، ولما ذهب «السلطان الفاتح» وموكبَه إلى باب التكية وجده مغلقًا في وجهه. حزن السلطان لهذا، وتغير لونه، كما حزن «الشيخ أبو الوفا»، وما استطاع المريدون السؤال عن السبب أدبا منهم، وكان لسان حالهم يقول:

"لماذا أغلق الشيخ باب تكيته في وجه سلطان نال بشارة النبي ﷺ، بينما يفتحه للجميع حتى لشارب الخمر؟! يا ترى ما هو السر في ذلك؟!".

عاد الفاتح حزينًا. إن الفاتح الذي أغلق عصرًا وفتح عصرًا جديدًا، والذي هدم أسوار بيزنطة، عاد من أمام باب التكية دون أن يُفتح له. وبعد فترة شعر الفاتح أن لديه رغبة قوية في معاودة الكَرة وزيارة «الشيخ أبي الوفا»، فحمل معه الموكب وسار إلى باب التكية، ولكنه وجد باب التكية مغلقًا من جديد، فحزن الفاتح جدًّا، وزادت حيرته من هذا الوضع، فأمر أحد مساعديه بأن يدخل التكية بكمال الأدب ويسأل عن سبب هذا التصرف وسر هذا الأمر. فدخل المساعد، ولما سأل عن السبب أجاب «الشيخ أبو الوفا» قائلًا:

"إن «السلطان الفاتح» قلبه حساس وفياض للغاية، وإذا ما دخل علينا وذاق متعة عالمنا، فلن يترك هذا المكان أبدًا، وبالتالي لن يعود لإدارة الدولة، والملك والأمة أمانة عنده، وإن لم يأتِ شخص مثله يحكم فإن الملك والأمة سيتعرضان للضرر، وبذلك أكون أنا وهو قد أذنبنا. كما أنه إذا دخل إلى هنا فإن روحه ستمتلئ بالجو المعنوي في هذا المكان، وبالتالي سينفق كل ما لديه، وسيجلب لنا الأموال التي يجب أن تنفق على الأيتام والأرامل والفقراء، وبذلك سيدخل حب الدنيا في قلوب المريدين، وحينئذ يفسد نظامنا. إننا ندعو للسلطان من هنا، وقلبه في قلوبنا".

كان الفاتح ينتظر مساعده على أحر من الجمر، ولما خرج المساعد من عند الشيخ، وقال للفاتح ما سمعه، سأله الفاتح وماذا كانت مشاعر الشيخ وهو يقول ذلك؟

فقال المساعد: "مولاي السلطان! لقد كان الشيخ يقول تلك الكلمات من ناحية، وعيناه تذرفان الدمع من ناحية أخرى بسبب احتراق قلبه بنار الهجران".

أحنى الفاتح رأسه وتوجه أنظاره التي لا تسعه الآفاق إلى عالم آخر وكأنها ليلة مقمرة. واغرورقت عيناه وبدأت الدموع تذرف وكأنها قطرات الندى على الأوراق



في الربيع. فلم يكن له نصيب قط في مقابلة «أبي الوفا»، ولما تُوفي الفاتح ووصل الخبر إلى «الشيخ أبي الوفا»، ذهب على الفور إلى القصر وأم الناس في صلاة الجنازة على السلطان.

لقد كان «السلطان محمد الفاتح» سلطان الظاهر والباطن، شخصية تتعمق كلما دُقِّقت، وتتبحر كلما تعمقتْ، وكل النجاحات والفعاليات التي أظهرها في كل الساحات، تحققت بفضل اتحاد السيف والقلم اللذين تمكن هو من الجمع بينهما بمهارة كبيرة.

لقد كانت كل الهجمات التي قام بها الفاتح عبارة عن فتوحات مخططة، فلم يكن يخرج بالجيش قط دون تنظيم أو تخطيط، ولم يكن يسفك الدماء قط لمجرد حب المغامرة، فأحيانًا كانت تأتي عليه أيام يحارب فيها خمس دول أو عشر دول دفعة واحدة، إلا أن هذا كان يتحقق بصورة مهارة بالحملات العسكرية والمباحثات السياسية التي يقوم بها، وكان يلقي بنفسه أمام العدو حتى في أصعب الحروب التي شارك فيها، ولم يكن يتراجع قط، وقد جرح جروحا غائرة في جبهته وركبته أثناء الهجوم العنيف الذي قام به أثناء حصار« بَلْغِرَادْ».

وقد تمكن الفاتح من تقييم الأخطاء والمخاطر التي وقعت فيها الدولة من قبل، وأعد بها مجموعة من القوانين سُميت باسم (فاتح قانون نامَه لَرى) أو «قوانين الفاتح». ولكن لا ينبغي الظن بأن تلك القوانين كانت من صنعه أو من صنع رجال دولته.

وقد كانت مسألة قتل الأخ والابن وقتل الوزراء سياسة من أكثر المسائل التي تم بحثها في تلك القوانين التي تتضمن الكثير من قواعد إدارة الدولة.

ولو انتبهنا هنا لوجدنا سببين خصوصيين لتلك القاعدة التي كانت خاصة بالأشخاص الذين يحصلون على رتبة الوزارة أو أنهم ينتسبون إلى أسرة آل عثمان:

١- كان يجب إصدار القرارات الخاصة بهم بسرعة عند الحاجة التي يرونها

ضرورة، نظرًا لأنهم كانوا أصحاب سلطة تمكنهم من تقسيم الدولة. ولأن أصول أحكام المحاكم لم تكن لديها الإمكانيات لهذا، فإنه في حالة الخيانة سيكون الأمر قد نُفذ إذاما تم انتظار إحداث قواعد جديدة. وبالتالي تظهر أضرار لا يمكن تلافيها، ولهذا أعطي حق النداء للسلطان بـ« يا جلاد!... ».

٢- لأنهم في مكانة وموقع متميزين بالنسبة إلى سلطة الدولة، فإن السلطان فقط هو السلطة الوحيدة العليا التي يمكن أن تحاكمهم دون خوف، أما إحالة السلطان أحدَ الأشخاص إلى الجلاد فإن هذا أمر مرتبط بكون هذا الشخص من منسوبي الجيش حالة السفر للحرب. حقيقة إن شخصًا واحدًا في الجيش قد يكون سببًا للهزيمة في الحرب.

كان الأمر يعتمد في كل الأحوال على فتوى شيخ الإسلام حتى لا تكون هناك فرصة لظهور مشاعر نفسية بتطبيق هذه البنود التي ظهرت لتلك الأسباب الرئيسية التي ذكرناها.

وهذه الأسباب إنما كانت نتيجة خوف محق من تقسيم الدولة، والعمل على بقائها واستمرارها، حقيقة إن الحفاظ على الدولة التي لا تزال تكبر من التقسيم أمر صعب جدًا، وإذا ما وضعنا وسائل المخابرة في تلك العهود نصب أعيننا سنجد سهولة أكثر في تقدير تلك الصعوبة.

وعلى ضوء تلك المعلومات سيتضح لنا أن مسألة قتل الأخ والابن التي أقرها الفاتح في قانونه إنما كانت من أكبر الأسباب، التي أدت إلى إطالة عمر الدولة العثمانية، من أجل حمايتها ضد الكفار وحمايتها من التقسيم إلى إمارات ضعيفة.

وهذه المادة كما وردت في القانون على ما يلي:

"إن تيسرت السلطنة لأحد أبنائي فإنه يمكنه أن يقتل أخاه من أجل نظام العالم (عند الاضطرار إلى ذلك)، وقد أجاز معظم العلماء ذلك. وليتم العمل بذلك عند الضرورة".



وهذا يعني أن الفاتح أقر هذه المادة في حالات الضرورة فقط من قيام على الدولة وفوضوية. ولم يأمر بتطبيقه كأمر عادي. وإن اتهام السلاطين بالجناية دون فهم الغرض من هذه المادة، ليس حكما صحيحا - مع أنهم بلغوا درجة الولاية -. لأنه ما من شخص في التاريخ يضحى بأولاده أو إخوته في سبيل منفعة رعاياه، فَيجب تحليل هذه الخصوصية وفقا للحقائق التاريخية والإرادة القوية أكثر من التحاليل وفقًا للمشاعر.

وثمة حقيقة تاريخية أخرى وهي أن عدد الذين ماتوا بسبب تنفيذ مادة قتل الأخ أو الابن في الدولة العثمانية التي استمرت ٦٢٣ عامًا كان يقارب الستين، ولو لم يطبق هذا القانون لربما أصبح عدد القتلى من جراء النزاعات مئات الآلاف أو أكثر.

ويكفينا أن نتذكر هنا أن المعركة التي وقعت بين «السلطان سليم الأول» وبين «الأمير أحمد» العاصي في وادي «قُونْيَة» بسبب النزاع على السلطنة راح ضحيتها عشرة آلاف مسلم من الطرفين، وهذا بالتأكيد يُظهر لنا أن تطبيق قتل الأخ أو الابن إنما كان بمثابة اختيار أخف الضررين، كما أنه لم يكن يطبق إلا في أصعب الظروف.

وهذا «السلطان سليم الأول» يدخل على نعش أخيه «قُورْقُوتْ» الذي تنازع معه على العرش وقتل في هذا النزاع، ويبكي ويقول:

"يا أخي يا ليتك لم تفعل هذا، ويا ليتني لم أضطر إلى فعل هذا!..."

وهذا «السلطان سليمان القانوني» بعد أن قتل ابنه الأمير «مصطفى» أراد أن يصلي عليه، ولكنه اضطر للخروج من الصلاة بسبب كثرة بكائه، لأن «السلطان القانوني» كان مؤمنًا مخلصًا لدرجة أنه كان يستفتي «أبا السعود أفندي» شيخ الإسلام في جواز أو عدم جواز قتل النملة التي على الثمرة.

إن مثل تلك الأحداث المؤلمة والأحداث الأخرى المشابهة لها إنما كانت بمثابة الذكريات المؤلمة التي توجع قلب هذه الإمبراطورية التي شملت العالم كله. كانت مثل الشوكة المغروسة في جرح غائر ينزف في روح هؤلاء الحكام الذين قادوا العالم.

ولهذا فإن السلاطين الذين اضطروا لقتل بعض الأمراء فَلَمْ يتركوا أُسَرهم دون اعتناء، بل كانوا يعطفون عليهم ويصرفون لهم الرواتب، بل كانوا يوظفونهم في أعلى وأرقى مناصب الدولة.

ولو لم تُطبق هذه الإجراءات بالرغم من النتائج المحزنة والمؤلمة لها، لرأينا الدولة العثمانية التي شملت العالم كله تتحول إلى دويلات وإمارات صغيرة ضعيفة كما كان الحال في دولة السلاجقة والأندلس، ولتعرضت الأمة الإسلامية للضرر من جراء هذا، ولم تتحقق الفتوحات التي تحققت في الغرب، ولربما انتهت الحملات الصليبية بنتائج محزنة كالقضاء على المسلمين، وأبرز مثال على ذلك وضع الدولة العثمانية والمخاطر التي تعرضت لها بعد هزيمة «السلطان بايزيد» في معركة «أنقرة».

من ناحية أخرى يمكن القول: إن التضحيات التي قام بها السلاطين العثمانيون بأعز ما يملكون وهم أبناؤهم وإخوانهم، إنما كانت تضحيات كبيرة تعبر عن ارتباطهم بالدين والدولة والأمة، وإلا فإن أي شخص في الدنيا لن يضحي بأعز ما يملك في سبيل تحقيق منفعة الغير. واذاما أخذنا بعين الاعتبار أعظم سفاحي التاريخ وصمتهم على أبنائهم وكيف أنهم ظلوا مكتوفي الأيدي رغم قساوتهم وغلظتهم لغير أبناءهم، لأدركنا مدى عظم التضحية التي قام بها العثمانيون لحماية الدين وحفظ وحدة الدولة والمسلمين.

ولهذا فإن من الخطأ الكبير مطالعة حادثة القتل عند السلاطين العثمانيين الذين كانوا يحترزون حتى من إيذاء النملة، على أنها كانت من أجل نزاع بسيط على السلطنة، لأن السلاطين العثمانيين لو كانوا قد قاموا بهذا التصرف وهم يريدون ضمان حماية حياتهم، لما خاضوا الحروب مع الأعداء ولما وقفوا في الصفوف الأولى قائلين إما النصر أو الشهادة. خاصة وأن السلاطين العثمانيين في بداية تأسيس الدولة وطوال عهد الازدهار ذلك العهد الذي انشغلوا فيه كلية بإعلاء كلمة الله ونشر الدين الإسلامي ليلا ونهارًا، لم يكن قتالهم هذا من أجل الحكم.

فيجب علينا أن نفكر جيدًا في الظروف التي اضطرت السلاطين العثمانيين الذين تركوا لنا ميراثًا تاريخيًّا مشرفًا، إلى القيام بقتل الأخ والابن. ولا يمكن أن يُتصوَر أي عقل أو وجدان يعتبر مسألة سفك دماء المسلمين في هذه النزاعات هباءً، مسألة عادية. كما أنه لا حاجة لسرد تلك النزاعات القائمة على تقسيم الدولة وتجزئتها، بإسهاب.

والذين نظروا إلى مسألة قتل الأخ والابن في الدولة العثمانية نظرة سيئة وخاضوا فيها بأحاسيسهم وادعوا أنها لم تكن من أجل حماية الأمة والدولة من الانقسام، رغم أن هؤلاء الأمراء كثيرا ما كانوا يسببون اضطرابات داخلية إما بإرادتهم وإما بإرادة خارجية، ألا ينظرون إلى مقدار الأزمة التي وقعت فيها الدولة والأمة بسبب مقتل آلاف المسلمين في الأوقات التي لم يُطبق فيها هذا القانون؟!

وبالرغم من هذا لن نتمكن بالتأكيد من البحث عن الأحقية في كل وقت في مسألة القتل المذكورة؛ لأنه ربما وقعت بعض حوادث القتل نتيجة الانسياق خلف مجموعة من السلبيات، أو نتيجة للمشكلات النفسية التي تستوجبها الطبيعة البشرية.[٣]

وهذا «السلطان مراد الثالث» و«السلطان محمد الثالث» قاما بقتل كل الأمراء حتى الصبيان منهم بمجرد جلوسهم على العرش، ويُقال: إنه لا يتم العقاب دون الخطأ، ولا يقبل أي ضمير تنفيذ الحكم على الأبرياء دون الاستناد إلى أدلة. ولهذا

٣. هذا القتل الذي لم يكن على حق، المخطىء الوحيد فيه ليس هو السلطان فحسب، يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن الوزراء والباشاوات كانوا يهيؤون الجو للقتل غير المحق ويجعلون السلطان مضطرا لتطبيق قانون القتل بمجرد جلوسه على العرش. إن ارسال الخبر الى أميرين «بايزيد» و«جَمْ» في وقت واحد عقب وفاة السلطان الفاتح بأن: "تعال واجلس على العرش مقام والدك" وأن اقامة سلطان على العرش وإبعاد الآخر عن العرش في العهود الأخيرة من قبل الوزراء، يوضح الأمر بشكل جَلِي.

فإن هذا القانون لم يُطبَّق من قِبَل «السلطان أحمد الأول» الذي كان رقيق القلب ذا مشرب صوفي. وبعدها تم إحداث شرط "الأكبر والأرشد" من أجل السلطنة، وقد عمل هذا الشرط على القضاء نسبيًّا على قانون قتل الأخ والابن، إلا أنه بتطبيق هذا القانون الجديد الذي كان يقضي بجلوس الأكبر سنًّا في الأسرة العثمانية على العرش، بدأ يجلس على العرش العثماني مجموعة من السلاطين العجائز الذين قلت همتهم، وبالتالي ضعفت روح الهجوم والتقدم الذي كان موجودًا في زمن ازدهار الدولة. وبهذا القانون الجديد أيضًا تم القضاء – وإن لم يكن كلية – على مبدأ التغلب وحق السيف الذي كان مطلوبًا من أجل العرش العثماني.

وإن كانت هناك بعض الأخطاء التي تم ارتكابها أثناء تطبيق مبدأ "قتل الأخ والابن"، إلا أن هذا لا يستوجب النظر بنظرة سلبية على هذه المادة التي كانت موضوعة في الأساس من أجل الحفاظ على وحدة الأراضي الإسلامية وحماية الأمة من الشتات، والوقوف بصلابة أمام أهل الكفر، ولا تستوجب عمل أية تقييمات لها من خلال تلك النظرة السلبية.

وثمة فائدة في مطالعة هذه المسألة باحتياط وحذر، نظرًا لأنها ستعتبر إحقاقًا لحقوق العباد، ولما فيها من عدم الإنصاف مع أجدادنا أصحاب الماضي المشرف دون الاستناد إلى محاكمة أو تفكير متعمق.

الخلاصة؛ فإن الكلمة الأخيرة التي يمكن أن تُقال في موضوع "قتل الأخ والابن" كالتالي:

"إن مطالعة تاريخ الدولة العثمانية وهي إمبراطورية عالمية استمرت لستة قرون بأخطائها وصوابها، والوصول إلى نتيجة من خلال تلك المطالعة المنصفة سيكون أصح تصرف."

وهنا يجب علينا القول بأن كل القواعد بما فيها المسائل الشرعية تعطي النتائج طبقًا لاستقامة ونضج الأشخاص الذين يطبقون هذه القواعد. حيث أن القوانين

كالسلاح أو السكين الحاد، يستخدم في توزيع العدل والحق. ويمكن أن تكون أيضًا آلة للكثير من المظالم بغلبة النفس. أي أن السكين أو السلاح يمكن استخدامه في الخير أو الشر طبقًا لميول الشخص الذي يمسك به. وفي الحقيقة يتلفع أحيانا قاعدة ما في غاية من الأهمية على يد شخص تغلب عليه نفسه بكسوة غير مرغوبة. وإن إجراءات بعض الظلمة من الحكام في أوقات جرى فيه تطبيق الشريعة الإسلامية تعد من هذا القبيل.

وقد رأينا الإمام الزاهد التقي «أبا حنيفة»، وهو من أكبر فقهاء عصره، رفض قضاء «بغداد»، لأنه خشي من ظلم الرعية. ولهذا السبب حبس وجلد من قبل خليفة زمانه. والإمام «أحمد بن حنبل»، وهو من أكبر علماء عصره، حُبس لأنه لم يقل بنظرية خلق القرآن.

وعلى هذا فإن هؤلاء الفقهاء لم يرتكبوا أي ذنب من وجهة نظر الشريعة، بل على العكس حملوا على عاتقهم هم حماية القوانين الإلهية أمام تلك الظلمة، وهم بذلك أبرياء تمامًا، ولكنهم عوقبوا على يد الخلفاء المكلفين بتطبيق الشريعة وكأنهم مذنبون. وهذا كله يظهر أن سمو القانون والقاعدة أمر، وتطبيقه أمر آخر وعلى هذا يلزم تقييم الأمر.

وعندما نقيم مسألة "قتل الأخ والابن" في ضوء هذه الحقيقة، سيظهر أمامنا أنها كانت مسألة ضرورية التطبيق من حيث الظروف التي كانت الدولة العثمانية تعيشها. أما إذا ما حللناها من حيث التطبيق سنجد أنها -كما أوضحناه في الأعلى- كانت مرتبطة بالكيفية والدراية التي في الأحداث والكمالات والحساسيات الدينية للأشخاص الذين طبقوه.

وعليه فإننا بالرغم من قبولنا لضرورة هذه المسألة إلا أننا نصوب ما كان منها متوافقًا مع القوانين الإلهية، ولا ننحاز لما كان منها مطبقًا بالأهواء النفسية.

ويمكن إيجاز مسألة "قتل الأخ والابن" في الدولة العثمانية في ثلاثة أقسام:

١- قتل كل أفراد الأسرة الحاكمة الذين يتمردون يتفق تمامًا مع الشرع. لأنهم يدخلون في جريمة "العصيان والبغي" الموجودة في الفقه الإسلامي، وهذا عقابه الموت.

ويقول الرسول ﷺ في هذا:

«إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِنًا مَنْ كَانَ». (مسلم، الإمارة، ٥٩-٦٠)[٤]

٢- إن بعض حوادث قتل الإخوة والأبناء يدخل ضمن نطاق "التعزير بالقتل"، وهذا يتفق مع الأصول التي قال عنها الفاتح في قانونه: "وقد جوّز معظم العلماء هذا" وقتل المنتسبين إلى الأسرة الحاكمة الذين تظهر عليهم إمارات العصيان أو التمرد - حتى وإن لم تظهر بعد- من هذا القبيل.

والأساس الذي يعتمد عليه هذا التطبيق ليس ظاهرًا مثل المادة الأولى، بل يستند في حد ذاته إلى ما يلي:

أ. "الفتنة أشد من القتل".

ب. يُرجَّح الضرر الخاص أمام الضرر العام، ويزال الضرر العام بالضرر الخاص.

جـ. يُرجَّح أخف الضررين.

وبالإضافة إلى هذا كانت هناك مساعٍ لتوضيح مسألة "قتل الأخ والابن" بقاعدة «الضرورات تبيح المحظورات»، و«الاستحسان» و«المصالح المرسلة» و«الاستصلاح».

---

٤. وفي صحيح مسلم رواية أخرى ما نصه: عَنْ عَرْفَجَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوه»



في مقابل ذالك هناك تفسير للموضوع بأن تطبيق هذه القاعدة يستند إلى الفقه العُرفي أكثر من الفقه الشرعي الذي يقول بقاعدة «الأصل براءة الذمة». مع العلم أن الفقه العُرفي رغم كونه من الفقه الشرعي إلا أنه يخرج عن نطاق المحتوى أحيانا.

٣- وحوادث القتل التي في هذا النوع لا تدخل ضمن جريمة التمرد أو العصيان ولا تدخل أيضًا ضمن القتل سياسة. حيث لا توجد مشروعية للتطبيقات التي تمت في هذا النوع، وإنما هي سوء استعمال.

وإذا ما قمنا بعمل دراسة لموضوع "قتل الأخ والابن" من منظور هذه النقاط الثلاثة المذكورة، وتم عمل تقييم للموضوع من خلالها بدون تحيز فإننا سنصل إلى أصح النتائج وأكثرها توافقًا مع الحقيقة. لا سيما وأننا عندما نراجع التصرفات التي قام بها العلماء ومشايخ الإسلام الذين كانوا موجودين في تلك الفترة وشهدوا مثل تلك الأحداث، سيتضح لنا أن هذا الطريق هو أيضًا الطريق الذي سلكوه. فقد أعطوا الفتوى بوضوح لما هو شرعي منها طبقًا لدرايتهم وخبرتهم.

أما القتل سياسة فقد أوضحوا الرأي فيه طبقًا للقانون العُرفي فقط. أما القتل الذي تم بدون وجه مشروع فلم يصدروا الفتوى به؛ حتى وإن كان ثمن ذلك عزلهم من منصبهم، لم يجيزوا ذالك قط ولم يفتوا به وكانوا ضد هذا التطبيق كلية.

والمادة الأولى التي ذكرناها متفق عليها من الناحية الشرعية. أما المادة الثالثة فهي غير شرعية قطعا. أما المادة الثانية التي هي أصعب وأكثر اختلافا من غيرها وهي القتل سياسة، فلا يكاد الحكم على صحة أو بطلان ذلك بشكل قاطع. ولهذا فإن من الصواب السكوت عنها وتجنب التحيز لأحد الطرفين. لأننا إذا ما فكرنا في الصعوبات وعدم الإصابة في تقدير وتحليل الأحداث السياسية الجارية أمام أعيننا اليوم، يتضح صعوبة إصدار حكم قاطع على الأحداث الخطيرة التي وقعت قبل عدة عصور. ولذا فإننا نقول: "الله أعلم بالصواب"

لقد كان «السلطان الفاتح» سلطانًا له تقديره حتى عند الأعداء. وكانت غايته الوحيدة هي رفع راية الإسلام في جميع أرجاء العالم. وكان يصحب معه دوما خريطة أوروبا.

لقد كان الفاتح سلطانًا حساسًا ذا روح تتسم بالرقة والشفقة. وقد أحرز سموًّا في عالم المعنى، أي في وادي التصوف، كما أحرزه في عالم الظاهر. لقد كان بذلك شخصية عظيمة ذات جناحين. والخلاصة أنه كان سلطانًا لا مثيل له في الظاهر والباطن معًا. كان يفكر في الأمة بالرحمة والشفقة لدرجة أنه كان بمثابة الأب المادي والمعنوي للمجتمع.

وقد أسس أوقافًا كثيرة، وارتقى بعهده إلى الذرى بمفهوم العدالة الاجتماعية الذي حققه بتلك المؤسسات الخيرية. وتعرض وقفياته رقة قلبه السامي. حيث يقول في إحدى وقفياته:

"ليتم إطعام الطعام لفقراء «إستانبول» في المطعم الخيري الذي أسسته، أما أسرُ وأيتام المستشهدين في فتح «إستانبول» فليتم وضع الطعام في أوانٍ مغطاة، ويقدم لهم ليلا حتى لا يلفت أنظار الجيران إليهم فتتأذى مشاعرهم!".

وكما هو واضح فإن «السلطان الفاتح» وضع بهذا الشكل قبل عدة عصور هذه القواعد السامية، التي تعكس مقاييس الأدب والشفقة، التي اتبعها من أجل الأفراد المحتاجين لحماية المجتمع. وإن اهتمامه بأسر الشهداء نموذج وفاء لا يمكن مضاهاته، خاصة وأنه يعتبر درسًا في الأدب واللطف والضمير والرحمة للبشر في الوقت الحالي.

❀

لقد كان العدل والحق سائدين في عهد السلطان محمد الفاتح في كل ناحية وكل شبر من أراضي الدولة. فالكل متساوٍ أمام القانون، وكأن تعبير (العدل أساس المُلك) قد قيل من أجل «السلطان الفاتح» وعهده.



لقد كانت المساواة للجميع في الحقوق؛ الغني والفقير والسلطان والقروي، أما حقوق غير المسلمين فكانت تُراعى بشكل واضح نظرًا لأن السلاطين العثمانيين كانوا يعتبرونهم وديعة الله أي أمانة الله في أعناقهم. ولهذا لم يقهر أي شخص غير مسلم، لدرجة أن النصارى الذين رأوا تلك العدالة العثمانية أصبحوا مغرمين بها، ويمكن القول بأن العدالة العثمانية، التي كانت تنتقل بين ألسن الناس، كانت سببًا في توسع الفتوحات في الروملي بسرعة وبسهولة، لقد كان الوضع إلى تلك الدرجة فعلا، فأثناء حصار الفاتح لـ«إستانبول» اقترح البيزنطيون على الإمبراطور البيزنطي «نَاتُراسْ» أن يطلب المساعدة من البابا، ولكنه رد عليهم بمقولته المشهورة في التاريخ:

"لأن أرى العمامة العثمانية في إستانبول خير لي من أن أرى قبعة الكاردينال".

وقد أسلمت الكثير من الراهبات بفضل تطبيق هذه العدالة، وارتدت حجاب الإسلام مثل السيدات العثمانية ولأن النصارى الذين كانوا يعيشون تحت وطأة الظلم قبل فتح العثمانيين بلادهم، كانوا يتحسرون على عدم فتح العثمانيين لبلادهم، كانوا يتجسسون لصالح الدولة العثمانية أملا منهم في أن يفتح العثمانيون بلدانهم، وكأداء لهذا الدَّين لم ينسَ العثمانيون هذا الدور الذي قاموا به، فساعدوهم وأجزلوا لهم العطاء.

وبعد فتح «إستانبول» أعلن الفاتح العفو العام، وأطلق سراح كل البيزنطيين المحبوسين، وكان بين هؤلاء المحبوسين اثنان من القساوسة الفلاسفة العلماء، ولما سألهما الفاتح عن جريمتهما قالا:

"لقد كنا من أكبر قساوسة بيزنطة، وقد نبهنا الملك وحذرناه من ظلمه ومن المظالم التي يقوم بها. وقلنا له: إن هذا الظلم وهذه الوقاحة ستكون عاقبتها نهاية الإمبراطورية، فغضب علينا وحبسنا".

وقد لفتت تلك الإرشادات انتباه السلطان الفاتح، فسأل الرجلين عن رأيهما في الدولة العثمانية، فأجابا بأنهما سيجيبان ولكن بعد فترة.

أخذ القسيسان يسيران في أنحاء المدينة بحكم البراءة التي حصلا عليها، وفي الصباح الباكر دخلا إلى بقالة ليشتريا بعض الحاجات، فقال صاحب البقالة:

"إني قد استفتحت البيع أنصحكما بجاري الذي لم يستفتح بعد لتشتريا حاجتكما" وتجولا في المدينة في كل مكان فيها فرأيا أن كل الأفراد في الأسواق وفي غيرها على درجة عالية من الأخلاق الحسنة. وفي تلك الأثناء دخلا سوقًا، وبمجرد أن دخلا أذن المؤذن، فرأيا أن كل بائع يذهب لأداء الصلاة دون أن يقفل محله، وكأن كلا منهم في ذمة الآخر، كانوا يؤدون الصلاة في خشوع وكأنها آخر صلاة لهم. لا يتعرض أي واحد لحق الآخر ولا يكسر خاطره. ما كانوا يرغبون الوقوف بين يدي الله وعليهم حق من حقوق العباد. كان الكل يفكر في رضاء الله؛ يتحدثون من أجل الله، ويعيشون من أجل الله ﷻ، ويدعون بطول العمر للسلطان ونصرة الجيش. كان المجتمع مليئًا بالناس الذين يتصفون بالرقة القلبية العميقة والأرواح الرقيقة.

ولما رأى القسيسان هذه الأحوال أصابتهما الحيرة والدهشة، وبالرغم من أنهما تجولا في بلدان كثيرة من بلدان الدولة العثمانية إلا أنهما لم يصادفا دعوى واحدة من الدعاوى ذات العقوبات الثقيلة، فالقتل والاغتصاب والسرقة والتسلّط على العِرض وغيرها كانت جرائم غير معروفة في المجتمع العثماني، وقد حضرا محاكمة واندهشا منها كثيرًا:

أتى مُدّعٍ ومُدّعًى عليه إلى القاضي، وعرض المدعي المسألة على ما يلي:

"يا سيدي القاضي! لقد اشتريت الحقل الفلاني لأخي في الله، وبينما كنت أحرث الأرض للزرع عثرت على جرة ممتلئة بالذهب فأخذت الجرة وأحضرتها إلى أخي هذا الذي اشتريت منه الأرض، وقلت له:"تفضل هذه ملكك".

فرد الرجل عليّ قائلاً:

"ولكني بعتها لك بما عليها وما فيها، وهذا ليس حلالا لي"

ولكنه لو كان يعلم أنه سيخرج منها هذه الجرة لما باعها.

فسأل القاضي البائع عن الأمر، فقال:

"نعم، إن الأمر كما قص أخي، ولكني عندما بعتها له كانت نيتي أنني أبيعها له بما فيها وما عليها. وكما أن ما فوقها ليس من حقي فإن ما تحتها أيضًا ليس من حقي".

وقد كانت تلك الحادثة بمثابة الحادثة الغريبة جدًّا بالنسبة إلى القسيسين، ولكنها كانت طبيعية بالنسبة إلى القاضي، لأن هذا الحال هو أكثر الأحوال طبيعة في مجتمع يعيش بحقوق الإسلام.

لم يجد القاضي صعوبة في إصدار الحكم بين هذين المسلمين الحقيقيين، فلما علم أن لأحدهما ولدًا صالحًا وللآخر فتاة صالحة توسط بينهما وزوّج البنت للولد برضاء الطرفين، وأمر بأن يتم تجهيز العرس بهذه النقود الذهبية التي في الجرة.

لقد كان هذا المجتمع يعيش عدالة الإسلام ومفهومه.

وبعد أن رأى القسّيسان كل هذا وحل المساء أرسلا بنتيهما إلى مدرسة من المدارس، وقالت الفتاتان للشباب الذين فتحوا لهما الباب في المدرسة :

"لقد حل المساء وضللنا الطريق ألا تضيفوننا في هذه الليلة، فنحن بلا حيلة"

وبعد أن فكر الطلاب، قبلوا استضافة الفتاتين، وتركوا لهما أماكنهم، وجعلوا بينهم وبين الفتاتين ستارة، وأشعلوا مشاعل نار وأمسكوها في أيديهم وقضوا الليلة على هذه الحالة. وفي الصباح خرجت الفتاتان ولما سألهما القسيسان كيف مرت الليلة أجابت الفتاتان وقالتا:

"إن الطلاب فعلوا كذا وكذا وكانوا يأخذون جمرات النار بأيديهم ويقولون فيما بينهم: "إن نار جهنم أشد حرًّا" وكانوا يدعون الله ألا يجعلهم من الحمقى الذين يستبدلون العاجل بالآجل؛ وحتى ما كانوا يلتفتون إلينا"

إن هذا المثال يبرهن على أن المجتمع العثماني كان يعيش آمنًا على الشرف، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها على سبيل المثال الفرمان الذي أصدره الفاتح بعد فتح «البُوسْنَة» حيث أمر بألا يتواجد الجنود العثمانيون عند أسبلة المياه إذا ما ذهبت الفتيات الصربيات للسقي، وهذا يدل على أن المجتمع العثماني كان يعيش في عفة وشرف.

وقد عمل الفاتح بهذا الفرمان على عفة جنوده، وعلى المحافظة على شرف الفتيات البوسنيات من رعاياه النصارى.

ولم يستطع القسيسان المكلّفان بالتجوال في البلدان العثمانية أن يمنعا نفسيهما من التجول في أحياء النصارى. فذهبا للتجول في حي « فَـنَـرْ»، لقد رأيا أن كل شيء تغير بالنسبة لوقت ما قبل الفتح، فالأزقة أصبحت نظيفة، ولم يعد أحد يتجرأ على ظلم أحد. كان الجميع يعيش في طمأنينة، ولم يجدوا في الطرقات هؤلاء السكارى، الذين كانوا يسيرون وهم يصيحون في الطرقات، حتى الأسر النصرانية التي كانت بلا مأوى أعطيت لها منازل.

وبعد هذا التفتيش والتنقيب استأذن القسيسان من الفاتح للحضور إليه وعرضا مشاهدتهما عليه فقالا: "إن هذه الأمة وهذه الدولة لو استمرت على هذه الحال فستستمر إلى يوم القيامة، ولا شك أن دين هؤلاء الناس الذين يعيشون بتلك الأخلاق إنما هو دين الحق" ونطق كلاهما الشهادة وأسلما.

وقد حدثت بعد ذلك الكثير من تلك الأحداث في عهد الفاتح، وكلها وقائع ليس لها مثال في التاريخ، منها ما يلي على سبيل المثال:

كان «الفاتح» بعد فتح «إستانبول» قد أمر بقطع يد أحد المعماريين النصارى، لأنه قام بالمهمة حلاف ما أمر به السلطان. وكان قاضي «إستانبول» في ذلك الوقت هو «خِضِرْ بَكْ» الذي كان من أقرب المقربين إلى «السلطان الفاتح». فكان قد عينه في وظيفة قضاء «إستانبول».

على أية حال ذهب هذا النصراني إلى القاضي «خِضِرْ بَكْ» ورفع دعوى على السلطان الفاتح، وبينما كان السلطان ينادى في كل المكاتبات الرسمية بلقب «السلطان ابن السلطان الغازي أبو الفتح محمد خان الثاني»، إلا أن «خِضِرْ بَكْ» كتب إليه في أمر الإحضار"ليحضر «محمد بن مراد» في الساعة كذا إلينا!"

وفي يوم الدعوى ذهب الفاتح إلى المحكمة كأي فرد عادٍ بدون أية مظاهر أو أبهة. وجلس على كرسي المتهمين، وجلس «خِضِرْ بَكْ» في مكانه، وبدأت المحاكمة.

القاضي يقضي في المحكمة وهو جالس، لأنه يقوم بتوزيع العدل بين الناس، ويقف بقية المختصين بالدعوى. لما رأى خضر بك الفاتح جالسا أمره محذرا:"قف فإنك متهم وتُحاكَم."

ونهض الفاتح واقفًا، وفي المحاكمة تبين أن الفاتح مذنب وأن المعماري النصراني على حق، فقرأ القاضي آية القصاص وحكم بقطع يد الفاتح. وفي تلك اللحظة استقبل الفاتح الذي كان سلطانًا من أعظم سلاطين الأرض في عهده الحكم بصدر رحب، واستسلم للأمر وتوكل على الله.

وقال: "هذا هو حكم الشرع."

ولما رأى النصراني هذه العدالة العالية اهنزت مشاعره وبكى فقال:

"أنا متنازل عن حقي وأقبل الدية."

ولما انتهى الأمر بهذه الصورة الحسنة قال الفاتح لـ«خِضِرْ بَكْ»:

"أهنئُك، لأنك خشيت الله ولم تخشني".

فأخرج «خِضِرْ بَكْ» من تحت المنصة، التي كان يجلس عليها عصا، وقال للفاتح:

"لو أنك رفضت حكمي لضربت رأسك بها".

فأخرج الفاتح هو الآخر سيفًا من تحت جبته وقال:

"وأنت أيضًا لو لم تحكم بالعدل لضربت عنقك بالسيف".

وأمر الفاتح بعدها بتأسيس منزل للنصراني من ماله الخاص. فقال المعماري المسيحي:

"لا يوجد في الدنيا كلها عدالة كهذه، وأنا من هذه اللحظة أعلن إسلامي". ونطق بالشهادتين.

كان الفاتح يولي أهمية كبرى للعدالة وللقضاة الذين ينشرون العدل، وكان دائمًا ما يساعدهم من أجل تنفيذ حقهم وحقوقهم. وهذا مثال على ذلك:

كان «داود باشا» من كبار رجال الدولة في عهد الفاتح، وقد اشتكاه الناس لقاضي «أَدِرْنَه» بسبب ظلمه، فاستدعاه القاضي للمحاكمة، قام القاضى بإنذار «داود باشا» أوّلا ليترك تصرفه ويعود إلى الحق ثم أعلن حكمه بتطبيق العقوبة عليه، ولما تطور النقاش بينهما، تعدى «داود باشا» حده وقام بضرب القاضي عدة لكمات على وجهه، ولما علم الفاتح بذلك عاقب «داود باشا» عقابًا شديدًا، وقال: "إن الشخص الذي ضرب القاضي الذي يخدم العدالة كأنه قد حقّر الدين وخرّبه"

وقد أصيب «داود باشا» بحالة معنوية سيئة بعد تلك الحادثة لدرجة أنه مرض. وبعد فترة ندم وتاب إلى الله، وأخذ عهدًا على نفسه بألا يخالف أوامر الله وألا يهين رجال القضاء أبدًا، ثم تقرب إلى الفاتح مرة أخرى فنال درجة الوزارة، وفي عهد «بايزيد الثاني» أصبح صدرًا أعظم.

وكما تُظهر كل تلك الأحداث نُضْج الفاتح، تُظهر أيضًا أن شعبه حذا نفس حذوه بموجب الحديث القائل:"الناس على دين ملوكهم". فقد كان عهده أكمل

نموذج على الرقة والرحمة التي أوصى بها الإسلام. كان عهده ميراث الاستقامة للأجيال وكل الإنسانية. وهذه خصلة عظيمة نفتقدها في هذه الأيام.

والآن ماذا حدث لنا؟ لماذا انتقلنا من تلك الحال إلى هذه الحال؟ لقد انتقل بناؤنا الروحي إلى الخراب، وتعرضنا لعاقبة محزنة مثل رجل مبذّر أكل ميراث أجداده ولم يبق منه شيئًا. ويا تُرى أي رسالة تقدم شخصية الفاتح المادية والمعنوية اليوم للناس الذين أصبحوا محرومين من الرحمة وأصبحوا أسرى للمادة؟

لقد فقدنا جوهرنا، ونتخبط بحثًا عنها فأصبحنا قلقين ولو أننا رأينا الفاتح في أحلامنا يقول لنا:

"ماذا فعلتم بالأمانة المادية والمعنوية التي تركتها لكم؟ هل استطعتم أن تصلوا إلى روما (التفاحة الحمراء) بعد إستانبول؟ كيف حال آياصوفيا؟"

يا تُرى هل تحمرّ وجوهنا خجلا من تلك المحاسبة، التي تكسر المرايا؟ أم أننا سنستمر على ما نحن عليه من اللامبالاة؟ وليحاسب كل منا نفسه!.. يا تُرى هل تعرضنا لدعاء الفاتح علينا، ويا تُرى هل دعاؤه بالشر الذي أورده في وصيته سيكون بمثابة التنبيه والإيقاظ لنا حيث قال في وصيته:

"وكل مَنْ يحوّل هذا الجامع إلى شيء آخر عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. ولتصب عليهم نار لا تخفف عنهم أبدًا، ولا يجدون من ينظر إليهم أو يشفع لهم".

وبالتأكيد إن هذا الدعاء الذي دعاه الفاتح ليس مقصورًا على مَنْ حولوا مسجد آياصوفيا فقط، بل يشمل أيضًا مَنْ لديهم الإمكانيات لإعادته إلى حال المسجد ولم يقوموا بذلك. وقد عبر الشاعر عن هذا الحال المحزن فقال:

قد زالت مخيلتي، ما هذه الرؤيا السيئة المخيفة؟

إني في حيرة: ماذا تمثل آياصوفيا اليوم؟

يا لسعادة المجاهدين الشباب أصحاب العزم والدراية الذين يبذلون جهودهم وهمتهم من أجل إعادة ملتنا، التي اقتلعت من جذورها منذ سنوات طويلة إلى خطى الفاتح. لقد قضى «السلطان الفاتح» عمره كله في سبيل تحقيق الأهداف العظيمة، وبالرغم من أنه خاض أكثر من ٢٥ حربًا بنفسه إلا أنه لم يهمل قط النشاطات العلمية أو العمرانية، وارتقى في تلك الساحات إلى الذرى. وقد أولى الفاتح أهمية كبيرة لإعمار مدينة «إستانبول» خاصة، فأسس فيها القصور والجوامع والمدارس وقنوات المياه والمطاعم الخيرية، والأوقاف والأسواق والحمامات وغيرها كما أمر بتأسيس ٤٠٠٠ دكان في أنحاء المدينة وأوقفها كلها. غير المدارس التي كانت موجودة بجوار الجوامع الكبيرة كان في إستانبول ٢٤ مدرسة، ١٢ خانًا، ٤٠ سبيلا، كما أسس شبكة مياه، وترسانتين للسفن، ومعسكرًا. وللفاتح أيضًا في مدينة «بورصة» ٣٧ جامعًا، وفي «أدرنه» ٢٨ جامعًا، وفي المدن الأخرى ٦٠ جامعًا.

كان آخر سفره مخفيا عن كل أحد كما يقول دائماً:

"لو كان شعرة واحدة من لحيتي تعلم إلى أين أقصد لنتفتها وألقيتها!"

خرج الفاتح بجيش كبير يتكون من ٣٠٠ ألف شخص، ولكنه سُمَّ قبل أن يبلغ بداية الطريق، وتُوفي في «كَـبْـزَة» شهيدًا، فقد حاول البنادقة وضع السم للفاتح ١٤ مرة، ولكنه نجا منها كلها، أما في آخر مرة قدر الله تعالى ألا ينتبه الفاتح لها، وارتحل إلى جوار ربه بعد أن نال الشهادة وبشارة النبي ﷺ.[٥]

رحمة الله عليه!..

❀

وبينما كانت وفاة الفاتح سببًا في حزن العالم الإسلامي كله، إلا أنها كانت أيضًا سببًا في فرحة العالم المسيحي كله، فقد أمر البابا بأن تُدق أجراس الكنيسة عدة مرات،

---

٥. إن من قام بوضع السم للسلطان الفاتح طبيب يهودي يسمى «ميستا جاكوب» وقد انضم إلى أطباء القصر باسم «يعقوب باشا».



وذلك لأن الفاتح كان يرمي إلى فتح «روما» التي كانت الجناح الثاني للنصرانية في العالم، وسار في سبيل تحقيق ذلك خطى حثيثة، فقد تمكن من فتح «أوترانتو» وأحكم الضغط على «إيطاليا» وأعد الظروف التي تمكنه من فتحها. ولأن الدول الأوروبية الأخرى كانت تعلم قوة وقدرة الفاتح لم تتحرك لمساعدة «إيطاليا» بالرغم من طلب إيطاليا للمساعدة وذلك لأن تلك الدول كانت تعلم نتيجة حربها مع الفاتح، فكان كل شروط الفتح معدة تقريباً. وقد خُمِّن أن حملته الأخيرة كانت صوب «رُودُسْ». وكان قلق إيطاليا ووضع السم «للسلطان الفاتح» بينما كان على وشك الحملة يقوي هذا الرأي، لأن فتح «رُودُسْ» التي كانت تحت سيطرة البنادقة كان سيعمل على تسهيل فتح «إيطاليا» بدرجة كبيرة.

وقد كان الفاتح يرغب بقوة في أن ينال البشارة الأخرى التي بشر بها النبي ﷺ بفتح «روما» كما نال البشارة الأولى بفتح «إستانبول» إلا أن هذا الفتح لم يكن ميسرًا له بسبب انقضاء عمره.غَيْرَ أنه كما تم فتح إستانبول بموجب الحديث الشريف، سيتحقق للمسلمين أيضًا فتح روما وتتحقق بذلك المعجزة النبوية، إلا أن هذا الفتح ينتظر وقته المقدر له كبقية الأماكن التي تم فتحها.

ولو أن الفاتح تمكن من إتمام حملته الأخيرة تلك لتغيرت خريطة أوروبا اليوم تغيرًا تامًّا، بل وربما وصل الإسلام إلى أبعد نقطة في أوروبا.

اللهم أحسن إلينا وإلى هذا الجيل الذي أصبح بلا صاحب في العهود الأخيرة بنصيب من تلك الخصال السامية، التي كانت لدى الفاتح الذي نال بشارة النبي ﷺ وخاصة خصاله الدينية وحملاته في الفتح، وأعز الإسلام والمسلمين بأيديهم!.

آمين!!!.







الذي أسس عرشه في قلوب الرعية بإدارته
التي امتلأت بالأخلاق والفضيلة والعدل

السلطان بايزيد الثاني الولي

(١٤٤٨-١٥١٢م)

ثامن السلاطين العثمانيين.

بذل القصرُ عناية كبيرة بتعليمه وتربيته منذ صغر سنه، وعندما بلغ السابعة من عمره عين واليًا على آماسيا تحت إشراف علي باشا. وبذلك تربى كرجل دولة متفوق.

وكما كان «بايزيد الثاني» رجل دولة متفوقًا، كان في الوقت نفسه صاحب شخصية ومزاج فني، حتى إنه تميز في مجال الألحان والشعر وحسن الخط.

كان من أعلم سلاطين العثمانيين، وذلك لأنه في عهد إمارته لم يكتف فقط بالعلوم النظرية، بل تربى ونضج معنويًّا على يد كبار رجال المعنوية في عهده، واكتسب توجه



الكثير من الأولياء في عهده مثل «محيي الدين الإسكليبي» والد «أبي السعود أفندي»، وحصل منهم على الدعاء والهمة. فقد أسس عرشه الحقيقي في قلوب الرعية بتشكيله العديد من المؤسسات الخيرية، وبإدارته التي امتلأت بالأخلاق والفضيلة والعدل، ولهذا عُرِف بلقب الولي أو «بايزيد الولي».

والذي أوصله إلى هذه المنزلة تقواه وإخلاصه اللذان جعلاه سلطانًا في الظاهر والباطن معًا. وقد كان يأمر بجمع الغبار الذي يصيب ملابسه وأحذيته في الحملات العسكرية. وأوصى بوضع ذلك تحت خده بعد وفاته.

وأراد بذلك أن ينال بشارة النبي ﷺ الواردة في الحديث الشريف[1].

وقد كان ينظم أشعاره على مخلص «عَدْلي». فالبيتان التاليان يوضحان مدى اشتياقه لمعرفة الله وتعمق قلبه في ذلك:

يا الله! الألوهية تليق بك،

والعبودية تليق بي..

لأنك مولى كل المخلوقات،

فكل المخلوقات تلجأ إليك...



جلس «السلطان بايزيد الولي» على العرش عام ١٤٨١م وظل ١٤عامًا في صدام مع أخيه «السلطان جم» فقد منع هذا الوضع إقدام «بايزيد» على العالم المسيحي. وقد اقترح «جم» على «بايزيد» اقتراحاً وقال:

"لنقسم الدولة إلى نصفين، كن أنت سلطانًا على نصفها وأكون أنا سلطانًا على النصف الآخر!.."

١. قال النبي ﷺ: "... **ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم**" (الترمذي، فضائل الجهاد، ٨)



فأجابه «بايزيد» قائلاً:

"يا أخي، إن الوطن ملك الأمة، وهذا يُفقِد الدولة قوتها، كما أنه يعمل على تقسيمها إلى إمارات ضعيفة. وهذا يعد وبالا عظيمًا على الأمة، إن جسدي يمكن أن يتجزأ أما تراب الأمة فلا!.."

ويُظهر هذا التصرف وحده مدى دراية وخبرة «بايزيد الولي»، وأنه كان شخصية نموذجية مفعمة بالمخاوف على مستقبل العالم الإسلامي.

بناءً على رد «بايزيد» على أخيه «جَمْ» خاض «جم» صراعًا طويلا مع أخيه الأكبر «بايزيد» استمر لفترة طويلة دون نتيجة بسبب عدم دراية «جم»، بالرغم من الكثير من المزايا التي يتميز بها. ولم يرض «جم» بنصائح أخيه الأكبر واقتراحاته المعقولة. ونظم «جم» الأبيات التالية التي توضح عناده:

بينما تنام أنت في سعادة واطمئنان فراشٍ كالوردة

أرقد أنا في الرماد، فما سبب احتراقي؟

لأن «بايزيد الثاني» كان تقيًّا، ويتصف بالأخلاق الحسنة رد على أخيه «جم» بطريق الشعر أيضًا بأن هذا هو تقدير الله، ونصحه بالتخلي عن التصرفات الخاطئة:

يا أخي بينما كانت الدولة مقدرة لنا منذ الأزل

فما سبب إنكارك لهذا؟

وأنت تفتخر بأنك ذهبت إلى الحرمين وأديت الحج

إذًا فلم حرصك هذا على السلطنة؟

وبعد ذلك انخدع «جم» للدعوة التي قام بها قائد فرسان رُودُس بلسان لبق وذهب إليهم، ووقّع معهم اتفاقية، كان «جم» بمقتضاها حرًّا في التصرف ومغادرة الجزيرة وقتما شاء، إلا أن فرسان «رُودُسْ» لم يحافظوا على تلك الاتفاقية وعاملوه معاملة الأسير.

كان التجاء «جم سلطان» إلى فرسان «رُودُسْ» بمثابة الحظ العاثر والخطأ الكبير الذي يشبه الخنجر في صدره وصدر الأمة. فقد كان ذهابه إلى هناك سببًا في عرقلة الفتوحات في الغرب. حتى قلعة «أوترانتو» التي فتحت من قبل، وكانت بمثابة الأرضية لفتح «روما» خرجت من يد العثمانيين.

لقد قام فرسان «رُودُسْ» الذين أسروا «جم سلطان» بسهولة وبأسلوب لطيف بتسليمه للبابا كالعبد مقابلَ مبلغ من المال. فَهَمَّ البابا على استخدامه كأداة في حملاته الصليبية. أما «بايزيد خان» فتخلص بصعوبة من هذا الخطر بتهديده لهم أنه سيحارب كل النصارى إن فعلوا شيئا كهذا. واضطر إلى دفع الكثير من الأموال من خزينة الدولة للبابا. فلما أدرك البابا «أينوشنت الثامن» أنه لن يستطيع تحريك أية حملة صليبية ضد العثمانيين باستخدام «جم»، قام بدعوته إلى النصرانية.

وقد كان هذا الاقتراح صعبًا للغاية على «جم»، وحزن حزنًا شديدًا وقال للبابا:

"لن أغير ديني حتى لو أعطيتني العالم بأكمله وليس الدولة العثمانية فقط!.."

وذلك لأن «جم» بالرغم من كل شيء كان يحافظ على دينه، وكانت محبته لله ورسوله تفوق الحدود، وهذه الأبيات التي نظمها بعد عودته من الحج توضح تلك الحقيقة:

أيها القلب إن وصولك إلى الكعبة التي هي بيت الله وطوافك بها

أعظم لك من ألف مُلك «قَرَمَانْ» ومن ألف ملك للعجم وألف ملك عثماني

والدعاء الذي تضرع به «جم سلطان» إلى الله ﷻ عندما أدرك أن النصارى يريدون استخدامه ضد العالم الإسلامي كافٍ لإظهار كماله الديني. بل إنه كان يرتعد خوفًا حتى من احتمال استخدامه ضد العالم الإسلامي، وكان يناجي ربه ويقول:

"يا رب! إن كان الكفار يهدفون إلى استخدامي كأداة للإضرار بالمسلمين، فاقبض روحي عاجلاً غير آجل، وخذ بي إلى جوار عزتك".

وقد استجاب الله تعالى دعاءه وقبض روحه وهو في السادسة والثلاثين من عمره في «نابولي». وقد أوصى من حوله أثناء الوفاة قائلاً:

"يجب عليكم أن تنشروا خبر وفاتي إلى كل الأرجاء، لِيَنتهِ الألعابُ التي كان النصارى يلعبونها متخذين مني وسيلة لها. ثم لتذهبوا إلى أخي «السلطان بايزيد» وأبلغوه أني أرجو أن ينقل جسدي إلى أرض الوطن مهما كلفه ذلك، فأنا لا أريد أن أُدفن في أرض الكفار. فما حدث قد حدث، وأرجوه بألا يرفض طلبي، وأن يقوم بأداء كل ديوني. فلا أريد الوقوف بين يدي الله وعلى عاتقي ديون. وليعف عن أسرتي وأبنائي، ومَنْ كانوا يخدمونني، وليعمل على إسعادهم على حسب أحوالهم".

وقد نفّذ السلطان «بايزيد» وصية أخيه.

❁

وبعد وفاة السلطان «جم» شعر «السلطان بايزيد» بحرية أكثر في علاقاته وسياساته الخارجية. كما خاض حملة عمرانية كبيرة، وهو الذي أمر المعماري «كمال الدين» ببناء جامعه الكبير المقام على أحد هضاب «إستانبول» السبعة، وقد وضع أساس هذا الجامع في عام ١٥٠١م، وتم الفراغ منه مع الكلية المجاورة له في خمس سنوات.

وقد سجل «أوليا جلبي» معلومات كثيرة عن هذا الجامع في رحلته فقال:

"ولما تردد المعماري في تحديد القبلة، قاله له «السلطان بايزيد» اضغط على قدمي الآن، فلما ضغط المعماري على قدم السلطان ورأى الكعبة المشرفة أمامه، انكب على قدم السلطان". وبهذا تم تحديد القبلة من قبله.

وهذه لوحة أخرى حدثت وقت بناء الجامع:

"كان قد تم احتساب الأموال واليوميات المخصصة للعمال الذين يعملون في تأسيسه. وتم تعيين أجرة كل يوم ووُضِع كل منها في جرة، ليأخذ كل عامل نصيبه منها في نهاية اليوم. وذات يوم اكتشفوا أن الجرة بها يومية زائدة، وتكرر هذا



كل يوم. ولما سألوا مَنْ الذي لم يأخذ نصيبه من المال، أجاب عامل فقير بأنه هو الذي فعل ذلك، فسألوه عن السبب فأجاب الرجل بشكل يوحي بخجل من انكشاف سره قائلاً:

«إنني رجل فقير لا أملك مالًا أو مِلْكًا، وأنا حزين؛ لأنني لم أقم بعمل خيري مادي في تلك الدنيا الفانية، فقلت سأعمل في تأسيس هذا الجامع بدون أجر، وبذلك أكون قد عملت عملا خيريًّا ماديًّا وأرحت قلبي."

فقالوا له:

"يا رجل! إن هذا العمل من خيرات السلطان، ولهذا فإنك ستأخذ حقك من العمل، واعمل واجتهد هنا ببدنك، وخذ حقك من المال وأنفقه في أوجه الخير كما تحب".

كان «السلطان بايزيد» كثيرا ما يأتي في إنشاء هذا الجامع المشهور المسمى باسمه، ويعمل بيده. وذات يوم أثناء عمله في البناء لاحظ أحدا من العمال يعمل بسرعة هائلة ومهارة عالية، فأدرك «السلطان بايزيد» بأنه الخضر عليه السلام بموجب قول الشاعر:

"ليس إنصافًا عدم معرفة أهل القلب لبعضهم".

فذهب إليه السلطان على الفور وأمسكه من يده بقوة، وقال:

"إن لم تعدنا بالحضور في كل وقت صلاة لهذا الجامع فسأصيح وأقول للناس إنني أمسكت الخضر".

اعتذر الخضر لكثرة أعماله، وطلب العفو، وبالرغم من أن السلطان خفف عليه بأن قال له:

"إذاً تعال مرة واحدة في اليوم أثناء الصلاة"،

إلا أن الخضر عليه السلام لم يقبل أيضًا، ولما اقترح عليه «بايزيد الولي» أن يمر عليهم كل أسبوع مرة، وافق الخضر عليه السلام، فتركه السلطان حرًّا.



بموجب هذا اعتقد الناس بأن الخضر عليه السلام يأتي كل أسبوع مرة إلى «جامع بايزيد» حتى إن الروايات المتواترة تذكر أنه في كل مرة يأتي فيها يقيم الصلاة بجوار المئذنة ذات النطاق الأحمر.

وقد تم افتتاح الجامع يوم الجمعة. و«السلطان بايزيد» هو أول من صلى بالناس أول صلاة فيه. ويذكر «أوليا جلبي» عن هذه الحادثة ما يلي:

"لما تم الانتهاء من تأسيس الجامع تم افتتاحه للتعبد في جمعة بمراسم كبيرة. ثم قال «السلطان بايزيد» للحضور:

"من منكم لم يترك السنة القبلية لصلاة العصر والعشاء قط في حياته، فليأت وليأم بالناس في هذه الساعة المباركة!.."

وعندما رأى «السلطان بايزيد» عدم خروج أي شخص رغم كثرة الحاضرين، اضطر للخروج هو بنفسه وقال:

«الحمد لله! إنني لم أترك هذه السُنن لا في السلم ولا في الحرب»".

وبذلك اضطر «بايزيد خان» لعرض تقواه وزهده على مسرح التاريخ.

❀

ولبايزيد الكثير من المناقب المنتشرة بين الأهالي وسنعرض واحدة منها الآن:

"كانت إحدى بنات «السلطان بايزيد» تنتسب إلى «الشيخ أبوالوفا» وتذهب لزيارته كثيرًا، وقد أدى هذا إلى انتشار الشائعات بين الناس. فمنع «السلطان بايزيد» ابنته من الذهاب إلى الشيخ وحذرها. ولكنها رجت والدها السلطان بأن يسمح لها في زيارة أخيرة، فسمح لها.

أرسل «الشيخ أبي الوفا» الذي تطلع على الموقف من لسان حال الفتاة هدية للسلطان، كانت الهدية عبارة عن علبة "نشوق"، وذلك لأن «السلطان بايزيد» كان يحب النشوق حبا بالغا. ومع السلامات والأدعية المقدمة إليه من الشيخ فتح

السلطان هذه العلبة، لكنه تحير كثيرا! لأنه لم يجد "نشوقًا" في العلبة، بل وجد قطعة نار في حالة رماد موضوعة على قطعة من القطن. وبذلك أجاب «الشيخ أبو الوفا» عن تلك الشائعات التي أخذها السلطان بمحمل الجد. وكان يريد من هذا أن ما هي عليها ليست بمحبة دنيوية بل هي محبة إلهية.

وبسبب تلك الحادثة رغب «السلطان بايزيد» في زيارة «الشيخ أبي الوفا» جدًّا، ولأن طلبه رُفِض كما رُفِض طلب والده الفاتح من قبل، شعر السلطان بأن لديه رغبة قوية في زيارة الشيخ. فهب فجأة ذات يوم وحمل معه رجال القصر والموكب وخرج إلى طريق التكية، ولما رآه المريدون من بعيد، ذهبوا إلى «الشيخ أبي الوفا» وأخبروه بأن «السلطان بايزيد» قادم في الطريق، فأنكر الشيخ ذلك، ولما وجدهم يصرون على أنه قادم، امتد الشيخ على الأريكة، واتجه نحو القبلة ونطق الشهادتين، وخرجت روحه إلى ربه قبل دخول السلطان عليه.

وقد كان يقول للسلطان من قبل: "إن التقاءنا في الدنيا ليس بمقدر!" وهذا كان سبب إعراضه الدائم عن مقابلة السلطان.



ومن رجال الدولة المشاهير في عهد «السلطان بايزيد» «مسيح باشا» الذي كان يعد بمثابة «أدبالي» لـ«السلطان بايزيد» فقد كان «مسيح باشا» ينبه السلطان كثيرًا، ويذكر له الأحوال والأفعال غير الإسلامية التي يقوم بها الوزراء، وكان «مسيح باشا» ينصح السلطان بأنه يجب عليه إصلاح تلك الأخطاء، وإلا فإن التقوى فقط لن تنقذ السلطان من عذاب جهنم.

وقد كان «السلطان بايزيد» يستمع إلى تلك النصائح بعقله وقلبه، وفي إحدى المرات وأثناء اجتماع الديوان أنذر «السلطان بايزيد» المدرك للمسئولية الثقيلة الملقاة على عاتقه، وزراءَه فقال: "أيها الباشوات! اعلموا أنني مسئول يوم القيامة عن كل أحوال هؤلاء الرعية. وقد سمعت أنكم تصدرون أفعالا غير إسلامية، ألا تعلمون

أنكم بأفعالكم هذه لا تجعلون مكانًا لي في الآخرة، كيف سيكون حسابي يوم المحشر، احترسوا ولا تصدروا فعلا مغايرًا للرضاء الإلهي!".

وإلى جانب الخيرات التي قام «السلطان بايزيد» بتأسيسها مثل الأوقاف والمدارس والمطاعم الخيرية والمستشفيات وغيرها، أولى أهمية كبيرة للعلوم والثقافة الإسلامية، فعهده هو العهد الذي ألقيت فيه أسس الحضارة والثقافة العثمانية.

وقد أرسل الرسام والمعماري الإيطالي الشهير «ليوناردو دي فينشي» رسالة إلى «السلطان بايزيد» يطلب منه أن يسمح له بأن يقوم بعمل الرسومات والمخططات للجوامع والأبنية الأخرى في مدينة «إستانبول» ولما تم التباحث في أمر تلك الرسالة تحت القبة، فرح الوزراء وشعروا بالسعادة، إلا أن «السلطان بايزيد» الذي كان لديه مفهوم صوفي رقيق وحساس، رفض العرض وقال:

"لو أننا قبلنا عرضه لغلبت روح وأسلوب الكنيسة على مساجدنا، وبالتالي لن تظهر عمارتنا الإسلامية، ولن تكتسب (عمارتنا) كيانها أبدًا".

وهذا الرأي كان يعبر عن بصيرة وفراسة مسلم من أهل القلب. لأن بايزيد كان يؤمن بأنه كما أن الأراضي الإسلامية امتدت لتشمل ٢٤ مليون كم٢، فإن الثقافة والفن الإسلامي أيضًا سيتسلق إلى القمم بنفس الشكل.

وبفضل هذا المفهوم نُقشت الروح الإسلامية على الهندسة. وظهرت سلسلة من الآثار كـ«السليمانية» وغيرها التي ستحافظ على قيمتها إلى يوم القيامة.

❀

كان «بايزيد الولي» المشهور بالعلم والتقوى والورع والرحمة والحلم يُظهِر احتراماً كبيراً للعلماء والأولياء. وكان له ميزانية خاصة يستخدمها في هذا الاتجاه، وبهذا كان يحث أرباب العلم والعرفان على تصنيف المؤلفات والآثار.

أما الدراسات والأعمال العلمية التي بدأت في عهد الفاتح فقد انكشفت انكشافا عظيما بالذكاء وبالمفهوم الرقيق لبايزيد الولي، وأصبحت هناك علاقة مع العلماء والعارفين في البلدان الإسلامية الأخرى.

وقد خصص راتبًا شهريًّا من ماله الخاص لـ «الملا جامي» الموجود في هراة، وكذا راتبًا شهريًّا لشيخ ومريدي التكية النقشبندية الموجودة في «بورصة». وقد قام بدعوة «الحاج عبد الهادي» ابن «الحاج عبيد الله الأحرار» إلى زيارة «إستانبول» وأكرمه بها للغاية.

ويقول «كمال باشا زاده» عن عظمة «السلطان بايزيد الولي» في الناحية الظاهرية والباطنية: "لقد كان حامي العدالة والإنصاف، وبفضل سياسته الذكية وصل بالدولة إلى حالة العمران، وظهرت له كرامات جلية، وقد جعل أعداءه في مذلة بتصرفاته ووقاره".

❁

وبالرغم من أن «السلطان بايزيد» كان من السلاطين العثمانيين الكبار، إلا أنه لم يأخذ حقه من التقدير. ولعل السبب في ذلك هو العاقبة المحزنة التي انتهت بها حادثة أخيه «السلطان جم».

وثمة سبب آخر وهو أنه كان حاكمًا بعد الفاتح الذي كان شخصية نادرة في العالم كله، وكان يُنتظر من «السلطان بايزيد» أن يسير على نفس نهج والده «السلطان الفاتح» ويكمل الفتوحات، التي بدأها الفاتح في الغرب أي صوب «روما»، إلا أن بعض الوقائع التي ظهرت في عهده كحادثة أخيه «السلطان جم» وحادثة ثورة «الشاه قُولي» - الذي كان علويًّا- لم تترك له إمكانية للقيام بتلك الفتوحات.

ولو لم يكن الوضع على هذا لكان «السلطان بايزيد الثاني» فاتحًا عظيمًا مثل والده «السلطان محمد الفاتح» أو ابنه «السلطان سليم الأول» وبالرغم من كل تلك الظروف غير المواتية فقد تحققت في عهده انتصارات كبيرة، ومنها فتح مدينة «قيرْ أووَه» التي كانت من الفتوحات الملحمية.

كان القائد في تلك المعركة «يعقوب باشا» وهو من الشعراء، قام هذا القائد بالقوة التي معه بعمل غارات حتى «إيستريا» وعاد من تلك الغارات ومعه الكثير

من الغنائم والأسرى. وعندما وصلت القوات العثمانية إلى «قيرْ أُووَه» التقت هناك مع جيش الأعداء، وكان جيشًا كبيرًا، وبالرغم من تعب الجنود وقلة عددهم، إلا أنهم اضطروا لخوض الحرب مع جيش يفوقهم من حيث العدد أضعافًا وأضعافًا، وبفضل الله تمكن الجنود العثمانيون من القيام بهجوم شديد على قوات الأعداء كان النصر حليفهم فيه، واستشهد منهم ٨٠٠٠ جندي، وقتل من قوات الأعداء ٦٠٠٠ وأُسر ٢٥٠٠٠ رجلاً.

إن هذا النصر الذي حققه يعد من الأحداث النادرة في التاريخ، وذلك لأن القوة التي قامت به كانت قليلة العدد قياسًا بالغنائم التي حصلت عليها، لقد كان هذا الفتح يمثل شجاعة وبطولة مادية ومعنوية عظيمة لا يمكن تخيل إحرازه ولو بجيش كبير. وقد نقل القائد الشاعر «يعقوب باشا» وقائع تلك المعركة إلى السلطان بهذه الأبيات الشعرية:

التقينا العدو في «قيرْ أُووَه»
وصاح النداء في هذا الوادى: اضرب!
وغزوت بأمر الله
كالسلطان «مراد خان» في «قوصوأُواه»
يا تُرى هل كان هناك جنود الغيب
يساعدوننا في الأرض والسماء
لقد أسرت الأمير وأصبح عبدًا لي
ولو أعطى الله الفرصة لنا لوصلنا إلى بلغراد
أنا أمير «البوسنة» الدرويش يعقوب
تمكنت من هذا الجهاد بعون الله
وأرجو أن يكون مقامي
في دار البقاء جنة عدن

ويعكس هذا الشعر بصورة جميلة عالم القلب لهذا القائد العثماني المشرف.



فقد افتخر « يعقوب باشا» هنا بعبوديته لله ﷻ وتصوفه أكثر من كونه باشا، وهذا أيضًا يُظهر أن المنبع الأصلي، الذي كان يغذي روح الجهاد والغزو وحب الفتوحات، التي كانت موجودة لدى الجنود العثمانيين إنما كان المعنوية ومعرفة الله ﷻ.

ولم يقصر «السلطان بايزيد» في تقديم المساعدات بقدر ما تيسر له للمسلمين في الأندلس. فبالرغم من أن الدولة العثمانية في ذلك الوقت لم تكن تملك أسطولاً على درجة عالية من الخبرة، التي تؤهله إلى خوض المعارك البحرية مع الأساطيل الأوروبية، إلا أن العثمانيين نجحوا في إنقاذ مئات الآلاف من المسلمين من المذابح، التي قام بها النصارى هناك ونقلوهم إلى سواحل أفريقيا، وكان الأسطول العثماني يضرب السواحل الإسبانية بشكل دائم بالقنابل، وبالتالي قام بتعجيز الأسطول الإسباني عن صدهم.

وكان هذا بمثابة الرد عليهم تجاه مصيبة فقدان الأندلس، لأنه لم يكن متصورًا قيام الدولة العثمانية بعمل مساعدات أكثر مما قامت به تجاه دولة المسلمين في الأندلس، تلك الدولة التي تفككت، وضعفت قبل ذلك التاريخ بكثير بسبب الصراع على السلطة، واستفاد المسيحيون من هذا الوضع المضطرب، أي أن مسلمي الأندلس تفككوا وتفرقوا على خلاف ما جاء به القرآن الكريم، وأصبح منهم من يوالي المسيحيين من أجل النصرة على أخيه المسلم، وبالتالي تعرضوا لتلك الفاجعة الكبيرة المحزنة، والحادثة التالية تحمل كثيرًا من العِبر:

عندما غادر «عبد الله» آخر حكام «غرناطة» المدينة بعد أن سلمها للأعداء كان يسير هو ووالدته، ولما ابتعدوا عن المدينة نظر «عبد الله» من بعيد من فوق هضبة «البادول» على تلك المدينة، التي كانت درة من درر العالم الإسلامي بحضارتها وقصرها الأسطوري المسمى «قصر الحمراء» وظل يبكي بحرقة، فنظرت إليه أمه وهي عابسة الوجه، وقالت له هذه المقولة التاريخية المشهورة:

"ابك أيها الغافل، ابك! ابك الآن على هذا الوطن المبارك بكاء النساء. فإنك لم تستطع الحفاظ عليه مثل الرجال".

وبعد تلك الحادثة أُطلق على تلك الهضبة اسم يعني "الآهة الأخيرة للعرب" أو "هضبة تأوه العرب". والذين يتهمون الدولة العثمانية اليوم بأنها وقفت موقف المشاهد لمصيبة «الأندلس» إما أنهم لم يقدروا تلك الأحداث التاريخية حق تقديرها، أو أنهم غير منصفين.

وذلك لأن الدولة العثمانية لم تتمكن من الوصول إلى إسبانيا برًّا؛ لأن ذلك كان يتطلب عبورها «ألمانيا» و«فرنسا» ولهذا لم تتمكن من الهجوم على «إسبانيا» سوى من الناحية البحرية فقط.

لقد استمرت سلطنة «السلطان بايزيد الثاني» ٣١ عامًا اضطر خلالها للانتباه بشكل كبير في علاقته مع أوروبا والحفاظ على عدم تحريكها للحرب معه بسبب مسألة أخيه جم، وإذا ما وضعنا نصب أعيننا الانتصارات الكبيرة التي تحققت في عهد «السلطان بايزيد» مثل انتصارات «سبنيزا» و«إينه بختي» و«قورون» و«مودان» و«نوارين» وهي من المعارك البحرية الكبرى، وإخماده لثورة «الشاه قولي» سيتضح لنا أن عهده كان متفوقًا من الناحية العسكرية وليس كما يظن أو يزعم البعض.

لقد كانت السياسة التي انتهجها «السلطان بايزيد الثاني» طوال ٣٠ سنة بمثابة الأرضية التي جهزت لانشغال ابنه «سليم الأول» وحفيده «سليمان القانوني» بالجهاد بدون توقف.

ولهذا فإن «السلطان بايزيد الثاني» كان سلطانًا عظيمًا لم يُعْلَم قدره كما ينبغي؛ لأنه كان بين سلطانيين كبيرين وهما والده «السلطان الفاتح» وابنه «السلطان سليم الأول». وإلا لو لم يتم مطالَعته بين هذين السلطانين أو في ظلهما، لَبَدا كواحد من الشخصيات العملاقة في تاريخنا.

وبسبب مساعداته التي امتدت إلى العالم الإسلامي كله، اكتسبت الدولة العثمانية محبة كبيرة في العالم الإسلامي كله. وكان هذا سببًا في قيام العالم الإسلامي كله بأداء صلاة الغائب عليه عندما تُوفي.

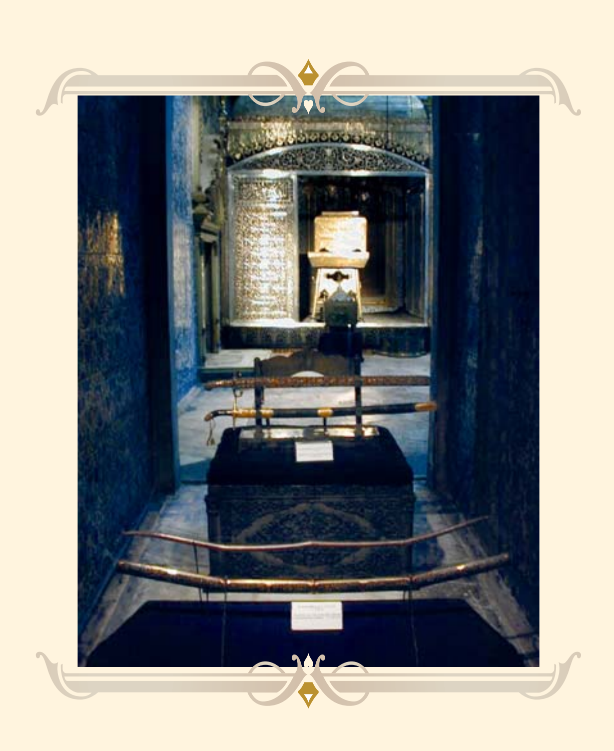
رحمة الله عليه!..

اللهم زيّنا بالزهد والتقوى مثل هذا السلطان الولي الكبير، الذي عاش في جو الأبهة والمباهاة دون الميل إليهما. ولا تجعلنا متكالبين على هذه الدنيا الفانية!

اللهم أوصلنا إلى السعادة الباقية!

آمين!..





المؤسس لوحدة العالم الإسلامي، المتحمل للشدائد،
الحاكم الذي لا مثيل له، خادم الحرمين الشريفين.



السلطان سليم خان

(١٤٧٠-١٥٢٠م)

تاسع سلاطين بني عثمان.

لقد أكمل تعليمه في العلوم الدينية والنظرية على يد خيرة علماء عصره وهو مازال صغيرا. بدأ حياته الإدارية بولايته على «طِرَابْزُونْ». ومن أول صفحة في حياته كرجل دولة، بث الإعجاب والطمأنينة في قلوب المسلمين وألقى بإرادته المدهشة وهيبته العظيمة الخوف والهلع للأعداء. وفي تلك الأثناء قام بعمل ثلاث حملات على «الجُورْجِيّين»، وبذلك كانت تلك الحملات وسيلة لهداية أهالي جورجيا المقيمين في تلك الأراضي التي فتحها.

وبسبب قرب «طِرَابْزُونْ» – التي كان «سليم» واليًا عليها – من «إيران» فقد كان يعلم جيدًا الآمال السيئة لـ «شاه إسماعيل» الصفوي تجاه الأمة. ولهذا بدأ «سليم الأول» منذ عهد ولايته اتخاذ الإجراءات التي تعوق تحركات الشاه وآماله، إلا أنه كان يعلم أيضًا أنه أمير ليس لديه الصلاحية أو الحق في خوض أية معركة مع «شاه إسماعيل» الصفوي، ولهذا شعر برغبة في الجلوس على العرش في أسرع وقت.

ولهذا قضى على أخيه الأمير «أحمد» والأمير «قُورْقُودْ» وأصبح سلطانًا على الدولة العثمانية عام ١٥١٢م، ولما أصبح سلطانًا دُعي إلى «إستانبول» وقبل أن يتولى منصب السلطنة رسميًّا خطب تلك الخطبة في رجال الدولة وكبار رجال الإنكشارية:

"إذا أصبحت سلطانًا فسأسعى بخطى حثيثة وجدية للعمل على وحدة الإسلام، وإن قدر الله لي فسأذهب إلى «الهند» وإلى «إيران» وسأعلي كلمة الله في الشرق والغرب، ولن أرحم الظالمين حتى ولو كانوا أبنائي، لن تكون هناك راحة في عهدي، ولن يكون هناك تسلط على الأهالي، وهذا هو حالي، أما أخي فإنه يحب الراحة وله طبيعة رقيقة، فإن كنتم لا تخافون الحرب وتطلبون الجد فبايعوني، وإن كنتم غير ذلك فبايعوا أخي «الأمير أحمد» ففي عهده ستنعمون بالراحة والصفاء".

❁

وبالرغم من جلادة «السلطان سليم» المعهودة والمشهورة، إلا أنه كان إنسانًا حساسًا مرهف الحس للغاية، وقد دخل على نعش أخيه «قُورْقُودْ»الذي اضطر إلى قتله من أجل بقاء الدولة وبكى وهو يقول:

"يا أخي ليتك لم تفعل ذلك، ويا ليتني لم أفعل هذا".

وكان للأمير «قُورْقُودْ» صديق يُدعى «پِــيَالَه»، أخبره «السلطان سليم» بأنه عفا عنه لصداقته وفضيلته عند أخيه، ونظير صداقته لأخيه فإنه سيعينه في المنصب الذي يختاره، لدرجة أنه اقترح عليه أن يكون وزيرًا له.

إلا أن «پِـــيَالَه» شكر «السلطان سليم» على ذلك وطلب منه أن تكون وظيفته هي الخدمة لقبر الأمير«قُورْقُودْ».

وهذه اللوحة التي عرضناها إنما هي كافية على إظهار المرتبة الأخلاقية لكل أفراد الأمة من الشعب إلى السلطان.

كما أظهر «السلطان سليم» احترامًا كبيرًا لوالده وأرسله الى «كمُولْ جِينَه» بتخصيص مليوني أقجه في العام، وأمر له بالسفر، حيث أركبه عربة الحصان، وسار هو بجانبها، ولما تُوفي أحضر نعشه إلى «إستانبول» وأمر بتأسيس قبر له أمام «جامع بايزيد» ودُفن فيه.

❁

وقد كان نصيب «السلطان سليم» من الحكم في عمر الدولة العثمانية الذي امتد إلى ٦٢٠ عامًا، ثماني سنوات فقط. وإذا ما رأينا حجم تلك النجاحات الكبيرة التي حققها في تلك الفترة القصيرة سيتبيّن لنا أنها كانت أمرًا يفوق التصورات. والمشتغلون بفلسفة التاريخ الذين يبحثون في حكم وأسرار الأحداث التاريخية عجزوا حقيقة حتى اليوم عن تفسير النجاحات المادية والمعنوية التي أكسبها «السلطان سليم» لتاريخنا.

لقد سار «السلطان سليم» بجيش كبير لمسافة ٢٥٠٠ كم عابرًا الجبال والأودية والغابات حتى التقى مع الدولة الصفوية، التي كانت من أكبر الدول في ذلك الوقت وانتصر عليها، أما في حملته على «مصر» فقد عبر صحراء سيناء المخيفة، التي كانت تُعتقد في ذلك الوقت أنها لا يمكن عبورها، ولا يوجد أي تفسير حتى اليوم لهذا العبور بالإمكانات المادية.

لقد اكتسبت مؤسسة الخلافة العزة به من جديد، وأصبحت في وضع مؤثر، ووصلت الأمانات المقدسة به إلى القدسية التي تليق بها. لقد اكتشف «السلطان



الفاتح» قبل ذلك بكثير تفوق حفيده سليم المادي والمعنوي، وأطلق عليه لقب «ياوُوزْ» أي القاطع أو الحاسم يحتد بشدة.

لقد رسم التاريخ به على صفحاته الذهبية لوحة لحاكم عظيم لا مثيل له. لم يعرف «السلطان سليم» طوال حياته قلة الحيلة أو العجز، فقد كان يستعين بالله ﷻ في كل مسألة، ويؤمن بأنه بذلك سيجد لكل مسألة مخرجًا.

❀

بدأ «السلطان سليم» إجراءاته بمجرد جلوسه على العرش. وأصبح «الشاه إسماعيل» الذي استولى في تلك الأوقات على «أذربيجان» و«العراق» و«إيران» في وضع خطير يهدد الأناضول وكان دائمًا ما يحدث الفتن متخذًا التشيع وسيلة له، كان يعمد بذلك إلى تهديد وحدة المسلمين.

وعلى الفور جمع «السلطان سليم» الديوان وعقد اجتماعًا طارئًا وأوضح بشكل مفصل المخاطر التي يمكن أن تأتي من «الشاه إسماعيل» وبعد مباحثات طويلة في الديوان تقرر الخروج إلى حملة «إيران» بفتوى «ابن كمال باشا».

عبر «السلطان سليم» من «أُسْكُدارْ» في ٢٠ أبريل ١٥١٤م متجهًا إلى «إيران» وتمت دعوة «الشاه إسماعيل» إلى الخروج إلى ساحة القتال ولكنه كان يهرب دائمًا.

دخل الجيش الهمايوني الأراضي الإيرانية و«الشاه إسماعيل» يواصل تراجعه إلى الشرق، ونتج عن ذلك أن تعب الجيش حتى الإمدادات بدأت تقل، لدرجة أن البعض بدأ يتمرد ويقول:

"لقد فر «الشاه إسماعيل» وهذا يعد انتصارًا لنا، لنعود أدراجنا".

واستمروا في ذلك لدرجة أنهم أطلقوا السهام على خيمة «السلطان سليم» فخرج «السلطان سليم» من خيمته وخطب خطبة عصماء في هؤلاء الجنود، قال فيها:

"طالما أننا لم نصل إلى هدفنا فلن نعود، لقد خرجنا إلى تلك الحملة من أجل الجهاد، أما مَنْ يفكر في النساء فليعد، أما البواسل والشجعان فليلحقني!.. فإني سأقاتل مع العدو ولو كنت بمفردي!.."

لقد كان السلطان ياووظ باسلاً يتجول بجواده واضعًا كفنه على كتفه منذ أن كان أميرًا. لقد كان من الممكن أن يستشهد السلطان بمئات الآلاف من السهام، إلا أن توكله على الله ﷻ في كل الأمور، وإدراكه بأن الله تعالى مدبر كل أمر غيّر مجرى الأمور.

وقد ألهبت تلك الكلمات التي قالها «السلطان سليم» للجنود الحماس فيهم من جديد، ووصلوا إلى وادي «جَالْدِيرانْ» بعزيمة صلبة وحملة قوية، وانهزم «الشاه إسماعيل» هزيمة نكراء، لدرجة أنه ترك ميدان الحرب وفر هاربًا تاركًا زوجته وعرشه.

وبعد الانتصار دخل «السلطان سليم» «تَـبْـريزْ»، وأمر بقراءة الخطبة باسمه وذكر أسماء الخلفاء الأربعة، وأظهر الرعاية الكبيرة لأرباب العلم والحرفة الموجودين في «تبريز» ودعاهم إلى الذهاب إلى «إستانبول».

وحتى يكمل «السلطان سليم» فتوحاته في تلك المنطقة أقام شتاء هذا العام في «قَـرَه بَاغْ» بـ «أذَرْبَيْجانْ».

إن السير على الأقدام لمسافة ٢٥٠٠ كم من «إستانبول» وحتى «تبريز» وخوض معركة تم الانتصار فيها، من الأحداث التي قل ما نجدها في التاريخ ولهذا فإن هذا التوفيق كان ببركة جهود توحيد الأمة الذي سعى إليه «السلطان سليم» بمشاعر "يجب أن تكون القلوب كلها مرتبطة بقطب واحد".

ومن مظاهر تلك البركة أن السيد «إدريس البِدْليسِي» وهو رئيس عشيرة في جنوب شرق الأناضول ألحق أراضيه بالدولة العثمانية مظهرًا العون لـ«السلطان سليم» في حملته لتوحيد العالم الإسلامي.



وجهود «إدريس البِدْليسِي» في هذه الحملة تفوق التقديرات، ولهذا أظهر «السلطان سليم» رعاية واحترامًا كبيرين لهذا الرجل الكردي الأصل، وكان يُظهر له محبته الزائدة في كل فرصة، فإلى جانب الخطابات والرسائل التي كان يرسلها إليه ويبجله فيها، كان أيضًا يرسل إليه الخطوط الهمايونية ليوظف من خلالها على الإمارات من يراه مناسباً، وبهذا أظهر اعتماده وثقته التامة به.

والحقيقة أن «إدريس البِدْليسِي» كان يستحق ذلك وأكثر ولكنه لم يستخدم هذه الخطوط لتوظيف أي أحد بغير إذن من السلطان. فقد عمل «إدريس» على إبطال كافة الجهود والفعاليات، التي كان الصفويون يقومون بها في سبيل ضم المناطق الواقعة في جنوب شرق الأناضول إليهم، وبذلك كان له دور في تحقيق الوحدة الإسلامية التي كان «السلطان سليم» يرمي إليها. وعلاوة على النجاحات التي أظهرها في ربط الأهالي بالدولة العثمانية كان له دور آخر في هزيمة الجيش الصفوي الذي كان يقوده «الشاه إسماعيل».



وعندما دخل «السلطان سليم» «الشام» ظهرت كرامة لـ«محيي الدين بن عربي» فقد قال الشيخ وهو على قيد الحياة:

"عندما تدخل السين الشين فسيكتشف قبري."

وقد حصل أن «السلطان سليم» لما دخل «الشام» اكتشف قبر «محيي الدين بن عربي».

وذات يوم دعا «السلطان سليم» كاتم أسراره «حسن جان» للحديث معه، وأثناء الحديث سأل سليم «حسن جان» قائلاً: "ماذا رأيت في رؤياك الليلة يا حسن؟"

ولما أجاب حسن بأنه لم ير رؤية جديرة بالذكر. رد عليه «السلطان سليم» مصرا وقال:

«كيف ينام الإنسان طوال الليل ولا يرى فيه حلما، أكيد أنك رأيت شيئا!؟»



خجل «حسن جان» لأنه لم يتذكر ماذا رأى في رؤياه. وبعدها بفترة علم «السلطان سليم» بوسيلة ما أن أغا الباب (قابو آغاسى) «حسن أغا» رأى رؤية ينتظرها السلطان فسأله عما رأى فأجاب:

"لقد رأيت تلك الليلة في رؤياي أن الحرم ممتلئ بأناس لهم وجوه نورانية، أربعة منهم كانوا يقفون على باب السلطان وفي يد كل واحد منهم راية، وكان أولهم يحمل راية سلطاننا،

قال هذا الشخص لي: هل تعرف لماذا أتينا؟

فقلت: " تفضل."

فقال: "إن الأشخاص الذين رأيتهم هم الصحابة الكرام وقد أرسلهم رسول الله ﷺ وأقرأ السلام على «السلطان سليم» وقد منحه الرسول خدمة الحرمين، فليأت لذلك. وإن الأشخاص الأربعة الذين رأيتهم هم «أبو بكر» و«عمر» و«عثمان» وأنا «عليّ» رابعهم. هيا بشر «السلطان سليم» بذلك" وفجأة اختفوا عن الأنظار.

نقل «حسن جان» رؤيا «حسن أغا» لـ«لسلطان سليم» كما هي، فاحمر وجه السلطان وذرف الدمع من عينيه، وقال:

"يا «حسن جان»! ألم أقل لك: إننا لن نتحرك إلى مكان إلا إذا أمِرنا؟، لقد حصل كل أجدادنا على نصيبهم من الولاية، وكان لكل واحد منهم الكثير من الكرامات".

وذلك لأن السلطان نفسه رأى نفس الرؤيا في منامه تلك الليلة، وعليه أمر «السلطان سليم» الذي تقوى بتلك الإشارة المعنوية بأن يحضر «حسن أغا» إلى الديوان وأن يقوم بعمل التجهيزات لحملة «مصر». وخرج لأجله في عام ١٥١٦م.

كان «السلطان سليم» قد حصل على عهد من الدولة المملوكية بأنها لن تساعد الصفويين، إلا أن دولة المماليك نقضت العهد، وهذا جعل السلطان يسير إليهم، والتقي بهم في «مَرْجِ دابِقْ»، وهزمهم هناك.

لقد كان الوصول إلى «مصر» ضرورة استراتيجية لإكمال هذا النصر، إلا أن الأمر كان يتطلب عبور «صحراء سيناء» المخيفة. ولكن «السلطان سليم» نجح في عبور تلك الصحراء في ثلاثة عشر يومًا دون أن يخسر جنديًّا واحدًا ودون أن يعرضهم للتعب. حتى «نابُلْيونْ» الذي يعد قائدا عسكريا عبقريا أتى بعد سليم بحوالي ثلاثمائة سنة ولكنه لم يستطع النجاح في هذا الأمر. وتعرض جنوده الفرنسيون للجنون بسبب العطش فقتلوا بعضهم بعضا.

وفي الحرب العالمية الأولى وبالرغم من التفوق التقني في ذلك الوقت لم يتم عبور «سيناء» إلا في ١١ يومًا، وإذا ما قارنا عبور «السلطان سليم» في ١٣ يومًا، والعبور الذي تم في الحرب العالمية الأولى مع وجود التقنيات في ١١ يومًا، تتضح عظمة ما قام به «السلطان سليم».

حقيقة لقد كان هناك تردد كبير بين الباشوات والجنود في العبور من تلك الصحراء الكبيرة، فقد كانت تلك الصحراء في النهار مثل نار جهنم، وفي الليل مثل البلدان الباردة، أي أنها كانت صاحبة مناخ تتغير فيه درجات الحرارة بين (+٥٠°) إلى (-٢٠°). كما كانت تلك الصحراء تشبه البحر ولكنه بحر من الرمال.

إلا أن «السلطان سليم» دخل الصحراء بقراره القاطع الحاسم. وبعد فترة من دخوله سيناء نزل السلطان من فوق الجواد وبدأ يسير على قدميه في تلك الصحراء، ولما رأى الباشوات والأركان العسكرية هذا الأمر تملكتهم الحيرة والتعجب، ونزلوا هم الآخرون أيضًا من فوق فرسانهم، وساروا على أرجلهم، وقالوا لـ«حسن جان» الصديق المقرب لـ «لسلطان سليم»:

"اسأل السلطان عن سبب مسيره على قدميه."

ولما سأل حسن السلطان عن سبب نزوله من فوق الحصان وسيره على قدميه، قال السلطان سليم: «ألا ترى يا حسن؟ رسول الله فخر الكائنات يسير أمامنا، كيف يسير هو أمامنا على قدميه ونحن على الجياد؟

والأبيات التالية توضح مدى حب «السلطان سليم» لرسول الله ﷺ:

لا يستطيع أحد أن يصل إلى الحق بدونك

ويتحقق القبول بفيض لطفك

أنت رحمة للعالمين يا رسول الله

المدد يا معدن نور الهدى

يا رسول الكبرياء! ويا منبع الكرم

عبدك سليم مليء بالأخطاء

إنه يلتجئ إلى مقامك راجيًا العطاء

المدد يا معدن نور الهدى

وببركة هذا الحب الكبير دخل سليم وجنوده «صحراء سيناء» المخيفة، وتمكنوا من عبورها في ١٣ يومًا بروحانية رسول الله ﷺ وتمكنوا من فتح «مصر».

هزم «السلطان سليم» المماليك مرة أخرى في موقعة «الرِّيدانِـيَّةَ» في ٢٢ يناير ١٥١٧ م وبذلك فُتحت «مصر» بصورة قطعية للدولة العثمانية.

وقد أظهر «السلطان سليم» احترامًا كبيرًا لجثمان السلطان المملوكي؛ حيث شارك بنفسه في حمل نعشه، وبدخول سليم «مصر» لم ينته الأمر عند ذلك، بل إن المماليك كانوا يقاومون على طريقة حرب الشوارع، حتى أن الفدائيين المماليك كانوا يصرون على مقتل «السلطان سليم» نفسه؛ لأنهم كانوا يظنون أنهم لو قتلوا «السلطان سليم» لتمكنوا من هزيمة العثمانيين، ولما علم «سنان باشا» بالأمر أبلغه للسلطان، وقرر أن يلبس هو ملابس السلطان ويخرج إلى الفدائيين، ففعل ذلك، وتجمع عليه الفدائيون والسلطان خلفه، وظل يحاربهم، ولكنه اُستشهد بعد أن تم القضاء عليهم جميعًا.

كان «السلطان سليم» حزينًا جدًّا عندما دخل «مصر» وكان يقول مقولته المشهورة:

"لقد حصلنا على «مصر» ولكننا خسرنا «سنان باشا»".

وكان يرى بذلك أن فتح «مصر» يساوي فقدان عالم مجاهد.

ويعبر «يحيي كمال» عن هذا الموقف فيقول:

أيها القضاء إن عشرة مثل «مصر» لن يكونوا بدلا لـ«سنان»

لقد أحزن هذا الأمر السلطان العظيم كثيرًا

ويمكن القول: إن الشخصيات العظيمة في كل عهد من التاريخ لم يصبحوا عظماء إلا بوجود هؤلاء الخيرة من الرجال.

دخل «السلطان سليم» القصر المملوكي بموكب فخم في ١٥ فبراير ١٥١٧م، وينقل كتاب الوقائع في ذلك العهد مقابلة الأهالي في «مصر» لـ«السلطان سليم» على هذا النحو:

لقد تجمع الأهالي في الطرقات والنوافذ من أجل رؤية عظمة «السلطان سليم» كانوا يظنونه مختلفًا كثيرًا، كانوا يظنون أن ملابسه وهيئته ستكون مختلفة عمَنْ حوله، ولكنه لم يكن كذلك، بل حتى لم يكن في المقدمة بل كان في وسط الجنود، ولم تكن ملابسه مختلفة عن ملابس من حوله، وكان يسير ناظرًا أمامه في تواضع.

وفي يوم الجمعة الموافق ٢٠ فبراير صلى الناس ومعهم «السلطان سليم» صلاة الجمعة في جامع «الملك المؤيد»، وأثناء الخطبة قال الخطيب مشيرًا إلى السلطان سليم: «حاكم الحرمين الشريفين»، فتدخّل السلطان في الخطبة وقال، ويمزج دمعاً يجري من مقلته بدم: "لا، لا! بل «خادم الحرمين الشريفين»."

وبعدها رفع سليم السجاد وسجد على التراب شكرًا لله، وعلق على عمامته طرة تشبه المكنسة دلالة على خدمته للحرمين الشريفين، ولما عيّن «بيري باشا» قاضي

عسكر على الحرمين الشريفين أوصاه بالكلمات التالية التي تدل بشكل واضح للغاية عن مدى حب «السلطان سليم» لرسول الله ﷺ:

"أيها الباشا! إن حكم مكة والمدينة في يد أبناء رسول الله ﷺ، وأنا لم أذهب إلى البلدتين بالجنود ولم أفتحهما عسكريًّا، ولكن أحفاد رسول الله ﷺ أتوني مطيعين من أجل وحدة العالم الإسلامي، وهذا من كمالهم وحُسن أخلاقهم وإحسانهم، ولهذا وجب عليّ مكافأتهم، وإني سأشكر الله ﷻ ليلا ونهارًا على أن خطبة الجمعة ستُقرأ في البلدتين المباركتين باسمي، ولهذا فإنني لا أستبدل هذه السعادة بالسلطنة والحكم أبدا. فلا تتخلف عن تلبية حاجات أهالي الحرمين الشريفين، ولا تتدخل في شؤون هاتين البلدتين المباركتين!!".

ومن الأحداث المهمة التي وقعت أيضًا أثناء غزو مصر ما يلي: كانت الدولة في حالة حرب، ولزمها إنفاق بعض المصروفات، وكانت هناك حاجة إلى المال، وبالرغم من أنه تم الطلب من الخزينة إلا أن الأموال لم تصل بعد، فتم الاقتراض من أحد الأثرياء في «مصر». ولما وصلت النقود من الخزينة قام الدَّفْتَرْدارْ [القائم على أموال الدولة] بتسليم الرجل ماله، إلا أن الرجل عرض على الدَّفْتَرْدارْ عرضا وقال:

"إنني رجل ثري للغاية، وعندي من الأموال الكثير والكثير، وليس لي إلا ولد واحد، هو الذي سيرث تلك الثروة. وأنا أقترح ألا آخذ هذا المال شريطة أن تجدوا لابني هذا وظيفة في ديوان الحكومة!"

ولما عرض الدَّفْتَرْدارْ هذا العرض على «السلطان سليم» غضب جدًّا، وقال بحدة لدَفْتَرْدارْ:

"بسبب هذا الاقتراح المخالف للأصول أرى أن أقتلك أنت وصاحب الاقتراح، إلا أني أخشى أن يقول الناس:

"إن السلطان قتل هذا الثري والدفتردار طمعا للمال" اذهب وأعد ماله ولا تأتني مرة أخرى بأشياء مخالفة للقانون مثل هذه".



وبعد رد السلطان هذا تم التحقيق في الأمر، فثبت أن هذا التاجر الثري كان يهوديًّا، فأبعده السلطان عن مركز الدولة.

❁

كان «السلطان سليم» حاد الطبع عنيفًا للغاية تجاه أي تصرفات طائشة أو أي خطأ. إلا أنه كان يذوب وينصهر في دائرة الشريعة. فقد أمر السلطان سليم بقتل أربعين شخصًا تقريبًا بسبب الإهمال والسرقة، التي حدثت في الخزينة في إحدى المرات. ولما علم شيخ الإسلام «زَنْبِلّي على أفندي» بالأمر ذهب إلى السلطان على عجلة وبدون استئذان ليناقشه هذا الأمر، ويمنعه منه؛ لأنه غير شرعي، ولما وصل شيخ الإسلام إلى السلطان طلب منه أن يوضح له أصل الموضوع، فرد عليه السلطان بقوله:

"نعم يا شيخ! إن ما سمعته حقيقة، ولكن ليس لك الحق في التدخل في شؤون الدولة"،

فرد عليه شيخ الإسلام بنفس درجة الحدة قائلاً:

"أيها السلطان! لقد أتيت إلى هنا لأوضح لك الأحكام الشرعية، فإن وظيفتنا هي العمل على حماية آخرتكم".

هدأ السلطان أمام مقياس الشريعة، الذي كان يعلم أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف، وقال:

"ألا يجوز قتل عدة أشخاص في سبيل تنظيم الأحوال العامة؟ فأجاب «زَنْبِلّي على أفندي»:

"ليس هناك علاقة بين قتل هؤلاء الأشخاص وتنظيم شؤون العالم، بل يجب معاقبتهم على حسب جريمتهم".

ولما سمع «السلطان سليم» الذي كانت تنحني أمامه الجيوش هذا الكلام أحنى



رأسه، وتخلى عن قراره، وقد شعر «زَنْـبِـلّي على أفندي» بالسعادة الغامرة من هذا، وبينما كان على وشك الخروج من عند السلطان إذا به يرجع ثانية ويقول للسلطان الذي نظر إليه بشغف:

"أيها السلطان! إن طلبي الأول هو تبليغ الشريعة، ولي طلب ثانٍ، وهو عبارة عن رجاء"، وتابع كلامه قائلاً:"رجائي منكم أن تصرفوا راتبًا شهريًّا للإنفاق على أسر هؤلاء المذنبين طوال فترة حبسهم؛ لأنه ليس هناك مَنْ يعولهم، وهم أبرياء ليس لهم ذنب"؛ فوافق السلطان، ولا شك أن موافقة السلطان على هذا الطلب الثاني إنما توضح مدى انتباهه للمسئولية الإلهية الملقاة على عاتقه.

وفي مسألة أخرى مشابهة قام شيخ الإسلام «زَنْـبِـلّي على أفندي» بتنبيه السلطان، وكان السلطان يرى نفسه على حق قال لشيخ الإسلام:

"إن وظيفتك ليست التدخل في شؤون الدولة"

فأجاب «زَنْـبِـلّي على أفندي» على ذلك بجراءة وقال:

"يا مولاي السلطان! إنها كلها من أمور الآخرة، ولنا حق التدخل، ولو لم تتراجع عن قرارك الخاطئ هذا فاستعد للعذاب الشديد يوم القيامة".

وبعد هذه المقولة خرج شيخ الإسلام دون أن يسلم على السلطان. كان «السلطان سليم» على وشك الخروج إلى الحملة، وبالرغم من أنه غضب من هذا الموقف، الذي لم يره من أحد قط من قبل، إلا أنه فهم الحقيقة، ووافق على تنبيه شيخ الإسلام له وتصرف بموجبه. كما ترك خطاب اعتذار لشيخ الإسلام «زَنْـبِـلّي على أفندي».

لقد كان «سليم» سلطانًا لا يمكن السيطرة عليه عند الغضب، ولا يستمع إلى القلب أو الخاطر في شؤون الدولة، ولكنه كان يسلم نفسه ويصبر كثيرًا على رجال العلم والعرفان، وهذه فضيلة له سامية.

❀

وبينما كان «السلطان سليم» المتصف بالذكاء والقوة عائدًا من «القاهرة» إلى «إستانبول» في ١٠ سبتمبر ١٥١٧م حدث قائلاً:

"إن القلب يريد أن نذهب من «شمال أفريقيا» إلى «الأندلس» ومنها إلى «البلقان» ثم إلى «إستانبول»".

وهذا القول إنما يُظهر أفق المسلم الحقيقي الباحث عن الفتح.

وبعد عودة «السلطان سليم» من حملة «مصر» بدأ يهتم بشؤون المسلمين في «الهند» والشرق الأقصى، فاستدعى الصدر الأعظم «بيري محمد باشا» إليه وأحضر الخريطة وأشار إلى المكان الموجود فيه «قناة السويس» الآن وقال:

"أنا أريد أن أربط البحر الأحمر بالبحر الأبيض من هنا، وأن أذهب إلى «الهند» من البحر".

فكر «السلطان سليم» في ذلك ليتمكن من منع المظالم التي يقوم بها «البرتغاليون» ضد المسلمين في «الهند» وأعد التجهيزات الكثيرة لذلك، حتى إن «بيري محمد باشا» أمر بصب المدافع اللازمة للفتح. وذات يوم شغف «السلطان سليم» بمعرفة اتساع الأرض، فأحضروا له خريطة العالم، فنظر إليها باستخفاف وحيرة وقال:

"كبيرة من أجل حاكم واحد، أما على حاكمين فهي صغيرة".

ثم ألقاها تحت أرجل جواده، وجعله يشب. ولم يكن هذا التصرف من «السلطان سليم» دلالة على غروره، بل كان يدل على نشوة عشق الجهاد الذي يحمله في روحه مثل نشوة شبوب الحصان.

وقد عبر الشاعر يحيي كمال عن شوق سليم اللامتناهي للجهاد في هذه الأبيات:

ليت «السلطان سليم الأول» لم يسعفه الأجل

حتى يفتح العالم كله بصيت المحمدي

وبينما كان السلطان في طريق عودته إلى «إستانبول» مرَّ بـ«الشام» وافتتح بالمراسم جامع وقبر «محيي الدين بن عربي» الذي أمر بتأسيسهما له، أما خادم القبر فقد أوضح للموجودين حوله بأن «السلطان سليم» لن يعيش طويلاً وذلك بسنوحات الكشف.

عاد جيش «السلطان سليم» إلى «إستانبول» بهذا النجاح والتوفيق الكبير، الذي حققه، بعد رحلة طويلة وشاقة للغاية استمرت سنتين وشهرًا وعشرين يومًا، وزاد من تعب الجيش أنهم كانوا يمرون بأماكن ليس فيها ماء وبالتالي كانوا يواجهون العطش، حتى إنهم واجهوا خطر هلاك الدواب التي يركبونها.

وقد حزن «السلطان سليم» لهذه الحالة كثيراً، فسجد لله وقال:

"اللهم يسر لي ولجنودي، وعاملنا بلطفك، وأرسل علينا رحمتك يا رحيم!"

وفي تلك اللحظة امتلأت السماء بسحاب الرحمة وانهمر المطر من السماء، وبهذا نجا الجيش من مشكلة العطش بلطف الله ورحمته.

وعندما أصبح «السلطان سليم» وجيشه المستغرق في رحمة ولطف الله هطلت عليهم أمطار شديدة بالقرب من «آطَنَة» أيضاً، وأصبح المكان وكأنه بحيرة من الوحل، وفي تلك الأثناء كان «السلطان سليم» يسير بجواده إلى جانب الشيخ المشهور «ابن كمال باشا» يتحدثان، وفجأة انزلقت قدم جواد الشيخ وتعثر، فرفس برجليه فنثر الطين على «السلطان سليم» فلطخه به كله.

حزن «ابن كمال باشا» وتغير لونه، فنظر إليه السلطان سليم بوجه باسم وقال:

"إن الطين الذي يُنثر من قدم جواد العلماء ويلطخنا شرف لنا، فهو مبارك، وعندما أموت عليكم بوضع هذا القفطان في نعشي."

وهذه الحادثة توضح مدى احترام وتعظيم «السلطان سليم» للعلماء والعارفين.[1]

❀

وعندما وصلوا إلى «إستانبول» كان وصولهم إلى «أُسْكُدارْ» في النهار، ولما علم «سليم» بأن الأهالي سيستقبلونه باستقبال كبير قال لحسن جان:

"لننتظر حتى يحل المساء ويعود كل شخص إلى بيته وتفرغ الطرقات وحينئذ ندخل «إستانبول» فأنا لا أريد أن يدخل الغرور قلوبنا من هذه المظاهر الفانية."

وقد حضر علماء «مصر» بعد ذلك وتباحثوا مع علماء «إستانبول» وقرروا أن يكون «السلطان سليم» هو الخليفة، وبعدها صعد الخليفة العباسي المتوكل الثالث على منبر «آيا صوفيا» وأعلن على الناس أن «سليم الأول» هو خليفة المسلمين، وخلع جبته وألبسها لـ «السلطان سليم» وبذلك أُضيف لقب «الخليفة» إلى السلاطين العثمانيين.

وقد استطاع هذا السلطان العظيم أن يضاعف مساحة الأراضي العثمانية إلى خمسة أضعاف؛ حيث بلغت مساحتها في عهده إلى ٤,١٨٢,٠٠٠ كم٢. فقد انتقلت «مصر» وشبه الجزيرة العربية إلى الأراضي العثمانية، وامتدت حتى «المحيط الهندي»، وبسيطرة الدولة العثمانية على «شمال أفريقيا» امتدت حدودها إلى «المحيط الأطلنطي»، وأصبح «الحجاز» وبلدان الشرق الأوسط تحت سيطرتها، وانتقلت الأمانات المقدسة إلى «إستانبول»، وبذلك اكتسبت «إستانبول» العزة والشرف؛ حيث وضعت في غرفة خاصة في قصر «طوب قابي» وكان القرآن يُتلى في تلك الغرفة

---

١. أثناء تعلمي في مدرسة الأئمة والخطباء في إستانبول كانت تتم عملية توسعة للطرق، وكان يلزم السير من فوق قبر «ابن كمال باشا زاده»، وقد رأينا أن العمال حاولوا بأكثر من طريقة عمل حفر على القبر، ولكن الماكينة كانت دائمًا تتعرض للتلف، حتى إن اَحد العمال أصيب بالشلل، وقد خاف المهندسون فاضطروا إلى الالتفاف بالطريق من حول القبر، وهذا يظهر أن الله تعالى يمنح العزة حتى لقبور علماء الظاهر والباطن.

ليلا ونهارًا، بعد تعيين ٤٠ حافظًا للقرآن لهذه المهمة، وكان «السلطان سليم» هو أول مَنْ قرأ القرآن بنفسه في الغرفة المذكورة.

ويجب علينا ألا ننسى أن السبب الأساسي في هذه العظمة والقوة المادية والمعنوية هو رعاية الحكم والأسرار الموجودة في العالم المعنوي، وأن عظمة الإمبراطورية العثمانية التي امتدت لستمائة سنة ونيف، والتي لم تقدر لأية دولة إسلامية أخرى غيرها، إنما كانت نابعة من الاهتمام، الذي أولته الدولة العثمانية للناحية المعنوية.

إن تعظيم «الغازي عثمان الأول» للمصحف الشريف وعدم اضطجاعه في الغرفة التي يوجد بها المصحف، وجلب «السلطان سليم» الأمانات المقدسة وتعظيمه إياها، وتعيين أربعين حافظا لتلاوة القرآن الكريم بمحضر تلك الأمانات بدون انقطاع، واستمرار ذلك عصورا طوالا، هي من أهم الأسباب التي أدت إلى عظمة الدولة العثمانية حيث تتناقله الألسن.

لقد رفع الله شأن كل من عظمه وعظم أنبياءه وأولياءه وأغدق برحمته المجتمع الذي يعيشون فيه.

وبينما كان «السلطان سليم» صاحب الانتصارات العظيمة النائلُ شرف جلب الأمانات المقدسة إلى «إستانبول» يتحدث ذات يوم مع بيري باشا سأله قائلاً له:

"لقد من الله علينا بفتوحات عظيمة، وتشرفنا بلقب خادم الحرمين الشريفين، ومنحنا الله بلطفه النصر في كل زمان ومكان، وخزائننا مملوءة بالذهب، فهل يمكن لتلك الدولة أن تُهدم بعد ذلك؟"

وأجاب «بيري باشا» بما يلي:

"مولاي السلطان! ليس من السهل هدم دولة بهذه العظمة وهذه القوة وهذه الروح، ولكن إن لم يحافظ أحفادكم على هذه المنح وهذه الأمانات التي منحها الله لكم، ولم يقيموا العدل فأخشى حينئذ على دولتكم من ثلاثة أشياء:

١- أن تُمنح الصدارة لِمَنْ لا يستحقها وليس أهلاً لها، أو أن تُمنح للحمقى والجهلاء مقابل المال.

٢- أن يشغل مال الدنيا القلوب، وبذلك ينفتح باب الرشوة، وبذلك تتحقق كل ملعنة بالمال، وحينئذ تُمنح المناصب لِمَنْ هم ليسوا أهلاً لها.

٣- أن يصبح رجال الدولة تحت تأثير الحريم، وإن حدث هذا فإن تلك الدولة ستُهدم تدريجيًّا. "

ولما سمع «السلطان سليم» صاحب القوة والجلادة هذه الكلمات صمت لفترة ثم قال: "اللهم احفظنا من الوقوع في عاقبة كهذه!.."

وكأن «بيري باشا» كان يعمل تقييمًا لفلسفة تاريخية بهذه العبارات، ويعطي إشارات للأحوال، التي ستقع في المستقبل، ويوضح الأسباب الفارقة لعهد التأخر، الذي سيحل بالدولة فيما بعد. وكأنه يعطي خبرًا عن المستقبل.

وثمة العديد من الوقائع التي تُظهر السمة الأخلاقية لعهد «السلطان سليم الأول»، ومن ذلك أنه عندما كان في طريقه إلى «مصر» مر بأماكن كلها بساتين وحدائق في «كَـبْـزَة»، ولما رآها غاص في الفكر قائلاً:

"يا تُرى هل أخذ جنودي من عنب وتفاح تلك الحدائق بدون إذن من أصحابها؟" ثم أمر باستدعاء «أغا الانكشارية» إليه وأمره بما يلي:

"أيها الأغا! آمرك بأن تفتش كل الجنود، وإن ظهر عنب أو تفاح مع أي جندي فأت به على الفور".

وعلى الفور بدأ «أغا الانكشارية» تفتيش الجنود ولم يعثر على شيء، وجاء عند السلطان وقال:

"أيها السلطان إننا لم نعثر على أي أثر من تفاح أو فاكهة". فرح السلطان جدًّا، وبذلك انزاحت عنه تلك الأفكار، التي كانت تؤرقه. ثم توجه بيده إلى السماء ودعا الله قائلاً:



"اللهم لك الحمد والشكر على إحسانك إليّ بجيش لم يُطعم لقمة حرام."

ثم قال للأغا:

"لو أني وجدت مع جنودي عنبًا أو تفاحًا قطفت بغير إذن من صاحبه من تلك الحدائق لكنت قد تخليت عن حملة «مصر»؛ لأنه لا يمكن فتح أي بلد بأجساد جيش أكل من حرام."

ونتيجة لتلك الأخلاق السامية لـ«لسلطان سليم» كان دائمًا مظهرًا للعون والمدد الإلهي والتوفيق من الله ﷻ.

وتذكر الروايات أنه أثناء ذهابه إلى حملة «مصر» أمر الجنود بأن يأخذوا قسطًا من الراحة أثناء عبورهم من وادي «جُومْرَا» بـ«قونية»، وبينما كان سليم يتجول في المكان مع بعض الأشخاص صادف أحد العجائز فسلم عليه وقال له:

"أنا أتيت من مكان بعيد، وجائع، هل عندك ما يُؤكل؟"

استغرق الرجل المسن في عمله، وأشار للسلطان على قِدْرٍ بعيد وقال له: "تفضل!".

فأجابه السلطان: "ولكني لست وحدي إن ورائي جيشًا كبيرًا."

لم يشعر الرجل المسن ذو الوجه النوراني بأي قلق وقال:

"إن الطعام الموجود في الإناء سيكفيكم إن شاء الله."

حقيقة لقد أكل كل أفراد الجيش من الإناء ولم ينقص، ولما رأى السلطان الأمر على ذلك طلب من هذا الرجل أن يدعو له ثم أكمل طريقه. وبعد النصر مر مرة أخرى بالرجل وسأله هل له حاجة ليقضيها له فقال هذا الولي بصوت منخفض:

"يا مولاي السلطان! لو تتفضل علي بإعطائي منديلي أكن مسرورًا؛ لأنني لا أمتلك واحدًا آخر."

لم يتأخر سليم في إدراك أن هذا الرجل المبارك هو نفسه الشخص الذي ضمد



جرحه في المعركة بالمنديل لما جرح. أخرج سليم المنديل من جيبه وأعطاه للرجل وعيناه تذرفان، ثم شكر الله كثيرًا من قلبه على هذه النعم الكثيرة التي منّ الله ﷻ بها عليه.

وهذه الحادثة من أبرز الأمثلة على أن أولياء الله كان لهم تصرف مادي ومعنوي تجاه إخلاص «السلطان سليم».

❁

عاش «السلطان سليم» حياة بسيطة للغاية، ولأن نومه كان قليلا فقد قضى معظم لياليه في قراءة الكتب، وكان يأكل في معظم الأيام نوعًا واحدًا من الطعام، وكان يستخدم أطباقًا من الخشب، ولا يستمتع بالملذات الدنيوية.

وذات يوم رأى ابنه «سليمان» (القانوني) مزينًا لأقصى درجة فقال له مُنكِّتا:

"يا بُنيّ! لقد تزينت كثيرا لدرجة أنك لم تترك شيئًا لأمك".

أما هو نفسه فكان يلبس ملابس بسيطة جدًّا، وكان يجيب مَنْ يسألونه عن سبب هذا بقوله : "إن ارتداء الزينة والملابس المزينة ليس شيئًا سوى الكلفة، فلماذا نكلف أنفسنا هباءً؟".

كان يلبس اللباس حتى يُبلى تمامًا، لدرجة أن رجال الدولة كانوا يضطرون أن يفعلوا مثله، وذات مرة وصل الخبر بأن سفير البندقية أتى إلى «إستانبول» لمقابلة السلطان، فأخبر الوزراءُ السلطان بواسطة الصدر الأعظم بأنهم يريدون أن يغيروا ملابسهم القديمة بالجديدة، ولكنهم كانوا قلقين عن رد السلطان.

فقال السلطان: "حسنًا هذا مناسب."

وفي اليوم الذي كان مقررًا لحضور السفير حضر كافة الوزراء بالملابس الجديدة إلى الديوان الهمايوني، ولكنهم فوجئوا لما رأوا السلطان لا يزال بملابسه القديمة، كان السلطان يجلس على العرش وفي يده سيفه البتار يضعه على درجة العرش، كان

لمعان السيف في ضوء النهار المنبعث من النافذة يبهر العيون، ولما رأى الوزراء هذا الوضع خجلوا من تلك الملابس التي يرتدونها ولم يدروا ماذا يصنعون.

وبعد انتهاء اللقاء وخروج السفير، نظر سليم إلى الصدر الأعظم وقال:

"أيها الباشا! اذهب إلى السفير واسأله كيف وجدَنا؟"

فعل الصدر الأعظم ما أمر به السلطان وعاد بانطباع السفير عن المقابلة فقال:

"مولاي السلطان! إن سفير البندقية يقول: "إن شعاع وبريق سيفكم جعل عينيه لا تستطيعان حتى رؤية نفس السلطان."

ابتسم سليم وأشار بإصبع الشهادة على سيفه وقال:

"طالما أن سيفنا بتار وبرّاق فإن بريقه سيجعل أعين الكفار لا تنظر إلى شيء إلا إليه، ولكن – لا سمح الله – إن أصبح في يوم غير بتار وغير برّاق فإن الكفار حينئذ سيروننا أذلاء وسينظرون إلينا من هضبة عالية."

❁

كان «السلطان سليم» متدينًا ومتواضعًا غير متكبر، وكان دائمًا يقول:

"إن القوة والقدرة لله ﷻ، أما أنا فواسطة جعلها الله ﷻ لتحقيق النصر فقط" كان يعيش خائفًا من ألا يتخطى عقبة النفس. كان يتجول بين الرعية ويسعى للاطلاع عن قرب على آلامهم، كان صاحب ديناميكية خارقة للعادة، كما كان صاحب تعمق في المعلومات التاريخية. إن استمرار نتائج انتصاراته لمدة أربعمائة وخمسين سنة من زمنه كافية لإظهار عظمة الأعمال التي قام بها.

إننا نرى «السلطان سليم» وهو يدخل إلى صحراء سيناء المخيفة أسدًا، ونراه يدخل «مصر» رجلا مؤمنًا، عينيه دامعتين، شاكرًا لله، ونراه يدخل «أُسْكُدارْ» بعد حملة «مصر» غارقًا في اللذات الداخلية الإلهية التي تُوجِّهه بمحاسبة نفسه.

وقد نظم سليم هاتين البيتين لصديقه المخلص «حسن جان»:



كونك سلطانا في العالم نزاع عبث بلا جدوى

وكونك خادماً لولي أفضل من كل شيء وأعلى

لقد كان «السلطان سليم» الذي نظم تلك الأبيات يُظهر تواضعًا وأدبًا كبيرين عندما يدخل إلى حضرة الأولياء الصالحين، بل إنه كان لا يتكلم في حضورهم قط.

وعندما زار الشيخ «محمد البدخشي» في «الشام» لم يتكلم بكلمة واحدة، استمع إليه فقط ثم غادر المجلس، وقد تعجب رجال الدولة لما رأوا ذلك وقالوا للسلطان:

"أيها السلطان لقد استمعتم إلى الشيخ فقط وما تفوهتم بكلمة واحدة، ما الحكمة في ذلك؟" رد قائلاً:

"إذا تكلم أولياء الله فإن الواجب على الحاضرين أن يستمعوا فقط، ولا يتكلموا - حتى ولو كان المستمع سلطان العالم- وإن كنت أنا سلطانًا إلا أني محتاج في كل وقت لهمة سلاطين المعنى. وإن تطلب الأمر كلامي في حضورهم لأظهروا ذلك."

لم يكن توجه هذا الولي الكبير لـ«السلطان سليم» بأقل من توجه السلطان إياه. حتى إنه عندما كان في النزع الأخير جمع كبار رجال «الشام» وأوصاهم قائلاً:

"عليكم ألا تقصروا في طاعة «السلطان سليم»، لأنه سلطان ممدوح عند الله، وهو سيف الإسلام المكلف بالفتح!"



لقد كان «السلطان سليم» الذي أبدى هذا الارتباط الكبير بأولياء الله الصالحين عبدًا من خواص عباد الله مثل والده، والتاريخ يسجل العديد من الأحداث والتصرفات التي قام بها سليم والتي تحمل في معناها الكرامة، ومنها:

دخل «السلطان سليم» ذات يوم الديوان وهو محتد للغاية، لدرجة أنه لم يجد

الوقت لتغيير ملابسه، وكان الشيء الذي أغضبه إلى تلك الدرجة هو «فرهاد باشا»؛ لأنه كان يحمي «إسْكَنْدَرْ جلبي». إذ أحس أنه يجري بينهما أمور لا يمكن إيضاحها بالصداقة. فنادى «السلطان سليم» بصوت عالٍ وقال:

"سترى العاقبة حينئذ يا فرهاد! أنت الآن تحمي «إسْكَنْدَرْ» ولكنك ستعلم عاقبة حمايتك له إن شاء الله عندما تُعدمان معًا."

ومرت الأيام والسنون وتم إعدام الاثنين معًا في عهد «القانوني» كما أخبر سليم بذلك.

❀

كان الوقت قريبًا من وقت وفاة «السلطان سليم» وقد اتحد الوزراء وأعدوا العدة لفتح «رُودُسْ» وأخبروا السلطان بأنهم يعتزمون فتح الجزيرة، وكان ياووظ ذا بصيرة ورأي ثاقب فسألهم وكأنه لا يريد أن تتعرض فتوحاته السابقة لتشوه أو قلة قدر:

"إن البارود هو أهم عنصر مطلوب في الفتح، فهل عندكم من البارود والمهمات ما يكفيكم؟"

فأجاب الوزراء:

"عندنا ما يكفي لأربعة أشهر ونصف أو خمسة أشهر على الأكثر."

فرد عليهم السلطان:

" إنكم لن تستطيعوا فتحها في خمسة أشهر ولا ستة ولا حتى سبعة، بل إن تلك القلعة تحتاج من البارود ما يكفي لثمانية أو تسعة أشهر، ولن تتمكنوا من ذلك بالإمكانيات التي في أيديكم! إن رحلتي بعد هذا ستكون رحلة الآخرة!"

إن هذه الكلمات التي قالها «سليم» تظهر فراسة مؤمن كامل، لأن تلك القلعة حوصرت بعد عام من وفاة «سليم» أي في عهد «القانوني» ولم يتم فتحها إلا بعد حصار شديد استمر تسعة أشهر.

❁

وفي عام ١٥٢٠م كان «السلطان سليم» ذاهبًا إلى «أدِرْنَة» للاستعداد لحملة جديدة، ووصل إلى قرية «أوغْراشْ» التي تُوفي فيها والده، وهناك ظهر له خُراج صغير في ظهره، وبالرغم من التنبيهات التي قدمها له رجال الدولة إلا أنه قطع الخراج وأدماه فقال لهم: "إن روحي لا تفضل اللذة مثل تلك التي عند النساء."

ويروي «حسن جان» صديق «السلطان سليم» المقرب الحادثة على ما يلي:

"ظهر في ظَهْر السلطان خُراج كبير يسمى «مخلب الأسد» كبر هذا الخراج في وقت قصير، لدرجة أنه أصبح مثل الثقب، وكنا نرى منه كبد السلطان، اضطرب حال السلطان جدًّا، كان مثل الأسد المجروح، فقد كان لا يقبل العجز بأي شكل من الأشكال، فكان يداوم على إعطاء التعليمات للمقاتلين، اقتربت منه فسألني قائلاً:

"يا حسن! ما هذا الحال؟" يقصد حاله.

ولأني كنت أعلم بأن السلطان يستعد لرحلته الأبدية التي سيرحل بها إلى الدار الباقية كنت أعتصر ألمًا وحزنًا على فراق السلطان وقلت له:

" يبدو أنَّه آن الأوان كي يكون العبد مع الله يا مولاي السلطان.!"

فنظر إليّ السلطان العظيم بتعجب وقال: "حسن! حسن!.. ومَنْ كنت تظنني معه حتى الآن؟ هل رأيتني قصرت في توجهي إلى الله؟"

شعر «حسن جان» بالخجل من هذا السؤال وقال:

"حاشا لله يا مولاي! لم أقصد هذا، ولكنني تجرأت على قول هذا لأوضح أن الوقت الذي أنت فيه الآن يختلف عن الأخرى."

وحينئذ غاص السلطان العظيم في عالم آخر تمامًا ثم قال لي هذه الجملة الأخيرة:

"يا حسن! اقرأ سورة ياسين!"

بدأت التلاوة والدموع تملأ عينيّ، ولما وصلت إلى آية السلام فاضت روحه إلى بارئها. وقد صوّر الشاعر يحيي كمال رحلة «السلطان سليم» إلى الآخرة بالأبيات التالية:

ذات يوم دق جرس النوبة إيذانًا بالرحلة الأبدية

وأصبح الطريق في الآخرة واضحًا بهذه الدعوة الإلهية

امتلأت عيناه بالدموع من أجل الفراق

فقد ودّع هذا السلطان العظيم الأمة

قضى عمره من أجل إعلاء كلمة الله

ورفع مكافأته إلى مكان الوحدة

ولأن غايته كانت رؤية فخر العالم

فقد صعد إليه في خشوع تام وأدب تام

رحمة الله عليه!..

لم تستطع الانتصارات الكبيرة التي حققها «السلطان سليم» طوال ثماني سنوات مدة سلطنته ولا الرفعة الخاصة بالدنيا أو الالتفات إلى الأشياء الفانية أن تهزمه أو تجره إلى النار.

إن عهد «السلطان سليم» الذي استمر ٨ سنوات فقط من عمر الدولة العثمانية الذي امتد ٦٢٠ عامًا يُشبه بوقت صلاة العصر؛ وقته قصير، ولكن ظلاله طويلة.

ويجب البحث عن سر نجاحات «القانوني» في الميراث المادي والمعنوي القوي الذي تركه له والده سليم والذي لا يقهر بسهولة.



اللهم اجعلنا محاربًا غازيًا في سبيلك، ومؤمنًا شاكرا فائضا عيناه بالدمع في حضرة ذات جلالك وزاهدا مستغرقا في اللذات المعنوية الإلهية، كـ«السلطان سليم خان»!

آمين!..







الذي وصل إلى القمة في كل شيء،
ولُقب بـ «سليمان العظيم الرائع».

السلطان سليمان القانوني

(١٤٩٥-١٥٦٦م)

عاشر سلاطين آل عثمان.

وُلد في «طِرابْزُونْ» عام ١٤٩٥م، سُمي باسم «سليمان» تيمنًا باسم سيدنا سليمان المذكور في القرآن الكريم في الآية رقم ٣٠ من سورة النمل. وكأن هذا الاسم يحمل معه البشارة بأن هذا الأمير سيجمع بين سلطنة الدنيا والعقبى.

عندما جلس والده «السلطان سليم» على العرش عام ١٥١٢م دُعي «الأمير سليمان» إلى الحضور لـ«إستانبول» ليوكله عنه في السلطنة أثناء صراع سليم مع إخوته، ولما انتصر والده على إخوته وتفرد بالعرش العثماني أرسل ابنه «الأمير سليمان» الشاب إلى إمارة «صاروخان» التي مركزها «مغنيسيا». وبذلك أكمل هناك خبرته في إدارة الدولةز ومن ناحية أخرى طلبت أمه من ولي عصره «سُنْبُـلْ أفندي» أن يرسل أحد



طلابه لتولي مسألة تربية «الأمير سليمان» المعنوية فقام المذكور بإرسال تلميذه «مَرْكَزْ أفندي» إلى «مغنيسيا» وبهذه الصورة وصل «القانوني» إلى المنبع الأول الذي سيغذي روحه في عالم المعنى.

وكما أن الشيخ «أدبالي» أعد «عثمان الغازي» ليكون أساس الدولة العالمية مادياً ومعنوياً، أعد «مَرْكَزْ أفندي» أيضاً «الأمير سليمان» معنويًّا من ناحية الخبرة الإدارية واللياقة التامة ليدير بها هذه الإمبراطورية.

وقد ربى «مَرْكَزْ أفندي» «الأمير سليمان» تربية معنوية، وأعطاه شعورًا بأن التوفيق من الله، وأن العبد ليس إلا وسيلة لتحقيق هذا التوفيق. كان «مَرْكَزْ أفندي» منبع الفيض طوال حياته حتى أن «الأمير سليمان» بعد أن أصبح سلطانًا أمر ببناء تكية له بالقرب من «طوب قابي» مقابل الخدمات التي قام بها.

جلس «السلطان سليمان» على العرش العثماني وهو شاب في ٣٠ سبتمبر ١٥٢٠م، واستقبل في «طوب قابي» جنازة والده، وسار خلف الجنازة حتى جامع الفاتح، وبعد أداء الصلاة على الجنازة تم دفن جثته الزكية في قبره الواقع بحي «السلطان سليم» المجاور لحي الفاتح الآن، وأمر سليمان، المعماري «على أغا» بأن يبني جامعًا وقبرًا باسم والده في هذا المكان.

ورث «السلطان سليمان» من والده أقوى وأكبر جيش في العالم، وتمكن في وقت قصير من إحراز نجاحات كبيرة في الحروب التي خاضها، كما تميز بعزيمته وفضيلته في الإدارة، لدرجة أن أطلق عليه أعداءه من الأوروبيين لقب «سليمان العظيم الرائع». ولما تُوفي «السلطان سليم» فرحت أوروبا المسيحية؛ لأنها ظنت أن الذي سيرث عرشه شاب بلا خبرة أو دراية، لدرجة أنهم قالوا: "مات الأسد وخلف نعجة!" إلا أنه لم يمر وقت طويل حتى انقلب فرحهم هذا غمًّا ورعبًا.

فإنَّ «السلطان سليمان» أكمل الفتوحات الغربية التي لم يكملها أبوه سليم، ذلك لأنه تلقى هذا الأمر أمانة ووصية من والده يجب تنفيذها.

فبادر السلطان الشاب بالحملة إلى أوربا وفتح رودس سنة ١٥٢٢م، ومسح اسم «هونغاريا/ المجر» من على الخريطة باستيلائه عليها عام ١٥٢٦م بمعركة «مُوهاجْ»، كما فتح «بودَابَسْتْ» وحاصر «فيـيَـنّـا» عام ١٥٢٩م، وخرج إلى حملة «النّمْسا» عام ١٥٣٢م، ووقع معاهدة مع «ألمانيا» عام ١٥٣٧م، وفي نفس العام فتح كلاً من «أسْتَرْكُونْ» و«إسْتُونِي» و«بَـلْغِرادْ».

لقد كانت الفتوحات في ذلك العهد تحير العقول، وقام «خيرالدين بارْباروسْ» بإهداء الدولة العثمانية شمال أفريقيا التي كان يحكمها وذلك بعمل منه في سبيل وحدة العالم الإسلامي، وفي مقابل هذا منحه «السلطان سليمان» قيادة البحرية العثمانية، وبهذا أصبح البحر المتوسط بمثابة البحيرة العثمانية في وقت قصير. حتى إنه تم إرسال الأسطول الحربية إلى «المحيط الأطلنطي»، من أجل مساعدة المسلمين الموجودين هناك، كما خرجت حملات إلى «السودان» والحبشة، وامتدت حدود الدولة في الجنوب إلى وسط أفريقيا، وفي الشمال تقدم خانات القِرِمْ، إلى «موسكو». وفي عام ١٥٤٨م تم الاستيلاء على «تَـبْـريزْ» للمرة الرابعة، وبذلك أصبحت الحدود في الشرق ممتدة إلى بحر «الخَزَرْ».

إن تنازل «خيرالدين بارْباروسْ» عن حكمه في الجزائر التي كان يستطيع أن يكون سلطانًا عليها، والتحاقه إلى الدولة العثمانية أمر يستحق التقدير، وقد كان هذا نابعًا من كماله الروحي وقوة ارتباطه بفكرة الوحدة الإسلامية والارتباط بالخليفة. أما المؤثر الذي عمل على تحقيق هذا التصرف فهو القوة المعنوية العالية التي كانت له. وهذه الرؤيا الجميلة التي رآها تعبر أجمل تعبير عن تحركه من منطلق هذه المعنوية الفاعقة:

"أتى شخص إليّ في المنام وأعطاني رقاعًا، وقال لي:

"يا خير الدين! أعط هذا إلى السلطان سليمان! ثم اختفى. ثم قمت بفتح الرقاع فوجدت مكتوبًا فيه بالخط الأخضر الآية الكريمة:

﴿نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ (الصف، ١٣)



قرأتها ثم مسحت بها على وجهي، ثم قلت: "يا إله العالمين! الحمد والشكر لك" ثم استيقظت".

وعلى هذا يتضح أن «السلطان القانوني» كان مظهرًا للتأييد الإلهي بهذا الشكل المعنوي، وأنه بذل عمره كله في سبيل تحقيق الطمأنينة والسعادة للإنسانية. وأنقذ الكثير من الناس الذين يعانون تحت وطأة ظلم الملوك الظالمين، وأذاق الناس رحمة وشفقة وعدالة الإسلام التي لا مثيل لها. ولهذا فإن اسمه كان يُذكر في كل مكان وخاصة في العالم الإسلامي بالخير والرحمة. وبسبب عدالته وصدقه الغير المتناهي صار تعبير «العهد السليماني» ضرب مثل بين الناس عن الوعود التي يلزم إيفاءها.

وفي عهده لم تتجرأ أية قوة من قوى الأعداء محارَبة الجيوش العظيمة للدولة العثمانية، حتى «شارْلْكَانْ» الذي تمكن من جمع أوروبا كلها حوله كان يتحرز من الخروج أمام السلطان القانوني. وما كان يستطيع أن يعمل شيئا تجاه الحملات الهمايونية الموجهة ضده غير الهروب من ناحية إلى أخرى؛ لأن الخروج أمام الجيش العثماني الذي كان يحارب وكأنه يحارب على نغمات موسيقية متوازنة، كان يعني فقدان أوروبا كلها حتى سواحل «رَنْ»، ولهذا كان «شارْلْكَانْ» لا يخفي عجزه لأن لا يتعرض إلى مغلوبية قطعية وكان يهرب من الدولة العثمانية دوما.

كان يحسر حسرة لفشله الدائم أمام الجيش العثماني. من أجل ذلك أراد في مرة الهجومَ على جزائر والاستيلاء عليها. إلا أن المقاومة القوية والهجوم الشديد لحسن باشا الذي هو الابن المعنوي لبارباروس ونائبه هناك، والمددَ الإلهي الذي تجلى لصالح المؤمنين كانا سبباً لمغلوبيته الحاسمة. وبذلك تعرض «شارْلْكَنْ» لهزيمة نكراء، لدرجة أنه اضطر من شدة جوعه إلى أكل فرسه المشهور الذي كان يحبه جدًّا. وفي النهاية تمكن من إلقاء نفسه في إحدى السفن ونجح في إنقاذ روحه بصعوبة. ونتيجة لتلك الهزائم وقلة حيلة «شارْلْكَنْ» في عدم معرفته ماذا يفعل قام بخلع تاجه من فوق رأسه وألقى به في البحر وبدأ يصرخ:

"هيا اذهب بعيدًا عن رأسي أيتها اللعبة المسكينة! هيا! اذهب بعيدًا عني إلى رأس حاكم آخر حظه أوفر مني".

كما تعرض الجيش الصليبي المكون من ١٠٠ ألف جندي جمعهم البابا لنفس تلك العاقبة أمام «بَشْتَه» فلم يستطع هذا الجيش الصليبي الكبير فعل أي شيء أمام ثمانية آلاف جندي، الذين كانوا مكلفين بحراسة القلعة. وقام هؤلاء الجنود بهجوم شديد قضوا فيه على نصف الجيش الصليبي، وتشتت الباقون، وبهذا تحقق نصر كبير للعثمانيين بجيش يقدر بواحد على عشرة من الجيش الصليبي، وقد عبر الشاعر عن هذا:

كل قُبلة للخزامى كانت آفة صاحبةَ وجه مثل الوردة

بهذا دخلنا إلى حريم النصر ووصلنا إلا أمنيتنا

هجمنا بألف من الخيول وكأننا الأطفال في الفرح

وهزمنا في هذا اليوم بألف جندي جيشًا عملاقًا

لقد كان جيش القانوني المكون من تشكيلات الجيش المختلفة وطاقم الفرقة الموسيقية المكون من ٢٠٠ فرد جيشًا منظمًا للغاية.

وقد شبهه المؤرخون بما يلي:

لقد كان الجيش منظمًا بدرجة لا قصور فيها. كان منظمًا لدرجة أنه لا تنكسر فيه بيضة الدجاجة، ولا يصادف فيه حتى شكوى من الديك.

لقد تمكن القانوني بهذا الجيش الذي ورثه عن والده من توسعة الأراضي العثمانية من ٦,٥٥٧,٠٠٠ كم٢ إلى ١٤,٨٩٣,٠٠٠ كم٢. وكانت حدودها محاطة بالقارة والمحيط، لدرجة أن الملوك كانوا لا يستطيعون فعل أي شيء أمام هذا الجيش سوى العجز.

كان ملك «إسبانيا» لا يجد راحة من الحملات التي يقوم بها «خيرالدين بارْباروسْ» عليه، ولأنه لم يتمكن من القيام بالظلم الذي يريده تجاه البلدان الإسلامية قرر الخروج في حملة على أراضي الأناضول، وقد زادت الرغبة لديه في

القيام بهذا الأمر لما علم أن «السلطان القانوني» في أوروبا. ولمّاَ علم إمبراطور ألمانيا «فَرْدِنانْدْ» بالأمر أراد أن يجعل من ملك «إسبانيا» حليفًا معه ضد القانوني، وأرسل إليه خطابًا اعترف فيه بتلك الاعترافات الكبيرة عن الدولة العثمانية حتى يتصرف هذا الملكُ بالعقلانية:

"أخي ملك «إسبانيا» سمعت أنك قررت الخروج في حملة إلى الأراضي العثمانية مستفيدًا في ذلك من انشغال القانوني في أوروبا، ولكني لا أجد هذا التصرف منك سليمًا أو صحيحًا، لأنني لم أسمع أن واحدًا منا قام بحملة على الأناضول واستولى على قلعة أو أي مكان وأبقاه تحت سيطرته. والذين تمكنوا من السيطرة عليه لمدة اضطروا إلى الرجوع والتقهقر أمام الأتراك وتركوا ما حصلوا عليه. وإنا لا نستطيع استرجاع الأماكن التي فتحوها في بلادنا فضلاً عن أناضول. وعليك أن تفكر للحظة، كم قلعة أخذناها، وكم استطعنا أن نبقيها في أيدينا؟ وكم قرية أو مدينة أخذناها ولم نعدها؟ ولتعلم أن خروجك إلى مكان بعيد كهذا يعني أنك تذهب في مغامرة كبيرة أو بالمعنى الأصح تسير هباءً، ولتعلم أيضًا أن خروجك إلى الأناضول في وقت لا يوجد فيه السلطان أو جنوده هناك إنما يعني أنك تلقي بنفسك في فم الأسد، وحينئذ لن تستطيع أن تنقذ نفسك من مخالبه أو فمه، تخَلَّ عن هذا التصرف، وساعدني، فإن لم تساعدني فإن هذا يعني موتي، وانتهاء أمري، وهذا يعني أن الدور سيكون عليك بعد ذلك".

وكما هو واضح أن «عهد القانوني» كان نموذجًا على حقيقة هي أن عون الله تعالى يأتي بالنجاحات والانتصارات المشرفة كالسيل لهؤلاء الأناس، الذين آمنوا بإخلاص وتمنوا من قلوبهم أن يعلوا كلمة الله. لقد كان «السلطان القانوني» يعامل ملوك أوروبا على أنهم ولاة عنده.

ومن ذلك ملك «فرنسا» الذي أُسر في معركة دارت بينه وبين «شارْلْكَنْ» إمبراطور ألمانيا، وقامت أم ملك فرنسا بإرسال رسالة إلى «السلطان القانوني» من

أجل إنقاذ ابنها من الأسر، وخاطبته في خطابها بعبارة «سلطان السلاطين»،أما القانوني فقد رد على تلك الرسالة برد أرسله إلى «فِرانْسُوَا» بدأ فيها بقوله:

"أنا.... ثم يعد أسامي البلاد التي هو حاكمها، سلطان أذربيجان والأناضول والروملى والبلقان وقرمان والعراق وبلاد العرب ومصر والبر والبحر السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان" ويخاطبه بقوله: "وأنت يا «فِرانْسُوَا» يا والي ولاية فرنسا". ثم هوَّن عنه المصيبة بقوله بأن هذا الأمر وهو الأسر قد يحدث لأي ملك.

ومقولة «السلطان سليمان» بأنه سلطان البر والبحر في خطابه إنما هي صرخة تعبر عن شدة إيمانه وقوته. وقد استمر صدى تلك الصرخة طوال عصر القانوني، ولم ينقطع قط، لاسيما وأنه في «عهد القانوني» ظهر في «فرنسا» أن الرجال والنساء يتراقصون مع بعضهم البعض في الحفلات، ولما وصل الخبر إلى «السلطان القانوني» أرسل رسالة إلى ملك «فرنسا» قال فيها: "لقد بلغني أن الرجال والنساء في بلادكم يتعانقون أمام الناس ويتراقصون بشكل يخالف الحياء والأخلاق في حفلات وقحة أوجدتموها، ولأن بلادكم لها حدود مع بلادنا فإن هناك احتمالاً بأن تنتقل تلك الوقاحة إلى ديارنا، ولهذا عندما تصلك رسالتي هذه. عليك فورًا أن تنهي هذه الوقاحة وإلا فإنني قادر على القدوم بنفسي إليكم لأقضي عليها".

ويسجل المؤرخ «هامّر» أن الرقص أصبح سريًّا تمامًا في «فرنسا» لمدة مائة عام كامل بعد هذه الرسالة. لقد كان كل أفراد المجتمع العثماني في هذا العهد يعملون بروح إيمانية وجدية وأصالة. لقد كان هذا النهوض المفعم بالهيبة والحماسة ليس ظاهرًا عند القانوني فحسب بل ظهر في كل أفراد المجتمع حتى في أصغر رتبة في مؤسسات الدولة.

وهذا البحَّار الذي حمل بشارة انتصار « بِرَوَزَه »على فرس يعدو بسرعة، ولما دخل قصر «طوب قابي» بهذه السرعة الهائلة سحب البحَّار لجام الفرس فصهل الفرس ووثب على رجليه الخلفيتين لفترة ثم سكن، ولما رأى القانوني هذا المنظر



قال للبحَّار: "لقد أتيت بفرس كُهَيْلانِي غاضب"، فرد البحَّار على القانوني بقوله: "يا مولاي السلطان! إن البحر الأبيض أيضًا كان كهيلانيا غاضبًا ولكننا روضناه."

وهذا الرد الذي رد به البحَّار إنما هو ظاهرة للاعتماد على النفس المنبعث من هذه القوة الإيمانية.

لقد كان الجميع من السلطان إلى أصغر جندي يشعر بتلك القوة الإيمانية. لقد كان «عهد القانوني» يمتاز بتلك الشخصيات العظيمة مثل «المعماري سنان» الذي استطاع بأثره "السليمانية" تلك التحفة المعمارية ألا يضاهيه أحد في العمارة، و«فضولي» و«باقي» بأشعارهما الرائعة، و«ابن كمال باشا» و«أبي السعود أفندي» اللذان أضاءا العالم بفتاواهما، و«سنبل أفندي» و«مركز أفندي» و«يحيي أفندي» الذين عملوا على توجيه القلوب إلى المعنوية، و«خير الدين بارباروس» الذي تنازل عن حكم شمال «أفريقيا» من أجل وحدة العالم الإسلامي والذي جعل البحر الأبيض بمثابة البحيرة العثمانية التركية، و«بيري رئيس» الذي رسم خريطة العالم واكتشف أماكن لم تكن مكتشفة من قبل، والوزير «صوقوللو» الذي ذاب وانصهر في وجدان العالم الإسلامي بالرغم من أنه تربى في عائلة مشهورة بتربية القسيسين، والذي أظهر دراية وخبرة في إدارة الدولة كانت تعادل خبرة السلاطين. إن كل هذه الشخصيات أوصلوا الدولة العثمانية إلى نقطة الكمال.

لقد عمل «صوقوللو» على الربط بين نهري «دُونْ» و«الفُولْجَا»، وبذلك حمل سفن الأسطول العثماني إلى بحر «الخزر» ومنها إلى وسط آسيا، وذلك كان ظاهرة فكرية كبيرة لا يتصور وجودها حتى في الخيال.

أما بالنسبة للخريطة التي رسمها «بيري رئيس» فهي من الأعمال التي لم يستطع التاريخ رسمها حتى في الوقت الحاضر، فقد ظهرت جزيرة «جِرُونْ لانْـدْ» في تلك الخريطة على ثلاث قطع بشكل يتوافق مع طبيعتها الأصلية الحالية، وهذه الحقيقة لم تثبت إلا بعد صعود الإنسان على سطح القمر. وبالتالي فإن رسم «بيري رئيس»

لتلك الخريطة لا يمكن أن يكون سوى نتاج خبرة علمية وانكشاف قلبي، وهذه الأمثلة كافية لإظهار مرتبة رجال الدولة في هذا العهد.

أما لقب «القانوني» الذي أضيف إليه قد منح له بسبب أمره بتنظيم الفقه الإسلامي والقوانين الإسلامية على شكل مجموعات وذلك كضرورة من متطلبات عصره، وتم تنظيم هذه القوانين، التي سميت «قَانونْ نامَهء آلِ عثمان» على يد هيئة كان يرأسها علامة العصر و«مفتي الثقلين» (أي مفتي الجن الإنس) «ابن كمال باشا» و«أبو السعود أفندي». وبهذه الصورة كانت كل القوانين التي صدرت متوافقة تمامًا مع الأحكام الشرعية.

لقد تم تطبيق العدالة والحق في تلك الدولة العلية الإسلامية التي امتدت حدودها من «الخَزَرْ» إلى وسط أوروبا، ومن «المحيط الهندي» إلى «أوكْرَايْنَا» بصورة دقيقة طبقًا لمتطلبات العصر. ولهذا كان الذين يهربون من ظلم محاكم التفتيش الكاثوليكية المساة بـ «أنكيزيسيون» يهرعون إلى الدولة العلية ليحتموا بها وبالعدل والحق المنتشر فيها. وهذا «جَاليلَيو» الذي حُكم عليه بالإعدام؛ لأنه كان يقول بأن الكرة الأرضية تدور، اضطر لترك قناعته العلمية في الظاهر لكي ينقذ نفسه من الإعدام. أما في الدولة العثمانية فقد كان يغلب عليها فكرة أن الرعية حتى غير المسلمين منهم وديعة الله أي أمانة الله ﷻ.

لقد انتشر العدل العثماني لدرجة أن «بولونْيا» شاعت فيها المقولة التي تقول: "طالما أن الخيول العثمانية لم تشرب من نهر «فِيسْتولْ» فلن تنال الدولة حريتها أو استقلالها". وأصبح هذا التعبير بمثابة ضرب المثل عندهم.

حقيقة إن «بولونْيا» نالت استقلالها في التاريخ ثلاث مرات، كانت كلها في المرات التي شربت فيها خيول العثمانيين من نهر «فِيسْتول».

والمثال التالي يوضح لنا مدى ارتباط الرعايا غير المسلمين بالدولة العثمانية بسبب العدل الذي نالوه فيها: عندما خرج «السلطان القانوني» في حملة «المَجَرْ»



أراد بعض المَجَرْ أن يضعوا له السُم في الطعام لحساب إمبراطور «ألمانيا»، وحاولوا أن يقنعوا طباخ السلطان بذلك، وكان أرمينيًا يُدعى «مانوقْ» ، إلا أن هذا الطباخ رفض بشدة؛ لأنه كان يرى العدل والحق في السلطان القانوني، وبذلك أظهر هذا الطباخ نموذجًا على الإخلاص الكبير.

ويتضح من هذا المثال أن «السلطان القانوني» كان سلطانًا عظيمًا لم ينل حب الرعية المسلمين فحسب بل اكتسب أيضًا حبًا من غير المسلمين.

وفي عهده أيضًا استمرت حملات نقل المسلمين من بلاد «الأندلس» إلى شمال أفريقيا لحمايتهم من المذابح الدامية التي قام بها النصارى هناك ضد المسلمين.

وفي الدولة العثمانية لم يُعط حق أو امتياز إلى شخص لا يستحق هذا الامتياز، فكل شخص كان يكسب مكانته بقوة عقله وعضده. فالأب العاقل يمكن أن يكون وزيرًا، أما ابنه الغبي فيكون زبالا لأنه سفيه التصرف. والعبد قد يرتقي إلى درجة الصدارة العظمى بسبب نجاحه وتوفيقه وإخلاصه.

أما الأمراء العثمانيون فكان تربيتهم تتم بدقة كبيرة ودراية عالية على يد خيرة علماء عصرهم.

أما القصر العثماني فكان بمثابة المدرسة التي تُعلِّم كل مَنْ يدخل إليها وعلى رأسهم السلطان. وعند تعيين أية وظيفة أو مأمورية كان لا يلتفت إلى الصداقة أو المحاباة أو الفقر أو الغنى، حيث كانت اللياقة والخبرة تأتي في المقام الأول.

وقد عبّر السفير النمساوي في ذلك العصر «بوسْبَـرْجْ» عن تلك الحقيقة فقال:

"إن كل شخص في الدولة العثمانية هو الباني لموقعه وإقباله، والأتراك لا يؤمنون بأن المزايا تورث، وغير الشرفاء أو الكسالى لا يرقون أبدًا، بل دائمًا يكونون مهمشين في ذل واحتقار".

حتى الملك الإنجليزي «هَنْرِي» أرسل هيئة من عنده إلى الدولة العثمانية لمراقبة نظام العدالة التي تتميز بالعدل، من أجل أن يتخذوها نموذجًا لهم ليسيروا عليه.



لقد عرض عهد القانوني "الإسلام" بإخلاص وصدق، وكان نموذجًا وقدوة للعالم كله، وسجّل عظمته في كل الخصائص على العالم كله.

وكما كان القانوني سلطانًا يستند إلى العقل والإرادة والقوة، أثبت أيضًا في عدة مرات بأنه سلطان في عالم المعنى الذي يتطلب التواضع والمحوية بهمة «مركز أفندي». وهذا المثال الذي يثبت ذلك يبدو في غاية الروعة:

تمكن «خيرالدين بارْباروسْ باشا» من هزيمة «آنْدَرْيا دورْيا» في «بِرَوَزَه» هزيمة نكراء، لدرجة أن «آنْدَرْيا دورْيا» اضطر لترك أسطوله وفر هاربًا بحياته.

فساق «بارْباروسْ باشا» سفن الأعداء المحملة بآلاف الأسرى أمامه ودخل بها من «سَرايْ بورْنو» إلى الخليج في إستانبول، كان سطح البحر يَكْتَظُّ بسفن الأعداء الممتلئة بالأسرى. وكان القانوني والباشوات والوزراء يشاهدون هذا المنظر العظيم أمام القصر الساحلي في «سَرايْ بورْنو»، وهذا القصر غير موجود حاليًا، فقال أحد الباشوات بحماس كبير:

"يا مولاي السلطان! يا تُرى كم مرة شاهد العالم منظرًا كهذا؟ مهما افتخرتم بهذا يا مولاي فهو قليل عليكم".

أما القانوني الحاكم العظيم فرد عليه قائلاً: "يا باشا! هل الواجب علينا تجاه هذا النصر الافتخار أم الشكر لله الذي منحنا إياه؟!"

ولا شك أن سلطنة القانوني في عالم المعنى والتي كانت أكبر وأسمى من سلطنته في الدنيا، كانت نتيجة للفيض والهمة التي حصل عليها من خواص عباد الله ﷻ.

لأن القانوني كان مثل أسلافه يظهر الاحترام والرعاية الكبيرين للمرشدين الكاملين، ويداوم على مصاحبتهم، ولما مرض الشيخ «إبراهيم الكُلْشَنِي» من أولياء مصر دعاه السلطان إلى «إستانبول» وأمر طبيبه الخاص أن يعالجه.

كان السلطان دائم الاستفادة من «مركز أفندي» ومن «سنبل أفندي»، وكان يستفيد كثيرًا أيضًا من الشيخ «يحيى أفندي» البشيكطاشى أخيه مِن الرضاعة.



والحادثة التالية توضح بشكل واضح مدى درجة القرابة التي كانت بين القانوني وبين الشيخ «يحيى أفندي»: ذات يوم كان «السلطان القانوني» يتنزه بقاربه في المضيق واقترب من تكية الشيخ «يحيى أفندي» ودعاه السلطان إلى جواره، فلبى «يحيى أفندي» الدعوة، وأخذ معه شخصًا ذا وجه نوراني.

وبينما كانوا يتجوّلون في المضيق بالقارب كانوا يتبادلون أطراف الحديث، إلا أن الشخص الذي كان برفقة الشيخ «يحيى أفندي» لم يشاركهم الحديث، وكان ينظر طوال الوقت إلى الخاتم القيم الموجود في إصبع السلطان، ولما انتبه السلطان للأمر خلع الخاتم وأعطاه للرجل، أخذ الرجل الخاتم وألقى به في البحر فغضب السلطان من هذا الموقف، ولكنه لم يقل شيئًا احترامًا للشيخ «يحيى أفندي».

وبعد انتهاء الرحلة اقترب القارب من الشاطئ فمد هذا الرجل يده إلى الماء واغترف غرفة من الماء بيده ومدها إلى القانوني، الذي كان ينظر بتعجب شديد، لقد كان في يد الرجل الخاتم الذي ألقاه في البحر قبل قليل، أخذ القانوني الخاتم بشكل لا إرادي، وبينما كان على وشك التحدث مع هذا الرجل، إذا به ينزل ويسير حتى اختفى عن الأبصار.

تعجب السلطان كثيرًا من هذا الوضع، إلا أن يحيى أفندي نظر إليه بوجه باسم وقال له:

"إنه الخضر عليه السلام الذي تمنيت رؤيته منذ زمن يا مولاي السلطان".

وقد عبّر هذا الحال لـ«السلطان القانوني» على أن سلطنة الدنيا لا تساوي شيئًا بجانب سلطنة الآخرة.



وفي إحدى الغزوات التي قام بها القانوني على «النمسا» كان الجيش العثماني يتقدم صوب جيش العدو مخترقًا القرى، التي يسكنها غير المسلمين، ولما جلس «السلطان القانوني» في أثناء الطريق للراحة أتى إليه قروي مسيحي وقال له:



"يا مولانا السلطان! لقد قطع أحد جنودكم قطف عنب من حديقتي، وعلق مكانه ثمنه من النقود ولهذا جئت أهنئكم وأشكركم".

فأمر القانوني بإحضار هذا الجندي وعلى الفور منعه من الذهاب إلى الحملة، فتعجب المسيحي القروي من هذا الأمر، فقال له السلطان:

"إن حال الجنود هو أول خطوة في سبيل النصر، ولو لم يعلق هذا الجندي النقود مكان القطف الذي أخذه، لأصبح هذا الجيش جيش الظالمين، ولقطع رأس هذا الجندي. ولكنه نظرًا لأنه علق النقود ثمن قطف العنب فإنه أنقذ حياته من الموت، ولكن لأنه أخذ العنب دون إذن من صاحبه فقد منعته من المشاركة في الحملة".

ولما أتم القانوني هذه الحملة قابل امرأة مسنة في طريق العودة، أمسكت المرأة بلجام فرس القانوني،

وقالت: "إنني مشتكية منك"

فسألها السلطان: "ولِمَنْ سترفعين تلك الشكاية؟"

فأجابت المرأة: "سأرفعها ضدك في المحكمة الإلهية. لأن جنودك دخلوا حقلي وأفسدوا زرعي"

شعر السلطان بحزن شديد وأحنى رأسه، ودمعت عيناه، وجعل يسعى لتطييب خاطرها حتى رضيت، وسامحته.

ومن الأحداث الأخرى التي وقعت في عهد القانوني: أن امرأة من أهالي إستانبول سُرق منزلها، وكانت تحمل المسؤلية على السلطان فقامت تحاجُّه بين يديه في يوم يستمع فيه القانوني لشكوى الرعية. غضب السلطان وقال للمرأة:

"ما هذا النوم العميق الذي لم يشعرك بسطو منزلك؟"

فأجابت المرأة: "علمنا يا مولاي أنك متيقظ فنمنا في منزلنا على الرحب والسعة".



فقال السلطان للمرأة: "أنت على حق"

ثم أمر السلطان بأن يُدفع لها بدل ما سرق، من ماله الخاص.

❁

كان «أبو السعود أفندي» هو شيخ الإسلام في عهد «السلطان القانوني»، وقد كان الشيخ «أبو السعود أفندي» يعرف الشعر باللغات العربية والفارسية والتركية، إلى جانب تبحره في العلوم الدينية المختلفة، وقد اشتغل بالتدريس والقضاء وكان له كتب وآثار كثيرة.

وذات يوم طلب «السلطان القانوني» الفتوى من «أبي السعود أفندي» بقتل النمل الذي يكون سببًا في إفساد شجر الكمثرى الموجود في حديقة القصر، وكان طلبه هذا عن طريق الشعر:

لو أفسدت النملة الشجرة

فهل من بأس إذا قتلتُ النملة؟

وقد أجاب «أبو السعود أفندي» بطريق الشعر أيضًا عن هذه الفتوى فقال:

عندما نقف في محكمة الحق غدًا

فإن النملة ستأخذ حقها من سليمان!

لقد تربى «السلطان القانوني» تربية معنوية كبيرة بالدرجة التي تمنعه حتى من إيذاء النملة. ولهذا كان قائدًا على دراية كبيرة ورجل دولة ذكيًّا جدًّا، خبيرًا بالتشكيلات، وفي الوقت نفسه عالمًا وأديبًا.

وكان ماهرًا جدًّا في اختيار رجال الدولة، وبالرغم من تسامحه الشديد، كان لا يعفو قط عن التصرفات والحركات التي تكون ضد الدولة والدين.

ولأنه كان يراعي أحاسيس الأمة والجنود كان الجميع يحبه، ولم تكن عنده غاية أو هدف طوال فترة حكمه التي استمرت ٤٦ عامًا سوى إعلاء دين الله.

ومما هو جدير بالتقدير تلك العدالة التي حكم بها رعيته: كان الوزير «محمد باشا» والي «مصر» قد أرسل إلى إستانبول المخصصات السنوية التي ترسل من «مصر» زائدة عن كل عام. ولما علم السلطان بذلك لم يقم بتقدير أو شكر الوالي على هذه الهمة، بل على العكس شك وارتاب فيه وقال:"يا تُرى هل قام هذا الباشا بفرض الأعباء الثقيلة على أهل «مصر» لكى يرسل إلينا هذه الأموال الزائدة حتى ينال تقديرنا، ولو كان قد فعل ذلك فهو بذلك يكون قد ظلم الرعية؟ وأمر باستدعاء المذكور إلى «إستانبول». وتم عمل تحقيق صارم للباشا، وبالرغم من أن نتيجة التحقيقات أثبتت براءة الباشا إلا أن السلطان كان يشك في أمر تلك الأموال الزائدة فأمر بأن تستخدم في الأعمال الخيرية كترميم مجاري المياه وغيرها.

❁

لقد كان «السلطان القانوني» ذا رأي ثاقب، ولما أعطى «فرنسا» بعض الامتيازات اتهمه بعض الجهلاء. والسبب في منح القانوني لـ«فرنسا» هذه الامتيازات هو أن إمبراطور «ألمانيا» كان يريد أن يحكم سيطرته على أوروبا كلها، وكان على وشك تحقيق مقصده هذا بهزيمة «فرنسا» ولكي يعيق «السلطان القانوني» هذا الأمر أعطى لـ«فرنسا» بعض الامتيازات التجارية بمعاهدة وقّعها معهم، تم بموجبها تخفيض نسبة الجمارك على الواردات الفرنسية بنسبة ٥ ٪ وهذا كان يعني القيام بمساعدة مادية كبيرة للفرنسيين، وفي مقابل هذا كانت فرنسا تدفع الضريبة للعثمانيين، وبفضل تلك السياسة التي انتهجها القانوني تمزقت وحدة أوروبا، وزاد نفوذ الدولة العثمانية، ولهذا فإن «مَارْتِينْ لُوثَرْ» كان يقول:

"يا ربي أرسل لنا الأتراك في أسرع وقت ليكون لنا نصيب من عدالتك الإلهية".

لاسيما وأنه كان يقول:

"إن مقاومة الأتراك الذين ينشرون العدل والحق في العالم يُعد كفرًا."

ويتضح من هذا أن زعيماً مسيحياً أيضاً اضطر للاعتراف بهذا الحق أمام العدل الذي ينشره القانوني.

لقد قدّم «السلطان القانوني» يد العون لـ «مَارْتِينْ لُوثَرْ» الذي أحدث مذهبًا جديدًا في المسيحية بالسياسة العالمية التي انتهجها، كما ساعد أعوانه، وبذلك عمل على تخريب العلاقات بين «ألمانيا» و«إسبانيا»، وقد وجد المذهب البروتستانتي الذي أحدثه «مَارْتِينْ لُوثَرْ» رواجًا في «ألمانيا»، وكان هذا سببًا أيضًا في اضطراب العلاقات بين «ألمانيا» وبين الدول التي تسير على المذهب الكاثوليكي، وكانت «إسبانيا» على رأسها. وقبل ذلك كانت هذه الدولة العثمانية أخذت «فرنسا» في جعبتها باتفاقية الامتيازات. فبهذه السياسة تجاه الدول الأوروبية استطاعت أن تمزق القوة الصليبية التي يمكن أن تقاومها.

وثمة فائدة أخرى للامتيازات وهي إعادة طرق التجارة العالمية إلى الدولة العثمانية مرة أخرى، بعدما تغيرت بأسباب مثل اكتشاف أمريكا والوصولِ إلى الشرق الأقصى عبر طريق «رأس الرجاء الصالح». وبالرغم من ذلك تبين أن تلك الامتيازات أصبح ضررها أكثر من نفعها بعد ذلك بسبب تغير الظروف.

لقد كان «السلطان القانوني» يخشى الله ويبذل أقصى ما في وسعه من أجل إحقاق الحق، ولما تم بناء «جامع السليمانية» والكلية الملحقة به، جمع كل العمال الذين عملوا في بناء الجامع، وبعد أن بدأ باسم الله والحمد والشكر له قال:

"يا إخوتي في الدين، لقد تم بناء هذا الجامع الشريف بإذن الله، ولو كان فيكم مَنْ لم يأخذ حقه بطريق الخطأ فليأت ليأخذه، ويمكن أن يكون هذا الشخص غير موجود الآن؛ ولهذا فإنني أرجو من الحاضرين أن يعلموا الغائبين ليأتوا ويأخذوا حقهم".

وتذكر الوثائق أنه تم عمل برنامج حتى للدواب التي استُخدِمت في أصعب أوقات البناء. روعي في هذا البرنامج أوقات الاستراحة والرعي للدواب. وبذلت جهود جبارة من أجل المحافظة على حق المخلوقات أيا كان. ولعل إظهار القانوني كل هذه الرعاية لحقوق العباد والدواب في تأسيس هذا الجامع الكبير، كان أحد الأسباب الرئيسية لتلك الأسرار والروحانيات التي توجد في جامع السليمانية.

وقد تأسست كافة الآثار العظيمة في العمارة الإسلامية التركية في عهد القانوني على يد المعماري الكبير «سنان» وجامع السليمانية أشهر أعماله. وقد روعي في إنشاء هذا الجامع أمور دقيقة. حتى إنهم لم يضعوا الأحجار في أماكنها إلا على وضوء. وهذا التعبير الذي انتشر بين الأهالي يعبر عن هذه الحقيقة: "صاحب السليمانية سليمان، ومؤسسه سنان، وطينته الإيمان".

بدأ فيه العمل بوضع حجر الأساس على يد «أبي السعود أفندي» شيخ الإسلام، واستمر العمل فيه سبع سنوات من عام ١٥٥٠ إلى عام ١٥٥٧م.

❁

وقد أظهر القانوني سمة من سماته العالية أثناء افتتاحه حيث قال:

"ليأت «المعماري سنان» وليفتتح الجامع، فإنه من صنعه وهو الأولى بذلك".

فأجاب سنان على السلطان بقوله:

"يا مولاي السلطان! إن الخطاط «قَـرّه حِصارِي» قد فقد بصره أثناء كتابة خطوطه، فليمنح هذا الشرف له". فأمر «السلطان القانوني» بأن يفتتحه «قَـرّه حِصارِي».

لقد كان «جامع السليمانية» تجسم الروح الإسلامية في المادة فمنظره من بعيد يشبه شبح إنسان يمد يده إلى الله بالدعاء، وقد انطبعت مسحة روحانية العبادة على الشكل المعماري، أي أن المعنى انعكس بكمال لا يوصف على المادة، فالمسجد من الداخل ليس به مكان مظلم، وبذلك يتجه المؤمن إلى عالم داخلي من خلال الحماس القلبي، كالماء الجاري، لقد اكتسبت أحجاره وطينته المعنى، فالمسجد يشبه الإنسان الذي يشرح أشياء كثيرة، ولكنه صامِت، وفي أرضيته يمكن تخيل آثار السجود الذي استمرت طوال خمسمائة عام، وخيالات الجنود الذين أتوا إلى المسجد ورحلوا ولم يعودوا، لقد كان عملاً عظيمًا بدرجة لا يمكن تصوره واستمدت مادة هذا المسجد عظمتَها من المعنوية. لقد كان طوال التاريخ مكان الدعاء للانتصارات المشرفة، وما

أجمل ما عبر به الشاعر الأديب «يحيى كمال» عن روحانية هذا المعبد حينما قال:

الكل يأتي إلى بابه سواء من الأرض أو من السماء
يدخلون بعضهم تلو البعض إلى هذا البناء الإلهي
ليكون أجمل معبد لدين هو خاتم الأديان
وهذا هو جوهر الشكل للعمارة التي تخيلها الفن المعمارى
وعندما يكبّر الناس في صوت واحد
تصبح موجات الصوت كأنها صوت واحد

لقد بذل «المعماري سنان» كل جهده من أجل بقاء هذا الأثر إلى يوم القيامة. ودعا بهذا بعد ذلك، وقد صنع «المعماري سنان» قبرًا متواضعًا له في إحدى الزوايا وكأنه توقيع متواضع في زاوية المسجد، وكأنه بذلك يطلب من كل مَنْ يأتى إلى هذا المكان أن يدعو له، فله في الأراضي العثمانية ٢٣٠ أثرًا، وقد أوصل «المعماري سنان» العمارة الإسلامية إلى ذروتها، وبقاء آثاره ثابتة ومتينة حتى اليوم لم يتجاوزه أحد في الفن المعماري، هذا أمر دعا إلى حيرة العالم كله اليوم. ولو استطاع معماري اليوم أن يقلد عملا واحدًا من أعماله فإنه سيسمى حينئذ أعظم المعماريين؛ لأنه لم يكن أحد يتفوق على هذا المعماري العثماني.

وبرزت في عهد «السلطان القانوني» أسطورتان فنيتان؛ الأولى جامع السليمانية في العمارة، والثانية المرثية التي نظمها الشاعر باقي، وسنذكر بيتًا من تلك المرثية:

إنه السلطان العظيم ملك بلد السعادة
إذا تجول على فرسه فإن العالم كله يكون ضيقًا عليه

ولأن القانوني كان صاحب قلب حساس للغاية، فقد عمل هذا على توجهه إلى فن الشعر، وله أشعار جميلة للغاية بمخلص "المحبي"، وعدد الغزليات التي في ديوانه تبلغ ٣٠٠٠ غزلية، والبيت التالي من الأبيات الجميلة التي نظمها وهو على فراش الموت:

ليس عند الناس شيء أكثر اعتبارًا مثل الدولة

ليس في العالم دولة تعادل نَــفَساً واحدًا في حالة الصحة

والأبيات التالية من أشعاره المشهورة المتعلقة بالبطولة:

لنقُلْ الله ولنرفع راية السلطان

نوجه الجنود إلى الشرق

ولنجعل نطاق الهمة يحيط بنا من كل جانب

لنقطع هذا الطريق وليصبح كل واحد منا أشعث بالتراب

.....

عندما يفرض الجهاد علينا

فيكون ذنبًا لو قعدنا ولم نجاهد

وليكن أبو بكر وعمر أدلاء لنا

يا محبي اسحب الجنود إلى الشرق



أما الأوقاف التي كانت مؤسسات تعبر عن الحب والشفقة بالمخلوقات من أجل الخالق، فإنها قد وصلت إلى ذروتها في عهد القانوني، فقد أُسست الجوامع والمدارس والمكتبات والحمامات والنزل والعمارات الخيرية والجسور والأسبلة، وبذلك حصل توازن مادي ومعنوي في المجتمع، وكانت الخيرات تذهب إلى المحتاجين عبر الجامع، حتى أصبحت الجوامع بمثابة عش المحبة للمجتمع الذي يتعاون فيه الغني مع الفقير والسليم مع المريض وصاحب الحيلة مع عديم الحيلة. وهذه الجهود والنشاطات أكسبت أفراد المجتمع المضطربين حضن الأم الدافئ.

لقد كان التساند الذي هو نموذج التآخي الواقع بين المهاجرين والأنصار في عهد الصحابة، قدوة ملأت المجتمع بالفيض والبركة.

وفي هذا العهد أيضًا حدث هناك نوع من التكامل بين الناحية الظاهرية للدين وبين الناحية الباطنية أي الناحية التي تنزل إلى العمق الروحي وإلى أفق القلب والوجدان. وتربى فيه رجال القلب الكبار الذين عملوا على تكامل أحاسيسهم الروحية، التي هي رأس مال حياتهم الأبدية من خلال حكم القرآن والسُنة. ونذكر هنا بعضًا من هؤلاء الرجال الذين كانوا بمثابة المرشدين للأمة ومنبع الفيض لها: إنه «الحاج محمد البَدَخْشِي» من سلسلة السعادة، والشيخ «سُنْبُلْ أفندي»، والشيخ «إبراهيم الكُلْشَني»، والشيخ «مَرْكَزْ أفندي»، و«خِضِرْ أفندي» وهو من الأربعين، والشيخ «يحيى أفندي»، والشيخ « قره داود أفندي»، و«شيخ زاده» الذي كتب حاشية على «تفسير البيضاوي»، و«الحلبي» صاحب كتاب «الملتقى» في الفقه، والخطاط «مصطفى دَدَه» ابن الشيخ «حميد الله»، وغيرهم.

وقد كان هؤلاء الأشخاص وأمثالهم مثل النجوم اللامعة التي ينعكس نورها على القلوب في سماء إمبراطورية مثل ليلة كانت منيرة بضوء القمر، وامتلأت بالشخصيات التي تربت على أيديهم نماذج كثيرة لا مثيل لها في العالم. وقصة الشهيد الذي لم يترك رأسه من القصص المشهورة جدًّا بين الناس وهي قصة نقلها المؤرخ «پَچوِي» وكانت القصة على ما يلي:

في ميناء صغير يُسمى «جِريجَالْ» يقع على ستة منازل من «زيجَتْوَارْ»، وكان في يد العثمانيين، إلاّ أن هذا المكان كان تحت تهديد الأعداء بشكل مستمر نظرًا لأن «زيجَتْوَارْ» لم تكن قد فُتحت بعد، وفي إحدى الحملات قام الأعداء بحصار هذا المكان الصغير، وطلب قائد العدو «قَراچينْ» من القائد العثماني «أحمد بك» تسليمه لهم، إلاّ أن العثمانيين لم يقبلوا بذلك، وقرروا خوض الحرب مع الأعداء، كان اليوم يوم الجمعة الموافق وقفة عرفات، فقام القاضي بإلقاء خطبة ترغب المقاتلين في الجهاد وقال:

"إن الهجوم بعد صلاة الجمعة أفضل وأنسب" وبعد أداء الصلاة قام جنود الإسلام بالهجوم على جنود الأعداء، وكأنهم سهم منطلق من القلعة، مصاحب

بنداءات الله! الله! كان يدير الجناح الأيمن «الغازي محمد بك»، أما الجناح الأيسر فكان يديره «الغازي خُسْرَوْ بك»، وبدأ قتال عنيف مع الأعداء، وفي أصعب أوقات المعركة أُستشهد «الغازي محمد بك»، وقد انفصل رأسه عن جسده، وأخذ جندي من جنود الأعداء رأسه وبدأ يبتعد بسرعة، ولما رأى «الغازي خُسْرَوْ بك» هذا المنظر صاح وقال:

"يا محمد! هل يليق بفتى أن يعطي رأسه العدو؟ لقد أسلمتَ الروح فلا تعط الأعداء رأسك!..".

وقبل أن يتم « خُسْرَوْ بك » تلك الكلمات المحزنة نهض الشهيد محمد بَكْ من الأرض، وسار خلف الأعداء بدون رأس حتى لحق بمَنْ في يده رأسه وأخذ منه رأسه وأسقطه على الأرض ثم وقع على الأرض ولما رأى القاضي تلك الحادثة العجيبة تعجب جدًّا، وبعدها بفترة اضطرب جيش الأعداء، وهُزم ودُفن الشهيد «محمد بك» مع بقية الشهداء في نفس المكان الذي أُستشهدوا فيه.[1]

❀

لقد تقوى «السلطان سليمان القانوني» الحاكم العظيم بهذه القوى المعنوية وحكم قسمًا كبيرًا من العالم وأجرى التاريخ بمجرى رسمه بيده، وأصبح بشخصيته وإجراءاته ممثلاً لعظمة لا مثيل لها في العالم.

وحملة «زيجَتْوَارْ» التي شارك فيها بينما كان ضعيفًا مسنًّا منهك القوى، دليل كافٍ على قوى إيمانه وغيرته وحب الجهاد الموجود في روحه.

اشترك «السلطان القانوني» بنفسه في الحملات والفتوحات التي تمت في عهده، وكان قائدًا عليها كلها، ولما كان «السلطان القانوني» على وشك الخروج إلى حملة «زيجَتْوَارْ» التي كانت آخر حملاته أتى إليه الوزير الأعظم «صوقولْلُو محمد باشا»

١. حكاية الشهيد الذي لم يترك رأسه لـ«عمر سيف الدين» مستوحاة من تلك الحادثة.



وقال له: "يا مولاي السلطان! لقد أهديت إلى الأمة الكثير من الفتوحات، وتعبت، فقد أوقفت عمرك على خدمة العالم الإسلامي، وتعرّضُك للتعب في هذه الحملة مشكلة لك، ولهذا يمكنك البقاء في «إستانبول» ونحن الوزراء والباشاوات نذهب إلى القتال، ولا تقلق أنت".

فرد عليه السلطان العظيم بقوله: "اسمع جيدًا يا صوقولْلُو! هذه وصيتي، وعليكم نقلها إلى الأجيال التي ستأتي من بعدي، يجب على السلطان أن يشارك في كل حملة؛ لأن وجوده بجوار الجنود يزيد من شجاعتهم، كما أن العدو إذا ما رأى السلطان يشارك في الحملة أدرك أن الحملة قوية، وبالتالي تختل الروح المعنوية لديه، فيخسر المعركة لأن القائد الأصلي في النصر هو القوة المعنوية، ونحن لنا خبرة كبيرة وعديدة في الإدارة منذ أن كنا صغارًا، وهذه الخبرة يمكن الاستفادة منها في الأوقات الصعبة في الحملات، ولتعلم أن اللحظات والدقائق يمكن أن تغير الأوضاع، ولهذا فإنه بالرغم من شيخوختي سأشارك في الحملة!!. ولو أنني بقيت في القصر ومت فيه فكيف سأقف أمام أجدادي الفاتحين يوم القيامة؟

فقال صوقوللو: "الأمر لمولاي السلطان" فسكت.

وكانت هناك مشكلة وهي أنه كيف سيظل السلطان منتصبًا على ظهر جواده طوال تلك الرحلة التي ستستغرق شهورًا؟ لأنه كان يجب أن يراه الجنود منتصبًا على الجواد، فقاموا بلف حبل قوي مثل النطاق حول ظهره لكي يبدو وكأنه منتصب على الجواد.

بدأت الحملة وكان الطقس شتويًّا، ومرة انغرست عربات المدافع في الطين، ولم تكن لدى الدواب القدرة الكافية على جر العربات من الطين، تقدم الجيش، وكان القليل من الجنود والباشوات في تلك النواحي، فأمر السلطان بأن يشترك الجميع بما فيهم الباشوات وأركان الجيش بإخراج العربات من الطين.

نزل الجميع في المستنقعات الطينية، وبالقوة المعنوية التي عندهم تمكنوا من إخراج العربات، ثم التفت السلطان إلى كاتب الوقائع وقال له:

"سجل هذا ليقرأه الجيل التالي، ويكون بمثابة العِبرة له، اكتب أن وزراء وباشوات القانوني نزلوا في الطين، وحملوا عربات المدافع على أكتافهم، وتمكنوا من التخلص من تلك الفاجعة بحول الله وقوته".

لقد أهدى القانوني للتاريخ وللأجيال القادمة من بعده قدوة حسنة تشكل القمة في بذل الجهد للجهاد في سبيل الله.

إن طلب القانوني الشهادة في تلك الحملة كان بسبب نضجه الروحي. وبعد حملة «زيجْتَوَارْ» التي ختم بها «السلطان القانوني» على سلطنته، رفع يديه إلى السماء ودعا ربّه قائلاً: "يا ربي! لقد ملأت الأرض بانتصاراتي، ولم يكن لي حلم أو دعاء إلا وحققته، فاجعل لعبدك الحقير الآن نصيبًا من الشهادة وبعدها نعمة مشاهدة جمالك بحرمة حبيبك ورسولك"

وبعد هذا الدعاء تُوفي القانوني وكان بذلك رابع سلطان عثماني يتوفى أثناء الحرب.

رحمة الله عليه!..

❀

وصل نعش «السلطان القانوني» إلى «إستانبول» تحت إشراف ٤٠٠ حارس، إلى مصلى «جامع السليمانية»، وأديت صلاة الجنازة عليه باشتراك ٥٠٠ مؤذن كانوا ينقلون التكبيرات بعضهم بعضا ليسمعوا الحشد الكبير. فقد وصل الصفوف بكثرته حتى جامع الفاتح.

وعند إنزال نعش القانوني إلى القبر تم إحضار صندوق، وطُلب أن يوضع الصندوق في قبره بناءً على وصيته، ولكن شيخ الإسلام «أبا السعود أفندي» اعترض على ذلك، وأوضح أن وضع الأشياء القيمة مع الميت في القبر غير جائز، ولما علم «أبو



السعود أفندي» أن هذه وصية القانوني أوصى بها قبل وفاته شغف بفتح الصندوق لمعرفة ما فيه، فوجد أنها كلها الفتاوى التي حصل عليها القانوني منه. فتعجب وقال:

"أيها السلطان العظيم! لقد أنقذت نفسك، ولكن الدور علينا ماذا سنفعل يوم القيامة غدًا؟" ثم بكى.

وذلك لأن القانوني كان لا يفعل أي شيء إلا بفتوى. ثم بعدها يقوم بفعله.

❀

وعلى هذا يتضح أن أجدادنا العظام لم يميلوا إلى المشاعر النفسية المتدنية، بل عاشوا حياة كلها وقار ممتلئة بالأحاسيس والنضج الروحي. كانوا يعيشون بطمأنينة وجدانية تمكنهم من الوصول إلى جوهر الإنسان، لقد كانوا يمثلون نموذجًا ظريفًا وحساسًا ورقيقًا لطرز وشكل المعاملة الإسلامية للمخلوقات ولكل الناس. وكانوا في تصرفاتهم السامية دليل السعادة لَمَنْ يعيشون تحت حكمهم وللأجيال القادمة.

اللهم ارزقنا بنصيب من الإقليم القلبي والروحانية العالية لأجدادنا العظام، واملأ العالم الإسلامي الذي يعيش حالة من الاضطراب وقلة الحيلة في بدايات القرن الواحد والعشرين بسعادة عيد مبارك!..

آمين!..







النموذج المثالي للمحبة الملحمية تجاه النبي ﷺ

السلطان أحمد الأول

(١٥٩٠-١٦١٧م)

السلطان العثماني الرابع عشر.

جلس على العرش وهو في الرابعة عشرة من عمره، واستمرت سلطنته أربعة عشر عامًا، وتحفته الفنية الرائعة «جامع السلطان أحمد» تعد أجمل ذكرى وهدية معنوية تركها لنا حتى اليوم.

عند جلوسه على العرش كانت الدولة تواجه ثورة الجَلالِيّين في الداخل وحروب «إيران» في الشرق، و«ألمانيا» وحلفائها في الغرب، وقد اضمحلت «ألمانيا» تمامًا وطلبت الصلح، حتى تم توقيع «اتفاقية زيتْواتُورُكْ». وفي عام ١٦١١م تم القضاء كليًا على ثورات الجلاليين. وكان الدور حينئذ على الكارثة الثالثة «إيران»، على أية حال تم عمل اتفاقية مع «إيران». وفي الوقت نفسه تم اكتساب انتصارات مهمة للغاية في البحر الأبيض.

كما تم فتح قلعة «أَسْتَرْكُونْ» و«أويْوارْ» عام ١٦٠٥م، وقد كان النصر الذي اكتسبه العثمانيون أمام «أويْوارْ» بين جيشين غير متوافقين من حيث القوة، لدرجة أن القول القائل: "قوي مثل التركي" أصبح من ضروب الأمثال في أوروبا. وفي نفس تلك السنة اكتسب العثمانيون نصرًا مهمًّا آخر في حملة النمسا، وتم تتويج ملك المَجَرْ، كما تمت حملة «مالْطا» البحرية.

❀

ويعتبر السلطان «أحمد الأول» من أندر السلاطين العثمانيين الذين كانوا يهتمون بإدارة شؤون الدولة بأنفسهم وعن قرب بعد «السلطان القانوني».

جلس على العرش في سن صغيرة، واتخذ قرارات مهمة وجيدة في هذه السن بفضل ذكائه وتعمق روحه، وعمل بذلك على توجيه الدولة.

كان دائمًا ما يستشير أصحاب العلم والعرفان، كما كان طالبًا ناجحًا لـ«عزيز محمود هدائي».

وكما أن تربية «الغازي عثمان الأول» المعنوية على يد الشيخ «أدبالي» كانت من العوامل التي أدت إلى وضع أسس الدولة، فإن تربية «السلطان أحمد الأول» أيضًا على يد «عزيز محمود هدائي» كانت قد جعلته يقطع المسافات الكبيرة في عالم المعنوية وتعلي من شأنه، وإلى جانب مزاياه الظاهرية أظهر أيضًا سياسة كبيرة تعكس بصورة ملحوظة الرحمة والعدل على الدولة.

ولهذا فإن «السلطان أحمد الأول» تعلق تعلقًا كبيرًا بالشيخ «عزيز محمود هدائي»، وقد كان هذا التعلق وهذه المجلوبية سببًا في وصول السلطان إلى القمة في عالم المعنوية بالرغم من الإمكانيات الكبيرة التي كانت لدى السلطنة.

وقد بدأ تقدم «السلطان أحمد» في طريق الكمال بتلك الرؤيا التي رآها:

رأى «السلطان أحمد» في منامه أنه صارع ملك «النمسا»، وفي أثناء المقابلة سقط على ظهره والتصق ظهره بالتراب، فاستيقظ خائفًا، وحزن؛ لأن ظاهر الرؤيا كان مخيفًا.

وقام بدعوة المفسرين إلى القصر، وبعد أن قام المفسرون بتعبير الرؤيا لم يطمئن «السلطان أحمد» للتفسير، فأوصاه رجال الدولة بأن يقص رؤياه على «عزيز محمود هدائي» الموجود في «أُسْكُدارْ» ليفسر له تلك الرؤيا، فكتب السلطان رسالة إلى الشيخ يذكر فيها رؤياه ويطلب تفسيرها.

أخذ الرسول الرسالة، وطار بها إلى «أُسْكُدارْ»، ودق باب «عزيز محمود هدائي»، فتح عزيز محمود الباب وكان في يده ظرف أعده من قبل، وبينما كان يتسلم رسالة السلطان سلمه الظرف الذي في يده وقال له:

"إن الرد الذي ينتظره سلطاننا في هذا الظرف".

أخذ الرسول الرد في حيرة ورجع إلى السلطان بسرعة، وشرح له ما حدث.

لقد رد «عزيز محمود هدائي» على رسالة السلطان دون أن يقرأها أو يعرف ما فيها بطريق الكرامة. قرأ «السلطان أحمد» الرسالة بشغف ووجد فيها ما يلي:

"لقد خلق الله تعالى ظهر الإنسان أقوى قسم في بدنه، وخلق في الكون أقوى شيء التراب، وإذا ما رأى شخص أن ظهره يلتصق بالتراب فإن هذا يعني اجتماع هاتين القوتين؛ والتصق ظهر سلطاننا بالتراب كذلك، وهذا يعني أن سلطاننا سيكون قويًّا لاتحاد القوتين معًا، ويتضح من هذه الرؤيا أن سلطاننا الذي يمثل الإسلام له النصر أمام الكفار".

فرح «السلطان أحمد» بهذا التأويل جدًّا، وقال:

"إن هذا هو التعبير الحقيقي للرؤيا التي رأيتها".

وقد كانت تلك الرؤيا تبشر بفتح قلعة «أَسْتَرْكُونْ» ولأن السلطان فرح جدًّا بهذه البشارة خرج إلى النمسا بعد أن حصل على الدعوات من عزيز محمود هدائي، والتقى الجيش العثماني مع القوات العثمانية المرابطة على الحدود، وأنزلوا الضربات بالنمسا، مما اضطر النمسا إلى طلب الصلح، وقد اضطرب النمساويون جدًّا، خاصة بعد استيلاء العثمانيين على «أَسْتَرْكُونْ» وبذلك انتهت الحرب العثمانية النمساوية

التي استمرت ١٣ سنة في «زيتْواتُورُكْ» وتم توقيع معاهدة سلام لمدة ٢٠ عامًا، وقد قضت تلك المعاهدة بأن تأخذ الدولة العثمانية قلاع «قَانِجَه» و«أسْتَرْكُونْ» و«أَكْرِي» واضطرت النمسا لدفع تعويضات عن الحرب.

لقد اكتشف السلطان أحمد خان الأول بذلك عظمة عزيز محمود هدائي، وزاد هذا الانتصار من تعلق السلطان به.

وهذا كله يُظهر أن توجيه وإرشاد المرشدين في كل عصر كان بمثابة الحضن الدافئ الرحيم الذي يحتضن رجال الدولة عندما كانت صدورهم تضيق بالغوائل التي تظهر لهم. وقد كان هؤلاء الحكام الذين يلعبون دورا كبيرا في أقدار الرعية بحاجة ماسة إليهم. وتُظهر أيضًا أن كل الانتصارات التي تمت بدون تلك الروح المعنوية لا يمكن الحكم عليها - حتى ولو كانت كبيرة - بأنها انتصارات حقيقية. من ذلك على سبيل المثال قطع «أتِيلْلا» مسافة ٧٠٠٠ كم من «قَــرَه قُورُومْ» إلى وسط أوروبا، ولكن إذا ما نظرنا إلى ما خلّفه هناك نجد أنه خلف وراءه الدماء والآلام والدموع، وهذا بالطبع ليس انتصارًا، بل حركة ظلم.

ومعركة «أنْــقَــرَة» التي كانت بين «تِيمُورْلَـنْـكْ» و«بايزيد الأول» اندلعت بسبب مجادلة نفسانية انتهت بعاقبة محزنة، وكانت النتيجة ظهور مأساة الأرامل والأيتام، لأن تلك المعركة انتهت بقتل عشرات الآلاف من المسلمين، واستشهاد «بايزيد» بشكل محزن، حتى «تِيمُورْ» عاد من تلك المعركة خالي الوِفَاض بالرغم من قطعه لمسافة ٤٠٠٠ كم.

❀

شاهد السلطان أحمد الأول كرامات عزيز محمود هدائي وبالتالي جعل نفسه تلميذًا معنويًّا له، وقد وصل السلطان إلى كمال شخصيته بفضل تلك التربية المعنوية التي حصل عليها منه. ويمكن القول: إن السلطان أفنى نفسه في الشيخ فأصبحا واحدًا.

بمقابلة الأبيات التالية يتضح مدى اشتراك السلطان أحمد الأول وعزيز محمود هدائي في هذا المقام، وهذه الأسرار السابحة في سماء عالم المعنى:

شعر عزيز محمود هدائي:	**شعر السلطان أحمد الأول:**
الذاكر يصل إلى الصفاء	بيت القلب يصبح مليئًا بالنور
بأنوار ذكر الله	بأنوار ذكر الله
يصل العاشق إلى الله	ويكون إقليم القلب عامرًا
بالإكثار من ذكر الله	بعمارة ذكر الله
العاشق إلى حبيبه	«بختي» يقر لك
يدخل ميدان الفناء	ويكرر توحيده
وقد وصل إلى إحسان الله	ويُشعِر بإخلاصه
بإيثار ذكر الله	بأشْعَار ذكر الله

وتوضح تلك الأبيات أنهما كانا جسدين في روح واحدة.

❀

وقد دعا السلطان أحمد كافة العلماء والمشايخ المشهورين في عصره لحضور مراسم وضع حجر الأساس لجامعه الذي يُعد معجزة فنية.

وكان عزيز محمود هدائي هو أول مَنْ وضع حجر الأساس للجامع. أما السلطان أحمد الأول فقد شارك في ذلك اليوم في التأسيس ماسكًا في يده المعول كأي عامل بسيط. وتوجد رواية خاصة بالخصوصية المعنوية لهذا الجامع وهي على ما يلي:

بعد أن تُوفي السلطان أحمد الأول في سن الشباب رأته ابنته «جَوْهَرْ خاتونْ» في منامها. رأته في مكان جميل في الجنة، فسألته باستغراب:

"بأي عمل وصلت إلى هذا المقام الجميل، يا أبي؟"

فقال لها: "يا ابنتي! إنني حملت الحجارة على ظهري أثناء تأسيس المسجد. وهذا هو سبب وجودي في هذا المقام."

وفي نفس تلك الرؤيا رأت «جَوْهَرْ خاتونْ»، شقيق السلطان أحمد يقول لها:

"أما تأتين إلينا بعد؟ هيا لتلدي طفلك الثاني ثم تعالي".

حقيقة إن «جَوْهَرْ خاتونْ» كانت في تلك الأثناء حاملا في طفلها الثاني. فخافت جدًّا، ودَعَتْ المفسرين ليفسروا لها الحلم، وبالرغم من أن المفسرين قاموا بتأويل الحلم، إلا أن معناه كان واضحًا. فقد ولدت «جَوْهَرْ خاتونْ» طفلها الثاني وتُوفيت بعدها بيومين أو ثلاثة أيام.

❀

أما من حيث اتساع رقعة أراضي الدولة العثمانية في عهد السلطان أحمد الأول فيمكن القول بأن أراضي الدولة في عهده وصلت إلى أقصى نقطة لها ثم توقفت عندها. لقد كان ملوك العالم ينحنون أمام عظمة تلك الدولة، لدرجة أن صدورها العظام كانوا هم الذين يُتَوِّجُون على رؤوس هؤلاء الملوك.

ولا يعتبر هذا العهد عهد التوقف والمصائب كما يزعم بعض مفكرينا الغافلين، بل على العكس كان عهدًا عظيمًا زيّن به المفكرون الأوروبيون خيالهم. وهذا هو المفكر الإيطالي «كامْبَـنَـلّا» الذي قاوم الظلم وقمع الحريات وقضى معظم عمره لهذا السبب في السجون[1] صوّر في كتابه (بلد الشمس) البلدة النموذجية التي لن تنهار، أرسل رسالة إلى أحد أصدقائه ذكر فيها المعلومات التالية عن الدولة العثمانية وهي كافية لإيضاح الأوضاع في هذه الدولة في تلك الأوقات فقال:

"أنا أتشوق إلى بلد الشمس، دولة لا يكون فيها ظلام، ولا يعرف أهلها معنى الظلام، هل يمكن أن تكون هناك بلدة بهذا الشكل على وجه الأرض؟ لا أعلم ولكن وجود دولة عظيمة كدولة العثمانيين فيها المساواة بين المسلم وغير المسلم وفيها إحقاق الحق وحرية الفكر والوجدان واللسان تجعلني أظن بأنها ستكون هي تلك الدولة في المستقبل. ما دام في العالم اليوم أمةٌ كالأمة التركية التي لا تُلقي بالفكر في الحبس، ولا السجون ولا تضرب بالسلاسل على حب الحقيقة، فلماذا لا تكون هناك دولة يسير فيها العدل والحرية والحقيقة!".

---

١. كما هو معروف من قبل الجميع في ذلك الوقت ما حدث لـ«جَاليلَيو» الذي حكم عليه بالإعدام لأنه كان يقول بأن الكرة الأرضية تدور.



لقد كان عهد السلطان أحمد الأول كهذا العهد، لقد تمكن من إظهار النجاح بالدرجة التي تجعل حتى الأعداء يغبطونه، وتدل على أن كماله المعنوي كان بالتأكيد سببًا في هذا إلى جانب كماله الظاهري. وقد أمر بتأسيس زاوية صغيرة في أحد أركان جامعه الكبير ليتعبد فيها، ويتوجه بقلبه إلى عالم المعنى عندما تكثر عليه شؤون الدولة. ففي تلك الزاوية كان يعيش حالات المراقبة ويكون مع الله فقط.

وأثناء تأسيس السلطان أحمد الأول جامعه أمر بجلب آثار أقدام النبي التي تسمى بـ«نَقْشِ قَدَمْ» وكانت موجودة في قبر «السلطان قَايِتْبَايْ» في مصر ووضعها في قبر أبي أيوب الأنصاري، وبعد إتمام بناء الجامع، وُضعت هذه الآثار في جامع السلطان أحمد.

وفي اليوم الذي تم نقل آثار أقدام النبي إلى الجامع رأى السلطان في منامه أنه قد أقيم مجلس اجتمع فيه السلاطين كلهم، وأن النبي ﷺ كان يجلس في مقام القاضي بينهم، كان ما يشابه المحكمة، حيث رفع «السلطان قَايِتْبَايْ» دعوى أمام النبي على السلطان أحمد لأنه أخذ آثار أقدام النبي التي كانت وسيلة لزيارة الناس له وحملها إلى إستانبول. فحكم النبي بإعادتها إلى مكانها".

استيقظ السلطان فجأة خائفًا مضطربًا، وجمع كافة المشايخ والعلماء وفيهم عزيز محمود هدائي وأمرهم بتفسير الرؤيا، وقالوا له: "يا مولاي السلطان! إن الرؤيا واضحة، ولا تحتاج إلى تعبير، يجب عليك أن تعيد هذه الأمانة إلى مكانها."

أحنى السلطان رأسه أمام القرار وأمر بإعادة الآثار إلى مكانها وهو حزين، وأمر بصنع ماكيت لها وعلقها على عمامته لتتبرك بها، والأبيات التالية تعبر بأجمل معنى عن قلبه المحترق بحب رسول الله ﷺ:

يا ليتني أحمل كالتاج على رأسي
قدم حضرة النبي المباركة هو شاه الرسل
صاحب تلك القدم هو وردة حديقة النبوة
يا أحمد! امسح بوجهك قدم هذا الوَرْد

ويروى أنه عند إتمام بناء جامع السلطان أحمد وكليته دعا السلطان عزيز محمود هدائي لافتتاحه، ولأن البحر كان هائجًا مضطربًا في ذلك اليوم لم يجرؤ أحد من البحَّارة أن يركب قاربه وينزل إلى البحر، ولكن عزيز محمود هدائي حمل معه خمسة أو ستة من مريديه ونزل القارب وسار في البحر الهائج، ولكن جعل إرادة الله المكان حول القارب هادئًا لم يمسه أي من الأمواج المتلاطمة، وبهذا تمكن عزيز محمود هدائي من الوصول إلى بر الأمان بالرغم من أن الجميع كانوا لا يجرؤُون على نزول البحر.

افتتح جامع السلطان أحمد للعبادة بمراسم فخمة، وتم أداء صلاة الجمعة فيه بخطبة خطبها عزيز محمود هدائي تبركًا به

وإلى الآن يُطلق عل هذا الطريق الذي سار منه هدائي من أُسْكُدارْ إلى سَرايْ بُورْنُو اسم «طريق هدائي». وفي الأوقات التي يكون الموج فيها هائجًا يسير البحَّارة منه، وهذا يدل على أن هذه كرامة ظاهرة من زمن هدائي إلى اليوم.

❁

وكان السلطان أحمد يتجول ذات يوم في السوق بفرسه وصادف عزيز محمود هدائي في السوق فنزل من على ظهر الفرس، وأمر العزيز بأن يركب مكانه وسار السلطان مترجلا خلفه، ولأن عزيز محمود هدائي كان لا يرضى بأن يركب والسلطان يسير مترجلا خلفه نزل من فوق الفرس بعد قليل وقال للسلطان: "لقد ركبت تنفيذًا لأمر مولاي السلطان وتحقيقًا لدعاء شيخي لي". وذلك لأن «الشيخ أُفْـتادَة» دعا للشيخ عزيز محمود هدائي قائلاً: "ليسر السلاطين وراءك وأنت راكب" وبذلك تحققت دعوته له.

وقد أثرت تلك الحادثة كثيرًا في السلطان أحمد الأول وعبر عن هذا التأثير بالأبيات التالية:

قدّمت إلى الحق ثروتي ولم يبق لي ثروة أخرى

وسحبت يدي منها كلها أي من العالَمَيْن.

لأن حب الله أدركني وجذبني إليه

وفتحت بصيرة قلبي، لم يبق شبهة عندي في ذلك

لقد أحرقـتـني همة الأولياء وانتفت الأنانية مني

ولهذا أصبحت نقيًّا فَلَمْ يكن لي رغبة في العالَمَيْن

يقول أحمد يا إلهي أنا أشكرك كثيرًا

والحمد لله أنه لم يبق لي سوى عشق الله

وقد استمرت همة عزيز محمود هدائي على السلطان أحمد طوال حياته. والحادثة التالية توضح ذلك: خرج السلطان أحمد للتنزه مع بعض أركان الدولة، وبينما كانوا يستريحون في أحد الأماكن قام الخدم بذبح شاة وطبخوها، وقدموها للسلطان، بدأ السلطان بالبسملة ليأكل، وبمجرد أن مد يديه إلى الطعام ظهر عزيز محمود هدائي صائحًا: "احترس يا مولاي! الطعام مسموم" فلما قطع من اللحم قطعة وألقاها إلى كلب فمات الكلب.

كان السلطان يكرم عزيز محمود هدائي كثيرًا ولا يقصر في إظهار الرعاية له، وذات يوم كان عزيز محمود في القصر مع السلطان ولما أراد تجديد وضوئه أحضروا إبريق الماء فأخذ السلطان الإبريق وصب الماء لأستاذه تعظيمًا وتكريمًا له، بينما كانت أم السلطان تقف خلف الستارة بالمنشفة تنتظر فراغه من الوضوء. وفكرت أم السلطان في نفسها: "ليتني أرى كرامة للشيخ عزيز محمود هدائي" وعلى هذا قال عزيز محمود هدائي مطلعا على ما جرى في خاطرها: "يا للعجب؟ البعض يطلبون مني أن أظهر كرامة. إن خليفة وجه الأرض يصب لي الماء وأمه المحترمة تمسك لي بالمنشفة، أليست هذه أكبر كرامة؟"

وأثناء حديث السلطان مع عزيز محمود هدائي سأل السلطان عزيزًا قائلاً:

"يقولون إن عبد القادر الجيلاني سيشفع يوم القيامة للمذنبين وطلابه، فما رأيكم في هذا؟"

لم يجب الشيخ مباشرة على السؤال واستغرق في التفكير قليلاً ثم قال:

"نعم صحيح، سيشفع الجيلاني للمذنبين من طلابه يوم القيامة."

فقال السلطان: "وأنت ألن تعدنا بشيء وتبشرنا به الآن؟"

فرفع عزيز محمود هدائي يده إلى السماء وقال:

"يا ربي! إن كل من سار على طريقنا، وأحبنا فيك وزارنا بعد موتنا وقرأ الفاتحة علينا -ولو مرة في حياته- فهم إخواننا.. اللهم لا تمتهم غرقا، ولا تذقهم في آخر عمرهم فقرا، وارزقهم حسن الخاتمة وأعلمهم بوفاتهم!.."

ويؤكد كل العلماء والأولياء بأن دعاء الشيخ قد قُبل ولم يمت واحد ممَنْ سار على نهجه غريقًا، وأن كثيرًا منهم كان يحس بموعد اقتراب أجله.

مرض السلطان أحمد خان في عام ١٦١٧-١٠٢٦هـ. حيث ظهر جرح في ظهره، وبينما كان «المابَيِنْجي مصطفى» عند السلطان قبل وفاته بيوم سمع السلطان يرد السلام أربع مرات على أشخاص لم يكن يراهم في الغرفة، ولما سأل مصطفى أفندي عن السبب أجاب السلطان أحمد بأنه رأى أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا رضي الله عنهم ورد السلام على كل واحد منهم، وأخبروه قائلين:

"إنك جمعت سلطنة الدنيا والآخرة. وإنك غدًا ستقابل النبي ﷺ"

حقيقة لقد تُوفي السلطان أحمد وانتهت حياة سلطان الدنيا والآخرة في اليوم التالي مباشرة مثل كل فانٍ.

❁

وقد دُعي عزيز محمود هدائي لتغسيل السلطان فرفض ذلك بأن قال: "كنت أحب السلطان كثيرا وأعتقد أني لا أستطيع تحمل ذلك فأعذروني لكوني شيخا هرما"

وأرسل تلميذه «شعبان دَدَه»، وبعد أن صلوا على السلطان بإمامة شيخ الإسلام خُوجه زاده محمد جَلَبي دفنوه في القبر الذي بناه بجوار جامعه. رحمة الله عليه!..

وبالرغم من أن السلطان أحمد أصبح سلطانًا وهو في سن صغيرة إلا أن الدراية والخبرة التي أظهرها كانت جديرة بالانتباه والتقدير، كان قويًّا جدًّا جسمانيًّا، كما كان فارسًا ماهرًا يجيد ركوب الخيل واستعمال السلاح، وقد انتقلت هذه المزايا إلى ولديه «عثمان الشاب» و«مراد الرابع».

كان لباسه بسيطًا متواضعاً مثل جده «السلطان سليم». وعندما كان ينام ليلا كان يلبس لباسًا من الصوف حتى لا يغوص في النوم. وكان يسير بين الرعية، ويهتم بأمورهم ويستمع لشكاويهم بتواضع شديد.. ولم يكن اتساع دولته أو أهمية موقع دولته في جغرافية العالم سببًا في وقوعه في هواة نفسه.

والديوان الشعري الذي نظمه بمخلص «بَخْتِي»، كافٍ على إظهار مرتبته في الفن والمعنوية،... وفي عهده أصبحت كسوة الكعبة تُنسج في إستانبول بعناية كبيرة وترسل من هناك إلى مكة، وقد كان تلك الكسوة تنسج في مصر حتى ذلك الوقت.

كما أمر السلطان أحمد الأول أيضًا بتأسيس ورشة عمل خاصة لتصنيع الميزاب الذهبي للكعبة.

❁

إن استمرار البناء الأخلاقي وقوام النظام العالمي لا يستمر دائمًا إلا بالتعمق في الحياة القلبية. والأمم الذين ارتفع مستواهم في هذا المقام احترموا وأعزوا سلاطين المعنى ومرشدي القلوب. واعتبروا تعقب آثار هؤلاء الأولياء والمشايخ نعمة كبيرة. وحصلوا بذلك على الطمأنينة والسعادة.

ولهذا فإن السلطان أحمد الأول ظل طوال حياته يرجح السير خلف الشيخ محمود هدائي على كل شيء في الدنيا. لأن هذا الطريق يمنح الإنسان طمأنينة قلبية وتوصله إلى اللذة والفيض المعنوي بالدرجة التي لا يمكن قياس أية سلطنة دنيوية بها، لم يدخل ضمن أسرى الموجودات أوالثروة المادية التي هي في الحقيقة ظل لظاهر مهما بلغ حجمها. لأنه كان مرتبطًا بالحُسن المطلق، لم ينخدع بالأكاذيب المنعكسة على المرآة. وبالتالي أصبح قلبه بعيدًا عن العلاقات الدنيوية كالمنصب والموقع،

فَنَالَ أعلى مرتبة وهي تخطي نفسه وعدم انخداعه لدسائسها، وهذا ما حصل عليه السلطان أحمد الأول؛ حيث تعمق في إقليم القلب، وأصبح بمثابة النسخة الثانية من عزيز محمود هدائي.

وبالرغم من مرور ٤٠٠ سنة أو تزيد قليلا على الفيوضات الروحانية التي كانت موجودة لدى عزيز محمود هدائي والسلطان أحمد الأول إلا أنها لا تزال موجودة. وهذه حقيقة يمكن مشاهدتها اليوم علانية. فمؤسسة الفيض هذه التي أرسيا قواعدها، وكانت تصل إلى النبي ﷺ لا تزال مستمرة حتى وقتنا هذا. لأن المقامات المعنوية لا تترك خاوية كالمناصب والمقامات الدنيوية، فدائمًا ما تُملأ بالتعيينات الإلهية. وذلك لأن الوصول إلى الغاية الحقيقية التي خلق الإنسان من أجلها لا تتحقق إلا بالنضج في هذا الطريق المعنوي، وعلى النقيض يُحكم على البشرية بأنها كالثمرة الحامضة لم تنضج بعد.

لا يموت عشاق الحق، كما لا يبلى مؤسساتهم التي تعتبر آثارا قلبية لهم. ودائمًا ما تتغذى هذه المؤسسات من المنبع النابع تحت جذورها التي تستند إليها. فينبت ما حوله ويجعله حديقة الورود.

ويعد «**وقف عزيز محمود هدائي**» اليوم واحدًا من تلك الثمار الحيّة في عصرنا، وهو وقف يعمل دائمًا على تأمين الاحتياجات المادية والدنيوية للأيتام والأرامل والطلاب البنين والبنات، الذين سيكون لهم دور في المستقبل في هذا الجيش الإيماني ومن ناحية أخرى، ويسعى إلى إنارة حياتهم المعنوية. وقد كان شرف وعزة تلك الخدمة في أول الأمر للعزيز محمود هدائي والسلطان أحمد الأول ثم أهل الهمة من بعدهم، وكل الأشخاص الموجودين في تلك المؤسسة السامية إنما هم بمثابة الخدم الذين تم قبولهم لطفًا وكرمًا لخدمة هذا الطريق المعنوي الكبير.

اللهم أحسن إلينا من إقليم قلب عزيز محمود هدائي الممتلئ بالفيض وسلسلته الذهبية، التي نستفيد من روحانيتها، وأحسن إلينا بنصيب من المحبة الإلهية للسلطان أحمد الأول وخضوعه! آمين!..





السلطان المظلوم والشهيد الذي استطاع أن يقول «قِفْ!» لانقراض الدولة بروح الإقدام التي فيه.

السلطان عبد العزيز

(١٨٣٠-١٨٧٦م)

السلطان الثاني والثلاثون من سلاطين بني عثمان.

والده «السلطان محمود الثاني» ووالدته السيدة «پَرْتَوْنِيَالْ» صاحبة الحسنات والخيرات. جلس على العرش عام ١٨٦١م، ومدة سلطنته ١٤ عامًا، كان سلطانًا ذكيًّا وصاحب غيرة وهمّة، تعلم تعليمًا جيدًا منذ أن كان صغيرًا.

بإعلان «فرمان التنظيمات» - قبل سلطنة «السلطان عبد العزيز» - افتتح الطريق أمام الإعجاب بالغرب، وكانت الخطوات الأولى التي تمت في هذا المجال قد ألقت في روح ونفوس الأهالي البذور الأولى للحقد والكراهية ضد الدولة، فقد أصبح السلطان «محمود الثاني» وخلفه السلطان «عبد المجيد» آلة لتنفيذ تقليد الغرب، وألغوا الانكشارية، التي كانت الشكل التراثي التقليدي لجيشنا، كما تم البدء في تشييع الجنازات



الرسمية بعزف الموسيقى، وقد أصبحت الدولة - بتلك الحركات الإصلاحية التي كانت مخالفة لطباع الأهالي - غريبة عن رعاياها، وبدأت تبعد تدريجيًّا عن عالم الروحانية والمعنوية، الذي كان يغذي بناءها، كان الأهالي غاضبين، ورجال الدولة كانوا في حالة من التردد والحيرة تجاه هذا التقدم الذي حققه العالم الغربي. أما أعداء الإسلام فبدؤوا يخوضون حملة دعائية من أجل الإعلان بأن الإسلام هو السبب في المسافة الكبيرة التي بيننا وبين هذا التقدم الغربي، وعلى هذا عبّر الشاعر ضيا باشا فيما بعد عن هذا الوضع بالبيت التالي:

لقد قالوا: إن الإسلام كان يعوق تقدم الدولة

لم يكن هذا القول موجودًا من قبل، فكيف ظهرت هذه الرواية حديثًا!

والحال أن التقدم الذي ظهر أوروبا لم يكن بسبب النصرانية ولا بسبب ثقافة أو أسس تستند إليها. بل كان نتيجة أسباب اقتصادية بحتة نتجت عن اكتشاف أمريكا وبالتالي اكتشاف ثروة كبيرة وافرة منها لم تكتشف من قبل، واكتشاف السفن البخارية، والالتفاف عن طريق رأس الرجاء الصالح من جنوب أفريقيا، ووصول البضائع من الشرق الأقصى كالبهارات والحرير إلى الغرب عبر هذا الطريق. نتيجة لهذه الأمور كلها إن أوروبا بدأت تعيش انقلابات في ميادين الصناعة ولأسباب أخرى اقتصادية بحتة.

وقد عرض لنا أعداء الإسلام العالَمين الأوروبي والإسلامي والفروق بينهما بتأويلات وتفسيرات خاطئة؛ وبذلك بدؤوا يبعدوننا عن آراءنا الأصلية، ونظامنا الاجتماعي، وأسلوب حياتنا الإسلامية، وحياتنا الروحانية.

ورَّوجوا لنا الطريق الخاطئ على أنه طريق مستقيم، وأوضحوا لنا أن الوسيلة الوحيدة للترقي هو التشرب بمبادئ أوروبا. وكم هو محزن أن نطاق هذه التلقينات كان متسعًا جدًّا بالدرجة التي كانت تشمل كبار رجال الدولة وعلى رأسهم السلاطين والباشوات.

وبإلغاء نظام الانكشارية عام ١٨٢٦م اختل نظام جيشنا التقليدي، ونتج عن هذا أن استطاعت روسيا الاقتراب من حدود مدينة «أَدِرْنَة» بقوة صغيرة لا تتعدى خمسة عشر ألف جندي.

وفي عام ١٨٢٩م واجهت الدولة الأمر الواقع بإعلان قيام دولة اليونان، كما استطاع الوالي العثماني «قَوَالَه لِي محمد علي باشا» [والي مصر] أن يتقدم بجيشه حتى «كُوتاهْيَة» ونتيجة لهذه الظروف والأوضاع المتردية اضطرت الدولة العثمانية التي لم تنهزم منذ القرون، أن تطلب العون من روسيا، وقد أدى كل هذا بالطبع إلى إضعاف من روحنا القومية، وأصبحت الضمائر غير مستقرة.

وقد تأثر السلطان «محمود الثاني» بتلك المصائب التي ألمت بالدولة ومرض مرض السل وبالتالي كان سلطانًا مريضًا عاجزًا أمام الغرب، وعلى نفس النهج سار خلفه «السلطان عبد المجيد» في تقليد الغرب.

أما «السلطان عبد العزيز خان» الذي خلفهما فكان سلطانًا جريئاً مقداماً صاحب همّة قويًّا من الناحية الروحية والفكرية. بدأت سلطنته بجهود قوية لإنقاذ الدولة من المصائب التي ألمت بها، بعد أن أصبحت في وضع مترد للغاية.

وبتلك الإجراءات التي قام بها «السلطان عبد العزيز» انقلب الحزن الذي سيطر على أرواح الأهالي إلى سرور، وكانت عاملا في ظهور بوادر الأمل لتجديد انتصارات الدولة القديمة وإعادتها من جديد، وكانت بنيته القوية مثل المصارع تقوي هذا الشعور. لقد كانت الأمة تعيش فرحًا بقدوم هذا السلطان إلى الحكم بعد سلطانين ضعيفين، وبدا الأمر كأن «السلطان سليم» قد عاد إلى الحكم.

كان «السلطان عبد العزيز» يحث على رياضة المصارعة لا يتردد في خوض الحروب ضد الأعداء ويبذل جهده في إيصال الجيش والأسطول إلى أعلى المراتب. وكان عهد «السلطان عبد العزيز» بداية الميول إلى الحركة والنهوض القومي من الملل الذي بدأ بفرمان التنظيمات. وكان الهدف الرئيسي لتلك الجهود التي يقوم بها



«السلطان عبد العزيز» هو إيقاف حركات التغريب التي منشأها القوى الخارجية والتي تسعى لتحقيق أهدافها في النواحي الثقافية والدينية والقومية والأخلاقية تحت اسم «التقدم». فبالتالي السَّعْيُ من أجل التقدم تحت ظلال الهوية الدينية والقومية العثمانية.

إلا أن السنوات التي صادفت عهد «السلطان عبد العزيز» وصلت إلى نقطة خطيرة في الفرار والبعد عن الاعتماد على النفس، حيث ظهر ميل لبعض الخائنين والغافلين أن يأخذوا القانون الفرنسي الوضعي هو القانون الذي وضعه «نابُلْيون» المسمى بـ«كُودْ سِوِيلْ» ويترجموه ليطبقوا على العالم الإسلامي. ولأن «السلطان عبد العزيز» تنبه لهذا الوضع الخطير عهد بالأمر إلى العالم الكبير في عهده «أحمد جودت باشا» من أجل التصدي لهذه الحركة المخيفة، التي كانت تشبه الجناية في حق الدولة، فأسس برئاسة الباشا المذكور قانون كبير مستنبط من أحكام الشريعة الإسلامية، كان يسمى بـ«مجلة الأحكام العدلية» أو «المجلة» اختصارًا، وبذلك تم القضاء على جناية كبيرة كانت على وشك الحدوث. كان «السلطان عبد العزيز» على دراية عالية جدًّا بكيفية استخدام الأسلحة الحديثة في عهده، ولهذا كان يسعى لأن يكون مثل جده «السلطان سليم الأول» ويحقق أمل رعيته.

فعندما جلس فوق العرش كانت الأوضاع في الدولة العثمانية متردية للغاية، كما كانت الأزمة المالية قد بلغت ذروتها، وكانت الثورة التي ظهرت في «قَرَه داغْ» تهيئ الأوضاع لنشوب حرب مع الصرب. وأدركت أوروبا أن هذه فرصة لن تعوض وبالتالي زادوا من مقترحات توسطهم في الأمر. لأنهم كانوا يشعرون بالقلق حيال تخلي السلطان عن التنظيمات.

ولما شعر السلطان بذلك أصدر خطًّا همايونيًّا على الفور جاء فيه:

"لا يوجد لنا هدف سوى زيادة القوة المادية للدولة، والارتقاء بمستوى معيشة الأهالي، ولكن بشرط عدم الإسراف أو الإضرار بأموال الدولة، وكل شخص



يعيش تحت ظلال دولتنا مسلمًا أو غير مسلم سيُعامل بالعدالة في إطار أوامر ديننا، وسيكون الجميع متساوين أمام العدالة. إن استقلال دولتنا العظيمة وعيش أهلها في طمأنينة ورفاهية من أهم مقاصدنا، وفقنا الله جميعًا بحرمة نبيه ﷺ".

وبهذا الفرمان قضى السلطان نسبيًّا على مخاوف الدول الأوروبية المتعلقة بالتنظيمات، والبقاء على الحكومة الموجودة. لقد عمد السلطان إلى اتخاذ إجراءات ضد الإسراف بدأ بها أولاً بنفسه وبالقصر، وبدأ في تنظيم الأوضاع المالية للدولة تدريجيًّا.

أما «مصر» التي كانت يدعمها الأوروبيون سرًا في ذلك الوقت فكان ارتباطها بالدولة قد بدأ يتراخى، وقام السلطان برحلة إلى «مصر» بتشجيع من الصدر الأعظم «يوسف كامل باشا». وتم استقبال السلطان في «مصر» استقبالا حافلا لدرجة أن «محمد علي باشا» وهو الوالي الذي ثار ضد الدولة العثمانية كان يمسك بلجام فرس السلطان ويسير به في شوارع القاهرة. وبذلك عمل السلطان على تقوية هيمنة الدولة في كل مكان بعد أن كانت تعرضت للاهتزاز. وبعد تلك الرحلة بدأت صفحة جديدة من التعامل مع «مصر»؛ حيث منح السلطان لقب «الخِدِيوِّ» لـ«إسماعيل باشا» ابن محمد علي الذي كان يحكم «مصر» في ذلك الوقت. والخديوية تعنى انتقال الولاية من الأب إلى ابنه.

من ناحية أخرى سعى «السلطان عبد العزيز» لإصلاح أحوال الأسطول والجيش وإعادتهما إلى سابق عهدهما وقوتهما القديمة، وبذلك لفت أنظار العالم كله إليه، ولهذا دعت «فرنسا» و«إنجلترا» السلطان لزيارتهما.

وبناءً على هذه الدعوة ركب السلطان سفينته المسماة «السلطانية» وخرج من أمام قصر «دُولْمَه باغْجَه» في ١٨٦٧م، وبذلك يعتبر «السلطان عبد العزيز» هو أول سلطان عثماني يقوم برحلة إلى البلاد الأجنبية. نزل السلطان في «مارسيليا» ومنها إلى «باريس» وكان الأهالي يصطفّون في الطرقات والشوارع لمشاهدة هذا السلطان العظيم العثماني. ولأن «السلطان عبد العزيز» كان متدينًا جدًّا فقد كان يفكر في أن

طعام الأوروبيين قد يحمل محظورات شرعية، لذا حمل معه في الرحلة الطباخين من مدينة «بُولُو». كانت قافلة السلطان مهيبة تلفت الأنظار، لدرجة أن أهالي القرى الفرنسيين كانوا يظنون أن هؤلاء الطباخين أمراء أو رجال دولة فكانوا يذهبون للسلام عليهم بأدب كبير. استقبل «نَابُلْيُونْ الثالث» السلطان «عبد العزيز» في «باريس» استقبالاً حافلاً، وأعد له مأدبة طعام على شرفه، وجلس إلى جواره على المائدة وقال له:

"حضرة السلطان لو تركتم جزيرة «كِرِيتْ» إلى «اليونان» فإن هذا سيكون أفضل عمل تقومون به".

غضب السلطان من هذا الكلام، ولأنه لم يكن سلطانًا يظهر الضعف في العلاقات الدبلوماسية أجابه قائلاً:

"يا أكسلانس! إن الدولة العثمانية بذلت الدماء ٢٧ سنة من أجل جزيرة «كِرِيتْ»، وكل شبر في الجزيرة مروي بدماء شهيد من شهدائنا، وأنا مضطر لأن أدافع عن ميراث أجدادي حتى آخر جندي وآخر سفينة لدي".

أمام هذا الرد الشديد الغير المتوقع اضطر نابوليون أن يعتذر من السلطان.

عاد «السلطان عبد العزيز» من رحلة أوروبا بموكب مهيب وبانتصارات دبلوماسية عظيمة للغاية، وقد استقبله الأهالي استقبالا حافلا؛ لأنهم كانوا يرون فيه ميل السلاطين السابقين ودرايتهم ويأملون منه إعادة الدولة إلى كامل هيبتها السابقة بانتصارات جديدة. والكلمات التالية تعبر عن فرق القوة والعظمة بين عهد «السلطان عبد العزيز» وبين عهد أجداده: "لقد كان أجدادنا يذهبون إلى الغرب على ظهور الخيل للفتوحات، أما نحن فأقصى ما نستطيع فعله هو الذهاب بالقطار أو السفينة من أجل الرحلات الدبلوماسية".

ونتيجة لتلك الجهود المخلصة للوطن التي قام بها «السلطان عبد العزيز» ظهر في الدولة جيش بري قوي يتكون من ٧٠٠ أو ٨٠٠ ألف جندي مجهزين بأحدث



الأسلحة، وأسطول قوي يُعد ثاني أكبر أسطول في العالم. لقد كان الأسطول في تلك العهود يحمل أهمية كبيرة ويعرض تقدمًا سريعًا مثل القوات الجوية في عصرنا الحالي، ولهذا أسس «السلطان عبد العزيز» ترسانة كبيرة في الخليج في إستانبول، كما أمر بتأسيس الكثير من المصانع المدنية والعسكرية، وخطى بذلك خطى جدية في عالم الثورة الصناعية.

إن اهتمام «السلطان عبد العزيز» بالجيش والأسطول إلى هذا الحد لم يكن بلا سبب، لأنه كان يقول: "إن انتصار الدولة العثمانية على «روسيا» في تلك الأوقات كان سيؤمّن إمكانية بقاء الدولة العثمانية كقوة عظمى لمدة لا تقلّ عن مائة سنة."

هذا فضلاً عن أنه كان يريد أن يسترجع «القِرِمْ» التي فقدتها الدولة، ولكن يا للأسف، فقد تعرضت الدولة للاحتلال السري وأُبعد «السلطان عبد العزيز» عن العرش قبل أن يبلغ مراده هذا واستشهد بصورة مفجعة.

لقد كان «السلطان عبد العزيز» إنسانًا صادقًا مخلصًا عاش حياة منتظمة متدينة للغاية، كان تقيًّا لدرجة أنه كان يشرب من ماء زمزم طوال حياته بدلا من الماء العادي. ويروى أنه حمل معه ماء إلى أوروبا من أجل الوضوء. كان يصلي كل الصلوات في أوقاتها، ويداوم على قراءة القرآن، وعندما قُتل في غرفته، وجدوا منضدة صغيرة عليها مصحف مفتوح على سورة يوسف، وقد انتشر دمه على صفحات المصحف، والمصحف لا يزال محفوظًا في متحف «قصر طوب قابي».

وذات يوم كان «السلطان عبد العزيز» يرقد مريضًا في الفراش وكأنه أغمي عليه، قالوا له: "توجد عريضة وردت من أهالي المدينة المنورة ومجاوريها".

فقال السلطان على الفور لمعاونيه: "ساعدوني في الوقوف، فإني أحب أن أستمع إلى الطلبات الواردة من الحرمين وأنا واقف، ولا يمكن الاستماع إلى طلبات مجاورين لرسول الله بشكل يخالف الأدب".

وهذا كان يدل على محبته لرسول الله ﷺ ومدينته وساكنيها.



وعندما كانت ترد إليه رسائل من المدينة المنورة كان يتوضأ قبل أن يمسكها ويمسح بها جبينه قائلاً: "إن بها تراب مدينة رسول الله ﷺ"، ثم يعطيها لرئيس الكتاب فيأمره بفتحها وقراءتها.

وكما هو واضح مما سبق أن «السلطان عبد العزيز» جلس على العرش، وكان هناك تفوق ملحوظ للغرب، وأن هناك مجموعة ممن كان يسير على آمال الغرب السياسية كانت تطلق على نفسها «جون تورك» (التركي الجديد)، وأن هذا العهد بلغت فيه مساعي تلك الفئة لتخريب الدولة حد السفه، وكان معظم أفراد «جون تورك» هؤلاء قد تربوا في فرنسا، وتربوا هناك على أن يكونوا مبشرين لفرنسا في الدولة العثمانية وبذلك عادوا إلى الدولة العثمانية ملابسهم وشكلهم الخارجي عثمانيون، ولكن قلوبهم مع فرنسا، وكأنهم كانوا انكشارية الغرب داخل الدولة العثمانية.

وبينما كانت الدولة تتعرض للضغط المادي من الخارج كانت تتعرض أيضًا للتخريب المعنوي من الداخل، وزاد نشاط التبشير بفرمان التنظيمات، وزادت أيضًا التحريضات على الأقليات النصرانية وعلى رأسها الأرمن، من ذلك على سبيل المثال: افتتح في منطقة «خَرْبُوطْ» مراكز للتبشير وصل عددها الى ٦٢ مركزًا، وتم بناء ٢١ كنيسة، وتقول المبشرة «ماريا أ. ويست» في كتابها (Romance of Mission) ما يلي:

"لقد دخلنا إلى روح الأرمن، وأحدثنا ثورة في حياتهم".

وافتُتحت في كل أرجاء الأناضول مراكز للتبشير، كانت كل واحدة منها بمثابة معسكر التبشير في الباطن، ولكنها في الظاهر لتعليم اللغات. وكان من أكثر تلك المراكز نشاطًا في التبشير «معهد عَيِنْتابْ» في «غازي عَيِنْتابْ» و«معهد الأناضول» في «مَرْزِيفُونْ»، و«معهد رُوبَرْتْ» في «إستانبول». وبعض تلك المراكز كان لا يقبل الطلاب الأتراك أبدًا. أما مديرو تلك المراكز فكانوا من القساوسة.

وبسبب تلك النشاطات العدائية أصبحت الدولة في مواجهة خطيرة بالنسبة للناحية الثقافية لها، وبالرغم من أن هذا التدني كان منتشرًا في عهد «السلطان عبد

المجيد» إلا أنه نزل إلى الحد الأدنى في عهد «السلطان عبد العزيز»، والنتيجة أن أصبحت تلك المقاومة وسيلة لتستر السلطان بدماء الشهادة.

كان «السلطان عبد العزيز» ذا رأي صائب للغاية، فقد كان يقول: فإننا لن نتمكن من لعب أي دور كبير في السياسة العالمية إن لم يكن «بلجراد» و«إستانبول» و«بغداد» و«القاهرة» كل هذه في أيدينا، وقد كان هذا الرأي يشبه الرأي الإمبريالي الألماني، الذي ظهر فيما بعد، والذي كان يقول بضرورة الاستيلاء على السبعة من المراكز الكبرى في العالم التي تبدأ بحرف الباء بدءًا من «برلين» وحتى «بومباي».

لقد كانت الآمال السياسية للسلطان «عبد العزيز» تشمل حتى «توركستان»، فقد اهتم بأمور كل تلك النواحي، وكان سببًا في افتتاح مدارس تعليم اللغة التركية في «إيران» و«تركستان» من أجل العناصر التركية الموجودة بها.

وبالنسبة للأسطول العثماني الموجود في البحر الأحمر، وجدنا أنه قطع الطريق على الأسطول الإنجليزي الذي كان ذاهبًا لسحق «إندونيسيا»، واضطره إلى الرجوع. حقيقة لقد اهتم «السلطان عبد العزيز» بأمر الأسطول اهتمامًا كبيرًا، ولأن ترسانة الخليج في «إستانبول» استطاعت أن تقوم بإصلاح السفن الفرنسية بنجاح أرسل نابليون الثالث رسالة شكر إلى «السلطان عبد العزيز» على ذلك. وقد كان هذا الوضع مثالا عظيمًا على أن الدولة العثمانية كانت قوة كبيرة في عهد كان يطلق عليها «الرجل المريض»، وظهرت أن الدولة العلية لا تزال تليق بأن يطلق عليها «الدولة مدة الأبد».

وفي سنوات سلطنة «السلطان عبد العزيز» استأذن «الشيخ شامل» الذي خاض نزاعًا دمويًّا لمدة ثلاثين سنة والذي اضطر في النهاية إلى التسليم للروس، من قيصر الروس للذهاب إلى الحج، وقدم إلى «إستانبول» لزيارتها. أمر السلطان بأن تعد بعض التجهيزات في القصر لاستقباله، وعمت «إستانبول» كلها فرحة بسبب زيارة الشيخ لها، ولما رست السفينة الروسية أمام قصر «دُلْمَه بَاغْجَه» أرسل السلطان القوارب

السلطانية لإحضار الشيخ وأفراد أسرته، واستقبله السلطان على باب القصر، ثم قال له بأدب كبير: "لم أكن لأفرح هذه الفرحة إلا لو كان أبي قد خرج من قبره".

أمر السلطان بتخصيص نزل في إستانبول لاستضافة «الشيخ شامل» أسد «دَاغِسْتانْ» فيها، واستضاف الشيخ ومن معه بكامل الإعزاز والتكريم، ليستقروا في «إستانبول». ولكن «الإمام شامل» أوضح للسلطان بأنه يرغب في أن تفيض روحه في «المدينة المنورة». وبناء على هذا تم الاستئذان من روسيا، فأكمل طريقه إلى الحجاز.

❀

قلنا من قبل: "إن حملات ومساعي «السلطان عبد العزيز خان» من أجل بلوغ الدولة العثمانية قوتها من جديد" كانت قد جعلت الفئات النفعية والخونة تضطرب وتنزعج، ولهذا لم يقف بعض رجال الدولة مكتوفي الأيدي تجاه تلك الإجراءات التي يقوم بها السلطان فقاموا بعمل حملات ونشاطات سرية ضده، ويأتي على رأسهم أربعة أفراد كان قد تم عزلهم ثم أُعيدوا مرة أخرى إلى السلطة وهم «حسين عوني باشا» و«مدحت باشا» والمترجم «رشدي باشا»، و«خير الله أفندي» حيث كانوا على استعداد القيام بثورة ضد السلطان.

وقد عُزل «حسين عوني باشا» من وظيفته في عام ١٨٧١م وجُرد من رتبته ونُفي إلى «اِسْبارْطَة»، وبعدها عزله «محمود نديم باشا» من منصب قيادة الجيش أيضا. فزاد حسين باشا غيظا وحقدا إلى أن قال: "حقدي هو ديني" وبدأ يفكر جديًّا ليس في عزل السلطان فحسب بل في قتله.

أما «مدحت باشا» الذي كان نديمًا لـ«حسين عوني باشا» فقد تربى محرومًا من الثقافة الدينية والسياسية، ولهذا عُزل من الصدارة العظمى بسبب الأخطاء والانحرافات التي أظهرها، كان «مدحت باشا» شخصية خيالية للغاية، لدرجة أنه ذات يوم نهض من على منضدة الخمر وهو يدعي بأن الأسرة العثمانية ستنتهي وأنه

سيكون سلطانًا. يروى أنه قال حينئذ: "وما الخطأ في هذا، هل ستكون السلطنة دائمًا في آل عثمان، لتكن في آل مدحت قليلا".

أما الشخصية الثالثة في المجموعة فهو المترجم «رشدي باشا»، وقد عُين المذكور مرتين صدرًا أعظم، وثلاث مرات قائدًا للجيش، ولكنه عزل من منصبه لإساءته استخدام مناصبه، ولهذا فإنه بدأ يبحث عن مصلحته، وبدأ يكن الحقد للسلطان.

أما الشخصية الرابعة في المجموعة فهو «خير الله أفندي» وبالرغم من عدم أهليته لتولي المنصب تم تعيينه في منصب شيخ الإسلام بحماية «رشدي باشا»، ولهذا عزل من هذا المنصب بعد شهر واحد من توليه، وبالتالي أدى هذا أيضًا إلى ازدياد حقده على السلطان.

وبعد فترة قصيرة قامت تلك العصابة الرباعية بتحريش الطلاب للمظاهرة على السلطان، طلبا لمنافعهم التي أُخِذت من أيديهم. ولأن السلطان كان لا يريد سفكًا للدماء أعادهم إلى وظائفهم. وبذلك وصل الأربعة إلى أول خطوة في الخطة التي يرمون إليها، ولم يبق أمامهم حينئذ سوى تنحية السلطان والقضاء عليه، وفي النهاية تمكنوا من ذلك بثورة أثاروها.

وصبيحة يوم الثورة لم يستطع «جوهر أغا» أغا «دار السعادة» أن يخبر السلطان عن الوضع، وصرح بالأمر إلى « پروتونيال والدة سلطان» التي أخبرت بدورها السلطان، وفي نفس تلك اللحظة كانت المدافع تطلق قذائفها احتفالا بتنصيب السلطان الجديد فقال السلطان لأمه: "هل يجعلون عاقبتي مثل عاقبة «السلطان سليم الثالث»؟ أنا أعلم من قام بذلك، وعدّد أسماء الثوار بالاسم". بعدها قال: "لقد رأيت تلك الكارثة في منامي أكثر من مرة، إن هذا هو القدر الإلهي".

أركبوا «السلطان عبد العزيز» القارب والمطر ينهمر وساروا به إلى «قصر طوب قابي»، ونهب الثوار ثروته الشخصية حتى القروط الموجودة في آذان زوجاته، ووضعوه في غرفة «السلطان سليم الثالث». ثم قال السلطان:

"إنهم يريدون أن يقضوا عليّ كما قضوا على عمي «سليم الثالث»."



وتُرك السلطان في الغرفة وحيدًا دون ماء أو طعام لمدة ثلاثة أيام، ولم يسمحوا له حتى بتغيير ملابسه. بعد ذلك سمحوا له بالانتقال إلى الغرفة المخصصة له، إلا أن السلطان كتب رسالة إلى «مراد الخامس» يطلب منه أن ينقله إلى قصر «فرعية» الموجود في «بَشيكْطاشْ»، وتم نقله إلى هناك بناءً على طلبه.

ولأن «حسين عوني باشا» كان يصر في نفسه على قتل السلطان وعدم الاكتفاء بعزله عيّن ثلاثة أشخاص ذوي بنية قوية على قصر «فرعية» المذكور، ليقوموا بأعمال التنظيم لحديقة القصر حيث دخل الثلاثة إلى غرفة «السلطان عبد العزيز» صبيحة يوم ٤ يونيو ١٨٧٦م، وبالرغم من أن «السلطان عبد العزيز» سعى لمقاومتهم إلا أنه في النهاية لم ينجح، وقام القتلة الثلاثة بقطع أوردة السلطان حتى يُظن أنه انتحر، ثم عادوا إلى أعمالهم وكأن شيئًا لم يحدث.

وبعدها بفترة رأت «والدة سلطان» أن ابنها يرقد على الأرض في بركة من الدماء، وعندئذٍ أتى «حسين عوني باشا» إلى القصر ليتحقق من نتيجة القتل الذي دبره، فلما رأى أن السلطان لا يزال على قيد الحياة أي في النزع الأخير، أمر بنقله إلى المكان الذي يعد فيه القهوة في مخفر القصر، وبذلك أخّر وصول الطبيب إلى السلطان الذي كان في النزع الأخير، وفي النهاية فاضت روح السلطان المظلوم الشهيد أمام أعين الجناة الثلاثة؛ «مدحت باشا»، و«حسين عوني باشا»، و«رشدي باشا».

رحمة الله عليه!!..

وبناءً على مقتل «السلطان عبد العزيز» المفجع هذا نظمت أخته «عادلة سلطان» الأبيات التالية التي نظمتها من قلبها المحترق على وفاة أخيها:

ليقم العالم الحِداد وليبك دمًا على «السلطان عبد العزيز»

المدد يا ألله! لقد اصطبغ جسده المبارك بدم أحمر قاني

كيف لا تحترق أخته «عادلة» على هذا الخاقان

لقد جنى الظالمون على سلطان كان أخا لي في العالم

مر ١٢ يومًا على مقتل «السلطان عبد العزيز» بتلك الصورة الوحشية، ولم يتحمل «شركس حسن» الذي كان حما للسلطان «عبد العزيز» وضابطًا في الوقت نفسه هذه المصيبةَ، فهجم على هيئة الوكلاء التي كانت تجتمع في قصر «مدحت باشا»، وقتل أول ما دخل «حسين عوني باشا» وأخذ بثأر السلطان بذلك، ثم قتل من بعده «رشدي باشا» ومساعده، أما هو فقد أعدم في اليوم التالي في« بايزيد».

لقد أمرت تلك العصابة من الثوار بالضغط والتهديد بإعداد تقرير يُظهر أن وفاة «السلطان عبد العزيز» الذي كان ذكيًّا وحسن النية جدًّا، كانت نتيجة انتحار وليس جناية.

ولكن في السنوات التالية أمر «السلطان عبد الحميد خان» بعمل محاكمة في «قصر يلديز» أقر فيها «مدحت باشا» عن كيفية القتل بقوله كأنه يقوم باعتراف: "الحمد لله أنني متهم بتهمة تنبعث من الحمية الوطنية حتى وإن كانت جناية، وليست تهمة عادية كالاختلاس أو الاحتكار".

❁

وهناك مَنْ اتهموا «السلطان عبد العزيز» بالإسراف بسبب الديون الكثيرة التي جلبها على الدولة بسبب التجهيزات العسكرية.

إلا أن هذا ليس صحيحًا، لأن «السلطان عبد العزيز» كان ينفق على تلك التجهيزات من التبرعات التي يقوم بها رعاياه وعلى رأسهم رجال الدولة، فقد كان السلطان يتعقب التطورات العالمية، وجلب من أمريكا البنادق الحديثة التي كانت تسمى المارتيني والتي كانت بعيدة المدى. ويمكن القول بأن الدفاع عن «پِـيلَوْنَه» بعد ذلك إنما تحقق بفضل وجود مثل تلك البنادق والأسلحة.

كان «السلطان عبد العزيز» حساسًا للغاية منتظمًا عالمًا، صاحب محاكمة سليمة، والرسومات الكروكية للسفن التي رسمها بيده ونشرت في «مجلة الرسامين» كانت من الروائع، التي تدل على طباعه السليمة وحساسيته، كما كان شاعرًا يحب التلحين

والموسيقى والفنون ولكنه رغم رقة قلبه كان في الوقت نفسه محاربًا قويا. فقد كانت روحه مفعمة بالرغبة في الفتوحات، كان سيسترجع القِرِمْ، وأتم كل الاستعدادات لذلك؛ إلا أن النشاطات السرية للأعداء قلبت الآية عليه وساقت الأربعة المذكورين للقيام متفقين بثورة ضده.

وعندما عيّن السلطان «حسين عوني باشا» الذي كان رئيسًا على الثوار قال:

"إن عينيْ هذا الرجل لا تعجبني أبدًا" كأنه أحس بذلك الخطوط الرئيسية للمصيبة التي كان سيحدثها. إلا أنه لم يتمكن من اتخاذ الإجراءات اللازمة للوقوف ضده وأخذ الحيطة منه.

لا بد هنا أن نتذكر معنى الحديث النبوي الشريف:

"... **وَلَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ يُصِيبُهُ الْبَلَاءُ**..." (أحمد، مسند، جـ١٢، ص ١١٨/ ٧١٩٢)

وذلك لأن مقتل «السلطان عبد العزيز» بهذه الصورة المفجعة كان بسبب هذه المصيبة المشار إليها في الحديث. إلا أن هذا الوضع لا يمكن تفسيره إلا على أنه قدر إلهي مرتبط بالأمة أكثر منه شخصيًّا. لأن ومقتل «السلطان عبد العزيز» بهذه الصورة كان نقطة تحول في تاريخنا.

حقيقة إن الدولة في الفترات التالية لم تستطع أن تقف ضد هذه المصائب بشكل قوي، وبالرغم من أن هذا الانهيار تأخر لفترة بفضل سياسة «السلطان عبد الحميد»، إلا أن الدولة لم تستطع أن تقف أمام غلبة الكفر - ولو كان مؤقتًا - في بلدنا ولم تتمكن من إعاقة انهيار تلك الدولة العظيمة.

اللهم أحسن إلينا بالعِبرة والعظة من تلك المصائب وما شابهها، ولا تجعلنا معرضين لعاقبة محزنة على مسرح التاريخ، واجعل فتن ودسائس أهل الفتن على رؤوسهم. آمين!!!.





رجل الدولة الكبير والخاقان العظيم

- جعل الله مثواه الجنة -

السلطان عبد الحميد خان الثاني

(١٨٤٢-١٩١٨م)

السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين بني عثمان، والخليفة التاسع والتسعون من خلفاء الإسلام.

شخصية متميزة ومستثناة ليس في بلده فحسب بل وصل إلى صفة «الرئيس» في العالم الإسلامي كله. أتمَّ تعليمه الديني والعلمي في سن الشباب، كما حصل على الفيض من الشيخ «محمد ظافر أفندي» شيخ الطريقة الشاذلية والشيخ «أبي الهدى أفندي» من مشايخ الطريقة القادرية، وتوجت درايته في الظاهر بالكمال المعنوي.

ولأنه تميز بالقابلية السياسية والذكاء منذ أن كان شابًّا فقد حمله معه عمه «السلطان عبد العزيز» في رحلة «مصر» و«أوروبا».

كان لطيفًا جدًّا، يعرف كيف يكسب قلوب الناس. كما كان ذكيًّا للغاية ويشتهر بقوة ذاكرته. وفي المصادر أمثلة كثيرة على أنه كان لا ينسى أي شخص رآه أو سمع صوته ولو



لمرة واحدة، ويُروى عن الأمير «بِسْمَارْكْ» مؤسس الوحدة الألمانية أنه قال:

"لو كان في الدنيا مائة جرام من العقل فإن تسعين منها كانت للسلطان «عبد الحميد»، وخمسة منها لي، والخمسة الباقية موزعة على السياسيين في العالم كله".

ويعد أكبر سوء حظ للسلطان «عبد الحميد» توليه أمر الدولة العثمانية في ظل تلك الظروف السيئة للغاية. لكنه بالرغم من هذا تمكن من إدارة الدولة ٣٣ سنة بإيمان وصبر كبيرين وذكاء خارق دون كلل أو ملل ودون أن يخسر أية خسارة جدية.

❁

وفي الوقت الذي أصبح «عبد الحميد الثاني» فيه سلطانًا على الدولة كانت «إنجلترا» قد توسعت في البحار البعيدة واستولت على الهند. أما الروس فقد تمكنوا من الاستيلاء على «تُرْكِسْتانْ»، وأصبحوا وجهًا لوجه مع «إنجلترا» أمام «الأفغان»، حيث كانوا على خلاف ونزاع دائم معهم بسبب الحدود، ولهذا فإن عداوة «روسيا» للدولة العثمانية والانفتاح على البحار الدافئة والاستيلاء على المضايق لم يكن أمرًا لصالح «إنجلترا».

من ناحية أخرى كان رجال الدولة في ذلك الوقت هم «مدحت باشا» وأعوانه الذين ثبت أنهم قاموا بثورة أسقطوا فيها المرحوم السلطان «عبد العزيز» عن العرش أولاً، ثم قتلوه بعد ذلك. ولأن هؤلاء الرجال كانوا قد فقدوا اعتبارهم في نظر الأهالي بسبب الجناية التي ارتكبوها في حق السلطان «عبد العزيز» فإنهم كانوا يريدون اكتساب أي نصر يضبطون به أوضاعهم، ولهذا فقد اعتمدوا على الجيش وعلى الأسطول الذي تركه السلطان «عبد العزيز» وأرادوا خوض معركة. وكانوا يزعمون أنهم لو خاضوا تلك الحرب مع روسيا فإن «إنجلترا» ستساعدهم، وكانت هناك خلافات مع روسيا حول حدودها مع «الصرب» التي كانت في ذلك الوقت إمارة تابعة لنا. تحجج هؤلاء هذا الاختلاف، وأرادوا إعلان الحرب على «روسيا»، ولم يميلوا إلى الصلح في المباحثات التي جرت.

أما «روسيا»، فكانت لا تستطيع تخيل حربها مع الدولة العثمانية التي كانت صاحبة أكبر جيش وأسطول في ذلك الوقت، وكانت تخشى أيضًا من قيام «الإنجليز» بتقديم المساعدات إلى الدولة العثمانية كما حدث في حرب عام ١٨٥٣م في حرب القِرِمْ، ولهذا فقد اقترحوا دفع تعويضات ضعف التعويضات المقترحة من أجل تجنب الحرب، وكان قيصر الروس تحت وطأة الرأي العام الذي كان ضد الأتراك. لأجل ذلك كان يريد أن يُظهر لِشَعْبِه أنه قد حصل على تنازل من الدولة العثمانية حتى رَضي بِشيء بسيط قد لا يعد تنازلاً بالنسبة للدولة العثمانية زهز ترك قرية «نكشيك» لإمارة صربيا التي كانت تابعة لنا أيضاً. إلا أن «مدحت باشا» وأعوانه لم يقبلوا به.

في ذلك الوقت كان السلطان عبد الحميد قد جلس على العرش حديثًا، ولم يكن لجام الدولة كلها في يده بعد. حيث كان يحكم الحكومة مجموعة من الثوار.

قام السلطان بدعوة أركان الدولة ومعهم السفير الإنجليزي في «إستانبول» وهو السفير «لايارْتْ» وأراد أن يثبت لهم أن «إنجلترا» لن تقف بجانبهم – كما ظنوا– في حرب كهذه. ولأن «لايارْتْ»كان يمثل الحكومة الإنجليزية في هذا الاجتماع فقد أوضح أن حكومته لن تقف إلى جانب الحكومة العثمانية في حالة نشوب حرب بينها وبين «روسيا»، ولكنها ستكون سعيدة للغاية إذا ما حققت الدولة العثمانية انتصارًا على «روسيا». وبالرغم من هذا لم يستجب مدحت باشا وأعوانه لهذا الإخطار، ولم يستمعوا لكلام السلطان عبد الحميد، وأعلنوا الحرب على «روسيا».

وهنا حقيقة تاريخية يجب الإشارة إليها وهي أن الجيوش التي تقوم بثورة لا تستطيع أن تدير حربًا كما ينبغي؛ لأنها تكون مختلة في داخلها وغير منتظمة، وهذا ما حدث في تلك الحرب التي أطلق عليها في التاريخ «حرب عام ٩٣» نظرًا لأنها حدثت عام ١٢٩٣ بحسب تقويمنا القديم. وقد اكتسب الروس نصرًا مجانيًّا، وانتشروا في المنطقة بدءًا من نهر«طُونَة» وحتى «يَشِيلْ كُويْ» في «إستانبول»، ولأن

«يَشِيلْ كُويْ» كان يطلق عليها في ذلك الوقت «آياسْتَــفانُوسْ» فقد استند القائد الروسي جراندوق «نيكولا» على سيفه وأملى شروط معاهدة الصلح التي عرفت في التاريخ باسم «معاهدة آيا سْتَــفانُوس».

والسبب الرئيسي في خسارة الجيش العثماني في تلك المعركة هو أن «مدحت باشا» وأعوانه عينوا على قيادة الجيش العثماني خائنًا يُدعى «محمد علي باشا» وهو جد كل من «ناظمْ حِكْمَتْ» و«محمد على آيْــبارْ». وقد كان «مصطفى رشيد باشا» الذي تسبب في إعلان فرمان التنظيمات سفيرا في إنجيلترا. وأثناء رجوعه إلى إستانبول جلب معه شخصا يهوديا بولانديا، كان يستعمله في الأعمال البسيطة في خدمات السفارة. فإن «محمد علي باشا» الذي كان عاملا رئيسيا في مصيبة «حرب ٩٣» أي الحرب الروسية التركية ١٨٧٧–١٨٧٨م هو ابن هذا اليهودي.

وقد فكر السلطان «عبد الحميد» في ضرورة القضاء أولاً على مجموعة الثوار الذين كانوا سببًا رئيسيًّا في تلك المصيبة، ثم إحكام قبضته بعد ذلك على شؤون الدولة، ثم بعد ذلك التباحث مع «إنجلترا» التي كانت عدوًّا لـ«روسيا» عن حلول – ولو دبلوماسية – لإنهاء تلك المشكلة.

ولهذا أعطى السلطان «عبد الحميد» «جزيرة قُبْــرُصْ» لإنجلترا لتكون قاعدة عسكرية لها شريطة أن تبقى تحت حكم الدولة العلية، وبذلك عمل على تأمين إلغاء «معاهدة آيا سْتَــفانُوس» وإقرار بنود «معاهدة بَرْلينْ» حيث أقرت المعاهدة الأخيرة قسمًا كبيرًا من الأماكن التي خسرتها الدولة العثمانية وبذلك تمكن السلطان «عبد الحميد» بذكائه السياسي أن يخفف – بما أمكن– من مصيبة «حرب ٩٣» التي كان السبب فيها مجموعة الثوار. وقد أخذ السلطان «عبد الحميد» الدرس اللازم من تلك الحادثة فعمل على تشديد الاستحكامات في قلاع «چاتاجْه» و«إستانبول» و«الدَّرْدَنيلْ» في الغرب، وقلاع «العزيزية» في الشرق.

واتجه إلى سياسة المصالحة، وقام بحملات من أجل النهوض بالدولة داخليًّا، وقد أظهرت هذه الاستحكامات التي قام بها أهمية في الحرب العالمية الأولى وحرب

البلقان، وذلك كان نموذجًا على رأيه الصائب. وبدلاً من أن يخوض السلطان «عبد الحميد» سياسة الحرب التي كان ينتهجها عمه السلطان «عبد العزيز» والتي كانت تدعو إلى كثرة الإنفاق والدَّيْن الخارجي، اتبع سياسة النهضة بالحركات الصناعية المتطورة من أجل مواجهة الغرب المتطور في هذا المجال.

وبهذه السياسة السلمية التي انتهجها السلطان «عبد الحميد» أنقذت الدولة من الديون الخارجية، التي كانت تتحملها بسبب الإنفاق العسكري. وبذلك قلّت الديون الخارجية من ٣٠٠ مليون ليرة ذهبية إلى ٣٠ مليونًا فقط.

وثمة مظاهر براقة وعديدة للسلطان «عبد الحميد» بخصوص كيفية استخدامه للألمان لمواجهة الآمال الإنجليزية السياسية.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك؛ منحُه امتياز خط سكك حديد المدينة المنورة إلى «الألمان»، وتمكنُه من تخليص المكان الاستراتيجي المسمى بـ«العقبة» من يد «الإنجليز» بمساعدتهم.

ولأن السلطان «عبد الحميد» كان قد استفاد من الدرس من «حرب ٩٣» فقد أمر بإغلاق مجلس المبعوثان عام ١٨٧٨م وذلك لوجود تيارات مختلفة غير منتظمة تسعى إلى تخريب الدولة وتمزيقها.

أما الأهالي المسلمون الذين كانوا يعيشون في الأماكن التي افتقدتها الدولة في الروملي بسبب حرب ٩٣ التي كان «مدحت باشا» وأعوانه سببًا فيها، فقد أتوا إلى «إستانبول» كمهاجرين.

وقد استثمر «علي سُعاوي» مسكنة هؤلاء الأناس وجمع حوله مجموعة منهم من الذين ليس لديهم عمل ونقود إلى قصر «چِيراغانْ»، وحاولوا إقالة السلطان «عبد الحميد» وتنصيب السلطان «مراد الخامس» الذي كان محبوسًا في هذا القصر.

لقد تربى «مراد الخامس» منذ صغره على يد «مدحت باشا» الماسوني وأعوانه تربية خاصة. وكان هو أيضًا ماسونيًّا من الدرجة الثالثة والثلاثين، ولكن لا شك

في أنه انضم إلى هذا التشكيل دون أن يعرف هويته الحقيقية، إلا أن ممثلي الشر كانوا يفكرون في أنه في حالة جلوسه على العرش سيتحقق آمالهم السيئة بشكل أيسر.

أما «علي سُعاوي» هذا فقد كان يعمل مديرًا على مدرسة «غالاطة سَرايْ» الثانوية، ولكن بسبب أفكاره السياسية الفاسدة عزله السلطان من منصبه، وهذا تسبب في حقده على السلطان.

حقيقة القول: إن «علي سُعاوي» أصبح يميل إلى الميول السياسية اليهودية تدريجيًّا، وهو ما جعله بمثابة الآلة العمياء التي تستخدم من أجل السياسة الإنجليزية الموجهة ضد الدولة العثمانية.

ولأن محافظ "بَشِيكْطاشْ" «٧–٨ حسن باشا» قام بضرب «علي سُعاوي» على رأسه بالعصا فقد أدى ذلك الى موت «علي سُعاوي». وبذلك تم التخلص من ثورة كانت محتملة الحدوث.

لم يتأخر السلطان «عبد الحميد» في إدراك الخطر الكبير الذي يحيط به بسبب تلك الوقائع وما شابهها. وعلاوة على تلك الخيانة والحماقة التي كان يُظهِرُها مَنْ يقال عنهم "مُـثَـقَّـفون" في ذلك العهد، كان هناك خطر كبير على السلطان بسبب الفتنة التي يشعلها اليهود والأرمن والروم في كل وقت، وكان يجب التصدي لها بكل قوة. ولذلك اضطر السلطان «عبد الحميد» لاتباع سياسة داخلية مشددة أطلقوا عليها اسم «الاستبداد».

❁

وبالرغم من كل تلك الاضطرابات والبنية الداخلية المضطربة، أسس السلطان «عبد الحميد» جهاز مخابرات قويًّا وجيدًا للغاية يمكن أن يكون نموذجًا لكثير من الدول الحديثة اليوم من أجل تأمين سلامة الأهالي وأمن الدولة. ومن اللافت للانتباه استخدام السلطان «عبد الحميد» لشخص يُدعى «جُورِّيسْ» من أصل أرمني في هذا الجهاز الاستخباراتي مع العلم بأنه تم التحقق من أن هذا الرجل هو

الذي قام بعملية اغتيال السلطان بقنبلة، إن دل هذا على شيء فإنما يدل على عظم ذكاء السلطان. كما أن الإنجليز عندما قاموا بتفتيش أوراق سفيرهم في «مدْريدْ» بعد وفاته، عثروا من بين الأوراق على وثائق تدل على أنه كان على علاقة استخبارية مع السلطان «عبد الحميد». فأدركوا حينئذ أن جهاز المخابرات، الذي أسسه السلطان كان قويًّا جدًّا واندهشوا من ذلك. حتى إن مسألة حريق «قصر چِيرَغانْ» كان لها علاقة بجهاز الاستخبارات هذا. لأن الطوابق السفلى من هذا القصر كانت تمتلئ بالتقارير السرية، التي كان المخابرون يرسلونها إلى السلطان «عبد الحميد»، ولا شك في أن القصر حُرق بسبب القضاء عليهم. وذلك لأن هؤلاء المخابرين كانوا بمثابة المحرك الذي يعمل على التفرقة بين كبار رجال الاتحاد والترقي، وإذا ما نظرنا بنظرة سطحية إلى الأمر فإننا سنفهم بسهولة أنهم كانوا يتجسسون ضد بعضهم البعض للسلطان «عبد الحميد».

وبسبب موضوع التجسس هذا اتهم البعض السلطان «عبد الحميد» بأنه كان يتهم المخالفين له بدون وجه محق، وقد قيل وكُتب كثيرًا أنه ساق الكثير من الأشخاص إلى النفي مستندًا إلى تلك التقارير التي كان يرفعها له هؤلاء المخابرون.

ولكننا سنذكر هنا هذا المثال حتى نفهمَ حساسية ولياقة ودراية السلطان «عبد الحميد» لنتمكن من الوصول إلى الحقيقة في هذا الأمر كما ينبغي:

ذات يوم كان هناك موظف صاحب رتبة كبيرة يسير من أمام قصر «چِيرَغان» وقال بصوت مسموع أمام القصر:

"آه يا سلطاننا مراد لو كنت على رأسنا الآن أكنا على هذا الحال؟"

فوصل هذا الكلام إلى السلطان على الفور عن طريق المخابرات. فصدر عليه حكم النفي إلى «فيزان» من قبل الدولة.

ولما علم الصدر الأعظم «سعيد باشا» بالأمر اعترض عليه وقال للسلطان: "مولاي! ما هذا الوضع؟ إن هذا الموظف قام بالسرقة والرشوة قبل ستة أشهر

وعفوت عنه، والآن تــنــفيه بسبب استخبارات بسيطة؟ فرد عليه السلطان «عبد الحميد» قائلاً:

"لا يا باشا! لم أنفِ الرجل بسبب تقرير المخابر، ولكنني نفيته بسبب السرقة والرشوة التي قام بها، وأنا بالقصد جعلت المخابر يأتي بهذا التقرير. ولو كنت عاقبت الرجل بتهمة السرقة والرشوة قبل ستة أشهر لتضررت أسرته كلها من العقوبة؛ لأنه سيكون متهمًا بالرشوة والسرقة، وأما الآن فإنه متهم بأنه تمرد على السلطان، وهذا سيجعل أسرته مرفوعة الرأس بل وستظنه بطلا أيضًا. وأنا قد رجحت ذلك".

وهذه الحادثة وحدها كافية لمساعدتنا في تقييم الانتقادات الكبيرة المحقة وغير المحقة التي وجهت للسلطان «عبد الحميد».

وهذه حادثة أخرى تدل على رقة قلب السلطان «عبد الحميد»:

بالرغم من مرور خمس سنوات على مقتل السلطان «عبد العزيز» كان الأهالي لم ينسوا مقتله، وكانوا يريدون الإمساك بمن قتله ومعاقبته. وبناءً على هذا المطلب العام تأسست محكمة خاصة في «قصر يِـلْديزْ» حيث ثبت في تلك المحكمة أن «مدحت باشا» و«حسين عوني باشا» وغيرهما هم قتلة السلطان «عبد العزيز»، وأصدرت المحكمة حكمها بإعدامهم.

وقد أحيل هذا القرار إلى هيئة معتبرة مكونة من أربعين شخصًا كانت تضم شخصيات مثل «أحمد جودت باشا» والغازي «عثمان باشا» بطل «پِلَوْنَة» وذلك من أجل التدقيق في القرار والتصديق عليه. وقد نظرت الهيئة في القرار فوجدته صائبًا وأيدته بالاتفاق.

وبالرغم من كل هذا، لم يوافق السلطان على عقوبة الإعدام وحوّل العقوبة إلى نفيٍ فقط، هذا فضلا عن أنه أمر بوضع ٨٠٠ ذهبية في جيب «مدحت باشا» - الذي اعترف بالجريمة - كمصاريف طريق له.

والآن، مقابل ذلك التصرف الذي يفوق الخيال، هل يمكن لإنسان يعلم أسرار الحوادث أن يكون متسامحا مع من تطاول على سلطان عظيم ذي رحمة كهذا؟!..

❀

وتعتبر مشكلة الأرمن من الأسباب الرئيسية التي كانت وسيلة لاتهام السلطان «عبد الحميد» على مستوى العالم. لقد كان الأرمن في الدولة العثمانية في وضع متميز ومستثنى بين الرعايا غير المسلمين، الذين كانوا يعيشون في الدولة وذلك لأنهم كانوا يسيرون على نفس عاداتنا وتقاليدنا.

وكانوا طوال التاريخ يوصفون بأنهم الرعية المخلصة الصادقة، إلا أن الروس استخدموهم بدافع تحقيق آمالهم السياسية، وبذلك ابتعد الأرمن عن صداقتهم للدولة العثمانية. وقد بدأت تلك التحركات الأرمينية في بادئ الأمر بتحريض من الروس، ولكنها بدأت تلفت أنظار كل الدولة الغربية المسيحية لها. حيث شاركوهم هذه المعارضة.

ولما هجم «نابليون» على «مصر» التي كانت ولاية عثمانية هرع كل المتطوعين من كل الأرجاء ليدافعوا عنها. وكان منهم «قَـــوَالَــلِي محمد علي باشا» الذي ارتقى في المناصب بالرغم من أنه كان شابًا قرويًّا غير متعلم، إلا أن دأبه في العمل وتميزه وحرصه على إحراز المناصب جعله يرتقي حتى أصبحت «مصر» ملكًا له هو وأولاده. ولما رأى الغربيون الأمر على هذا أيقنوا أنه يمكن استخدام «محمد علي» هذا من أجل تقسيم الدولة العثمانية فعملوا على تقويته عسكريًّا، وأصبحوا يحرضونه ضد الدولة، وجعلوه يعصي الحكومة المركزية التي كان يتبعها منذ سنوات.

ونتيجة لهذه التحريضات قام «محمد علي باشا» بالهجوم على أراضي الدولة العثمانية، ولم تتمكن الدولة من إيقاف ثورة «محمد علي باشا» بسبب الفراغ العسكري الذي نشأ عَنْ إلغاء الانكشارية، التي كانت تمثل جيشنا التراثي التقليدي. لدرجة أن «محمد علي باشا» تمكن من الزحف حتى وصل إلى «كُوتاهْيَة» عام ١٨٣٢م.

ونتيجة لذلك اضطرت الدولة العثمانية أن تطلب المساعدة من «روسيا»، التي استطاعت أن تكون صاحبة الكلمة في إدارة المضائق في مقابل تلك المساعدة.

ولأن مَنْ كانوا يحرضون «محمد علي باشا» لم يكونوا راضين عن تلك النتيجة، استطاعوا بعد عشرين سنة تقريبًا أن يأخذوا مكانًا إلى جانب الدولة العثمانية، وحققوا بذلك حرب «القِرِمْ (١٨٥٣)» ضد «روسيا». وقد أيقظ هذا الوضع قناعة في «روسيا» بأنه في حالة الاستيلاء على المضايق فإن الغرب لن يكون راضيًا بسبب توازن الدول، ولهذا اضطر الروس إلى البحث عن حيلة للنزول إلى البحار الدافئة.

وكما أنهم أيقظوا ثورات العناصر المسيحية ضدنا في البلقان، بدؤوا أيضاً يحرضون الأرمن على الانفصال عن الدولة العثمانية وتأسيس دولة الأرمن أولا ثم ضمها إليهم بعد ذلك، حتى ينزلوا إلى البحر الأبيض المتوسط عبر ميناء الأسكندرونة الذي كان بمثابة ميناء الأرمن. وعلى هذا كان الفكر الروسي هو السبب الرئيسي في قيام ثورة الأرمن.

ولم يتأخر السلطان النابغ «عبد الحميد» في إدراك خطورة تسليح «روسيا» للأرمن وما ينتهي به الأمر بعد ذلك. فأمر بترحيل الأرمن من الأراضي التي يسكنون فيها إلى أماكن مختلفة من الدولة. إلا أن هذا التصرف البريء كان سببًا في دعاية دولية ضد الدولة العثمانية بتحريض يهودي طبعًا. ولهذا تم وضع قنبلة موقوتة لساعة معينة في عربة تم صنعها في «فيينا» لاغتيال السلطان «عبد الحميد»، وقد انفجرت تلك القنبلة أمام «جامع يِلْديزْ» قبل أن يركب السلطان العربة؛ لأنه – وعلى خلاف المعتاد – وقف يتحدث مع شيخ الإسلام لمدة ثلاث أو خمس دقائق تقريبًا على باب الجامع بعد أداء صلاة الجمعة، وقد ماتَ العديد من الجنود والمدنيين وجُرح البعض، وقد شعر الجميع بالخوف والاضطراب. أما السلطان «عبد الحميد» فكان ثابتًا ساكنًا، وصاح قائلاً: "لا تخافوا، لا تخافوا" وجلس السلطان مكان سائق العربة وضرب الخيول بالسوط، وسار إلى قصره وسط تصفيق السفراء.

انظروا إلى غفلة مَنْ أُطلق عليهم مثقفون في ذلك العهد، لقد قاموا بتصفيق حادثة الاغتيال التي قام بتخطيطها البلجيكي الأرمني «جُورِّيسْ». حتى إن الشاعر «توفيق فكرت» وهو من الشعراء المشهورين في ذلك العهد نظم قصيدة بعنوان «لحظة تأخر» شرح فيها حادثة الاغتيال، والعجيب أنه وصف هذا الجاني بأنه صياد ماهر مشرف. وكان يبدي في الأبيات أسفه لعدم نجاح الاغتيال. وعلى الرغم من ذلك لم يسجل التاريخ أدنى عقوبة أو أي تصرف قام به السلطان ضد هذا الشاعر.

ومن المشكلات الكبرى التي ظهرت في عهد السلطان «عبد الحميد» أيضًا مشكلة اليهود. فقد عقد «تَـيودُورْ هَـرْتْزَلْ» أول مؤتمر صهيوني في مدينة بَازَلْ السويسرية، وسعى إلى جمع اليهود الموجودين في العالم كله في فلسطين وذلك من خلال كتابه المسمى (الدولة اليهودية) الذي كتبه من قبل.

ومن أجل تأمين غايته تلك كان يجد الدعم من أسرة «رُوتْـشِلْدْ» اليهودية التي كانت تعد من أثرى العائلات في العالم في ذلك الوقت. فقد أتى المذكور إلى تركيا مرتين باسم تلك الأسرة، وعرض على السلطان «عبد الحميد» أن أسرة «رُوتْـشِلْدْ» تقترح عليه أن تدفع له كل ديونه الخارجية في مقابل أن يسمح لهم بانتقال اليهود إلى فلسطين والإقامة فيها.

رفض السلطان «عبد الحميد» رفضا شديدا ووقف أمامهم بصلابة، لذا أخذ اليهود يعدون الخطط للدعاية السوداء على نطاق العالم كله ضد السلطان «عبد الحميد».

وكان أول مساعي تلك الخطط أنهم أطلقوا على السلطان «عبد الحميد» لقب «السلطان الأحمر» دون مستند أو دليل. ويا للأسف لقد وجد هذا اللقب الذي ابتكره اليهود وأهدوه إلى الأرمن رواجًا بين بعض الفئات التركية في ذلك الوقت أكثر من الأجانب. لقد أطلقوا على هذا السلطان هذا اللقب بدون وجه حق بالرغم من أنه كان سلطانًا عادلا لم يصب أي شخص في أي وقت بضرر. حتى مَنْ قاموا

بقتل السلطان «عبد العزيز» لم يُنفذ فيهم حكم الإعدام، بل اكتفى بنفيهم. كما عفا عن هذا الأرمني المسمى «جُورِّيسْ» والذي كان متهمًا بمحاولة اغتياله.

❀

وبعد أن رفض السلطان «عبد الحميد» بشدة انتقال اليهود إلى فلسطين والإقامة فيها، أيقنوا تمامًا أنهم لن يصلوا إلى آمالهم إلاّ بعد القضاء على هذا السلطان. فسعوا إلى تأسيس جمعية الاتحاد والترقي في «إستانبول» أولا ثم في «سلانيك» التي كانت مقرًّا لليهود بعد ذلك، وقاموا بعمل دعايات مكثفة انساق خلفها بعض أبناء الوطن الذين كان حظهم سيئًا. بل إن تأثير هذه الافتراءات غير المحقة والتي لا تستند إلى دليل امتدت لتشمل أيضًا بعض أبناء الوطن ذوي النوايا الحسنة. وللأسف الشديد لقد تعرض كثير من أصحاب النوايا الحسنة أيضا للغفلة آنذاك.

ولأن السلطان «عبد الحميد» كان يراقب الموقف وخطورته أمر بحظر بيع الأراضي في «فلسطين» لليهود، كما قام بشراء كل الأراضي، التي كان يرغب أصحابها في بيعها بماله الشخصي وجعلها أراضي سلطانية. وبذلك أوجد السلطان «عبد الحميد» ما يعرف باسم «المزارع السلطانية» في فلسطين. من ناحية أخرى عمل السلطان على زيادة عدد السكان المسلمين في المدينة.

من ناحية ثالثة كانت العصابات التي تشكلت بتحريض من الروس في تلك الأثناء قد جعلت البلقان وكأنه إناء يغلي. وكان بين الضباط الذين يحاربون تلك الثورات في البلقان ضباط من الاتحاد والترقي وهم أيضًا قاموا بثورة. هذا الأمر جعل السلطان يعلن المشروطية الثانية.

كان السلطان «عبد الحميد» يفكر في إعداد «القانون الأساسي» (دستور) جديد وتطبيقه، إلا أنه لم يتمكن من إيجاد الفرصة لذلك في ظل تلك الظروف الصعبة المتأزمة للغاية، التي كان يستعد فيها لقمع الثورة، وبالتالي اضطر للسير على القانون الأساسي القديم.

اجتمع مجلس المبعوثان في ١٧ ديسمبر ١٩٠٨م، واختير في المجلس أعضاء من أكبر أعداء الدولة العثمانية، لدرجة أن تأثير الأقليات في المجلس كان أكبر من تأثير المبعوثين المسلمين.

اكتسبت سلطة الاتحاد والترقي بغضب الشعب في فترة قصيرة، وكانت تلك السلطة تُقابل بهجوم ونقد شديدين، حيث كانت تلك السلطة تقضي على كل مَنْ يخالفها دون أن تفكر هل هو من المفكرين أم من الصحفيين.

ولما وصلت الأوضاع إلى ذروتها في كراهية الناس لتلك السلطة، جلبت سلطة الاتحاد والترقي أمهر القناصين من المنحازين لهم من الروملي وأسكنوهم في «طاش قِشْلَه». إلا أن الضباط انخرطوا في وقت قصير في دهاليز السياسة، وقطعوا علاقاتهم بالجنود.

أما الجنود الذين وجدوا أنفسهم أحرارًا فقد وجدوا إمكانية الانخراط مع الأهالي، وبذلك أدركوا مدى الظلم والخيانة اللذين ارتكبهما الاتحاد والترقي. وبدلاً من أن يقوم هؤلاء الجنود بحراستهم انقلبوا عليهم وثاروا ضدهم، وسيطر الإرهاب لعدة أيام في «إستانبول»، حتى إن بعض وكلاء الأمة من جمعية الاتحاد والترقي قُتلوا في وسط الطريق، وهذه هي الحادثة المعروفة في التاريخ باسم «حادثة ٣١ مارت».

ولأن الاتحاد والترقي كان يرى في تلك الثورة خطرًا على سلطتهم خشوا على أنفسهم فجلبوا إلى «إستانبول» من الروملي جيشًا مكونًا من ١٥ ألف شخص سُمي باسم (جيش الحركة).

❁

وبسبب شفقة ورحمة السلطان «عبد الحميد» المفرطة لم يفعل أي شيء – مع الأسف – تجاه تلك الجماعة الغائرة رَغْمَ أنه كان يوجد حول القصر قرابة ٣٠ ألف جندي على أعلى درجة من التربية العسكرية، ولأنه لم يرض إراقة الدماء لأجل سلطنته حتى في ذلك الضوضاء، رضخ لحكومة الاتحاد والترقي وخُلع عن العرش.

أما الفتوى التي أصدرت في حقه - من باب العادة - فكانت بغير وجه حق وبغير مسند. أما التقصير الذي يُسند إليه فهو أمره بجمع الكتب الدينية القيمة وإحراقها. وهذا بهتان وظلم عليه وأصله على ما يلي:

"كانت طباعة المصحف في ذلك الوقت محظورة على الأشخاص. وقد صدر هذا الحظر من الدولة؛ لأنها كانت على يقين بأن الأشخاص إذاما طبعوا المصحف فلن يهتموا بإخراج طباعته كما ينبغي، ولهذا تولت الدولة أمر طباعة المصحف وتوزيعه مجانًا، وفي حالة قيام أحد الأشخاص بطباعة المصحف فإن الدولة كانت تصادر تلك النسخ وتقوم بإحراقها ثم تدفن الرماد الناتج عنها بعناية كبيرة.

أما بخصوص الفتوى التي صدرت بخلع السلطان فكانت غير شرعية؛ لأنها لم تصدر من الجهة المعتمدة وهي الإفتاء. حيث تمت دعوة «الحاج نوري أفندي» أمين الإفتاء إلى البرلمان لهذا الغرض، ولما أوضح المذكور في المجلس أنه لا يوجد سبب شرعي لخلع السلطان قال للحاضرين:

"إن الخلع مشئوم! وقد خُلِع السلطان «عبد العزيز» من قبل، ونتج عن ذلك أن فقدنا الروملي، وهاجر إلى «إستانبول» مئات الآلاف من الأهالي، وكنت أنا وقتها طالبًا في المدرسة ورأيت أنهم يملؤون ساحات المساجد والمدارس، وقد أصبت في كتفي من كثرة حمل الأطفال الأيتام، وإذا ترغبون في خلع السلطان فاعرضوا عليه الأمر، ليعزل نفسه!.."

أدرك «طلعت باشا» أن خيوط الأمر ستنسحب من يده بعد هذا الكلام، فضغط على النواب من العلماء للحصول على الفتوى المطلوبة منهم فاضطروا لإصدار تلك الفتوى.

وكم هو محزن أن البرلمان اختار هيئة مكونة من أربعة أشخاص لإبلاغ السلطان بخبر عزله، كان ضمن تلك الهيئة مبعوث سلانيك اليهودي «أَمَانوئَلْ قَرَه صُو» الذي أصر المجلس على إدخاله ضمن تلك الهيئة. ولما رأى السلطان هذه الهيئة وبينها

اليهودي التفت إلى الآخرين وقال لهم: "إنكم مسلمون ولكم الحق في اختياري خليفة على المسلمين أو عدم اختياري، ولكن ما بال هذا اليهودي بينكم؟

ولما سمعوا هذه الكلمات أحنوا رؤوسهم. ثم فكر السلطان قليلا وتدبر، ثم علم أن كل هذا بتقدير الله تعالى فقرأ الآية الكريمة:

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (يس، ٣٨)

❀

وبعد الخلع نفي السلطان إلى «سلانيك» قصدًا، وكانت محيطًا يهوديًّا، وحُبس في «قصر الأخوة ألاتيني» الذين كانوا أسرة يهودية ثرية، وهناك تعرض السلطان لظلم وضغوط لا يستحقها حتى الرجل العادي، حيث ظل السلطان هو وكل أفراد أسرته لعدة أيام بدون طعام أو شراب، وتمت مصادرة كل أملاكه الشخصية وثرواته بحجة أنها أصبحت ملكًا للأمة، ولما وصل جيش الحركة إلى «إستانبول» وعُزل السلطان عن العرش، قام الضباط بنهب «قصر يلْديزْ» وكوّنوا ثروة كبيرة، كما كونوا ثروة كبيرة أخرى بعد نفي السلطان أطلقوا عليها اسم (هدية إلى الجيش).

وبعد عشر سنوات تقريبًا من تلك الحادثة أمر «السلطان وحيد الدين» -رحمه الله- بعمل تحقيقات في الموضوع، وكانت اللوحة التي ظهرت تجعل الوجوه في غاية الخجل: لأن قائمة اللصوص والذين قاموا بنهب القصر كانت قائمة كبيرة، تبدأ بـ«محمود شوكت باشا» قائد جيش الحركة، وتنتهي بأصغر ضابط في الجيش، إلا أنه لم يكن ممكنًا في ذلك الوقت محاسبة هؤلاء الخونة نظرًا للظروف المتأزمة للدولة.

وبالرغم من أن الشاعر «توفيق فكرت» كان ينتسب إلى الاتحاد والترقي، وكان عدوًّا «للسلطان عبد الحميد» وبالرغم من خصاله السلبية إلا أنه شعر بعدم ارتياح ضميره من هذا السلب والنهب الذي قامت به جمعية الاتحاد والترقي، ولهذا نظم قصيدة وكأنه يقول فيها "ماذا توقعنا وماذا وجدنا":

أيها السادة هذه المائدة في انتظار الالتقام

حياة هذه الأمة ترتعش أمامكم

هذه الحياة مضطربة، محتضرة

ولكن لاتحذروا ولا تخجلوا وكلوا وابلعوا

كلوا أيها السادة كلوا فإن هذا الاشتهاء السلطاني لكم

كلوا إلى أن تشبعوا تمامًا حتى تهلكوا

أيها السادة أنتم جوعى وهذا واضح على وجوهكم

كلوا، وإن لم تأكلوا اليوم من يعلم هل سيبقى للغد؟

فهذا الذي ينادي للنعم يفتخر بقدومكم

فهذا حق غزوكم، نعم هذا حق

كلوا أيها السادة كلوا فإن هذا الاشتهاء السلطاني لكم

كلوا إلى أن تشبعوا حتى تهلكوا

أحصوا كل هؤلاء الأمراء المحترمين

فسيكون كل شيء لكم الحسب والنسب والشرف والقصر

كلها لكم أيها السادة القصر والنزل والعروس والموكب

الكل لكم الكل لكم جاهز وسهل

كلوا أيها السادة كلوا فإن هذا الاشتهاء السلطاني لكم

كلوا إلى أن تشبعوا حتى تهلكوا

المعدة قوية هذه الأيام والحساء ساخن اليوم

كلوا وابلعوا حفنة حفنة وقبضة قبضة

كلوا أيها السادة كلوا فإن هذا الاشتهاء السلطاني لكم

كلوا إلى أن تشبعوا حتى تهلكوا

إن هذا الشعر الذي نظمه شخص من داخل الاتحاد والترقي يمثل لوحة تحمل العِبرة ويعبر عن مدى نهب الاتحاد والترقي للأمة والدولة.

❁

وبعد أن تخلص أركان الاتحاد والترقي من السلطان «عبد الحميد» ونهبوا الدولة بهذا الشكل، بدؤوا يديرون الدولة بجهالة كبيرة في المناصب التي أسسوها بسهولة لأنفسهم. وأصبح السلطان رشاد الطيب صاحب الخصال الحميدة مجرد ألعوبة في أيديهم.

وبدأت المصائب تتوالى على الدولة، هجمت «إيطاليا» على «طرابلُسْ الغرب» (ليبيا) عام ١٩١١م، وأعد الصدر الأعظم الخائن «إبراهيم حقي باشا» الذي كان من الاتحاديين الأمر للإيطاليين لاحتلال طرابلس الغرب؛ حيث أمر بإرسال الجنود الموجودة هناك إلى اليمن، وبوسيلة مّا جلب الوالي إلى «إستانبول». وكان سفيرًا للدولة العثمانية في إيطاليا قبل أن يكون صدرًا أعظم، وكان يجب عليه أن يعرف نوايا الإيطاليين أكثر من أي شخص آخر، وعندما أتته لائحة التعليمات الخاصة باحتلال طرابلس الغرب كان يلعب الشطرنج مع «رُوبِيلانْ» الإيطالي الأصل الذي كان يعمل مستشارًا في الجيش العثماني، فقال لَمَنْ أتى بالتعليمات: "ضع هذه هنا، ودعني حتى أنتهي من اللعبة" وبعدها بساعات فتح التعليمات وبذلك أظهر خيانته وغفلته.

ولم تنتهِ غفلة وجهالة حكومة الاتحاد والترقي بهذا فقط، فبينما كانت المقاومة الشعبية مستمرة في «طرابلس»، ظهرت «حرب البلقان».

لم يكن عند الجيش أية استعدادات جدية أو استخبارات حقيقية، ولما رأت حكومة الاتحاد والترقي أن جيش الأعداء يتقدم بسرعة كبيرة وأن «سلانيك» في خطر قاموا بنقل السلطان «عبد الحميد» من «سلانيك» إلى «إستانبول» على الفور، ولما سأل السلطان «عبد الحميد» عن سبب نقله إلى «إستانبول» قالوا له: "إن جيش الأعداء يقترب كثيرًا، وأن هناك خطورة عسكرية عليه،" ولأن السلطان كان قد قطع

علاقاته بالعالم الخارجي منذ فترة فلم يكن عنده أية أخبار عن الأحداث الجارية، ولما علم بالوضع حزن جدًّا وصاح متألمًا وقال:

"يبدو أنكم حللتم مشكلة الكنائس!".

ثم قال السلطان لِمَنْ أخبره ذلك وهو «راسم بَكْ» بغضب كبير:

"راسم بَكْ! راسم بَكْ! إن «سلانيك» تعني مفتاح «إستانبول». أين جيشنا أين جنودنا؟ كيف نترك هذه الأراضي التي ارتوت بدماء أجدادنا؟ ولو تركنا هذا المكان ورحلنا، ألا يبصق في وجوهنا أجدادنا والتاريخ؟ هل وافق أخي على ترك المكان؟ كيف يكون؟ إنني لن أوافق على ذلك. ولا تنظروا إلى أي سن بلغتُ؟ إنني في السبعين من عمري. أعطوني بندقية، وسأدافع مع أبنائي الجنود عن «سلانيك» لآخر نفسي".

ولكن لما أبلغوه بسلام «السلطان رشاد» ورجائه لم يجد إلا القبول والموافقة على أمر السلطان بمسئوليته كشخص ينتسب إلى الأسرة العثمانية. واضطر لقبول إرادة السلطان ووافق في النهاية على ترك «سلانيك» والانتقال إلى «إستانبول» وهو في غاية الحزن.

نعم إنه صحيح، أن السبب الأصلي في الاتفاق الذي حصل بين أقوام البلقان، هو حل مشكلة الكنائس.

وعلينا هنا أن نوضح باختصارٍ مشكلةَ الكنائس تلك حتى نتمكن من فهم وتقييم خيانة وجهالة إدارة الاتحاد والترقي كما ينبغي:

بعد فاجعة حرب عام ٩٣ أصبحت «بلغاريا» ترتبط بالدولة العثمانية بارتباط ضعيف، أما في الحقيقة فكانت بمثابة الإمارة المستقلة التي تدير شؤونها الداخلية بحرية تامة، وكان واضحًا أنها ستعلن استقلالها في أول فرصة تحين لها مثلما فعلت اليونان، وحتى يقضي السلطان «عبد الحميد» على هذا الاحتمال اتخذ بسياسته الذكية للغاية التدبير الآتي:

"كان البلغار مثل اليونانيين ينتسبون إلى المذهب الأرثوذكسي، ونظرًا لأنهم لم يقوموا منذ فترة طويلة بتربية رجال الدين، لم يكن عندهم كنائس مخصوصة لهم، وقد فكر السلطان «عبد الحميد» بأن يفرقهم عن اليونانيين من الناحية الدينية، ولهذا أسس لهم كنيسة باسم «أرْكْسَاخِى» في «إستانبول» تشبه الكنيسة الموجودة في «بالاطْ» وأعطى لهم نفس الحقوق، وقد تم إعداد القِطَع الحديدية الخاصة بهذا البناء سرًّا في «بَرْلينْ» وأرسلت سرًّا إلى «إستانبول». وجعل العمال يركبون تلك القطع في ليلة واحدة. وفي الصباح وجد القساوسة الرومان أنفسهم أمام بناء كنيسة واللوحة المعلقة عليه كانت تظهر أنه يعادل كنيستهم، فأصابتهم الدهشة، ولا تزال هذه الارْكْسَاخِية للبلغار موجودة في «تركيا» حتى الآن وهي أول مبنى أسّس عن طريق التركيب (مونتاج).

وبهذا تأسست الكنيسة البلغارية بتلك المناورة السياسية التي قام بها السلطان «عبد الحميد». ولما ظهر الاحتياج لها، بدأ النزاع بين الروم والبلغار في الأماكن المشتركة التي يقيمون فيها. وتنازعوا من أجل ربط تلك الكنائس، التي كانت تقوم بعمل طقوسها تحت إشراف القساوسة الرومان، بالكنيسة البلغارية. وكان السلطان «عبد الحميد» يؤخر الأمر بصورة مستمرة حتى يعطي الفرصة لتأمين دخول الطائفتين في نزاع مستمر مع بعضهما البعض، مثل نزاع الهرة مع الكلب.

ولما وصل الاتحاديون الغفلة إلى السلطة أصدروا قانونًا يُسمى «قانون الكنائس»، حيث قضى هذا القانون بتوزيع الكنائس في الأماكن التي يعيش فيها «الروم» و«البلغار» على أساس كثافة عدد السكان. ولهذا قاموا بعمل إحصاء للسكان، وأقروا أنه إذا ما ظهر أن سكان أي طائفة منهم هي الأكثر عددًا فإنه سيتم انتقال الكنائس إليها بقوة الحكومة، أما الطائفة التي ستظل بدون كنائس فإن الحكومة ستقوم بعد سنتين بتأسيس كنائس لهم، وبذلك تَمَّ القضاء على هذا الاختلاف الناشب بين الطرفين.

ولما انتهت مشكلة الكنائس عاش «الروم» و«البلغار» في صداقة لعدة سنوات كما كانوا من قبل، فضلا عن أنهم أخذوا إلى صفهم أيضًا «الصِّرْب» الذين كانوا أعداء أزليين لنا، وبالتالي عملوا على بدء «حرب البلقان». هذا هو أصل المسألة التي أشار إليها السلطان «عبد الحميد خان» بقوله:

"يبدو أنكم قد حللتم مشكلة الكنائس".

إن خيانة الاتحاد والترقي وجهالته لا تُحصى والأمثلة كثيرة، منها: أنهم خاضوا الحرب العالمية الأولى إلى جانب الألمان بعد حرب البلقان، هذا أمر لا يفعله إلا الأحمق وقد تحقق ذلك بوساطة يهودي، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من فهم السياسة التي انتهجها السلطان «عبد الحميد» في تحريض الألمان ضد الإنجليز الذين كانوا تحت توجيه اليهود.

وبينما كانت الدولة العثمانية لم تزل تضمد جروحها من حرب البلقان بعد، إذا بها تدخل الحرب العالمية الأولى بدون أية استعدادات بهدف تخفيف الحمل عن الألمان، وكان هذا أكثر عامل مخيف في القضاء على الدولة العثمانية.

ولما أوشكت الحرب على النهاية وبدأت الملامح الرئيسية لها في الظهور أدرك رؤساء الاتحاد والترقي وهم «أنور باشا» و«طلعت باشا» أنهم قد أخطأوا لما عزلوا السلطان «عبد الحميد»، ولهذا قاما بزيارته في «قصربَكْلَرْبَكِي» الذي كان يقيم فيه ليسألوه عن الإجراء الذي يتخذونه حيال تلك الهزيمة، فأحضر لهما السلطان العظيم أطلسًا وأظهر لهما المستعمرات الإنجليزية، وذكر عدد سكانها، ثم سأل عن المستعمرات الألمانية، وبالطبع لم يكن للألمان أية مستعمرات، فشعر السلطان بالحزن جدًّا وقال:

"ألم تستطيعوا حساب الأمر؟ هل كان من المعقول خوض حرب ضد الإنجليز بجوار الألمان؟ لقد استخدمت أنا الألمان من أجل إعاقة الآمال الإنجليزية، ولم أفكر في شيء آخر سوى هذا، والآن تسألون عن رأيي، كان يجب عليكم هذا من البداية، ولكن الوقت متأخر جدًّا الآن!"

وبينما كان الاثنان يغادران القصر وعيونهما تكاد تدمع قالا:

"إننا لم نقدر قيمة هذا السلطان الكبير، يا لعظم الخطأ الذي ارتكبناه".

حقيقة القول: إن كثيرًا من الذين كانوا يهرولون من خطأ إلى خطأ أدركوا أخطاءهم فيما بعد بوسائل مختلفة، وكانوا يضطرون إلى قول هذه الأبيات وهم نادمون وقليلو الحيلة:

يا للحسرة لقد احترقنا من جديد في هذه الألعوبة

لأن الخسارة واضحة لا أعرف ماذا اكتسبنا

❁

كانت هناك مخاوف بأن يتقدم أسطول الأعداء صوب «بحر مرمرة» ويعبره أثناء «حرب الدردنيل»، فتقرر نقل السلطان والحكومة إلى «أسْكي شَهِرْ» كإجراء وقائي. ولما علم السلطان «عبد الحميد» بالأمر رفض بشجاعة وجرأة كبيرة وقال: "أنا حفيد «السلطان محمد الفاتح»!.. ولن أكون أقل من «قسطنطين» إمبراطور بيزنطة في أي وقت، فعندما فتح جدي الفاتح «إستانبول» مات «قسطنطين» وهو يحارب على رأس جنوده، وليذهب أخي السلطان إلى أي مكان يرغب فيه، ولكن ليعلم هو والحكومة جيدًا أنهم لو خرجوا منها فلن يعودوا إليها مرة أخرى، أما أنا فلن أخرج خارج «قصر بَـكْلَرْ بَكِي»".

وأمام هذا القرار ظلت الحكومة والسلطان في «إستانبول»، وبذلك أنقذ السلطان انهيار الدولة في ذلك اليوم. وتُوفي السلطان «عبد الحميد» عليه رحمة الله في ١٠ فبراير ١٩١٨م بعد حياة شاقة مليئة بالتعب والكفاح. جعل الله مثواه الجنة.

رحمة الله عليه!..



ولما تُوفي السلطان «عبد الحميد» عام ١٩١٨م أعلنت الأمة المظلومة المسكينة



كلها الحداد، وقد تجمع في جنازته ما لا يُحصى من الناس ودفنوه في قبره الموجود في «ديوانْ يولي» وقد قال بعضهم أثناء دفنه:

"أين تذهب وتتركنا أيها السلطان العظيم؟"

حتى الذين أبدوا أشد وأقبح معارضة للسلطان «عبد الحميد» تنبهوا بوقوع الكثير من المصائب التي توالت على الدولة من بعده، فأفصحوا عن مشاعر الندامة التي أحرقت قلوبهم، ومن هؤلاء الفيلسوف «رضا توفيق»، وقصيدته المسماة «المدد من روحانية السلطان عبد الحميد» مشهورة جدًّا:

أين أنت يافخامة السلطان عبد الحميد؟

هل تصل صرختي إلي ديوانك؟..

عندما يتذكر التاريخ اسمك؛

سيعطيك حقك أيها السلطان العظيم!

افترينا عليك دون أن نخجل؛

افترينا على أذكى سلطان سياسي!..

قلنا عنه سلطان ظالم ومجنون

وقلنا يجب أن نقوم بثورة

وقلنا نعم لما قاله الشيطان

سعينا لإيقاظ الفتنة

لم تكن أنت المخبول بل نحن

نسجنا خيالا بأوهي الخيوط

لم تكن أنت المجنون بل نحن. كنا بلا أدب

و تفلنا على قبلة الأجداد

وهذا «سليمان نظيف» الذي كان أحد النادمين يذهب لزيارة قبر السلطان عقب الأحداث غير المحتملة التي حدثت بعده ويعبر عن أحاسيسه بقوله:

منذ متى ونحن لم نأت لذكراك

والآن أتينا نطلب المدد منك

وقد اشتقنا إلى الاستبداد القديم!..

❀

إن السلطان «عبد الحميد خان» كان أول مظلوم لفلسطين. لأن خلعه كان بسبب مقاومته لليهودي «تَـــيودُورْ هَرْتْزَلْ» في مسألة «فلسطين».

لقد أصبح العالم الإسلامي كله يتيمًا بموت السلطان «عبد الحميد»! لأنه استطاع أن يقيم الخلافة بالمعنى التام للكلمة، ولم يمكن إظهار هذه الدراية من بعده بسبب الكوارث العسكرية التي ظهرت.

ولما قُتل السفير الألماني «كِيتْلَرْ» في الصين عام ١٩٠٠م على يد جماعة قومية صينية، بدأت حركة غربية كبيرة ضد الألمان، وكانت تلك الحركة تسمى (ثورة بُوكْسِرْ). وقد طلب «وليام» مساعدة من السلطان «عبد الحميد» فأرسل له السلطان هيئة للنصح منتهزا هذه الفرصة. وأسس في «بَكينْ» مؤسسة للتدريس الديني كانت تُسمى (جامعة الحميدية) أظهرت فعاليات دينية كبيرة في «بَكينْ» لفترة طويلة.

كما أرسل إلى اليابان هيئة علمية عُرفت في تاريخنا باسم (فاجعة أرطغرل) كانت مهمة تلك الهيئة نشر الإسلام إلى تلك الأماكن، ومد نفوذ الخلافة ليشمل العالم كله، وحتى نتمكن من فهم وإدراك قوة وشمول تلك السياسة التي انتهجها السلطان «عبد الحميد» في العالم الإسلامي، علينا فقط أن نتذكر أن تركيب خطوط السكك الحديدية من «إستانبول» إلى «المدينة المنورة» لم يتحقق بقرش واحد من الدولة بل كان من المساعدات، التي وردت من العالم الإسلامي كله.

كان السلطان «عبد الحميد» سلطانًا ذا بصيرة ورأي صائب. فقد استفاد من الظلم الواقع على الزنوج الموجودين، الذين كانوا مهينين في «أمريكا»، وأرسل إليهم رجالا للدعوة بهدف جذبهم إلى العالم الإسلامي، ومن الحقائق التاريخية الثابتة أنه كان عاملا رئيسيًّا في تشكيل الوجود الإسلامي الزنجي الموجود حاليًا.

كان السلطان «عبد الحميد» يتعقب التطورات التي تحدث في العالم من خلال الصور. فقد كان لديه ما يزيد على ٣٠٠٠ ألبومًا، وبهذا تعقب وتتبع التطورات التي تجري في العالم حرفيًّا. ومن الأمثلة على ذالك: الحرب الروسية اليابانية التي وقعت عام ١٩٠٤ م لم يكن هناك أدنى احتمال بأن ينتصر اليابانيون، قال السلطان «عبد الحميد» للصدر الأعظم بأن السفن الروسية، التي ستمر من المضيق من أجل الذهاب إلى الشرق الأقصى لن تعود مرة أخرى. حتى إنه تتبع أخبار هذه الحرب يومًا بيوم بواسطة «بَـرْتَـوْ باشا»، وبذلك لم يهمل السلطان الاستفادة من هزيمة الروس أمام اليابان وتحويلها إلى مكسب له.

وهذه كلمة أخيرة يجب علينا ذكرها، وهي أن شخصية مباركة كالسلطان «عبد الحميد» ودقة سياسته والكوارث التي حدثت داخليًّا وخارجيًّا في عهده، لا يتسع المقام لذكرها كما ينبغي. فبالرغم من أنه كان يسعى بجهود لا تتحملها طاقة البشر لإعاقة حدوث المصائب التي تعرضت لها الأمة، إلا أن تلك المصائب تحققت بالفعل بسبب غلبة الفساق، ولن يمكننا فهم ذلك طالما أننا لا ننظر إليه من نافذة القدر.

أما بالنسبة لتدين السلطان «عبد الحميد» وخدماته ورحمته وذكائه وقابليته فيمكن القول بأنها كانت أسطورية. والحادثة التالية تعد من أجمل الذكريات التي تدل على إخلاصه:

كان السلطان «عبد الحميد» يطلب مِمَّنْ حوله أن يوقظوه في أي وقت من الليل إذا ما ظهر أمر عاجل، وكان لا يرضى بتأخير العمل إلى اليوم التالي، ويذكر «أسعدْ بَكْ» رئيس كتاب المابين الهمايوني في مذكراته عن هذا الأمر ما يلي:

"طرقت باب السلطان في وسط الليل من أجل توقيعه على أمر مهم للغاية، ولكن الباب لم يفتح، فانتظرت قليلاً، وطرقت مرة أخرى، ولكنه لم يفتح، فخشيت أن يكون السلطان قد تُوفي. فطرقت بعد فترة قصيرة، ولكن في تلك المرة فتح السلطان الباب ورأيت في يده منشفة؛ حيث كان يجفف وجهه، ابتسم وقال: "يا بُني! لقد علمت أنك لا تأتي في وقت كهذا إلا لأمر مهم، وقد استيقظت عندما طرقت الباب أول مرة ولكني ذهبت للوضوء، ولهذا تأخرت معذرة، فأنا منذ فترة وقد اعتدت على عدم توقيع أية وثيقة تخص الأمة بدون وضوء. هات الورق لأوقعه" وأخذه وسمى الله ثم وقع.

كما نقلت زوجة السلطان «عبد الحميد» هذه الرواية أيضًا في هذا الشأن:

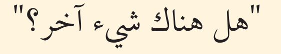
"كان السلطان دائمًا ما يضع آجرّا نظيفًا بجوار وسادته، كان يتيمم به؛ لأنه كان لا يريد أن يسير من السرير إلى الحمام بدون وضوء، ولما سألته عن السبب في هذا قال:

"إذا لم أراعِ أنا كخليفة للمسلمين سُنة نبينا محمد، فإن الأمة ستتضرر من هذا".

والحادثة التالية التي وردت في مذكرات أحد كُتَّاب المابين الهمايوني وهذا الكاتب لم يكن على علاقة بالسلطان لمن الحوادث التي تستدعي التأمل:

"كان الوقت مساءً، وظللت أنا في المابين لأن النوبة كانت عليّ، قمت بترتيب المذكرات والبرقيات والتقارير الواردة. وبينما كنت على وشك الذهاب بها إلى السلطان إذا ببرقية تأتي من أحد موظفي مكتب بريد «لَالَه لِي» في «إستانبول» حيث عرض الموظف فيها أن زوجته ستلد الليلة وأن الطبيب أخبره بأن الولادة ستكون عسيرة، ولهذا فإنه يطلب من السلطان مساعدة لأنه لا يملك شيئًا، ولأنني لم أر تلك البرقية مهمة لم أضعها بين الأوراق التي سآخذها للسلطان. ولما ذهبت إلى السلطان بالأوراق أخذ يتفحصها كعادته واحدة واحدة، وبعد أن انتهى منها كلها سألني:

"هل هناك شيء آخر؟"





فأجبته: "ليس هناك شيء جدير بالاهتمام يا مولاي"

فقال: "قل لي ما هو هذا الشيء الذي تظنه غير جدير بالاهتمام"

فأخبرته بأمر البرقية التي وصلت مؤخرًا، حزن السلطان، وأمرني بأن أجلبها على الفور. أحضرت البرقية وأنا في حيرة. قرأ السلطان البرقية بإمعان ثم أمرني بأن أستدعي طبيب القصر، وأن أذهب معه الآن إلى منزل الموظف المذكور في «لَالَه لِي».

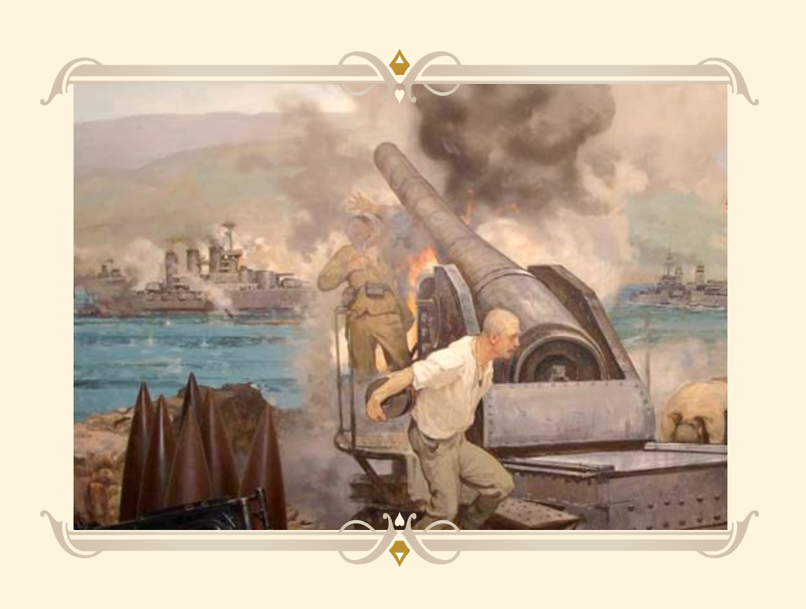
ذهبت أنا والطبيب إلى منزل الموظف بناءً على أمر السلطان، ولما عدنا من المستشفى كانت الشمس على وشك الشروق، ولما دخلت القصر، شعر السلطان بوصولي من صوت الباب فأشار إليّ بيده بالدخول إليه، كانت الأنوار لا تزال مضيئة وهذا يعني أن السلطان ظل طوال الليل مشغولا بالدعاء والعبادة، وسألني عن الأمر فقلت له:

"إن الولادة كانت خطيرة فعلا يا مولاي، ولكن الحمد لله ولدت المرأة المسكينة بجهود الأطباء المتخصصين، لقد ولدت ذكرًا أسموه «عبد الحميد». وظلوا حتى الصباح يدعون للسلطان بطول العمر والدموع في أعينهم."

شعر السلطان الذي كان بمثابة الأب الرحيم على الأمة بالراحة من هذا الكلام وقال من أعماق قلبه الحمد لله، ثم صلى خلف الستار شكرًا لله.

اللهم أحسن إلينا بأجيال تربت على عزة النفس والشجاعة وفيها مثل السلطان «عبد الحميد»، وانصر أمة محمد التي تحارب في سبيلك أهل الكفر والنفاق، وامنحنا القوة التي ستمكننا من تحمل ثقل المسئولية التي أعطيتها لنا. آمين!!!..







الملحمة المكتوبة بالإيمان

نصر الدردنيل
و
الأبطال المجهولون

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى بسبب التنافس بين الإنجليز والألمان، كانت الدولة العثمانية تحت سلطة الاتحاد والترقي المستبدة. فقد قامت تلك المجموعة بتخطيط يهودي بإسقاط السلطان «عبد الحميد» الذي يُعد أحد أكبر الشخصيات في تاريخنا القومي من عرشه، وأخذت شؤون الدولة بيدها، إلا أنهم بعد فترة قصيرة ساقوا الدولة من مصيبة إلى مصيبة بسبب غفلتهم تارة وسلسلة الخيانات التي تلا بعضها بعضًا تارة أخرى، وأوصلوا الدولة العثمانية التي من الصعب أن تبقى خارج ساحة الحرب إلى نقطة خطيرة من الناحية العسكرية والأخلاقية.



فالدولة لم تكد تضمد جروحها الكبيرة التي تفتحت بسبب «حرب طرابلس الغرب عام ١٩١١ و«حرب البلقان» عام ١٩١٢م، إلا ووجدت نفسها أمام مجموعة الاتحاد والترقي التي كانت تريد القضاء على خصومها السياسيين الداخليين بإرهاب مخيف، بل إنهم ذهبوا إلى ما هو أكبر من ذلك وهو السعي خلف تحقيق الثراء الشخصي لهم من خلال استثمار الأزمة المالية التي نتجت بسبب الحروب المذكورة.

من ناحية أخرى لم يكن هناك اتحاد بينهم من الداخل، فبينما كان «طلْعَتْ باشا» و«أنْوَرْ باشا» منحازين إلى «ألمانيا»، كان «جمال باشا» منحازًا إلى كتلة الائتلاف التي تضم «فرنسا»، إلا أن هذه الكتلة كانت تضم مجموعة من الإنجليز ذوي الميول اليهودية، وكانوا متفقين فيما بينهم على الاستيلاء على فلسطين وتأجيرها لليهود، أما الروس الذين كانوا موجودين في تلك الكتلة فقد كانت لهم آمال تاريخية على أراضينا. ولهذا فإن مساعي «جمال باشا» لم تسفر عن أية نتيجة.

أما المجاعة التي ظهرت في «روسيا» بعد نشوب الحرب بفترة قصيرة، فقد شكلت فرصة جديدة لبقايا الشيوعيين من تجربة ثورة عام ١٩٠٤م. فقد استثمر الشيوعيون هذه الأزمة، وبدءُوا يهزون سلطة قيصر الروس، وكانت الحيلة الوحيدة لعدم قيام ثورة شيوعية هو قيام دول الحلفاء بإرسال مساعدات ومواد غذائية إلى «روسيا»، إلا أن عبور جبهة «جَاليچْيَا» الموجودة في «رومانيا»، من أجل تحقيق هذا كان أمرًا صعبًا نسبيًّا من الناحية العسكرية، إلا أن وقوع حادثة مؤسفةٍ رتّبتها الاستخبارات الألمانية مِنْ قبلُ صار لصالح الأعداء وجنى على العثمانيين كما جنت البراقش على أهلها.

حيث قامت بارجتان ألمانيتان باسم «جُوبَنْ» و«بَرْسْلاوْ» (ثم أصبحتا معروفتين باسمين تركيين «يَاوُوزْ» و«مِيدِيلِّي») بدخول «مضيق الدردنيل» وكأنهما تفران من تعقب إحدى سفن الأعداء. اعترض الحلفاء على هذا التصرف، فادعت حكومة الاتحاد والترقي بأنها ستشتري البارجتين لتسكت الحلفاء.

لم يحسب الغفلة أن تصرفاً مثل هذا سيقحم العثمانيين في حرب عبث قبل وقتها مما احتاجوا تغيير قادة هاتين السفينتيين وأفراد طاقمهما واكتفَوْا برفع العلم العثماني عليهما وبإلباس من فيهما بملابس عثمانية.

وبعد عدة أيام قامت البارجتان المذكورتان بدخول البحر الأسود بحجة أنهما تقومان بجولة، وقد قامتا بالهجوم على سفينة نقل روسية وثبت بعد ذلك أن هذا تم بتعليمات من «أنور باشا»، ثم قامت البارجتان بضرب «سيواسْتُوبُولْ» بالمدافع، وبذلك ألقيت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى بحادثة قام بها الأدميرال الألماني «سُوشونْ» اليهودي الأصل.

ولهذا السبب قام الحلفاء بالهجوم على «الدردنيل» بحجة أنهم سيعبرون المضيق لإيصال المساعدات إلى «روسيا» ليمنعوا نشوب ثورة شيوعية محتملة الحدوث.

❀

لقد كانت معركة «الدردنيل» من أعظم الحروب في تاريخ العالم، وقد كتب الله لنا النصر والتوفيق فيها بالرغم من أن ثلاث دول كبرى في العالم وهي «إنجلترا» و«فرنسا» و«إيطاليا» كانت قد اشتركت فيها بأحدث البارجات المدرعة، وما يقرب من ٣٠٠ ألف جندي.

ولكن ما ثمن انتصارنا في «الدردنيل»؟..

إنه ٤٠٠ ألف شاب من أبناء هذا الوطن اُستشهدوا. منهم ٢٥٠ ألف في ساحة المعركة، و١٥٠ ألف تقريبًا في المستشفيات.

وبالرغم من الإدارة السيئة للاتحاديين وقلة العتاد العسكري، إلا أن جنودنا الأبطال المحمديين تلافوا بقوة إيمانهم تلك المعوقات، وأضافوا في «الدردنيل» آخر صفحة من الصفحات الذهبية لتاريخ الدولة العثمانية.

والأبيات التالية تعبر وبأجمل شكل عن الأبطال الشهداء الحقيقيين لـ«الدردنيل»:

تخجل الأرقام عندما تخجل الأرض
من عدد الشهداء السابقين من جيلك.
فإنك تسعى في الصف الأول وتموت بشوق الميت الأول
تموت بمتعة مَنْ يعيشون على الأرض
أنت لاتريد تعويض البقاء
ألطافه تجعل رفعتك وشرفك ذليلا
تموت بالاسم والجسم
وتسقط الى الأبعاد المجهولة وتُدفَن
تدخل في التاريخ ولا يُعلَم ما اسمك؟
أنت الذي صنعت التاريخ، واسمك أسطورة
ذكراك وخبرك أصغر وأقل من النَّـفَس الأخير
لا ينتشر خبر غيابك لما مت
بالولولة والعربدة التي استغرقتا الآفاق
بالآثار التي تطلب الأبدية من السماء
مجهول لك الموت الذي معجب بذاته ويأتى بالشرف
مجهول لك ايضا الموت الذي يؤيد الحياة
لا جسد لك ولا ظل أحيانًا
وليس لك جنازة صنعت من الخشب من قبل العوام
حتى قبرك غير موجود، ولو كان موجودًا فلا يوجد به حجر واحد
فهو مثل نعشك لا رأس له ولا صدر!

وتوجد أمثلة كثيرة تدل على أن «نصر الدردنيل» تحقق بقوة الإيمان أكثر من قوة السلاح المادية، ونود هنا أن نذكر لكم جزءًا من الرسالة التي كتبها الشهيد معلم «حسن أدهم» أحد ضباط الاحتياط، الذين شاركوا متطوعين في تلك الحرب، وكان قد كتبها إلى أمه قبل استشهاده بفترة قصيرة، وكانت تلك الرسالة تعكس الجو المعنوي، الذي كان يشمل كافة الجنود. وها نحن نقدم لكم قطعة من الرسالة:

أمي العزيزة :

أيتها الأم صاحبة الرفعة التي تفتخر بأنها ولدت أربعة جنود.

تلقيت رسالتك وأنا أجلس تحت ظلال شجرة كمثرى على ضفاف النهر الذي يمر من وادٍ صغير معشوشب جميل مثل «وادي دِوْرينْ».

وقد قوّت رسالتك تلك من روحي التي كانت قد ثملت من هذه الطبيعة الخضراء، قرأتها وكلما كنت أقرؤها كنت أتعلم دروسًا أكثر.

وكنت أشعر بالفرح؛ لأنني أقوم بوظيفة جميلة ومقدسة كهذه. فتحت عيني ونظرت إلى البعيد، كانت الأغصان الخضراء التي تظهر من بعيد تتمايل، ولا تستطيع مقاومة الريح، تبدو لي وكأنها تسلم الخطاب الوارد إليّ من أمي. كانت كلها تميل من جانبي إلى كل صوب وكأنها تهنئني بقدوم رسالة أمي.

التفتّ إلى اليمين قليلا فوجدت أشجار الصنوبر الكبيرة المصطفة على حواف هضبة جميلة تبدو وكأنها تبشرني بصدى خاص بها. تحولت بنظري إلى اليسار فرأيت النهر الصغير الذي ينهمر وكأنه يبتسم إليّ بسبب الخطاب الوارد إليّ من أمي. رفعت نظري إلى الأعلى فنظرت إلى أوراق الشجرة، التي كنت أستريح تحتها، فرأيت أنها كانت تريد أن تبلغني بالرقص الذي ترقصه بأنها تشاركني فرحتي.

نظرت إلى غصن آخر فرأيت بلبلا جميلا يبشرني بصدى عذب، وكان يفتح منقاره الرقيق وكأنه يريد أن يُظهر لي أنه يشاركني أحاسيسي.



وكأن البلبل كان يريد أن يعكس أحاسيسي بهذا الترنم، وكأنه يريد أن يقول لي:

"إن والدتك غير محظوظة!.. ماذا نفعل؟ فلو كانت رجلاً لكانت قد أتت إلى هنا وشمت رائحة تلك الزهور، وشربت من هذا اللبن، وكانت سترى سجود هذه الأغصان وكانت ستسمع إلى صوت خرير الماء بنغماته الداخلية التي يصدرها.

وفي تلك اللحظة رأيت جنودي الذين كانوا يغسلون ملابسهم قد اصطفوا صفوفًا في جانب أخضر للغاية من هذا المكان الجميل، وبدأ جندي من الجنود يؤذن بصوت عذب للغاية.

الله! الله! إن هذا الصوت الإلهي في هذا الوادي كان يبدو وكأنه يأتي من عالم آخر، لكم كان جميلا، لدرجة أن البلابل نفسها صمتت، حتى الزروع توقفت عن الحركة، حتى النهر لم يصدر صوته، كان كل شخص وكل شيء يصمت ليستمع إلى النداء الإلهي.

انتهى الأذان الشريف، توضأت من النهر وصلينا جماعة، جلست بعدها على هذا المرج الأخضر الجميل.

لقد نسيت كل عظمة الدنيا وأبهتها، ورفعت يدي، ونصبت عيني إلى السماء وفتحت فمي وقلت:

"يا رب السموات والأرض، يا خالق تلك النباتات والأغنام وهذه الأعشاب الخضراء والأغصان التي تسجد لك، والجبال المهيبة، لقد أعطيتها كلها لنا، اجعل تلك الأماكن الجميلة وهذه النعم لنا نحن الذين يقدسونك ويصدقون عظمتك!

يا إلهي! يا عظيم! إن هدف هؤلاء الجنود الأبطال هو تعريف اسمك العظيم لهؤلاء الإنجليز والفرنسيين، فأحسن إلينا بهذا المطلب المشرف، إننا جنودك الذين يدعونك في هذا المكان الجميل بأن تقهر الأعداء بسلاحنا، وأن تمحوهم جميعًا"،

ثم نهضت بعد دعائي.



والآن لا يمكن تصور شخص مسرور أو فرح مثلي. يا أمي العزيزة إن ابنك خالدًا أيضًا في مكان جميل كهذا، إلا أنه ليس في هذه البلاد عرس وسنعود إليك إن شاء الله بالنصر على جنود الأعداء وقهرهم، ونقيم حفل العرس جميعًا إن شاء الله، أليس كذلك؟

أمي العزيزة لا تنسيني من دعائك. رضي الله عنك"

ابنك حسن أدهم

١٧ أبريل ١٩١٥م.

وعلى هذا كان «نصر الدردنيل» هدية ونجاحًا كبيرًا قدمه لنا جنود أبطال كهؤلاء مقابل أرواحهم. وتوجد أمثلة عديدة معروفة وغير معروفة مثل هذا المثال وقعت في كل حملة من حملات هذه الحرب المشرفة.

وهذه أمثلة مفعمة بالعِبر:

الكلمات الأخيرة لأحد شهدائنا:

كان اليوزباشي «محمد توفيق» قد أُصيب بطلق إنجليزي في حرب الدردنيل في ٢ يونيو ١٩١٦م. وقبل استشهاده كتب هذه الرسالة:

"من المعسكر الموجود بالقرب من «أُووَه جِيقْ» ١٩١٦م.

إلى والدي العزيز ووالدتي العزيزة، سبب حياتي ومنبع الفيض لي؛

في أول معركة مدهشة خضتها في «آرِى بُورْنُو» نفذت رصاصة إنجليزية خائنة من بنطلوني ومن جانبي الأيمن، ولكني والحمد لله نجوت، ولأنني لا آمل في النجاة في المعارك الأخرى التي سأخوضها بعد ذلك، فقد كتبت تلك الأسطر لتكون كتذكار. والحمد لله رب العالمين أن أوصلني إلى تلك المرتبة، وجعلني بقدره الإلهي جنديًّا، وأحمد الله أنكما كوالدين قد ربيتماني كما ينبغي على خدمة الوطن والأمة، وكنتما سبب وجودي في تلك الحياة ومنبع الفيض المرافق لي، أحمد الله حمدًا كثيرًا على ذلك وأشكركما.

واليوم هو وقت أداء الدَّين الذي علينا للأمة، ولهذا فأنا أسعى من أجل تنفيذ واجبي المقدس. وأنا على قناعة بأنني لو اُسشتهدت فإنني سأكون بذلك من العباد الذين اصطفاهم الله، ولأني جندي فإن هذا الأجل قريب مني جدًّا في كل وقت.

أبي الحبيب وأمي الحبيبة،

إنني أستودع زوجتي وقرة عينى «مُـنَوَّرْ» وابني الغالي «نَـزِيهْ» الله أولًا ثم إياكما بعده. فاسعوا إلى فعل ما يمكنكم فعله لهما، وتعلمون أني لا أملك ثروة، ولن أطلب شيئًا أكثر من الممكن، وحتى لو طلبت فإنه سيكون هباءً، أطلب منكم لو سمحتم بأن تعطوا زوجتي الرسالة المغلقة التي أرسلتها إليها في يدها. ومن الطبيعي أنها بعد قراءتها ستبكي فخففوا عنها، فإنما كان هذا بتقدير الله، أرجو منكم أن تهتموا بالدفتر الذي أرسلته مع رسالة زوجتي فهو بخصوص مطالبي وديوني، واعلموا أن الديون المسجلة في دفتر زوجتي أيضًا وما هو في ذاكرتها إنما هو صحيح، إن الرسالة التي كتبتها إلى «مُـنَوَّرْ» أوسع، سلوها عما فيها.

أبي وأمي الحبيبة؛ يمكن أن أكون قد قصرت في حقكما وأنا لا أعلم فاعفوا عني، لتُسعدا روحي، وساعدا زوجتي في تنظيم شؤونها.

أختى الحبيبة «لُطْفِـيَة»؛ تعلمين أنني أحبك جدًّا، وكنت أفعل من أجلك ما في وسعي وطاقتي، وربما قصرت في حقك، فاعفي عني، وهذا هو تقدير الله، لتسعدي روحي، وساعدي زوجتي «مُنَوَّرْ» وابني «نَزِيهْ».

الوداع يا كل أقاربي وأحبابي، اعفوا عني جميعًا، فقد عفوت أنا عن كل حقوقي لديكم.. الوداع الوداع! أبي العزيز وأمي الحبيبة؛ أستودعكم الله إلى الأبد.."

ابنكم؛ محمد توفيق

وهذه لوحة معبرة أخرى من أحد المحاربين فأصبح من الشهداء:

اقطع ذراعي بسرعة يا سيدي القائد!..

ذكر أحد الضباط المتقاعدين في مذكراته وكان يعمل قائدًا في «حرب الدردنيل» وجُرح في تلك الحرب فقال:

"كنا في أحد أيام «حرب الدردنيل»، وكانت الحرب في ذلك اليوم قد استمرت حتى المساء، وكنا على وشك النصر بالرغم من التفوق الذي أمامنا، كنت في مكان المراقبة أراقب بحماس سير الصفحات الأخيرة من الحرب، كانت أصوات الجنود المحمديّين (الله، الله) تهز الأفق، وكان هذا النداء المقدس والصراخ المدهش كأنه يخمد أصوات المدافع التي تمثل حضارة مهيبة. شعرت بعد فترة وكأن أصوات أقدام تقترب مني، ولما التفتّ لقيت «عَلِي جاوُشْ» كان وجهه شاحبًا للغاية بشكل مخيف، وقبل أن أقول له ماذا حدث، مد إليّ ذراعه،أخذتني قشعريرة من الدهشة التي واجهتها، كانت ذراعه اليسرى مصابة بجرح غائر من فوق رسغه قدر أربعة أصابع، لدرجة أن يده كانت معلقة بقطعة جلد رقيقة، كان الرجل يعض على أسنانه، ومد لي بسكينه الموجود في يده اليمنى وقال: «هيا! يا قائدي! اقطع ذراعي بسرعة.»

كانت هذه الجملة المكونة من أربع كلمات تعبر عن طلب مدهش وضرورة، وعلى الفور أخذت السكين وقطعت الجلد الذي يمسك بيده في ذراعه. وبينما كنت أقوم بتلك المهمة التي تقشعر لها الأبدان قلت له:

"لا تحزن يا«عَلِي جاوُشْ»! سيعطيك الله الصحة في جسدك".

وأخذت أسرّى عنه. وبعدها بقليل لم يكتفِ الجاوش علي بتقديم يده فداء للوطن بل قدم حياته كلها فداءً له. وبينما كان في النَّفَس الأخير كان يقول ويكرر وهو سابح في بحيرة صغيرة من الدماء:

"ليعش الوطن، ولتكن حياتي فداءً له".

❀

كيف تم الحصول على النصر في «الدردنيل»، بقوة الإيمان؟ يجيب عن هذا السؤال تلك الروايات التي رواها الأبطال المحاربون الذين شاركوا في الحرب بأنفسهم، وكانوا يتحدثون عن تكتيك النصر:

"لقد كانت قلوبنا جميعًا في حالة تضرع إلى الله، كنا التجأنا إليه ونطلب المدد منه، وكان قادتنا يوصوننا بقراءة الصلاة النارية[1]. وبذلك نلنا العون والمدد الإلهي".

التأييد الإلهي:

كان «جواد باشا» هو قائد المكان المستحكم المسمى «چَنَاقْ قَلْعَة» (الدردنيل)، ولأنه كان قد شعر بالتعب والإعياء الشديد من جراء الضرب المتوالي على أسطول الأعداء الذين دخلوا إلى المضيق، أخذ سنة من النوم، وقد سمع في منامه صوتًا هاتفـــيًّا يقول:

"يا جواد! إنكم تعظمون كلام الله تعالى، ولهذا لكم البشرى، فانظر إلى البحر".

ولما نظر «جواد باشا» إلى البحر رأى حرف «الكاف» وحرف «الواو» قد ارتسما على صفحة الماء، وبعدها استيقظ من نومه.

وفي اليوم التالي كان «جواد باشا» يقرأ الفاتحة على رأس أحد القبور وبينما يقف عند القبر سمع نفس هذا الصوت يقول له:

"يا جواد! ألقِ الستة والعشرين لغمًا الموجودة في مستودعاتكم في البحر الآن".

شعر «جواد باشا» بالحماس، وكان أمام لغز معنوي كبير، وبينما كان يتفكر في

---

١. هي صيغة من صيغ الصلاة على النبي ﷺ فهي كالتالي: "اللهم صل صلاة كاملة وسلم سلاماً تاماً على سيدنا محمد الذي تنحلّ به العقد، وتنفرج به الكرب، وتقضى به الحوائج، وتنال به الرغائب، وحسن الخواتيم ويستسقى الغمام بوجهه الكريم وعلى آله وصحبه في كل لمحة ونفس بعدد كل معلوم لك".



كيفية حل هذا اللغز، صادف بعد قليل رجلا ذا وجه نوراني. اقترب هذا الرجل من الباشا وسأله هل يشتكي من شيء؟ فشرح له الباشا الأمر، فقام هذا الولي بتفسير هذا اللغز المعنوي للباشا فقال:

"يا بُني! إن النور الذي رأيته في البحر إنما هو إشارة إلى نصرنا، ويدل على أن الكفار لن يكونوا أصحاباً لِترابنا هذا، أما حرف «الكاف» وحرف «الواو» الذي رأيته فإنه يعني بحساب الجمَّل العدد ٢٦. وهذا يعني أن أكبر عامل في نصركم هو هذه الألغام الموجودة في المستودعات والبالغة ٢٦ لغمًا". وبعدها اختفى هذا الرجل عن الأبصار.

ولما أدرك «جواد باشا» الأمر كله، لم يضيع الوقت وأعطى أمره بإلقاء الألغام المذكورة في البحر وقد كُلف اليوزباشي «حقي بَكْ» بنشر الألغام في البحر بالسفينة المسماة «نُصْرَتْ» وأدى المذكور مهمته على أكمل وجه، حيث تم تثبيت الألغام في البحر في أماكنها في منتصف الليل وسط أصوات التكبير، وفي الصباح تعرض «حقي بَكْ» إلى أزمة قلبية تُوفي على إثرها، ومات شهيدًا بذلك.

وفي اليوم التالي لما وصلت السفن المدرعة إلى المضيق بدأت الألغام التي وضعت في الليل تؤدي وظيفتها؛ حيث تم تدمير قسم كبير من تلك السفن، وبذلك عجز أسطول الأعداء عن الهجوم.

لقد أصبح الجيش مظهرًا للتأييد الإلهي، وشاهد الجميع بشكل بارز فتوحات اللجوء بإخلاص إلى الله ﷻ؛ لأن جيش «الدردنيل» المؤمن كان يحارب في سبيل الله وفي سبيل الوطن، فقد أصبح مظهرًا للتأييد الإلهي، ويقول الله تعالى:

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد، ٧)

وذكرى «قوجَه سيد» الذي كان مظهرًا للعون الإلهي من الحقائق التي لا تنسى..



قوجَه سيد:

كانت طابية المجيدية في الروملي قد تعرضت لهجوم شامل من الأعداء فتهدمت إلاّ قليلا، حتى إن قسمًا كبيرًا من الذخيرة الموجودة بها تفجر في الهواء، واستُشهد من رجال مدفعيتنا ١٦ جنديًّا، ولم يتبقَ من الطابية الكبيرة سوى يوزباشي وجنديين ومدفع واحد انكسرت مقدمته وأصبح لا يصلح.

ابتعد اليوزباشي حتى يتمكن من إخطار الوحدات المجاورة بالأمر، وكان من الجنود جندي يدعى «قوجَه سيد» أخذ ينظر إلى سفن الأعداء التي تتقدم في المضيق ويتنهد من أعماقه، وذرفت عيناه، وبينما كانت مشاعر العجز والحزن تملؤه رفع يده إلى السماء مناجيًا ربه فقال:

"يا ربي! يا صاحب القدرة! أعطني الآن قوة حتى لا يعادلني فيها أحد!"، وطلب المدد من الله ﷻ.

أصبح «قوجَه سيد» منعزلاً عن العالم تمامًا، وأخذت عيناه تدمعان والدموع تنهمر على وجنتيه، وأخذ يكرر عبارة «لا حول ولا قوة إلا بالله».

ثم صاح فجأة قائلاً «يا الله!» فنظر إليه مَنْ معه في تعجب فوجدوه يرفع قذيفة تبلغ ٢١٥ أوقه أي ما يعادل ٢٧٦ كيلو جرامًا، وصعد بها الدرج الحديدي ثلاث مرات، وقد سُمِع صوت عظام صدره وكتفه، كان يتصبب عرقًا، فقال «قوجَه سيد» بشفتيه المرتعشتين:

"اللهم لا تحرمني من قوتي هذه".

وفي النهاية استطاع أن يضع القذيفة الثالثة في فم المدفع، واستطاع أن يغير مجرى الحرب بها، حيث ضرب بها البارجة المدرعة الإنجليزية المسماة «أوشينْ» وحوّل سطح البحر إلى قطعة لهب من جهنم.

ولما علم «جواد باشا» بالأمر شكر الله تعالى، وبينما كان يهنئ «قوجَه سيد» طلب منه أن يرفع قذيفة مثل التي رفعها من قبل، فأجابه قوجه سيد بقوله:

"يا باشا! عندما رفعت تلك القذيفة لأول مرة كان قلبي ممتلئًا بفيض الله، وكنت وقتها مظهرًا للتأييد الإلهي، ولهذا كنت أشعر وقتها بشيء مختلف في داخلي، فإن كان الله أعانني على رفع هذه القذيفة فإن ذلك نتيجة دعائي، ولهذا فإن هذا الأمر كان خاصًّا بوقته فقط، أما الآن فلا أستطيع اعذرني يا سيدي القائد"،

فرد عليه «جواد باشا» بقوله:

"يا بني! لقد قمت بعمل كبير فاطلب ما تشاء"،

فرد عليه «قوجَه سيد» مظهرًا بطولة أخرى ولكنها تلك المرة في روحه وتدل على أن قلبه لا يوجد فيه سوى الله ﷻ:

"يا قائدي! ليس لي أي طلب، لكن نظرًا لأن بُنيتي قوية فإن رغيفا واحدا من الخبز لا يكفيني، وأطلب رغيفين حتى أتمكن من مقاومة الأعداء كما ينبغي"،

ابتسم «جواد باشا» من هذا الطلب، ونفذه له ومنحه رتبة «الأونْــبَاشِي» أيضًا مكافأة له على صنيعه.

إن حال «قوجَه سيد» يعبر بأجمل شكل عن الإخلاص والصدق الذي كان في قلبه.

❀

ودائمًا عندما تتغلب المعنوية على المادة فإنها تجعلها تحت تأثيرها، وقد اعترف المؤرخ والقائد الإنجليزي في «حرب الدردنيل» «هامِيلْتونْ» أيضًا بتلك الحقيقة حيث قال:

"لقد انهزمنا أمام الأتراك ليس بالقوة المادية ولكن بالقوة المعنوية، لأنه لم يبقَ معهم حتى البارود، ولكننا كنا نشاهد القوات تنزل إليهم من السماء".



وهذه الرؤيا التي رآها «هامِيلْتونْ» أيضًا من الأحداث التي تحمل في داخلها العِبر:

"رأيت رؤيا مخيفة، بل كابوسًا، حيث كنت في الحلم على وشك الغرق في شواطئ هَلاسْ، وكانت هناك يد تشبه الخطاف الحديدي تسحب عنقي إلى أسفل الماء، ولما استيقظت وقتها كنت متعرقًا، وأرتعش. كنت أشعر من داخلي وكأن شخصًا غريبًا في خيمتي.

كنت لم أرَ حتى ذلك الوقت رؤيا مخيفة مثل هذه الرؤيا، وبدأت أفكار تراودني بأن «الدردنيل» مكان مشؤوم، وظللت في هذا الفكر لعدة ساعات، وكأن عاقبتنا قد تقررت من قبل مجيئنا وتجرى علينا الآن."

وفي تلك الأثناء أعطى ناظر الحربية الإنجليزي الذي كان قائدًا على قوات التحالف أمره بالهجوم على «الدردنيل» وكان يقول لإزالة التردد والخوف الذي اعترى قوات التحالف وخاصة الحكومة الإنجليزية:

"لا تقلقوا، سأجلس على عرش العثمانيين وأنا بملابس البحرية التي عليّ هذه"،

وبالرغم من هذا لما هُزم «تشرشل» في الحرب سيق إلى المحاكمة، وفي أثناء المحاكمة كانوا يسألونه عن سبب الهزيمة ويعاتبونه، فصرخ فيهم فجأة وقال:

"ألا تفهمون؟ إننا في «الدردنيل» لم نكن نحارب الأتراك بل كنا نحارب الله ومن الطبيعي أن نُهزم".

إن هذه الأحداث السامية التي أحدثت خلال «حرب الدردنيل» واعترف بها حتى قادة الأعداء تُظهر لنا بشكل واضح تأييد الله ونصرته لنا.

صلاة العيد في السحب:

في أحد الأيام التي كانت «حرب الدردنيل» مستمرة كان الوقت يصادف آخر يوم من رمضان، كان الجنود يطلبون صلاة العيد وهم مجتمعون، وكان «وهيب باشا» قائد الجبهة يشعر بالقلق من هذا؛ لأنه كان يخشى على الجنود من تجمعهم

لصلاة العيد الذي قد يستفيد الأعداء منه، فأرسل إلى إمام الفرقة التاسعة وكان شابًّا، وصرح له بالأمر وبمخاوفه وطلب منه أن يفهم الجنود، فقال:

"يا بُنى! غدا عيد الفطر، يطلب الجنود أن يؤدوا صلاة العيد، هذا أمر خطير للغاية وفرصة فريدة للعدو، الذي يبحث عنها ولا يجدها، عليك أن توضح هذا للجنود بلسان مناسب".

وبينما كان الإمام، على وشك الذهاب إلى الجنود لإيضاح الأمر لهم إذا برجل ذي وجه نوراني يقابله ويقول له: "يا بُني احترس ولا تقلْ شيئًا للجنود، فالغد يأتي بخيره إن شاء الله، وما سيحدث سيكون بأمر الله".

وفي الصباح التالي عاش كل الأفراد نوعًا من التجليات الإلهية التي حيّرت الجميع؛ حيث رأى الجميع أن السحب بدأت تنزل من السماء إليهم وعمتهم كلهم، حتى إن الإنجليز الذين كانوا يراقبون الجنود الأتراك من بعيد بالمنظار كانوا لا يرون سوى غمامة بيضاء. صلى الجميع صلاة العيد في خشوع وتجليات إلهية كبيرة ومع تكبيرات ترتفع إلى السماء. وبينما كان ذلك الرجل ذو الوجه النوراني يقرأ بعض الآيات من سورة الفتح كان الجنود يكبرون ويهللون بأصوات ارتفعت إلى عنان السماء لدرجة أنها كانت تصل إلى صفوف الأعداء.

ولأن قوات الأعداء كان بها جنود مسلمون جمعهم الأعداء من المستعمرات الإسلامية المختلفة، سمع هؤلاء المسلمون أصوات التكبير، فأدركوا أنهم يحاربون أناسًا مسلمين مثلهم، فثاروا، ولم يجد الإنجليز الظالمون أمامهم سوى قتل بعضهم وسوق البعض الآخر وراء الجبهة.

السحابة التي أكلت العدو :

كان يومًا تعرض فيه الأعداء لهجوم شديد في «الدردنيل»، ولم يتمكن الإنجليز من الحصول على أية نتيجة بالحركة التي قام بها القائد «هامِلْيتونْ» وقد كان للفرقة التاسعة دور كبير في إلحاق الضرر بالأعداء.

إلا أنه في ذلك اليوم تمكنت مجموعة من فرقة «نورْفُولْق» الملكية من التقدم إلى الأمام؛ لأنها لم تجد مقاومة شديدة، عبرت الفرقة نهر «أَزْمَاقْ» الجاف، وبدأت تتجه رويدًا رويدًا انطلاقًا من موقع حظيرة «قاياجيقْ» إلى «دَماقْجي بَايِرْ» كان يوجد أمامها هضبة صغيرة، كان يوجد عليها سحابة سوداء، تقدمت الفرقة على الهضبة ودخلت داخل تلك السحابة فاختفت.

وتذكر هذه الحادثة في المصادر الإنجليزية أيضًا حيث إنها رؤيت من قِبَل مَنْ شاهدوها من الإنجليز أنفسهم، لدرجة أن هذه الحادثة أدهشت كافة وحدات الأعداء، لأن السحابة المذكورة انتظرت حتى التهمت ٢٦٧ من جنود الإنجليز، ثم انقشعت بعدها، ثم اتحدت مع سبع أو ثماني سحب تجمعت في ذلك الوقت وسارت إلى الشمال أي صوب «تِراقْيا».

ماذا حدث لهؤلاء الجنود؟ إلى يومنا هذا أمر مجهول، فلا توجد لهم أية تسجيلات عن أسرهم أو موتهم لا في الجانب التركي ولا في الجانب الإنجليزي.

وهذه الحادثة من المساعدات الإلهية التي تأكدت حقيقتها وحدوثها بالرغم من كونها مجهولة بالمقاييس الدنيوية ولا يمكن حلها فيزيائيًّا.

جَرّةُ ماء:

هذه الحادثة التي رواها «أحمد أغا» وهو من أبطال وشهداء «الدردنيل»، تعتبر من الأحداث التي تظهر التأييد الإلهي للأتراك في تلك الأيام العصيبة:

كان الجنود يعيشون أوقاتًا عصيبة تحت النيران، فضلا عن حالة العطش التي عمت الجميع، وفي تلك الأثناء ظهر رجل ذو وجه نوراني كان يمسك في يده جرّة ماء، ويسير من بين المتاريس، ووزع على كل الجنود ماءً باردًا مثل الثلج، وبالرغم من هذا لم ينتهِ الماء الموجود في الإناء. وقد شرب الحاج «أحمد أغا» أيضًا من هذا الماء، فقال هذا الرجل لـ«أحمد أغا»:

"يا بُني إذا جُرحت فخذ من هذا الماء وامسح به على جرحك"،

حقيقة إن «أحمد أغا» جُرح مرتين في المعركة، ومسح بهذا الماء مكان الجرح فبرُأ بعد فترة قصيرة، أما هذا الشخص الذي قيل إن اسمه «قاشِيقْجي دَدَه» فكان وليًّا من أولياء الله الصالحين، تُوفي قبل عدة سنوات ودُفن في «كِليتْ بَحِرْ».

وهذه الحادثة أيضًا تُظهر أن أولياء الله أيضًا شاركوا في «حرب الدردنيل» بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ.

تضحية تفوق الخيال:

لقد اتخذ جنود جيش الإيمان في حرب الدردنيل من أخلاق الصحابة الكرام الذين تربوا معنويًّا على يد رسول الله ﷺ نموذجًا وقدوة لهم، وهؤلاء الجنود كانوا أشخاصًا أعطوا قلوبهم للمعنوية. ومن هؤلاء الجنود جندي يُدعى «حسين» كان حسين هذا قد جُرح جرحًا خطيرًا، وكان يُعالج إلا أن العلاج لم ينفعه بشيء حتى أنه أدرك ذلك بنفسه. وبينما كانوا يوزعون الطعام، قدموا له قطعة خبز، وبينما كان على وشك قضمها بفمه، إذا به يتوقف فجأة ويُظهر أروع الأمثلة على التضحية والتنازل وكأنه يكرر تضحية الصحابة؛ حيث قال لأصدقائه في السلاح:

"يا أحبابي، لا ينبغي لي أن آكل هذا الطعام، فأنا قد أوشكت على الرحيل، فأعطوه لجندي سيقاتل في سبيل الله، ومد يده بالخبز لصديقه مصطفى".

وبالرغم من أنهم أصروا عليه لم يوافق على ذالك. فاستُشهِد بعد قليل ونال شرف الشهادة ولذة الغذاء المعنوي.

إن هذه هي حرب الدردنيل التي ظهر فيها الإصرار على التضحية والتنازل والإيثار الخاص بالأنبياء والأولياء، ولذا كانت الرحمة الإلهية بمثابة مطر الربيع، الذي ينهمر على الجنود.

الضابط مظفر:

كان الضابط مظفر من الضباط الذين كانوا قبل نشوب الحرب من الطلبة الداخلين في سلك الدراسة العليا، ولكنه في حرب الدردنيل اشترك متطوعًا في صفوف الجنود بناءً على النقص الذي ظهر في صفوف الجيش. وبعد تعليم استمر ثلاثة أشهر سيق إلى جبهة الدردنيل، إلا أن الحرب انتهت، وكان قسم كبير من الوحدات سيُساق إلى الجبهات الشرقية، ولهذا كان يجب القضاء على مشكلة وسائل النقل التي نقصت بسبب الحرب، وقد عُهد بهذا الأمر إلى الضابط مظفر الإستانبولي.

ذهب الضابط مظفر بالتذكرة التي معه إلى إستانبول على الفور، ووجد المستلزمات التي يبحث عنها عند أحد التجار اليهود، وطلب ثمنها من قائمقام أركان حرب، ولم يرضَ القائمقام أن يعطيه المبلغ المطلوب، بحجة أنه لا يجد حذاءً ولا معطفًا للجنود.

غادر الضابط مظفر وهو حزين لا يعلم ما سيصنع، كيف سيعود إلى الوحدة خالي الوفاض؟ كان يفكر في الأزمة التي يمكن أن تحدث في الجبهة وفي النهاية اتخذ قراره بالعودة إلى التاجر اليهودي، وأخبره بأنه سيأخذ المستلزمات المطلوبة بعد صلاة الصبح، وطوال الليل ظل الضابط مظفر يصنع ورقة نقدية تساوي مائة ليرة حتى تمكن في النهاية من صنعها، إنه نجح في صنعها لدرجة أنها لا فرق بينها وبين الورقة النقدية الحقيقية، وكان يُكتب على ورقة النقد في ذلك الوقت عبارة «سيتم تسوية بدلها ذهبًا في إستانبول» أما الضابط مظفر فقد كتب عبارة «سيتم تسوية بدلها ذهبًا في الدردنيل».

وفي الصباح أخذ البضاعة من التاجر اليهودي، وأعطاه المبلغ وسار بالمستلزمات إلى الدردنيل. ولما ذهب التاجر اليهودي بعد ثلاثة أيام إلى البنك العثماني من أجل صرف المبلغ الذي أخذه تبين له الأمر، لقد كانت النقود مزيفة، لقد كان المقصود بالذهب المكتوب على النقد دم الشهداء، الذي هو أغلى من الذهب الذي سيُسفك في الدردنيل. لم يقم اليهودي بعمل أي شيء، إلا أن الحادثة انتشرت في إستانبول كلها،

ووصل الأمر إلى الأمير «عبد الحليم أفندي» فاهتم بالأمر وصرف للتاجر الذهب مقابل الورقة المزيفة، وقام بوضعها في حافظة جميلة وأهداها إلى متحف الأمن.

أما الضابط مظفر بطل تلك الحادثة فلم يكن يعلم بالأمر؛ لأنه انتقل إلى الجبهة الشرقية مع الجنود، فقد كان يدافع هناك عن الوطن بكل شجاعة، وأثناء المواجهات جُرح جرحًا خطيرًا، وتجرع كأس الشهادة، ولكن بعد أن ترك للأجيال التي ستأتي من بعده حادثة جميلة أخرى وهي على ما يلي:

عندما جُرح الضابط مظفر على خط النار، أصبحت حالته سيئة لدرجة أنه لم يعد قادرًا على الكلام أو التعبير بعينه، فأخرج من جيبه ظرفًا، والتقط قطعة حطب صغيرة من الأرض، وكتب على الظرف بدمه المسفوح على الأرض: "أين القبلة؟"

نفّذ مَنْ حوله طلبه وهو يسلم روحه إلى الله ﷻ؛ حيث وضعوه ناحية القبلة، وبينما كان الضابط في النفس الأخير كتب هذه العبارة بدمه للجنود الأبطال الذين كانوا بجواره وكانت تلك الرسالة:

"لتستمر السرية في الجهاد في سبيل الله، لئلا يبقى دمي على الأرض".

وبينما كان على وشك كتابة رسالته الثالثة وافته المنية.

اعتراف جنرال فرنسي:

إن الخصال الجيدة لجنودنا المؤمنين لم تكن مخصصة فقط لإخوانهم في الإيمان، بل كانت أيضًا ظاهرة حتى لجنود الأعداء الذين جاؤوا لقتلهم. ومما يُظهر تلك الحقيقة أن أحد الجنرالات الفرنسيين ويُدعى «جُورُو» كان قد أتى عام ١٩٣٠م لافتتاح المزار(المقبرة) التذكاري الخاص بالجنود الفرنسيين، وطلب زيارة قبور شهداء الأتراك في حرب الدردنيل، وخطب خطبة أمام الجمع الحاضر، وكان معظمه من الفرنسيين حيث قال:

"أيها السادة، إن الجندي التركي المسلم من أندر الجنود الذين يمكن العثور عليهم، وأود هنا أن أنقل لكم ذكرى مشخصة أمام عيني، وكأنها حدثت بالأمس.

مع شروق شمس أحد الأيام كنا نتحارب بالحِراب مع الجنود الأتراك، كانوا ماهرين في المقاتلة بها، كان من الصعب التغلب عليهم. وبعد قتال عنيف استمر إلى المساء عقدنا اتفاقية من أجل الجرحى من الجانبين في ساحة المعركة. وبدأ كل جانب يأخذ جرحاه، وقد خرجت أنا أيضًا إلى ساحة المعركة. لقد كان المنظر أمامي مؤثرًا للغاية، بالدرجة التي لا يمكن لأية ريشة رسام التعبير عنها. تركت كل شيء جانبًا ووقفت أشاهد المنظر في حيرة وتعجب كبيرين. لقد كان الجندي التركي يقوم بأخذ حفنة من التراب ويضعها على جرحه، وكان يحتضن جنديًّا آخر ويقوم بشق قميصه نصفين لربط جرح هذا الجندي. أيها السادة، هل تعلمون مَنْ هو هذا الجندي الجريح الذي كان يحتضنه التركي المُؤْثِر ويقوم بشق قميصه من أجله نصفين ويضمد جرحه به؟"

وهنا بدأ الجنرال الفرنسي يبكي ويمسح دموعه بمنديل أخرجه من جيبه وقال للحاضرين: "إنه كان جنديا فرنسيا، جنديا فرنسيا أيها السادة!.."

وحينئذ انكب الرجل على الأرض وأخذ يبكي ويبكي. وهذا الوضع كافٍ لإظهار الأفق الموجود في روح المؤمن، إنها الشفقة والرحمة على المخلوقات امتثالا لأمر الخالق.

وهذه حادثة أخرى مشابهة ظهرت كثمرة مباركة مفعمة بالعِبرة والحكمة، بعد سنوات من ملحمة الدردنيل:

بعد سنوات:

عام ١٩٥٧م...وكان هناك يوجد ضابط يُدعى «جُوزيفْ مِيلارْ» من "الأنزاق" وهو من الضباط الذين شاركوا في حرب الدردنيل أُصيب بالسرطان فذهب إلى أمريكا في العام المذكور للعلاج، وكان يعالجه هناك طبيب تركي. ولما علم الضابط العجوز بالأمر قال للطبيب التركي:

"انظر لعِبرة التاريخ، عندما كنت على وشك الموت في الدردنيل عالجني الأتراك، وبعدها بسنوات أيضًا يعالجني الأتراك".

بعدها شرح الضابط كيف انخدعوا وجيء بهم إلى حرب الدردنيل. وبعدها دمعت عيناه وحكى تلك الحكاية التي قال إنه لن ينساها أبدًا، يقول:

"بالرغم من أننا كنا في تلك الحرب نتفوق على الأتراك من حيث العدة والعتاد، إلا أن الأتراك الشجعان كانوا يدافعون بشدة وقوة، مما جعلنا نكرر هجماتنا عدة مرات. وفي إحدى المرات تعرضت لضربة قوية بظهر البندقية على رأسي ففقدت الوعي، ولما أفقت وجدت نفسي وسط الأتراك. في أول الأمر شعرت بالخوف الشديد، لأن الإنجليز عرَّفوا الأتراك لنا بأنهم وحشيون وهمجيون، ولكني لما أفقت تمامًا رأيت أنهم عالجوني وضمدوا جرحي، ولم يُظهر أي شخص منهم أي غضب لي، وأكرموني بالطعام الذي كان معهم، وكنت أعلم أن الطعام معهم قليل جدًّا بالدرجة التي يمكن أن يُقال إنه غير موجود أصلا. تحيرت للغاية، فقد كنت وسطهم كالضيف تمامًا. وحينئذ قلت في نفسي يا للأسف والحسرة عليّ، ويا للأسف على الإنجليز الكذابين، وفي النهاية أطلقوا سراحي وعدت إلى بلدي."

بدأ الضابط الأنزاقي المسن في البكاء، ثم سأل الطبيب عن اسمه فأجاب «عمر» وحينئذ وجد الرجل هذه الفرصة التي ينتظرها منذ سنوات، فنظر بتفحص وتمعن إلى وجه الطبيب عمر بك، ثم تنهد، وقال في وجد وسعادة لم يشعر بها من قبل:

"يا بُني لكم هو جميل اسمك، ليكن اسمي من الآن أنا أيضًا عمر، ليكن عمر الأنزاقي."

ثم قال لعمر بك الذي كان يستمع بحيرة عجيبة:"أود أن أدخل في الإسلام".

فساعده عمر بك على نطق كلمة الشهادة. ثم طلب من عمر بك أن يحضر له سجادة صلاة ومسبحة، فقال: "يا بُني لقد رأيت أجدادك يحملونها، فقد كانوا لا يتركون ذكر الله في أي وقت حتى وهم على مشارف الموت وفي النفس الأخير،



وعندما كانوا يسبحون كنت ألاحظ على وجوههم جمالا وحالا مختلفًا تمامًا، وأود أن أعيش هذه الحال اليوم".

فنفّذ عمر بك ما أمر به الرجل، وبدأ عمر الأنزاقي يسبح بالمسبحة بأصابعه التي خارت قواها قائلاً: «الله، الله» وقد نزل على قلب الرجل ووجهه نور لاحظه كل من في المستشفى، وكأنه شُفي من مرضه، ولم يبقَ به أي مرض دنيوي.

وقد قضى عمر الأنزاقي أيامه الأخيرة في سعادة ونشوة معنوية بسبب سعيه في اقتناء المعلومات الدينية، من الطبيب عمر بك بقدر ما أمكن له. فقد أسلم الروح بعدها بشهرين تقريبًا وهو يسبح الله، وأصبح بذلك مسعودًا ووصل إلى الحياة الأبدية الحقيقية على يد أشخاص كان مكلفًا بقتلهم من قبل. المهم هنا هو كيفية تمكن الإنسان من أن يعيش ويكتسب مرتبة سامية تستفيد منه كل الأمة، ويكون سببًا في هدايتها.

وعلى هذا، فإن جيشنا الذي حارب في الدردنيل لم يكتب ملحمة البطولة والشجاعة فحسب، بل كتب أيضًا ملحمة فضيلة ببركة الكمال المعنوي الذي كان يتمتع به.

ومن المؤكد اليوم أنه يوجد في كل منزل من منازل الأناضول الآن ذكرى لشهيد من شهداء الدردنيل. وأن كل أسرة هي يتيمة الدردنيل، وهذا الحال كان بمثابة ميدالية الشرف التي انتقلت من جيل إلى جيل. لقد نقشت الدردنيل مفهوم الشهادة المشخص على التاريخ، وقبور هؤلاء الشهداء في صدور الأمة، وأجمِل بما عبر محمد عاكف عن هذا عندما قال:

أيها الشهيد ابن الشهيد لا تطلب مني قبرًا لك

فمحمد ﷺ يقف فاتحًا لك حضنه

اللهم ارزقنا الشفاعة العظمى لسيدنا محمد ﷺ في الدارين، واجعلنا من السعداء المقربين إليه. آمين!!!.

القسم الثاني

في
الدولة العثمانية

- أولياء الله.
- العلماء.
- رجال الدولة.
- الفنون المختلفة وأربابها.
- خدمات الخير والحسنات.
- البناء الأخلاقي.





دور التصوف
في
تأسيس الدولة العثمانية

وقف كل المؤلفين المحليين والأجانب الذين كتبوا التاريخ العثماني أكثر ما وقفوا على الأحداث والأسباب الظاهرية. إلاّ أنه كان لتلك الأحداث والأسباب مناخ لدني أي عالم داخلي. ويمكن رؤية أصل هذا بشكل ملحوظ أكثر في السنوات الأولى للتأسيس. فهذه السنوات الأولى لتأسيس الدولة كانت بمثابة الميراث الوطني، الذي كان أكثر ما يعتمد على المناقب والروايات الشعبية.

تاريخ «عاشق باشا زاده» الذي هو أول المؤرخين العثمانيين، فقد كتب في تأريخ الدولة بعد تأسيسها بمائة وخمسين سنة. فإننا نجد هذا الميراث التاريخي يحتل مكانًا كبيرًا في نقل الأحداث السياسية والعسكرية في بداية الدولة. ولأن هذا يعكس رؤية الأهالي للدولة فإنه يعني الانعكاس التاريخي الموجود في الوجدان العثماني. وعندما يتم تقييمه بشكل عام فإننا سنخرج بتلك الأوصاف وهذه الإفادات التالية:



أ- لقد تجزأت الوحدة التركية الإسلامية في الأناضول بعد انهيار دولة السلاجقة على يد المغول، فتلك التكتلات التي انهزمت وتشتت أمام جحافل المغول التي خرجت من وسط آسيا، اضطرت للنزوح إلى الغرب. وقد عمل هذا على إيجاد محيط سكني كثيف من الأتراك المسلمين في الأناضول. فالبرغم من اللطف الذي بدا من بين هذا القهر ، فإنه لم يكن هناك سلطة أو اتحاد سياسي. فلذا فإن منظر التفرق في الأناضول كان أشبه ما يكون بصراع العميان. وبالتالي كانت هناك ضرورة لتسكين هذه الاضطرابات التي ظهرت في هذا العهد المتأزم، كما كانت هناك ضرورة أخرى لتشكيل سلطة سياسية، وبلغ الاحتياج للإرشاد المعنوي ذروته. وهذا بالطبع أدى إلى بلوغ حركة الإرشاد التي بدأت في الأناضول بأتباع «يونس أمره» و«مولانا» و«حاجي بكتاش الولي» ذروتَها عند الشيخ «أدبالي». وقد كان بزوغ نجم العثمانيين الذين أدركوا ذلك، والذين كانوا أكبر معين له بين سائر الإمارات من الناحية الأخلاقية والموقع الجغرافي، نتيجة لهذا الإرشاد الذي قام به أولياء الله.

لم يكن العثمانيون مثل باقي الإمارات الأخرى الذين جعلوا قوتهم تنصب في قتال بعضهم البعض، بل على النقيض حوّل العثمانيون قوتهم لمحاربة الكفار دون الالتفات للخلافات بين الإخوة، وعاشوا روح الجهاد والغزو في سبيل الإسلام في أحسن صورة وبحماس معنوي كبير. وكانت النتيجة أنهم كبروا بسرعة مذهلة نتيجة لهذا الإرشاد الإسلامي. كما أن الشخصيات المتميزة في تلك الإمارات التحقت على الفور بالعثمانيين؛ لأنهم شعروا بعدم الارتياح الوجداني في إماراتهم. ولهذا يجب على المسلمين الذين يعيشون اليوم نزاعًا مشابهًا لهذا، أن يقفوا ببصيرة على هذا الأمر وأن يعوا الدرس جيدًا.

ونتيجة لهذا الإرشاد المعنوي فإن العثمانيين منذ اللحظة الأولى لم يظهروا بدعوى السيادة أو الاستقلال الجاف الذي يدعو إلى الأنانية. وقدّر «السلاجقة» هذا النجاح الذي حققوه، وأعطوهم قيمة مختلفة عن غيرهم، ومنحوهم الهدايا التاريخية التي تعتبر من علامات الاستقلال كالطبل والعلم كعلامة على هذا. ولهذا فإن العثمانيين

ظلوا مرتبطين بـ«السلاجقة» حتى اللحظة الأخيرة لزوالهم من على مسرح التاريخ. ولم يتصرف العثمانيون بشكل مستقل عن دولة السلاجقة بالرغم من أن السلطان السلجوقي منحهم استقلالهم بشكل قانوني، وهذا يعني أن الدولة العثمانية لم تكن وجودًا سياسيًّا جديدًا، بل كانت بمثابة امتداد لدولة السلاجقة، ولكن باختلاف الاسم فقط. ولهذا فإن العثمانيين كانوا هم الورثة الطبيعيين للسلاجقة، لا سيما وأن «أورخان الغازي» كان قد أوصى ابنه «مراد الأول» قائلاً: "وكما أننا كنا الورثة الطبيعيين للسلاجقة، فإننا سنكون أيضًا ورثة «روما»" وما قاله «أورخان» يدل حقيقة على هذا المعنى.

وقد أصبحت تلك المسألة شاملة بشكل أكبر، فأصبحت الدولة العثمانية هي الدولة العلية المحمدية. وبهذا أصبحوا ورثة للتاريخ الإسلامي.

عاشت الدولة العثمانية – حتى في أصعب عهودها – من أجل الإسلام الذي كان مظهرًا للتأييد الإلهي، لذا فقد كانت تُعرف بصفة (الدولة الأبدية).

ولما بدأت علامات الانهيار تظهر على الدولة تمسك العثمانيون بإطلاق عبارة (الدولة العلية المحمدية، وليس الدولة العلية) حتى يعطوا ثقلا أكبر لدور هذا التعبير في تشتيت اليأس. وبذلك أحسوا بضرورة التذكير أكثر بالأسس المعنوية لتلك الدولة من ناحية، وأحسوا أيضًا بالتذكير بمشاعر الاستمرار التاريخي من ناحية أخرى. ومن ذلك على سبيل المثال أنهم أطلقوا هذا التعبير بشكل رسمي واضح في فرمان إعدام البطريرك «جريجريوس» الذي كان سببًا في حادثة «باتْراس» عام ١٨٢١. [١]

١. «**باتراس**» موقع يقع جنوب اليونان اليوم. حادثة «باتراس»؛ قتل المسلمين الذين يبلغ عددهم عشرة آلاف شخص في غارة ليلية من قبل اليونان. البطريق الذي حث اليونان على القتل تم اعدامه أمام الباب الأوسط في البطريكية اليوم. قد أقسم الآرمن على أن لايفتحوا هذا الباب إلا بعد شنق رجل دين من المسلمين في نفس المكان. منذ ذلك الحين الذين يتخرجون في مدرسة القسيسين للروم في «هيبلى آطه» يتسلمون شهاداتهم أمام هذا الباب وسموه «باب الانتقام» وبذلك يتم كونهم قسسًا.



من ناحية أخرى رأينا «السلطان وحيد الدين» آخر سلطان عثماني، ذلك السلطان المظلوم، يستخدم هذا التعبير وهو (الدولة العلية المحمدية) في البيان الذي نشره في «مكة المكرمة» في سنوات غربته، وأراد بذلك تشتيت اليأس والفتور الذي انتشر بشكل عام.

ب- لقد تمكنت العديد من الأمم من أن تكون مظهرًا للفتوحات الكبيرة، إلا أن معظمها لم يكن مظهرًا للاستمرار طويلا على مسرح التاريخ. ومن الأسباب التي دعت إلى ذلك أن غاية القادة الذين حققوا تلك الفتوحات كانت تنصب على السيطرة النفسية البحتة، وأصبح كل واحد منهم بذلك مثل الآفة الطبيعية، فكانوا كمياه السيول التي تخرب ما حولها. وحملات «الإسكندر المقدوني» التي بدأت من «مقدونيا» وحتى «الهند»، وحملات «أتِيلْلا» التي بدأت من وسط «آسيا» وحتى «روما»، والانتصارات العسكرية لـ«جَنْكيزْ» و«هُولاكُو» و«تِيمُورْ» كانت كلها من هذا القبيل. فلم يكن ما تركوه خلفهم سوى ري الأراضي بالدموع والدم والظلم.

أما العثمانيون الذين أدركوا تلك الحقائق جيدًا، فقد وجدوا الأساس المعنوي لانتصاراتهم بروحانية وهمة المرشدين المعنويين، الذين ربّوهم على الإرشاد. فقد عرفوا كيف يجعلون انتصاراتهم تعتمد على رضاء الله وليس على الحكم الشخصي.

ونجحوا في أن يجعلوا كل فتوحاتهم على هذا المقياس، ولهذا قاموا بتربية أرواحهم أولا على يد المرشدين المعنويين. وأظهروا دراية في تحقيق تلك الانتصارات في سبيل الله بدلا من أن تكون في سبيل تحقيق أهدافهم الشخصية. واحترزوا أن يكون لأنفسهم نصيب من تلك الانتصارات، وبذلوا جهودًا كبيرة واهتماما بالغا من أجل ألا يُسقطوا الظلال النفسية على تصرفاتهم. حتى السلطان «سليم الأول» الذي حقق انتصارات أسطورية وملحمية، انتظر أثناء عودته إلى «إستانبول» بعد فتح «مصر» حلول الليل، حتى لا يكون معرضا لالتفاتات الرعية التي -ربما- تسوقه للغرور. لقد كان كل السلاطين العثمانيين يعيشون في تلك الحال الروحية،

حتى أنهم كانوا يحرصون منذ بداية الدولة وحتى نهايتها على إصدار الأمر للجنود أن يصيحوا عليهم أثناء ذهابهم للسلام عليهم كل يوم جمعة قائلين: "لا تكن مغرورًا أيها السلطان، الله أكبر منك"، وبذلك كانوا يعملون على وجود عامل تنبيه وإيقاظ خارجي لهم. وهذا مشابه لما قام به سيدنا «عمر بن الخطاب» الذي كان يعطي الأجر لبعض الجنود لكي يقولوا له باستمرار: "يا عمر! لا تنسَ فالموت موجود".

وهذا كله يعني أن كل القادة والسلاطين الذين حققوا الانتصارات العثمانية أدركوا جيدًا وبكل عناية الجهاد الذي أمر به الإسلام، ومعنى الجهاد الأكبر الذي كان يعني مجاهدة النفس؛ ولهذا أظهروا قيمة كبيرة وبشكل دائم لإرشاد المرشدين المعنويين الذين كانوا يرشدونهم في هذا الصدد، فقد اعتبر كل واحد منهم تربية القلب ضرورة.

ويمكن القول بأن كل السلاطين العثمانيين بلا استثناء ساروا في طريق السير والسلوك. حتى السلطان «محمود الثاني» الذي كان تحت تأثير بعض رجال الدولة الخائنين والغافلين، رغم أنه تسبب في اكتئاب الرعية وخيبة رجائهم لدرجة أنهم قالوا عنه: "السلطان الكافر" وهم كانوا يتوهمون في سلاطينهم قوة سبعة أولياء، أمر مَنْ حوله وهو في النزع الأخير من حياته وقال:

"هيا أوصِلوني إلى الجامع، أريد أن تُقبض روحي وأنا في بيت من بيوت الله".

ج- وثمة خاصية أخرى لها أهمية أكثر من كون الأيديولوجيات التي تعتمد الدول عليها لضمان استمرارها على مسرح التاريخ، محقة أو باطلة، ألا وهي العدل. لأنه يمكن أن تتخذ دولة من الدول إحدى الدعاوى الباطلة مسندًا لها، وتستمر بذلك، أما الدولة الظالمة فلم يُرَ أنها استمرت.

وبناءً على تلك الحقيقة فإن رجال الدولة العثمانيين الذين كانوا قادرين على تمثيل الإسلام بروح ومناخ معنوي حتى في أحكامه الظاهرية بواسطة إرشاد وهمة المرشدين المعنويين، أظهروا حساسية كبيرة من أجل عدم ترك العدالة طوال تاريخهم.



وقد لعبت تلك الحساسية دورًا في حث العديد من المجتمعات غير المسلمة على الدخول في الإدارة العثمانية من تلقاء نفسها. ومن الحقائق التاريخية أيضًا أن العديد من المجتمعات التي كان أهلها يئنون تحت مظالم القساوسة البيزنطيين أرسلوا في طلب القادة العثمانيين أثناء فتح الروملي.

لم يفرق العثمانيون بين عباد الله من ناحية العرق، ولم يقوموا بالتفرقة بين مَنْ كانوا تحت سلطتهم مثلما فعل «الأمويون». ولذا عاش ما يقرب من ٧٢ أمة وملة تحت مظلة الدولة العثمانية في أمن وسلام إلى أن ظهرت التيارات القومية والتحريضات الغربية. وكانوا ينظرون لعادات وأعراف وأديان كل الناس بنظرة التسامح، وحققوا تعدد الثقافات بدرجة لم يصل إليها أحد في التاريخ، هذا التعدد في الثقافات الذي اعتبر اليوم سببًا لنضوج الأمم. وقد أظهروا تسامحًا لغير المسلمين لدرجة أنهم كانوا يحاكمونهم تبعًا لقوانينهم ومعتقداتهم وفي الاختلافات الظاهرة فيما بينهم. وقد استمر نشاط المحاكم الخاصة التي تأسست في البطركيات وفي السفارات الأجنبية لهذا الغرض حتى نهاية الدولة. ويمكننا القول بأن هذه العدالة المستثناة التي طُبقت في الدولة العثمانية لم تُطبق في أية دولة أخرى في التاريخ ولم يُرَ مثلها إلا في عهد صدر الإسلام. لقد حافظ العثمانيون على توزيع العدالة بين المسلمين وغير المسلمين بالصورة الحساسة والروح السامية التي قدمها الإسلام. ومن تلك الأمثلة التي لا مثيل لها في التاريخ؛ محاكمة الفاتح في ظروف مساوية لمعماري رومي. وهذا من أبرز الأمثلة البراقة على العدالة النادرة في التاريخ.

ويعتبر الشيخ «أدبالي» هو حجر الأساس لهؤلاء المرشدين المعنويين الذين سعينا للكلام عنهم بكل السبل، والذين عملوا على ضمان قيام الإداريين في الدولة العثمانية بتزكية أنفسهم أولا، وتحقيق إجراءاتهم باسم الله وبمشاعر المسؤولية الإلهية بدلا من السلطة الشخصية ثانيًا. حقيقة إن الشيخ «أدبالي» عمل على توجيه روح وإدارة «عثمان الغازي» الوليّ مؤسس الدولة في أكمل صورة في السنوات الأولى لتأسيس الدولة، ولعب دورًا معززًا ومباركًا في التاريخ.





المعماري المعنوي للدولة العثمانية

حضرة الشيخ أدبالي

(١٢٠٦- ١٣٢٦م)

«أدبالي» هو باني البناء المعنوي للدولة العثمانية، وهو أستاذ «الغازي عثمان» وحَمُوه. عمِّر حتى ١٢٠ عامًا، وأغلب الظن أنه بدأ تحصيله العلمي في مسقط رأسه «قَرَمَانْ» وأكمله في «الشام». وقد تلقى العلوم على يد أشهر علماء عصره، حتى وصل إلى حالة لا يضاهيها أحد في العلوم الظاهرية والباطنية.

وكما أوضحنا سابقًا فإن «أدبالي» يأتي على رأس الشخصيات التي لعبت دورًا كبيرًا، وبذلت جهدًا كبيرًا في إخراج الأناضول المسلم، الذي عاش أزمة كبيرة بعد استيلاء المغول عليه، من هذا السرداب الذي كان فيه.

فقد عمل الشيخ على تأسيس وحدة الأناضول من جديد بعد تمزق الإمارات وحدوث جرح كبير في جسد تلك الوحدة، وعمل على جعل راية الإسلام المنتصرة



ترفرف أمام أهل الكفر. وقد اتبع تقييمًا حساسًا لكل إمارات الأناضول من أجل تحقيق تلك الغاية، ولكن كان وضع الإمارات التي كانت في حالة حرب مع بعضها البعض لاحتلال مكانة «الدولة السلجوقية» لا يعطي الأمل للشيخ «أدبالي» وفي النهاية وجد الشيخ بغيته والجوهر السامي الذي يبحث عنه في الإمارة العثمانية، تلك الإمارة الحدودية الصغيرة التي كانت تمتلك ٤٠٠ فارس، ولا تفكر في انتصارات براقة لنفسها، وكان الوضع الجغرافي لتلك الإمارة العثمانية، ومفهوم إعلاء كلمة الله ﷻ الممتلئ بالحب والحماس لخدمة الإسلام الموجود في أفرادها، قد أعد الأرضية الكاملة للشيخ.

ولهذا استقر الشيخ مع كل أتباعه في أراضي الإمارة العثمانية، وبدؤوا جميعًا يبذلون جهدهم من أجل إعلاء وتقوية تلك الإمارة ماديًّا ومعنويًّا. فقام الشيخ أولاً بتأسيس زاوية في «بيلَه جِكْ»، وبدأ حملة توعية وإرشاد لكل الأهالي وكل رجال الدولة، وعلى رأسهم «الغازي عثمان».

ويذكر «عاشق باشا زاده» أن زاوية الشيخ «أدبالي» لم تخلُ من الناس قط، فقد كان الدراويش والفقراء يقصدونها دومًا، حتى أن الشيخ أمر بجلب قطيع من الأغنام لإطعامهم.

وقد ذكرنا من قبل أن «الغازي عثمان» كان يحب أهل التصوف والعلم منذ ريعان شبابه، وكان يذهب إلى الشيخ «أدبالي» في الأيام المباركة خاصة لينال من فيضه. ومن المشهور أن «الغازي عثمان» رأى تلك الرؤيا المشهورة نتيجة احترامه وتعظيمه للقرآن الكريم ففسره له الشيخ «أدبالي» وزوّجه بابنته.

وبالرغم من أنه من غير المعروف إلى من انتقلت مشيخة الآخية بعد الشيخ «أدبالي» إلا أن أقوى الاحتمالات تقول بأنها آلت إلى تلميذه «دُورْسُونْ فَقِيهْ» الذي منحه الشيخ الإجازة، ثم منحت بعد ذلك إلى «مراد الأول» حفيد «الغازي عثمان».

وقد كان الشيخ «أدبالي» في الوقت نفسه أول فقيه وقاضٍ في الدولة العثمانية. ولما كان عمره طويلا، فقد ظل خلال هذا العمر الطويل ينثر الطمأنينة والفيض على الأهالي لسنوات. حتى تُوفي عام ١٣٢٦م. رحمة الله عليه.

قام الشيخ «أدبالي» بتربية الكثير من الطلاب، ومن أبرز طلابه «دُورْسُونْ فَقِيهْ»الذي يُعد المفتي الثاني في الدولة العثمانية، والقاضي الأول بها.

ماذا أعطى الشيخ لـ«لغازي عثمان»؟

رأينا فيما سبق أن الشيخ علّم «الغازي عثمان» في أول الأمر؛ أن النصر الحقيقي هو الانتصار على النفس وعدم الاغترار بها. وقد سار رجال الإرشاد الذين أتوا من بعده على نفس التوجه لسلسلة «الغازي عثمان» فقد كان كل واحد من أولياء الله ﷻ المذكورين بمثابة حضن الشفقة والبلسم للقلوب الجريحة المتأزمة في الدولة والأمة من الكوارث والمصائب.

واحتاج الأبطال الذين كان لهم دور في مصائر الدول إلى هذا الإرشاد وهذه الروحانية دومًا. فقد عمل أولياء الله ﷻ المذكورون على إثراء عوالم القلوب لهؤلاء الأبطال، وجعلوهم يكتسبون الفيض بمحبة وحرمة أسطورية تتناقلها الألسن للقرآن والسُنة والإسلام، وجعلوهم يدركون ويصلون إلى الأسباب الأصلية للانتصارات، ويدركون مشاعر الأسرار، وقد ظهر بذلك أكثر الأجيال مهابة في العالم.

وصل هذا الوجد والعشق إلى ذروته بالتضحيات مثلما حدث في استشهاد «مرادالأول». لقد حمل هذا الجيل دعوى -الذي أسس معسكرًا في صحاري «اليمن» من أجل الدفاع عن «المدينة المنورة» - إعلاء كلمة الله ﷻ إلى كل أرجاء العالم بكل حب وشرف.

لقد كانت تلك الأرواح المجاهدة بمثابة الجنود المعنوية المشرفة لرسول الله ﷺ حتى آخر قطرة دماء لديهم وحتى آخر نفس فيهم. لقد كان هذا الجيل يتسابق من أجل الشهادة، ويقولون وهم يتسلقون أسوار إستانبول:

"اليوم الشهادة لنا!".

إن القلوب الروحانية الكاملة التي تشكل أساس هذا التسابق لن تتحلل تحت التراب. والإمبراطورية العثمانية التي استمرت ٦٢٣ عامًا كانت عملا قلبيًّا لسلسلة الشيخ. ويمكن القول بأن عمل قدمه الشيخ لم يكن الكتب كما ترك الكثير من الذوات الكرام، بل كان عمله: تلك الأجيال المتعاقبة المجاهدة في سبيل الإيمان والإسلام.

وعلى هذا انتقلت تلك الروح التي كانت موجودة في الصحابة الكرام واقتبست من النبي ﷺ إلى أجيال المجاهدين، الذين أتوا تلو بعضهم البعض في التاريخ العثماني بواسطة روحانية ووجد وحب الشيخ ومثله من الأولياء الصالحين.

ولهذا فإن العثمانيين لم يعتبروا أنفسهم دولة جديدة، بل أدركوا أن دولتهم إنما هي استمرار لتلك الدولة التي أسسها النبي ﷺ بالمدينة المنورة. إن صفة "البقاء" لله سبحانه وتعالى خاص به، ولم يتجل في هذا العالم. فكل شيء في هذا الوجود محكوم عليه بالفناء، فقد كان مقدرًا في علم الله ﷻ أن الدولة العثمانية ستكبر وتعلو، وتزول في النهاية لأسباب ما.

فما زال العالم والشرق الأوسط خاصة بحاجة ماسة إلى هذا السكون والسلام الذي حققه العثمانيون من قبل. وذلك لأن الفكر الإمبريالي الذي عمل على تقويض الدولة العثمانية سعى إلى تقسيم ميراث الدولة العثمانية إلى ما يقرب من ٤٠ قطعة، حتى يعوق ظهور وارث قوي ماديًّا ومعنويًّا لها.

وعلى هذا ظهرت الدول أو الدويلات الصغيرة المعروفة اليوم. والخلاصة أن العالم الغربي عمل على تمزيق فراء الأسد من أجل عمل فراء لأربعين ثعلبًا، ولكن -مع الأسف- لن يخرج من صغار تلك الثعالب أسد مرة أخرى.

ويمكن القول بأن تلك العقبات في سبيل التطورات والتعاليات التي تواجه «تركيا» التي تمتلك هذا الاستعداد نسبيًّا في الوقت الحالي، إنما هي من أسلوب وأهداف هذا العدو. إلا أن هذه الفتنة وهذا الفساد الذي يسعى إليه المفسدون وعلى رأسهم الصهيونية العالمية لم تستطع أن تعوق هذه اليقظة والصحوة الإسلامية الموجودة في بلدنا في الوقت الحالي. وليدبروا وليمكروا كيفما شاءوا، فالله تعالى خير الماكرين!.. وكل القوى مهما اتحدت وتحالفت أمام القوى والإرادة الإلهية فإنها في النهاية لن تكون سوى سلة مهملات حقيرة.

وبالرغم من أن هذه التصرفات السلبية للدنيويين وعبّاد المادة في الوقت الحالي، إلا أنه ما زالت هناك بقية لتلك الروحانية العظيمة في العالم الإسلامي كله وعلى رأسه الأناضول.

ويجب علينا ألا نُبعد عن خاطرنا وأذهاننا في الأيام المقبلة، احتمالية وإمكانية نمو هذه الروحانية المباركة من تلك البقية مثل البراعم المتفتحة جديدًا من جذوع شجرة يابسة. لأنه من الأصول الدينية أن تلك الدعوى التي هي مظهر من مظاهر روحانية النبي ﷺ لن تزول حتى يوم القيامة. وما قِلَّتُها وزيادتها إلا كمثل المنحدرات والمرتفعات في الطريق.

وظهور الرأسمالية كعدو جديد للإسلام بعد انهيار الشيوعية إنما هو بسبب هذا المستقبل الذي وعد به الإسلام وأثبته على أنه «الحزام الأخضر» الذي سيحيط بالدنيا على هذا الجدار الحديدي القديم. والمؤمنون يعلمون جيدًا أنه لا توجد أية قوة أو عائق يمنع إتمام نور الله ﷻ. ولعل انهيار الشيوعية – التي كانت تدعي بالتهام



كل موجود- بدون بندقية أو مدفع وما آلت إليه عاقبتها المحزنة، كافٍ من أجل إثبات الأمل في الأيام المقبلة.

ويقول الله تعالى:

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران، ١٧٦)

اللهم أحسن إلينا بنصيب مبارك من الأعمال الصالحة التي تحقق إحياء الإسلام وقوته من جديد!..

آمين!..







سلطان المعنى الفريد الذي وجّه سلاطين العالم.

حضرة عزيز محمود هدائي

(١٥٤١ - ١٦٢٨م)

من كبار أولياء«إستانبول» في العهد العثماني. اسمه الأصلي «محمود». واسمه «هدائي» وصفته «عزيز» منحتا له فيما بعد. هو من نسل «جنيد البغدادي» وهو سيد، وقد عبّر عن نفسه في إحدى أنشوداته الدينية:

"أنت جدّي وكبيري

وسلطاني يا رسول الله"

وُلد في «قوجْ حِصارْ» وقضى سنوات طفولته في «سِوْرِي حِصارْ».

عاش قرابة المائة عام، وأدرك عهد ثمانية سلاطين، وهو أحد سلاطين القلوب. كان مصدر الفيض للأمة في عهده بمؤلفاته وبوعظه وإرشاده. كان صاحب هوية لامعة في ساحات العلم والتصوف والأدب، وله موقع متميز بين المرشدين المعنويين.



كان عزيز «محمود هدائي» شخصية معنوية نادرة أدرك كيف يُسيّر نشاطاته وفعالياته القيمة بحب وحماس مثلما فعل الشيخ «أدبالي» في بدايات تأسيس الدولة. إن «عزيز محمود هدائي» كان يسعى دوما بكل صدق وإخلاص لنيل رضاء الله ﷻ. وبسبب لياقته في العلوم الظاهرية والباطنية أيضاً فقد نال حب السلاطين والرعايا له، وبرز كولي من أولياء الله ﷻ.

عاش «عزيز محمود هدائي» في عهد اتسم بالتوقف التدريجي عن الازدهار والتقدم. فقد كان يسعى من ناحية إلى توجيه السلاطين إلى العدل والناحية المعنوية، ويسعى من ناحية أخرى إلى تضميد جروح قلوب الأهالي وقلوب الإداريين الذين عاشوا فترة من التأزم بسبب المشاكل والغوغاء، وكأنه طبيب حاذق. ولهذا هرع كل الناس في المجتمع إلى موائد الخدمة والإرشاد والمحاورات التي كان يعقدها، وأصبحت تكيته بذلك مكانًا لسعادة القلوب وفرحها.

حقيقة القول إن العهد الذي عاش فيه «العزيز» كان عهدًا أعقبت فيه الأزمات، السعادة تلو الأخرى. فقد ظهرت في هذا العصر الاضطرابات السياسية التي كانت تزداد بمرور الوقت، والأزمات التي تهز البنية الاجتماعية لأقصى درجة. ووصل الفساد في النظام العسكري في تلك الفترات، إلى درجة قتل «عثمان الثاني» الشاب بصورة مفجعة، وتم تمزيق جسد الصدر الأعظم «حافظ أحمد باشا» الذي كان يقف أمام عرش السلطان «مراد الرابع» على يد الانكشارية لدرجة أن دماءه لطخت العرش. فبهذه الأمثلة نفهم الأحوال السياسية في ذلك العهد جيدًا.

كان «عزيز محمود هدائي» ينادي في تلك العهود المتأزمة بصوت الحق والحقيقة ونفحات التصوف الإسلامي المسلية، فقد أكسب هذا الوضع تكيته هوية مختلفة كثيرًا عن بقية التكايا الأخرى. فكانت تكيته الشريفة هي المأوى الوحيد للأشخاص المنفيين أو المعزولين من إدارة الدولة، والفارين من أمام هذا التطرف الظاهر في المجتمع. وقد كانت تلك التكية ملجأ لبعض الوزراء عندما تضيق بهم الدنيا أمثال

«ديلاوَرْ باشا» و«خليل باشا» و«علي باشا». وعلى هذا كانت تكية «عزيز محمود هدائي» في ذلك الوقت بمثابة الملاذ الآمن الذي لن يُصاب أحد فيه بمكروه، أو بتعبير اليوم كانت تحمل هوية الحصانة. ويمكن القول بأن تكية «محمود هدائي» كانت تشهد تقديرًا واحترامًا لم تشهده تكية أخرى في وقتها في الدولة العثمانية.

ولهذا يجب علينا هنا أن نتوقف، وعلى مهل، عند كيفية تحقق هذه اللياقة المستثناة التي حصل عليها «محمود هدائي» وحصوله على هذا المقام العالي. لأن هذا المنهج الذي أوصله إلى هذا الكمال كان بلا شك نموذجًا مستثنًى لمن ساروا على طريق المعنوية.

كان «عزيز محمود هدائي» أثناء فترة تحصيله العلمي الجدي قد تمكن من أن يعجن عالم قلبه بعلاقة تصوفية تحت الزيادة والنقصان.

وقد أصبح معيدًا لأستاذه «ناظرْ زادَه» الذي اهتم به بشكل خاص في المدرسة بسبب تفوقه وجهده. وفي السنوات التالية للمدرسة اشتغل في القضاء مع أستاذه «ناظرْ زادَه»، وفي النهاية تم تعيينهما في «بورصة» وكان أستاذه رئيس القضاة، أما هو فكان نائب قاضٍ في محكمة «الجامع العتيق» إلى جانب تدريسه في «المدرسة الفَرْهادِيّــة».

ويتصادف هذا الوقت مع وقت توجهه إلى السلوك في التصوف ومعرفته بالله بالمعنى الكامل، والقصة على ما يلي:

كان «عزيز محمود هدائي» صاحب مكانة ومقام علمي كبير، إلا أنه كان واحدًا من الكثير من القضاة الذين يشتغلون بالقضاء في «بُورْصَة» باسم «القاضي محمود أفندي». وذات يوم عُرضت على «عزيز محمود هدائي» دعوى لم يقابل مثلها قط، حيث أتت إليه امرأة تبكي وتشتكي زوجها، استمع إليها القاضي «محمود هدائي» فقالت المرأة: يا سيدي القاضي، إن زوجي ينوي الحج كل عام، ولكن نظرًا لفقره لا يستطيع الذهاب إلى هناك، حتى أنه في تلك السنة قال:"إن لم أتمكن من الذهاب

إلى الحج في تلك السنة سأطلقك" وقبيل موسم الحج غاب زوجي ولم أعرف إلى أين ذهب، وبعد الحج بخمسة أو ستة أيام عاد إليّ، وقال: إنه حج، ولم يطلقني فهل يمكن هذا، إنني أريد الطلاق من هذا الرجل الكذاب."

استدعى القاضي زوج المرأة ليستعلم منه عن الحقيقة وسأله عما قالته المرأة فأجاب الرجل بأن ما قالته زوجته صحيح، وما قاله هو صحيح أيضًا، لقد ادعى الرجل أنه ذهب إلى الحج، حتى أن بعض الحجاج من أهالي «بورصة» أعطوه هدايا ليوصلها إلى «بورصة».

تحير القاضي «محمود هدائي» وقال له: "كيف يكون ذلك يا رجل؟"

فقال الرجل:

"يا سيدي القاضي! أنت تعلم أني فقير، وليس لدي حيلة في الذهاب إلى الحج، ولما علقت طلاق زوجتي على ذهابي إلى الحج، ولم يكن معي النفقة على ذلك، ضاقت عليّ الأرض فذهبت إلى «أسْكِيجِي محمد دَدَه» فأمسك الشيخ بيدي وقال: "أغمض عينيك! وفتحت عيني فإذا بي أقف أمام الكعبة"

أنكر «عزيز محمود هدائي» الذي قابل حادثة معنوية كهذه لأول مرة في حياته هذا الكلام، ولكن الرجل الذي كان لا يزال مفعمًا بمشاعر الروحانية والمعنوية من جراء رحلته إلى الأراضي المقدسة، صاح بكلمات عابرة:

"يا سيدي القاضي! إن الشيطان الذي هو عدو لله يجوب الأرض كلها في لحظة، فلماذا ننكر أن يجوب وليّ من أولياء الله الصالحين الأرض في لحظة"

اقتنع القاضي «محمود هدائي» بهذا الكلام، وأجّل الحكم في الدعوى إلى حين وصول الحجاج لمعرفة حقيقة الأمر، ولما وصل الحجاج البورصويون أخبروا بصدق كلام الرجل، فاضطر القاضي إلى إبطال الدعوى وهو في غاية الحيرة والاندهاش.

ولكن سقطت على قلب «عزيز محمود هدائي» جمرة تحمل غموضًا جعلت ذهنه معقدًا، وبدأت شلالة روحه وإرادته تفيض في حالة سُكر. وبينما كان يتفكر فيما

سيفعله إذا بقطرة من الإلهام نزلت على قلبه، فذهب إلى «أسْكِيجِي محمد دَدَه» وأراد أن ينتسب إليه ليتمكن من الغوص في بحر الحقيقة والأسرار، ولكنه لما ذهب إلى الشيخ، قال له الشيخ:

"سيدي القاضي، إن نصيبك ليس عندي، بل هو عند مرشد عصره «محمد الأُفْتَادَه»".

فاتجه «محمود هدائي» بنفس النية والعزم إلى تكية «الشيخ الأُفْتَادَه»، وبقدر من الله ﷻ تعثَّر جواده عندما اقترب من التكية، فنزل من فوق الجواد وسار على قدميه إلى التكية. ولما دخلها وقف بين يدي الشيخ وطلب منه أن يكون أحد مريديه وطلابه. كان «عزيز محمود» هدائي يقف بين يدي الشيخ بملابس القضاء المزينة، وكان الشيخ قد علم بطريق المعنى عما حصل له، فلم يقبل طلبه مباشرة حتى يتمكن من معرفة مدى إخلاصه وصدق نيته في طلبه، وقال له:

"اذهب أيها القاضي! فإن لكم حياتكم المفعمة بالشهرة والمنصب والمال، أما هنا فمكان الفقر والعدم، ألم ترَ كيف تعثَّر جوادك تمنعاً وأنت آتٍ إلى هنا؟" ثم سار الشيخ مباشرة إلى باب التكية.

وبعدما رأى عزيز «محمود هدائي» الانجذاب المعنوي للشيخ وكراماته البينة غَاص في أودية الحيرة و أدرك الحقيقة. وحينئذ كان قراره حاسمًا؛ لأنه كان يريد أن يتخطى عقبة النفس، ولأنه كان يرى ضرورة في التسليم إلى باب كهذا دون تضييع للوقت حتى يتمكن من الوصول إلى الله ﷻ. وعلى الفور هرع خلف الشيخ وتعلق بتلابيبه وقال:

"يا سيدي! أنا الآن متحير بلا إرادة، وكأنني أسقط في حفرة. فامدد إلي يدك لمساعدتي، وتفضل علي بالقبول ليتشرف هذا المسكين بطلبتك ".

تبسم الأستاذ «الأفتادة» لهذا ووافق بعد أن وضع لـ«لعزيز محمود هدائي» ثلاثة شروط صعبة لقبوله وهي؛ أن يترك التدريس والقضاء، وأن يتصدق بكل ماله على



الفقراء، وأن يدخل في رياضة صعبة من أجل تربية النفس. وذلك لأن التعرف على النفس وتربيتها كان أمرًا ضروريًّا، وعلى هذا أسلم «عزيز محمود هدائي» نفسه وقلبه للشيخ وأصبح واحدًا من مريديه[1].

وحتى يقوم «الأُفْتَادَه» بتطهير قلب «عزيز محمود هدائي» من كل كبر وعجب وغرور، أمره بأن يبيع الكبدة في أزقة «بورصة» بهذا القفطان الذي على ظهره، كما أمره بأن ينظف المراحيض الموجودة في التكية.

وقد امتثل «عزيز محمود هدائي» بقلبه ونفسه لأوامر الأستاذ «الأفتاده» لأنه أتى إليه بإخلاص وتسليم كبيرين، وطهّر نفسه من كل العلاقات الدنيوية التي تغذيها، وقطع بإخلاصه مسافات كبيرة في وقت قصير، حتى أن الأهالي الذين كانوا يرونه يبيع الكبدة في الطرقات وعلى ظهره القفطان المطرز كانوا يقولون:

" من المحتمل أن قاضينا قد جُن!."

" مسكين! لقد ترك القضاء ولكنه لم يترك قفطان القضاء!.."

كان «عزيز محمود هدائي» يجتهد في تحقيق الوظيفة التي أمره الشيخ بها دون أن يستمع إلى كلمات أو تحقير الأهالي له.

وبذلك بدأ يسلك الطريق السريع صوب النضوج السامي، وبمرور الوقت بدأ يزيد قدره وقيمته في قلب وعين شيخه.

أما قصة إزالته آخر إمارة على الوجود والأنانية في نفسه فهي قصة مشهورة جدًّا:

---

١. وهناك رواية أخرى عن انتساب «العزيز محمود هدائي» إلى الشيخ «الأفتاده» وهي: حيث رأى «العزيز محمود هدايي» في رؤياه أن القيامة قد قامت وأن الصراط والميزان قد نصبا، وأن الكثير من الأشخاص الذين اعتقد أنهم كبار حتى مدرسه ناظر زاده من أهل النار، فأخذ «العزيز محمود هدائي» العبرة اللازمة، وسلك الطريق المعنوي وانضم إلى مريدي الشيخ الأفتاده.

ذات يوم بينما كان «عزيز محمود هدائي» ينظف دورات المياه سمع صوتًا يأتي من الخارج يقول:

"أيها الأهالي! ليعلم الحاضر الغائب، سيأتي قاضٍ جديد إلى بلدتنا".

وفي تلك اللحظة شعر «العزيز» بغلبة النفس عليه وامتلكته عاصفة من الوساوس. وقال في نفسه:

"هذا يعني أن قاضيًا سيأتي مكاني، آه، أيها المسكين محمود! لقد تركت منصبًا مشرفًا كهذا، وتقوم الآن بتنظيف المراحيض ماذا كسبت من ذلك منذ سنين؟ ".

وفي تلك اللحظة سعى «عزيز محمود أفندي» تجاه إغواء نفسه لتجاهل تلك المشاعر، وتذكر أستاذه والوعد الذي وعده إياه بتنفيذ الشروط، وعلى الفور استغفر وتاب، وبذلك قابل وساوس نفسه الخطيرة للغاية بمقابلة شديدة. وقال في نفسه:

"يا محمود! ألم تعاهد أستاذك بأنك ستجعل نفسك تحت الأقدام، أين وعدك الآن؟ هيا قلْ، ما حالك هذا؟"

حزن القاضي محمود لهذا الحال حزنًا شديدًا، وبالرغم من أنه حاول أن يسحق نفسه تلك، إلا أن هذا لم يكن كافيًا له، ولم يسكن هذا الندم الذي في قلبه، ودون أن يفكر ألقى بالممسحة التي في يده جانباً وقرر أن ينظف أحجار المراحيض بلحيته، وفي تلك اللحظة رأى أستاذه على الباب، ابتسم الأستاذ وقال لمحمود بصوت لطيف وأداء مريح:

"محمود! بُنيّ! إن اللحية سُنة مباركة من سُنن النبي ﷺ"

ومنعه من هذه الفعلة ثم أكمل قائلاً:

" بُني محمود! إن غاية تلك الخدمات التي قمت بها في سبيل السير والسلوك إنما هي من أجل تخطي هذه المرتبة، والحمد لله على توفيقه، لقد تخطيت تلك المرتبة، ووظيفتك بعد الآن هي إعداد وَضوئي".

سعى القاضي محمود لأداء تلك الوظيفة على أكمل وجه بكل أدب، فقد كان يجهز وَضُوءَهُ كل صباح دون أدنى تقصير.

وذات يوم من أيام الشتاء استيقظ القاضي «محمود هدائي» من النوم متأخرًا، ولم يجد وقتًا لتسخين الماء، وقد شعر بحزن شديد لهذا، حتى أنه بكى، ووضع إناء الماء على صدره ولم يقل سوى كلمة «الله». وفي تلك الأثناء حضر الأستاذ «الأفتاده» وطلب من «محمود هدائي» أن يجلب له ماء الوضوء، أحضر محمود الماء وليس لديه حيلة، وبدأ يصب الماء بحركة لاإرادية وبمجرد أن صب الماء على يد الشيخ، هز الشيخ رأسه بلطف وقال له:

"يا بُني! لقد سخن الماء كثيراً على ما يرام"

تعجب محمود وقال له بصوت خافت:

"كيف يمكن هذا؟! ولكني لم أقم بتسخين الماء يا سيدي!"

فقال له الشيخ: "يا بُني! إنك لم تدرك ولم تشعر بأنَّ هذا الماء لم يسخن بنار الحطب، بل بنار الفؤاد!"

لقد أنزل «العزيز هدائي» نفسه إلى الحد الأدنى لدرجة أنه استفاد من تنظيف المراحيض في سبيل تربية نفسه بالرياضة الشديدة التي دخلها، ونجح في تقوية روحه وتوجيه قلبه للحق فقط. والنتيجة أنه نال بركة هذا الحال الجميل، لدرجة أنه وصل إلى حالة أنه يقابل ويتحدث مع الأموات أكثر من الأحياء. وقد عرض على أستاذه أنه ذات مرة قابل في طريق التكية أحد المؤذنين الذين توفوا من قبل وأن هذا المؤذن ألقى عليه السلام فرد عليه، فقال له أستاذه «الأفتاده»:

"يا بُنيّ! إن الرياضة التي قمت بها أوصلت روحك إلى درجة جيدة من الكمال وجعلتها قوية، ونحن أيضًا عندما كنا في رياضتنا صادفتنا مثل تلك الأحوال".

وذات يوم خرج «الأفتاده» مع طلابه إلى المروج الخضراء، وأمر كل الدراويش بأن يجلب كل واحد منهم زهرة لأستاذه من المرج، وكان في يد «عزيز محمود هدائي» زهرة ذابلة مكسورة الغصن، ولما قدّم كافة الدراويش الزهور النضرة التي في أيديهم إلى أساتذتهم، قدّم محمود الوردة الذابلة التي في يده إلى أستاذه «الأفتاده» وهو مطأطئ الرأس. وحينئذ سأل الشيخ «الأفتاده» محمود بين نظرات بقية المريدين التي كانت ممتلئة بالتعجب:

"بُني محمود! لماذا جلبت تلك الزهرة الذابلة المكسورة الغصن، بينما أحضر الجميع زهورًا نضرة؟"

أحنى القاضي محمود رأسه بكل أدب وقال:

"يا أستاذي! مهما قدمت لكم فهو قليل! ولكن كلما هممت بقطف وردة أو زهرة نضرة كنت أجدها تسبح الله، ولم يرتضِ قلبي أن يكون مانعًا لهم من ذكر الله، ولهذا اضطررت أن أجلب تلك الزهرة التي رأيت أنها أصبحت غير قادرة على التسبيح."

فرح الشيخ «الأفتاده» كثيرًا بهذا الرد الجميل وقال:

"هدائي! هدائي، بُنيّ! فليكن اسمك من الآن «هدائي»!.. يا هدائي! أنت الوحيد الذي أخذ نصيبه من تلك الرحلة"

ومنذ ذلك الوقت عُرف القاضي محمود باسم «هدائي» وذلك لأنه أصبح عالمًا بالأسرار الإلهية التي في الكائنات، وعالمًا بمجريات القدرة الإلهية، وأصبحت الكائنات بمثابة الكتاب المفتوح أمامه الذي يبوح له بأسراره.

وبسبب المرتبة المعنوية العليا التي نالها «محمود هدائي»، أطلقت عليه صفة «العزيز» احترامًا وتقديرًا له، فأصبح «عزيز محمود هدائي».

❀

لقد حقق «عزيز محمود هدائي» مكانة كبيرة لدى أستاذه «الأفتاده» في وقت قصير يبلغ ثلاث سنوات فقط، وبسبب هذا الارتقاء الذي حققه عزيز محمود بدأ بعض الدراويش ينظرون إليه بنظرة عدم الارتياح، ولأن الشيخ «الأفتاده» انتبه لذلك، قرر تصحيح عالم القلب لديهم بأسلوب جميل:

كان مساءً شتويًّا، وبعد أن عقد الشيخ الأفتاده مجلسًا مفعمًا بالمعنوية مع طلابه، أمر بإعداد الطعام، ولما نظر إلى الطعام الذي جلبه الطلاب على المائدة، قال بشكل معبر: "يا أبنائي! هل يمكن العثور على عنب طازج الآن؟"

تعجب الدراويش من هذا الطلب، ونظر بعضهم إلى بعض، حتى أن مجموعة منهم فكر في نفسه؛ "لا يمكن أن يكون هناك عنب في هذا الشتاء!"

إلا أن «عزيز محمود هدائي» الذي سلّم نفسه تمامًا لشيخه، ووصل إلى مراتب سامية أدرك أن في طلب أستاذه هذا حكمة، فقال بأدب:

"لو تسمح لي يا أستاذي! أنا ألبي طلبكم" فسمح له «الأفتادة».

خرج «عزيز محمود هدائي» إلى الحديقة فوجد كل أشجار العنب مغطاة بالثلوج، اختار واحدة منها، ونفض الثلج عنها، وإذا به يجد عناقيد العنب الطازجة، ففكر أن هذه من كرامة شيخه. ملأ السلّة التي معه، وعلى الفور سلك طريق التكية. وبينما هو عائد في الطريق مشغولاً بذكر الله ﷻ، والأرض مستورة بالثلوج، إذا به يسقط في بئر عميقة، ظل يحاول الخروج، ولكنه لم يستطع الصعود لعمق البئر، وبينما هو في تلك الحالة الصعبة إذا بشخص ينادي عليه من أعلى، نظر «عزيز محمود» فوجد شخصًا ذا وجه نوراني يناديه: "مد يدك!"

ومدّ له يده فأخرجه، وبينما كان «العزيز» يستعد لسؤاله عمَنْ هو، إذا بالرجل يختفي. ولما ذهب «عزيز محمود» إلى التكية وبيده سلة العنب، وحكى لأستاذه ما حدث قال له أستاذه: "إنه الخضر." ثم قال الأستاذ لبقية الدراويش:

"إن ابني هدائي قد أتم كماله وأنه استحق الخلافة منذ قديم".

بعد ذلك أرسله الأفتاده إلى «سِوْرِي حِصارْ» لكي يكون خليفة له هناك. وبعد فترة قضاها محمود هناك عاد إلى «بورصة» بإشارة معنوية. وخدم أستاذه «الأفتاده» الذي كان في آخر حياته بحب وإخلاص كبيرين، وقد شعر الأفتاده بسعادة غامرة من خدمة «محمود هدائي» له، فدعا له يومًا قائلاً:

"بُنيّ! لتكن في ركاب السلاطين"[٢].

وبعد وفاة الشيخ «الأفتاده» استقر «عزيز محمود هدائي» في «إستانبول» بدلالة شيخ الإسلام «خُوجَه سَعْدُ الدينْ أفندي». وأسس تكية في «أُسْكُدارْ» أصبحت تلك التكية في وقت قصير بمثابة المدرسة المعنوية ومدرسة العرفان لكل شخص من كل الطبقات. حتى أنه جلب توجه وعلاقة السلاطين إليه، وضمهم إلى دراويش تلك التكية. وخاصة السلطان «مراد الثالث»، والسلطان «أحمد الأول»، والسلطان «عثمان الثاني»، و«مراد الرابع» حظوا بإرشاد «عزيز محمود هدائي» لهم عن قرب. وقد حضر «عزيز محمود هدائي» مراسم تقليد السيف للسلطان «مراد الرابع». فقد قام بنفسه بتقليد السلطان الجديد؛ السلطان «مراد الرابع» سيف «عمر بن الخطاب» بجوار قبر «أبي أيوب الأنصاري» كما هو معتاد.



وعندما أتى «عزيز محمود هدائي» إلى «إستانبول» كان يجلس على عرش الدولة العلية السلطان «مراد الثالث» الذي كان يتصرف براحة وأمان وثقة كبيرة بسبب قوة وسعة حدود دولته، وشبابه من ناحية أخرى، وهذا الذي جعل بعض أوجه النقص تظهر منه هو. وبسبب ذلك احتمل «عزيز محمود هدائي» على عاتقه مهمة إرشاد السلطان بالرغم من أن أحدًا غيره لم يجرؤ على ذلك. فكتب الرسائل التي توجه السلطان إلى الحق والحقيقة. ومما يلفت الانتباه في تلك الرسائل؛ هو تنوع أسلوبه على حسب مايقتضيه الأمر. فتارة مملوءة بالشدة وتارة بالرخاوة. فهذا يدل

٢. لقد تحققت دعوة الشيخ فيما بعد، انظر مبحث السلطان أحمد الأول.



على أن «عزيز محمود هدائي» كان يمتلك تأثيرًا ونفوذًا وصلاحية كبيرة في أداء وظيفة الإرشاد. ولأن السلطان «مراد الثالث» كان مشهورًا بجلادته وصرامته لم يكن ممكنًا لأي شخص آخر من أهل العرفان أن يقوم بتلك التنبيهات التي قدمها له «عزيز محمود هدائي». وننقل هنا بعض تلك الرسائل التي كتبها «عزيز محمود هدائي» في أوقات مختلفة:

"يا سلطاني! عليك بركوب سفينة الشريعة، وفتح أشرعة التقوى، وأن تسير إلى الحق في طريق الاعتدال والاستقامة برياح المحبة في بحر الحقيقة. وعليك بتنفيذ شرائط الظاهر والباطن، أي أسس الطريقة والحقيقة. وهذا هو ما يطلقون عليه العدل".

"سلطاني صاحب السعادة، إن القوة والعظمة التي في عهدك لم تكن موجودة في عهد آخر، ولكن عليك أن تعلم أن أبسط طلب طلبه الله ورسوله منك هو إقامة العدل والقضاء على الظلم، والقضاء على البدع وإجراء السُنن".

"سلطاني، إن عباد الله ينتظرون منك الشفقة والرحمة، وإن لم يجدوها منك، فإنك بذلك تكون قد خنتهم، وحينئذ سيحولون وجوههم عنك وهم يبغضونك بقلوبهم المنكسرة، ولن تنال دعواتهم...".

"سلطاني، لقد أردت أن يتم عبور نهر «صَقارْيا» وجلب الحطب من هناك، وفرح الأهالي بذلك؛ لأنهم في احتياج إليه، كان جدكم السلطان «سليمان القانوني» قد أمر بشق نهر «كاغِدْ خانَه» وأقام مأدبة وتناول الطعام مع الأهالي، أما أنت فقد أسعدت الأهالي بجلب الحطب".

"سلطاني، إن وظيفتنا هي إيقاظ وإرشاد أصحاب الغرور والغفلة، والحث على التقوى والأعمال الصالحات، وهدفنا من ذلك أن نكون من المصلحين الذين يصلح الله بهم، ونعوذ بالله من أن نكون من المفسدين أو المستدرجين".

وبذلك كان نفوذ وتأثير «عزيز محمود هدائي» يزداد يومًا بعد يوم بين رجال الدولة وعلى رأسهم السلاطين بإرشاده ونصائحه. وقد انضم «العزيز» إلى حملة «تَــبْـــريزْ» مع «فَرْهادْ باشا» وكان بمثابة القائد المعنوي للجيش.

❁

أما بالنسبة للعلاقة بين «عزيز محمود هدائي» والسلطان أحمد الأول فهي تلك الرؤيا المشهورة. وقد زادت العلاقة بينه وبين السلطان المذكور بعد تلك الرؤيا كثيرًا، لدرجة أن السلطان كان ينظم النظائر للأناشيد الدينية لـ«عزيز محمود» وأصبح فانيًا في الشيخ.

لقد كان «عزيز محمود هدائي» صاحب نصيب من تعبير الرؤى الذي كان عند سيدنا يوسف، ولعل إصابته في تعبير رؤى السلاطين وتوجيههم أكبر علامة ودلالة على صلاحيته ولياقته في هذا الشأن.

وذات مرة أرسل السلطان «أحمد الأول» هدية إلى شيخه المحبب الى قلبه «عزيز محمود هدائي»، ولكنه رفضها، ولأن الهدية كانت قد خرجت من عند السلطان فقد أرسلها السلطان إلى الشيخ «عبد المجيد السيواسي» فقبلها الشيخ. ولما زار السلطان الشيخ المذكور بمناسبة قبوله الهدية قال له السلطان:

"يا سيدي! لقد أرسلت هذه الهدية من قبل، إلى «عزيز محمود هدائي» ورفضها، وأرسلتها إليك فقبلتها."

فرد عليه الشيخ «عبد المجيد السيواسي» بهذا الرد المفعوم بالمعنى:

"يا سلطاني! إن «عزيز محمود هدائي» كطائر العنقاء، ولايتــنازل إلى الجيفة".

سعد السلطان بهذا الرد، وبعدها بعدة أيام ذهب لزيارة «عزيز محمود هدائي» وقال له:"يا سيدي! لقد أرسلت إليك هدية فرفضتها، فأرسلتها إلى «الشيخ السيواسي» فقبلها"، فأجاب «عزيز محمود هدائي» بتبسم، وقال:



"يا سلطاني! إن «الشيخ السيواسي» كالبحر الكبير، وإذا سقطت قطرة ملوثة في هذا البحر فإنها لن تلوثه" [٣].

وتُظهر هذه المنقبة حب وتعظيم كلا الوليين بعضهما البعض وخاصة كمال «عزيز محمود هدائي». إذ «عزيز محمود هدائي» بسبب إرشاده أسس علاقة محبة وقرابة مع السلاطين في الناحية المعنوية، أما في الناحية المادية فإنه كان مستغنيًا لأقصى درجة. وذلك لأن تلك الهدايا تزيد المحبة والميل إلى الدنيا فتتضرر منها الناحية المعنوية، وتمثل عائقًا أمام جهود الإرشاد الذي كان وظيفة الشيخ الأصلية. وبالرغم من أن هناك روايات تقول بأن «عزيز محمود هدائي» كان في بعض الأحيان يقبل هدايا السلاطين، إلا أنه كان ينفقها كلها على تأسيس التكية أو على الفقراء أو المريدين، وأحيانًا كان يعيد الهدايا التي كانت ترسل إليه شخصيًّا.

استمرت العلاقات بين «عزيز محمود هدائي» وبين السلطان «عثمان الثاني» بعد السلطان «أحمد الأول». وقد بذل «العزيز» جهودًا كبيرة من أجل توجيه هذا السلطان الشاب المفعم بالحماس، والذي رأى الدولة العلية بدأت تدخل مرحلة التوقف، فبدأ يعمل من أجل ازدهارها مرة أخرى. في تلك الأثناء نوى السلطان الشاب الحج. لم يذهب سلطان قط إلى الحج من قبله بسبب عدم سماح العلماء والمشايخ لذلك، بدعوى أنه لو ذهب إلى الحج لاستغرقت الرحلة ذهابًا وإيابًا عامًا كاملا، وهذا سيجعل الدولة معرضة للخطر في غيابه عن الدولة عامًا كاملا. ولكن الجميع منهم قاموا بتوكيل أشخاص يؤدون الحج عنهم.

إن هذا السلطان الجديد وهو السلطان «عثمان الثاني» أراد أن يغير هذا التقليد القديم للدولة. وبالرغم من أن «عزيز محمود هدائي» نصحه كثيرًا بعدم خوض هذا الأمر، إلا أنه أصر على موقفه، وقرر الذهاب إلى الحج بسبب صغر سنه وعدم

---

٣. لمعرفة العديد من التجليات التي حدثت وكانت دلالة على علاقات القرب والمحبة بين العزيز محمود وبين السلطان أحمد انظر مبحث السلطان أحمد الأول.



خبرته. وكانت النتيجة أن فتح هذا الأمر الباب لغضب الانكشارية. لقد تدخل بعض المفسدين من أصحاب الفتن، وأشاعوا أن السلطان سيذهب إلى الحج لجمع جيش جديد من هناك جديد يقضي به على جيش الانكشارية. وعلى الفور تجمع رؤساء الفوضويين وجمعوا الجنود وبدءُوا يعيقون هذا الأمر، وارتكبوا جنايتهم الخبيثة والمعروفة في التاريخ بالفاجعة أو المأساة.

وقد أظهرت تلك الحادثة بشكل محزن أهمية إصرار «عزيز محمود هدائي» على تنبيه وإيقاظ السلطان من هذا الأمر.

أما بعض رجال الدولة فقد احتموا في ظل تلك الأجواء الخطيرة والطارئة بتكية «عزيز محمود هدائي»، وبذلك أنقذوا أنفسهم من هذا الخطر العظيم. وذلك لأن تكية «عزيز محمود هدائي» كانت مصونة من أية تعرضات أو تجاوزات سواء من رجال الدولة أو من الأشقياء، أي كان لتلك التكية ما يعرف اليوم بالحصانة، والذي يحتمي بها لا يتعرض لأي مكروه حتى لو كان مطلوبًا قتله، أما إن كان المحتمون بها من أصحاب الحقوق فإنهم يكونون مظهرًا لإعادة الحقوق بدلالة الشيخ مثلما حدث لـ«خليل باشا».

❀

وبعد استشهاد السلطان «عثمان الثاني» جلس على العرش السلطان «مراد الرابع»، وكان في الرابعة عشرة من عمره. ولأن «عزيز محمود هدائي» كان من أكابر رجال الدين المعتبرين تم استدعاؤه أثناء مراسم تقليد السيف، وقام بتقليد السلطان الجديد بالسيف.

وكان السلطان «مراد الرابع» صغير السن أثناء جلوسه على العرش، ولذا كانت إدارة الدولة في يد والدته وفي يد بعض رجال الدولة. وكان كلما يشعر السلطان «مراد الرابع» بضيق من هذا الوضع، تنكر وذهب خفية إلى تكية «عزيز محمود هدائي» ويقوي قلبه معنوياً، ويُعِد نفسه للأيام المقبلة. وكان السلطان مراد الرابع



يحقق تلك الزيارات بكل مقاييس الأدب والإخلاص التي يمكن للمريد أن يحققها. وذات يوم اصطحب معه وزيره وذهب إلى التكية، ولما قرع الوزير الباب، رد أحد الدراويش من الداخل: "مَن؟" فأجاب وزير السلطان فوراً -على ما اعتاد عليه-:

"سلطان الأقاليم السبعة السلطان ابن السلطان السلطان «مراد الرابع»."

فقال الدرويش: "هذا الباب ليس بباب السلطنة!" ولم يفتح الباب.

ابتسم «مراد الرابع» لحال وزيره وقال: "يا وزير! إن هذا الباب باب العبودية والقلب" وطرق الباب مرة أخرى، فأجاب السلطان «مراد الرابع» على نفس السؤال الموجه اليه من الداخل بكل أدب: "أبلغوا الشيخ أن خادمكم مراد أتى!" ففتح الرجل الباب وأُخِذوا إلى الداخل.

كان «عزيز محمود هدائي» الذي أصبح شيخًا هرمًا يبدي اهتمامًا كبيرًا بالسلطان «مراد الرابع» ليتمكن مراد من الوصول إلى اللياقة والكمال بالمعنى التام للكلمة. وببركة هذا التقارب وهذا الإرشاد المختلف اكتسب «مراد الرابع» الخبرة والمرتبة وأصبح متكاملا ماديًّا ومعنويًّا. لدرجة أنه أصبح يستطيع حمل دعاوى كبيرة بمفرده. ولما اشتد عوده تمكن من تأمين التوازن بين الأهالي وبين الجيش بالحملات الجدية التي قام بها، وأنقذ الدولة التي كانت تواجه خطر الانهيار في ذلك العهد.

❀

ومن أكبر كرامات «عزيز محمود هدائي» أنه استطاع توجيه أكبر سلاطين الدنيا، كما أن له الكثير من الكرامات التي تغذي أحاسيس أرباب القلوب.

ومن كراماته المشهورة أيضًا أنه تمكن من عبور المضيق بالقارب مع مريديه في يوم عاصف، لم يتمكن فيه أي بحَّار من الخروج بالقوارب إلى البحر. وبإذن الله وإرادته مهّد الله ﷻ طريق قارب الشيخ، ولم يصبه أي ضرر من الأمواج المتلاطمة في البحر، وحتى الآن يُطلق على هذا الطريق الذي سلكه «عزيز محمود هدائي» وهو الطريق الموجود بين «أُسْكُدار»و «سَرايْ بُورْنُو» اسم «طريق هدائي.»

ويمر البحَّارة الذين على علم به من هذا الطريق بقواربهم في أشد العواصف ولا يصيبهم الأذى بإذن الله، وهي كرامة بارزة لـ«عزيز محمود هدائي» إلى وقتنا الحالي.

وكان القباطنة البحريون الذين يقومون برحلات بحرية في المضيق حتى أواخر عهد الدولة العثمانية يقومون بتوجيه الركاب بقراءة الفاتحة والدعاء لـ«عزيز محمود هدائي» عندما يمرون من «أسكدار»، وعندما كانوا يمرون من أمام «بشيكطاش» كانوا يقرءُون الفاتحة أمام تكية «يحيي أفندي»، وعندما كانوا يمرون من بيكوز كانوا يقرءُون الفاتحة أمام مكان حضرة «يوشع» عليه السلام.

وهكذا كان الأدب الذي يظهره أهالي «إستانبول» للأولياء المدفونين بها في تلك الأيام.

❁

وقد علم أحد الأشخاص أن «عزيز محمود هدائي» ماهر في علم الكيمياء، فذهب إليه وسأله:

"يا سيدي! لقد سمعت أنك ماهر في علم الكيمياء، فما قولك في هذا؟"

وقبل أن يرد «عزيز محمود هدائي» بأي رد قطف ثلاث ورقات من الغصن المتدلي بجانبه ونفخ فيها فتحولت بإذن الله إلى أوراق ذهبية، ولما رأى الرجل المسكين هذه الحادثة حاول أن يفعل مثلها، ولكنه لم يوفق، فقال له «عزيز محمود هدائي» الذي كان يراقبه:

"يا بُنيّ! لتعلم أن تعلّم علم الكيمياء إنما هو عبارة عن أن تجعل نفسك كيمياء"

❁

ظهر في «إستانبول» طاعون كبير، مات من جرائه آلاف من الناس. فتقطعت بهم الأسباب وهرع الأهالي مباشرة إلى «عزيز محمود هدائي» وطلبوا منه وهم يبكون أن يدعو الله بأن يزيل عنهم هذا الطاعون. فأجاب «عزيز محمود هدائي» بأن



هذا الصنيع ليس من مشربه، ولكن أمام إصرار الناس بسبب شدة المرض، قال لهم الشيخ: "اذهبوا إلى مقبرة «قَــرَه جَه أحمد» وهناك ستجدون درويشًا باسم «حصير پُوشْ دده» يرقد تحت شجرة سرو، فاعرضوا عليه الأمر، فإن لم يوافق فقولوا له إن «عزيز محمود هدائي» يقرؤك السلام".

وعلى الفور ذهب الأهالي إلى المقبرة وإذا بالرجل المذكور يرقد تحت شجرة السرو على الحصير. ولما اقتربوا منه وجدوه مجذوبًا، ولما طلبوا منه الدعاء لهم، غضب وصرخ عليهم وطردهم من عنده، واضطجع ساترًا عليه حصيره. أقبل عليه الأهالي مرة أخرى على وجل، وقالوا له: إن «عزيز محمود هدائي» يقرؤك السلام فنهض الرجل على قدميه وكأن حالته تحولت من حال إلى حال، وبدأ يدعو ويلتجيء إلى الله بناء على طلبهم:

"يا ربي! فليكن الجنازة التي ستأتي اليوم آخر جنازة، بعدها ارفع هذا الوباء"

ثم سألهم هل طلب «عزيز محمود هدائي» أي طلب آخر؟؟ والتف بحصيره مرة أخرى.

حقيقة لقد انتهى هذا الوباء كلية بمجرد أن دفنوا آخر جثة كانت معهم.



لقد كان لـ«عزيز محمود هدائي» الكثير من المريدين من العلماء بفضل الهوية العلمية لـ«العزيز». ومنهم «خوجه سعد الدين أفندي» وابنه «أسعد أفندي» وغيرهم وكانوا جميعًا من المنضمين لحلقات الإرشاد التي يعقدها «عزيز محمود». ولـ«لعزيز محمود هدائي» ما يقرب من ٣٠ مؤلفًا في مجالات مختلفة مثل الفقه والتفسير والتصوف. وبالرغم من أنه ترك وظيفة التدريس والقضاء، إلاَّ أن هذا كان بسبب تغيير نوع الوظيفة، وإلا فإنه ليس صحيحًا عدم الميل إلى العرفان أو تنحية العلم جانبًا. لأن عرفانًا بلا علم، وعلمًا بلا عرفان إنما هو بمثابة تضييع الوقت هباءً، ولهذا نظم بيت الشعر التالي بعد دخوله في التصوف:

إلهي خلصتني من القضاء والتدريس

الطف بي بوصلك ونجني من عذاب الوجود

استمر في وظيفة الوعظ بموجب أمر الشيخ نفسه. واستمر أيضا في دروس التفسير والحديث مثل المتصوفة الكبار الذين كانوا قبله. لأن «عزيز محمود هدائي» لم يترك تلك الدروس بل ترك نفسه.

وكان لـ«لعزيز محمود هدائي» الكثير من الطلاب أيضًا من الذين شاركوا في دروس الحديث والتفسير التي كان يعقدها، وحصلوا منه على الإجازة، ومن هؤلاء «صَاچْــلِى إبراهيم أفندي» و«فِــلِــيــبَه لى إسماعيل أفندي».

ويقول «إسماعيل حقي البورصوي» في هذا الشأن:

"أهل القلم بين الأولياء كالرُسُل بين الأنبياء، ولأن «عزيز محمود هدائي» ألف العديد من الأعمال فقد حاز بها هذه المرتبة، وأصبح بمثابة المرآة لحضرة «الأفتاده»."

❁

قدم «عزيز محمود هدائي» الذي عمل بأشعاره على استمرار إرشاده وتربيته المعنوية، الكثير من الأعمال التي تــنـير القلوب، وله أيضًا الأشعار التي نظمها في وجد قلبي كبير وهذه الأشعار ملحَّــنَــة.

وقد عبّر «عزيز محمود هدائي» في أحد أشعاره عن تــنـقـية القلب من كل ما سوى الله، وإعماره بالله فقط فقال:

ماذا لي بالدنيا

أنت مقصودي يا رب

ولا ينبغى لي سواه

أنت مقصودي يا رب

فأهل الدنيا في الدنيا
وأهل العقبى في العقبى
كل واحد منهم في حبه المفْرِط
أنت مقصودي يا رب

المريض يطلب العلاج
والعبد يطلب السلطان
والعاشق يطلب الحبيب
أنت مقصودي يا رب

والبلبل يغرد بمرارة أمام الوردة
والفراشة تحترق بالنار
ولكل عبد داؤه
أنت مقصودي يا رب

دع هوى النفس الزائفة
عليك أن تجد الحق يا هو
وهذا هو كلام هدائي
أنت مقصودي يا رب

وقد سار «هدائي» في أشعاره على نفس النهج الذي سار عليه «يونس امره»، حيث أحيا القلوب وتوجه إليها بالمعنويات، ونبّه العباد إلى أن الدنيا مؤقتة وغشاشة.

مَنْ يطلب الوفاء منك
ألست أيتها الدنيا كاذبة؟
ألست أنت الدنيا التي أخذت
الحبيب محمد المصطفى

سِيري يا مَنْ أنت بدون وفاء
فأنت عجوز شمطاء
تخلفت عن مائة ألف بطل
ألست أنت الدنيا التي بقيت خلفهم ؟

ألست أنت تقصدين نفس الخلق
وتملئين التراب في عيونهم
وإلى وجوه أهل الغفلة
تبتسمين أنت الدنيا الخادعة

سواء أكنت سلطانا أم عبداً
يلقيك الدنيا في جريان النهر
لن يقيم فيك أحد أبداً
ألست أنت الدنيا الخربة؟

تجعلين أحدهم يصرخ
والآخر يبكي
وفي آخر الأمر تجعلينهم عرايا
ألست أنت الدنيا التي تُجرِّد

كل همك وشغلك الكذب
أنت البقية الباقية من أشخاص كثيرين
كم من مرة أصبحت فارغة
ثم تمتلئين مرة أخرى

لقد أوضح «عزيز محمود هدائي» الدنيا على حقيقتها للناس، واسترعى الانتباه إلى أن الإنسان صاحب مقام عالٍ أي إلى سر كونه خليفة الله ﷻ.

ويوضح «العزيز» أيضًا هذه الحقيقة في إطار حقيقة قدوم الإنسان إلى عالم الوجود من عند الله ثم عودته إلى الحق مرة أخرى:

لقد أتينا محترقين بالحب من الأزل أتينا مثل فراشة إلى شمعة الحقيقة

تنازلنا إلى الدنيا من عالم الوحدة جئنا لنتفرج على عالم الكثرة

تخطينا كثيرًا من العوالم بالفرمان وعند السير أتينا إلى عالم الإنسان

قد أصبح الوجود بفناء المطلق تركنا القطرة وأتينا إلى بحر المحيط

أي شيء منا يليق بك يا رب! أتينا بلطف إلى الإحسان سراعًا

نرجو أن نصل إلى الحياة الباقية أتينا إلى جوار حضرة الرحمن

وأخيرًا تركنا عالم الكثرة يا هدائي أتينا إلى خلوة السلطان

وصل الشيخ «هدائي» إلى الذروة في محبة رسول الله ﷺ الملحمية مثل ما كان الحال في كل ولي من أولياء الله أنه يعبر عن حبه لرسول الله ﷺ في الأبيات التالية:

قدومك رحمة ورقة وصفاء يا رسول الله

ظهورك علاج لداء العشاق يا رسول الله

كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين

يليق بك أن تكون إمام الأنبياء يا رسول الله

اشفع لهدائي ظاهرًا كان أو باطنًا

لأنه عبد انتسب ببابك يا رسول الله

ذات يوم كان «عزيز محمود هدائي» يعبر المضيق بالقارب إذ ظهرت عاصفة شديدة والتجأ الشيخ إلى ربه بالأبيات التالية:



اللهم يا هادي!

سهّل طريقنا

وسهّل لنا عبور الوادي

خذ بيدنا واعبرنا بسرعة

يا رب! بفضلك وجودك

وكمال شهودك

وبالوجود الحقيقي

أصلح لنا أحوالنا

وكما رأينا أن الخدمات التي قام بها «عزيز محمود هدائي» كانت قد انتشرت على مساحات شاسعة، واستمرت خدماته تلك بالنجاحات، بل إنه طبع بخاتم لن يُمحى على عصره وعلى العصور التالية له بتلك الخدمات التي قام بها، وانتقل إلى رحمة الله تعالى عام ١٦٢٨م تاركًا خلفه ما لا يُحصى من المحبين والمريدين والآثار والأوقاف.

رحمة الله عليه!..

❁

وللخدمات التي قام بها «عزيز محمود» أهمية كبرى من ناحية سلامة الأمة والدولة. فقد استطاع أن يوجّه سلاطين العالم، وبذلك أمّن استمرار هذا الملك العظيم في الأيدي الأمينة. وهو الذي أحيا من جديد حياة التصوف التي أصبح تأثيرها يقل تدريجيًّا بين طلبة العلم وفي القصر بسبب النزاع الذي ظهر بين التكية والمدرسة والذي بدأ في تلك الآونة. وتمكن من إكساب حياة التصوف هوية جديدة في المجتمع، وقد استمرت تصرفاته المعنوية حتى بعد وفاته.

كان السلطان «مراد الرابع» قد جهّز الجيش عام ١٦٣٨م وخرج لحملة بغداد. ولأن «الشاه الصفوي» كان يعلم جيدًا أنه بمجرد وصول «السلطان مراد» أمام «بغداد» سينهزم هو أي الشاه بصورة مطلقة. لذا فقد فكر في أن أفضل طريقة للقضاء على السلطان هي اغتياله. فأرسل ثلاثة جواسيس متدربين تدريباً خاصاً إلى الجيش العثماني.

وقد اجتاز الجواسيس ثمانية من حراس الليل حتى وصلوا إلى السلطان، وبينما كان الجواسيس يقتربون من السلطان وهو نائم لقتله بالخناجر، إذا بالسلطان النائم يرى في منامه أن «عزيز محمود هدائي» شيخه الحبيب كان ضيفًا عنده، وفجأة نهض «العزيز» بسرعة فائقة وصاح على غير العادة قائلاً:

"ولدي مراد! انهض!"

وكان من عادة «السلطان مراد» أن يقوم بقيام أستاذه تأدبًا منه وبأمر أستاذه في المنام نهض بسرعة أكثر. فبالنهوض الذي تحقق في المنام قام واعتدل في الحقيقة أيضا. وفجأة وجد ثلاثة أشخاص يقتربون منه يريدون قتله، فألقى عليهم اللحاف على الفور وأخذ الصولجان الذي يبلغ ثقله ٣٠٠ كم وأنزله عليهم فماتوا جميعًا. ونجح بتصرف جديد لشيخه من الاغتيال المحقق.

وقد تحققت مثل تلك التصرفات بعد وفاة الشيخ وحتى في يومنا هذا الأمثلة الكثيرة على ذلك، وسنذكر مثالًا منها ليكون عبرة:

كان العام عام ١٩٧٥م. وقد أتى شاب ذو بشرة قمحية نوراني الوجه إلى «جامع عزيز محمود هدائي»، وبالمصادفة قابل هذا الشاب إمام الجامع، فقال له:

"يا سيدي! لقد أتيت لرؤية «عزيز محمود هدائي» فكيف لي أن أقابله، هل هو موجود الآن؟"

تحير الإمام «محرم أفندي» من هذا السؤال، فقال:

"نعم يا بُني! إن «عزيز محمود هدائي» هنا."



ظهرت علامات الفرح على الشاب الذي سمع المقالة وقال: "من فضلكم أرجو لقاءه، هل توصلني إليه؟"

لكن الإمام «محرم أفندى» فكر فيما وقع. أنه أمر لا معنى له ولأنهما بجانب الضريح اضطر مرة أخرى بقوله : "إنه موجود هنا"

فرد عليه الشاب: "إذًا لتوصلني به."

لم يستطع «محرم أفندي» فهم ما يرمي إليه الشاب، فقال له:

"يا بُني هل تعرف عزيز محمود هدائي وهل قابلته من قبل؟"

تحير الشاب الذي كان قلبه صافيًا كصفاء وجهه من إطالة الكلام وتمنع الإمام من إيصاله إلى «عزيز محمود هدائي» ومقابلته له وقال:

"نعم أنا أعرفه عن قرب، وهو الذي دعاني للحضور إلى هنا، وكنا قد تواعدنا على الزيارة، فأخبره بقدومي."

أدرك «محرم أفندي» أن في الأمر وِجهة مختلفة ونكتة خفية لا يعرفها، فسأل الشاب بشغف:

"يا بُني! كيف تواعدتما؟"

بدأ الشاب يشرح فقال:

"يا سيدي! أنا كنت من جماعة الكوماندوز التي أنزلت بالبارشوت أثناء الحركات العسكرية في «قبرص» عام ١٩٧٤م. وكنا وقتها نحارب الروم (اليونانيين) أمام جبال «بَــشْ بَارْمَقْ» وكانت الرياح قوية فسقط كل واحد منا في ناحية، وقد سقطت أنا على خطوط العدو، وقد ظللت في موقع يمتلئ بالأشجار تحيط به النيران من كل جانب. وبينما كنت في حيرة لا أستطيع عمل شيء، إذا بشيخ طويل القامة نوراني الوجه ذي هيبة كبيرة يظهر أمامي، نظر إلي متبسما وقال:

"يا بُني! هنا خط نار العدو، ماذا تفعل هنا؟ لماذا دخلت هذا الخط بمفردك؟ "



فقلت: "لم آت إلى هنا قصدًا أيها الوالد، ولكن الريح هي التي أسقطتــني هنا".

هز الرجل صاحب الوجه النوراني وجهه بشكل خفيف، وقال:

"أنا أيضًا أتيت للحرب. وقد أرسلت إلى هنا من قبل. وأعرف هذا المكان جيدًا، من أي الوحدات أنت يا بُني؟ تعال لأوصلك لهم."

سرنا معًا تحت نيران المدفعية المخيفة. ولكن هذا الرجل المبارك كان يسير مطمئنًا، وكأنه يسير في طريق هادئ، كان كل أحواله يدعو إلى الغرابة، وقد سألني عن اسمي، ومن أي الأماكن أنا وبعض الأسئلة الأخرى، ولما أجبته عن أسئلته، سألته أنا الآخر:

"ومن أنت أيها الوالد؟"

فأجاب: "يقولون لي «عزيز محمود هدائي»."

بعدها قلت له: "أيها الوالد العزيز، لقد صنعت لي معروفًا كبيراً، ولو عدت إلى بلدتي سالمًا، فإنني أرغب في زيارتك وفاء لك، فهل تعطيني عنوانك؟"

فقال الرجل المبارك صاحب الوجه النوراني:

"إذا أتيت إلى «أُسْكُدارْ» وسألت أي شخص عني فسيدلونك علي."

وصلنا إلى الوحدة التي أتبعها، وقمت بتقبيل يد هذا الرجل النوراني الجميل صاحب المنة والمحبة والاعتبار. وبعد أن ودع بعضنا بعضًا، ذهبت إلى قائدي.

ولما رآني قائدي تعجب وسألني كيف نجوت من هذه النيران التي كانت تحيط بك، فأجبته بأن والدًا مُسنًّا هو الذي أتى بي إلى الوحدة.

وبعد انتهاء الحرب عدت إلى بلدتي، ولكن هذا المعروف الذي صنعه الشيخ لي لم يخرج من ذهني قط. ولهذا قررت أن أزوره لأفي بجميله معي. ولما سألت الأشخاص في «أُسْكُدارْ» قال لي الناس:

"إنه شخص مبارك" ودلوني على هذا المكان.



بعد أن سكت هذا الشاب لبرهة كرر لـ«محرم» أفندي طلبه وقال:

"يا سيدي! هكذا تعرفت بـ«عزيز محمود هدائي» فهيًّا اصنع لي معروفًا وأوصلني إليه."

وحينئذ أدرك محرم أفندي الموضوع بكل جوانبه، وقد تأثر للغاية أمام هذه الصورة المعنوية التي رآها، ولمدة لم يستطع أن يقول شيئًا للشاب الواقف أمامه، ثم جمع قواه وقال بصوت رقيق وهو يتلعثم: "يا بني! إن «عزيز محمود هدائي» ليس شخصا حياً، إنما هو ولي من أولياء الله الصالحين، عاش في الفترة من عام ١٥٤٣-١٦٢٨م، ويبدو أنه دعاك إلى هنا من أجل أن تقرأ له الفاتحة. فهذا هو قبره"

تأثر الشاب من هذه الحقيقة التي عرفها مؤخرًا، وأدرك أنه الآن أمام قبر هذا الولي الكبير الذي أنقذ حياته.

وانتبه الشاب مؤخرًا إلى هذا التصرف المعنوي الذي صنعه الشيخ معه في ساحة الحرب. وبدأ الشاب في النحيب، والبكاء.

وكان إمام «جامع هدائي» يبكي أيضًا...

تعرض لنا هذه الحادثة في أجمل صورة ماهية التصرف المعنوي الذي منحه الله لأوليائه. وهذا التصرف أيضًا مثال على المساعدات المعنوية لأولياء الله الصالحين من عهد النبي ﷺ وحتى وقتنا هذا.

ويجب علينا هنا ألا ننسى أن الفاعل المطلق هو الله تعالى. وأمثال هذه الإمدادات الإلهية سواء كانت عن طريق الملائكة أو عن طريق أولياء الله ﷻ، فهي ما زالت مستمرة ليومنا هذا.



وهذا الدعاء الذي دعا به «عزيز محمود هدائي» بناءً على طلب «السلطان أحمد الأول» لكم هو يحمل من العِبر الكثير والكثير:



"يا ربي! إن كل من سار على طريقنا، وأحبنا فيك وزارنا بعد موتنا وقرأ الفاتحة علينا -ولو مرة في حياته- فهم إخواننا.. اللهم لا تمتهم غرقا، ولا تذقهم في آخر عمرهم فقرا، وارزقهم حسن الخاتمة وأعلمهم بوفاتهم!.."

وقد أخبر كافة العلماء والأولياء بأن هذا الدعاء مقبول، وأنه لم يغرق في البحر المنتسبين لهذا الطريق، وأن الكثير من الأشخاص أخبروا بقرب موعد موتهم.

وقد استخدمت عبارات التعظيم والاعتبار لـ«لعزيز محمود هدائي» الذي استمر تأثيره ونفوذه في عهده وحتى بعد وفاته. ومن تلك العبارات:

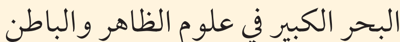
«قطب الزمان»، «العزيز»، «وحيد العصر»، «الواصل إلى خزينة أسرار الحقيقة»، «شمعة محراب المجاهدة»، «شارح أسرار الطريقة المحمدية»، «القلب الذي نزل عليه نور الحقيقة الأحمدية»، «السلطان الثابت القدم في المقام والخلافة والولاية».

يا ربي اجعل لنا نصيبًا من همة «عزيز محمود هدائي» الذي أملأ القلوب فيضاً بتصرفاته المعنوية وآثاره التي تركها ووقفه الذي أسسه منذ عدة عصور!

آمين!!!.







البحر الكبير في علوم الظاهر والباطن

حضرة مولانا خالد البغدادي

(١٧٧٩ - ١٨٢٧م)

ترتيب مولانا «خالد البغدادي» في سلسلة أولياء الله الكبار التي يُطلق عليها "السلسلة العلية" الثلاثون.

اسمه مولانا «خالد البغدادي» لقبه «ضياء الدين» كما كان يعرف بـ«العثماني». ويصل هذا الولي الذي يعد مجدد عصره في نسبه من ناحية الأم إلى سيدنا «علي ﵁»، ومن ناحية الأب إلى «عثمان بن عفان ﵁». وُلد في مدينة «زُورْ» الواقعة شمال «بغداد».

كان يشتهر منذ صغره بالذكاء الحاد وقوة الذاكرة والإرادة السليمة والاجتهاد، ولذا فقد وصل إلى مرتبة كبيرة في العلوم العقلية والنقلية. وتعمق في ساحة كل العلوم تقريبا. وكان يجيب عن أي سؤال يُسأل فيه في أي علم من العلوم على الفور، لدرجة أن كل مَنْ يلتقي به كان يحتار من فرط معرفته وعلمه الذي يشبه البحر. تعلم العلم



على يد كبار علماء عصره، وحصل منهم على الإجازة، وبذلك أصبح في أعلى درجة بين علماء عصره وأرباب التصوف.

كان مولانا «خالد البغدادي» الذي قضى حياته على الزهد والتقوى واقفًا على أسرار القرآن الكريم. وكان أعلم العلماء، وشمس الشموس، وشفقًا لأنوار روحانية الدنيا، ومطلعًا على أسرار الحقيقة وعلى حقيقة الأسرار.

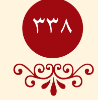
وقد تفوق «خالد البغدادي» في العلم وهو لا يزال طالبًا، وجذب انتباه الجميع. وقد زاره «عبد الرحمن باشا» متصرف «السليمانية» في تلك الأوقات وأعجب بعلمه وعرفانه. وقال له: "اختر أي مدرسة من مدارس «السليمانية» لتكون مدرسًا عليها"، ولكن «خالد البغدادي» رفض ذلك تأدبًا واحترامًا لتقاليد العلم، نظرًا لأنه لم يحصل على الإجازة بعد. فأجابه:"أنا لست أهلًا لذلك".

وقد ذهب مولانا «خالد البغدادي» إلى الحج عام ١٨٠٥م، وفي الطريق رأى احترامًا كبيرًا من علماء الشام، وقد حصل في تلك الأثناء على إجازة القادري من عالم يُدعى «مصطفى الكردي». ولكنه كان يتميز بالتواضع الكبير، وكان يؤمن بضرورة قطعه مسافة أكبر في طريق الكمال، ولهذا كان يريد البحث عن ولي كامل عندما يصل إلى «المدينة المنورة» يتمكن من خلال التسليم له من التقدم في الناحية المعنوية.

وصل هذا البحر الكبير في العلم إلى «المدينة المنورة» بهذه الحالة الروحية. وذات يوم صادف شخصًا ذا وجه نوراني، وقد انجذب مولانا «خالد البغدادي» إلى هذا العالم اليمني بدرجة كبيرة، وطلب منه النصيحة وكأنه جاهل يطلب النصيحة من عالم، فقال له هذا العالم:

"يا خالد! إذا ذهبت إلى «مكة» ورأيت شيئًا يخالف الأدب، فلا تسئ الظن بمَنْ فعله، وكن بعيدًا عن تجسس القلوب والعيون! وانشغل بعالمك الداخلي".

هذا الكلام الذي يبدو في الوهلة الأولى كتنبيه غير صريح كان في الحقيقة إشارةً إلى تجليات سرية ستحصل بين البغدادي والشيخ الكامل الذي سيوصله إلى مرتبته الأصلية.



ولكن لما وصل «خالد البغدادي» إلى «مكة المكرمة» أصبح قلبه مفعمًا بالمشاعر الفياضة تجاهها، وأصبح قلبه كالثمل بها، فنسي ما نصحه به الولي. وذات جمعة رأى «خالد البغدادي» درويشًا يرتدي ملابس غير مهندمة، نوراني الوجه يعطي الكعبة ظهره، وينظر إليه فقال في نفسه: "ما هذا الغافل، يدير ظهره للكعبة بشكل يخالف الأدب، ألا يعلم شيئًا عن هذا المقام المبارك".

وفي تلك الأثناء قال هذا الدرويش الذي صدره تجاه صدر خالد البغدادي:

"يا خالد! ألا تعلم أن حرمة المؤمن أفضل من حرمة الكعبة، (لأن القلب محل نظر الله، والقلب السليم كبيت الله). ما أسرع ما نسيت نصيحة ذلك الرجل الصالح الذي كان في المدينة."

ولما سمع «مولانا خالد» هذه الكلمات أدرك أن هذا الرجل ليس رجلا عاديًا، وإنما هو ولي من الأولياء، فطلب أن يعفو عنه، ثم أخذ يده والتجأ إليه قائلاً:

"أيها الرجل الصالح! أرجو همتك واقبلني سالكًا لطريقك"

نظر هذا الدرويش الخفي إلى أعماق الآفاق المفعمة بالاسرار وقال :

"إن تربيتك ليست عندي" ثم أشار بيده تجاه الهند وقال: سيأتي إليك إشارة من ذلك المكان وستكون فتوحاتك هناك." قصد بذلك أن تربيته المعنوية ستكون في مدينة دلهي بالهند بيد « الشيخ عبد الله الدهلوي».

أثر هذا الكلام كثيرًا في «مولانا خالد»، وبعد أن أدى فريضة الحج عاد إلى بلدته السليمانية، ولكنه كان يفكر في الهند ليلا ونهارًا، وبينما كان يعيش تلك الخلجات المعنوية، وفد شخص من «الهند» من طلاب الشيخ «عبد الله الدهلوي» يسمى «ميرزا عبد الرحيم».

فلما كلمه ذلك الرجل عن شيخه في الهند علم الشيخ مولانا خالد أن هذه هي الإشارة التي تنتظره. وعلى الفور أتم خالد مستلزمات السفر، وترك طلابه ومدرسته، إلا أن طلابه والأهالي الذين أحبوه جدًّا لم يريدوا إرساله إلى الهند، فقد



قالوا له: "إن الاضطرابات السياسية الموجودة بالهند ستكون خطرًا على حياتك" إلا أن خالد البغدادي لم يتارجع عن الذهاب إلى الهند، وعزم على ذلك مثل عزم موسى عليه السلام في البحث والتتبع لآثار الخضر وتحصيل العلوم والحكم منه بأمر من الله. وقال في نفسه امتثالاً بهذا النبي:

" إن كنت تبحث عن ماء الحياة فعليك الذهاب إلى الظلام!"

وأخيرا أتم استعداداته للسفر في وقت قصير، وانطلق برفقة «عبد الرحيم ميرزا».

وفي الطريق مروا بطهران، وهناك التقى خالد البغدادي بالعالم الشيعي المشهور «القاشي»، وجرت بينهما مناظرة تستدعي التأمل: وقد اطلع خالد البغدادي من قبل على تفاسير الشيعة، وشاهد كيف كانوا يحرفون آيات الله عز وجل. وكان سوء اعتقادهم بالخلفاء الراشدين من الأمور التي تحزن «خالد البغدادي» كثيرًا. من أجل ذلك سأل إسماعيلَ القاشي: "هل يخطئ الأنبياء؟"

فأجاب القاشي: "لا فهم معصومون."

قال خالد: "يقول الله عز وجل:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (التوبة، ٤٣). فالعفو المذكور في الآية يدل على الذنب، فهل هذا يعني أن الأنبياء يذنبون؟"

فقال القاشي: "لا ولكن هذه الآية الكريمة نزلت في عتاب أبي بكر"

وقال خالد: "حسنًا، وبما أن هذه الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه فإن الله تعالى قد عفا عنه بالبيان الرباني، فلماذا لاتعفون عنه أنتم؟"

سكت القاشي أمام هذا السؤال، ولم يستطع الإجابة فافتضح وخجل أمام طلابه.

كان «مولانا خالد» يترك تأثيرًا روحانيًا كبيرًا عميقًا وعلمًا في كل مدينة يمر بها، حتى أن علماء تلك المدن وقادتها وأمراءها وأهلها كانوا يعجبون به، ويحزنون عندما يغادر بلدتهم. وفي أثناء رحلته زار مدينة «لاهور»، وزار هناك العلامة مولانا «ثناء الله» ويروي خالد ما حدث له في تلك المدينة فيقول:

"لقد بقيت ليلة في تلك المدينة. وقد رأيت في الرؤيا أن «مولانا عبد الله الدهلوي» يجذبني إليه بشدة. فاستيقظت وأنا في حيرة، فذهبت إلى مولانا «ثناء الله»، وقبل أن أقول أي شيء قال «ثناء الله»: "علينا أن نعرف قيمة صحبة أخينا وسيدنا «عبد الله الدهلوي» وقيمة الخدمة له. يا خالد! إن تواجدك معه وخدمتك له هي الوسيلة الوحيدة للحصول على تلك النعم الموعودة لك. فتمسك جيدًا بهذه الوسيلة، ولا تنسَ أبدًا دستور التسليم والإخلاص!"

❁

وفي النهاية وبعد رحلة استمرت شهورًا وأيامًا وصل خالد إلى مدينة «دلهي»[يُقال لها أيضًا «جِهَانْ آبادْ»]، ويروى أن تلك الرحلة استمرت سنة كاملة.

وبمجرد أن وصل خالد إلى مدينة دلهي ذهب مباشرة إلى تكية الشيخ، لأنه كان يتوق إلى مقابلته والوصول إلى حضرته. ولما وصل إلى باب التكية، قال الواقفون هناك: "إنه «مولانا الحاج خالد ضياء الدين» من علماء بغداد والشام والسليمانية، ومرافقيه أتوا لزيارة حضرة الشيخ"، فقال الشيخ الذي كان يعلم معنويًّا بقدوم خالد: "ليبق خالد، أما الباقون فليرحلوا إلى بلدانهم بعد أن يأخذوا حق الضيافة مدة معينة!.." وبعدها بقليل قال الشيخ: "ليقم خالد بتنظيف مراحيض التكية".

هذا كان شرط قبوله إلى التكية كطالب. ولم يلتق بشيخه إلى ذلك الحين. في مثل هذه الظروف لم يعترض على أمر الشيخ بالرغم من علمه وشهرته التي جابت العالم الإسلامي كله. وعلى الفور أخذ خالد الممسحة والدلو في يده وبدأ ينظف المراحيض.

وكان يوصل المياه اللازمة إليه من بئر تقع على مسافة من التكية، حيث كان يملأ الدلو ويعلقه بعصا غليظة ويضعها على كتفه ليسير بها، كان خالد يقوم بهذا العمل عدة مرات في اليوم، حيث يقوم بتنظيف التكية ويعد المياه للوضوء، وبذلك بذل جهودا جبارة في سبيل تربية نفسه. وعندما كان يطرأ على نفسه ضجر أو سأم من هذا العمل كان يستغفر على الفور ويتوب، وعلى هذه الحال مرت شهور.

وذات يوم تعب خالد من العمل وتنظيف أحجار المرحاض كثيرًا، وفي تلك اللحظة شعر «مولانا خالد البغدادي» بغلبة النفس عليه وامتلكته عاصفة من الوساوس:

"يا خالد! يا مَنْ كنت بحر العلم الذي لا مثيل له في ديار الشام وبغداد، لقد نهضت من بلادك وقطعت الطرق الكثيرة بأمر من شخص لا تعرف هل هو مجنون أم ولي، فيا تُرى هل وجدت ضالتك، انظر حولك، لا يوجد شيخ ولا سير ولا سلوك، ماذا تفعل منذ شهور سوى تنظيف الحمامات؟ هل هذا هو العلم اللدني الذي تبحث عنه؟"

وفي تلك الأثناء أفاق خالد البغدادي من هذه الغفلة وهذه الوساوس، ومزق ستار الغفلة بالإخلاص والصدق وصاح:

"يا نفسي! إن امتنعت للحظة واحدة ولم تعرفي قدر منة هذه الوظيفة التي أعطاها لي هذا الشيخ المبارك، فإنني لن أقوم بتنظيف الأرض بالممسحة، بل سأقوم بتنظيفها بلحيتي".

كان «عبد الله الدهلوي» يراقب «خالد البغدادي» من بعيد وينظر إليه مبتسمًا، رأى أن مولانا خالد تغلب بذلك في آخر الجولات على نفسه. وقد رأى عبد الله الدهلوي أن بدأت الملائكة تحمل حمله وأن ثمة نورًا يمتد من أكتاف خالد التي جُرحت من حمل الجرة عليها، إلى السماء. فشعر بفرح كبير تجاه ذلك، فدعا تلميذه المستثنى خالدا وقال:

" يا بُني خالد! كنت قد وصلت في العلم إلى مرتبة كبيرة، ولكن كان يجب تزيين هذا العلم بالمعنوية. ولهذا كنت بحاجة لتزكية النفس وتصفية القلب. وإلا كانت نفسك ستجرك إلى مستنقعات الكبر والغرور وستهلكك. والحمد لله أنك قد جعلت نفسك تحت أقدامك، وتسلقت إلى ذروة الكمال، وأصبحت الملائكة تعينك".

وأضاف قائلاً: "يا بُني! إن أسيادنا الذين انتسبنا إليهم أشخاص وصلوا إلى المعرفة والحقيقة والطريقة والشريعة، وأنت الآن أصبحت حلقة منهم كمجدّد. وبذلك فإن كل الأقاليم تنتظرك لترشدها، جعل الله همتك عالية".

ومن بعد ذلك كان «عبد الله الدهلوي» يختلي كثيرا بتلميذه الكبير هذا الذي كُلف بمجاهدة ورياضة وخدمة عنيفة وقاسية. وكان يدرسه دروساً باطنية خصوصية. ففي غضون ستة أشهر وصل مولانا خالد إلى مقام الحضور والمشاهدة.

وأعطى له معلمه إجازات من الطرق النقشبندية والمجددية، والقادرية والسهروردية والكُبْرَوِيَّة، والجَشْتِــيَّةِ. فوقف على كل الأسرار الموجودة في قلب معلمه.

ولما حان وقت الرحيل كانت دموع المحبة تملأ قلب هذين السلطانيين. فالفرق بين قدوم مولانا خالد ورحيله كان كبيرا للغاية، لأن مولانا «عبد الله الدهلوي» الذي لم يستقبل خالدًا عند قدومه يخرج بنفسه الآن لوداعه، حتى إنه بالرغم من خجل «خالد البغدادي» وتأدبه إلا أن مولانا عبد الله أصر على أن يمسك بلجام فرس خالد، وأن يسير الجواد بيديه المباركتين.

سار «عبد الله الدهلوي» مع مولانا خالد مسافة أربعة أميال. ثم قال لَمَنْ معه:

"لقد أخذ خالد كل شيء، وذهب بالكل"

ثم تركه يكمل بقية رحلته إلى بغداد، وبذلك بدأت رحلة الإرشاد عند مولانا خالد وهو في الخامسة والثلاثين من عمره.



كانت تكيته لا تخلو من الناس، ومع أنه كان هناك الكثيرون مِمَّنْ يحبونه وهم الذين وصلوا إلى المراتب العليا على يديه، كان قد ابتلي ببعض مَنْ يبغضونه ويحقدون عليه. ومن هؤلاء «حَالَتْ أفندي» الذي كان أحد وزراء القصر. ذات يوم انتهز فرصة فوشى به إلى السلطان، قائلاً:

"يا سلطاني! خلف هذا الرجل عشرات الآلاف من الناس، وهذا يمثل خطرًا كبيرًا على الدولة والسلطنة، فمن الضروري القضاء عليه قبل أن يستفحل خطره."

ولكن السلطان محمود لم يهتم بكلام «حَالَتْ أفندي» وقال له:

"إن الخطر لا يأتي من أهل الدين، بل يأتي منهم فائدة عظيمة للدولة منهم".

ولما وصلت تلك الحادثة إلى مسامع مولانا خالد حزن جدًّا لا لنفسه بل لخوفه من إلحاق الضرر لطريقته المعنوية والمؤمنين الذين يستفيضون منها، ودعا للسلطان ثم قال:

"لقد أحيل أمر «حالت أفندي» إلى مولانا «جلال الدين الرومي» في عالم المعنى حيث إن مولانا المذكور يسجلبه وسيعاقبه".

ولم تمضِ فترة قصيرة على هذا الحادث إلا وكان «حَالَتْ أفندي» منفيًّا إلى «قُونْـيَة» لأنه كان السبب في ثورة «المُورَة» وأُعدم هناك.

وبالرغم من وجود مثل تلك الدعايات السلبية تجاه «مولانا خالد البغدادي» إلا أن عدد المحبين له والمنتسبين له كان يزداد يومًا بعد يوم بفضل الله ﷻ. حتى إن كثيرا من أهل العلم والعرفان كانوا يتبادرون ليحظوا بتربية وتعليم مولانا خالد البغدادي. وفي غضون فترة قصيرة تربى عدد لا يُحصى من المريدين والخلفاء على يديه. ويروى أن خلفاءه كانوا يبلغون ١١٦ خليفة، ومن خلفائه الفقيه الحنفي المشهور «ابن عابدين» والمفسر المشهور «الآلوسي» صاحب تفسير روح المعاني.

حتى إن الإمام «شامل» بطل «القوقاز» الذي ظل يحارب الروس ويجاهدهم أربعًا وعشرين سنة كان من تلك السلسلة المباركة. وهنا يجب علينا القول بأن

التصوف الذي تمكن من تربية مثل هؤلاء القادة المجاهدين، لم يكن بعيدًا عن المجتمع كما ادعى بعض الغافلين، وإنما كان ديناميكية سامية جمعت بين الجهاد الباطني والجهاد الظاهري.

❁

كان مولانا خالد البغدادي يرسل كل طالب من طلابه الذين تربوا على يديه ووصلوا درجة الكمال إلى بلد من البلدان. وبذلك تحققت له خدمة كبيرة في سبيل نشر فضائل الشريعة والطريقة والحقيقة والمعرفة. وكان يحيي القلوب الميتة، ويجعلها تعيش في مناخ ربيعي معنوي. وقد كان كثير من الناس يتسابقون من أجل التتلمذ على يديه من بلدان نائية. فببركة إرشاده كانت الغشاوات السوداء التي رانت على قلوبهم تزول.

كان مولانا خالد مثل المطر الغزير في العلم والعرفان، وكان يجيب عن الأسئلة التي طرحها ولم يستطع أحد قط أن يجيب عنها، وكثيرا ما كان يتجاهل مسألة يعرفها جيدا ليحفظ نفسه من العجب والكبر.

كان مولانا خالد في نقطة الكمال في العلوم العقلية والنقلية، ولم يكن له مثيل في العلم. كان واسعا ومتعمقا فيما يعلمه. وكان بذلك نموذجًا كاملا للعلماء العاملين.

كانت كلماته مؤثرة. وكان لا يميل إلى الرخص واللين في العبادات، قنوعًا، لا يضيع وقته أبدًا، بل كان يقيمه على أحسن صورة. فكان بذلك شخصية نموذجية تليق بالثناء على كل حال.

و«مولانا خالد البغدادي» هو الشخصية الثانية التي لُقبت بلقب «مولانا» بعد «مولانا جلال الدين الرومي» قدس سره. ويُظهر هذا، النفوذَ والتأثير الذي سجلهما في طريق الخدمة.

وقد عُرف طريق «النقشبندية» من بعده باسم «الخالدية» وكانت الخالدية بمثابة أكبر الطرق الصوفية انتشارًا في الممالك العثمانية.

وذلك لأن مولانا خالد أكسب العلوم العقلية والنقلية نشوة عصر السعادة، دافع الشرع المبين والروح الخالصة الصادقة لحياة التصوف تجاه أخطار أهل البدع والمعتقدات الباطلة في عهده. وكان نور همته العالية كنور الشمس التي ألقت بأشعتها على كل ناحية وطرف.

ونتيجة لبركة جهوده أصبحت بغداد بمثابة مجمع البحرين، أي المكان الذي يلتقي فيه البحر المعنوي بالبحر المادي. وبفضل مولانا خالد أصبحت العلوم الشرعية تسير جنبًا إلى جنب مع العلوم الصوفية. فأشرقت أنوار الشريعة والطريقة والحقيقة كالبدر في آن واحد.

❁

ولأنه ليس من الممكن وضع أحكام اعتقادية وعملية حديثة تكفل الله سبحانه وتعالى حفظَ القرآن الكريم من التحريف أو التبديل. لذلك فإن الله سبحانه وتعالى جعل في محتوى القرآن كل ما يقتضيه حاجة البشرية، وهذا كمال خاص بالقرآن لا مثيل له. إضافة إلى ذلك سخر الله ﷻ لخدمة البشر سلسلة من العلماء للقيام بوظيفة التبليغ والإرشاد بعد وفاة النبي ﷺ. ومن ناحية أخرى لم يرد الله تعالى انقطاعا في وظيفة تزكية النفوس وتصفية القلوب التي هي من أهم وظائف النبي ﷺ، فودع هذا الميدان المعنوي لأولياءه الذين هم ورثة الأنبياء.

وعلى هذا فإن الفكر الصوفي والحياة المعنوية لم تُضَفْ إلى الدين ولم تُستحدث مؤخرًا كما زعم البعض؛ لأننا إذا دققنا نشاط التبليغ الديني عند الأنبياء بشكل جيد، نرى أن تبليغهم لأصحاب الدرجة العالية في الإدراك والإذعان والفيض المعنوي كان مختلفا عن الآخرين.

ولهذا رأينا سلسلة الطريقة تعتمد على سيدنا علي أو سيدنا أبي بكر؛ لأنهما كانا في وضع روحاني وقرابة من الرسول ﷺ تختلف عن أي شخص آخر. كما أن مجموعة الصحابة الذين كان يُطلق عليهم «أهل الصفة» والذين كانوا يعيشون في

زهد وتقوى بشكل يفوق الخيال، وصلوا إلى الذروة بفضل تربية الرسول ﷺ لهم، وأصبحوا نموذجًا للأمة.

بينما كان الرسول ﷺ عائدًا من غزوة تبوك التي كانت من أصعب الغزوات وأكثرها مشقة قال النبي ﷺ :

«رَجَعْنَا مِنْ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ»

وهذه المقولة للنبي ﷺ توضح لنا أهمية مجاهدة النفس وضرورتها. وبذلك يتضح أن المطلوب لسالك طريق التصوف أن يكون ضد هذه الدنيا الفانية، وأن يتغلب على نفسه، وأن يحفظ قلبه مما سوى الله ﷻ.

وهنا علينا أن نتذكر بصورة عامة العناصر الرئيسية للوظائف التي أداها النبي ﷺ :

١- قراءة كتاب الله، وتعليم الكتاب والحكمة، أي توضيح وشرح الوحي الذي تلقاه من الله تعالى. والاجتهاد عند الحاجة إليه.

٢- تنفيذ أوامر الله ﷻ واجتناب نواهيه، والعمل على ذلك.

٣- تصفية القلوب، وتزكية النفوس، والتصرف في الأرواح بهذه الوسيلة.

وثمة وظيفة أخرى للنبي ﷺ وهي تَبلُّغ الأحكام عن الله تعالى.

وقد رأى علماء الإسلام أن المشروعية شرط لخلفاء النبي ﷺ في تنفيذ هذه الوظائف الثلاثة المذكورة، أما تبليغ الأحكام عن الله تعالى فهي خاصة بالنبي ﷺ. وإذا ما تحققت الوظائف الثلاثة المذكورة في الخليفة فإن خلافته بذلك تكون خلافة كاملة، وهذا بالطبع إذا تمكن الخليفة من أداء تلك الوظائف جميعها ببركة النبي ﷺ، أما إذا لم يتمكن الخليفة من تنفيذ تلك الوظائف فإن خلافته حينئذ تكون خلافة صورية أي خلافة شكلية.

وقد كانت الخلافة الكاملة مخصصة للخلفاء الراشدين الأربعة فقط، أما الخلفاء بعد ذلك فنظرًا لأنهم لم يتمكنوا من تحقيق الوظائف الثلاثة المذكورة، فإنهم جعلوا

مسألة الاجتهاد خاصة بعلماء الظاهر، ومسألة إجراء الأحكام لرئيس الدولة؛ وأما مسألة تنقية القلوب والنفوس فأودعت للمشايخ، وتم الاتفاق على هذا لتحقيق المصلحة.

ومن هذا المنطلق أعطت الدولة العثمانية حق إدارة الشؤون الدينية لشيخ الإسلام، وحق التنفيذ للسلطان؛ أما مسألة التربية المعنوية فكانت للمرشدين. واستطاعت الدولة بذلك أن تسير وتحقق الوظائف الثلاثة التي فعلها النبي ﷺ، وأدت بذلك خدمة كبيرة في سبيل إعلاء كلمة الله والتوحيد.

ويجب علينا القول أيضًا بأن الأحكام التي تعمّ الجميع يطلق عليها في الاصطلاح "الشريعة". والشريعة تهتم بالظاهر، أي تسعى لتنظيم الأحوال الظاهرية للمخاطب.

ولأن الأحاسيس هي التي توجه الأفعال أكثر من العقل والإدراك، فإنه من الضروري مزج الأحاسيس بروح الإسلام كتربية العقل والتحكم فيه بواسطة المقاييس الشرعية. وهذا أيضًا يستوجب تنظيم النشاطات القلبية بقدر النشاطات العقلية. وعلى هذا فإن "الطريقة" أثرُ احتياجِ توجيهِ وتربيةِ مَن أصلحوا ظواهرهم عن طريق عقل مقتد بالشريعة حتى يصبحوا مؤمنين كاملين. وهذا يعني أن الشريعة وسيلة لتنظيم الظاهر، أما الطريقة فهي وسيلة لتنظيم الباطن. ولهذا فإن أرباب الكمال يذكرون في كل وقت وبكل وسيلة أنه "لا طريقة بلا شريعة". أو بتعبير آخر معروف، إن الشريعة هي الذراع الثابتة للبرجل، والطريقة هي الذراع المتحركة له.

والطريقة مضطرة لاستخدام المحبة لأنها مهتمة بعالم القلب باعتبار وظيفتها، ولهذا وُصِفَت الطريقة بأنها "طريق المحبة". ونظرًا لأن الحب فياض وهائج، فإنه يتسبب في بعض المخاطر كزوال الإرادة وسهولة انزلاق القدم. ولهذا كانت هناك ضرورة للسير بإرشاد أناس جمعوا بين العلوم الظاهرية والحياة المعنوية.

ولهذا فإنه إذا لم يصل المكلفون بوظيفة الإرشاد إلى مرتبة القدرة اللازمة في العلوم الظاهرية، فإن هذا الخطر الظاهر في طريق المحبة عظيم أيضا، ولتجنب هذا

اختارت "الطريقة النقشبندية" أن يكون الأناس الذين سيتولون وظيفة الإرشاد من العلماء الذين أتقنوا العلوم الظاهرية. أما في «الطريقة المولوية» و«الطريقة البكتاشية» فيمكن أن نرى بعض تلك الأخطار فيها؛ لأنها لم تشترط هذا الشرط فيمَنْ سيقوم بوظيفة الإرشاد، أي يمكننا رؤية بعض التصرفات التي تخالف الشريعة فيهما.

ولهذا رأينا العثمانيين- وخاصة رجال الدولة في العهود الأخيرة - يرجحون الطريقة النقشبندية على الطرق الأخرى، لأنهم كانوا يدركون ضرورة تربية القلوب والعقول إلى جانب الوظيفة الأساسية للدولة، وهي تحقيق وتنفيذ الأحكام الشرعية.

وبهذا انتشرت الطريقة النقشبندية في مساحة شاسعة من الدولة. وفي القرن التاسع عشر بدأت المشاعر الدينية والمعنوية تضعف في الدولة العثمانية بتأثير «أوربا» التي ابتعدت عن الدين. ولأن الطريقة الخالدية كانت تتصادف مع هذا العصر الذي بدأت التيارات السلبية تنتشر فيه، فقد أصبحت الطريقة المذكورة تحتل موقعًا متميزًا للغاية من حيث الوظيفة التي تقوم بها في سبيل إيقاف تلك التيارات السلبية في الدولة. ويأتي مولانا خالد البغدادي على رأس هؤلاء المرشدين الكاملين الذين حققوا تلك الوظيفة.

فقد اتبع «مولانا خالد» سبيل تربية المرشدين والخلفاء، وعمل على الإكثار من عدد المسلمين الناضجين داخل الدولة. ولهذا كانت له الكثير من الخدمات الكبيرة والعظيمة، وأغلب الظن أن هذا الانتشار والتوسع الروحاني كان يأتي على رأس العوامل، التي أخرت بمقياس كبير أزمات تاريخنا القومي، وكانت أيضًا هذه الخدمات عاملا كبيرًا لحماية وصيانة الناحية المعنوية للأهالي، وصيانتهم من البدع.

❀

كما كان مولانا «خالد البغدادي» سلطانًا في العلم والتصوف كان له باع طويل في الشعر. والأبيات التي نظمها في هذا الشأن كبحر الحكمة والأسرار الممتلئ بهذا العمق الروحي. له ديوان بالفارسية حيَّر العقول، وقد جمع فيه هذا البحر الكبير.



والأبيات التالية قالها «مولانا خالد» بقلب محترق بحب رسول الله ﷺ :

"يا ملاذ العصاة، أتيت إلى بابك لتأخذني في حمايتك من ذنوبي التي لا نهاية لها. آه لو أشبع من تقبيل العتبة التي وطأتها بقدمك المباركة!".

"هل قلبي المحب هذا هو الذي أوصلني وحدي فقط إلى تلك الحالة؟ فالعارفون يعلمون أن الأفلاك أصبحت مفتتنة باشتياق وحب تقبيل قدمك المباركة، وهي الآن وكأنها لا تزال تدور نشوى من فرط حبك طوال الوقت!"

"يا شمس اللطافة! إن جمالك يمحق أيضًا صنعة التشبيه، لأن الشعر والكتابة لا يمكن أن يسعا أوصافك!"

"أصبح العقل في حيرة وضيق في مدحك؛ لأن استعداده ليس كافيًا لإدراكك بما يليق.."

"يا حبيب الله! يمكن أن تسع الذرة العالم، ولكن اللغات لا تقدر أن تسع وصفك."

"يسعى الحجاج كل عام إلى الكعبة ليطوفوا بها، أما الكعبة فتتوق إلى الطواف بروضتك."

"ولحرمتك يأتي اللؤلؤ من الماء والألماس من الحجر، والورد من الشوك".

"يا رسول الله! لقد أتيت إلى بابك والتجأت بمرحمتك التي لا نهاية لها، فالطُفْ عليّ بقطرة من بحر محيط لطفك!"

"إن ذنوبي كثيرة لا تُحصى، ووجهي أسود مثل القطران، أيها الأعزّ عليَّ من روحي! لقد أتيت إلى ترابٍ شرَّفته لكي أمسحه بوجهي حتى أتمكن من تطهير ذنوبي التي لا يمكن أن تطهرها المياه!"

وهذا مثال آخر على الأشعار المنظومة التي تُرجمت إلى اللغة التركية والتي

تعبر عن محق الروح في سبيل الحق والمحوية السامية التي في قلب «مولانا خالد البغدادي»:

لقد مر عمري في أشياء لا نفع لها يا للأسف!
وطار الزمان كالطائر آه يا للأسف!
في أي مكان كنتُ رحت إليه وأسّستُ بيتًا
أتت يد نثرت ترابًا آه يا للأسف!

لقد تجولت بالغفلة وقلت:"الحق يعفو"
ونسيت قهره، وكنت أطغى كثيرا
تركت الخير، وكتبت الذنوب دومًا
ثم قالوا راحت القافلة فيا للأسف!

لقد انشغلت كثيرًا بالمال والملك والمنصب
وتركت الجنة وتلطخت بالنار
وا أسفاه كيف تركت طريق الحق
وشربتْ الدنيا كوثري يا للأسف!

سيُقال غدًا هيًّا إلى الحساب!
آه كيف ينجو هذا «الخالد» الآن؟
هذا هو المحشر ها هو ذا قد أتى ملَك
وفتح دفتر أعمالي يا للأسف!



ويتضح من الأشعار السابقة أن «مولانا خالد» متواضع للغاية، وبالرغم من علمه وعرفانه الذي يشبه البحر إلا أنه كان يتموج بالعدم على الأفق الذي لا نهاية



له، ونال مراتب لا يمكن الوصول إليها، وثراؤها المعنوي في سبيل الحق كان يزيد بمرور الوقت.

وقد أخطر «مولانا عبد الله الدهلوي» في إحدى الرسائل التي كتبها إلى «مولانا خالد البغدادي» بالقيمة المعنوية التي كانت لدى مولانا خالد فقال:

"أبدأ رسالتي باسم الله الرحمن الرحيم. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. يا مولانا المبارك خالد حبيب الله! إن اللسان يعجز عن حمد الله وشكره على نعمه التي أنعم بها على عبده العاجز الفقير من أخمص قدميه إلى شعر رأسه. يا بُني! أكرم طلاب هذا الطريق العظيم المبارك فيوضاته. فقد جعلك الله قطبًا ومصدر فيض لبلدتك، ولتعلم أن المفسدين لن يضروك بشيء. فما يفترون به عليك ليس مقبولا عندنا. والحمد لله تعالى أولا وآخرًا وأمام كل مسألة، والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ.

يا بُني! أعينوا لِمَنْ طلب الاستفادة منكم. وهم أيضًا عليهم أن يقوموا بذكر الله وأن يمتثلوا بما أُمروا به، وأن يعرفوا أن سعادتهم بوسيلة هذين الأمرين. وعليهم ألا يلتقوا بمَنْ ينكرون طريق الكبار، فهناك قول مشهور: "إذا أحسنت إلى مَنْ يسيئون إلى أستاذك فالكلب أفضل منك".

ولهذا عليك بالابتعاد عمَنْ يعترضون على الإمام الرباني خاصة، لأن شخصًا مثل الإمام الرباني يحبه المؤمنون والمتقون، أما مَنْ يبغضونه فهم المنافقون والأشقياء.

وليعلم أكابر وأشراف وعلماء بلدتك قدرك، وليستفيدوا منك. وعليهم أن يحذروا من التقصير في إظهار الحرمة لك، وعليهم أن يمنعوا مَنْ يريدون قتلك من معارضيك. وقد كتبت أنا الفقير هذه كنصيحة؛ إذ النبي ﷺ يقول:

"**الدين النصيحة**". وقد جعلك الله تعالى خليفة للمجدد الألف الثاني وللشاه النقشبندي، وخليفة قلبي وخليفة لميرزا صاحب. ولن يستطيع أحد أن يحل مكانك، ويدك هي يدي، ومن رآك فقد رآني.

يا بُني! لا تنهض للقدوم من هذا المكان البعيد إلى هنا، ولكن عند الحاجة يكفيك أن تدير وجهك إلى هذا المكان وتتذكرنا بقلبك، وفقك الله وإيانا لما فيه رضاه واتباع حبيبه. آمين!"

❁

ولما بدأ «مولانا خالد البغدادي» الإرشاد أتى «سعيد باشا» والي «بغداد» لزيارته، ولما دخل «سعيد باشا» إلى التكية رأى كل العلماء يجلسون بأدب متناهٍ وهم يحنون رؤوسهم؛ وكأنهم خدام، وفي تلك الأثناء دخل مولانا خالد عليهم بهيبة كبيرة، فإذا بالباشا ترتعد فرائضه. فقال لمولانا خالد بصوت منخفض: "ادع لي" فدعا له مولانا خالد وقال له:

"إن كل نفس ستأتي يوم القيامة وتسأل عن نفسها فقط، أما أنت فستسأل عن نفسك وعن كل مَنْ كان تحت أمرك، فعليك بتقوى الله والخوف منه، لأنه سيأتي يوم فيه تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وستضع كل ذات حمل حملها من هول ذلك اليوم، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد".

ازداد خوف ورعشة الوالي، وانخرط في البكاء بصوت مسموع. وقام حضرة الشيخ ووضع يده المباركة على كتف الباشا وذهبا معا إلى زاويته الملتصقة بالمسجد.

❁

لقد قام «مولانا خالد» بتربية كثير من الطلاب، نال ما يقرب من ٤٠٠٠ منهم أعلى الدرجات في العلم والتصوف، وحصلوا على الإجازة. أما تقدير وارتباط هؤلاء الطلاب والمريدين بمولانا خالد البغدادي فيستدعي التأمل كثيرًا. ومن ذلك ما قاله الشيخ صدر الدين شيخ العلماء، مفتي بغداد الذي كان أستاذا لوالي بغداد والوزيرِ داود باشا:

"لو أمرني «مولانا خالد البغدادي» بأن أحمل إناء لبن على رأسي لأبيعه في السوق لفعلت ذلك دون تردد!"



وكان الشيخ «علي السويدي» أيضًا يقول في مجالس العلم:

"إن «مولانا خالد البغدادي» كالبحر في العلوم الظاهرية والباطنية، أما نحن كالقطرة".

❀

كان مولانا خالد صاحب نظر قوي ومؤثر. ذات يوم بينما كان مولانا خالد يسير في الطريق إذا به يقابل نصرانيًّا فالتفت ونظر إليه بالإلهام الذي منحه الله تعالى لقلبه، فتأثر الرجل بنظرة مولانا خالد له وبكى وسار خلف الشيخ، ودخل بيته بتنشق هذا الهواء الإيماني الذي أحاط به، فخرج من هذا الباب المبارك وهو مسلم، وكان الفرح والسرور الذي في قلبه ينعكس على وجهه.

❀

وكان هناك عالم يُدعى «يحيي»، انساق هذا العالم خلف إغواء بعض الغافلين، فجمع مجموعة من الطلاب وذهب إلى مولانا خالد، وكان يجهز بعض الأسئلة الصعبة لمولانا خالد من أجل أن يسأله فيها ليحرجه أمام الطلاب. ولما وصل هذا الرجل إلى مولانا صافحه مولانا خالد وأجلسه بجواره، وقبل أن ينطق الرجل بكلمة، قال مولانا له:

"هناك مسائل صعبة في العلوم الدينية، الأول وهي كذا وكذا وحلَّها على ما يلي.."

وفند للرجل الإجابة. تحير الرجل وأدرك أنه أمام ولي من أولياء الله الصالحين فندم على ما فعل، وتشرف بأن صار من أكبر طلاب مولانا خالد.

❀

وكان الطاعون قد تفشى في الشام، ولهذا لم يرغب مولانا خالد الخروج من البلدة. وقرأ للأهالي الأحاديث الشريفة القائلة بأن مَنْ يموت بالطاعون فهو شهيد.



وفي تلك الأثناء أتاه رجل وطلب أن يدعو الله له بألا يصيبه الطاعون، فدعا له مولانا خالد، فسلم الرجل من الطاعون.

فلما قيل له: "يا سيدي لو دعوت لنفسك أيضا؟"

قال مولانا خالد: "إني أستحيي من الله من أن لا أطلب لقاءه!".

فأصاب المرض أحد أبنائه وهو بهاء الدين، ثم أعقبه ابنه الآخر وهو عبد الرحمن وتُوفي بسبب الطاعون. وبينما كان مولانا خالد يدفن أبناءه شعر بأن آخرته قد قربت، فأمر طلابه بأن يعدوا له القبر في أحد الأماكن وأن يدفنوه هناك. ولكنهم أظهروا رخاوة في تنفيذ هذا الطلب؛ لأن قلوبهم كانت تتألم من مرارة فراق الشيخ.

ولما علم مولانا خالد بذلك، دعا إليه الشيخ عبد القادر وقال له:

"احفروا قبري اليوم، لأنكم وأنتم تحفرون ستقابلكم صخرة كبيرة وإن تركتموها إلى يوم وفاتي فلن تجدوا الوقت لدفني وإعداد قبري"

فقام الشيخ المذكور بتنفيذ أمر مولانا خالد.

وذات يوم قال مولانا خالد للشيخ «إسماعيل الغزي»: "لقد وقفت كل كتبي".

وفي ذلك اليوم استقبل مَنْ حضروا لتعزيته في وفاة ابنه الثاني عبد الرحمن. وبعد انصراف المعزين قال للشيخ إسماعيل: "لتبق معي اليوم".

ثم قال له: "لولا أخشى على الناس بأن يقولوا يظهر مولانا خالد كرامة، لكنت قد ودعت كل أحبابي اليوم، لأنني أظن بأنني سأرحل إلى دار الآخرة ليلة الجمعة".

وفي تلك الأثناء جلبوا له الطعام، فنظر مولانا إلى الطعام وقال: "لن أستطيع أن آكل من هذا الطعام أو أي طعام آخر، هل رأيتم إنسانًا يأكل ويريد الموت".

وبعد فترة دخل عليه من طلابه «ابن عابدين» فوجده غارقًا في التفكير، فقال له:

"يا سيدي، لقد رأيت في منامي أمس أن سيدنا «عثمان» توفي وكان هناك جمع كبير من الناس، وأنا صليت عليه صلاة الجنازة وورائي هذا الجمع الكبير".

فقال مولانا خالد:"يا ابن عابدين! إن الفقير من أحفاد عثمان، ولتعلم أني سأموت، وستقوم بالصلاة عليّ في جمع كبير". ولما سمع «ابن عابدين» هذا دمعت عيناه، وغرق في حزن وغم كبيرين.

كانت وفاة مولانا خالد كوفاة مولانا «جلال الدين الرومي» التي وصفها، حيث كان يوم وفاتهما «ليلة العرس» حتى أن مولانا خالد أوصى مَنْ كانوا بجواره ليلة وفاته قائلاً:

"لا تتركوا الصراط المستقيم، وعليكم بإظهار التحمل والصبر على البلاء والامتحان والمشقة التي ستواجهونها في هذا الطريق. فاحذروا أن تعدوا صفاتي وشمائلي وأن تبكوا أو تنتحبوا عليّ، لأن في هذا إزعاجًا لروحي. وعليكم بكتابة الرسائل التي تحمل مثل هذه الوصايا حتى لايبكوا ولا يحزنوا، وعلى مَنْ يحبني أن يذبح لله تعالى ذبيحة ويهب ثوابها لروحي. وعليكم أن تكرموني بعد وفاتي بقراءة القرآن، والدعاء الخالص وقراءة الفاتحة لروحي. ولا أقول مثل الغافلين الذين يقولون: "إنني لست محتاجًا إلى الصدقة، وإنه يكفيني قراءة الفاتحة والإخلاص". واحذروا أن تكتبوا على قبري شيئًا سوى جملة (هذا قبر فلان ابن فلان النقشبندي المجددي المحتاج إلى رحمة ربه الغفور)."

وفي ذلك اليوم ومع انتهاء منتصف الليل وقرب حلول الصباح، وجه مولانا خالد عيناه ناحية القبلة ونام على جنبه الأيمن، وغرق في المراقبة والتفكر، ورغم شدة مرضه لم يتصدر منه آهة أو كلمة تفيد الألم، بل كانت توجد على كل عضو من أعضائه علامة ذكر الله. ولما أذن المؤذن بصوته العذب لصلاة الفجر، بدأ مولانا خالد يقرأ الآية الأخيرة من سورة الفجر:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر، ٣٠)

وبعد تلاوة الآية الكريمة أسلم مولانا خالد روحه إلى بارئها. رحمة الله عليه!..

وقد اجتمع في جنازته حشد كبير لم يُرَ مثله من قبل، وصلى على الجنازة «ابن عابدين» كما أشار مولانا قبل وفاته.

وبينما كان جثمانه يُحمل إلى القبر إذا برائحة طيبة للغاية تنتشر من كفنه بين الموجودين، وقد شعر كل شخص من الموجودين بتلك الرائحة الطيبة التي تداعب الأرواح. ويقول قسم من الزوار من أهل الحال:

"إن هذه الرائحة الطيبة ما زالت محسوسة".

ولا يزال الفيض جاريًا والهمة عالية إلى الآن لـ«مولانا خالد البغدادي» الذي كان سلطان العارفين والعلماء وتاج الأولياء.

وبهمته نذكر "أن قلب السالك مليء بالضياء"



بعض الأقسام من رسائله:

"الطريقة هي عروة الوصول وسُلّم رضوانِ الله تعالى واتباع الرسول التي أصولها التّمسّكُ بعقائد أهل السنة الذين هم الفرقة الناجية، وترك التقاط الرخص والأخذ بالعزائم ودوام المراقبة والإقبال على المولى والإعراض عن زخارف الدنيا بل وعن كل ما سوى الله تعالى وملكة الحضور المعبر عنه في الحديث الشريف بالإحسان وهو "أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك"، والخلوة في الجلوة مع التحلي بالاستفادة والإفادة في علوم الدين، التّزيّي بزيّ عوام المؤمنين وإخفاء الذكر وحفظ الأنفاس بحيث لا يخرج ولا يدخل نفس مع الغفلة عن الله الكريم، والتخلق بأخلاق صاحب الخلق العظيم عليه الصلاة والتسليم. وبالجملة؛ فهذه الطريقة بعينها هي طريقة الأصحاب الأنجاب عليهم رضوان من غير زيادة ولا نقصان وهي عبارة عن الأخذ بعزائم الكتاب والسنة" [١]

١. أسعد صاحب، بغية الواجد، الرقعة الرابعة.



"إن أهمّ الآداب في الطرق كلها لا سيما في الطريقة العلية النقشبندية شدة التمسك بالشريعة الغراء، والتشمير التام للصبر في البأساء والضراء، وبذل المجهود في الشكر في الرخاء والسراء، وإحياء السنة السنية والتباعد عن البدع الردية، ودوام التضرع إلى الله بالانكسار، والجهد الجهيد لطرد الخواطر ولو أخروية آناء الليل وأطراف النهار، حتى يصير الحضور ملكة في القلب كأبصار الباصرة ولا يبقى تعلق البال بشيء سوى المحبوب الحقيقي عز شأنه في الدنيا والآخرة...

فعليكم بمزج الحيرة التامة بالحضور والثقة الكاملة به تعالى في جميع الأمور، وعدم الاعتماد على الوقايع وإن كانت في غاية الظهور والاستقامة مع الأخذ بالعزائم على حسب المقدور؛ و"ما لا يدرك كله لا يترك كله". ومن أنفاسهم النفيسة:

"الطرق إلى الله تعالى مسدودة إلا على المقتفين آثار رسول الله ﷺ"

وإن المدار على نفي الوجود وبذل المجهود والوفاء بالعهود والقناعة بالموجود" [٢]

"نسأل الله لنا ولكم دوام الاستقامة. فعليكم بالسعي الحثيث في أسبابها فهي خير من ألف كرامة. أوصيكم بالاشتغال بإحياء السنن السنية، وقمع البدع الردية، ونشر العلوم بالإخلاص، والتمسك بآداب ساداتنا الخواص، ونفي الوجود، وبذل الموجود، والصبر على المفقود، والتبتل إلى الملك المعبود، وتذكر هذا المسكين بالدعوات الخيرية على الدوام. والسلام في البدء والختام"[٣]

وقال في أحدى رسائله مخاطباً أحد مريديه الذي يقصد الحج:

"الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى أما بعد: فأوصيكم بتقوى الله وطاعته وترك إيذاء الناس ولا سيما في الحرمين الشريفين. ولا تغتب أحدا وإن اغتابوك. ولا تأخذ من أحد شيئا من حطام الدنيا إلا أن يحكم بأخذه الشرع فخذه واصرفه في سبيل البر. ولا تتفكه بصرفه في الشهوات وإخوانك المؤمنون

---

٢. أسعد صاحب، بغية الواجد، الرقعة الخامسة.

٣. أسعد صاحب، بغية الواجد، الرقعة الثامنة والتسعون.



جاعة عالة، ولا تكذب ولا تحتقر أحدا ولا تعتقد نفسك فوق أحد. وابذل جهدك في العبادة القلبية والبدنية. واحسب نفسك أنك ما عملت خيرا أبدا. إذ النية روح العبادة ولا نية إلا بإخلاص، والإخلاص لِأكبَرَ منك فضلاً عنك[4]. وأنا والله لا أعتقد أني عملت خيرا منذ ولدتني أمي، وأنت تعتقدني خيرا منك.

فإن لم تجدك مفلسا عن كل خير فهو غاية الجهل وإن وجدتك مفلسا فلا تقنط من رحمة الله تعالى. فإن فضل الباري خير للعبد من أن يكون له عمل الثقلين:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (يونس، ٥٨)

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "أي: يكسبون".

ولا تجعل الطمع في فضل الله تعالى سببا لترك العبادات، كمن لعب بعقولهم الشيطان. وداوم على ذكر القلب والمراقبة ولا تفتر عنهما ولو في المشي. تمسك بحول الله تعالى وقوته في كل أمر واستمسك بروحانية السادات الكبار – قدس الله تعالى أسرارهم – وأكرم حملة العلم وحفظة القرآن، واشتغل بقراءة القرآن بحسب التيسير، واشتغل بعلم الفقه والحديث أكثر من غيرهما.

ولا يصرفك الحضور القلبي عن ذلك؛ فإنه علامة على ضيق المشرب وقصر الباع. وعليك بالمداومة على صلوات النافلة من التهجد والإشراق والضحى والأوابين، ودوام الوضوء، وقلة الهجوع، وقول:

"سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته"[5] ثلاث مرات.ولا تدخل في أمور أهل الحكم من الأمراء ولو طلبوا منك. وادعُ بالصلاح والإصلاح لإمام المسلمين. واطلب من الله تعالى أن ينصر الإسلام على أعداء الدين.

---

٤. أي الإخلاص يلزم لمن كان أكبر منك فكيف لا يلزم لك؟.

٥. انظر: مسلم، الذكر، ٧٩.



وعليك بترك الوجود وبذل المجهود والقناعة بالموجود والتمسك التام بسنن صاحب المقام المحمود. صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أبد الآبدين، والحمد لله رب العالمين"[٦]

كان يطلب من مريديه الدعاء له بحسن الخاتمة في كثير من رسائله، ومن الأمثلة على ذلك:

"... ثم المرجو أن تذكرونا بدعاء حسن الختام والتوفيق لاتباع سنة خير الأنام عليه وعلى آله الكرام وأصحابه الفخام أفضل الصلاة وأكمل السلام. والسلام عليكم من هذا المسكين المستهام" [٧].

"... لا تنسوا المسكين من الدعاء بحسن الخاتمة، وتوفيق الاستقامة في اتباع السنة السنية الغراء، والموت على الملة الحنيفية البيضاء"[٨].

يا ربنا أحسن إلينا وإلى كل إخواننا في الدين بنصيب من إقليم الصدر لمولانا خالد الذي وصل إلى مرتبة كبيرة في الحصول على رضاك، واجتهد في العيش بالوجه اللائق بالدين المبين، وخدم في سبيلك ليلا ونهارًا. آمين!!!.



٦. أسعد صاحب، بغية الواجد، الرقعة الثامنة والعشرون.

٧. أسعد صاحب، بغية الواجد، الرقعة الثامنة عشرة.

٨. أسعد صاحب، بغية الواجد، الرقعة التاسعة والعشرون.





البناء الروحي للمجتمع العثماني

نالت الدولة العثمانية الكثير من الانتصارات ببركة المؤثرات التي شكلت العناصر الأساسية فيها. وأهدوا التاريخ ذكريات ممتلئة بالرفعة والشرف. ويأتي على رأس تلك المؤثرات بلا شك البناء الروحي والاجتماعي للمجتمع.

لقد نسج أولياء الله الذين ذكرنا أمثلة متعددة من بين آلاف الأمثلة بهمتهم وإرشادهم الممتلئ بالفيض شبكة على المجتمع العثماني، وبذلك ظهر في المجتمع الكثير من أفضل الأولياء، ويمكن مشاهدتهم في كل شرائح المجتمع العثماني من عامة الناس وحتى العلماء، ومن الأمراء وحتى رجال الجيش. وهناك الكثير من الأمثلة المعروفة وغير المعروفة عن سلسلة هؤلاء العباد الذين كان الناس يعرفونهم بتصنيفات لهم مثل : «ثلاثيون» و«سبعيّون» و«أربعينيون». وقد شكلت تلك النماذجُ الأرضيةَ الأساسيةَ لكل النجاحات القوية التي حققتها الدولة العثمانية التي استمرت كأكبر دولة معمرة في التاريخ الإسلامي بفضل جيوش الدعاء والغزاة.

وتعد حكاية «ميِّتْ زاده» من أشهر الحكايات التي تعرض نموذجا لتأثير الخصال المعنوية التي استقرت في قلوب الناس من إخلاص واستقامة وتوكل وإيمان. وذلك نتيجة لحركة إرشاد المجتمع التي بدأت مع الشيخ أدبالي، واستمرت من بعده.وهذه الحكاية تُعد مثالا نموذجيًّا يعكس العالم الداخلي لرجال القلوب والبناء المعنوي لدى الشعب في الدولة العثمانية.





ميت زاده

(١٥٩٦م-؟)

ميّت زاده عالم عثماني فاضل مشهور بالفضيلة والعرفان عاش في عهد السلطان أحمد خان الأول. والسبب في تسميته بميّت زاده كان هذا التجلي الإلهي الذي نقلته الرواية:

كان والده عسكريًّا شجاعًا، وقد دُعي كغيره من المحاربين الشجعان إلى حملة «أَگْرِى» عام ١٥٩٦م في عهد السلطان محمد الثالث، وكانت زوجته في تلك الأثناء حاملاً وعلى وشك الوضع، إلاّ أن هذا الأب الشجاع الذي كان يدرك عظمة الجهاد في سبيل الله ﷻ أعد مستلزمات الحملة.

ومع صوت الطبل العسكري الذي يهيج الأرواح ازداد شوقه للجهاد. ونظر نظرة أخيرة لزوجته الوفية. ولأنه كان يعلم أن زوجته ستضع وهو في الحملة رفع يديه التي سيمسك بها السيف ليقاتل أعداء الله، وتوجه إلى المولى ﷻ وبدأ يدعو الله وعيناه تفيضان بالدمع:



"إلهي! إني راحل في طريق الجهاد، وأنت تعلم يا إلهي أنني لا أحد لي سواك. يا ربي! أستودعك ابني هذا الذي ستضعه زوجتي الوفية حمالة الأسية، فاحفظه بلطفك وكرمك".

ثم ركب جواده وسار في طريقه مسرعًا واختفى عن الأعين.

وصل إلى «أَكْرِي» مع الجيش، وكان يقاتل مثل الأسد في المعركة، وبعناية الله وفضله انتصر الجيش العثماني، وعاد الجيش إلى إستانبول التي كانت تسمى وقتها (دار السعادة) وعلى جبين القادة والجنود ورود وأزهار النصر.

عاد الأب المنتصر إلى منزله بعد أن أخذ الإذن من قادته، ولما عاد لم يجد أحدًا في المنزل بالرغم من أن الأخبار كانت قد سبقت الجيش بانتصاره، وكان يلزم أن تنتظره زوجته في المنزل. وعلى الفور هرع الرجل إلى الجيران وَلِعا قَلِقاً. ولما رأى الجيران الرجل قالوا له بحزن:

"بارك الله غزوتكم، وأحسن إليكم بالبركة في العمر" .

فَهِم الأب مغزى تلك الكلمات فصاح بشكل لا إرادي:

"لا، هذا غير ممكن!" وبعد أن هدأ قال بصوت خفيف، "

لا يمكن ذلك، لقد تركت ابني الصغير أمانة لله ﷻ، وهو خير الحافظين.

وبعد أن سكت الرجل لبرهة نظر لمن حوله ثم صاح بإلهام نبع من داخله: "بالتأكيد الله خير الحافظين"

ثم قال لهم: "دلوني على قبر زوجتي ورفيقة عمري"

ذهبوا جميعًا إلى المقبرة، وكان الأب يحمل في يده معولًا وكأنه تنبه لصوت قلبه، وبمجرد أن أشاروا له إلى القبر،وضع الرجل أذنه على تراب القبر، وبدأ يستمع وإذا به يصيح:

"ها أنا أسمع صوت ابني!"



وعلى الفور بدأ يحفر القبر، وكلما كان يحفر كان مَنْ معه يسمعون صوت الطفل، وبدؤوا يساعدون الأب المسكين، ولما فتحوا القبر كله إذا بمنظر يجلب الدهشة والحيرة ويعجز إرادة البشر:

كان هناك طفل مولود يلتصق بصدر والدته الميتة، وكأنه كتلة من نور. وعلى الفور حمل الأب الغازي طفله وقبّله، ثم لفه بقطعة قماش، وأغلق القبر مرة أخرى قارئا الفاتحة لروح زوجته. لقد كانت تلك الحادثة بمثابة المعجزة للجميع، حتى إنهم سبَّحوا الله ﷻ وقدسوه بتعظيم كبير، حتى أن الأب سجد لله ﷻ بعينيه المبللتين بالدموع، وحمد الله ﷻ بقلب ممتلئ بالسرور بسبب ولادة ابنه، ولكنه كان في الوقت نفسه حزينًا على وفاة زوجته.

نشأ هذا الابن على التربية والتحصيل الجيد، فكان عالمًا زاهدًا ذاع صيته في كل أرجاء الدولة العثمانية. وبسبب تلك المعجزة الربانية أطلق عليه الجميع «ابن الميت» أو «ميت زاده» وكان مثالا على بركة التسليم والخضوع الخالص لله تعالى. فقد أراد الله تعالى القدير الذي نجّى إبراهيم من النار، وخلق عيسى بدون أب أن يولد هذا الطفل من أم ميتة ببركة إخلاص والده[1].

القدرة والقوة والعظمة لله تعالى وحده.



١. أُطلق على المقبرة المدفون بها «ميت زاده» اسم «مقبرة ميت زاده» نسبة له.







السلطة الدينية في الدولة العثمانية

كانت الدولة العالمية العثمانية دولة حقوق بالمعنى الكامل للكلمة بشكل يتفق مع الفكر الإسلامي الأساسي. أي إنها كانت دولة يغلب عليها الحقوق وليس القوانين. وثمة عنصران أساسيان لتأمين هذه النتيجة:

١. إن القوانين في الدولة العثمانية لم تكن نتاج إرادة الأشخاص الذين يطبقون هذا القانون.

وبالرغم من وجود العديد من الفعاليات مثل الاجتهاد والقياس، لم يكن رجال الحقوق أحرارًا، بل كانوا مرتبطين بمنطق وهدف القانون الإلهي. وهذا يعني أن كل رجال الحقوق الذين يطبقونه وعلى رأسهم رئيس الدولة، لم يكونوا أصحاب إمكانية لإصدار القوانين لصالح أحد أو ضده أو لصالح جماعة أو ضدها. كما أنهم كانوا مكلفين امتثال تلك القواعد الحقوقية التي كانت مُنْصِفَة لأقصى درجة والتي لا تفضل شخصا على آخر. وأبرز مثال على ذلك قرار المحاكمة على السلطان الفاتح والحكم



بقطع يده. كما أن الخاصية التي كانت تعمل على تأمين مشروعية تصرفاتهم هو ذلك التناسب الموجود بين القوانين الإلهية وهذه الإرادة السياسية. والمشروعية تكون بنسبة هذا التناسب.

٢. إن موافقة القوانين التي أُصْدِرت للمصلحة وموافقة تطبيقات السلطة السياسية مع الأسس الحقوقية الرئيسية أي مع الكتاب والسُنة؛ كانت تتم بالفتوى.

وليست الفتوى مبنية على قناعة شخصية، بل من الضروري أن تستند إلى مسند شرعي. ولهذا فإن مقام الإفتاء في الدولة العثمانية كان سلطة دينية تستطيع توجيه السلطة السياسية.

وعلى هذا كانت مكانة شيخ الإسلام الذي هو وكيل للسلطان بصفة الخليفة؛ متقدمةً على الصدر الأعظم الذي هو وكيل للسلطان بصفة السلطان. وكان هذا التطبيق أساسًا إداريًّا تم الحفاظ عليه حتى انهيار الدولة.

كما أن مشايخ الإسلام كانوا مثل السلاطين يظلون في منصبهم حال حياتهم، ويمكن القول بأنه لايكاد يوجد شيخ إسلام واحد عُزل من منصبه بسبب إصداره فتوى لا تتفق مع السياسة. ولم يُعزل مشايخ الإسلام من مناصبهم قط إلاً في حالات العجز الصحي أو الهرم الكبير.

وإذا ما قارنا عدد هؤلاء المشايخ الذين عزلوا من مناصبهم لهذين السببين بعدد السلاطين الذين تم عزلهم لأسباب مختلفة سنجد أنه لا يبلغ عددهم عدد هؤلاء السلاطين المعزولين.

ولم يُطبق "القتل سياسةً" الذي كان يُطبق على الوزراء، على مشايخ الإسلام إلا في حالة استثناء واحدة أو اثنتين فقط بالرغم من أن مشايخ الإسلام كانوا على نفس درجة هؤلاء الوزراء، وكان هذا الاستثناء في التاريخ العثماني الممتد لفترة ٦٢٣ عامًا بسبب الرشوة في الغالب.

ولأن مشايخ الإسلام كانوا بشرًا فإنهم كانوا في بعض الأحيان يخطئون في تقدير إحدى المسائل، أو يمكن أن يقعوا تحت تأثير مؤامرة سياسية ما، وفي العهود الأخيرة للدولة العثمانية وجدنا السلطة السياسية تضغط على هذا المقام وتضطره إلى إصدار فتوى مخالفة، وهذا كان نادر الحدوث، وقد استصدرت فتوى ممَنْ ليست لديهم صلاحية الفتوى عند عزل السلطان عبد الحميد، وكانت هذه ظروفًا استثنائية. ولم يكن هذا خطأ النظام القانوني، وإنما كان خطأ السلطة السياسية.

وبشكل عام يمكن القول بأنه تم السعي إلى تحقيق تلك المؤثرات التي كانت تعوق ابتعاد الإداريين عن الكتاب والسُنة في أكمل شكل في النظام القانوني العثماني. وعلى هذا كان لشيخ الإسلام صلاحية خلع السلطان الذي أصدر قرار تعيينه في هذا المنصب، يكفيه أن يكون المسند الذي استند إليه قرار شيخ الاسلام مسندًا شرعيًّا[1].

أي إن مشايخ الإسلام في الدولة العثمانية كانوا على رأس نظام يحافظ على سلطة الحقوق التي توجه إرادة السلطان وتراقبها عند الحاجة.

ولهذا رأينا في التاريخ العثماني الكثير من مشايخ الإسلام، الذين ظلوا في مناصبهم بالرغم من أنهم لم يصدروا الفتاوى التي يرغب فيها الحكام الأقوياء. وابن كمال باشا واحد من هؤلاء.



١. ومن جملة ذلك: خلع السلطان محمد الرابع والسلطان مصطفى الثاني.







سلطان عرش العلم والعرفان العثماني،
مفتي الثقلين

شيخ الإسلام كمال باشا زاده

(٩/ ١٤٦٨- ١٥٣٤م)

من أشهر مشايخ الإسلام العثمانيين، كان من أكبر علماء العالم الإسلامي في عهده، اسمه «شمس الدين أحمد جلبي» والده هو «شجاع الدين سليمان بك» وجدُّه «كمال باشا» من أمراء عهد الفاتح. ولهذا اشتهر بنسبه لجده فكان يُعرف بـ«ابن كمال باشا».

كان «ابن كمال باشا» ينتسب من ناحية أبيه إلى الأمراء، ومن ناحية أمه إلى طبقة العلماء. ولهذا نشأ على العلم والحياة العسكرية معًا، إلا أنه وجه طاقة شبابه إلى العلم والاشتغال به ليلا ونهارًا، ولهذا ترك الحياة العسكرية، ووهب حياته كلها للعلم، وتنقل الروايات سبب تركه للحياة العسكرية وتوجهه إلى الحياة العلمية، وهذه الحادثة هي التي رواها بنفسه:

"كنا في حملة مع «السلطان بايزيد خان» الولي، وكان عند السلطان كل من «إبراهيم باشا» و«أوْرانُوسْ أوغلو». كان «أوْرانُوسْ أوغلو» صاحب مقام عالٍ عند



السلطان، فلا يجرؤ أحد من الأمراء على التقدم عليه أو الجلوس في مكان أعلى منه بجوار السلطان. وفي إحدى المرات وبينما كنا نجلس مع السلطان في أحد المجالس إذا برجل يرتدي ملابس قديمة بالية يدخل علينا المجلس، ويجلس في مكان يعلو الأمراء. وقد تحيرت للغاية؛ لأن أحدًا من الأمراء لم يمنعه من ذلك. فقلت لِمَنْ بجواري من هذا الشخص الذي يأتي ويجلس في مكان أعلى من «أَوْرانُوسْ أوغلو»؟

فقيل لى: "إنه الملا لطفي، رجل عالم وفاضل"

فسألت: "كم راتبه؟"

فقيل: "٣٠ درهمًا."

فقلت بتعجب: "كيف لرجل مثل هذا يأخذ هذا القدر من الراتب أن يتقدم على قائد كبير مثل «أَوْرانُوسْ أوغلو؟»"

فقال لي مَنْ حولي: "إن هؤلاء العلماء يلقون هذا التعظيم بسبب عظمة العلوم الدينية التي عندهم، ولا يرضى الباشوات والقادة الذين تميزوا بالعلم والعرفان والآداب وضعًا مخالفًا لهذا!.."

ونظرًا لأنني كنت أشعر بأنني لن أصل إلى تلك المرتبة الكبيرة لهؤلاء القادة، وكنت أشعر بنفسي أميل أكثر للجانب العلمي، وأنني سأبرز أكثر في هذا الجانب العلمي، فقد تركت الحياة العسكرية وجعلت جل اهتمامي بالعلوم الشريفة".

وبعد هذا الترجيح الذي قام به «ابن كمال باشا» أصبح يُلقب بلقب «فريد العصر» حتى إنه عُيِّن شيخًا للإسلام في الدولة العثمانية بعد وفاة «زَنْبِيلْلي علي أفندي»، فكان شيخ الإسلام التاسع عشر في الدولة العثمانية.

❀

كان «ابن كمال باشا» أحد أبرز السمات التي يندر مصادفة مثلها في التاريخ، يتصف بوصف مختلف تمامًا عن بقية مشايخ الإسلام العثمانيين؛ لأنه لم يكن يعطي الفتاوى للإنس فقط، بل كان يفتي الجن أيضًا، ولهذا لُقب بلقب«مفتي الثقلين».



ويقول «طاش كوبْري زاده» عنه: "لقد أنسانا «ابن كمال باشا زاده» العلماء السابقين، وأحيى من جديد قاعدة العلم".

كان «ابن كمال باشا» في شبابه يُقارن بكبار علماء عصره أمثال «سعد الدين التفتازاني» و«السيد الشريف الجرجاني» ولهذا كان يُعرف بين العلماء العثمانيين بأنه«المعلم الأول». أما «المعلم الثاني» فهو «أبو السعود أفندي».

وبفضل استعداده وقابليته تسلق «ابن كمال باشا» إلى القمة في كل فروع العلم، فقد كان يطالع المسائل بالتحاليل المتعمقة فيها، ويحلها، وبالتالي كان يكتب مقالة أو رسالة عن أي موضوع يتناوله، والنتيجة أنه كان "فاضلا في كل علم ومعروفًا بالفضل".

أما جانب تفوقه على بقية العلماء فيعود إلى أنه حوّل علمه إلى عرفان، وأوصل عالم قلبه إلى درجة الولاية. كان «ابن كمال باشا» يقوم في اليوم الواحد بكتابة الفتاوى ويطالع الموضوعات المختلفة، ويتباحث مع العلماء الآخرين، ويعطي الدروس لطلابه، ويؤلف أجزاء من الكتب. ولهذا وصفه البعض في البيت التالي بهذا الوصف:

إنك ملك أو جنّي في صورة البشر

لأن الإنسان لا يمكنه اكتساب فضل بهذا القدر

وإلى جانب كونه عالمًا متعمقًا قويًّا في العلوم، كان أيضًا مؤرخًا قويًّا، وشاعرًا وأديبًا جيدًا، وله في ذلك مؤلفات ما يزيد عن ٣٠٠ مؤلف باللغات العربية والفارسية والتركية، وأغلبها على شكل رسائل.

كانت أشعاره تتصف بأنها تأخذ طرز الحكم، والأبيات التالية من النماذج الجميلة التي تـتنقّل بين الألسن:

إن نصيبك هو الذي يجعلك تنتقل من مكان إلى مكان

وحتى لو ملكت العرش فإن الأرض تأكلك



لا تمسك بيدك معزقة
ولا تحفر بئرًا في طريق أحد
فمَنْ حفر بئرًا لأخيه
فلا بد من أن يقع فيه

فالذي ليس أهلا يعارض الأهل
و لكل أحمد أبو جهل
وعندما ينتهي عمر شخص
فالأفضل له أن يموت في سبيل الغزو



ولم يكن «ابن كمال باشا» يلفت الانتباه بهويته العلمية فحسب، بل كان أيضًا ظاهرًا بآراءه الصائبة في المسائل الاجتماعية.

فهو الذي أعد الأرضية الدينية والمبررات لحملة السلطان سليم الأول على «إيران» وكانت فراسته سببًا في تقدير السلطان لقيمته، ولأنه كان بارزًا في التاريخ، فقد شرح لـ«لسلطان سليم» ما يريد الشاه إسماعيل فعله. فقد أظهر «شاه إسماعيل» بالمجزرة التي قام بها بعد قضائه على دولة «آقْ قُويُونْلُو»، ماذا يمكن أن يفعل إذا تحققت له الإمكانات.

وقد قال «ابن كمال باشا» ما يلي عندما كان يوضح ما سيفعله الـ«شاه إسماعيل»:

"لقد حرم «الشاه إسماعيل» المدن المعظمة الموجودة تحت قبة الإسلام من أنوار الشريعة، وملأها بظلمات الزندقة والبدع والضلال، وقتل الكثير من رجال العلم، وخرّب المدارس والمساجد مواطن العبادة".

وأوضح «ابن كمال باشا» بأن الحرب التي ستُخاض من أجل استخراج هذا الخنجر الذي طعن به «الشاه إسماعيل» العالم الإسلامي، ستكون جهادًا في سبيل الله.



وقد شارك «ابن كمال باشا» أيضًا في حملة «السلطان سليم» على «مصر»، وبعد فتحها قام يعمل على تحرير أراضي «خايِرْ بكْ» وأراضي «مصر»، ومن الحوادث المشهورة تلطخ ثياب «السلطان سليم» بطين تنثر من رجل جواد «ابن كمال باشا» والتصرف النموذجي الذي قام به السلطان أمام تلك الحادثة.

كان «ابن كمال باشا» شخصًا حساسًا في المسائل الدينية، يبذل أقصى ما في وسعه من أجل الحفاظ على المبادئ الإيمانية، وقد تحاور وتناظر «ابن كمال باشا» مع بعض الأشخاص الذين، ساقوا المجتمع إلى أزمة بإفسادهم العقائد والعقول أمثال الـ«مُنْلا قَابِضْ» وقام بتطبيق العقوبات اللازمة عليهم، وبالتالي كانت له خدمات عظيمة في توفير السكينة والطمأنينة للمجتمع.

وبالرغم من أن الـ«مُنْلا قَابِضْ» كان مسلمًا إلا أنه استخف بشأن وشرف النبي ﷺ وأنكر فضله، وحاول نشر هذا في المجتمع لإفساده، ولهذا قُتل. ولكن لم يكن قتله هذا بشكل مباشر أو بدون مناقشة، بل استمع إلى آرائه كل من «ابن كمال باشا» و«سعد الله سعدي أفندي» قاضي «إستانبول» في الديوان العثماني. وبعد أن فندوا آراءه كلها واحدًا تلو الآخر وأفسدوها كلها أمام الجميع، حكموا عليه بأنه مخطئ، وطلبوا منه أن يتوب إلى الله ويعود عن هذا الذنب، حتى يُعفَى عنه، إلا أنه لم يتب. ونتيجة لتلك الهزيمة التي مُني بها في المناظرة، تولدت لديه حالة من الحقد النفسي، ولهذا استحق القتل.

والرباعية التالية التي نظمها «ابن كمال باشا» عن هؤلاء المفسدين الأشرار مشهورة:

إن الشريعة هي قصر الكبرياء
بناء متين، وهي ملك الحقيقة
ومَنْ حرّك حجرًا واحدًا من أحجارها
فإنه يستحق أن يقدم الرأس تضحية في سبيل إزالته



وكانت هناك علاقة خالصة وتـقرّب بين «ابن كمال باشا» وبين «السلطان سليم»، وقد استمرت تلك العلاقة والقربى في عهد «السلطان القانوني» أيضًا، وعندما كان يريد أن يحمي أو يرعى أحد رجال أهل العلم، كان يُخطر السلطان مباشرة بالأمر بدلا من أن يخطر الصدر الأعظم، بالرغم من أن هذا كان فيه خطورة على نفسه.

كان «ابن كمال باشا» تقيًا ذكيًا، متشرعًا، سريع الانتقال، يحب العفو، ولا يضمر الحقد لأحد، وعندما ترك «السلطان القانوني» لـ«ابن كمال باشا» مسألة معاقبة عالم كان يسعى للتقليل من شأنه (أي ابن كمال باشا)، عفى «ابن كمال باشا» عن ذلك الشخص برحمته وبأنه ما أراد أن يكسر خاطر أحد محبيه الذي طلب منه العفو للشخص المذكور.

وقد بذل ابن كمال باشا جهودًا كبيرة من أجل التصدي لفعاليات انتشار الفرق الباطنية، التي كانت تحت تأثير «إيران» في الأراضي العثمانية. كما أنه منع هؤلاء الناس من أن يُشبعوا جوع الناس إلى الحق والحقيقة بشكل مضل، أظهر أيضا طريق التصوف الحقيقي الذي يعني روح الشريعة، لهؤلاء الذين سقطوا في طريق الزندقة والباطنية. وعمل على تنوير الناس بآرائه التي تحقق التوازن بين الحقيقة والشريعة. وعدّ العلامات التي يلزم أن تكون عند شيخ مرب، ألا وهي:

١- أن يكون عالمًا بالقدر الذي يزيل الشبهات الدينية والدنيوية عند مريديه.

٢- أن يكون بعيدًا عن محبة الدنيا والميل إليها، وألا يكون أسيرًا للأهواء.

٣- أن يكون مستغنيًا، وألا يطمع فيما في أيدي الناس، والمريدين.

٤- أن تكون كل أقواله وأفعاله متوافقة مع الشريعة.

وإن لم تكن تلك الصفات في شخص ما وادعى أنه شيخ، فإنه في تلك الحال يكون متشيخًا، يعني شيخاً كاذباً زائفاً؛ لأن الوظيفة الأولى للشيخ والمريد هي معرفة الشريعة، وهي عبارة عن الامتثال لأوامر الله ورسوله، والابتعاد عما نهيا عنه.



أما نصائح وتعاليم الشيخ الذي جمع تلك الصفات في نفسه فتكون مقبولة، والشخص في تلك الحال يكون جديرًا بأن يكون خليفة لله ورسوله، وعكس ذلك يكون خليفة للشيطان.

مع هذا كان يعرف «ابن كمال باشا» أن التصوف بحر محيط لا ساحل له. فأوضح أن التحدث فيه دون معرفة علوم الشريعة والتصوف لن يعطي أية نتيجة صحيحة. والفتوى التالية في حق «ابن عربي» من الفتاوى المشهورة له: "إن مَنْ أنكره أخطأ، ومَنْ أصرّ على إنكاره فقد ضل. وقسم من المسائل الموجودة في كتبه معلومة لفظًا ومعنى، ومتوافقة مع القرآن والسُنة. والقسم الآخر منها يكون معلومًا فقط لأهل الباطن والكشف، أما لفهم أهل الظاهر فهو أمر خفي."

من جهة أخرى يروي لنا "ابن كمال باشا" تلك الرؤيا الصادقة المتعلقة بالمثنوي:

"لقد رأيت رسول الله ﷺ في منامي وكان يمسك المثنوي في يده، وقال لقد صُنفت العديد من الكتب المعنوية، إلا أنه لم يُصنف كتاب مثل المثنوي".

وعلى هذا نرى أن «ابن كمال باشا» الذي كان يتولى منصبًا رسميًّا مثل مشيخة الإسلام يتصدى للأخطاء، التي تتم باسم التصوف من جهة، ويعمل على استمرار طريق التصوف الحقيقي الصحيح من جهة أخرى. والبيت التالي نظمه «ابن كمال باشا» ليعرّف فيه التصوف:

إن التصوف هو التخلى كليًا عن النفس

وعدم الانزعاج من كلام الآخرين

وذلك لأنه ليس مخالفًا للتصوف ككل، بل مخالف للمظاهر الخاطئة في تطبيقه.

وبالرغم من تلك المكانة العلمية التي كانت لدى «ابن كمال باشا» فإنه كان شخصًا متواضعًا صاحب قلب صوفي، والوصية التي كتبها تعكس تلك الحقيقة في أجمل صورة:



"أوصي بأنه: إذا كنتُ في سكرات الموت، أن يجلس شخص بجواري ليقرأ القرآن بالتأني والتأمل، وأن يكرر كلمة الشهادة، وإذا قبض روحي فليقم أربعة عشر شخصًا بذكر كلمة التوحيد ٧٠ ألف مرة، ويهبوا ثوابها لي، وليتم التصدق بالمال عليهم. وليقم بتغسيلي شخص صالح لم يغسل ميتا قبل. ولا يؤمر بالصلاة علي النبي ﷺ جهرًا في جميع الجوامع، بل يكفي الصلاة علي النبي ﷺ في جامع الفاتح فحسب. وليتم تجنب كل الأشياء التي ليست من السُنة في جنازتي وليشيعوني بشكل متواضع. وليكن قبري في مكان مرتفع قليلا على الطريق في مقابر المسلمين، على ألا يتم تعلية القبر، وليضعوا حجرًا غير منحوت على القبر ليكون علامة فقط. وعندما أُدفن لا يُذبح شيء، بل يتم التصدق بالمال على الفقراء، وأوصي بخمسة آلاف أقجه تُدفع لشخص ليحج عني بها، وعليكم أن تقبلوا و تنفّذوا وصيتي هذه".

وعلى حسب تلك الرواية قال في آخر نفَس له:

لقد علمنا أن القدوم والرحيل حق

قد راح القدوم وأتى الرحيل والسلام

ثم أسلم روحه لبارئها.

وقد أرّخ لوفاته هذا الدعاء: "يا أحد! نجنا مما نخاف" رحمة الله عليه.

اللهم أحسن إلى أمة محمد بشخصيات كبيرة في ساحة العلم، واحفظ الدين المبين من كل أنواع البدع والضلالات والتحريف!..

آمين!..







رجل العلم والقانون والدولة الكبير

أحمد جودت باشا

(١٨٢٣-١٨٩٥م)

من الشخصيات الخالدة في الدولة العثمانية، ولد في قصبة «لُوفْجَه» في بلغاريا عام ١٨٢٣م، اسمه الأصلي «أحمد» أما «جودت» فهو مخلصه، وقد مُنح له هذا المخلص في سنوات دراسته أسماه به الشاعر «سليمان فهمي أفندي».

بدأ «أحمد جودت» التعلم في سن صغيرة، تعلم كل العلوم على يد كبار أساتذة عصره، كما تعلم اللغات العربية والفارسية والفرنسية والبلغارية، واستحق إجازة التدريس وهو لا يزال طالبًا، وهذا يدل على جهده ونجاحه بتوفيق الله تعالى.

طوّر «أحمد جودت باشا» نفسه في مجال الشعر والأدب أيضاً، وحصل على إجازة تدريس "المثنوي". وقد كان تميزه كرجل دولة وفكر وعلم كبير نتيجة لجهوده الخاصة وقابليته المستثناة. ونظراً لما أخبر عن نفسه، أنه حتى في أوقات العطلة كان يداوم على قراءة الكتب بشكل مستمر، ولا يتوقف إلا في أيام العيد فقط.



لم يهمل «أحمد جودت» الذي أكمل تعليمه الظاهري بهذا الشكل، التعليم المعنوي أيضًا، فقد كان يداوم على حضور جلسات الشيخ «قُوشْ أطَه لِي إبراهيم أفندي». ولعل السبب الأصلي الذي وجهه لأن يكون ثابتًا في العلم هو الإرشاد المؤثر الحكيم لأولياء الله تعالى.

وتذكر الروايات أن«أحمد جودت باشا» أراد في شبابه أن يتقدم في طريق التصوف الصرف بأن يكون درويشًا من دراويش تكية «عزيز محمود هدائي». وقد قام بعمل المراجعات اللازمة من أجل تحقيق تلك النية، إلا أن شيخ التكية وجهه إلى ناحية معينة بعد أن وصل إلى مراقبة وتفكر متعمقين فقال:

"يا بُني! تنتظرك وظائف كبرى في خدمات الدولة وفي العلوم الظاهرية بالاستعداد الذي أعطاه الله لك، وستكون همتنا لك في هذا المجال، ونأمل أن تستفيد أمة محمد منك بهذا الشكل أكثر!.."

وعليه كان هذا الإرشاد هو السبب في تكوين «أحمد جودت باشا» الخالد!.. إن هذا الإرشاد هو الذي وجهه لأن يدير الخدمات الكبرى التي كانت تنتظره لقابليته الخاصة، ولأنْ يكون مريدًا مع الحق بين الخلق. ولم يوجهه لأن يكون مريدًا ينتظر في التكية.

وبهذا الشكل تولى «أحمد جودت باشا» الذي نضج في تحصيل العلوم المادية والمعنوية، قضاء «بِـرَه مَدِي» التابعة لقضاء عسكر الروملي وهو في الثانية والعشرين من عمره، وبعدها بسنة حصل على درجة «رؤوس إستانبول» في التدريس، وبدأ يدرس في المساجد في «إستانبول».

وبالرغم من أنه كان يأمل قضاء حياته في الخدمات العلمية بالراتب -اليسير الكافي- الذي كان يتقاضاه من المدارس، إلاّ أنه وجد نفسه في القضايا السياسية، وأصبح متعلقًا بها بالضرورة. وكانت النتيجة الطبيعية لعلمه المتعمق، وقوة إقناعه، وتميزه بالوقار والخبرة أنه تولى العديد من الوظائف المهمة في الدولة العثمانية، وفي النهاية رُقي إلى درجة «ناظر العدل».

ولا شك أن أهم خدمة قام بها الباشا في تلك الوظيفة هي إعداد النصوص القانونية المسماة بـ«مجلة الأحكام العدلية» بدراية وتوفيق.

وعندما كان «أحمد باشا» ناظرًا للعدل تصادف هذا الوقت مع وقت تحديث المؤسسات العثمانية، والميل إلى إعطاء الشكل الأوروبي لها. وقد كان هذا الميل مؤثرًا على الحياة القضائية أيضًا. وقد وصل هذا التأثير إلى صفحة ما، وهي أنه ظهرت رغبات في أخذ قوانين غربية بدلاًمن أحكامنا وحقوقنا التي تحمل السمة الدينية والوطنية في الوقت نفسه، والتي اُستقيت من أعرافنا التي تشكلت قبل عدة عصور.

إلا أن «أحمد جودت باشا» أظهر فراسة وبصيرة كبيرتين بخصوص هذا الميل، ولم يجد من الصواب قط الانسياق خلفه، واتخذ موقفًا تجاه هذه الآراء الخاطئة؛ لأنه كان يدرك تمامًا المحظورات التي ستظهر في الحالة العكسية.

ونتيجة لتلك الجهود في هذا المضمار ظهر أول قانون مدني إسلامي يطلق عليه (مجلة الأحكام العدلية) أو «المجلة» باختصار، وكانت عملا كبيرًا وعظيمًا أعدته هيئة علمية يترأسها «أحمد جودت باشا» نفسه.

وكما هو معلوم أن القانون الإسلامي، قانون مختص بالمسائل. وهذا يعني أنه قانون يربط بين كل الاحتمالات التي قد ترد إلى العقل بالاجتهاد؛ لأن القانون الإسلامي وضع بشكل يزيل الاحتياجات الإنسانية حتى يوم القيامة. ولهذا السبب يجب تقييم التحديثات دائماً وفق القواعد الأساسية للإسلام، وربطها بالأحكام. ولهذا فتح القانون الإسلامي باب الاجتهاد، وأوضح أن هذا الباب سيظل مفتوحًا إلى يوم القيامة. والاجتهاد لا يكون إلا عند فقدان النص، أو عدم وجود النص، لأن الدين لو صرح أو سمح بالاجتهاد مع وجود النص لتغير محتوى الدين من عصر إلى عصر، وبالتالي أصبح يشبه الأديان المحرفة. ولهذا فإن هناك قاعدة إسلامية تقول بتغير الأحكام بتغير الأزمان، وهذا خاص بالأحكام التي لا يوجد فيها نص.

وقد حث ديننا على القانون - بالتعبير الاصطلاحي، «الفقه» - باعتباره ركنًا

أساسيًّا لانتظام الحياة والمجتمع. وهناك حديث شريف يدل على عظم الفقه، حيث يقول النبي ﷺ :

«**مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خيرا يُفَقِّههُ فِي الدِّين**» (البخاري، العلم، ١٠)

لا سيما وأنه تم إيضاح أن المجتهد إذا أصاب له أجران، وإذا أخطأ له أجر واحد. وقد كانت تلك القواعد الإسلامية سببًا في تطوير الاجتهاد، وفي ظهور نشاطات علمية في تلك الساحة الفقهية الكبيرة على مدار التاريخ الإسلامي. وبناء على ذلك أصبحت مجموعة الاجتهادات بحراً شاسعاً في كثرتها. وبذلك أصبح استخراج الاجتهاد الأنسب في الاختلافات الواقعة أمراً صعباً.

ولهذا قام رجال الدولة ذوو الأفكار المختلة بترجمة القانون المشهور باسم «قانون نابليون » الذي وضع في عهد «نابليون» وأظهروا ميولا لتطبيقه في الدولة العثمانية، لا سيما وأن التنظيمات فتحت الباب لهم لهذا الاقتباس.

إلا أن «أحمد جودت باشا» الذي كان شاهدًا على تلك المباحثات والمناقشات، كان مخالفًا لتلك التحركات لغيرته الدينية. ورأى ضرورة وضع نص قانوني شامل واضح بدلاً من ضياع الحاكم داخل هذا الخضم الكبير من الاجتهادات. وحينئذ قال:

"يمكننا أن نصنع ذلك في قانوننا!".

لم يكن الفساد قد وصل بعدُ إلى كمال ذروته، لذا حصل «أحمد جودت» على مساندة بعض رجال الدولة وعلى رأسهم «السلطان عبد العزيز». وبذلك أسس المجلة، وقضى على تلك الرغبات، التي كانت تنادي بجعل الدولة تسير على النظام الأوروبي.

إن الإسلام ليس ثوريًّا، بل تكامليًا. وكان هذا التطور بمثابة الثورة الجادة في ساحة القانون الإسلامي. إلا أنه لم يُرَ بأس في كل تلك الأحكام؛ لأنها كانت موضوعة وفق المحتوى الشرعي، ومن خلال الاجتهادات التي قام بها المجتهدون قبل ذلك.



من ناحية أخرى كانت تلك الحركة نوعاً من "تلفيق المذاهب" (أي جمع اجتهادات المذاهب). فبالرغم من ذلك لم يعتبر العلماء المتمكنون في ذلك العهد هذا الأمر محظورا. فإن عدم جواز التلفيق المذكور نابع من الخوف في جمع الرخص والتساهلات التي تكون سبباً لاستغلال الدين. والاجتهاد هنا لا يرجح لسهولته، وإنما يرجح؛ لأنه الأفضل لتطابقه مع مصلحة اليوم.

وإضافة على ذلك، لو كانت الأمة مختلفة المذاهب، وأمر ولي الأمر بأن تسير الأمة كلها على اجتهادات معينة أو مذهب معين، فإن كل شخص في الأمة في تلك الحال مكلف بتطبيق هذه الاجتهادات أو هذا المذهب. لأن الاجتهاد يكون في المسائل التي لم يرد فيها نص، وهذا هو الاستثناء الوحيد في القانون الإسلامي للقاعدة العمومية التي تقول:

"الاجتهاد لا يُنقض بالاجتهاد".

ولهذا فإن مجلة الأحكام العدلية التي كانت عبارة عن مجموعة من القواعد التي أقرها المجتهدون دخلت حيز التطبيق دون الإخلال بأي قاعدة إسلامية بعد تصديق «السلطان عبد العزيز» بصفته خليفة المسلمين. وبالرغم من أن «المذهب الحنفي» كان أساسًا لتلك المجلة، إلا أنه كان بها قواعد أخرى مبنية على المذاهب الأخرى، حتى إن تلك القاعدة شملت كل المذاهب القانونية التي كانت موجودة في الكتب، والتي لم تكن تُطبق.

وقبل تأسيس المجلة كانت الأحكام الفقهية الشافعية تشمل المنطقة الشافعية فقط، والأحكام الفقهية الحنفية تشمل المنطقة الحنفية فقط، ولكن بعد تأسيس المجلة لم يعد لهذا وجود، بل كانت المجلة هي الأساس المرعي عند الجميع.

تم إعداد المجلة في عشر سنوات تقريبا، وكانت تتكون من ١٨٥١ مادة، ولا شك أن هذا يجعل منها أعظم حادثة ظهرت في التاريخ من الناحية القانونية. وبإصدار مثل هذا النص القانوني، قام العلماء المنصفون بـ«أكاديمية العلوم الفرنسية» بإهداء

«أحمد جودت باشا» ميدالية ذهبية بالرغم من أنه رفض الأخذ من القانون الفرنسي، وذلك لكونه رئيسًا للهيئة التي أعدت المجلة.

بعض العلماء لا يذكرون المجلة ضمن أعمال «جودت باشا»؛ لأنها لم تكن عملا منفردًا له، بل كانت نتاج مجموعة، والذين يقولون تلك المقولة ينسون أنه بدون «أحمد جودت» في ذلك العهد لما كان لتلك المجلة أن تظهر.

ومن المهم جدًّا هنا أن نظهر أن الجدال الذي قام به الباشا مع من كانوا يريدون الأخذ من القانون الفرنسي المدني قبل ظهور هذا النص القانوني، وخاصة مع الخونة أمثال الصدر الأعظم «على باشا» والسفير الفرنسي «دُو بُورَه» كان جدالا مهمًّا للغاية. وأهم ما في هذا الجدال هو جهوده التي بذلها من أجل الإقناع بضرورة إعداد نص قانوني يتوافق مع البنية الاجتماعية العثمانية، بدلًا من الأخذ من القانون الفرنسي، وجهوده في هذا الطريق حتى نهايته، و ضمانة تأمينه إتمام المجلة. ومن ناحية أخرى يعدّ هذا التأليف أول قانون مُعدّة على الفقه الإسلامي في الدول الإسلامية.

وبعد أن طُبقت المجلة لسنوات طويلة في الدولة، فقدت مكانتها القانونية بعد قيام الدولة التركية بترجمة القانون السويسري الذي بدأ تطبيقه رسميًّا في تركيا في ٤ أكتوبر ١٩٢٦م.

وبالرغم من هذا، ظلت المجلة تُطبق كقانون مدني في المحاكم العلمانية الحديثة في البلدان المنفصلة عن الدولة العثمانية. فاستمرت في «لبنان» حتى عام ١٩٣٢م، وفي «سوريا» حتى عام ١٩٤٩م، وفي «العراق» حتى ١٩٥٣م، وفي «فلسطين» حتى عام ١٩٦٨م، كما استمرت لفترات طويلة في «الأردن» و«قبرص».

لقد كانت المجلة عملا قانونيًّا عظيمًا، وبالرغم من أنها فقدت مكانتها، إلا أن الكثير من موادها كان يُطبق بصدد الحقائق التي لم يكن من الممكن تصور عكسها عقلا أو منطقًا أي (المبدأ العام للقانون)، حتى وإن كان ذلك لا ينعكس على نص القانون الحديث.

وبالأخص، القسم الذي يشتمل على مقدمة المجلة، يعني أول مائة مادة تحمل عنوان "الأحكام العمومية".

وهذه مجموعة من القواعد العامة في المجلة:

١- العادة مُحَكَّمَة:

وهذه هي قاعدة في المجلة تكونت من كلمتين صغيرتين. إلاّ أنها لا تزال تلبي حاجة كبيرة كمبدأ عمومي للحقوق. ومن ذلك على سبيل المثال لو ظهر اختلاف في اتفاق أو عقد، بسبب أمر لم يوضح بين الأطراف المعنية، فإن الذي يُطبَّق عادةً في تلك المنطقة يكون أساسا لحل الاختلاف. لأن الشيء الذي يطبق عادة يعتبر معلوما عند الأطراف المعنية.

٢- المثل السيئ لا يمكن أن يكون مثالاً:

وهذه أيضًا قاعدة قانونية تتكون من ثلاث كلمات، وهي قاعدة منطقية، ونافذة. وهذا يعني أنه لا يمكن اعتبار الأحداث التي تمثل ذنبًا أو جرمًا مثالا للتصرف بمثل هذا التصرف، فلو سُئل لص: "لماذا سرقت؟" فقال: "لأن فلانًا سرق" فهذا لا يعذر.

٣- الأصل براءة الذمة:

وتعني الشخص بريء حتى تثبت إدانته.

٤- اليقين لا يزول بالشك:

"فالشيء المعروف معرفة مطلقة، لا يمكن الحكم على عدمه لمجرد شبهة". فبعد معرفة ثبوت الشيء يقينًا، يُحكم عليه بالثبوت طالما لم يظهر دليل على عكس ذلك. ولا يكون هناك تأثير للشبهة التي تطرأ عليه.

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (يونس، ٣٦).

وهذه القاعدة نافذة ومعتبرة في كل الأحكام كالعبادات والمعاملات والعقوبات.



فلو شك شخص بعد وضوئه، هل انتقض الوضوء أم لا، فالأصل أنه على وضوئه. لكن لو شك في وضوئه من عدمه بعد انتقاض الوضوء، فإنه في تلك الحال لا يُعتبر متوضأ ويلزمه الوضوء.

ولو أبرأ شخص شخصًا آخر مدينًا له بدين، وقال له أنا أبرؤك من الدَّين، ثم شك بعد ذلك وقال له أنت مدين لي، فإن الإبراء في تلك الحال يكون هو النافذ، ولا دَينَ على الرجل.

٥- يختار أهون الشرين:

فلو اضطر شخص لأن يقع في أحد الشرين فإنه يختار أخفهما، ويترك الآخر، والشر هنا يعني الشيء الذي لا يتفق مع الشرع الشريف.

وقد كانت تلك القاعدة وسيلة لإيضاح حادثة (قتل الأخ) التي كانت أكثر نقاشًا وجدلا في الدولة العثمانية.

٦- يتحمل الضرر الخاص لِدفع الضرر العام:

فالطبيب الجاهل يُمنع من أداء وظيفته. ومن ذلك أنه عندما ترتفع الأسعار بشكل كبير فإنه يمكن للقاضي أن يستشير أهل الخبرة من أجل الحفاظ على الأسعار في مرتبة معينة.

٧- درأ المفاسد أولى من جلب المنافع:

وذلك لأن عناية الدين بالتحرز عن المنهيات، أكثر من عنايته بالأوامر. إلا إذا كانت جهة المنفعة أعظم، فإنه لا يُنظر إلى وقوع المفاسد في تلك الحال.

ومثال ذلك أن قول الكذب مفسدة كبيرة، ولكن إذا كان لإصلاح ذات البين فإن منفعته حينئذ تكون أكبر، وبالتالي يكون الكذب جائزًا. ومن ذلك إذا افتتح محل لحداد بجوار منزل، وكان هذا المحل يؤذي المنزل ويلحقهم ضررا كبيراً، فإنه في تلك الحال يمكن إغلاق هذا المحل؛ لأن ضرره أكبر.

٨- الأمر إذا ضاق اتسع:

وتتضمن تلك القاعدة نفس حكم القاعدة السابقة. فإذا عرض ضيق فجأة على شخص أو جماعة، فإنهم يعاملون بالسعة حتى تنفرج تلك الضائقة عنهم. فالشخص المتعثر في أداء دينه يُعطى مهلة من أجل أداء هذا الدين. وعندما يزال هذا الضيق يعود الحكم إلى أصله.

٩- المشقة تجلب التيسير:

وهذه القاعدة من أهم قواعد الفقه. فمعظم الرخص التي أظهرها الفقهاء الكرام بالأحكام الشرعية مأخوذة من تلك القاعدة. ومن ذلك أنهم أعفوا الناس من غسل الملابس إذا ما اتسخت أثناء المطر، لأنه ليس هناك سبيل للهروب من هذه المياه المتجمعة في الطرقات.

وقبول شهادة النساء في الأمور التي لا يمكن للرجال الاطلاع عليها من الأحكام الفرعية لتلك القاعدة.

إلا أنه لكون المشقة سببًا في التيسير، فإنه يجب أن تكون مختلفة عن المشقة الموجودة في العبادات عادة. ومن ذلك على سبيل المثال ترك الوضوء في الأيام الباردة، أو ترك الصيام في الأيام الحارة فهذا ليس فيه تيسير، ولا يكون سببًا للتيسير، وكذلك في الأمور المنصوص عليها بدليل قاطع، لا يمكن عمل خلاف ما ورد في النص متعللا بالمشقة.

ويمكن الإكثار من الأمثلة المشابهة لذلك.

ولم يكن «أحمد جودت باشا» من أكبر علماء عصره في الناحية القانونية فحسب، بل كان عالمًا أيضًا في التاريخ وفي العلوم الأخرى، وله أعمال كثيرة تدل على أنه صاحب شخصية مفكرة وعالمة.

كان «أحمد جودت باشا» من كُتَّاب وقائع العهود الأخيرة للدولة العثمانية. وله تاريخ للدولة العثمانية في تسعة مجلدات باسم «تاريخ جودت» وله أيضًا في

علم التاريخ «التذاكر» و«المعروضات». وهذه الأعمال كلها تظهر قيمته من ناحية فلسفة التاريخ، ومن ناحية تعمقه في علم التاريخ. ونظرا لجانبه التاريخي لقبه بعض الباحثين بـ"طوينبي العثمانيين".

أما عمله القيم المُسمى "قصص الأنبياء" والذي كتبه بحساسية شرعية كبيرة فقد كان مصدرًا كبيرًا قيمًا، بمثابة المصدر الأساسي لكل الأعمال، التي تمت من بعده على نفس الشاكلة.

ومن آثاره الفعلية أيضًا ابنته «السيدة فاطمة عليّة» وهي واحدة من مشاهير نساء الأتراك بأعمالها التي تحمل قيمة علمية كبيرة متعمقة مثل والدها.

خلاصة القول: إن «أحمد جودت باشا» بتعمقه في العلم والفكر وأخلاقه كان واحدًا من الشخصيات الشامخة التي كانت نموذجًا جيدًا للعلماء العثمانيين في العهود الأخيرة. أما متانة آرائه السياسية فهي ثابتة بمساندته للسلطان «عبد الحميد خان». فقد كان «جودت باشا» دائمًا ضد الملعنة التي كانت تتم باسم المشروطية والتنظيمات، حتى إنه لعب دورًا مهمًّا في محاكمة «مدحت باشا» في قصر «يلديز» بصفته ناظرًا للعدل.

وبقدر ما كان «جودت باشا» قويًّا في الجبهة الاجتماعية، كان أيضًا أبًا حنونًا على الأطفال وزوجًا وفيًّا لأسرته، فبالرغم من انشغاله بأعمال الدولة لم يهمل أسرته. واللافت للانتباه أنه أظهر تعمقًا في مفهوم العدالة والحق معهم. عاش الباشا حياة متواضعة مع ابنه وابنتيه.

عاصر «أحمد جودت باشا» أربعة سلاطين عثمانيين (عبد المجيد، وعبد العزيز، ومراد الخامس، وعبد الحميد الثاني) وتُوفي عام ١٨٩٥م، وكانت وفاته مثل أفول نجم من النجوم التي أضاءت سماء الوطن.

ولم تكن جنازته كجنازة بعض الباشوات الآخرين. بل كانت جنازته مهيبة شارك فيها كل أبناء الوطن؛ لأنهم أحبوه من أعماق قلوبهم، وحفروا في قلوبهم



عرشًا له، ودفنوه في فناء مسجد الفاتح، وهم يدعون له بالرحمة.

وقد كُتب على شاهد قبره:

كان «ابن كمال» عصرنا

وا أسفاه! لقد ترك الحياة.

رحمة الله عليه!..

اللهم أحسن إلينا من جديد بشخصية لها هذه السمات الممتازة التي تعمل على نصرة ومساعدة الإنسان ماديًّا ومعنويًّا في وقتنا هذا الذي نحن في أمس الحاجة فيه إلى شخصيات تراثية في الساحة العلمية والسياسية كأحمد جودت باشا.

آمين!...







من البَــرّ إلى المحيط

حتى يتسنى لدولة كبيرة أن يكون لها دور عالمي، عليها أن تهتم من - الناحية الاستراتيجية - بقواتها البحرية بقدر ما تهتم بقواتها البرية. ولهذه الضرورة رأينا في بداية التاريخ الإسلامي أن الدولة الإسلامية شعرت بالحاجة لتخطي البحار في فتوحاتها، عندما توسعت الفتوحات وسارت إلى «تركستان» من ناحية، وإلى «شمال أفريقيا» من ناحية أخرى. وقد كان أول فتح بحري على يد «معاوية بن أبي سفيان»، في عهد أمير المؤمنين «عثمان بن عفان» ﵁، وهو فتح جزيرة «قبرص».

وذلك لأن إعلاء كلمة الله ﷻ كانت تستوجب هذا، وقد حث الرسول ﷺ أمته على ذلك فقال:

«غَزْوَةٌ فِي الْبَحْرِ مِثْلُ عَشْرِ غَزَوَاتٍ فِي الْبَرِّ وَالَّذِي يَسْدَرُ فِي الْبَحْرِ كَالْمُتَشَحِّطِ فِي دَمِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ» (ابن ماجة، الجهاد ١٠)

وذات يوم كان رسول الله ﷺ ينام عند أم حرام فاستيقظ وهو يبتسم، فلما سألته أم حرام عن سبب ذلك، قال:

«نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَرْكَبُونَ الْبَحْرَ الْأَخْضَرَ فِي سَبِيلِ اللهِ مَثَلُهُمْ مَثَلُ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّة" وقد تبسمت لهذا» (البخاري، الجهاد، ٣)



كانت غاية الدولة العثمانية إعلاء كلمة الله ﷻ، أي الجهاد في سبيله من أجل نشر الدين لذا شعرت الدولة منذ السنوات الأولى لها بالاحتياج إلى القوة البحرية وإلى أن يكون لها أسطول بحري، وقد تحقق لهم العبور إلى الروملي في سبيل حصار بيزنطة من الخلف. وتذكر الروايات أن «سليمان باشا» فاتح «الروملى» لما وصل إلى سواحل «الدردنيل»، بدأ يفكر في حيلة يعبر بها إلى الضفة الأخرى، ولم يكن لديهم الخبرة بعد في بناء السفن لذا ربطوا الأخشاب بعضها ببعض وركبوها وساروا بها وهم يتلون الآية الكريمة:

﴿...**بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا**...﴾ (هود،٤١)

وبذلك وضعوا أقدامهم ولأول مرة على أراضي أوروبا.

وبالرغم من هذا لم يشعر العثمانيون في العهود التالية لهذا العهد مباشرة بالاحتياج إلى البحث عن سبل لبناء أسطول كبير لهم، وعمل إنجازات بحرية، دون إتمام الفتوحات البرية أولاً. ولهذا رأينا العثمانيين لم يتدخلوا بالشكل اللائق عندما انهدمت الدولة الأموية في الأندلس بسبب عدم وجود أسطول كبير لديهم.

حتى في عهد «السلطان سليم الأول» لم يشعر العثمانيون بحاجة ماسة إلى إيجاد أسطول كبير؛ لأنهم تمكنوا من فتح مصر بالتحركات البرية.

أما في عهد سليمان القانوني، فقد كانت الفتوحات البرية سواء كانت في الشرق أو الغرب قد بلغت ذروتها. كان هناك احتمال بأن تتعرض الدولة لأية هجمات من ناحية البحر، عندئذٍ ظهرت الحاجة لبناء أسطول قوي لمواجهة أي اعتداء بحري. وقد أنعم الله تعالى على الدولة العثمانية في ذلك العهد بقادة في البحرية كبارٍ كانوا يُلَقَّبون بذئاب البحر، وبذلك ظهرت في الدولة العثمانية سلسلة من أمراء البحرية الأقوياء الذين كانوا يمثلون القوة العثمانية في البحار.

ويأتي على رأس هؤلاء القادة بلا شك «خير الدين بَارْبَارُوسْ» ذلك القائد البحري الذي لم يكن له مثال في التاريخ.







البطل الذي لا نظير له والذي كتب في البحر الملاحم بإيمانه،
وحوّل البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة عثمانية

بارباروس خير الدين باشا

(١٤٦٦ - ١٥٤٦م)

إنه قائد البحرية الرائع الذي جعل الدولة العثمانية حاكمة للبحار.

اسمه الأصلي «خِضِرْ» وقد سُمِّي "خيرالدين" لكثرة أعماله الخيرية وخدماته الكبرى التي قام بها في سبيل الدين والدولة في عهد «سليمان القانوني». أما كلمة «بارباروس» التي تعني صاحب اللحية الحمراء فقد أطلقها الأوروبيون.

والده هو الفارس الشجاع «يعقوب أغا» من إحدى الأسر التي أسكنها الفاتح في «مِدِيلْلِي». كان لـ«خير الدين باشا» ثلاثة من الأخوة هم: «إسحاق» و«أُورُوجْ» و«إلياس».

❀



وقبل أن يرفع «خضر» و«إلياس» و«أُورُوجْ» رايات الجهاد، كانوا يشتغلون بالتجارة البحرية، إلا أن عملهم هذا كان يتعرض لمخاطر كبرى في البحر المتوسط، حتى أن «أُورُوجْ» أُسِرَ ذات يوم على يد قراصنة «رُودُسْ».

ولهذا بدأ «خِضِرْ رئيس» يبحث عن سبل لهذا الوضع، قائلاً:

لما جاء أمر «كُنْ» لا مفر منه

سوآء قلبك ضيق أم واسع!

وبالرغم من أنه أنفق الكثير من الأموال لكي ينقذ أخاه من الأسر، إلا أن أسر أخيه استمر طويلاً بسبب خداع القراصنة الكذابين الذين لا يوفون بعهودهم. ولم يكتفِ القراصنة الكفار بذلك فحسب، بل أرسلوا «أُورُوجْ بَكْ» إلى أحد القساوسة لتنصيره، فقال لهم «أُورُوجْ رَئيسْ»:

"أيها الغافلون! كيف لي أن أترك الدين الحق وأنتسب إلى دين باطل؟"

فقال له القراصنة الغاضبون:

"إذًا لننظر هل سيأتي محمد لنصرتك ونجاتك أم لا؟"

وربطوه بالسلاسل، على قارب، ليقوم بالتجديف.

فقال لهم «أُورُوجْ رئيسْ»:

"سترون كيف سينصرني نبيي محمد ﷺ" والتجأ إلى الله ﷻ.

وبعد فترة رأى القراصنة أناسًا يلبسون بثياب بيض وعلى رءوسهم عمائم خضراء يحلون أغلاله، ثم ألقوا به في البحر، وبذلك تخلص «أُورُوجْ» من الأسر، وبذلك ظهرت بركة جلادة الإيمان والإذعان وبركة التوكل.

بدأ «أُورُوجْ» و«خِضِرْ» بعد تلك الحادثة حملة على القرصنة البحرية الموجودة في البحر المتوسط، وبعد فترة قصيرة تجمع حولهما الكثير من البحَّارة الذين كانوا هم الذئاب البحار، وخرجوا جميعًا إلى البحر قائلين:

"إنه وقت الغزو، بسم الله دومًا!".

وبمرور الوقت كان ظِلُّ راية الجهاد المذكورة يتسع، واكتسب «أُورُوجْ» و«خِضِرْ» انتصارات مشرفة ضد السفن الإسبانية والفرنسية والبندقية، ولفّت قوتهم وشهرتهم أوروبا كلها، وأفاق أباطرة أوروبا من سباتهم، وفي النهاية تمكن هؤلاء البحَّارة من فتح «الجزائر»، وتأسيس دولة لهم هناك.

وتم إعلان «أُورُوجْ رئيس» الذي كان لقبه بين البحارة "الوالد" سلطانًا في الجزائر، لقد كتب المذكور مع أخيه العديد من الملاحم البحرية ضد الأعداء، وبذلك ظهرت في البحر الأبيض المتوسط قوة مدهشة، بفضل رجولة «خضر رئيس» في إدارة الدولة.

كان «أُورُوجْ» و«خِضِرْ» على علاقة بـ«السلطان سليم الأول» السلطان العثماني في ذلك الوقت، واعتبروا دعاء «السلطان سليم» لهم تقوية معنوية، وكانوا يتبادلون الهدايا فيما بينهم، وكان «السلطان سليم» يدعو لهم قائلاً:

"اللهم بيّض وجوه هؤلاء المجاهدين في الدنيا والآخرة، واجعل سيوفهم في البحر المتوسط قوية، وانصرهم دائمًا على الفرنجة".

وبذلك اعتبر الأخوان «أُورُوجْ» و«خِضِرْ» ومن معهم دعاء السلطان بمثابة التقوية المعنوية، وكانوا يخرجون إلى البحر للجهاد قائلين "الله، الله"، وعندما كان يسمع أعداؤهم الفرنجة ذلك كانوا يفرون من أمامهم وهم يقولون:

"الأسد منقذ رأسه والقبطان منقذ سفينته".

وما أجمل ما قال الشاعر في ذلك:

مهما كان قطيع الغنم كثيرًا

فيكفيه جزار واحد

وكانت النتيجة من ذلك كله أن أصبح مجرد ذكر اسم أسرة «بَارْبَارُوسْ» يعني النصر، ودارت الأيام على هذا المنوال. و إذا بـ«أُورُوجْ رئيس» يتجرع كأس الشهادة في إحدى المعارك الضارية بينه وبين «الإسبان». رحمة الله عليه.

إلا أن حملة الجهاد التي بدأت على أيديهما لم تقف، حيث حمل أخوه «خِضِرْ رَئِيسْ» على عاتقه راية الغزو والجهاد في البحار من بعده، وبذلك تم تسليم البحر المتوسط لـ«خِضِرْ رَئِيسْ».

كان «خِضِرْ رَئِيسْ» جريئًا مثل أخيه الكبير وإلى جانب ذلك كان يتمتع بصفات التدبير والاحتياط والحذر، هذه الحالة كانت موهبة خاصة له ولذا قيل ذات مرة لأخيه الكبير «أُورُوجْ رئيس» معنويا المقولة التالية:

"إن أخاك «خِضِرْ رَئِيسْ» مقدم عليك من حيث التدبير حذار أن تترك الرجوع إلى تدبيره"

ولذلك فقد احتل مكانه بين الشخصيات العظيمة في تاريخنا بعد أن قطع المراحل العديدة في زمن قصير. ويمكن القول بأن حركة الجهاد من أجل التوحيد والإيمان، التي بدأت في البحر المتوسط على يد «أُورُوجْ رَئِيسْ» واستمرت من بعده على يد «خِضِرْ رَئِيسْ» كانت أحد العوامل المهمة في جعل القرن السادس عشر عصر الأتراك.

كان «أُورُوجْ رَئِيسْ» الذي يمثل القوة التي أخرجت من الغزوات البحرية دولة، صاحب شجاعة مدهشة. وكان «خِضِرْ رَئِيسْ» يتمتع بتلك الصفة أيضًا، ويزيد عنها بأنه يحافظ على التوازن والتدبير والحذر.



وقد اعتقد «الإسبان» أن «خِضِرْ رَئِيسْ» قد ضعف بعد استشهاد أخيه «أُورُوجْ» الذي كان يمثل أكبر عون له، فأعدوا أسطولا ضخمًا ووصلوا به إلى الجزائر، وطلبوا من «خِضِرْ رَئِيسْ» أن يسلمهم قلعتها، ولكنه أجابهم بقوله:

"يا أعداء المسلمين! لن أسلم لكم القلعة، بل لن أسلم لكم حصاة واحدة من على سواحلها"، ثم قاتلهم، وشتت أسطولهم.

ونتيجة لهذا الانتصار الذي حققه «خِضِرْ رئيس» على «الإسبان» أحبه الأهالي جدًّا، ودعوا له بالنصر قائلاً:

"كان اسمه خضرًا وهو خضر فعلا، نرجو الله أن يديم وجوده معنا."

❀

فكر «خِضِرْ رَئيسْ» بأنه سيأتي اليوم الذي ستضعف قوته إذا ما استمر بمفرده، فأرسل الهدايا إلى «السلطان سليم الأول» في عام ١٥١٩م، واقترح عليه أن يجعل الأراضي التي تحت حكمه تحت سيادة الدولة العثمانية، وقد شعر «السلطان سليم» بالسعادة البالغة من هذا التصرف الذي قام به «خِضِرْ رَئِيسْ» لما فيه من الحفاظ على وحدة العالم الإسلامي، وعيّنه «أمير الأمراء» على الجزائر، وأرسل له راية و٢٠٠٠ جندي انكشاري، وعددًا من المدافع إضافة إلى مساعداته المختلفة، كما سمح له بجمع الجنود من الأناضول.

وقد مر على التاريخ الإسلامي شخصيات ثلاثة تحركت بفراسة وتضحية كبيرة لم يُرَ مثلها في التاريخ من أجل الحفاظ على وحدة العالم الإسلامي، وتركوا بذلك ذكرى عطرة جميلة لِمَنْ بعدهم.

أولهم: «الحسن بن علي» رضي الله عنهما حفيد النبي ﷺ، فقد تنازل «الحسن» عن الخلافة لـ«معاوية» رضي الله عنه بعد أن قضى فيها ستة أشهر فقط، وذلك حتى لا تحدث تفرقة أو انقسام في العالم الإسلامي، وبذلك جنّب الدولة الإسلامية والمسلمين معارك كانت ستسفك فيها الكثير من دماء المسلمين.

الثاني: هو «إدريس البِـتْلِيسي» الذي ربط أيالات الشرق بالدولة العثمانية دون استخدام للسيف، وبالرغم من أن «السلطان سليم» أعطاه صلاحيات كبيرة، إلا أنه لم يكن يقدم على فعل إلا بعد استشارته.



الثالث: هو «بارباروس خير الدين باشا» الذي كان حاكمًا على «الجزائر» وعلى بعض الأماكن الأخرى، ولكنه لم يرغب في تحقيق سلطة أو سيادة شخصية لنفسه، وراح طواعية يضم بلاده إلى سيادة السلطان العثماني، الذي كان يعتبر في ذلك الوقت هو خليفة المسلمين حتى يضمن وحدة العالم الإسلامي، ورجح أن يكون مكلفًا من قبل الحاكم، بدلا من أن يكون حاكمًا على بلدة كبيرة.

والكلمات التالية التي قالها لبحّارته تمتلئ بالحكمة والفراسة:

"يجب إعطاء السيف حقه، وطالما أن هناك خليفة للمسلمين، فبإمكاننا أن نكون عونًا ودعمًا للإسلام، فلماذا نبقى بمفردنا في الجزائر؟ إلى متى سنقف ضد هؤلاء النصارى الذين يكنون العداوة والبغضاء للمسلمين في كل مكان؟ ولتعلموا أننا في حاجة إلى قوة تعيننا على هذه المهمة التي حملناها على عاتقنا، وهذا شرط لإعلاء كلمة الله التي هي وظيفتنا المقدسة، إنني أريد أن تُقرأ الخطبة في تلك البلاد باسم خليفة المسلمين، وأن تُسك العملة باسمه، طالما أني في هذه المحافظة. ولهذا يجب ضم هذه البلاد إلى هذا السلطان العظيم «السلطان سليم خان» تاج الملك العثماني."

ولما وصل هذا الخبر إلى «إستانبول» استقبله «السلطان سليم» بسعادة ورضاء كبيرين وقال:

"«خِضِرْ رَئيسْ» من رعايانا وهو ابن أحد رعيتنا من قبل، ولهذا فقد قبلت ما قام به على الرأس والعين ".

وعلى الفور جمع «خِضِرْ رَئيسْ» البحارة حوله، وأسس أسطولًا يتكون من أربعين سفينة.

وبذلك قام «خِضِرْ رَئيسْ» بفعالياته براحة أكبر باعتبار هذا المنصب الجديد الذي مُنح له، وأصبح لا يسمح للأعداء أن يفتحوا عيونهم. فأرسل «شَارْلْكَنْ» إليه القبطان «أَنْدَرْيَا دُورْيَا» ولم يتمكن هذا القبطان الظالم العنيد، الذي اغتر بمنصبه

والذي لا تسعه الأرض ولا السماء بسبب عجبه وكبره، من الصمود أمام «خِضِرْ رَئيسْ» ونتيجة لذلك لم يجد هذا القبطان العظيم، وهو «خضر رئيس»، من الأعداء مَنْ يستطيع أن يحاربه أو ينازعه في البحر الأبيض المتوسط.

وعلى ذلك يكون «خِضِرْ رَئيسْ» الذي كان قائدًا بحريًّا كبيرًا، قد كتب ملاحم لا مثيل لها في البحر الأبيض المتوسط، فكان يمثل رمزًا للقوة الممتازة المستثناة التي بدأت بفرد أو اثنين حتى وصلت إلى دولة كبيرة. فقد أظهر أكثر من مرة بنجاحاته التي حصل عليها بحفنة من البشر، أمام التاريخ، ذلك العاملَ المؤثر الأصلي في أساس النصر.

وإن كانت تلك النجاحات التي قام بها تبدو في العقول وكأنها خيالات أو أساطير، لكنها أصل الحقيقة. فقد كانت انتصارات «خير الدين باشا» من تجليات البيان القرآني في الآية الكريمة:

﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾ (البقرة، ٢٤٩)

لقد كانت سفن الأعداء إذا ما رأت رايته اضطرت إلى الفرار أو التسليم، حتى ملك «إسبانيا» الذي عد نفسه صاحب كل الأماكن التي لم تكتشف بعد في «أمريكا»، لم يستطع القيام بشيء أمام هذا الوضع، فجمع قادته، وقال لهم هذه الكلمات التي تعبر عن قلة حيلته:

"لقد أصبحنا جميعًا عاجزين أمام «بارباروس»، مهما فعلنا، فهو تمكن من الغلبة علينا في كل مرة. وإن خرجت أية سفينة من سفننا لأي سبب في البحر فإنها لا بد وأن تجد أمامه أسطول «بارباروس»".

إلا أنه لم يكن لهؤلاء القادة الذين كانوا بجوار ملك إسبانيا أي جرأة على التخطيط لشيء ضده أو حتى قول كلمة سيئة؛ لأنهم كانوا يعلمون أنهم لو فعلوا ذلك لحاسبهم «بارباروس» على ذلك حسابًا عسيرًا؛ لأنه كان كالأسطورة في البحر الأبيض المتوسط.

وسبب خوف هؤلاء القادة هو وجود جهاز مخابرات قوي وواسع النطاق لـ«خير الدين باشا». وإلى جانب وجود المخابرات المادية، كان له أيضًا مخابرات معنوية، ومن الأحداث المشهورة عنه أنه كان يعرف بهذه المخابرات المعنوية بتلك الدسائس والحيل، التي يقوم بها الأعداء في وقتها، ويقضي عليها فور حدوثها.

❀

كان «خير الدين باشا بارباروس» من الأولياء أصحاب الكرامات. وكان على علاقة قوية بالسلطان «سليمان القانوني» ومن قبله «السلطان سليم». وكان «السلطان سليمان» مثل والده «سليم» يدرك هذه المرتبة المعنوية، التي يمتلكها «خير الدين باشا»، فكان يقدره ويكن له الاحترام الشديد. وذات مرة كان «خير الدين باشا» في صحبة السلطان، وبعد أن غادر الباشا لم يستطع «السلطان سليمان» أن يمسك نفسه من أن يقول لِمَنْ كانوا بجواره: "إن هذا الباشا رجل ولي"، فلم يُخْفِ مشاعر التقدير والاحترام نحوه عمن حوله .

وبالرغم من هذا، كان الباشا يقول أمام هذه اللفتات الكريمة من السلطان وغيره: "كن ترابا حتى يجعل الله مرتبتك عالية". حقيقة إن هذا الباشا كان وليًّا يتمكن من حل العديد من المشكلات في عالم المعنى بمساعدة الرسول ﷺ أحيانا، والخضر ؈ أحيانا أخرى، فكم مرة كان الباشا ينشغل بالعديد من المسائل ككيفية فتح إحدى القلاع، أو كيفية التخطيط لمهاجمة عدو أو فعاليات أعداءه وخططهم السرية أو غيره من المسائل، وكان الله تعالى ييسر له بالحل في رؤياه، وهذا يعد بمثابة الكشف الرباني. وقد لعبت تلك المساعدات المعنوية دورًا كبيرًا في نجاحاته، ومن الحقائق المشهودة عن الباشا أنه كان يعطي البحَّارة المرافقين له، والذين كانوا يتهيئون للخروج إلى البحر، التعليمات عن طريق الرؤيا.

وذات مرة كان «آيْدينْ رَئِيسْ» في البحر في حملة، ورأى في تلك الليلة «خير الدين باشا بارباروس» في منامه وكان يقول له:

"انتبهوا، فالعدو خلفكم. وسيصادفونكم في الصباح بخمس عشرة سفينة، لا تضطربوا، وخططوا جيدًا واهجموا عليهم. هيَّا! اذهبوا! فإنكم ستغلبونهم، وتأتوا إلينا بتلك السفن".

ولما استيقظ «آيْدينْ رَئيسْ» من نومه توضأ وصلى، وقرأ القرآن، وصلى على النبي، وبدأ ينتظر. وقد اندهش البحَّارة والقادة الموجودون من انتظار «آيْدينْ رَئيسْ»، وعدم إعطائهم الإذن بالتحرك، فقالوا له:

"هيَّا لنذهب من هنا، إن معنا الغنائم الكثيرة"

فأخبرهم بالرؤيا التي رآها، وفي تلك الأثناء أتت سفن الأعداء فعلاً من الخلف، وبإذن الله تيسر النصر للمسلمين، ولم تكن تلك المنقبة وغيرها من محصول الخيال، وإنما هي حقائق تاريخية ثابتة في مذكرات باشا.

إلى جانب هذا كان البحَّارة والقادة يحبون «خير الدين باشا» كقائد لهم، وكولي من أولياء الله الصالحين، ولهذا كانوا يطيعونه طاعة عمياء.

وكان البحَّارة يهرعون ويتسابقون من أجل تنفيذ أوامره، وكانوا يتحيرون من الكرامات التي يشاهدونها عليه، وكانوا يبجلونه قائلين له:

"يا سيدي! أنت ولي من أولياء الله".

وكان «خير الدين باشا» مقابل معاملتهم وارتباطهم به، صاحب رحمة وتواضع ووفاء أمام كل البحَّارة والقادة الذين يأتون بالنصر دائمًا. وكان يبدي لهم شفقة الأب على أبنائه، كان في الظاهر محاربًا قويًّا يعمل على تربيتهم تربية جيدة، وكان من الناحية المعنوية يبذل جهدًا كبيرًا من أجل تكامل هوية المسلم الموحد عندهم، ولهذا كان يعمل على إزالة الأخطاء التي تبدر من القادة أو من البحارة نتيجة لسوء فهمهم، بالأصول المعنوية أكثر من إزالتها بالتدابير الظاهرية. وكان يعفو عنهم في المسائل البسيطة فلا يعرض عنهم حتى يكونوا في صفوف الغزاة. أما في المسائل الكبيرة التي كان يُخشى منها على اشتعال نار الفتنة بينهم، فكان يتصرف فيها بحكمة

حتى لا تتزايد تلك النيران – حتى وإن كان فيها عدم رعاية له هو شخصيًّا– وكان يعمل على تأليف وتلطيف قلوب هؤلاء البحارة والقادة بقوله:

"أيها البحَّارة! لتنسوا هذا، ولا تجعلوه موضوع بحث في المجالس الأخرى".

وبذلك لم يُهزم «خير الدين باشا» أمام أضرار الاشتغال بالصراعات النفسية الفارغة، بل كان يبذل جهده دائمًا من أجل الوحدة والإخاء.

وكان «خير الدين باشا» إلى جانب هذا الوصف المعنوي لا مثيل له من الناحية الظاهرية أيضًا، فقد كان دائم البحث عن أحدث التقنيات في عصره واستخدامها. فقد كانت كل سفينة يقوم بتأسيسها أفضل من ناحية التشكيل والتجهيز مما قبلها، فكان يسبق رفقائه في البحار المحيطة ويغلب أعداءه قبل أن يأتي القادة؛ لأن الأعداء كانوا يخافون الموت، ويفرون منه، أما هو فكان يعد الموت في سبيل الله ﷻ أعلى مرتبة، وهي الشهادة.

لذلك كان يدعو بهذا الدعاء عندما يخرج إلى حملة ما:

"يا إلهي! يا قادرًا على كل شيء! اجعل لي نصيبًا من عونك ونصرك، واهزم الكفار، واجعلهم في حيرة مضطربين، واجعلهم يخافون من النظر إلينا، ولا تلحق بسفني ولا بحَّارتي أي ضرر من الأعداء، واجعلنا دائمًا في عيون الأعداء أقوياء كثيرين، وأحسِنْ إلى قلوب هؤلاء المجاهدين بالشجاعة والجرأة، وعدم الخوف من الكفار".

وببركة هذه الخصال المعنوية منح الله تعالى النصر والعون لـ«خير الدين باشا» ضد الكفار، وألقى الخوف في قلوب أعداءه، وهو ما عُبِّر عنه في الأبيات التالية:

إذا ما ساعد الله شخصًا

فلن يُقاس أي سلطان به



وكانت أمام الجزائر جزيرة جزيرة في يد كفار «إسبانيا» بها قلعة مُحكمة، وبالرغم من الاستحكامات القوية التي أقامها الإسبان من البر ومن البحر إلا أن «خير الدين باشا» تمكن من فتحها، ولما وصل الخبر إلى ملك «إسبانيا» ظل يبكي بحرقة حتى ألقى نفسه من العرش على الأرض، وحاول الانتحار، فهدّأ مَنْ معه من روعه، وقالوا له:

"يا مولاي! إن القلعة مجرد أحجار، والسفن عبارة عن قطعة أخشاب"

وبالرغم من أنهم هدأوا من روعه، إلا أنه تعرض لأزمة قلبية مات بسببها لما علم بانتصار آخر لـ«خير الدين باشا».

ولما جلس الملك الجديد على العرش مكانه، تعاون مع الباباوات وبحثوا عن حل مشكلتهم. فازداد ظلم الملك تجاه المسلمين الأندلسيين، وسبق في هذا أسلافَه. وفرح الباباوات مما يفعله بسبب حقدهم ووحشيتهم. حتى ما اكتفوا بهذا وقالوا له:

"أيها الملك! لا تترك أجنبيا في ديارك. وبالخاصة المسلمين فإن إقامتهم الصلاة بالجماعة خمس مرات في اليوم تثيرنا كثيراً. وهذا يمثل خطورة كبيرة علينا، ومن الخطأ الكبير وجودهم في ديارنا، وقد كُتب في كتبنا أن وجودهم في ديارنا لن يجلب لنا الخير وعليك أن تمنعهم من أداء عباداتهم. وإلا فإن المسلمين سيشكلون خطرًا كبيرًا على المسيحيين الموجودين، وربما يجعلونهم مسلمين. وبالتالي سيتمكنون من فتح إسبانيا كلها. وإن أسلم أطفال المسيحيين في عهدك، فإن هذا لن يكون نذير خير لك أبدًا".

وقام الملك بناءً على كلام الباباوات بكتابة الأوامر الواحد تلو الآخر، بعد أن صرح بقوله: "ويل للمسلمين الذين لم يتنصّروا".

وبدأ في اتخاذ إجراءات بشعة ضد المسلمين. لقد كان الملك يعتقد أن أرواحًا شيطانية سيطرت على أرواح المسلمين، لذلك فهم ينكرون ألوهية عيسى، ولهذا كان يريد على حد زعمه تطهير أرواحهم بحرقهم أحياءً. بهذا ظهرت سجلات سيئة

وقبيحة للغاية في التاريخ لمسيحيي الغرب الذين يعتبرون أنفسهم اليوم أساتذة في تلقين العالم دروسًا في الحضارة والإنسانية .

ولما علم «خير الدين باشا» بذلك تأثر كثيرًا، وهرع لمساعدة هؤلاء المسلمين. وقد وصلت إمداداته في الوقت نفسه الذي بدأ كفار إسبانيا فيه الهجوم على المسلمين المتبقين من الدولة الأموية، الذين سكنوا في «جبل البلقان». ولما رأى الجنود الإسبان «خير الدين باشا» ورجاله فروا هاربين على الفور، وبعد أن حمل معه على سفنه ما استطاع من المسلمين، ترك في «جبل البلقان» حمية عسكرية لحماية الباقين، وبهذا الشكل عمل «خير الدين باشا» سبع رحلات نقل فيها ٧٠ ألف مسلم إلى الجزائر، كما ارتدى الكثير من مسلمي «الأندلس» الملابس التركية، وانتقلوا إلى «الجزائر»، وعاشوا في أمان، لأن «الإسبانيين» كانوا يخافون بدرجة كبيرة من الأتراك بسبب بارباروس، لدرجة أنهم كانوا لا يتجرؤون على أي أحد يرتدي الزي التركي.

وبالرغم من كل ذلك، فإن مسلمي «الأندلس» لم يتمكنوا كلية من التخلص من المذابح التي قام بها «الإسبان» ضدهم منذ فترة واستمرت فيما بعد. لأنه لم يكن لدى «خير الدين باشا» جيش برّي منظم وقوي، كما أن القلة المتبقية في «إسبانيا» من المسلمين لم تكن أغلبية تتمكن من الدفاع عن نفسها، وهذا الأمر جعل تلك الأحداث تمر في التاريخ بذكريات مؤلمة للغاية. فبسبب انتقال مسلمي «الأندلس» من الحياة المعنوية إلى الحياة النفسية وبسبب اتخاذ الإمارات أولياء من النصارى ضد إخوانهم من الإمارات الأخرى صارت عاقبتهم مؤلمة.

وبالرغم من ذلك لم تكن الجهود المبذولة من أجل المسلمين في «الأندلس» قليلة لدرجة الاستحقار. فقد ضرب «خير الدين باشا» كل سواحل «أسبانيا» بالمدافع، وتمكن من نقل الكثير من المسلمين إلى السواحل الإفريقية، كما أن مساعي «السلطان القانوني» في هذا المضمار من المساعي الجديرة بالذكر والتقدير.

ما قام به «خير الدين باشا» أو «السلطان القانوني» تجاه «الإسبان» إنما كان عبارة عن نية لتلقين «الإسبان» درسًا من ناحية، وإمداد المسلمين المساكين هناك من ناحية

أخرى، وكان «السلطان القانوني» و«خير الدين باشا» في هذا الأمر على ارتباط دائم.

وقد فكر «السلطان القانوني» بأن يعد حملة بحرية على «إسبانيا» نتيجة لتلك الأحداث، فأرسل الفرمان التالي لـ«خير الدين باشا»:

"إنني أنوي عمل حملة على «إسبانيا»، ولتكن أنت أيضًا معي، وعليك الآن أن تعيّن وكيلاً عنك في الأماكن التي أنت فيها، ولتأت أنت إلى «إستانبول»، ولكن بعد أن تترك مكانك رجلاً تعتمد عليه؛ لأنني أريد أن أحمي ممالك الإسلام كما أحمي دياري، فالضرر الذي يصيبهم كأنه أصابني، وعليك أن تتحرك الآن بما يتراءى لك فعله".

وبناءً على هذا الفرمان ترك «خير الدين باشا» في «الجزائر» قائدًا يحبه كابنه، ويعتمد عليه كثيرًا، وهو «حسن أغا». وفي تلك الأثناء خرجت شائعات تقول بأن ملك «إسبانيا» ينوي الخروج إلى «الجزائر» بحملة كبيرة، وكان «خير الدين باشا» يفهم أن هذه مجرد حيلة، فأعد هو الآخر حيلة أكبر، فقد تصرف وكأنه خرب سفنه، وتنازل عن الأسطول، ونقل المدافع إلى القلعة، وبمجرد أن نزل الأعداء إلى البحر انقض عليهم «خير الدين باشا» كالصقر، وهزم كل قادتهم وعلى رأسهم «أَنْدَرْيا دُورْيا» فَفَرَّ «أَنْدَرْيا دُورْيا» كعادته.

بعدها سار «خير الدين باشا» إلى «إستانبول» في أمان، وقابل السلطان، فأظهر له «السلطان القانوني» رعاية وتقديرًا، ومنحه منصب «أمير أمراء الجزائر» للمرة الثانية، وزاد من أسطوله، وسار «خير الدين باشا» بهذا الأسطول الكبير واكتسب عدة انتصارات.

❁

كان «خير الدين باشا» يهتم عن قرب باحتياجات الأهالي من منطلق أنهم يريدون الراحة، لدرجة أنه كان يعفو عمَنْ هَمّ منهم بالقيام بثورة أو تمرد لأي سبب ما، وكان متسامحًا معهم، وذات مرة أراد أهل «الجزائر» أن يتمردوا، فطالب البحَّارة بعقابهم، ولكن «خير الدين باشا» رد عليهم بقوله:

"لنعفُ عنهم فقد حاربوا معنا عن «الجزائر» ضد «الإسبان»"

فقال البحَّارة وهم تحت تأثير ألم المصيبة التي فتحت الطريق لهذا التمرد:

"يا سيدنا! إذا كنت رحيمًا بهذا القدر فهيّا! اذهب إلى مدرسة دينية واعتزل فيها، فالبكوات (الأمراء) لا بد أن يكونوا أشداء".

حزن «خير الدين باشا» حزنًا شديدًا على هذا التصرف المخالف للأدب تجاهه أمام الأهالي. لكنه تصرف معهم بالعفو ولم يعاقبهم، واكتفى باللجوء إلى الله بقلب حزين فقط، ومد يديه إلى السماء وقال: "يا رب! أظهر لي الخير". ثم نام قليلاً، ورأى في رؤياه النبي ﷺ. وكان يحمل كل ماعنده على السفينة والنبي ﷺ يساعده بنفسه. فلما استيقظ فسر الرؤيا، وترك قلعة «الجزائر» واستقر في قلعة أخرى، حيث استقر بها ثلاث سنوات. ثم عاد إلى «الجزائر» وكانت عودته أيضًا بإشارة معنوية. فقد رأى في الرؤيا أيضًا رسول الله ﷺ ومعه الخلفاء الأربعة، وقال له النبي: يا خير الدين! توكل على الله، وعد إلى «الجزائر وستنتصر على الكفار وعلى المنافقين الذي يكنون لك العداوة.

وعلى الفور أعد العدة وعاد إلى «الجزائر» بهذا الأمر النبوي، وقد سعد الأهالي بقدومه كثيرًا؛ لأنهم كانوا قد تعرضوا لمظالم كثيرة على يد الكفار وعلى يد المنافقين.

وتظهر هذه الأحداث على حداها أنّ هدف «خير الدين باشا» لم يكن هدفا شخصيًّا أو ماديًّا، وإنما كان صادقًا في دعوته لإعلاء كلمة الله ﷻ. ولهذا كان التوفيق من الله على إخلاصه وأخلاقه يلازمه دائمًا في خدماته وحملاته، كان مظهرًا للتأييد الإلهي في كل حملاته. ورأيه الصائب الكبير في كل حملاته وتخطيطاته، إنما كان بفضل الإلهام الرباني الذي كان ينصب على قلبه، أو بفضل الرؤى الرحمانية التي كان يراها، وكلها حقائق تاريخية ثابتة.

وتظهر هذه الأحداث أيضًا أن النزاعات على الحكم والسلطنة بين الأمراء المسلمين في الأماكن التي كان يتولى أمرها، كانت من المسائل المهمة التي جاهد

«خير الدين باشا» من أجلها. فقد كان هؤلاء الأمراء يحارب بعضهم بعضًا، وأحيانًا كانوا يتمردون على «خير الدين باشا» نفسه من أجل تلك الغاية، بل إن منهم مَنْ كان يتحالف مع النصارى لهذا الغرض.

وكان هذا التحالف مع النصارى ضد المسلمين من أكبر وأكثر الأشياء التي تغضب الباشا. وهذه الرسالة التي كتبها عند تمرد «مسعود» وكان قد نصّبه حاكمًا على «تلَمْسانْ» تعد مهمة للغاية للمسلمين في الوقت الحاضر لما فيها من حساسية إيمانية كبيرة: "يا مسعود! لا أسعدك الله! أين العهد الذي عقدته معنا؟ لماذا عقدت معاهدة مع «الإسبان» أعدائنا؟ أين عهدك معنا بأنك تعتبر عدونا عدوا؟ هل ما فعلته يسعه الإسلام؟ يا لك من شخص حقير، لقد نهضت وتملقت الكفار، ألا تعلم أن هذا سيؤول بك إلى نهاية مؤلمة وسوء عاقبة؟ طار عقلك، فأصبحت عاجزًا عن رؤية العاقبة. فجعلت نفسك بهذا أمام غضب الله وغضبي وسترى هذا قريبًا. ذنبك عليك! وعهدي لك بأن أجعل الدنيا تضيق بك، ولا تنس أن العرش الذي جلست عليه بلا عناء ستنزل من فوقه دون أن تشعر!.."

إلا أن مسعودًا هذا نسي حقيقة القول القائل:

عندما يكون للنملة أجنحة تظن أنها بشارة

والمسكين لا يعرف أن هذا إلى الموت إشارة!

وتمادى في وادي الطغيان، فكان كالفرعون، وعقد مسعود تحالفه الجديد مع الكفار. إلا أنه أفاق من غفلته بسبب هذا الخطاب الشديد اللهجة الذي أرسله إليه «خير الدين باشا» فأرسل إليه شخصًا يحبه جدًّا للتوسط بينهما، إلا أن الباشا المتميز بالفراسة قال لهذا الشخص الذي يتوسط لمسعود:

"يبدوأنك قد أحببته وأردت أن تشفع له عندي. لكن يجب عليك أن تعلم أن لقمة الكفار دخلت في معدتهم، واستقر الفكر المسيحي في رؤوسهم. والثقة في أشخاص كهؤلاء خطر عظيم".

ثم قرأ الباشا البيت التالي:

لا تظن أن الخائن يكون على سلامة ونصيب

لا بد من أن يكون؛ إما يُضرب عنقه وإما أن يطيع

لأن «خير الدين باشا» كان يكتشف بالرأي الصائب الأشخاص أصحاب القابلية ويستخدمهم في الأماكن المناسبة لهم، ويكتشف أيضًا الأشخاص المقصرين منعدمي القابلية، ويتخذ معهم الإجراء المناسب. وفضلا عن هذا كان دائمًا يرجح الأشخاص أصحاب القابلية والشرف والحمية الشجعان ويعلي من شأنهم، ويجعلهم قادة على غيرهم. وكان لا يحب أصلا الأشخاص الذين ينساقون خلف الشائعات، غير الناجحين، أي الذين لديهم لياقة زائفة، وكان لا يقرّبُهم إليه. كما أمضى «خير الدين باشا» عمره في جهد لا يعرف التعب أوالكلل، وكان يقول:"إن المؤمن لا يجد راحته إلا في جنة العليين." والحادثة التالية التي رواها في هذا الشأن تحمل من العبر الكثير:

"ذات مرة أردت أن أستريح قليلا من عناء التعب الذي أصابني من كثرة الفتوحات والانتصارات التي اكتسبتها. فقررت ألا أذهب بنفسي إلى الحملة الجديدة، وأن أرسل «سنان باشا» على رأسها، وقد رأيت في رؤياي تلك الليلة هاتفًا يقول لي: "يا خير الدين! إن هذه الدنيا الفانية الكاذبة لا يوجد فيها راحة، إن الراحة الأبدية في جنة العليين، واعلم أن الله في عونك!".

ولما استيقظت قلت في نفسي: "إن هذه همة الأولياء والصالحين. والحمد لله لقد أنقذوني من خطأ كبير' فقمت بتوزيع الصدقات الكثيرة، وأطعمت الفقراء".

❀

إن حماس «خير الدين باشا» لم يكن موجهًا للمنفعة من الدولة، بل كان موجهًا لخدمتها وإعلاء كلمة الله، وقد كان ارتباطه بالسلاطين قويا، ويكن لهم الاحترام والتقدير. وقد أحرز فتح «تونس» بقوة قليلة بعد أن نال درجة الباشوية في البحرية

العثمانية. ولما علم بأن ملك «إسبانيا» أرسل إليه أسطولا ضخمًا، قام على الفور بإرسال أسطول السلطان إلى «إستانبول»، واستعد للحرب بالسفن التي معه فقط. حتى إن مَنْ كانوا معه قالوا له:

"يا سيدي! إن خوض المعركة بهذه السفن فقط انتحار!".

فقال لهم: "يا إخواني! إني لا أريد أن يُقال: "إن خير الدين باشا كان سببًا في هلاك أسطول السلطان" ثم قال لهم: "ليس هناك ما يدعو للقلق، فكله مقدر في علم الله" وبخطة ذكية تمكن من الالتفاف حول أسطول الأعداء، وجعلهم في إطار تحت سيطرته، لدرجة أن الأعداء لما رأوا ذلك تحيروا جدًّا وقالوا:

"لقد رأيناه قبل عدة أيام يخرج من تونس بمفرده، فكيف يكون ذلك؟" وحينئذ رنت في آذانهم جميعًا المقولة التي تقول"إن «خير الدين باشا» لا يذهب إلى بلدة إلا ويفتحها."

وفي النهاية كان النصر حليفًا للمسلمين. وكان بين أسطول الكفار الهاربين المنهزمين القائد «أَنْدَرْيا دُورْيا» وعندما أخذ «أَنْدَرْيا دُورْيا» يفر هاربًا إذا به ينادي على «خير الدين باشا» من بعيد بشكل لا إرادي ويقول:

"يا خير الدين! لا يوجد مَنْ هو أعلم منك في علم البحار ولا في مهارتك، فمن أين أتتك هذه الشجاعة؟"

فرد عليه خير الدين باشا بشكل وقور للغاية:

"إنها معجزة نبينا ﷺ . فمَنْ يدخل الإسلام ويتعلق به بإخلاص، لا بد وأن يكون شجاعًا".

لم يتمالك أندريا نفسه فتمتم بالحقائق التي اكتشفها:

"إن كتب المسلمين تقول"إن من يهرب من الحرب لا يدخل الجنة، حتى أنه لو فر واحد من المسلمين الأقوياء الأصحاء في الحرب من أمام الكافرَيْن فإنه يدخل جهنم" ولكن كتبنا تقول "إن من يُقْتل في المعركة لا يدخل الجنة"، فإن كل الباباوات



والقساوسة نصحونا بذلك. فيا للقهر! هل يلزمنا أن نتعرض للبلاء أكثر من هذا حتى يعي الباباوات ما نحن فيه؟"

وبالرغم من أن ملك إسبانيا أرسل هذا القائد مرة أخرى بأربعين سفينة حربية لملاقاة «خير الدين باشا» إلا أنه لم يقدر على ملاقاته.

وفي تلك الأثناء كان السلطان القانوني قد عاد منتصرًا من حملة بغداد فَدعا «خير الدين باشا» للحضور إلى «إستانبول» وقد امتثل «خير الدين باشا» لأمر السلطان فذهب إلى «إستانبول» بعد أن أمن أوضاع البحر الأبيض المتوسط، وقابل السلطان، الذي لم يستطع أن يتمالك نفسه إعجابًا فقال:

"الحمد لله الذي أوصل هذا الرجل المبارك بسلام، وجعلني أنال رؤيته بعيني في الدنيا"، ثم قبّله من جبينه، ونصّبه قائدًا للبحرية للأسطول العثماني، ومنحه صلاحيات واسعة.

وعلى الفور تسلم «خير الدين باشا» مهام وظيفته الجديدة، وبدأ في عمل تشكيلات أكثر قوة للأسطول العثماني، وبذلك جعل للدولة العثمانية قوة بحرية كبيرة بقدر القوة البرية التي تمتلكها، وأوصل البحرية العثمانية إلى مرتبة قوية للغاية لا يمكن لأية دولة أخرى أن تصل إليها. ولما رأى الأوروبيون ذلك بدؤوا يشعرون بالارتياب والقلق، وبدؤوا يبحثون عن حلول جديدة. وفي النهاية قرروا إرسال القائد البحري «أَنْدَرْيا دُورْيا»على رأس حملة صليبية بحرية قوية لم يُرَ مثلها من قبل تتكون من ٦٠٠ سفينة، إلى البحر الأبيض المتوسط.

كان «السلطان القانوني» في ذلك الوقت مشغولا في حملة «بوغدان». فأعد «خير الدين باشا» قوة بحرية مكونة من ١٢٠ سفينة، وسار إلى العدو بمناورات في غاية الفراسة والخبرة. والتقى الأسطولان في «بِرَوَزَه» كان المساء قد حل، وفي صباح اليوم التالي كان موعد أكبر معركة بحرية حتى ذلك الوقت، صلى «خير الدين باشا» الفجر ورفع يديه إلى السماء ودعا الله قائلاً:

"يا رب! ألهمني في رؤياي اليوم كيف أتصرف في تلك المعركة؛ هل أبقى في مكاني أم أهجم على العدو. وأظهر لي بلطفك الإشارات التي ستفتح لي أبواب النصر. فقد نصرتنا من قبل كثيرًا، وجعلت عبدك يظفر بالنصر، فألهم عبدك النصر في هذه المرة أيضًا يا رب العالمين!".

وفي وقت السحر أظهر الله له الرؤيا التي طلبها. حيث رأى الباشا أسماكًا كثيرة صغيرة في المكان الذي يرسو فيه، كان منها سمكتان مفتوحتا البطن، وفي تلك الأثناء أتاه بعض الأشخاص وقالوا له: "لقد أرسل السلطان لك هذه الأسماك"

فأخذها «خير الدين باشا» ثم استيقظ من نومه، فشكر الله تعالى، وقد تمكن بعلم تعبير الرؤى الذي منحها الله تعالى له من حل إشارات تلك الرؤيا، فقد أدرك أن «السلطان القانوني» قد تمكن في تلك الحملة من فتح «بغداد»، وأن عليه هو الهجوم على العدو.

ومع وقت الشفق بدأ «خير الدين باشا» في التحرك؛ حيث قام في أول الأمر بسحب العدو إلى «بروزه»، ولكن الرياح كانت تهب في وضع مساعد للعدو، فأدرك الباشا أن السفن الحربية الخَفِيفَة التي معه يمكن أن تتحطم أمام تلك الرياح أمام سفن الأعداء الضخمة، التي أحكم فيها ربط الأشرعة بشكل جيد. فأمر «خير الدين باشا» بكتابة آيتين من «سورة الفتح» ووضع واحدة منها على الناحية اليمنى للسفينة والأخرى على الناحية اليسرى[١]. وفي تلك اللحظة سكنت الريح بأمر الله، وحينئذ بدأ «خير الدين باشا» الهجوم قائلاً: "الشكر لله لقد تحققت رؤيتي".

وبدأت سفن المسلمين تصطاد سفن الأعداء واحدة تلو الأخرى، وكأنها أسماك صغيرة، فبدأت سفن الأعداء تفكر في حيلة سريعة، فتوصلوا إلى فكرة إلقاء بعض القوارب الصغيرة كَطُعْمٍ أمام غزاة المسلمين ليظنوا أنها غنيمة فينشغلوا بها. إلا أن

---

١. وقد أصبحت هاتان الآيتان من سورة الفتح بعد ذلك مكتوبة بشكل دائم على راية "خير الدين باشا"، وكان احداهما لا تزال محفوظة في المتحف البحري في «إستانبول».



«خير الدين باشا» بخبرته ومعلوماته التاريخية الجيدة كان قد نبّه البحَّارة والجنود قبل المعركة بألا يميلوا إلى الغنائم ولا إلى الأسرى، وألا يبدؤوا في جمع الغنيمة إلا بعد هلاك كافة سفن الأعداء، وإن يسر الله النصر فإن الغنائم والمال سيكون من نصيبهم بإذن الله ﷻ.

ولأن البحَّارة كانوا يتمسكون جيدًا بقول قائدهم، أدركوا أن به سرًّا وكرامة، فلم يهتموا بجمع الغنائم، وكانوا يسيرون خلف كل سفينة من سفن الأعداء ويدمرونها وهم يرددون "الله! الله!" بحماس إيماني شديد. وكان «خير الدين باشا» يدعو الله قائلاً:

"اللهم أهلك جنود أعداء الدين، واجعل النصر من نصيب جنود الإسلام".

وبتلك المناورات التي قام بها «خير الدين باشا» استطاع الأسطول العثماني أن يدمر كل سفن الأعداء التي خرجت أمامه.

استمرت تلك المعركة التي لم يكن لها مثيل، حتى وقت العصر، وتوجت بانتصار الأسطول العثماني بقيادة «خير الدين باشا» كما زادت بطولة «خير الدين باشا» الأسطورية أضعافًا مضاعفة بهذا الانتصار. إلا أن هذا القائد أدرك أن هذا الانتصار لطف من الله عليه، ولهذا سجد سجدة شكر لله ﷻ، وبالرغم من أنه كان أمام الأعداء كالأسد القوي، إلا أنه كان أمام الله وليا مطأطئ الرأس، متواضعًا، دامع العينين. وإن كان التواضع والعظمة تبدوان كضدين، إلا أنهما تمازجا في هذا القائد وصارا خصلة واحدة. إذ لما ساق الباشا سفن الأعداء التي أسرها أمامه إلى «إستانبول» لم تبقَ هناك سفينة واحدة من سفن الأعداء تستطيع الخروج أمام الأسطول العثماني؛ فأصبح البحر الأبيض بمثابة البحيرة العثمانية.

أما ملك «إسبانيا» الذي عاد يجر أذيال الهزيمة خلفه فقد أمر بتشكيل أسطول قوي وكبير للأخذ بالثأر. لما علم أن «خير الدين باشا» اتجه إلى «إستانبول» وترك «الجزائر» ظن أن «الجزائر» قد أصبحت لقمة سائغة، فاتجه إليها. ولكن «حسن أغا»

وكيل خير الدين باشا، الذي أنشأه بيديه الماهرتين المباركتين، وقف أمامه كالسور الممتنع اجتيازها.

فقال ملك إسبانيا متحيرًا: "كيف لـ«حسن أغا» هذا أن يصدنا؟ فأنا ملك صاحب إمبراطورية كبيرة، وهدفي هو الانتصار على «السلطان سليمان»، قولوا له يستسلم وإلا أهدم أبراج قلعته على رأسه"

فرد عليه «حسن أغا» بجلادة إيمانية كبيرة قائلاً : "لتفعل ما تريد ولن تستطيع".

ثم قال«حسن أغا» بعد أن ترنم بالبيت التالى:

لو صدّق اليد ما قاله اللسان

لما بقي عبد إلا وصار سلطانا

"أيها الإمبراطور السيئ الحظ! الذي يدعي الإمبراطورية. لتعلم أنك لا تعادل سيدي «خير الدين باشا» ولا سلطاني سليمان. فمعادلك أنا؛ وهذا هو الميدان".

ثم التجأ «حسن أغا» إلى الله تعالى وهجم هجوما حتى تحير ملك «إسبانيا» وما درى ماذا يحدث.

علاوة على ذلك الهجوم أمطر الله تعالى مطرًا شديدًا جعل الأعداء في حيرة تامة، وبذلك لم يكن لديهم طاقة على الحرب أو أية مؤن، لدرجة أنهم بدؤوا يأكلون خيولهم من الجوع. وفي النهاية تيسر النصر لـ«حسن أغا» بحملته الأخيرة. أما الملك الظالم فقد تمكن من إلقاء نفسه في إحدى السفن وبذلك أنقذ حياته بصعوبة بالغة.

وقد أثرت تلك الهزيمة كثيرًا في الملك، لدرجة أن تنازل عن العرش، واعتكف في إحدى الكنائس، وبعد فترة قصيرة مات من شدة حزنه.

في تلك الأثناء وصلت أخبار هذا النصر المفرح إلى «إستانبول» ففرح «خير الدين باشا» كثيرًا، وفرح السلطان فأنعم على «حسن أغا» بمنصب «أمير أمراء الجزائر».

على ضوء تلك الحقائق بإمكاننا أن نقول: هناك دور كبير لـ«خير الدين باشا»



في الفتوحات التي حققها «السلطان القانوني» تجاه أوروبا؛ إذ أنه كان يهزم أعداء السلطان من الأوروبيين في البحر الأبيض إما بنفسه وإما بقادته التي تربوا على يديه. وبذلك لا يستطيع الأروبييون أن يقفوا أمامه بجيش قوي كما يريدون.

لقد كان «خير الدين باشا» شخصًا محبًّا للخير، وساعد في مد حدود الدولة العثمانية إلى «فَاسْ»، و كان في شعور ما قيل في البيت التالى:

الرجل الحقيقي هو الذي يترك أثرًا في تلك الدنيا

أما الشخص الذي لا يترك أثرًا فتهب الرياح في مكانه

وقد اعتاد «خير الدين باشا» على توزيع الهدايا والصدقات والعطايا على الفقراء والمساكين بعد عودته من كل حملة ينتصر فيها، لدرجة أن المدينة التي كان بها لم يكن يترك فيها جوعان أو عاريًا. ولهذا كان الأهالي يحبونه كثيرًا، وكانوا ينظرون إليه على أنه والد لهم قبل أن يكون رجلا من رجال الدولة. وعندما ترك الجزائر كان أهلها يبكون على فراقه، وكانوا ينتظرون عودته بكل اشتياق.

وقد أنشأ الباشا مدرسة في «بشيكطاش»، وأسس العديد من الحمامات والمخابز والخانات والنُزل في الأحياء المختلفة ووقفها كلها. وقد خصص الرواتب الكبيرة للمدرسين وللطلاب في تلك المدرسة من أرباح تلك الأوقاف. ووهب قبل وفاته للدولة ٣٠ سفينة حرب بكامل تجهيزاتها كانت ملكًا شخصيًّا له، لقد كان الباشا نموذجًا للتدين الذي كان عليه الصحابة الكرام.

ما كان يهمل أمور الآخرة وهو مستغرق في أمور الدنيا. وفي الحقيقة كان أموره الدنيوية أمورا أخروية. فقد كان يقسم ليلته إلى ثلاثة أقسام؛ الأول للنوم، والثاني للعبادة، والثالث لقراءة القرآن. كما كان ينشغل أيضًا بالتخطيط لأعماله.

عاد «خير الدين بارباروس» إلى «إستانبول» عام ١٥٤٤م، وانتقل إلى جوار

ربه في عام ١٥٤٦م ودُفن في قبره في «بشيكطاش»[٢] وقد أُرّخ لوفاته بالمقولة التالية:
"مات رئيس البحر"

رحمة الله عليه!

لقد كان عهد «خير الدين باشا» هو العهد الذي جعل للدولة العثمانية اعتبارًا من الناحية البحرية بقدر اعتبارها من الناحية البرية. ولعل قيام والدة الملك «فِرَانْسُوَا» ملك «فرنسا» بإرسال رسالة إلى «السلطان القانوني» تطلب منه المساعدة في الإفراج عن ابنها، الذي حبسه الألمان دلالةٌ قوية على عظمة وقدرة الدولة العثمانية في ذلك الوقت. وقد رد عليها القانوني بهذا الجواب بعد أن ذكر الدول والمدن التي يحكمها قال:

"...أنا «السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان»، وأنت «فرانسيسكو»، والي أيالة «فرانسا»!..". ثم أرسل «خيرَ الدين باشا» بالأسطول العثماني إلى «نِـيسْ» من أجل إنقاذ «فرنسا».

وعلى الفور تحرك «خير الدين باشا» بالأسطول إلى «فرنسا»، وبينما هو في الطريق حاول فتح «رُومَا» إلا أن السفير الفرنسي منع تلك الفكرة لخوفه من أن يطرده كل العالم الغربي المسيحي من جراء هذا التصرف، لدرجة أن السفير المذكور انكب على قدم «خير الدين باشا» ورجاه بألا يفعل ذلك. فَعدل «خير الدين باشا» عن تلك الفكرة لذلك الوقت، ورسا الأسطول العثماني في «نِـيسْ»، ونزل أفراد الأسطول إلى الساحل وأذّنوا للصلوات الخمس خمسة أوقات على الأراضي الفرنسية وصلوا الصلوات جماعة هناك، وساعدت الدولة العثمانية «فرنسا» في ذلك الوقت بملايين الدوقيات الذهبية كقرض حسن، وليس كقرض ربوي كما تفعل الدول الأوروبية في الوقت الحالي.

---

٢. إن الذين أُسند إليهم منصب «قابطان دريا» بعد «خير الدين باشا» كانوا احترامًا له يلبسون خلعتهم في المكان الذي دُفن فيه «خير الدين باشا» وكانوا يدعون لروحه الشريفة وإلى جانب ذلك كانوا يُلبِسون الفقراء و يطعمونهم من الخيرات كان يحبها كثيرًا .



والحاصل أن هذا العهد كان يمثل عهد القوة والعظمة العثمانية لدرجة أن رسالة من الدولة العثمانية ينعكس فيها تهديد الدولة، كانت كافية لإنقاذ الملوك من الحبس. وكان «خير الدين باشا» واحدًا من القمتين الكبيرتين من تلك القمم التي أعلت شأن الدولة في ذلك العهد.

وقد فتح الشاعر «يحيي كمال» أجنحته على تلك العهود القوية لماضينا بروح تأخذ نصيبًا من هذه الروحانية والمعنوية بعد صلاة العيد الذي أداها في «جامع السليمانية» الذي بناه المعماري سنان بأمر من السلطان القانوني أحد القمتين في الدولة. وقال الأبيات التالية:

من أين تأتي أصوات المدافع تلك، في أفق البحر؟
ربما أن «بارباروس» عائد من الحملة بالأسطول
هل من الجزر أم من «الجزائر»، أم من «تونس»؟
بمائتي سفينة مزينة في الآفاق الحرة
يأتي من مكان يطلع عليه القمر حديثًا
من أي سحر تأتي تلك السفن المباركة؟



قُرّاءَنا الأعزاء!

تجاه هذه الحقائق نرجو منكم أن تقرؤوا سورة الإخلاص ثلاث مرات والفاتحة كدَين الوفاء على روح قائدنا الولي الممتاز عندما تمرون من طريق «بشيكطاش».

يا ربنا! اجعل أمانة المسلمين - ونحن في القرن الواحد والعشرين - على عاتق أشخاص يحملونها بالأهلية ويخدمون في سبيلك مثل الصحابة بالتضحية ويعتبرون ذلك غنيمة لهم؛ أشخاص مثل خير الدين باشا بارباروس أمناء، أصحاب دراية وحذر وتدبير، شجعان، أصحاب إقدام، أتقياء؛ وخاصة أشخاص تصطفيهم لتمنحهم نصرك وعنايتك!.. آمين!..





رجال الدولة في الدولة العثمانية

العهود العثمانية هي أعلى وأسمى العهود بعد عهد العصر النبوي والخلفاء الراشدين من حيث فهم الإسلام وتحقيقه في أكمل مرتبة له والوقاية عن العدو الخارجي خلال التاريخ الإسلامي الممتد لألف وأربعمائة عام. ولا شك أن اتصاف رجال الدولة العثمانية بالتفوق يأتي على رأس العناصر التي عملت على تأمين هذا التكامل والتفوق.

وكان رجال الدولة العثمانيون ينقسمون إلى قسمين بصفة دائمة:

١- أهل السيف (وهم المجاهدون).

٢- أرباب القلم (طبقة العلماء).

ومن المعلوم أنه لا يمكن لأية دولة من الدولة أن تظل فترة طويلة لا بالقوة المادية وحدها ولا بقوة الأخلاق والعلم وحدها. وقد ارتقى القسمان أعلى القمم بفضل التكامل والتوازن التام في العهود التي كانت الدولة فيها قوية عظيمة. أما في أوقات انهيار الدولة فقد رأينا غياب أو فقدان هذا التكامل والتوافق فيما بين القسمين من ناحية، وانهيارًا في مستواهما - لأسباب يطول شرحها - من ناحية أخرى.

ولأن هدفنا هنا لم يكن كتابة التاريخ العثماني سرديًا، بل كان هدفناهنا محض تفهيم الأجيال الجديدة الشابة بالشخصيات العظيمة في التاريخ العثماني وإلقاء الضوء على وقتنا الحالي، فقد اكتفينا هنا بسرد تراجم بعض أرباب القلم والسيف من الأمثلة التي لا تُحصى في التاريخ العثماني. وكان بين هؤلاء مَنْ ملكوا بين القلم والسيف، كان يُطلق عليهم أرباب القلم والسيف، ومنهم الكثيرون الذين يُطلق عليهم "ذو الجناحين" لأنهم وحدوا بين علوم الظاهر والباطن.

وقد أشرنا إلى مثل هؤلاء أثناء تناولنا للشخصيات بدءًا من السلاطين وحتى الباشوات. وعندما كنا نريد أن نتناول شخصية من أرباب السيف كنا نتناولها أثناء نقلنا لعهود التوقف والتأخر في الدولة العثمانية لا عهد ازدهار الدولة العثمانية. والسبب في ذلك هو: أن هناك حقيقة تاريخية، وهي أن العظمة والقوة كل لا يتجزأ، وهي تشمل الشخصيات والمؤسسات معًا. وإن الضعف والانهيار كذالك. إلا أننا سنرى في الأمثلة القادمة أنه عندما يُسْتَغَل الفرص، فإنه يمكن الحصول على نجاحات علمية وانتصارات مشرفة بالرغم من وجود بعض السلبيات. وهذه كيفية مرتبطة بالشخصيات المؤهلة. وعندما ننقل هذا إلى عهدنا سيظهر أن اليأس من النجاح أمام السلبيات أمر عبث لا فائدة منه. ويكفينا أن نأخذ العِبرة من التاريخ ونهتم بتنشئة الأجيال كما ينبغي.

وإليكم هذه الشخصيات العظيمة «أُوزْدَميرْ أُغْلُو عثمان باشا» و«تيرياقي حسن باشا» و«عبد الأزل باشا»، الذين نجحوا في تحقيق الانتصارات الملحمية، بالرغم من الموانع وعظمة المستحيلات.

والشخصيات الثلاثة المذكورة شخصيات نموذجية لرجال الدولة الذين بينوا أنه يمكن الحصول على نجاحات براقة بالرغم من وجود سلبيات قوية داخلية وخارجية . فقد كان رجال الدولة يتميزون بأوصاف سامية. ونريد هنا أن نفيد بأنه في حال اهتمامنا بما يليق بتربية الأفراد بهذا الدرس الذي سنأخذه من تلك الشخصيات، لا يمكن تصور وجود مانعة لانستطيع تخطيها...





قائد حرب المشاعل المظفر، فاتح القوقاز

أوزْدَميرْ أوغْلُو عثمان باشا

(١٥٢٧-١٥٨٥م)

من الصدور العظام في الدولة العثمانية في القرن السادس عشر. والده هو «أوزْدَميرْ باشا» القائد البطل الشجاع، الذي اشتهر بفتوحات اليمن والحبشة، والذي ترقى حتى وصل إلى رتبة «أمير الأمراء».

ولأن «عثمان باشا» تربى محتذيًا حذو والده فقد اشتغل في وظائف مهمة في الدولة منذ صغر سنه، تقديرًا لخدمات والده، لدرجة أنه كان أميرًا على «سَنجَقْ» وهو لم يبلغ العشرين، وبعدها بفترة أصبح أميرًا على «قافلة الحج المصرية»، ثم «أمير الأمراء على الحبشة» بعد وفاة والده، ثم ترقى بعدها إلى أن صار «أمير الأمراء على صنعاء واليمن».

وبعدها بسنوات تولى إمارة البصرة وبعدها «دِيارْ بَكِر»، وقام بخدمات عظيمة هناك. وشارك في الحملة التي خرجت بسبب تخريب «الشاه إسماعيل» الصفوي «كورجستان» التي كانت تحت الإدارة العثمانية، وقد أظهر نجاحات كبيرة في تلك

الحملة، وقد أنقذ قوات المقدمة العثمانية من خطر محتمل أمام الجيش الإيراني، الذي كان يتكون من ٣٠٠ ألف جندي بقيادة «طُوقْمَقْ خانْ». ولأنه كان قائدًا ذا دراية و تضحية فقد شتت جنود الأعداء بالحملات التي قام بها، بعضها تلو بعض، وبذلك اكتسب «نَصْرَ جِلْديرْ» المشهور في التاريخ.

وقد اضطرب «شاه إيران» أمام هذا الوضع وقاسى من هذه الهزيمة التي هزت قلبه. فقام «الشاه» بإرسال جيش كبير ليغلق طريق «شِيرْوانْ» ولكن الباشا تصرف بسرعة وهزم هذا الجيش، ثم أعقبه بهزيمة أخرى على جيش آخر . وفي النهاية تم القضاء على بقية الجيش الإيراني على يد أهالي «شيروان» السنيين. ونتيجة لتلك الانتصارات التي حققها «عثمان باشا» انضمت «أذربيجان» الشمالية المسماة بـ«شيروان» إلى الأراضي العثمانية.

وقد انسحب قسم كبير من الجيش العثماني إلى معسكره في «أَرْضُرُومْ» معتقدًا أنه أتم مهمته. ولما علم الجيش الصفوي بذلك أراد أن ينتهز الفرصة فأرسل جيشًا آخر إلى هناك، ولكن «عثمان باشا» كان هناك أيضًا بقوة ليست بالكبيرة، ولكنه تصدى لهم وهزمهم في «شِمَاخْ».

وحينئذ بدأت حال من الاضطراب والحيرة تعم مركز العرش الصفوي، سببها انتصارات «عثمان باشا» والهزائم المتكررة التي ألحقها بالصفويين. ولم تستطع عقولهم أن تهتدي إلى سبب انتصار «عثمان باشا» عليهم بقوة صغيرة. وفي النهاية أجمعوا الرأي على أنه لن يهزم هذا الباشا سوى رجل من الأسرة الصفوية المالكة، فقرروا إرسال «حمزة ميرزا» على جيش يتكون من ١٠٠ ألف جندي لملاقاة «عثمان باشا».

كان جيش «عثمان باشا» الذي خرج حديثًا من معركة «شِماخْ» يتكون من ١٣ ألف جندي فقط. ولأن الصفويين تجرؤوا على القيام بهجوم مفاجئ تمكنوا من دخول «شِماخْ» إلاّ أن «عثمان باشا» ذلك الأسد الذي لا يعرف الهزيمة هاجم بشدة

في اليوم الثاني وهزمهم واسترد المدينة، ولكنه انسحب بعدها إلى «دَميرْ قاپي» لعدم وصول الإمدادات اللازمة إليه.

وظل في «دَميرْ قابي» عامًا، عمل فيه على القضاء على قوة صفوية تتكون من ١٥ ألف محارب، كانت تريد الدفاع عن المنطقة، ودخل «باكو» ومنها إلى «شيروان».

وبالرغم من انتصارات ـ«عثمان باشا» واحتياجه للجنود، إلا أن جيش الجبهة الشرقية حُظِرَتْ وأُمِرَتْ بالانتظار بلا حراك في «أَرْضُرُومْ». وكان ذلك بسبب بعض الباشاوات الحساد الموجودين في القصر. وبذلك لم تكن هناك إمدادات تصل إلى «أُوزْدَميرْ أُوغْلُو عثمان باشا» لا سيما وأنه كان في القصر بعض الغافلين الذين اعتقدوا بأن انتصارات الباشا ستغلق عليهم طريق إقبالهم وترقيتهم.

وعلاوة على هذا أصرَّ «عثمان باشا» بأن يثبت «خان القرم» ويحارب، إلا أن الأخير عاد متعللا بحلول فصل الشتاء، وهذا جعل «عثمان باشا» يظل بمفرده في ميادين الحرب.

أدرك الباشا خطورة الموقف الذي هو فيه فكتب عريضة إلى «السلطان مراد خان» يخبره بخطورة الموقف، حتى يمده بالإمدادات، التي تمكنه من إتمام الفتوحات والانتصارات التي بدأها. ولما قُرئت الرسالة في الديوان تبين من خلالها أن جبهة «إيران» أصبحت بلا فاعلية بسبب بعض الضعفاء العديمي الخبرة في الجيش، كما أن «خان القرم» تخلى عن مساعداته، وبالتالي فإن هناك فرصة كبيرة للنصر ضاعت من يد الجيش العثماني، وأوضح الباشا أيضًا أنه في حال استمرار مثل تلك الأخطاء فإن شرف الدولة سيصاب بوصمة، وبالتالي طلب الباشا المساعدة من السلطان.

شعر السلطان «مراد الثالث» بخطورة الأمر وحساسيته فأمر بإرسال الجنود على الفور لـ«عثمان باشا». كما أمر بإرسال ١٤٠ ألف عملة ذهبية كمصاريف للجيش. وبذلك حصل «عثمان باشا» بعد طول انتظار على تلك الإمدادات التي انتظرها كثيرًا.

ولما علم والي «كَـنْجَه» الصفوي بأمر تلك الإمدادات التي أرسلت إلى «عثمان باشا» أصابه الخوف والهلع، وظن أن الباشا سيهجم على إيران نفسها. ولهذا أراد أن ينتهى من «عثمان باشا» قبل فوات الأوان.

كان «عثمان باشا» على دراية بميادين الحروب، و علم بأمر تلك الخطة، فاتخذ الإجراءات اللازمة. والتقى الطرفان في بيلاسه، وبدأ الطرفان بهجوم شديد، ولم تنتهِ معركة النهار بنتيجة، فلذلك أُشْعِلَتْ المشاعل واستمرت الحرب في الليل أيضاً. وفي اليوم الرابع للمعركة تمكن «عثمان باشا» من هزيمة العدو بحيلة وخدعة حربية قام بها بمهارة، ولأن تلك المعركة استمرت على أضواء المشاعل سُميت «معركة المشاعل».

انتهت تلك المعركة باستحواذ «عثمان باشا» على «شيروان» مرة أخرى، كما ثبّت دعائم الحكم العثماني في «داغستان» و«كورجستان». كما فتح كل بلدان «القوقاز». وبعد تأمين الأوضاع في تلك النواحي بتلك الانتصارات هرع الباشا على الفور إلى «القرم»؛ حيث قام بمعاقبة «خان القرم» الذي تخلى عن مساعداته بالرغم من وجود الأمر السلطاني القاضي بذلك، ثم قام بتسليم القرم إلى خانها الجديد «الغازي إسلام كِرایْ».

وبعد كل تلك الفتوحات والانتصارات عاد الباشا مظفرًا إلى «إستانبول» ناصع الجبين.

واستقبلت «إستانبول» عاصمة الدولة العثمانية هذا البطل المظفر بالاستقبال اللائق به.

استقبل «السلطان مراد الثالث» «عثمان باشا» في «يَالي قَصْرِى»، استقبالا حافلا لدرجة أنه أخل بعادات الدولة العلية من فرط سعادته بهذا البطل المظفر، حيث قال له لما دخل عليه: "أهلا وسهلا يا عثمان، اجلس!" وأمره بأن يشرح له محارباته في «القوقاز».

أخذ «عثمان باشا» في الحديث مع السلطان وكأنهما صديقان حميمان، استمر «عثمان باشا» يشرح للسلطان كيفية محاربته لمدة أربع ساعات. وبينما كان يشرح له كيفية انتصاره على «أُورُوسْ خانْ» قال له السلطان:

"لقد تصرفت جيدًا يا عثمان!"

ثم أخرج السلطان طرة مرصعة وعلقها على رأس الباشا. وبينما كان الباشا يشرح للسلطان أيضًا كيفية انتصاره على «حمزة ميرزا» إذا بالسلطان يخلع خنجره المرصع، ويعلقه في خاصرة «عثمان باشا».

ولما حان الدور على شرح كيفية الانتصار في «كَـــنْجَه» قام السلطان بإهدائه طرة مرصعة قيمتها أعلى من الطرة الأولى التي أهداها له.

وأخيراً لما شرح «عثمان باشا» كيفية انتصاره على «خان القرم» في «كَفَه» بقوة صغيرة كانت معه، دمعت عين السلطان من الفرحة، ورفع يديه إلى السماء ودعا لـ«عثمان باشا» قائلاً:

"رضي الله عنك يا باشا! وبيّض وجهك في الدارين! ونصرك حيثما كنت! وجعلك في جنة العليين مع مَنْ سُميت باسمه سيدنا عثمان! وأحياك بالشرف والقوة على الدوم".

ومكافأة من السلطان على كل ما قام به «عثمان باشا» عيّنه صدرًا أعظم. استمر «أُوزْدَميرْ أُوغْلُو عثمان باشا» في منصب الصدارة أربعة أشهر، وبعدها خرج قائدًا على الجيش برغبته إلى القرم لإخماد ثورتها، ولما وردت الأخبار بأنه أُخْمِد الثورة عيّنه السلطان بالخط الهمايوني قائدًا على الجيش في الجبهة الشرقية.

إلا أن صحة الباشا ساءت بسبب قضائه ست سنوات في البرد القارس في «القوقاز»، بعد أن قضى سنوات طويلة في «لَحْسَاء» و«البصرة» والأجواء الحارة للغاية في «الحبشة» و«اليمن» و«السودان». ومرض الباشا مرضًا عضالا لم يعد ينفع معه دواء، واضطر بذلك للعودة إلى «إستانبول».

ولكنه ومع ذلك كان من الشخصيات النادرة التي استطاعت تسجيل بطولات حتى في حال المرض؛ فقد كان يداوم على الخروج إلى الحملات بالرغم من مرضه، ونجح وهو مريض في فتح «تبريز» وجعلها إمارة تابعة للدولة العثمانية. وبينما كان عائدًا من «تبريز» إذا بجيش صفوي يخرج عليه في«شَنْبِ قازانْ»، ولكنه انتصر عليه، وكان هذا آخر انتصار للباشا. وبعدها بليلة لم يعد جسده الذي فني في سبيل الله قادرًا على حمل روحه، فأسلمها إلى بارئها. وبذلك تُوفي الباشا شهيدًا في سبيل الله، ولحق بذلك بقافلة الشهداء.

رحمة الله عليه!

عاش «أُوزْدَميرْ أُوغْلُو عثمان باشا» الذي كتب ملاحم وبطولات مليئة بالإيمان والوجد والحب نتيجة لتربيته المعنوية، حياة متواضعة للغاية، وتميز كقائد وجندي مشرف. ولم يكن انتصاره على العدو فقط، بل كان على نفسه أيضًا، و كان هذا بسبب تواضعه الشديد. ولعل هذا هو الذي جعله غير حريص على منصب الصدارة، ذلك المنصب الذي يُعد الثاني في المرتبة بعد السلطان في الإدارة العثمانية، فقد تنازل برغبته عن هذا المنصب، ووهب حياته في سبيل الله ﷻ. ويمكن القول بأن «أُوزْدَميرْ أُوغْلُو عثمان باشا» كان في موقع لا مثيل له بين رجال الدولة العثمانيين الذين يقدرون بالآلاف من الذين حققوا الانتصارات في التاريخ العثماني على مدار ستة قرون ونصف قرن.

يا رب، اجعل لنا نصيبًا من مشاعر الخدمة التي لا تنضب، المزينة بالتواضع والفراسة والدراية، التي كانت عند «عثمان باشا ابن أوزدمير» وخاصة وأن أجيالنا تحتاج إلى مثل ذلك في وقتنا الحالي.

آمين!..





مُدافع قَانِجَه الشهير



ترياقي حسن باشا

(؟١٥١٧-١٦١١م)

من القادة العثمانيين الذين لا مثيل لهم.

شخصية قيمة للغاية ومستثناة، تربى في «الأندَرون» وترقى إلى رتبة «مير ميران» أي «أمير الأمراء». وقد أُسندت إليه العديد من الوظائف المهمة بسبب النجاحات الفريدة التي حققها في ميادين الغزو والقتال، والخدمات العليا، التي قام بها في الجيش العثماني. وقد نفّذ الباشا كل تلك الخدمات، التي أُسندت إليه بتضحية كبيرة للغاية وعلى أكمل وجه، وأخمد ثورة أردل المشهورة. كما أنقذ قلعتَي «فيلَنْاقْ» و«ليبَّه» من غزو الأعداء، ولهذا عُين على قلعة «قَانِجَه» التي كانت تمثل أهمية استراتيجية كبيرة، وقد أحسن في تلك الأثناء دفاعه عن قلعة «قَانِجَه» المشهور في التاريخ.

ولم يستطع النمساويون أن يتقبلوا أمر الاستيلاء على قلعة مهمة مثل قلعة «قَانِجَه» من قِبَل العثمانيين. لهذا قامت حملة صليبية تتكون من ١٠٠ ألف جندي بقيادة



«الأرشيدوق فَرْدِينَانْدْ». وقد تشكل هذا الجيش من جنود هذه الدول: «ألمانيا» و«إيطاليا» و«إسبانيا» و«فرنسا» و«المَجَر» وجنود البابا. كان يقود جنود البابا «أَلْدُوبْرَانْدِينِي» ابن أخي البابا «كِلَمَنْتوسْ الثامن».

وقد تحرك هذا الجيش الصليبي المغرور بتلك القوة الكبيرة وهو يضمن الانتصار، حتى وصل أمام «قَانِجَه» في ٩ سبتمبر ١٦٠١م وحاصر القلعة.

وفي تلك الأثناء كان مع «حسن باشا» العجوز ذو اللحية البيضاء ٩ آلاف جندي فقط للدفاع عن القلعة. إلا أن الباشا كان يمتاز بشجاعته وجرأته إلى جانب ذكائه الحاد، فضلا عن أنه كان قائدًا لا مثيل له في المهارة، مشهورًا بحيله الحربية التي تحير جيوش الأعداء على الدوام. وإلى جانب خبرته العريضة، كان مظهرًا أيضًا للتأييد المعنوي، ولهذا لما رأى جحافل الصليبيين أمام القلعة لم يخف وصاح في الجنود قائلاً:

"مهما كان عددهم، فإننا لم نخف ولن نخاف العدو!"

واتخذ إجراءات مشددة للدفاع، وأعد الخطط الحربية الجيدة، وبدأ ينتظر هجوم الأعداء.

دفع «الأرشيدوق فَرْدِنَانْدْ» الذي كان يثق في كثرة عدد جيشه أتم الثقة، بقواته الأمامية إلى القلعة، وكان هدفه من ذلك معرفة الإمكانات التي لدى «حسن باشا». ولأن «حسن باشا» كان يفهم تلك الحيلة، أعد خطة محكمة؛ حيث أمر جنوده بأن يدافعوا بالبنادق فقط، وذلك لكي يوهم الأعداء بأنه لا يوجد معه مدافع. ولما رأى «فَرْدِنَانْـــدْ» الأمر على ذلك أشار لجنوده بكل ثقة إلى أسوار القلعة وقال:

"تقدموا!".

ولما رأى «حسن باشا» أن جيش الأعداء بدأ يقترب من أسوار القلعة أمر بإطلاق المدافع المائة، التي كانت معه دفعة واحدة، فتحولت أرض المعركة إلى جحيم. فتشتت جيش الأعداء يمينًا ويسارًا، وحينئذ أمر الباشا جنوده بأن تفتح

أبواب القلعة للهجوم على الأعداء وهم مضطربون، فقتلوا منهم الكثير، وتمكن الأعداء بصعوبة من عبور نهر «قَانِجَه» إلى «زِيجَتْوَارْ».

أما «فَرْدِنَانْدْ» فقد أصبح في حال يرثى لها؛ لأنه لم يكن يعرف كيف سيتصرف حيال ذلك، فأمر جنوده بأن يطلقوا طلقات المدافع على أسوار القلعة.

إلا أن «حسن باشا» كان في كل مرة يعرّض قوات الأعداء لأضرار جسيمة بحيله الحربية الجيدة. وفي تلك الأثناء أرسل «حسن باشا» جنديًّا شجاعًا يُدعى «قَرَه بَنْجَه عثمان» إلى الصدر الأعظم.

وقد قرر الصدر الأعظم أن يرسل الإمدادات إلى قَانِجَه، ولكنه في الطريق عدل عن قراره بسبب سقوط «اِسْتُونِي بَلْغرَادْ» في يد الأعداء. وأرسل رسالة إلى «ترياقي حسن باشا» يخطره فيها بأنه لن يستطيع أن يرسل إليه الإمدادات لأن الأعداء يعيثون خرابًا في قلعة «بَلْغِرَادْ» ويقتلون الأطفال، ومن بداخل القلعة بوحشية، ولهذا فإنه اضطر إلى إرسال الإمدادات إلى «بَلْغِرَاد»، ودعا لـ«حسن باشا» أن يكون الله ﷻ في عونه.

ولما وصل الخطاب إلى «حسن باشا» لم يفصح عما به لأحد من الجنود، وذلك لأنهم سيواجهون العدو بمفردهم دون إمدادات، وحتى يفسد الروح المعنوية لدى الأعداء أشاع الأخبار بأن الإمدادات قادمة من «إستانبول». وأمر بكتابة رسائل وهمية إلى الصدر الأعظم يدعي فيها بأنهم ليسوا في حاجة إلى مهمات ومستلزمات حربية، وعمل على وصول تلك الرسائل إلى الأعداء، وبذلك جعل جيش الأعداء لا يقوى على الهجوم خاصة وأنه محطم نفسيًّا منذ عدة أيام.

من ناحية أخرى كان من في القلعة يعملون ليلا ونهارًا لتأمين القلعة . ففي النهار يعملون لتنظيم الحملات وفي الليل يعملون في ترميم أسوار القلعة، وبذلك لم يكن عندهم فرصة للراحة، وكانوا يبذلون جهودًا تفوق قوة البشر، وبالرغم من كل تلك الظروف السيئة كان «حسن باشا» يدير الدفاع عن القلعة دون أن يفقد

موازنته، إلا أن البارود الذي معه كان قد أوشك على الانتهاء، وهو ما قد يشكل سببًا في هزيمته. وبينما كان الباشا يفكر في حل لتلك المسألة إذا بجندي شاب يقترب منه ويقول له بصوت خفيف:

"يا سيدي! إن سمحت لي فإننا يمكننا تصنيع البارود بأنفسنا."

كان هذا الجاوش يُدعى «أوزُونْ أحمد» كان ماهرًا للغاية، رد عليه «حسن باشا» بحماس شديد وتحير:

"ماذا تقول يا بُني؟ كيف يكون ذلك؟"

فقال «أوزون أحمد»:

"يا سيدي!، إنني أستطيع تصنيع البارود من أشجار الصفصاف الموجودة هنا، والبارود الاصطناعي يسد حاجتنا لمدة. ويكفينا أن الله يبقيكم معنا".

فقال «حسن باشا» بفرح وسعادة: "حسن يا بُني! لك هذا، أعانك الله".

بدأ «أوزون أحمد» في التصنيع بشكل مكثف، وفي خلال ثلاثة أيام تمكن من تصنيع كمية كبيرة من البارود، وقرأ الفاتحة عدة مرات على روح معلمه، الذي علمه تلك الصنعة. ولعل هذا هو سبب حب الأتراك العثمانيين لشجر الصفصاف.

وفي تلك الأثناء وصلت الإمدادات إلى الجيش الصليبي، حيث أتى «الأرشيدوق مَاثِيَاسْ» الذي تمكن من الاستيلاء على قلعة «بلغراد» بجيش «النَّمسا» وصل إلى «قانجه». ولما وصلت تلك الإمدادات إلى الجيش الصليبي أحس الجيش بأنه أصبح الأقوى، فأرسلوا رسالة إلى «حسن باشا» الذي ظنوا أنه لن يتمكن من الدفاع عن القلعة يدعونه للاستسلام.

وبمقابل رد «حسن باشا» عليهم بالمدافع النارية بدؤوا بهجوم شديد. كما بدأت طلائع منهم تصعد أسوار القلعة، إلا أن «حسن باشا» تمسك بالدفاع عن القلعة. وكان يحث ويشجع جنوده على القتال قائلاً لهم:

"أيها الجنود المقاتلون! لا تنظروا إلى كثرة عدد العدو، إنهم محرومون من الإيمان، أما نحن فممتلئون بنور الإيمان! وكم من فئة قليلة من المؤمنين في التاريخ غلبت فئة كثيرة بإذن الله، وهذا ما سيكون بإذن الله ﷻ. وإن استشهدنا في هذا السبيل، فسيكون مصيرنا إلى الجنة، أما إن انتصرنا فستشرف برتبة الغازي. إن اليوم هو يوم الشجاعة، ونحن على الجهاد في سبيل الله ﷻ، فهيَّا انهضوا، فالنصر قريب بإذن الله!".

وقد شعر الجنود بحماس كبير من هذه الكلمات، فقدموا نموذجًا للدفاع والتضحية، وفي النهاية اضطر الجيش الصليبي للانسحاب مخلفًا وراءه آلاف القتلى بينهم «أَلْدُوبْرَانْدِينِي» ابن أخي البابا. فسجد «حسن باشا» سجدة شكر، وهنأ الجنود قائلاً لهم:

"يا أبنائي! إنكم تعلمون أن الكفار بدؤوا حصارهم لنا في يوم ١٢ ربيع الأول [وهو يوم ميلاد سيد الأنبياء] وليكن معلومًا لكم أن الله تعالى لن يخذل عباده المسلمين أمام الكفار بحرمة هذا اليوم، ويكفينا أننا مؤمنون ونمسك سيوفنا بقوة الإيمان."

وعلى هذا كانت الأيام تمر على حصار الكفار للقلعة. وفي أحد أيام الحصار تمكن غلامان من أصل مَجَرِي كانا عند الباشا من الهروب من القلعة، وذهبا إلى الكفار شارحين لهم كل شيء داخل القلعة. ولما علم القادة والجنود بذلك، أصابهم الخوف، ولكن «حسن باشا» لم يخشَ ذلك وقال للجنود:

"لا تهتموا، فإن حسابهم يسير!".

وأمر بإحضار أسيرين من صفوف الكفار، وسألهم الباشا قائلاً:

"لقد أرسلت رجلين من رجالي إلى ملككم، فهل قابلاه أم لا؟"

كان الأسيران يرتعدان من الخوف، وقالا للباشا:

"نعم، إن الرجلين ذهبا إلى الملك وأخبراه بأمر القلعة وما فيها، وأن «حسن باشا» وجنوده أصبحوا في حال سيئة."



أظهر «حسن باشا» غضبًا مفتعلاً، وأمر بأخذ الأسيرين وقتلهما، وأمر بتسليمهما إلى «قَرَه عمر» لتنفيذ الأمر، وكان الباشا قد اتفق على تلك الحيلة من قبل مع «عمر بَكْ».

أخذ «عمر بَكْ» الأسيرين وأسرّ إليهما بكل مودة قائلاً:

"اسكتا؛ فأنا منكم! وكما أنقذت أسرى كثيرين غيركما سأنقذكما أنتما أيضًا! اذهبا إلى الملك وأخبراه بأن الباشا رجل ماكر للغاية، وأن الرجلين اللذين ذهبا إلى الملك إنما هما من رجاله، وهدفه من ذلك هو سحب الملك بقواته إلى القلعة، وحينئذ يتيسر له اصطيادهم كما فعل من قبل؛ لأن القلعة ليست في موقف صعب كما قال الغلامان، بل على النقيض القلعة محصنة للغاية، وبها ذخيرة تكفي لعام. كما أن وصول القوات الإمدادية التي في «زِيجَتْوار» مسألة وقتية ومن الممكن وصولها في أية لحظة".

ثم أظهر «قَرَه عمر» للأسيرين أجولة البارود التي كان معظمها عبارة عن أجولة من الرمال على فوهتها قليل من البارود. اندهش الأسيران من هذا الوضع، ثم قدم لهما «قَرَه عمر» رغيفا من الخبز ومكّنهما من الخروج من القلعة والذهاب إلى الملك.

ونتيجة لتلك الرسائل التي عمل «حسن باشا» على تأمين وصولها إلى «فَرْدِنَانْدْ» ونتيجة لما شرحه له الأسيران العائدان إليه، اقتنع تمامًا بأن الغلامين الذاهبين إليه جاسوسين. فأمر على الفور بإعدامهما، ثم قطع رؤوسهما، ووضعهما على سن رمحه، وصاح نحو أسوار القلعة قائلاً:

"حسن باشا! حسن باشا! ها هما رأسا الجاسوسين اللذين أرسلتهما إليّ، وها هي الرسائل التي أرسلتها إلى الصدر الأعظم في يدي، ولتكن حيلك على نفسك!..". كان «فَرْدِنَانْدْ» لا يعلم أن «حسن باشا» وجنوده يقفون خلف أسوار القلعة يضحكون من كلامه هذا.

مرت الشهور على هذا النحو، وحل الشتاء قاسيًا، وبدأ الثلج ينزل بشدة، وبدأت الرياح الباردة تهب، لدرجة أن المياه بدأت في التجمد.

أدرك «حسن باشا» أن الصدر الأعظم لن يرسل له الإمدادات المطلوبة، وبالتالي ظل يفكر في حيل وسُبل يستطيع دفع الصليبيين بها، وقد تباحث في أوضاع الجيش الصليبي الأخيرة، وأدرك أن هذا التحالف الصليبي لن يستمر أطول من ذلك بسبب ظروف الطقس الباردة، ولهذا انتهز تلك الفرصة وأعطى لـ«قره عمر» ٣٠٠ فارس، وأمره بأن يسير فوق نهر «بَرْكْ» المتجمد، وأن يقوم بهجوم مفاجئ على الأعداء، كما أمر كل المدافع الموجودة في القلعة بأن تطلق قذائفها دفعة واحدة على معسكر الأعداء؛ لقلبه رأسًا على عقب، ثم خرج بنفسه على رأس مفرزة من ٥٠٠ جندي للهجوم على معسكر الأعداء، وقد نتج عن هذا الهجوم الشامل قتل ما يقرب من ١٠٠ ألف من جيش الأعداء، وبالتالي فرت البقية من أمام القلعة بعد أن كانوا قد أتوا إليها كالضباع الجائعة، وكان من بين الفارين «الأرشيدوق» المغرور الذي خلف وراءه تاجه وعرشه.

لقد كان نصر «قَانِجَه» نصرًا بطوليًّا عظيماً تتناقله الألسن، حققه هذا القائد المُسن ذو اللحية البيضاء «ترياقي حسن باشا»، حققه بالرغم من الإمكانات الضعيفة التي كانت في يده، وكان يدرك تمام الإدراك بأن هذا النصر إنما هو لطف من الله عليه، فصلى ركعتين وهو يذرف دموع الشاكرين، ثم قال لأبطاله الجنود:

"لتعلموا أن هذا النصر إنما هو بتأييد من الله، وأثر من معجزات نبينا ﷺ، ولتعلموا أن الله تعالى قد غفر- إن شاء الله - لكل مَنْ شارك في هذه الغزوة".

وقد غنم الجيش غنائم كثيرة في تلك المعركة لدرجة أن الجنود ظلوا ينقلونها إلى القلعة لعدة أيام، ولما سُئل الأسرى الكفار بعد المعركة عن سبب هذه الهزيمة قالوا:

"لقد رأينا جنودًا بجواركم يحاربون معكم لم نعرفهم من قبل، كانوا يرتدون العمائم الخضراء، وكانوا يخيفوننا للغاية، كانوا يهجمون معكم إذا ما هاجمتمونا..."



ويُروى أن حاكم مالطا «دُونْ جُوانْ» كان ضمن الأعداء الذين رأوا هؤلاء الذين يرتدون العمائم الخضراء، ومن شدة خوفه مرض وربط نفسه برباط، واختبأ في خندق لأربعة أيام. ولا شك بأن هذا كان بمثابة مظهر من مظاهر التأييد الإلهي الذي أرسله الله تعالى للمؤمنين في «غزوة بدر» عندما كانوا قلة يحاربون الكفار وهم كثرة، ويقول الله تعالى:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (آل عمران، ١٣)

ويقول أيضًا:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال، ١٧)

وعليه فإن الذي علينا في ذلك ليس النظر إلى قلة أو كثرة قوتنا، بل التحرك بفراسة وبصيرة بإدراك يليق بسر كلمة «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

❀

ولما وصل خبر هذا الانتصار العظيم في قَانِجَه إلى القصر فرح «السلطان محمد خان الثالث» كثيرًا، فأنعم برتبة الوزارة على «حسن باشا» الذي كان السبب الرئيسي في هذا الانتصار.

وأرسل خطًّا همايونيًّا مع الهدايا إلى الباشا، وكان من جملة ما كتب في الخط الهمايوني المذكور:

"قائدي، ذا اللحية البيضاء، أمير أمراء قانجه، وزيري المدبر! إن مَنْ معك من جنود بمثابة أبنائي، وقد رضيت عنهم جميعًا، بيّض الله وجهك ووجوههم".

قرأ «حسن باشا» هذا الخط الهمايوني على رأس الجنود، وكان يشعر بالتواضع الشديد، لدرجة أنه قال لِمَنْ حوله:

"إن سلطاننا أرسل لي خطًّا همايونيًّا برتبة الوزارة من أجل خدمة بسيطة وهي الدفاع عن «قَانِجَه»، ونحن لم نقم إلا بوظيفتنا، فهل بقيت الوزارة لهذا العبد المسن؟ جعل الله دولتنا وأمتنا باقية على الدوام".

وقد اكتسب هذا القائد العجوز الذي قارب الثمانين من عمره انتصارات أخرى بعد «قَانِجَه»، لدرجة أنه حارب «جانْبولاطْ أوغْلو» في «وادي أورُوجْ» وهو في التسعين من عمره، وأظهر بطولات فائقة في تلك المعركة، ثم ارتحل إلى الدار الآخرة بعد أن أدى تلك الخدمات الكبرى في الدنيا.

رحمة الله عليه!

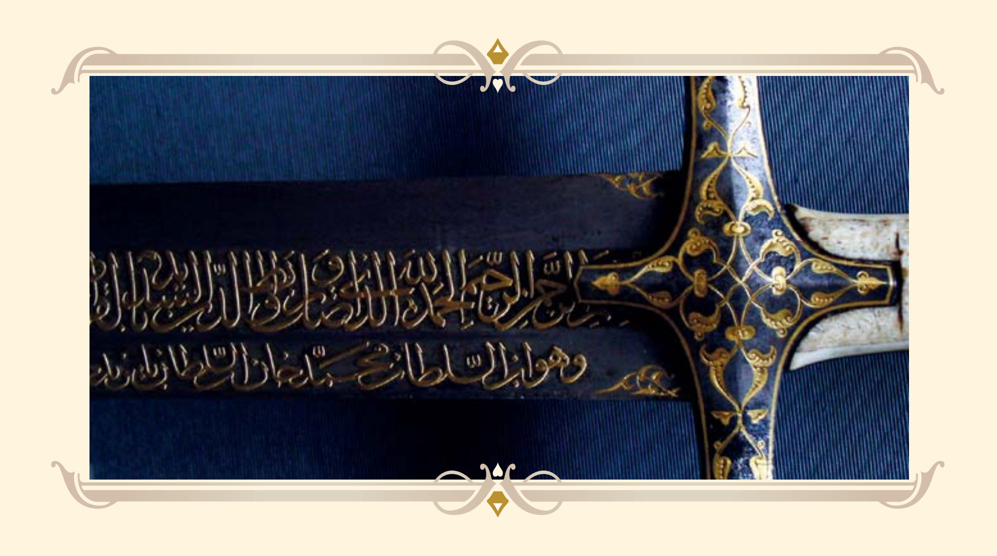
وإلى جانب شجاعة «ترياقي حسن باشا» الفائقة كان أيضًا يتميز بالدهاء السياسي بالدرجة التي جعلته يفهم الحديث النبوي الشريف: (**اَلْحَرْبُ خُدْعَةٌ**)[1] فهمًا دقيقًا. فقد اتخذ الثبات والصدق شعارًا له في سبيل الله. وبالرغم من كبر سنه كان يحارب بين الجنود بشجاعة كبيرة، وكان يحث المجاهدين على القتال، ولم يفقد قط اعتداله أو متانته حتى في أصعب الظروف. وكان ينحي العوائق جانبًا بالتكتيك المعقول، وكان يعرف أن كل نصر يكتسبه إنما هو بتأييد من الله ﷻ، ولهذا كان يلجأ إليه دائمًا ويعتمد عليه في كل وقت. كان متواضعًا رحيمًا مشفقًا كريمًا، و لهذا كان يأمر بعدم إطلاق النار على العدو المجروح.

اللهم اجعل لنا نصيبًا من بحر العرفان والفراسة والبصيرة التي أحسنت بها إلى«ترياقي حسن باشا» الذي وصل إلى ما وصل إليه بالثبات والصبر!..

آمين!..

١. انظر: البخاري، جهاد،١٥٧، مسلم،جهاد، ١٨





من الجندية إلى الباشوية

خرجت عشيرة «قَايِي خانْ» التي انحدرت منها الدولة العثمانية من منطقة «مَهَانْ» مع «جلال الدين خوارزم شاه» الذي حقق بطولات فدائية أمام جحافل المغول، واكتسبت تلك القبيلة أول خبرة عسكرية لها تحت إمرة هذا القائد العظيم. وبعد انهيار دولة أتراك «خوارزم» على يد «المغول»، هاجرت تلك العشيرة مع الطوائف التركية المسلمة الأخرى إلى الأناضول، وطلبت من السلطان السلجوقي أن يعطيها وطنًا، فأسكنهم في «سُوگُوتْ»؛ لأنه كان يدرك أن وجود تلك العشيرة التي لها خبرة في الحرب على الحدود سيكون مفيدًا.

وقد أدرك العثمانيون اعتبارًا من اللحظة الأولى بأنه يلزم أن يكون لهم وجود عسكري لمواجهة الأمراء البيزنطيين، ولهذا شعروا بالاحتياج إلى وجود تشكيل عسكري من المجاهدين الذين يحملون في أيديهم السلاح. وقد أدركوا أيضًا أنهم لن يتمكنوا من الحفاظ على موطنهم أو التوسع في الأماكن الأخرى إلا بوجود قوة عسكرية، ولهذا كانوا يعملون على تطوير وحدة العشيرة العسكرية بمرور الوقت، حتى أصبحوا فيما بعد أكبر قوة على الأرض.

وكان هناك أساس واحد لهذا الجيش الذي اكتسب أكبر انتصارات في التاريخ اكتسبها بآراء حكامه الصائبة، ابتداءً من «الغازي عثمان» من ناحية التنظيم وقوة السلاح والتكتيك العسكري، وهذا الأساس كالتالي:

كانت الترقية لا تتم بالتحصيل أو الوقت كما هو الحال في معظم الجيوش في الوقت الحالي، بل كانت الترقية تتم بناءً على النجاح. فالجيش كله تابع لهذا الأساس المذكور من أصغر جندي إلى أكبر قائد كلهم موظفون.أي أن العسكرية كانت تستمر طوال الحياة وليست كالخدمة العسكرية التي تستمر سنة أو سنتين على أفراد الأمة كما يطبق في الكثير من الدول في الوقت الحالي. والذين كانوا يبدؤون الحياة العسكرية في طفولتهم كانوا يستمرون فيها إلى مماتهم.

إن الجنود الذين يمثلون كادر الضباط هم الموظفون في الجيوش في الوقت الحالي. أما الجندي له خدمته العسكرية وهي موقتة بمدة معينة. أما في الدولة العثمانية فكان كل أفراد الجيش موظفين. وبعد تنظيم الأمور أصبح الضباط من الطبقة التي تلقت تعليمًا عاليًا لكي يتمكنوا من معرفة الإمكانات والتكتيكات الحربية الحديثة المتطورة. أما الجنود الذين كانوا يتخذون من العسكرية مسلكًا لهم فكانوا يستخدمون بعد تحصيل تعليم بسيط، لا سيما وأنه لم يكن هناك عائق من ترقيهم إلى الرتب التي يحصل عليها الضباط الذين تلقوا تعليمًا عاليًا. وكانت النجاحات التي يظهرونها في الحروب كافية لترقيتهم. ولهذا ظهر في الدولة العثمانية في أواخر عهدها تفريق في العسكرية بين طبقة المتعلمين (في المدارس العسكرية) وطبقة غير المتعلمين (في المدارس العسكرية)، وكانت طبقة غير المتعلمين يستهان بها نوعًا ما؛ حيث إن أفرادها أقل درجة من المتعلمين، وبالرغم من هذا لم يكن عدد أطفال الأناضول الذين دخلوا الى الجيش دون رتبة عسكرية وارتقوا إلى درجة عسكرية عالية بقليل، ومن هؤلاء؛ «الشهيد عبد الأزل باشا» أحد القادة الكبار الذين ظهروا في أواخر عهد الدولة العثمانية.





مثال البطولة والشجاعة في ميادين الحرب

عبد الأزل باشا

(؟-١٨٩٨م)

من قادة عهد السلطان «عبد الحميد خان الثاني».

شخصيةٌ قيمة نشأت في ظل تربية الأناضول، وحفظ القرآن في سن صغيرة، وبالرغم من أنه التحق بالجيش وهو في السادسة عشرة من عمره، رُقي إلى رتبة الباشوية بسبب جهوده ولياقته المتفوقة.

كانت له جهود كبيرة في إخماد ثورات «كِرِيتْ» و«قَــرَه دَاغْ» وفي «معركة القِرِمْ». وأظهر بطولات ملحمية كأقرب رفيق سلاح لـ«الغازي عثمان باشا» في الدفاع عن «پِلَوْنَه».

ولأن السلطان «عبد الحميد الثاني» فرح كثيرًا من جهوده علّق على صدره بيده «ميدالية پِلَوْنَه» التي تُعد وسام البطولة المتميز.



وتمتلئ حياة «عبد الأزل باشا» بلوحات البطولة والشجاعة والتضحية والفدائية التي أظهرها في ميادين الحروب. وقد شارك في آخر غزوة له وهو في السبعين من عمره؛ حين كان مسنًّا ذا لحية بيضاء، وهي الحرب العثمانية اليونانية التي كانت في عام ١٣١٢هـ وهي المعركة التي اُستشهد فيها، وكانت تمثل ملحمة بطولية تفرد بها.

وكانت الغزوة المذكورة على ما يلي:

مرت الدولة العثمانية في السنوات التي كان فيها المذكور برتبة الباشا بأخطار خارجية وداخلية كثيرة، تضعف الدولة، ورأى اليونانيون في هذا الوضع فرصة لا تعوض، فتحركوا على الفور لتوسيع رقعة أراضيهم، قاموا بداية بإنزال جنودهم على جزيرة «كِرِيتْ»، وقاموا بقتل الأهالي الأتراك بوحشية، فأرسلت الدولة العثمانية مذكرة إلى «اليونان» بضرورة إخلاء الجزيرة في ستة أيام، إلا أن «اليونان» لم ترعَ ذلك اهتمامًا، وأعلنت الحرب.

تم تعيين «عبد الأزل باشا» قائدًا للواء الثاني بجيش «ألاَسُونْيا»، وفي تلك الأثناء قامت القوات اليونانية بالهجوم على الحدود العثمانية لكي تتمكن من الوصول إلى نتيجة لهجماتها، وعلى الفور وصل «عبد الأزل باشا» إلى الحدود وقام بدفاع بطولي مع القوات العثمانية الموجودة في القلاع الحدودية أمام القوات اليونانية، وبالرغم من أن القوات اليونانية كانت تمطر على القوات العثمانية بوابل من القذائف المدفعية وطلقات البنادق، إلا أن الجنود العثمانيين كانوا يدافعون بتضحية كبيرة، وكانوا يستشهدون من جراء تلك الهجمات العنيفة.

وبالرغم من أن الباشا هرع إلى مساعدة القوات الموجودة في الأبراج الحدودية، إلا أنه لم يتمكن من الوصول إليهم بسبب كثافة القذائف المدفعية الملقاة عليهم من قوات الأعداء.

ولهذا كان الباشا يسير بجواده يمينًا ويسارًا وهو ممتلئ بالغضب من ناحية، وقلبه مفعم بالحزن من ناحية أخرى، وكان يقول:



"العون يا رب! إن جنودنا يستشهدون محترقين. وسيُقضى على أبنائنا الذين يقاتلون في الأبراج، آه! لو يعم الظلام ويحل المساء، سأهرع على الفور لنجدتهم"،

وعلى هذا ظل ينتظر حلول المساء.

ولما حل المساء أخذ فرقة من الجنود معه، وتمكن من إنقاذ الجنود الموجودين في الأبراج. وفي اليوم التالي أمر ببدء هجوم كبير، وكان يقاتل بنفسه مع الجنود كالصاعقة، وكان يتقدم الصفوف كالأسد وهو يقول: "الله! الله!" ولأن القادة الذين معه كانوا يخشون عليه من قذائف الأعداء؛ بسبب سنه الكبير، قالوا له:

"يا باشا! إن القذائف تتطاير في كل مكان، فهلا تأخرت إلى الوراء قليلا".

إلا أنه رد عليهم بشجاعة وقلب ممتلئ بالنضج العسكري والشجاعة قائلاً:

"أيها الغزاة! اعلموا أنه لن تموت نفس دون أن تبلغ أجلها، وقد عاينت تلك الحقيقة مرات عديدة في الكثير من ميادين الحرب على مدار خمسين عامًا، ولتعلموا أن قلبي خلال تلك السنوات الطويلة يتلهف على الشهادة، ولهذا لا تطلبوا مني أن أتأخر عن موقعي!.."

ثم التفت إلى الجنود، وقال لهم تحت وابل الطلقات والقذائف الملقاة عليهم:

"أبنائي الأبطال! إن هذا الوقت هو وقت تلقين الأعداء الذين يضعون أعينهم على الدين والشرف والدولة الدرسَ الذي يستحقونه، لنهجم على الأعداء قائلين «الله، الله» واعلموا أنه إذا تمكنا من الاستيلاء على تلك الهضبة ستتفتح أمامنا صحراء النصر المتسعة المزينة بالزهور. أبنائي الغزاة! إن أمهاتكم قد ولدنكم وربينكم من أجل هذا اليوم، ورباكم خليفة المسلمين «عبد الحميد الثاني» من أجل هذا اليوم.

وهذه وصيتي لكم؛ إن تجرعت كأس الشهادة قبل أن نستولي على تلك الهضبة، فلا تدفنوني في المكان الذي أُستشهدت فيه، بل ادفنوني على تلك الهضبة التي ستحصلون عليها بالتأكيد، وإن لم تتمكنوا من الحصول عليها فاتركوني على الأرض لأكون طعامًا للنسور والطيور!.

إن الله تعالى في عوننا، وروحانية النبي ﷺ معنا، وتوجه خليفة المسلمين علينا. هيَّا! يا أبطالي! بسم الله لنتقدم".

وبعد تلك الكلمات توجه الباشا بفرسه مسرعًا صوب صفوف الأعداء، وتبعه الجنود العثمانيون كالصاعقة، وهجموا هجومًا شديدًا على الأعداء، فاضطرب الأعداء وفقدوا توازنهم وبدؤوا الفرار، وقد استمر الباشا الذي كان يهجم بروح الشاب المتحمس على الأعداء في الهجوم وهو مفعم بالسرور. وفي تلك الأثناء أصيب بطلق ناري في جبينه، زاد من سروره؛ لأنه بلّغه الشهادة التي كان يتمناها منذ سنوات طويلة، وفتح الباشا الجناح لإقليم الرحمة والوصل متخضبًا بدماء الشهادة.

ولما أنزلوا جسده من فوق الفرس، ووضعوه في التراب وجدوا علامات السرور لا تزال مرسومة على وجهه.

لقد كانت تلك الابتسامة ابتسامة جميلة عذبة لنيله شرف الشهادة، حتى إنه في آخر زيارة لبلدته، قال لأحبائه هناك:

"لقد منحني الله تعالى درجتين عظيمتين، حفظ كتابه الكريم، والباشوية، وأنا الآن أريد الثالثة، وهي الشهادة!".

وبذلك تحققت دعوته لله ﷻ، فقد أحسن الله إليه بالشهادة.

رحمة الله عليه!

وقد نُقل جثمانه أولا إلى «پورْنَارْتَــبَـه» ثم إلى «أَلاسُونْيَا» حيث دُفن في فناء «جامع سوق أَلاسُونْيَا». ووفاء بجميله وخدماته الجميلة التي قام بها للدين والدولة، قام السلطان «عبد الحميد الثاني» ببناء قبر له ليكون وسيلة لتذكره بالخير والدعاء على الدوام.

فإن الباشا إلى جانب كونه قائدًا شجاعًا خبيرًا، كان رجلاً صالحًا متدينًا يرعى أوامر الله ﷻ ونواهيه.

ولأنه كان حافظًا للقرآن الكريم كان يداوم على قراءة القرآن، حيث كان يختمه باستمرار، كما كان صوته عذبًا حينما يقرأ القرآن، فقد كان يزيد القلوب شوقًا عندما يتلو القرآن بهذا الصوت العذب.

اللهم أعلِ درجة كل شهداء المسلمين الذين أُستشهدوا مجاهدين في سبيلك مثل «عبد الأزل باشا»! آمين!..





العمارة في الدولة العثمانية

إن إمكانية وصول دولة من الدول إلى مكانة متميزة في تاريخ الدنيا لا يمكن أن يتحقق بالانتصارات العسكرية فحسب. لأن الدولة التي تعتمد على الانتصارات العسكرية فحسب محكوم عليها بالعلو والازدهار المؤقت من خلال الشخصيات الذكية أو الفرص الجيدة فقط. أي أن كل الانتصارات التي تعتمد على الناحية العسكرية في أساسها فقط ولا يستند على قواعد من الإيمان والوجد، لا يمكن أن تكون عاملا لتكوين حضارة، بل سرعان ما تزول من على مسرح التاريخ. فإن الفتوحات والانتصارات التي قام بها الإسكندر الأكبر والمغول كانت من هذا القبيل.

أما العظمة الحقيقية فهي تظهر في الحملات المدنية التي تساند الانتصارات العسكرية ويعمل على استمرارها نوعاً ما. والذين يصلون إلى القمة في هذا الطريق لا يصلون بوسيلة القوة العسكرية والسياسة وحدها ولا بوسيلة العلم والفن وحدها. بل يجب أن يتحقق كل هذه الوسائل معا.

أما العثمانيون وقد عرفوا تلك الحقيقة وساروا في ذلك الطريق من أجل تحقيق كل الحملات المدنية التي تعلي من شأنهم، إلى جانب ذكائهم السياسي والعسكري. وهذه الحملات في القرن السادس عشر كانت تفوق القمم. ويمكن القول بأن سبب تسمية هذا العصر في التاريخ "عصرَ الأتراك" لم يكن نابعًا من النجاحات التي أظهرها



العثمانيون في المجال العسكري والسياسي فقط، بل على النقيض تحقق ذلك بوجود التكامل في كافة المجالات العلمية والفنون الجميلة بكل فروعها.

حقيقة القول: إن عصر «السلطان سليم الأول» و«السلطان القانوني» كان من أزهى عصور الدولة العثمانية التي تحققت فيها ازدهار كافة الفنون والعلوم بكل فروعها.

ولا شك في أن أكبر مظهر لهذا التكامل الحضاري كان ظاهرًا في المجال المعماري. فقد أثبت العثمانيون أنهم الورثة الحقيقيون لكل النشاطات المدنية والحضارية الكبيرة، أخذوا عن كل الأساليب المعمارية التي كانت موجودة ومشهورة في ذلك الوقت، وطوروها بأسلوبهم وطرزهم الخاص، بل ونجحوا في تطويرها في أكمل وأجمل شكل.

وكانت النتيجة أن ظهرت في الدولة العثمانية مساجد ودور عبادة كانت كل واحدة منها أثرًا متفردًا يحمل في طياته السكينة والطمأنينة السامية. كما أن العمارة العثمانية فاقت في هذه الساحة -وهي الساحة الدينية- العمارة الشرقية، فاقت أيضا وألبتة العمارة الغربية التي كانت تتمثل في الكنائس والتي كانت مشهورة بأنها مظلمة وبعيدة عن النور. كانت عمارة الكنائس أمام عمارة المساجد العثمانية متخلفة للغاية، وذلك لأن الكنائس كانت أبنية جافة عبارة عن كتلة من الأحجار الصلبة، تمتلئ من داخلها بالظلام مما يجعل النفس تضيق بها. أما العمارة العثمانية في المساجد فكانت أبنية ممتلئة بالسعادة والفرح لما فيها من نور يجعل القلوب مطمئنة، نور يعكس نور الإيمان بكل جوانبه. وقد تجلى هذا النجاح الخارق في عصر «المعماري سنان» الذي فاق كل الأبنية التي بناها بيده حدود كل الإنشاءات في ذلك العصر، وبالتالي فإن العمارة العثمانية وصلت إلى درجة ربما لن يتم الوصول إليها إلى يوم القيامة.

إننا لم نتمكن في تأليفنا هذا من التطرق على كل مظاهر النجاح في هذا المجال للدولة العثمانية بالقدر اللازم. مع ذلك لم نكن لنستغني عن إيراد آثار «المعماري سنان» الذي وصل إلى مرتبة يصعب الوصول إليها من حيث الأصالة والتناسب والتناغم والسكينة والاطمئنان التي كانت تشكل العلامة الفارقة في تاريخ حضارتنا - ولو كان ملخصا-.



دهاء لامثيل له عكس قدرة العثمانيين وأصالتهم على العمارة



معمار باشي (رئيس المعماريين) قوجه سنان

(٩٠/ ١٤٨٩-١٥٨٨م)

حصل سنان على لقب "سَرْ معماران خاصة" أي رئيس المعماريين في القصر.

تذكر بعض المصادر أن والده كان يسمى «عبد المنان» وأن جده كان يسمى «دُولْكَرْ يوسف» أصبح «سنان» من «الدوشيرمه»[1] وذلك لأنه أخذ من قرية «أَغِيرنَاصْ» بـ«قَيْصَرِيَّه» عندما بدأت الدولة تأخذ الدوشيرمه من أناضول أمر «السلطان سليم» لما جلس على العرش. ويعبر عن ذلك ببيته الذي نظمه بمناسبة وفاة «السلطان سليم»:

أنا من دوشيرمه السلطان

جعل الله مكانه روضة الجنان

١. "الدوشيرمه": هم أطفال الرعية، أخذوا من عوائلهم بكامل رضاهم، وتربوا على حسب قابليتهم. وكانت الدولة تأخذهم من العوائل النصرانية، أما في عهد السلطان سليم فبدأت تأخذهم من المسلمين أيضا.



ولكن لا بد لنا أن نذكر أن الاشتغال بالادعاءات المتعلقة بأن سنان من عرق كذا وكذا استنادا إلى كونه دوشيرمه يكون انشغالا في غير موضعه، بيد أن سنان المؤمن المخلص الصادق في إيمانه قد تربى في الأناضول المسلم. والأولى أن نعمل على تقييم العمارة في الوقت الحالي بأفق «المعماري سنان»، أي أن نعمل على تطوير العمارة التركية بنفس هذا الكمال الذي ظهر في أسلوب وطرز «المعماري سنان».

انضم «المعماري سنان» إلى الانكشارية بعد أن قام بالتحصيل العلمى لمدة سبع سنوات، وقد تمكن من رؤية الأبنية والمؤسسات الكثيرة في الأماكن التي كان يذهب إليها مع الحملات الحربية، وتوصل من خلال القابلية والملكة التي عنده في الناحية المعمارية إلى إيجاد تركيبات جديدة في تلك العمارة. وقد كانت كل تلك الحملات بالنسبة للحياة المعمارية لـ«المعماري سنان» بمثابة الأرضية للمشاهدات والتجارب الكبيرة التي استغرقت خمسين عامًا تقريبًا وعملت على تغذية ذكائه. وقد عمل هذا على ازدياد خبرة «المعماري سنان».

وكان أول مظهر لقابليته في المجال الفني قد تجلى أثناء حصار «قلعة وَانْ». فلما وصل الصدر الأعظم «لطفي باشا» بالجيش إلى «بحيرة وَانْ» طلب الحصول على معلومات عن الجيش الإيراني الموجود على الضفة الأخرى من البحيرة، فدعى إليه «سنان» وقال له: "عليك أن تهتم بتصنيع السفن!"

وبالرغم من قلة الإمكانات بدأ «المعماري سنان» في إعداد التجهيزات وتمكن من تصنيع ثلاث سفن قادرغة. وقد سعد «لطفي باشا» بهذا جدًّا، وبمرور الأيام كانت حلقة خدماته القيمة للدولة تزداد، وبفضل نجاحاته المستمرة وخدماته لحق بالترقيات غير المعتادة، فنال ترقيات كبيرة في وقت قصير حتى وصل إلى رتبة «رئاسة الحسكي» التي كانت من أعلى مراتب الانكشارية. فقد كانت النجاحات التي أظهرها في المجال المعماري في الحملات أحد الأسباب الرئيسية لتأمين الانتصارات للعثمانيين.

ففي حملة «بُغْدانْ» التي قام بها القانوني تمكن «سنان» من تأسيس جسر قوي على نهر «پرُوتْ» في ثلاثة عشر يومًا فقط. وقد اقترح عليه بعض رجال الدولة أن يؤسس قلعة على رأس هذا الجسر خشية أن يقع الجسر في يد الأعداء، ولكنه رفض تلك الفكرة بزعم أنها ستؤثر بالنفي على الروح المعنوية للجنود. وقد أعجب «القانوني» بفكره هذا، وقال مقدّرًا دور «سنان»:

"يجب علينا ألا ننسى أنه عندما ذهب المسلمون لأول مرة إلى أوروبا عبر «جبل طارق» قاموا بحرق سفنهم، ويجب علينا نحن أيضًا أن نكون على نفس النهج، وبالتالي لن نقوم ببناء قلعة تكون ملجأ للجنود يلتجؤون إليه عندما يضيق بهم الحال".

فاكتشفه «القانوني» بفراسة فنان يعرف معنى: "إن معرفة قدر أهل المهارة مهارة".

ثم قام بتعيين «المعماري سنان» رئيسًا للمعماريين الخاصة بعد وفاة «عَجَمْ عَلِى» التركي الآذري الذي كان يشغل المنصب. وبعدها بدأ عصر العجائب المعمارية التي نشرت القباب في المدن في حالة من التجليات الإلهية في العمارة العثمانية. وقد أسس «المعماري سنان» تلك الآثار العظيمة الفخمة بعضها تلو بعض بفكرة لم تُرَ من قبل.

وخصوصاً؛ لقد تأسست الكثير من الآثار التي لم يُرَ مثلها من قبل، خاصة أن الجهود التي جعلت من «إستانبول» إستانبولا بعد الفتح كانت على يد «سنان»؛ لأن مسألة إعمار وترميم مدينة «إستانبول» وقد كانت عبارة عن أطلال باقية من العهد البيزنطي، كانت مسألة مهمة للغاية بالنسبة للعثمانيين. وقد تم الانتباه لتلك المسألة منذ الأيام الأولى لفتح «إستانبول». فقد أقام «السلطان الفاتح» مأدبة للمشاركين في الفتح في «أوقْ مَيْدانِى»، و قال «آق شمس الدين» كلمة في تلك المأدبة جاء فيها:

"أيها الغزاة! لقد غفر الله تعالى لنا جميعًا إن شاء الله، ولكن لا تنفقوا مال الغنيمة في الإسراف، بل أنفقوه في إعمار المدينة بالخير والحسنات، وكونوا دائمًا مطيعين لسلطانكم".

وقد قيل في إعمار «إستانبول» الذي بدأ بتلك الحملة المذكورة:

المهارة هي إعمار مدينة

وإحياء لقلوب الرعايا أيضاً

وقد تشكلت في المدينة الكثير من الأوقاف علاوة على جهود السلاطين. وفي النهاية وصلت تلك الجهود بـ«المعماري سنان» إلى مقصدها بشكل جذري.

حقيقة القول: إن الآثار التي بدأت مع العثمانيين والتي زينت وجه المدينة بشكل لم يُرَ له مثيل من قبل، كانت قد تزدهر على يد «المعماري سنان». وكان المنهج الذي تم السير عليه في بناء تلك الآثار هو بناؤها على هضبة أو مكان مرتفع يطل على المدينة كلها، للتمكن من رؤيته من أي مكان في المدينة. وقد أكسب «المعماري سنان» الذي نجح بدرجة كبيرة في هذا الشأن، العمارة العثمانية أسلوبًا جديدًا يتفق مع الروح التركية الإسلامية، فأسس أماكن العبادة بأسلوب يمزج بين الروحانية والعظمة التي تلفت الانتباه.

وكان جامع شهزاده أول عمل كبير لـ«المعماري سنان» بين سلسلة أعماله الكبيرة. و أمر «السلطان القانوني» بتأسيس هذا الجامع تخليدًا لذكرى ابنه «الأمير محمد» الذي توفي، ويوصف هذا العمل بأنه "مرحلة البداية" لـ «للمعمار سنان».

كما أن جامع «رُسْتَمْ باشا» الذي يبدو وكأنه متحف للخزفيات من أعمال«المعماري سنان» في تلك المرحلة.



ويعتبر المجرى المائي الذي جلبه «المعماري سنان» إلى مدينة «إستانبول» بأمر من «السلطان القانوني» واحدًا من أهم أعمال «المعماري سنان» عندما كان يشغل منصب رئيس المعماريين الخاصة. فقد جلب تلك المياه إلى «إستانبول» مستخدمًا كافة أنواع التقنيات والعلوم في عصره. وكان المبلغ الذي أنفق من أجل تلك المياه التي أذهبت ضائقة الأهالي من المياه يفوق ما قد أنفق على بناء «جامع السليمانية».

وذلك لأنه كانت في مدينة «إستانبول» في ذلك الوقت ضائقة مائية كبيرة. وبفضل جهود «المعماري سنان» تم القضاء على تلك الضائقة بإنشاء الأسبلة في كل ركن من أركان المدينة. ولصدّ الإسراف في استخدام المياه تم ابتكار الصنابير بشكل اللّيّ الغليونى.

ومما يلفت الانتباه تلك الكلمات التي قالها «السلطان القانوني» لـ«المعماري سنان» لحل تلك الضائقة في المياه: "إن هدفي هو ضخ المياه في كل مكان من المدينة، وليتم عمل الأسبلة في كل مكان، وليتم حفر الآبار في الأماكن غير المؤهلة لعمل تلك الأسبلة، وبذلك يتم إيصال المياه العذبة إلى كل مكان، من أجل أن يستفيد منها كل الرعايا وبذلك يدعون له دوام الدولة!.."

وعندما تم حل مشكلة المياه في «إستانبول» لم تُنسَ الأراضي المقدسة، فقد أمرت «مهرماه سلطان» ابنة «السلطان القانوني» التي كانت تحب عمل الخير أمرت «المعماري سنان» بأن يقوم بترميم مجاري مياه «عين زبيدة» وبذلك أزالت مشكلة المياه عن الحجاج وعن أهالي «مكة المكرمة».

وقد كانت مسألة هندسة المياه لـ«المعماري سنان» مهمة بقدر هندسة الجوامع والأبنية الأخرى التي أسسها. إذ سمىَ حضارتنا بحضارة المياه.

❁

وبينما كان «المعماري سنان» يقوم بإظهار جهوده في مسألة الهندسة المائية، أمره القانوني بأن يؤسس مكانًا باسمه يحفظ له التاريخ اسمه به، فكان هذا الأثر هو «جامع السليمانية» العظيمة.

وتذكر الرواية في ذلك أن «السلطان القانوني» عندما قرر تأسيس هذا الجامع رأى النبي ﷺ في منامه. وقد أشار له الرسول ﷺ إلى المكان الذي سيتم تأسيس المسجد فيه، وقال له: "ليتم وضع المحراب هنا والمنبر هنا والكرسي هنا" ثم بيّن له الرسول ﷺ بعض التعليمات الخاصة بالعناصر الداخلية والخارجية للجامع.

استيقظ «السلطان القانوني» من نومه وهو في غاية الفرح، فشكر الله تعالى وعيناه تفيضان بالدمع، ثم صلى على النبي. في اليوم التالي ذهب فوراً إلى المكان الذي أشار عليه الرسول ﷺ وأمر باستدعاء «المعماري سنان» إلى المكان، وقال له:"أريد أن أبني جامعًا هنا" فقال «المعماري سنان» وكأنه كان ينتظر هذا الأمر من السلطان: "مولاي السلطان! سيكون بناء الجامع على ما يلي، سيكون المنبر هنا، والمحراب هنا، والكرسي هنا" وأشار إلى نفس الأماكن التي أشار إليها النبي ﷺ في الرؤيا.

تبسم «السلطان القانوني» وقال لـ«المعماري سنان»: "وكأنك على علم بالأمر!".

أحنى «المعماري سنان» رأسه بأدب، وقال للسلطان: "أنا كنت خلفك يا مولاي!" مظهرًا أنه رأى نفس الرؤيا.

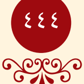
فزاد هذا من سرور وسعادة «السلطان القانوني»، وعلى الفور أمر بتأسيس الجامع.

ولأن «المعماري سنان» كان يبدو وكأنه ينتظر هذا الأمر، أمر على الفور بإعداد اللازم. وبعد أن وضع أول حجر أساس بيد شيخ الإسلام «أبي السعود أفندي» بدأ العمل في المسجد. وبالرغم من قلة الإمكانات في ذلك الوقت، بناء الجامع تم بناؤه في سبع سنوات[٢].

أظهر «المعماري سنان» في بناء هذا المسجد مهارة لا مثيل لها تعكس عظمة العمارة العثمانية، فقد أسس أثرًا يغرق القلوب في الفيض والوجد حتى وهو لا يزال في مرحلة المشروع.

وقد أتى «المعماري سنان» بالأعمدة الأربعة الكبيرة المطلوبة للجامع من «الإسكندرية» ثم «بعلبك» ثم «سراى العامرة» ثم «قيز طاشي». أما الرخام الأبيض الذي استخدم في البناء فكان من «جزيرة مرمرة» و الرخام الأخضر، فكان من بلاد

٢. كان هذا المسجد قد تكلف ٥٩ مليون أقجه أى ما يعادل (٩٩٦ ألف دوقة ذهبية = ٤٠٠ مليون دولار) أما المسجد بالكليات الملحقة به فتكلف ما يعادل ٣ مليار دولار.



العرب. وكانت الأبواب من أخشاب الأبانوس، والحوائط من خزف «إزنيك». كما خط الخطاط «القره حصاري» وتلميذه «حسن جلبي» الخطوط الجميلة الموجودة داخل الجامع.

ويُقال:"إن «القره حصاري» الذي كتب الخطوط الشريفة الموجودة بقبة الجامع، أظهر فيها عناية كبيرة بحسن الخط وهو ما كان قطعة من عظمة البناء. حتى إنه فقد بصره مع آخر حرف كتبه في القبة، وبذلك أغلق عينيه على الدنيا بعد تصحيح آخر حرف من الحروف التي كتبت على جدران وقباب الجامع المذكور. والنتيجة أنه فقد عينيه في سبيل هذا الجامع!... وقد قيل في ذلك:

لقد أحيى «القره حصارى» في الجدران

منعطفات الجذوع وخصلة الشعر

وقد لقي هنا بما كان يبحث عنه

كان «اليساري» ملهما من هنا.[٣]

أما «المعماري سنان» الذي جمع الدهاة المهرة مثل «القره حصاري» ووطّد في هذا الجامع -الذي لا مثيل له- الأصالة والسكون متداخلا، وأظهر أسلوبًا متناغمًا وبسيطًا. وقد نجح في إعطاء شكل متناغم ومتكامل للقبة المركزية وما حولها من قباب. حيث أن البناء يرتفع تدريجيًّا من الأرض، وينغلق في النهاية على بناء واحد عظيم. أما المزج بين القبة المركزية وأنصاف القباب وأرباعها، فيعطي نموذجًا عظيمًا على سر (الكثرة في الوحدة، والوحدة في الكثرة) الموجود في التصوف.

والذين يعيشون هذا السر فهم في حظ روحاني لعالم مختلف، ويقولون:

"لا نعلم أيها المعبد أفي الأرض

أم في السماء تؤدى تراويحك"

٣. القطعة الشعرية هذه، وبقية الأشعار في هذا القسم من الكتاب للشاعر المعروف «عارف نهاد»



حقيقة القول: إن «جامع السليمانية» يعد سلسلة من الرقة والمعنى المتميز في الجمال الذي لا حدود له، والذي يرمز إلى الوصول من البناء الكبير المتفرع إلى البناء الواحد أي إلى الوحدانية التي هي رمز الألوهية، ومن الواحد إلى التفرع مرة أخرى. لأن أي عنصر في آثار «المعماري سنان» لا تمحو وجود أي عنصر آخر في البناء.

وذلك لأن كل عنصر يعرض جماله داخل منظومة متكاملة. وتبرز هذه الخاصية في أعمال «المعماري سنان» التي تعرض حساسية وجهودًا وذكاء يفوق الإنسان.

ويقول الشاعر:

كي يتم العمل كأنه عمل مطرز

كأن العامل يزن النقاط والحروف

مئات الأشخاص عملوا لأعوام

وأضافوا قوة الإيمان لنور العين

وهذه الأبيات التي قيلت في بناء «جامع السليمانية» تعرض تفردًا لا مثيل له من حيث عمق المعنى و الهندسة.

«المعماري سنان الكبير» وضع في كل ركن من أركان الجامع جرات بلغ عددها إلى أربع وستين جرة، طول كل واحدة منها ٥٠ سنتيمترًا، أفواهها متجهة إلى الداخل وبذلك تم انعكاس الصوت داخل الجامع بشكل حساس.

والفراغات الموجودة بين القباب الداخلية والخارجية والتي تبعد عن بعضها البعض ٢-٣ أمتار، كما تكون سبباً في محافظة درجة الحرارة بمستوى معين صيفاً وشتاءً، فإنه تحقق نظاما صوتياً في نفس الوقت. من المشهور أن «المعماري سنان» جرب انعكاس الصوت داخل المسجد بتشغيل النارجيلة بأصوات خرير المياه في الشيشة، وأنه غـيّـــر بعد التجربة تنظيم انعكاس الصوت في الجامع. وقد فهم البعض هذا الطراز من العمارة خطأ واشتكوا إلى السلطان، إلا أن السلطان أمام هذه

العمارة الرائعة لـ«المعماري سنان» وأمام الإخلاص الذي أظهره في صنيعه لم يتأثر بأية شكاوى تُقال في حق «المعماري سنان». والنتيجة النهائية جعلت الناس ينبهرون به. وقد تحير أحد الشعراء من روعة بناء هذا الجامع فقال:

عندما أقول لنفسي ما هذه الحكمة؟

قالت الأصوات منعكسة ما هذه الحكمة؟

تلاعب الألوان والمعاني والدقة والسمو؛

كيف وحدّها «المعماري سنان»؟

وقد اعتبر «المعماري سنان» القبة الكبيرة في المسجد رمزًا للنبي ﷺ، فالقبة عند «المعماري سنان» بقيامها بانعكاس القرآن الكريم والأدعية التي تُقال في الجامع على المؤمنين، إنما هي مثل النبي ﷺ في تبليغه الأوامر التي أخذها من الله تعالى إلى المؤمنين. والتناغم الموجود بين القباب الكبيرة والصغيرة في هذا المعنى يداعب الأرواح، وجعل الشاعر يقول:

القباب التي تحيط ببعضها البعض كالعائلة

هل الصغار فيها أبناء للكبار؟

كأسرة محاطة بأفرادها أم أنها

أعشاش سعيدة للطيور والحمام؟

كما أن النوافذ الملونة التي كانت تعلو المحراب عمل كبير من صنع أستاذ ذلك العهد«إبراهيم أوسطى». وقد فهم «المعماري سنان» أن ضوء الشمس المنبعث من هذه النوافذ إنما يمثل أجنحة جبريل. كما أن الأعمدة الأربعة الضخمة الموجودة في المسجد والتي يرتفع الواحد منها إلى ٩,٠٢ أمتار، وقطره ١,١٤ مترًا للواحد ووزنه ٤٠-٥٠ طنًّا، شُبّهت بالخلفاء الأربعة.

وقد قال الشاعر في ذلك:



لقد أصبح هذا الجامع الموزون مثل كعبة
وهذه الأعمدة الأربعة أصبحت مثل الخلفاء الأربعة[٤]

أما المآذن الأربعة في الجامع فتعني أن «السلطان القانوني» هو رابع سلطان عثماني بعد فتح «إستانبول»، والشرفات العشرة، تعني أنه السلطان العاشر في سلاطين بني عثمان. كما أن المسجد بمآذنه المرتفعة إلى السماء تمثل المؤمن، الذي يرفع يديه إلى السماء ليدعو الله. وقد تأثر الشاعر من هذا المنظر فقال في ذلك مترنماً:

العمود قيام، والقوس ركوع
والمآذن في حالة الدعاء
عندما نرفع يدينا بالدعاء
والجامع دعاء لنا بمآذنه الأربعة

السحب التي تنتقل من قارة إلى أخرى
تقبّل المآذن وتمضى في طريقها وتمر
والليالي المباركة أيضًا تنثر نجومها
على رؤوس المآذن المباركة وتسير

ووجود غرفة لتراكم السخام المنبعث من الشموع في المسجد، ودخول الهواء بشكل منتظم إليها أنتج صنع حبر من أجود أنواعه، وهو ما يحير العقل كثيرًا.

وعندما كان «المعماري سنان» يؤسس الجامع توقف عن العمل لعام كامل، حتى يستقر المبنى. كما أن «المعماري سنان» غاب في هذه السنة عن البناء وذلك لأنه ذهب إلى الحجاز لترميم وتجديد المجاري المائية القديمة المعروفة باسم «عين زبيدة»

٤. من كتاب تذكرة البنيان، ألفه ساعي جلبي على لسان سنان. وأكثر المعلومات المتعلقة بسنان وآثاره مأخوذة من هذا الكتاب.



الممتدة من «بغداد» إلى «عرفات». ولعل السبب في اختفاء «المعماري سنان» هذه الفترة وذهابه إلى الحجاز سرًّا، هو طلب «مهرماه سلطان» ابنة «السلطان القانوني» التي أنفقت كل مجوهراتها على ترميم المجاري المائية المذكورة. وقد طلبت من «المعماري سنان» ألا يخطر أحدًا بهذا الأمر. وربط الجميع غياب «المعماري سنان» عن البناء الذي كان يتعجله السلطان بأن «المعماري سنان» كان يريد للبناء أن يستقر لمدة عام ثم تتم مباشرة البناء فيه مرة أخرى.

❁

وتذكر إحدى الروايات بأن أحد ملوك أوروبا أرسل رخامًا قيمًا للغاية من أجل أن يستخدم داخل الجامع. إلا أن «المعماري سنان» شك في الأمر نظرًا لأن هذا ملِكٌ غير مسلم ويساعد في تأسيس جامع، فأمر بكسر الرخام نصفين، فوجد صليبًا مركّــزا داخل الرخام، فأمر «المعماري سنان» أن يوضع هذا الرخام في مكان يطؤه الناس بأرجلهم ليكون عِبرة، ويوجد هذا الحجر الرخامي في موضعه إلى اليوم.

تبين أسس «جامع السليمانية» فخامة كبيرة بقدر كل العناصر الأخرى الموجودة في الجامع. فالأسس في الجامع على شكل نظام الشبكة التي يمكن السير فيها، وتسير المياه من تلك الطرق إلى الخزانات التي توزع المياه على كل مشتملات المسجد. وفي الأقسام الوسطى للجامع منافذ ذات أغطية خشبية على تلك المجاري المائية. فأمّن المعمار بذلك نظام التكييف أي التبريد والتدفئة للجامع. ومع الأسف تم إلغاء بعض منها في وقتنا الحالي، وبعضها الآخر تم إغلاقه بالأحجار. والمثير للدهشة أنه عندما يتم فتح تلك الأغطية نجد مجرى هوائيًّا، كما أن هذا الشكل للأساسات يعمل على تأمين الجامع ضد الزلازل.

ولهذا فإن المسجد وعلى مدار عدة عصور محمي من الزلازل التي وقعت في المدينة. إن الجامع في كل عصر من العصور يعرض أسرارًا جديدة يتم اكتشافها بمرور الوقت، وهو ما يجعل مَنْ ينظر إليه يضطر لأن يقول:

كأن الماضي مر مداعبًا

صيف بحرارته وشتاء بثلوجه

جمّلته أكثر بمرور الوقت

نفعت المواسم ونفعت السنين

حقيقة القول: يمكن مشاهدة العديد من العجائب والخوارق التي لم تكن ممكنة بالإمكانات العلمية والفنية لهذا الوقت، في هذا العمل الكبير لـ«المعماري سنان.»

ومن تلك العجائب تزيين الساحة الداخلية بثلاثمائة بيضة نعامة جلبت من أفريقيا وذلك حتى لا ينسج العنكبوت خيوطه على القباب.

لم يكن «المعماري سنان» يركز على فاعليات الإنشاء الجاف فحسب، بل كان ينقش شخصية فريدة للعمارة الإسلامية التي لا مثيل لها إلى اليوم بهذا البناء الذي أقامه. لقد كان «المعماري سنان» يختار كل المستلزمات المستخدمة في البناء بالشكل الذي سيجعلها تقاوم كل العصور. ولم يكن هذا من الناحية الاقتصادية فحسب، بل أيضًا من الناحية الإبداعية.

كان «السلطان القانوني» قلقاً؛ لأنه كان يعلم أن عملا كبيرًا كهذا لن يتم بسرعة كبيرة، وأنه ربما لن يتمكن من مشاهدة هذا العمل بعد إتمامه نظرًا لأنه أصبح هرمًا. ولذا كان يطلب من «المعماري سنان» أن يتم عمل الجامع بسرعة.

أما «المعماري سنان» فكان يفكر بأنه يجب عليه استخدام عنصر الوقت بشكل صحيح، مثل استخدامه لكافة العناصر والمستلزمات الأخرى التي ستجعل البناء يخرج في أحسن صورة. فإنه طوال حياته التي استمرت طويلا لم يكن يبدأ في تأسيس عمل بمجرد الانتهاء من عمل آخر، بل كان يباشر عدة أعمال في وقت واحد. إلا أن هذا الوضع جعل بعض المزورين يحقدون على مكانة «المعماري سنان» عند السلطان ويبدؤون في القيام بعمل بعض التزويرات.

فمنهم مَنْ قال للسلطان: "إن هناك شكًّا في تثبيت واستقرار القبة مكانها"

وقال بعض رجال الدولة لـ«المعماري سنان»:

"إن هذا من العناصر المتممة لبناء الجامع، إذًا عليك أن تبدأ ببناء ضريح بجنب الجامع" ثم عادوا إلى السلطان بالشكاوى لتأخر بناء الجامع.

وبناءً على هذا غضب «السلطان القانوني»، وذات يوم قرر أن يخرج فجأة لمراقبة بناء الجامع، وكان «المعماري سنان» وقتها مشغولا بتنظيم المحراب والمنبر. وكان المنظر يوحي بأن الجامع سيأخذ وقتًا طويلا في البناء، فقال «السلطان سليمان» لـ«المعماري سنان» بغضب:

"يا معمار باشي! لماذا تشغل نفسك بأعمال في أماكن أخرى وتهمل جامعي، ألا يكفيك أن يكون معمار جدي «السلطان الفاتح» قدوة لك؟"

ثم قال بحدة: "معمار باشي! متى سينتهي بناء هذا الجامع ويكون جاهزًا للعبادة؟ أخبرني بشكل حاسم الآن، وإلا فأنت تعلم الباقي!".

تحير«المعماري سنان» من غضب السلطان، إلا أنه قابله بحلم وأناءة؛ لأنه كان يعلم بأمر الشائعات التي تُثار حوله، ففكر بتعمق ونظر إلى الآفاق وبعدها قال للسلطان:

"يا مولاي السلطان! سيتم بناء الجامع تحت حماية دولتكم إن شاء الله في غضون شهرين".

ولما قال «المعماري سنان» ذلك تحير السلطان بقدر غضبه، وكاد يصدق ما قاله الناس عنه. أما مَنْ كانوا يشاهدون الموقف من المزورين ففرحوا كثيرًا؛ لأنهم كانوا يعلمون أنه من المستحيل أن ينتهي الجامع في شهرين.

ولأن «المعماري سنان» كان يعلم أن الشهرين سيمران بسرعة، وحتى يثبت عكس ما أثير حوله، عمل بجد ليلا ونهارًا، وأتم بالفعل الأقسام الأخيرة من الجامع



الذي سيظل لعدة عصور. والآن يقف «المعماري سنان» بين يدي السلطان وفي يديه مفاتيح الجامع، وقد أثبت الشاعر تلك الحقيقة بقوله:

يقولون إنه ولد من الدهاء

ولا يكفي لعمل مثل هذا الدهاء

ومَنْ لم يرَ هذا إذا أراد أن يفكر فيه

يقلّ عنده الخيال ولا تكفيه الرؤيا!

قد شعر «السلطان القانوني» بالسعادة الغامرة بقدر شعوره بالحيرة من إتمام «المعماري سنان» الجامع في هذا الوقت، وقال:

"ليتشرف رئيس معمارينا سنان بفتح هذا الجامع الكبير الفخم الذي تشرف بتأسيسه".

فـ«المعماري سنان» الذي بدأ في فن العمارة بعدما تعلم التواضع، أظهر عمقًا روحيًّا كعمقه في الظاهر بتفكره في الخطاط «قَـرَه حصاري» الذي قدم تضحية كبيرة في كتابة الخطوط في الجامع، حتى أصابه العمى في هذا السبيل وقال في أدب:

"يا مولانا السلطان! إن الخطاط «قره حصاري» فقد بصره أثناء تزيينه الجامع بالخطوط، فامنحه هذا الشرف". وبناءً على هذا أمر «السلطان القانوني» الخطاط «قره حصاري» بأن يفتتح الجامع بين دموع الحاضرين.

بعدها عيّن السلطان ٢٧٥ شخصًا لخدمة الجامع.

وأمر السلطان بأن يؤذن عشرة مؤذنين من فوق العشر شرفات في الأوقات الخمسة طوال السنين. وبذلك مُنحت «إستانبول» ضيافة من الصوت والتناغم والرحمة.

وصل «المعماري سنان» بعد إتمام بناء هذا الجامع الكبير إلى قمة الشهرة والرفعة، لقد كان سنان ذكيًّا ذكاءً عثمانيًّا، وأصبح يُلقب بالألقاب العظيمة ومنها: «رئيس

معماري العالم» و«مهندس العصر». وذلك لأنه تمكن من أن يعكس روحانية العبادة على العمارة.

ويا لجمال ما شعر به الشاعر يحيي كمال من هذه الروحانيات حينما ذهب إلى «السليمانية» في صباح العيد:

من السماء مَنْ يطير أو من الأرض مَنْ يسير إلى كل باب
يدخلون واحدًا تلو الآخر إلى هذا البناء الإلهي

قد نذر إلى ربه أن يبني مبنى كهذا
شعب أشد الشعوب وأقتلهم وهو شعب وجيش
كي يكون أجمل المعابد لآخر الأديان
هذا هو الشكل الخالص الذي يتخيله المعماري
اختار هذه الهضبة القدسية في أفق إستانبول
حتى يرى الأبدية جيدا من كل مكان
حمل مسلزماته الغزاة وقوادهم معًا
قد غلب على الأحجار آلآف من العمال والمعماريين
فتح هذا المعبد باباً أخرويا من هنا إلى السماء
للوطن الحر والفسيح ولنهاره وليله
حتى يمر جيش الأرواح إلى الرحمة الأزلية
معمارى هذا المعبد؛ معبد النصر جندى واحد

أيها المعبد العظيم! إني أفهمك هذا الصباح
إني فخور اليوم بأنني من جملة ورثـــتـــك

في فترة ظننته نصبًا تذكاريًا هندسيًّا

عندما أنظر إلى الجمهور تحت قبتك

كأنني دخلت إلى إقليم مغفرة أجدادي

إقليم رأيته في رؤياى منذ عدة سنوات واشتقت إليه

حشود من الناس لغتهم واحدة وقلوبهم واحد وإيمانهم واحد

يرون أن الأرواح تجمعت في مكان واحد

والكل يذكر الله العظيم في صوت واحد

آلاف الموجات من التكبير تصبح وكأنها صوت واحد

وهنا يجب أن نقول:إن «المعماري سنان» بملحقات السليمانية التي أسسها على شكل المدينة بحمامها ومدرستها ومطعمها الخيرى ومكتبتها، كان بمثابة مثال لفراسة وكرامة السلطان «بايزيد الثاني» التي أظهرها قبل سنوات[٥] وكانت تتعلق بعمارتنا. فنتيجة لتلك الفراسة ظهرت الكثير من التقدم كالسليمانية.

استطاع «المعماري سنان» بذلك التطور أن يعمل على استمرار تلك الجهود المعمارية التي بدأها في عهد القانوني وحتى عهد «السلطان سليم الثاني» وكانت تشمل الكليات والأسبلة والخانات والحمامات والمكتبات والقصور التي أسسها في كل ركن من أركان الدولة العثمانية.

كيف استوعب عمره المحدود كل هذا الكم من الآثار؟ هذا أمر مجهول! لأنه حقّق في عمره ما لم يكن يتحقق خلال أربعمائة عام. الشاعر ينظر إلى حال السليمانية الواقف بين أكتاف التاريخ وكأنه يتهيأ للارتقاء إلى المعالي ويقول بشكل لا إرادي:

أنت تعلم بالتأكيد لأنك الأقرب

كم من أثر له أضعاف عمره

---

٥. انظر: قسم بايزيد خان الولي من هذا الكتاب.



ولكن قل: كيف استوعب ما صنعه

في عمر المعمار باشي؟

وبالرغم من أن «المعماري سنان» وصل إلى هذه الدرجة من الشهرة إلا أنه لم يضع توقيعًا له على هذا الأثر العظيم جامع السليمانية.

ولعل هذا دلالة على سمو وعلو نيته وغايته في تأسيسه، بل إنه اكتفى بأن يؤسس قبره في مكان خارج مُجَمَّع السليمانية وعلى مقربة منه، ليكون كالتوقيع المتواضع على آخر الوثيقة التاريخية، وهو ما جعله أبديًّا مثل أثره.

وقد نظم الشاعر متأثرًا بتلك المشاعر السامية:

عندما يطفح أثره من الحسابات

فإن المعماري سحب نفسه منه

فالنجاح هنا، والتواضع هنا

فالأثر عال و سام، والتوقيع مثل النقطة

ليكون عِبرة لنا بالنظر

هذان البطلان اللذان أرسلهما

أقول إلهي أرسل اليهما سميا يليق بهما

أرسل إلى سنان وإلى سليمان



وبعد أن أسس «المعماري سنان» جامع السليمانية الذي قال عنه: إنه أثره في مرحلة التدريب، أسس جامع السليمية الذي اعتبره أثره في مرحلة النضج، ذلك الأثر الذي كان يعرض عظمة وفخامة فنية حتى ذلك الوقت أمام أي أثر في العالم.

كان «المعماري سنان» في بداية تأسيس هذا الأثر في الرابعة والثمانين من عمره، أما بخصوص قراره تأسيس هذا الجامع ففيه قصة فيها عِبرة كبيرة وهي على ما يلي:

كان البحر الأبيض المتوسط بمثابة البحيرة العثمانية في ذلك الوقت وقبل ذلك أيضًا، إلا أن «جزيرة قبرص» لم تُفتح وذلك لأن القانوني تُوفي قبل فتحها. وبمرور الوقت كانت مشكلة «جزيرة قبرص» تؤرق الدولة لا سيما وأنها كانت تهدد أمن الطريق البحري الذي يسير فيه المسلمون الذين يذهبون إلى «مكة» لأداء الحج. ولهذا قرر «السلطان سليم الثاني» أن يحقق الفتح، الذي لم يتحقق في عهد والده القانوني.

وحتى يحقق حلم فتح «جزيرة قبرص» جمع رجال الدولة، وبعد مشورة طويلة قرر السلطان أن يخرج الأسطول العثماني إلى البحر لفتحها. ونذر السلطان بأنه إذا يسر الله له فتح الجزيرة فإنه سيقوم ببناء جامع كبير لله.

وفي النهاية يَسَّر الله تعالى له فتح الجزيرة، وأصبحت «قبرص» ديار إسلام. ولكن بسبب مشاغل «السلطان سليم الثاني» وكثرة أعماله نسي نذره، وبعد فترة رأى النبي ﷺ في منامه، قال النبي له:

"يا سليم! لقد حقق الله لك مرادك، فلتكن صادق الوعد، ولتقم ببناء الجامع الذي نذرته من أموال غنيمة «قبرص» في مدينة «أدرنة»".

اسيقظ «السلطان سليم الثاني» من نومه تتملكه الدهشة، وكان في قلبه خجل؛ لأنه لم يفِ بوعده من ناحية، وفرح بأنه رأى رسول الله ﷺ في منامه من ناحية أخرى.

وفي الصباح قص رؤيته على مربيه «مصطفى باشا». كان الباشا يستمع بدقة إلى الرؤيا ثم قال للسلطان متحيراً:

"يا مولاي السلطان! يا لهذه الحكمة وكأنك تقص عليّ الرؤيا التي رأيتها أنا ليلة أمس".

وشكر السلطان ومربيه الله تعالى على أنهما رأيا رؤيا واحدة، وقاما بالصلاة على النبي وعيونهم تذرف الدمع.

بعدها جمع «السلطان سليم» الوزراء والعلماء وأركان الدولة، وأخبرهم بأنه قرر بناء جامع كبير في «أدرنة» بناءً على رؤية رسول الله، ثم توجه بالخطاب إلى أكبر معماري في ذلك العصر وهو «المعماري سنان» حيث قال له:

"أيها الأستاذ الكبير! الذي زينت الدولة العلية كلها بالمساجد والآثار الكبيرة. لقد سمعت ما قلناه وفهمته، وأنا أطلب منك أن تبني جامعًا لا مثيل له في العالم كله".

فرد «المعماري سنان» وقلبه مملوء بالوجد، دامع العينين:

"يا مولاي السلطان! طالما أن الرسول ﷺ اهتم بأمر بناء هذا الجامع، فإن هذا الجامع سيكون باقيًا بإذن الله ما دامت الدنيا باقية!..".

ودون أن يضيع السلطان الوقت اصطحب رجال الدولة ومعه «المعماري سنان» وسار إلى طريق «أدرنة». وبعد أن عاين «المعماري سنان» كافة الأماكن، رأى أن أنسب الأماكن لبناء الجامع هو ذلك المكان الذي كان يشمل حديقة خزامى(توليب) في الحي المُسمى بـ«قَواقْ مَيْدَانِي» بـ«صَارِي بَايِرْ». وذلك لأن هذا المكان كانت تحيط بظلاله كافة النواحي.

وكانت هذه الحديقة ملكًا لأحد الأشخاص المسمى «لالَه جِي بَابَا» [هذا يعنى أنه مشهور باشتغاله بالخزامى]. وكان شخصية معارضة؛ حيث رفض تأسيس الجامع في حديقته حتى لا يفسد حديقته. ولم يحرك ساكنًا لفرمان السلطان القائل:

"ليتم دفع المال كبدل الحديقة أضعافًا مضاعفة!".

إلاّ أنّه في النهاية أطاع الأمر لما كلمه «المعماري سنان» بكلمات رقراقة تلين القلوب. ولما أوضح له أن السلطان سيبني هذا الجامع بإشارة من النبي ﷺ، وهب«لالَه جِي بَابَا» كل حديقته للجامع بشرط أن يقوم بعمل نقوش ورد الخزامى على جدران الجامع. وقد سعد «المعماري سنان» بهذا كثيرًا، وجعل سنان بالفعل يقوم بتزيين أحد الأعمدة الموجودة تحت محفل المؤذن برسوم زهور الخزامى بشكل

معكوس. وبهذا عُرفت تلك الرسوم بين الناس حتى ذلك الوقت بأنها الوردة المعكوسة للرجل المعاكس المعارض كل شيء.

على أية حال قام هذا الرجل الذي كان يحب المال حبًّا كثيرًا بهبة كل حديقته لله تعالى لتأسيس الجامع، وهذا بالطبع كان فضيلة من فضائل الرجل. وقد تم تزيين الجامع بالزهور الملونة مثل القرنفل والورد والبنفسج والخزامى والسنبل.

وقد وضع السلطان ومعه «المعماري سنان» حجر الأساس للجامع في افتتاح كبير، وقد شارك في بناء الجامع ١٤ ألف عامل، و٤٠٠ أسطى. وقد بلغت مساحته الإجمالية بكافة المباني الملحقة به ٢٢ ألف متر مربع، وتم تأسيسه في ٦ سنوات (١٥٦٩-١٥٧٥م).

وقد اجتهد «المعماري سنان» كثيرًا في توضيح اتجاه القبلة. وبينما كان يسعى لتحديد القبلة، إذا بشيخ طاعن في السن يأتيه ويسأله عما يفعل، ولما أجابه «المعماري سنان» أشار الرجل إلى قطعة رخام وقال:

"يا رئيس المعماريين! اصعد على هذا وسترى القبلة واضحة بإذن الله تعالى!".

وبالفعل صعد «المعماري سنان» فوق قطعة الرخام، وإذا به يرى الكعبة أمامه.

❁

وضع «المعماري سنان» بذكاء حاد أسس هذا الجامع الذي طلبه «السلطان سليم الثاني» منه بناءه شكرًا وحمدًا منه لله على فتح «قبرص». أي أن تأسيس هذا الجامع كان فيه عبقرية كبيرة، فالذي يدخل إلى مدينة «أدرنة» من أي مكان يرى أول ما يرى الجامع بفخامته وعظمته. كما أن الجامع يحير كل مَنْ زاروه بمآذنه، فتلك المآذن الرائعة تُرى من الاتجاهات المختلفة بأنها ثنائية ثم ثلاثية ثم رباعية. ولما رأى الشاعر هذا المنظر لم يستطع أن يتمالك نفسه عن قول:

هنا التاريخ، هنا الشرق والغرب!!

من شهد هذا المبنى فليُرِ لنا مثل هذا الإوز(تَمٍّ)

ومن العجائب الأخرى الموجودة في تلك المآذن أنها ليست سميكة بل تبدو كالقلم، والعجيب فيها أن كل مئذنة منها تستوعب ثلاث طرق مختلفة بحيث يصعد مؤذن من كل باب ولا يرى المؤذن الآخر. وهذا يعني أن السلم الأول كان يصعد إلى الشرفة الأولى فقط، والسلم الثاني كان يصعد إلى الشرفة الأولى والثانية؛ والثالث كان يصعد إلى الشرف الثلاث.

كما أن ارتفاع هذه المآذن الدقيقة بهذا الطول إلى السماء ذكاء آخر لهذا المعماري، لدرجة أن بعض المعماريين لم يفهموا القصد من ارتفاع تلك المآذن فسألوا «المعماري سنان» عن السبب في هذا قائلاً:

"أيها الأستاذ الكبير! لِمَ أصبحت المئآذن طويلة كهذه؟"

فأجاب «المعماري سنان» جوابًا مفعمًا بالمعنى والعِبرة:

"إن هذه الأراضي لن يدخلها العدو، وحتى لو دخلها فإنه لن يبقى فيها، لأن تلك المآذن ستصرخ إلى العرش قائلة بأن هذا البلد مسلم تحت حكم الأتراك!..".

وجامع السليمية هو الجامع الوحيد في تاريخ العمارة صاحب تلك القبة الواسعة للغاية والمنخفضة في الوقت نفسه. وهذا واضح في الجامع واختلافه عن بقية الآثار الموجودة في العالم كله من حيث الارتفاع وانتظام الضوء وسعة المكان.

ويتضح من كل أثر من آثار «المعماري سنان» بأنه اتبع في كل أثر بناه طرزًا جديدًا. ولهذا اكتسبت العمارة التركية على يده معنى جديدًا يفوق كل أنواع العمارة في العالم كله بأسلوب بناء القبة المركزية، التي بدأت مع العصر الكلاسيكي للعمارة التركية. فالقبة في آثار «المعماري سنان» عظمة في المكان من الداخل بقدر عظمتها من الخارج.

ولأنه كان من الضروري تأسيس المبنى على شكل مربع حتى يتم الحفاظ على تنظيم جماعة الصلاة، فقد أسس «المعماري سنان» نظام تغطية المبنى من أعلى بالقباب والكمرات بالأقواس، وذلك حتى يحد من صلابة الخط. و«المعماري سنان» بتأسيسه الأقواس مع الخطوط المستقيمة في كل المساجد التي بناها أوجد تناسبًا بين الضدين

كهذا الموجود بين السماء والأرض. وهنا يكمن السر في القباب الكبيرة التي تقف وكأنها معلقة في السماء.

وبالرغم من أن «المعماري سنان» انتبه لهذا في كل آثاره، إلا أنه زاد على ذلك في جامع السليمية؛ حيث عمد إلى جعل القبة أكبر بكثير من مثيلاتها، وقال:

"لقد سمعت المهتمين بالعمارة النصرانية يقولون: إنه لا توجد في الدولة الإسلامية قبة كبيرة تضاهي قبة «آيا صوفيا». وقد ظلت تلك الكلمات كالعقدة في قلب العبد الفقير، وفي النهاية هداني الله إلى تأسيس قبة السليمية. وكانت أكبر من قبة «آيا صوفيا» بستة أذرع من حيث الارتفاع، وأربعة أذرع من حيث الاتساع، وبذلك أصبحنا نحن الغالبين على الكفرة الفجرة".

لقد تبنى«المعماري سنان» لنفسه كل الأحكام القيمة للعالم الإسلامي، وعرف كيف يعبر عن هذا في آثاره. وقد عبر الشاعر متحيرًا أمام هذا التعبير للمعمار سنان:

ما أمهره ذاك أستاذ الإلهام والسعي

وضع الألغاز تحت الأحجار

فاحتارت الأجيال واحتارت القرون

لهذه السلطنة من الرخام والرصاص!

حقيقة لقد وضع «المعماري سنان» الكثير من الألغاز تحت الأحجار. فعندما وضع محفل المؤذن تحت مركز القبة مباشرة، فإنه كان يعبر عن رمز الجامع والمحفل للعرش والكائنات، أما محفل المؤذن فإنه كان رمزًا للبيت المعمور والكعبة في الوقت نفسه. أما النصف دائرة التي تخرج عن التربيع إلى الخارج، فإنها تمثل النصف الدائرة الملاصقة للكعبة والمسماة «الحطيم». وقد استخدم «المعماري سنان» في بناء محفل المؤذن نصف المقاسات الموجودة في الكعبة، فخرجت تلك المقاسات في غاية الدقة والتناغم، وقد قيل في ذلك:

لم يكن له خطأ أو زلة يد

ولم يخطئ مثقال ذرة

لم يتقدم و لم يتأخر قدر شعرة

فإن كل قطعة تبــنّــت المكان الذي وضعت فيه

يمتاز هذا الأثر الذي ليس له مثيل بالآتى:

١- كونه على خمسة خطوط، يدل على شروط الإسلام الخمسة.

٢- الطريق الثلاثي الموجود في مئذنتين يعني الأسس الستة للإيمان.

٣- الاثناعشر قدمًا لمحفل المؤذن تعني الفروض الاثنتي عشرة الموجودة في الصلاة.

٤- وجود أربعة كراسي للوعظ، تعني المذاهب الأربعة الحقة.

٥- مجموع الأبواب الاثنين والثلاثين للمجمع كله تعني ٣٢ فرضًا.

٦- وجود ٩٩٩ نافذة يعني التعظيم للكعبة (فمن المقبول عند العامة أن للكعبة ١٠٠٠ نافذة.)

٧- اتساع القبة يعني الانتصار على العمارة النصرانية.

وبالرغم من تلك العظمة وهذه الشهرة التي كانت لـ«المعماري سنان» كان يرى نفسه أمام الله تعالى كالنملة الصغيرة. فقد كان متواضعًا للغاية، فبالرغم من آثاره الكبيرة العظيمة لم يُرَ عليه أثر الغرور أو الكبر، وهو ما جعله يضع عبارة: "النملة العاجزة الفقير الحقير" إلى جانب عبارة "سر معماران خاصه" التي كانت موجودة على خاتمه.

وعندما اقترحوا أن يوضع اسمه على النقش الكتابي عندما أتم بناء «جامع سليمية» رد عليهم بقوله: "ومَنْ أنا؟ حتى أضع اسمي على بيت الله!..".

أليس في هذا الجواب عمق معنوي يوازي عظمة آثاره. ولعله بسبب تواضعه هذا تمكن من النجاح في ذوبان عظمة جدران تلك الأبنية في كل الأبنية التي

بناها. فإن تلك الحوائط العملاقة لا تلفت النظر بكبرها بوسيلة اللوحات الخزفية والخطوط الجميلة والنقوش المزينة من ناحية وبوسيلة الشعاع المنتشر من النوافذ من ناحية أخرى.

وببركة هذا التواضع المتأصل في نفس «المعماري سنان» ارتقى ذلك القروي البسيط تدريجيًّا بفضل تكامل النظام العثماني، وبرز كفنان لا مثيل له بشخصيته العملاقة ليس في العمارة الإسلامية، فحسب بل في العمارة العالمية كلها.

واعترف وقدر أصحاب الحرف المختلفة وعلى رأسها المتخصصين في العمارة سواء الأتراك أو الأجانب، مكانته التي لم يصل إليها أحد.

وما يلي بعض النماذج التي قيلت عن جامع السليمية:

"لا أصدق أن هذا العمل من صنع البشر" (محقق أوربي)

"ولو تنقلب تلك القبة الضخمة وتمتلئ بالذهب، فلن يمكن للعمارة في القرن العشرين أن تصنع مثل هذا الجامع من غير وجود «المعماري سنان»" (المعماري الإنجليزي الكبير ألويس)

"إن الآثار التي على الأرض كالنجوم في السماء، و«آيا صوفيا» قمر، أما «السليمية» شمس". (إينْجَلْبْجيك الألماني)

"لو لم أعلم أن الأتراك هم الذين بنوا هذا الجامع لقلت: إن الله هو الذي بناه." (اللواء البلغاري ألكسندر)

"إن الذهاب إلى القمر بالصاروخ أسهل من صنع هذا الجامع". (مجلس العمارة الأمريكي الأعلى)

"إن جامع السليمية أكثر قيمة من وزنه ذهبًا". (فتاة ألمانية)

"أنا أخجل أن أكون مدرسًا لأبناء أمة بَنَتْ مثل هذا الجامع". (معماري ألماني)



"إن «جامع السليمية» كالسلطان على كل الآثار التي على الأرض، و«المعماري سنان» كالسلطان على كل المعماريين". (مدير معرض الفنون الجميلة بإيطاليا)

"كان الجيوش عند خروجها إلى الحملات تقيم صلاة الجمعة في السليمية، ويدعون ثم يسيرون". (عثمان باشا بطل بِلَوْنَه)

"كما سلمنا التاريخ «جامع السليمية» أمانة فإننا يجب علينا أيضًا أن نسلمه أمانة للمستقبل، لأننا موجودون بوجودهم". (الفريق وَاحِدْ كُونْ أَرِى)

ونتيجة الاهتمام الكبير الذي أظهره «السلطان سليم الثاني» بهذا الجامع، فإن المعونات الكبيرة التي أظهرها له كانت مهمة للغاية. فبسبب الرؤيا التي رآها كان يهتم بنفسه بسير العمل في بناء الجامع، لدرجة أنه كان يختار بنفسه ألوان الخزف، التي ستوضع فيه.

وقد حصل المعماري سنان على القوة المعنوية والمادية من هذا الاهتمام الذي أظهره السلطان، وجعل ملزمة الجامع مثل العجين في إطار فكرة «الخدمة أبد الآبدين» وأخرج هذا الأثر إلى حيز الوجود.

وقد شبه الشاعر هذا الجامع الذي لا مثيل له بالطائر المستعد للطيران، وشعر بأنه يحتاج إلى ما ينبه الوارثين لهذا الجامع من بعد فقال:

قل للمسافرين في هذا الزمن

أيتها الطيور وأيتها الحمائم

لا يزعجوا هذا الطائر اللطيف

الذي حط على الهضبة



من ناحية أخرى عندما نراجع مسألة النسب بين هذين الجامعين اللذين هما من أكبر وأعظم آثار «المعماري سنان»، فإنه ليس من الممكن عدم رؤية المعنى السامي الكامن في أساس هذين الجامعين:

ففي جامع السليمانية نجد ارتفاع القبة عن الأرض ٤٥ ذراعًا، أما ارتفاع القبة من الأرض وحتى علم القبة ٦٦ ذراعًا. أما في جامع السليمية فإن قطر الدائرة التي تمر من مركز الأعمدة الثمانية الكبيرة التي تحمل القبة ٤٥ ذراعًا، وارتفاع كمر القبة عن الأرض ٤٥ ذراعًا، أما ارتفاع المئذنة من هذا المكان فهو ٦٦ ذراعًا. والخمسة والأربعون بحساب الأبجدية تساوي كلمة «آدم» والستة والستون تعني كلمة «الله» كما أن المسافة بين المآذن القريبة من القبة في كلا الجامعين ٩٢ ذراعًا. وتعني كلمة «محمد» وها هو منبع الطمأنينة والمعنوية الموجودة في الآثار التي بناها أجدادنا!.

وما أجمل ما قال الشاعر:

الأمس كانت الرؤوس والأيدي في حالة النفير
صُهر الرصاص وسُحب الرخام
هذه القبب وهذه المآذن وغيرها
ليست أشياء تتحقق بالمال

الطريق الذاهب إلى الله هنا
تُفْتَح الأبواب من الشرفات
ومن هنا تُودّع الشهور المباركة
والعيد يبدأ من هنا من أيام عرفة

صنع القباب والكمرات والمحاريب
السلطان والوزير والشيخ والشباب
لينتقل من جيل إلى جيل
التكبير العظيم على الأجنحة

لو تمر من تحت هذا الكمر

ستجد الورود البنفسجية بالداخل

وباب الله لا يغلق في خمسة أوقات

ممتلئ من داخله ومملوء بأصوات المؤمنين

خزف، خزف، و خزف جديد

طلاؤها نور العين وفرشاتها أهداب

أيها الفن! لقد أتينا من أجل

أن نقول:أعط ورقة خضراء لأغصاننا الجافة

فهذا خط، وهذا رخام و هذا البرونز

لقد بحث عن سر الرصاص فوجده

فى لفظ الجلالة في يد «اليساري»

أصبح في يد سنان مئذنة وقبة!

وبسبب جامع السليمية والسليمانية عرفت قيمة «المعماري سنان» وهو لا يزال على قيد الحياة، وبرز بهوية الفنان الذي لا مثيل له. وكان يأتيه المعماريون من كل مكان ليسألوه عن مشاريعهم والأبنية التي يؤسسونها. ويمكن القول بأن كل النشاطات العمرانية التي كانت في العالم القديم في الدولة العثمانية كانت من تحقيق وتدقيق «المعماري سنان».

ومن ذلك على سبيل المثال أن «المعماري سنان» في عهد «السلطان سليم الثاني» طلب هدم كافة المنازل الموجودة بجوار «آيا صوفيا»؛ لأنها كانت في وضع يمكن أن يصيب الجامع بالضرر، وأسس الأبنية المدعمة، وبذلك أعاد الحياة والتجديد لآيا صوفيا من جديد وخلصها من الانهدام.

وقد أسس «المعماري سنان» مئذنتين جديدتين للجامع، وأحاطه، وأعلى مبانيه، وأعطى الجامع الشكل المادي والمعنوي الموجود عليه حاليًّا. وعلى هذا فإن استمرارية وجود هذا البناء كانت من المداخلات الذكية للغاية لـ«المعماري سنان».

كما أسس «المعماري سنان» قبرًا لـ«السلطان سليم الثاني» في حديقة «جامع آيا صوفيا». فإن اهتمام «المعماري سنان» بـ«آيا صوفيا» بهذا القدر، يرجع إلى احتلاله الدرجة الأولى في التشريف كعلامة مميزة على الفتح. وفي الوقت نفسه الذي جلب فيه «المعماري سنان» المياه إلى «إستانبول» لم ينس الحجاز، كما تابع ترميم جامع قبة الصخرة أيضًا.

كما أن قلاع الهند المشهورة، وهي قلعة «دلهي» و«كشمير» و«لاهور» و«أَكْرَا»، كانت من صنع تلميذه «المعمار يوسف». كما أن «تاج محل» الموجود بالهند والمعدود من عجائب الدنيا السبع من صنع تلميذه «محمد عيسى جلبي الإستانبولي». وبهذا نقل «المعماري سنان» خبرته في العمارة إلى أماكن أخرى، بل إلى العهود التالية له. وقد كان «جامع السلطان أحمد» و«جامع الوالده سلطان» على نفس نهج وطرز «المعماري سنان».

لقد عمل «المعماري سنان» حتى آخر لحظة في عمره على تأسيس الخيرات والمطاعم الخيرية في كل ركن من أركان الدولة، وذلك حتى يجلب الطمأنينة والسكون والراحة والنظافة للمؤمنين.

وكان في تلك الأبنية الخيرية التي بناها والتي كان يستفيد منها كل شخص في الدولة فقيرًا كان أم غنيًّا مشاعر بتكامل الشخصية التي قدمها الإسلام. والرغبة في بناء الآثار التي ستبقى ما دامت الدنيا باقية والتي سيستفيد منها كل الناس كانت في حالة ديناميكية كبيرة عند «المعماري سنان». وهذه الرغبة بالطبع كانت نابعة من حث الرسول ﷺ على ذلك في قوله:

«**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث...**» (مسلم، وصية، ١٤)

ولأن «المعماري سنان» كان يرغب في رضاء الله تعالى فقد أسس ٨٤ جامعًا، ٥١ مسجدًا، ٥٧ مدرسة، ٢٢ ضريحا، ٧ دورللقراء، ١٧ مطعم خيرى، ٣ مستشفيات، ٧ مجار مائية، ١٨ نزل طريق، ٣٥ قصرًا، ٨ مخازن، ٨ جسور، ٤٦ حمامًا.

ولكن يجب علينا أن نقول هنا: إننا في الوقت الحالي ومع الأسف لم نهتم كما ينبغي بتلك الآثار التي خلفها «المعماري سنان» ومَنْ سار على نهجه، والحقيقة المؤلمة التي تعتصر أرواح أجدادنا الأعزاء، وخاصة المعماري سنان، هي رؤيتنا إهمال تلك المشاهد واللوحات في كل يوم يمر علينا.

فاليوم نرى بوضوح، ماذا ضيعنا بعدم احتفاظنا لتلك الأمانات وما كسبنا... ويجب ألا ننسى أن تلافي بعض الأضرار لا يمكن حتى ولو عاد الإنسان إلى صوابه وندم على ما فعل. وقد قيل على ألسن الناس كضرب من ضروب المثال:«بعد خراب البصرة»!..

وقد عبر محمد عاكف – رحمة الله عليه– عن هذه الحقيقة في شعره بهذا التعبير بكل وضوح:

هل الهدم يعطي الناس قيمة مثل البناء؟

ثق أن الهدم يفعله أبسط الناس

ويكفي أن تشير بأن تقول هذه قبة

فتنهدم السليمانية بعاملين

ولكن لما قلت لنقيم، هيهات حينئذ

فيلزم لهذا سليمان وسنان من جديد!



وبالإضافة إلى تلك الخدمات التي قام «المعماري سنان» بها من أجل إرضاء الله تعالى، وإلى جانب معماريته برز جانب آخر فيه وهو جانب الوقف الذي يهتم



بالمساعدة الاجتماعية. ويروى أنه مات مديونًا بسبب هذا الكرم المفرط في هذا الجانب، وذلك لأنه شخص عاش في عهد عرف فيه كل الناس من سن السابعة وحتى السبعين أهمية الاتجاه إلى الوقف في سبيل الله، وكان نموذجًا وقدوة في ذلك. ولهذا أسس الكثير من الأوقاف وقام بالعديد من الخدمات.

ومن اللافت للانتباه أنه بالإضافة إلى الوقف الذي أسسه في قريته المسماه «أَغِيرْنَاسْ» والذي كان عبارة عن سبيل للمياه، قام بوقف مساحة واسعة من أجل راحة الدواب التي تأتي للشرب من هذا المكان. وهذا يظهر أن خدمة «المعماري سنان» المزينة بالرحمة والشفقة لم تهمل حتى الحيوانات.

ولعل وجود مدرستين ضمن الخدمات الخيرية التي أسسها «المعماري سنان» واشتراطه في وقفية هاتين المدرستين إكساء الطلاب الأيتام، الذين سيدرسون في هاتين المدرستين، إنما هو دلالة واضحة على القيمة التي أعطاها «المعماري سنان» للعلم والعرفان.

وبالإضافة إلى ذلك أظهر «المعماري سنان» جهودًا في سبيل اعتناق النصارى الإسلام من أقربائه في بلده، وربط لِمَنْ أسلم منهم راتبًا من وقفه حال حياتهم.

وقد وضع «المعماري سنان» البنية الاجتماعية نصب عينيه في خدماته الوقفية، لذلك وجدناه قسّم تلك الخدمات في وقفيته إلى خمس مجموعات:

١- فاعلية الإرسال إلى الحج.

٢- فاعلية عمل الأرصفة.

٣- فاعلية العوارض (وخاصة المصائب والكوارث التي يكون المجتمع في حاجة إليها في وقت الحرب خاصة).

٤- فاعلية الإصلاح والترميم.

٥- فاعلية إكساء الطلاب الأيتام.

و«المعماري سنان» بخدماته هذه أعد نفسه للدار الآخرة وعاش كمؤمن موحد مخلص مطمئن في هذه الحياة الفانية. وتُوفي عام ١٥٨٨م عن عمر يناهز ٩٩ عامًا. ودُفن بناءً على وصيته في قبره المتواضع الموجود على مقربة من كلية السليمانية.

رحمة الله عليه!.

أيها القراء الأعزاء، يجب على كل شخص عابد تعمق في المناخ السامى لآثار «المعماري سنان» العظيمة أن يقرأ على روحه المباركة سورة الإخلاص ثلاثًا، والفاتحة الشريفة تلبية لطلبه الموجود على قبره "ليقرأ الفاتحة الشيخ والشاب على روحه".

اللهم أحسن إلى عبدك جدنا «سنان» بالفردوس الأعلى يتجول فيه كيفما يشاء؛ لأنه خدم المؤمنين والدين المبين بخدمات لا مثيل لها في سبيلك ومن أجل رضائك. وأحسن إلينا بجيل جديد صاحب عزيمة وإيمان، يكون قادرًا على أن يصون تلك الآثار، و أن يدفع بالطريق الذي فتحه سنان إلى الأمام أكثر فأكثر آمين!!!.





فن الخط عند العثمانيين

إن تثبيت أحاسيس وأفكار الإنسان بالخط أو الكتابة يعد حادثة مهمة للغاية في مسيرة التكامل البشري.

وأقدم شكل للخطوط في التاريخ هو الخط المسماري الذي ظهر في «العراق». وهناك بعض الحقائق الدينية التي تقول بوجود الخط في أيام سيدنا آدم عليه السلام والعهود التي تلته.

ويُروى عن «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لَمَّا اقْتَرَفَ آدَمُ الْخَطِيئَةَ قَالَ يَا رَبِّ أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ لما غَفَرْتَ لِي فَقَالَ اللهُ : يَا آدَمُ وَ كَيْفَ عَرَفْتَ مُحَمَّداً وَ لَمْ أَخْلُقْهُ؟ قَالَ: يَا رَبِّ لِأَنَّكَ لَمَّا خَلَقْتَنِي بِيَدِكَ وَ نَفَخْتَ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ وَ رَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ عَلَى قَوَائِمِ الْعَرْشِ مَكْتُوباً لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَمْ تُضِفْ إِلَى اسْمِكَ إِلَّا أَحَبَّ الْخَلْقِ فَقَالَ اللهُ : صَدَقْتَ يَا آدَمُ إِنَّهُ لَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ أُدْعُنِي بِحَقِّهِ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ وَ لَوْلا مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُكَ" (الحاكم، المستدرك، جـ٢، ٦٧٢؛ البيهقي، الدلائل، جـ٤، ٤٨٨).



وهذه الرواية تُظهر أن سيدنا آدم كان يعرف الخط والقراءة؛ لأنه قرأ ما تحت العرش، كما أن وحيه اليه لمّا كلّفه بالنبوة بعشر صحف، دليل آخر على أن الخط بدأ مع الإنسانية.

وهذه حقيقة دينية أخرى:

وهي أن النبي ﷺ أمر كتّاب الوحي بأن يبدؤوا السور بالبسملة، وأن يمدوا حرف السين الموجود في البسملة بتناغم جميل. وذات يوم سأل أحد كتاب الوحي الرسول عن هذا وعن سببه. فأجابه الرسول بأنه هكذا رأى البسملة في اللوح المحفوظ. ويتضح من خلال تلك الروايات أن منشأ الخط الإسلامي إنما هو إلهي و هذا أمر ضرورى قبوله.

وقد بدأ الخط الإسلامي من الأبجدية الحِمْيريَّة، أما تطوره من حيث الشكل والفنون الجمالية التي ظهرت بعد ذلك إنما مر بمراحل تطور مختلفة من عهد إلى عهد. وقد وصل هذا التطور إلى ذروته في العهد العثماني كما كان الحال في الموسيقا والعمارة، لدرجة أن كتابة القرآن الكريم وتجميل الخط به أصبح فرعًا مستقلا في الخط الإسلامي، وأطلق على هذا الفرع اسم «حسن الخط».

وعلى هذا فإن حسن الخط هو جعل حروف القرآن مرتبطة بمقاييس تجميلية، وكتابتها في أجمل شكل وصورة وفي شكل فني.

وهذا يعني أن حسن الخط يعني فنًّا متميزًا ظهر من رقة الإحساس وبذل الجهد من أجل كتابة القرآن الكريم بصورة جمالية تليق بمكانته.

وقد كُتب القرآن الكريم أول ما كتب على يد كتاب الوحي بأمر من الرسول. وقد تطورت تلك الكتابات الأولى للقرآن الكريم على شكل «الخط المعقلي» ثم تطورت في وقت قصير على شكل «الخط الكوفي».

والكتابات التي كتبها «سيدنا علِيّ» رضي الله عنه لهذه الخطوط من أروع النماذج عليها. وقد أضاف «ياقوت المستعصمي» مملوك الخليفة العباسي «المستعصم بالله» هوية



جديدة على هذا التكامل عندما شطف سن القلم متعرجًا، حيث ابتكر في فن الخط ما يُعرف بـ«الأقلام الستة» وطورها، وبهذا أطلق عليه لقب "خطاط".

❁

وقد استمرت تلك المدرسة التي شكلها «ياقوت» في فن الخط حتى العهد العثماني، وكانت بمثابة القمة في فن الخط. فكان كل واحد يخط يعتبره قدوته وأستاذه، وكما حمل العثمانيون بحق أمانة الدعوة الإسلامية على أكتافهم، حملوا أيضًا مهمة تطوير فن الخط وحسن الخط على عاتقهم، وأوصلوا فن الخط وحسن الخط إلى مكانة عظيمة، لدرجة أنه أصبح يُقال في العالم الإسلامي: «نزل القرآن في مكة، وقُرئ في مصر، وكُتب في إستانبول».

وبالرغم من أن أول تلك الجهود الجدية في سبيل هذه المكانة العظيمة تتصادف مع عصر «السلطان الفاتح» إلا أن الخطوة الأساسية فيه كانت قد أُلقيت على يد الشيخ «حمد الله أفندي» في عهد «بايزيد الثاني».

لم يكن «السلطان بايزيد خان» براقًا في الحملات الظاهرية، إلا أن مكانته في الحملات الحضارية والمدنية عظيمة وكبيرة. فبفضل الأسس المعنوية التي أقامها وجدت أخلافه أرضية جاهزة ومكتملة للعديد من الفاعليات التي أتت أكلها من بعده، وبالتالي كانوا يهرولون من نصر إلى نصر في كافة الساحات.

وقد كانت الجهود الكبيرة التي بذلها «السلطان بايزيد خان» في إيصال كافة الجوانب الحضارية وخاصة فن الخط إلى الذروة مهمة للغاية. فقد وضع «السلطان بايزيد الثاني» الذي اهتم بالخط كما اهتم بالعمارة يده على هذا الجانب منذ سنوات إمارته؛ حيث قام بعد جلوسه على العرش بدعوة «الشيخ حمد الله أفندي» الذي أصبح خطاطًا ماهرًا دعاه إلى «إستانبول» وخصص له غرفة في الحرم الهمايوني في قصر «طوب قابي سرايي» وقال له:

"يا شيخ! يا ترى هل يمكن أن يظهر خطاط يقدم طرز وأسلوب خط يختلف

عن الذي كتبه «ياقوت المستعصمي؟» هل يمكن أن يظهر أسلوب في الخط خاص بالدولة العثمانية؟".

سكت «الشيخ حمد الله أفندي» وقد اشتغل لفترة بالمشيخة في «تكية أُوقْجُولَرْ» أمام هذا الاقتراح المُلَمَّح. ولما أوضح أنه سيتمكن من النجاح في عمل ذلك، أعطاه السلطان سبع لوحات لخطوط كتبها «ياقوت» أخذها الشيخ واعتكف في بيته.

بدأ الشيخ في عمل شاقٍ، وتقول الروايات: إنه ظل يعمل أربعين يومًا متصلة، وفي النهاية نجح بإذن الله ﷻ وتوفيقه من ابتكار نوع جديد من الخط يختلف عن الخطوط التي كتبها «ياقوت» وتمتاز بشكلها الجمالي البديع الذي يحير العقول. ويوضح «مستقيم زاده» هذا النجاح فيما يلي:

"بينما كان «الشيخ حمد الله أفندي» يجتهد اجتهاداً مكثفاً في ابتكار نوع جديد من الخط، ظهر أمامه الخضر، ونصحه بعدة نصائح تتعلق بالخط، بعدها تمكن «حمد الله أفندي» من ابتكار أسلوب وطرز من حسن الخط يفوق الخيال".

وعلى هذا وصل «الشيخ حمد الله أفندي» إلى تلك المهارة الكبيرة في فن الخط وحسن الخط بتوفيق إلهي، وقد شعر «السلطان بايزيد الثاني» بسعادة غامرة من هذه النتيجة التي وصل إليها الشيخ نتيجة لحث السلطان له، ولهذا كان يزور الشيخ كثيرًا، وأثناء تلك الزيارات كان السلطان يقوم بنفسه بضبط الأريكة خلف ظهر الشيخ وهو يكتب، ويمد له علبة المداد وهو يشعر بسعادة غامرة. إلاّ أن بعض العلماء حقدوا على «الشيخ حمد الله أفندي» بسبب هذا الإكرام والاهتمام الذي يظهره له السلطان.

ولما علم «السلطان بايزيد خان» الولي بهذا حزن كثيرًا، ودعا كافة العلماء إلى القصر ولما حضروا جميعًا، أمسك السلطان بمصحف كان قد كتبه «الشيخ حمد الله» وكان أمامه كومة من الكتب المختلفة، فقال لهم السلطان:

"ماذا تقولون إذا وضعت هذا المصحف تحت هذه الكتب؟"



اعترضوا جميعًا وقالوا:

"حاشا! كيف يكون ذلك يا مولانا السلطان!؟ إن وضع هذه الكتب فوق المصحف يعبر عن عدم التعظيم".

فقال لهم السلطان:

"نعم صدقتم، وأنا أظن أنه إن وضعت الخطاط الذي اجتهد في كتابة هذا المصحف بما يليق به في مرتبة أقل منكم أفلا تفكرون أن عملي هذا إخلال بالتعظيم؟".

وفي مقابل هذا التنبيه والإيقاظ الذي تحقق بطريقة غاية في الرقة والعِبرة، أدرك المخاطبون المسألة وندموا على حسدهم.

كان «الشيخ حمد الله أفندي» الذي سجل ترقيات كبيرة في الساحة المعنوية صاحب تواضع بنفس الدرجة والقيمة التي نالها، لدرجة أنه رفض كتابة اسمه على مشهد قبره تواضعًا منه. حتى أن المدرسة التي أسسها في تحسين الخط والتي أبهرت العالم الإسلامي ما زالت مستمرة منذ خمسمائة عام وأكثر بنفس حيويتها وتجديدها من خلال البركة التي أكسبتها الأخلاق الإسلامية السامية التي كان عليها.

رحمة الله عليه!..



كان استمرار وتطور فن الخط الذي بدأ في الدولة العثمانية بتقوية معنوية كما رأينا، مرتبطًا بمقاييس معنوية تمت رعايتها. وقد كان هذا الفن الذي كان بمثابة بركة من بركات الإخلاص يُعلم للطلاب بلا أجر على مدار العصور. ولم يمل في فترة من الفترات إلى المادية، وقد كان كل خطاط يعلم أن تعليمه المجاني هذا إنما هو زكاة فنه، إلا أن أحدًا لم ييأس في حصول الخطاطين الذين كانوا يُعَيَّنُون من قبل الدولة أو من قبل الأوقاف على راتب يتعيشون به. وما دون ذلك كان يعد عند الخطاطين ذنبًا، وبالإضافة إلى أصول التعليم المجاني للخط، كان في جعل منازل

الخطاطين بمثابة أماكن الخط دلالة على حبهم القلبي وحساسيتهم لإرضاء الله تعالى باهتمامهم بتعليم تحسين الخط في كتابة القرآن الكريم.

من ناحية أخرى فإن تلك الخصائص التالية تُعد من شروط تعلم الخط، وتحمل من العبر الكثير والكثير من حيث كونها تعكس الوجهة الظاهرية والباطنية للخط:

١- الموهبة والقابلية.

٢- التعلم عن طريق المشْق والتدريب.

٣- امتلاك عزيمة كبيرة.

٤- الفهم صحيح.

٥- التواضع.

٦- استخدام المستلزمات الكثيرة والجيدة.

٧- الكتابة كثيرًا.

٨- الحصول على الإجازة.

وعلى هذا لم يكن تحسين الخط في الدولة العثمانية يعني فن كتابة الخط فقط، بل كان أيضًا مؤثرًا يغذي القلب بالمشاعر المعنوية ويرقق الأرواح. وبهذه البركة وصلت سلسلة الخطاطين الكبار حتى عهدنا هذا.

حقيقة إن التقوية الروحية أعدت أرضية كبيرة لتنشأة الناس الكبار في فن الخط. ويجب أن يكون هذا هو السبب الذي جعل الخطاط «أحمد شمس الدين القَرَه حِصاري» الذي كتب الخطوط الموجودة بـ«جامع السليمانية» يضحي بنفسه في هذا العمل وطالبَه.

وتذكر الروايات أن مهمة كتابة الخطوط الموجودة بقبة الجامع المذكور كانت قد منحت إلى «الشيخ القَرَه حِصاري» فأخذ «القَرَه حِصاري» معه تلميذه «حسن جلبي» وكثّف جهوده ليلا ونهارًا من أجل إنجاز هذا العمل، وبذل كل جهوده

من أجل أن تعكس الخطوط في هذا المعبد الفخم الكبير عظمة البناء. وظل «القَرَه حِصاري» على هذا حتى فقد بصره مع آخر تصحيح قام به في الخطوط المذكورة، وبذلك أغمض عينيه عن رؤية الدنيا، والخلاصة أن «القَرَه حِصاري» جعل عينيه ضحية وقربانًا لهذا الجامع الفخم الكبير.

وفي النهاية تم بناء الجامع، ولما حان وقت افتتاحه على يد «السلطان القانوني»، قال «السلطان القانوني»: "ليكن افتتاحه على يد معمارنا الكبير «سنان» الذي يُنسب إليه بناء هذا الجامع الفخم الكبير"

ولكن «المعماري سنان» قد تعلم التواضع قبل أن يتعلم الفن والعمارة، وأظهر عمقًا روحيًّا كعمقه في الظاهر بتفكره في الخطاط «قَــرَه حصاري» الذي قدم تضحية كبيرة في كتابة الخطوط في الجامع، حتى أصابه العمى في هذا السبيل وقال في أدب:

"يا مولانا السلطان! إن الخطاط «قره حصاري» فقد بصره أثناء تزيينه الجامع بالخطوط، فامنحه هذا الشرف".

وبناءً على هذا أمر «السلطان القانوني» الخطاط «قره حصاري» بأن يفتتح الجامع بين دموع الحاضرين.

لقد كتب وخط «القَرَه حِصاري» أعماله التي لا نظير لها في مدرسة «ياقوت المستعصمي» خاصة «خط الجلي» أي الخط الممدود فكان يملك فيه مهارة كبيرة تحير العقول. وبالرغم من أن «القَرَه حِصاري» تعقب «مدرسة ياقوت» إلا أنه أظهر نماذج من الخطوط خاصة به، كانت غاية في الجمال والدقة.

ونخص من ذلك البسملة الشريفة التي كتبها، فلا تزال تلك البسملة تحافظ على مكانتها في القمة والكمال للدرجة التي يمكن أن يكتب فيها الشعر من روعة جمالها.

وقد تُوفي «القَرَه حِصاري» الذي خلف أعمالا باقية إلى يومنا هذا وهو في التسعين من عمره.

رحمة الله عليه!..

وبعد هؤلاء الخطاطين الكبار كان حسن الخط يزداد تألقًا وتكاملاً بمرور الوقت في الدولة العثمانية، فقد كان كل عصر من العصور ينتج مرتبة متكاملة ومزينة بأساليب جديدة على يد دهاة جدد. وفي النهاية وجدنا مجموعة غنية من الخطوط الجميلة ظهرت على مدار تلك العصور كـ«المعقلي»، و«الكوفي» و«الثلث» و«النسخ» و«المحقق» و«الريحاني» و«التوقيع» و«الديواني» و«الجَلي الديواني» و«الرقعة» و«التعليق».

وفي القرن السابع عشر فتح الخطاط «حافظ عثمان» الذي تربى على نعم تلك التربة الثرية، عهدًا جديدًا في الأقلام الستة. حفظ عثمان القرآن الكريم وهو في سن صغيرة، وكان يظهر احترامًا، ورعاية كبيرة للقرآن الكريم، وهو ما جعله يتجه إلى تعلم حسن الخط. ويُروى أنه كان يهتم بحضور الدرس كثيرًا، لدرجة أنه كان يسير من «خَاصَكِي» إلى «أيوب سلطان» حتى في الأيام القارسة البرودة مشياً على الأقدام. وذات مرة تقطع نعله، لكنه لم يتنازل عن حضور الدرس، فذهب إلى الدرس حافي القدمين فوق الثلوج.

حصل «الحافظ عثمان» على الإجازة بعد هذا الجهد الكبير المخلص، وأضاف جمالا ولطافة على خط «الشيخ حمد الله أفندي» وأسس مدرسة جديدة في خط النسخ والثلث. وقد قال أساتذته الكبار في الخط أمثال «إسماعيل أفندي»:

"لقد تعلمنا نحن تحسين الخط، إلا أن «الحافظ عثمان» هو الذي كتب!".

وبالرغم من أن «الحافظ عثمان» كان يُعَلِّم السلاطين تحسين الخطوط كما كان يفعل «الشيخ حمد الله» إلا أنه كان أيضًا شديد التواضع، حتى أنه كان عندما يذهب إلى القصر للتدريس كان يذهب بالملابس العادية، وكان يجتنب كل شيء يمكن أن يسوقه نحو الكبر والغرور.

وذات يوم أظهر «السلطان مصطفى الثاني» الالتفات والرعاية إلى الخطاط



«الحافظ عثمان» بأن مد له المداد وهو يخط، ثم نظر بتعجب شديد إلى اللوحة الجميلة للغاية التي كتبها «الحافظ عثمان» وقال:

"يا أستاذ! من الصعب جدًّا أن نجد عثمانًا آخر، وربما كان مستحيلا".

وكان «الحافظ عثمان» في الغالب يخجل كالطفل الصغير من هذا المديح والإطراء، وكان يرد بتلك الجمل على السلطان: "يا سلطاني! طالما أن هناك سلاطين مثلك يمدون يدهم بالمداد إلى معلميهم، فسيكون هناك أمثالي الكثير والكثير".

وبالرغم من هذه العلاقة القوية التي كانت بين «الحافظ عثمان» وبين السلاطين العثمانيين، إلا أنه لم يتغافل في أي يوم قط عن بلوغه الكمال عن طريق التربية المعنوية التي تلقاها على يد الأولياء الصالحين. وبالتالي لم يكن منتظرًا للمناصب البراقة. ومع ذلك كان الحافظ عثمان يمتلك من الذكاء والخبرة في فن الخط ما يؤهله لأن يطلق عليه «الشيخ الثاني» بعد «الشيخ حمد الله». أما في الفترات التي وصل فيها «الحافظ عثمان» إلى درجة عالية جدًّا من المهارة فإنه أنسى الناس ما كتبه «الشيخ حمد الله»، ووصل في تحسين الخطوط إلى درجة لم يصل إليها أحد حتى ذلك الوقت.

ويروى أن «الحافظ عثمان» كان يكتب صفحة أو صفحتين في كل محطة من محاط الحج أثناء ذهابه إلى «مكة»، وذلك حتى لا يفقد ملكته، أي أنه في الوقت الذي كان مخصصًا للراحة في النزل على الطريق كان يجتهد في الكتابة، وأصبح في هذا الطريق بمثابة المدرسة التي أصبحت تعرف باسم (خط الحافظ عثمان).

والحادثة التالية تُظهر بشكل جميل للغاية مدى نفوذه في تحسين الخط: ذات يوم ركب «الحافظ عثمان» قارب ركاب ليعبر من «بَشيكْطاش» إلى «أُسْكُدار»، ولما اقترب القارب من الشاطئ بدأ صاحب القارب في جمع الأجرة من الركاب. وقد أدرك «الحافظ عثمان» أن ليس معه شيء من المال، فقال لصاحب القارب في حرج:

"يا سيد، لقد أدركت آنفا أني لم آخذ معي مالاً، فهل يمكن أن أكتب لك حرف الواو بخطي بدلا من الأجرة". رفض صاحب القارب في أول الأمر، وقال:

"ماذا سأفعل بهذا الحرف، طالما ليس معك نقود فلماذا ركبت؟"

فقال له الحافظ عثمان: "ولكنني ركبت بالفعل، وليس معي نقود، فخذ الحرف ولن تخسر شيئًا"

فقال الرجل: "وماذا سأفعل به؟"

رد «الحافظ عثمان» عليه: "بِعْه وليس لي سبيل لدفع الأجرة سوى الكتابة"

على أية حال كتب «عثمان» حرف الواو بخطه الجميل المعروف وأعطاه للرجل.

وذات يوم كان صاحب القارب يسير بجوار السوق فإذا به يرى الدلال ينادي على اللوحات الخطية للبيع، فتذكر اللوحة التي معه، فأخرجها من جيبه وأعطاها للدلال، وبمجرد أن رآها الدلال نادى على الناس:

"حرف الواو لـ«لحافظ عثمان»!" فتجمع الناس عليه، واشتروها بثمن باهظ لم يكن الرجل ليحلم به، رغم أن اللوحات الأكبر منها لم تكن تساوي هذا المبلغ.

بعدها بعدة أيام ركب «الحافظ عثمان» نفس الزورق للذهاب إلى «أسكدار»، ولما رآه صاحب الزورق طلب منه ألا يدفع أجرة وأن يكتب له واوًا أخرى، تبسم «الحافظ عثمان» وقال له:

"إن هذه الواو لا تكتب في كل وقت"، وأعطى الرجل أجرته.

كان «الحافظ عثمان» الذي وصل إلى الذروة في حسن الخط، مثل أي خطاط يعلم الخط دون أن يحصل على أجر، وكان له العديد من الخطاطين الذين نالوا منه الإجازة، هذا فضلا عن أن همته وجهوده من أجل تعليم طلابه كانت مشهورة للغاية. فذات يوم لم يحضر أحد الطلاب إلى الدرس، وقد رآه «الحافظ عثمان» في الطريق مصادفة فسأله بأسلوب جميل: "يا بني! لماذا لم تحضر الدرس؟"

خجل الطالب لما رأى «الحافظ عثمان» وأوضح له عذره في الغياب عن الدرس. ولأن «الحافظ عثمان» رأى عذر الطالب مقنعًا ومقبولاً، نزل «الحافظ عثمان» عن

دابته، وأعطى الطالب الدرس في الطريق حتى لا يتأخر الطالب عن بقية زملائه.

«الحافظ عثمان» هو أول خطاط يكتب (**حلية السعادة**) التي تعني تصوير محمد ﷺ بالخط الجميل. وقد أوضح «الحافظ عثمان» أنه كتبها بناءً على رؤية رآها للرسول ﷺ والحافظ عثمان أيضًا هو الذي خط بيده الكتاب المشهور (دلائل الخيرات).

وإلى جانب العديد من أعماله كتب «الحافظ عثمان» ٢٥ مصحفًا، ولكنه أُصيب في آخر حياته بالشلل. ولأن الأطباء كانوا يعتنون به اعتناءً بالغاً، فقد كان تأثير المرض خفيفًا عليه، ولم يخسر «الحافظ عثمان» أية قيم جمالية على خطه، واستمر على هذه الحال ثلاث سنوات حتى انتقل إلى جوار ربه امتثالاً بقوله تعالى:

﴿**يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً**﴾ (الفجر، ٢٧-٢٨)

وبعد أن أتموا دفنه، وبدأ الإمام في تلقينه، صاح «سِبَاهي دَدَه» المجذوب قائلاً:

"يا سيدي! لا تتعب، فإن عمل هذا الرجل مكتمل، ولتعلم أنه وصل إلى الدرجة التي نالها منذ وقت طويل. جعلنا الله نائلين شفاعته!.." رحمة الله عليه!..

❀

وهنا يجب علينا أن نوضح حقيقة وهي أن تحسين الخط إنما كان خاصًّا بالمسلمين فقط برقته وجماله. وأن الخط بكل جوانبه الجمالية كان يلفت انتباه المسلمين وغير المسلمين على مدار العصور، وبالرغم من ظهور جهود كبيرة من غير المسلمين في مجال الخط، إلا أنه لم يظهر من بينهم خطاط على درجة عالية من الكفاءة مثل الخطاطين المسلمين. ولذلك يمكن القول بأن الغرب الذي اقتبس كل أوجه الحضارة العثمانية بدءًا من الفنون بمختلف فروعها، وحتى الإدارة، لم يتمكن من اقتباس فن الخط. وهذا يُظهر حقيقة تشهد بأن تحسين الخط على مدار التاريخ كان خاصًّا بالإسلام والمسلمين فقط. وقد عبّر «سيدنا علي» رضي الله عنه عن هذه الحقيقة قبل عصور في تلك الجملة:

"الخط سر مكنون في تعليم الأستاذ، وقوامه التمرين كثيرًا، أما استمراره فمرتبط بالدين الإسلامي".

وعلى هذا فلتحسين الخط ثلاثة شروط هي:

١- تعليم الأستاذ.

٢- كثرة التمرين.

٣- أن يكون المتعلم مسلمًا.

واشتراط الإسلام في تعليم حسن الخط يحمل معنى عميقًا للغاية. فما يلفت الانتباه أن الكثير من غير المسلمين الذين بذلوا جهودًا كبيرة في تحسين الخط، لم يتمكنوا من أن يكونوا خطاطين متكاملين بالرغم من تعلمهم لعدة سنوات. أما في الدولة العثمانية فقد وجدنا مَنْ ليس له يدان أو رجلان يتميز بأنه خطاط. وكان يُخصص له راتب من القصر.

وهذه الحقيقة تعتبر الخط موهبة إلهية مختلفة منحها الله وترتبط بكون الإنسان مسلمًا.

وبسبب هذه الموهبة حصل الخطاط «مصطفى راقم أفندي» الخطاط المشهور في القرن الثامن عشر على الإجازة في تحسين الخط وهو في الثانية عشرة من عمره. وقد أدرك «مصطفى راقم أفندي» هذه الموهبة، فعمل على تكثيف تعليمه حتى وصل في وقت قصير إلى مرتبة عالية في الخط، وكانت النتيجة أن ظهرت على يديه أعمال أنست الناس أعمال الخطاطين السابقين. فإلى جانب أعماله الكبيرة الكثيرة، كانت الطغراء الخاصة بالسلاطين من إبداعاته.

من ناحية أخرى نقول بأن الأمر لا يقتصر فقط على الموهبة الإلهية، بل إن الأمر يحتاج أيضًا إلى بذل الخطاط الهمة والجهد في التعلم.

والحادثة التالية التي حدثت بين «السلطان محمود الثاني» وبين «راقم أفندي» توضح تلك الحقيقة بما تحمله من المعاني الكثيرة:



كان «السلطان محمود الثاني» أثناء إمارته يتعلم الخط على يد «راقم أفندي». ولما أصبح سلطانًا استمر في تعلم الخط على يديه أيضًا، ولأن «السلطان محمود الثاني» كان مبهورًا بما يكتبه «راقم أفندي»، قرر أن يزوره فجأة في بيته. ودخل السلطان على «راقم أفندي» فوجده مشغولا لأقصى درجة في كتابة لوحة، لدرجة أنه لم ينتبه إلى دخول السلطان عليه. لم يقطع السلطان ما هو عليه أستاذه لعلمه بكنه ذلك العمل، وجلس يشاهده بهدوء. وقد رأى السلطان أن هناك الكثير من اللوحات مكتوب عليها نفس الكتابة منتشرة في كل ركن من أركان الغرفة، فتعجب السلطان من ذلك، و نادى على «راقم أفندي» بلا ارادة قائلاً: "أستاذي!"

انتبه «راقم أفندي» إلى هذا النداء فرفع رأسه عن اللوحة فوجد السلطان فقال له:

"تفضل يا سلطاني"، فقال له السلطان:

"هل كان كتابتكم كل هذه اللوحات واجتهادكم فيها من أجل انتاج لوحة واحدة؟"

فرد «راقم أفندي»: "نعم يا مولاي!"

فسأله السلطان مرة أخرى:"أتكتب تلك الخطوط الفائقة بهذه الطريقة دائما؟".

فرد «راقم أفندي» لطالبه السلطان بهذا الرد التالي وكأنه يلقنه درسًا جديدًا من دروس تعليم الخط: "نعم يا مولاي السلطان! إنني أصرف أوراقاً كثيرة -كما ترون- لكتابة خط ما. لذا أقوم بكتابة أكثر من لوحة عليها نفس الكتابة، وفي النهاية أختار أجملها لأعمل عليها، وبذلك أجتهد في تقديم أفضل شيء".



وبهذا تطور الخط في الدولة العثمانية على يد هؤلاء الذين كانوا يتمتعون بالخبرة والقابلية، وكانت النتيجة أن وصلوا إلى مرتبة تُغرق الناس في الحيرة، ويوجد في أيدينا الكثير والكثير من النماذج والأمثلة المشخصة على ذلك. فقد زينت تلك الخطوط الكثير من الأماكن وعلى رأسها الجوامع، وقدمت لطافة وجمالا مختلفًا للأرواح عبر عدة عصور.

ويمكن إيضاح أهمية وخصوصية تحسين الخط باختصار في هاتين المادتين:

أ. من الناحية الطبية:

إن فن الخط يعرض تفوقًا من الناحية الطبية بالنسبة للخطوط الأخرى الموجودة على وجه الأرض:

١- لو أمرنا طفلاً لا يعرف الكتابة بأن يخط لنا خطًّا، فإنه بالفطرة سيخطه من اليمين إلى اليسار؛ لأن تحرك الذراع صوب الداخل لا يفسد الذراع كعضو في جسم الإنسان. والذين يكتبون الخط لفترة طويلة، لا نجد وجعًا في أذرعهم.

٢- الحركات المستمرة مهما كانت على العضو تصيبه بالتعب، ولكن في الخط لا يشعر الذراع بالتعب؛ لأنه يتحكم فيه الأقواس. بل على النقيض يتحصل عنده نوع من الراحة للذراع والعين.

وهذه اللوحة التي علقها طبيب رومي في عيادته في الخمسينيات تلفت الانتباه كثيرًا بما كتب عليها:

"مَنْ أراد أن ينجو من النظارة فليشتغل بحسن الخط".

وهذا يعني أن تحسين الخط لا يتعب العين بل على النقيض يريح العين المتعبة ويذهب سقمها بسبب التقوسات الناعمة الموجودة فيه، والذي أوصى بذلك طبيب رومي. [يعنى أنه ليس مسلمًا]

ولو يتم الانتباه اليوم للمسنين الذين يداومون على قراءة القرآن الكريم يوميًّا، يلاحظ أنهم لا يرتدون نظارات، وقد سجل الطب حديثًا أن القرآن يشفي العيون كما هو شفاء للأرواح.

٣- إن الإنسان العصبي لو خط خطوطًا تلقائيًا فإن هذه الخطوط تذكرنا بأسنان المنشار الحادة المتعرجة، وعليه فإن الإنسان الغربي من حيث الترقي إلى الله مضطرب روحيًّا؛ لأنه لم يتمكن من الصعود من تحت الشعور إلى ما فوق الشعور، ويظهر هذا

الاضطراب في كل نتاج الغرب وانظروا إلى الكنائس ستجدون أنها أبنية عامودية جافة، كأمثال شوكة شجرة الصبار، أما العمارة الإسلامية فإنها عمارة دائرية. ولو قمتم بعمل تحليل نفسي لـ«جامع السلطان أحمد» و«جامع آيا صوفيا» الملاصقين لبعضهما، فإننا سنجد «جامع السلطان أحمد» وكأنه يشبه الحمامة المهيأة للطيران، أما «آيا صوفيا» فسنجد فيه هندسة جافة ثقيلة، وهذا يُظهر انعكاس روح المجتمعين على الحجر.

وتلاوة القرآن في العالم الإسلامي والموسيقى المنبعثة من النشوة الدينية المرتبطة به تعرض أمامنا تموجات من المنحدرات والمرتفعات. والأمر بتعديل الأركان في الصلاة، إنما هو لتأمين الخشوع المطلوب في الصلاة.

ونود أن نبرز هنا من خلال تلك الأمثلة أنه إذا ما تم النظر من بعيد إلى كتابة مكتوبة بخط اليد بالأبجدية الأخرى، سنجد منحدرات ومرتفعات تشبه تموجات القلب. أما "حسن الخط" فيجلب الإنسان إلى سعادة مختلفة من خلال ظرافة ولطافة تروح وتأتي. ويكفي أنه في بعض الأحيان يمكن أن يمتلئ القلب بالروحانية بحرف واحد.

ومن ذلك على سبيل المثال؛ حرف الواو إذا ما كُتب بشكل معين، فإنه يشبه المؤمن المنحني في دعائه. حقيقة إن "حسن الخط" تتجلى فيه الحقيقة الممتلئة بالسر الموجود في الحكمة التالية: (حَرْفٌ مِنَ الْقُرْآنِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا).

ولهذا فإن "حسن الخط" يعرض ماهية متفوقة للغاية من ناحية عدم إتعاب العين واليد أثناء الكتابة؛ لأنه يؤمن الطمأنينة في نفسية الإنسان.

ولهذا فإن كل شخص تلقى العلم في الدولة العثمانية كان يتعلم "حسن الخط" بالقدر المعين. حتى السلاطين بالرغم من انشغالهم بأمور الدولة كانوا يحرصون على تعلم "حسن الخط". ومن هؤلاء السلاطين من تقدموا في هذا الفن، وحصلوا فيه على الإجازة، لأن تحسين الخط يريح الذهن. و كان «السلطان عبد الحميد خان» يريح ذهنه بتحسين الخط، إذا ما تعب من أمور الدولة.

ويُروى أن «حمدي أفندي»[1] كان عندما يتعب من البحث والتأليف في التفسير، كان يريح نفسه بـِ"حسن الخط".

إن "حسن الخط" لا يعتمد على الحافظة بل يعتمد على الذكاء، فالعمل الذي يعتمد على الحافظة يتعب الإنسان، أما العمل الذي يعتمد على الذكاء يكون سببًا في تنميته وتطويره. ومن ذلك على سبيل المثال مسألة عمل التشكيل في "حسن الخط" تستوجب عملا ذهنيًّا، وهذا بالطبع ينمي الذكاء.

ب. من الناحية الإبداعية:

إن مشاعر الجمال ترتبط بالشكل والمحتوى معًا. فالشيء إذا كان محتواه جميلا، وشكله ليس مريحًا للعين يفقد الكثير من جماله. فلو كانت أوراق الوردة صلبة مثل الشوك، ولم تكن ناعمة الملمس، لأصبحت الوردة لا تعطي في النفس الطمأنينة والراحة، ولا تداعب الروح. أي أن الأشكال تتعلق بدرجة كبيرة جدًّا بالروح من ناحية الانطباع الذي تعطيه. والإنسان غير المطمئن يرجح الألوان الهادئة، أما الإنسان غير المطمئن نفسيًّا فإنه يرجح الألوان الصاخبة. واللون الأسود يذكرنا بالأشياء الرسمية، والأبيض بالنقاء، والزهري بالطيران، والأحمر بالشدة. والناس تقبل أو ترفض الألوان والأشكال بالتأثيرات التي توقظها في قلوبهم.

ولهذا فإن الإفادة التامة التي تطمئن من حيث المشاعر الإبداعية لروح الإنسان، هي التناسب. فمآذن «المعماري سنان» كم هي متناسبة!! لو كان سُمْك المآذن أكثر من ذلك مع هذا الطول، لصار منظرها ثقيلاً غليظاً. وعلى العكس لو أُبقي سمكها كما هي و زيد من طولها لصار يبدو ضعيفاً نحيفاً. وقد تمكن أجدادنا الكرام من التوفيق في ايجاد التناسب بين السمك والطول في المآذن وبين المآذن والقبب التي تتصل بها، وهذا كتناسب الأعضاء وتوازنها في جسم الإنسان.

---

١. هو «محمد حمدي يَازِرْ» المفسر التركي في القرن العشرين وتأليفه المسمى بـِ«حق ديني قران ديلي» ٩ مجلدات، مشهور جدا.



وإذا ما قمنا بتحليل الأشياء التي تشكل الديكور الطبيعي والصناعي في حياتنا، فسيمكننا إكتشاف القواعد المختلفة لهذا التناسب. وإذا ما نظرنا من تلك الزاوية فسنرى أن الخطاطين هم أكثر الفنانين الذين تقدموا جدًّا في تحقيق الإمساك بتلك القواعد والقوانين الأساسية للتناسب. فقد تمكنوا من تأسيس تناسب لا يمكن للخيال أن يصل إليه في كتاباتهم. حتى أن هذه المرتبة جعلت أشهر رسامي العصر الحديث وهو «بيكاسُّو» يضطر إلى السعي إلى الكتابة من نوع تحسين الخط في آخر حياته، وقال بعبارة وجدانية:

"إن خطاطيكم استخدموا قواعد وإمكانات التناسب حتى آخرها، ولم يتركوا شيئًا يكتشفه من بعدهم!".

مع العلم أن«بيكاسُّو» لم يطّلع على لوحات "حسن الخط" بأكملها إلا انه رأى فقط ما جمعه «نابليون» من العالم الإسلامي ووضعها في «متحف اللوفر» الذي كان فيه أعمال محلية محدودة.

وعلى هذا رأينا أن حسن الخط لفت انتباه حتى الذين يجهلون قراءة الأحرف الإسلامية، بل إن هذه الأعمال كانت تجعلهم في حيرة من الجمال الموجود بها. وهذا الجمال الذي نتحدث عنه جعل أحد الرسامين المَجَريين أنه لايستطيع أن يمسك نفسه من أن يقول لِمَنْ يرافقه في زيارته للجامع وهو يشاهد لوحة موجودة التي كتبها «علي حيدر» في جامع «السلطان أحمد» مكتوبًا عليها (الكاسب حبيب الله) والتي شعر وهو يشاهدها بأنه قد أصبح مسحورًا:

"يا صديقي! يوجد حال مختلف من كل ناحية في تلك الكتابات التي تسمونها "حسن الخط"، فبالرغم من أنه أول ما يبرز للعين منها الألوان البسيطة والأشكال الهندسية الصامتة. إلا أنك كلما نظرت إليها تشعر وكأنها تتحرك، أي كأنها حية، إنني أشعر بأنها تطلق أولا نظرة تداعب روح مَنْ ينظر إليها، ثم تتسلل رويدًا رويدًا إلى الداخل. إنها مثل الموسيقى الميتافيزيقية التي تهتز فتسعد الروح. إنها موسيقى لا

تسمعها الأذن، بل تسمعها القلوب، وكلما استمعت إليها ارتقت بك إلى عالم مختلف تمامًا. أنا لا أعلم ماذا يحدث لي وأنا أشاهد تلك اللوحات، إنني أشعر بالسعادة التي تغمر قلبي وتجعله يهتز من الفرحة كلما نظرت إليها، فهل تشعر بذلك أنت أيضًا؟.."

و بسبب هذه الخصوصية الطبيعية المتواجدة في "حسن الخط" حتى في حاله قبل تكامله هذا قال سيدنا «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه وهو يحث على تعلم "حسن الخط":

"أكرموا أولادكم بحُسن الخط؛ لأنه أهم وأحب الأعمال وأكبرها فرحًا".

وتحسين الخط بهذا الجانب يجذب إليه كل شخص يمتلك مشاعر جمالية قليلة كانت أو كثيرة أي أنه يغرق القلوب في السرور. ولا يمكن تعريف السعادة المعنوية التي يحس بها في عالمه اللاهوتي.

والحاصل أن الخطاطين اجتهدوا في فهم هذه الجماليات التي خلقها الله عز وجل في هذا العالم، وتعمقوا في فهمها، وعكسوها على أعمالهم. وزادوا من التراكيب الجديدة التي تركبت مع بعضها البعض في مخيلاتهم من خلال إمكانات التوازن التي حصلوا عليها من الطبيعة، وأوصلوها إلى درجة تفوق الخيال.

ولْنَقل إن أي خط في العالم لم يستطع أن يصل إلى تلك المرتبة التي تؤهله لأن يكون عملا فنيًّا. ولنذكر تلك الرواية على ذلك: بينما كان الخطاط «حامد أى تاج» مشغولا بالخط على أحد الأطباق الزجاجية في مصنع للزجاج في «باشا باغجه»، أتى إليه أحد الموظفين وأخذ يشاهده بانبهار وهو يخط، وبعد أن أثنى عليه قال:

"يا أستاذ لم نرَ هذه الدرجة في الكتابات الأخرى، كيف وصلت إلى الذروة في هذا الفن؟"

فأجاب «حامد أى تاج»: "بثلاث خصائص."

ثم قال: إن هذا الخط؛

١-تكامل فترة زمنية تقترب من الألف عام.



٢-كما أن الاستعداد الفني الكامن داخل الإنسان، ووجود التقوسات والنعومة في الشكل، يعرض تناسبًا مع الحالة الروحية للإنسان.

٣-ونتيجة للجهود الدينية التي استمرت لفترات غير منفصلة أصبح هذا الفن بمثابة الخارقة في صورة الصنعة، وبالتالي أصبحت الخطوط بمثابة الأبيات الشعرية التي تسحر الأرواح وتأخذ العقول، ولكنها أبيات سيالة بدون صوت.

والعامل الثالث المذكور هو أهم عامل فيها، وذلك لأن الخطاطين أناس تميزوا بالاحتياج إلى الإكثار من كتابة القرآن الكريم في شكل جميل. أي أن الذي جعل هذا الخط "حسن الخط" هو السعي لكتابة القرآن الكريم.

حقيقة: إن نماذج فن الخط الإسلامي ليست بجمال الشكل فقط، بل إنها خدمت غاية أكبر بمضمونها. وقد لعبت علوية هذه الغاية دورًا أساسيًّا في ترقي هذا الفن. وذلك لأننا إذا ما نظرنا إلى اللوحات المعلقة على الحوائط سنجد إما أنها عبارة عن آية كريمة أو حديث شريف أو حكمة. وكل واحدة منها بالطبع كانت في ماهية العبرة أو النصيحة للناظرين إليها. وقد كانت الحليات الشريفة علامة جميلة للغاية على حب النبي ﷺ الموجود في القلوب، وقد تم تنظيم كل إجازات الخطاطين على هذا الشكل، وذلك لأن كتابة القرآن الكريم فهمها كل خطاط على أنها وظيفة مباركة كان يتسابق فيها كل الخطاطين. وقد أظهر كافة الخطاطين في الدولة العثمانية اهتمامًا ورعاية كبيرة في هذا الأمر. ويمكن القول بأن الخطاط الذي لم يكتب القرآن الكريم في حكم العدم. وبعض الخطاطين كتب القرآن الكريم أكثر من مرة ليحتسب أجره في الآخرة.

ويروي «أمين سراج خوجه أفندي» قصة عن «عبد القادر البقلي» من أشراف «المدينة المنورة» وردت في سجلات المحكمة الشرعية عن بركة خدمة كتابة القرآن الكريم: كان الموسم موسم حج، وقد التفت حلقة من الناس حول أحد المصاحف المخطوطة بخط جميل للغاية؛ حيث عقدوا مزادًا من أجل بيعه. التف الحجاج من

كافة الأمم إلى المصحف لتراه، وكل شخص منهم كان يقول سعره، ثم قدم حاج تركي، وبمجرد أن نظر في خط المصحف إذا به يصيح:

"هذا المصحف كتبه والدي بيده، وقد وضعناه في قبره بناءً على وصيته!".

وقد اجتهد الحاج التركي في حل هذا اللغز بعد ذلك فعلم من الذين كانوا على علاقة بالأمر، أنه في تلك الفترة لم يعد هناك مكان في «مقابر البقيع» لدفن الموتى الجدد، فتقرر أن يُفتح القبور ويُدفن بها الموتى. وفتح أحد القبور القديمة إذا بهم يرون مصحفًا، ولما علم المسؤولون بذلك قرروا أن يبيعوه في المزاد، وأن يضعوه في بيت المال لنفع الأمة الإسلامية. استمع الحاج التركي لهذه الرواية وعيناه تذرفان الدمع، وأتم هو بنفسه قسمًا من تلك القصة التي تحمل العبرة والعظة، حيث قال: "كان والدي خطاطًا عثمانيًّا، يكتب نسخة من المصحف كل عام، و يتعيش منها. وكان له مصحف خاص به، كتبه بدقة وعناية كبيرتين. كان خطه جميلا للغاية تملأ العيون؛ حيث وضع فيه والدي كل خبرته. وقد ظل والدي يكتبه فترة طويلة، حتى أصبح عملا عظيمًا. وعندما أتم والدي كتابة هذا المصحف الشريف جمعني وكل إخوتي وقال لنا: "يا أبنائي! لقد كتبت هذا المصحف ليكون شفيعًا لي يوم القيامة، فإذا مت فلفوه جيدًا، وضعوه على صدري في القبر!" وقد قمنا بتنفيذ وصيته بعد وفاته.

ولكن اللغز الحقيقي الذي حيرني بقدر ما أسعدني هو كيف انتقل هذا المصحف من «إستانبول» إلى «مقبرة البقيع» الطاهرة في «المدينة المنورة»؟!".

وكما يعلم البعض أن هناك بعض الموتى لا يُتركون في الأماكن التي دُفنوا فيها بل يُنقلون بأمر الله إلى أماكن أخرى تليق بهم، ويُطلق على هذا (نقل القبور). ولأن مثل تلك الحادثة حدثت كثيرًا في «المدينة المنورة» فإن الصالحين من أهل المدينة يعرفون ذلك جيدًا. وهناك مَنْ شاهد ذلك بنفسه. والحاصل أنه من الحقائق المعلومة التي أعيشت بالفعل قيام الملائكة بنقل الأموات الذين ماتوا في مكان لا يليقون بالدفن فيه إلى مكان آخر والعكس.

وهذه ميزة مستثناة، أن هذا الخطاط الذي تحدثنا عنه نال اللطف أي الشفاعة ببركة حرمته ورعايته وخدمته للقرآن الكريم.

وقد قال النبي ﷺ :

«اَلْقُرْآنُ شَافِعٌ وَمُشَفَّعٌ...» (الحاكم، المستدرك، ١، ٧٥٧/ ٢٠٨٧)

وأدى هذا الحديث الشريف إلى تنافس الخطاطين في خدمة القرآن الكريم لكي ينالوا شفاعته.

❁

وثمة خاصية أخرى عن "حسن الخط" يجب علينا الوقوف عليها هنا وهي أن هناك تعظيمًا للنصوص المكتوبة، وكذا نصوص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. ويلخص العلماء الأحكام الشرعية في هذا الخصوص على ما يلي:

يجب إظهار الحرمة للخط وللأوراق المكتوب عليها هذا الخط؛ حيث يحرم الجلوس عليها أو وطؤها بالقدم أو تحقيرها، أو إلقاؤها في مكان قذر.

والأوامر والنواهي الدينية في هذا الشأن تختلف في درجاتها على مضمون المكتوب. بل إن بعضها يصل إلى حد الكفر في بعض الأوقات. وذلك لأن سوء الاحترام للعمل يبدو سوء احترام لصاحبه، ولهذا فإن أصحاب الأخلاق الإسلامية يظهرون احترامًا ورعاية للخط وللمستلزمات الخاصة بالخط كالقلم والمداد والورق وغيرها. بل إنهم كانوا يحافظون على الأقلام والبوص المكسور الذي كتب به القرآن الكريم والأحاديث النبوية، ويعتبرون أن هذا علامة على النضج. وقد قال الله تعالى:

﴿ن، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (القلم، ١)

﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ، فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾، (الطور، ٢-٣)

وعلى ما هو واضح في الآيات أن الله تعالى أقسم بالقلم والكتاب وبالمستلزمات الخاصة بالكتابة.

والحساسية التي أظهرها أجدادنا الذين أدركوا هذه الماهية أعطتننا عِبرة وعظة كبيرتين: فقد أتى المفسر «حمدي يازير» - رحمه الله - إلى «إستانبول» وهو في الثالثة عشرة من عمره، والتحق بمدرسة «كوجك آيا صوفيا». كان يقوم بخدمة رجل مبارك يُدعى «الحاج كامل أفندي» إلى جانب تحصيله للعلم في المدرسة. وكان «حمدي» يشعر بالحزن؛ لأن «الحاج كامل أفندي» يجد صعوبة في دخوله وخروجه من الغرفة؛ لأن العتبة كانت مرتفعة قليلا. فكر «حمدي» في الأمر ليجد حيلة، وفي النهاية فكر في أن يضع غطاء علبة مكتوبًا عليها كلمات باللغة الرومية على العتبة لكي يعليها. ولما وصل «الحاج كامل» في اليوم التالي وجد هذا الغطاء على العتبة فسأل مَنْ وضعه؟ فأجاب «حمدي» بأنه هو الفاعل، فقال له الحاج كامل:

"يا بني! لقد وضعت قشرة بطيخ تحت أرجلنا، وإن لم يكن لنا ذنب قط، فهذا يكفي".

وقبل أن يقول «حمدي الصغير»:

"يا سيدي! إن هذا ليس بكتابة إسلامية"

أكمل الرجل كلامه قائلاً:

"يا بُني! للمسلم ولغير المسلم خط، ولكن ليس من الخط مسلم أو غير مسلم. كل خط يلعب دورًا في الحياة، والعمل الذي يؤدى مع واحد يؤدى مع الآخر أيضاً. المهم أن لا تستخدم الكتابة في شيء سيء أو باطل. يلزمنا أن نحترم كل خط يخدم الحق ويفيد الخير، فلم يقسم الله تعالى في القرآن الكريم بالقلم وما يخطه هباءً، كن منتبهًا يا بُني!.." وأمره بأن يرفع الغطاء من الأرض.

وطبيعي أن يُبدي أجدادنا الذين تعاملوا بهذه الحساسية مع الخطوط الأخرى، احترامًا وحساسية أكبر مع الخطوط الإسلامية والأعمال التي كتبت بها. حتى أنهم كانوا إذا ما رأوا أيّة كتابة تتعلق بالإسلام ملقاة على الأرض أو في مكان ليس بطاهر، كانوا يرفعونها ويقبلونها ثلاث مرات، ولا ينزلونها تحت السرة، ويضعونها دومًا في

مكان مرتفع. ويحرقون رقاقة الأقلام ثم يدفنونها في التراب، وقد طبقوا هذا أكثر ما طبّقوه في القرآن الكريم. ولم لا؟ وعملاً بقوله تعالى:

﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة، ٧٩) لم يمس أحد المصحف الشريف إلا طاهر.

ومظاهر احترام أجدادنا للقرآن الكريم لم تكن منحصرة في هذا فقط، بل كانت أيضًا مرتبطة بكون كل واحد منهم بمثابة الخادم للقرآن الذي جعلهم سادة في هذا العالم.

ولا شك أن أكبر هذه الخدمات التي تحدثنا عنها هي تفانيهم في كتابة القرآن الكريم بالشكل الذي يليق به، ووصولهم إلى الذروة في هذا الفن. ويمكن القول بأن "حسن الخط" يأتي على رأس الفنون التي تَفَوَّق العثمانيون فيها تفوقًا كبيرًا. ولم يظهر العرب لياقة في هذا الشأن مثلما أظهر العثمانيون. وقد بدأ يظهر عند المصريين أيضاً خطاطون ماهرون – وإن لم يكونوا بدرجة تقارن بخطاطي إستانبول– بعد أن أرسل «السلطان عبد العزيز خان» إليهم الخطاط «شوقي أفندي». وقد أوضح العالم الإسلامي اليوم:

"أن القرآن الكريم نزل في الحجاز، وقُرئ في مصر، وكُتب في إستانبول"

وهذه الخاصية لا تزال مستمرة على يد الخطاطين المهرة إلى اليوم وبنفس الحيوية القديمة.

والحاصل أن هذا الفن – وكما عرضنا – انحصر فقط في المسلمين، وبالرغم من أن غير المسلمين بذلوا جهودًا كبيرة في هذا الفن إلا أنهم لم يصلوا إلى النتيجة الكاملة التي وصل إليها المسلمون. وهذه الحقيقة تدل على أن "حسن الخط" خاص بالإسلام والمسلمين فقط وسيظل كذلك.

اللهم أنعم علينا حصة من الأدب الجميل والرقة والعمق الروحي الذي ينعكس من محبة الله المكنون في قلوب الخطاطين الذين ذكرناهم والذين لم نذكرهم!

آمين!..





الشعر عند العثمانيين

كان الشعر في الدولة العثمانية بمثابة المؤثر الكبير الذي عمل على نضج المجتمع العثماني روحيًّا في أكمل صورة، وكان هذا المؤثر يشمل المجتمع كله بدءًا من السلطان الذي هو أكبر موقع في الدولة وحتى أصغر فرد في المجتمع.

لأن الشعر ساحة تعمل على توسيع الأفق في الإنسان، وتعمق قلبه، وترقق مشاعره وأحاسيسه وأفكاره. والشعر المرتبط لغويًّا بكلمة الشعور والمشاعر: متعة إبداعية عالية قوية التأثير، وقد قال النبي ﷺ :

«**إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا..**» (البخاري، الطب، ٥١)

وبهذه الحقيقة أظهر المجتمع العثماني تعلقًا كبيرًا بالشعر، وطوّر الثقافة الشعرية التي ورثها من الأناضول.

ويمكن القول: إن الشعر في الدولة العثمانية كان مدرسة يمكنها مخاطبة كل درجات القلوب، وهو القنديل الذي يضيء الليالي المظلمة، وهو الذي ينير الطريق،



والناصح، والمسلي، وترجمان الأحاسيس، وسلاح ضد الأعداء، وطبيب يمتلك سر شفاء القلوب الجريحة، والوجد الذي يُسْمِي بالأرواح، والواسطة التي توصل إلى الله، والمولع لمحبة النبي ﷺ والعشق، كان عشقًا يهدي الإنسان إلى الأفق. ولهذا كان الشعر يحتل مكانة في ذاكرة حتى أقل فرد في المجتمع، ويندر وجود شخص لا يعرف أو يحفظ على الأقل بضعة أبيات من الشعر.

لقد أخذ الشعر في الدولة العثمانية لونه وتناغمه من البناء الروحي للمجتمع، ولهذا فإنه مزج بالإيمان والعرفان. ولهذا وجدنا كافة الشعراء في الدولة العثمانية ينظمون أشعارهم على نمط «التوحيد» أي الأبيات التي تتناول صفات وحدانية الله، أو نمط «المناجاة» أي التضرع إلى الله، أو «النعت النبوي» وهو الترنم بحب رسول الله. وبذلك نشأ أدب النعت والتوحيد والمناجاة بشكل متكامل، وأصبح ذلك بمثابة الأصول التي يجب على كل شاعر مراعاتها عند نظم أي ديوان. فالدواوين الشعرية في الدولة العثمانية دائمًا ما تبدأ بالتوحيد فالمناجاة فالنعت ثم بعد ذلك تدخل في الموضوعات الأخرى.

❀

والتوحيد: هو النصوص الأدبية التي تتناول وجود الله ووحدانيته. والشعراء الذين كانت قلوبهم تمتلئ بالإيمان والعرفان كانوا في الغالب ينظمون أشعارهم بشوق وحماس عقائدي، وكأنهم يتعبدون، ويعملون على تعميقها بروحانية الإسلام التي لا مثيل لها. ولهذا فإن التوحيد كان يعني انعكاس الحياة التي يعيشها الشاعر بالوجد الإيماني على الكلام الذي ينظمه، حتى الشعراء الذين لم ينظموا أشعارًا مستقلة في أعمالهم في هذا الشأن، أفردوا للتوحيد مكانًا في بيت شعر أو في أعمالهم المنثورة.

في الأعمال التي تتضمن التوحيد نجد أجنحة خفاقة للحالة الروحية تطير وتحلق صوب الأفق الذي لا نهاية له. ونخص من ذلك التوحيد الذي كتبه الشعراء المتصوفة؛ حيث نجده يجعل القلوب تسبح وتجول في فضاء إيماني مختلف تمامًا.

ويعبر «سليمان جلبي» بأسلوبه الجميل عن التوحيد بصورة إبداعية جميلة للغاية فيقول:

لنذكر اسم الله أولاً
فهذا هو الواجب على كل عبد في كل فعل

كان الله ولم يكن معه شيء حتى العالم
كان غنيًّا عن المخلوقات، وجبارًا

كان هو الموجود ولا شيء سواه، لا الإنس ولا المَلَكُ؛
ولا العرش والفرش، ولا القمران ولا الأفلاك التسعة

ويذكر الشاعر «أحمدي» أيضًا عن التوحيد ما يلي:

يقول القلب والروح لا إله إلا الله
فالعالَمَان كلاهما مليء بلا إله إلا الله

السمع الذي في الأذن والبصر الذي في العين
والدم الذي في الشرايين كلهم يقولون لا إله إلا الله

وكم هو جميل أيضًا هذا التوحيد الذي نظمه «هدائي»:

تمسك بأمر الرحمن
وتعال إلى التوحيد تعال
وليتجدد إيمانك
فتعال إلى التوحيد تعال

ماذا تظن نفسك
أنت تـــنخدع بالدنيا الفانية
لابد أنك تستيقظ يوماً
فتعال إلى التوحيد تعال

أعط سمعك لهدائي
تعال إلى الحب وانفعل به
واشرب من هذا الكوثر
فتعال إلى التوحيد تعال

أما المناجاة فهي الأشعار الممتلئة بالندامة على الأخطاء والذنوب التي ارتكبها الإنسان بحكم بشريته سواء كان على علم أو جهل، والتضرع والدعاء يعطي نفس المعنى أيضًا. ولأن القلوب الممتلئة بالخوف من الله تعلم أن هناك موتًا وقبرًا وحسابًا، فإنها تتضرع إلى الله منكسرة، في حالة اهتزاز مثل قنديل ضئيل، ومن ذلك ما قاله «يونُسْ أمْرَه»:

عجبًا هذا حالي
وأحوالي تحت التراب
المكان الذي سأرقد فيه
هل سيمتلئ بالعقارب يا ربي؟

ولما بلغت الروح الحلقوم
ورأيت ملك الموت
وقبض روحي
هل سيكون الموت سهلا يا ربي؟

ولم يكن سلاطين الدولة العثمانية الذين يحكمون العالم يختلفون عن بقية الرعية في أدب المناجاة والتضرع إلى الله. فالشعراء من هؤلاء السلاطين كانوا يتضرعون إلى الله في انكسار وذل، وكأنهم ورقة خريف ذابلة؛ حيث كانوا يقفون على باب الله فاتحين أكف الضراعة إلى الله ﷻ.

ومن ذلك تلك المناجاة التي نظمها «السلطان بايزيد الثاني»:

لقد كثر وزاد الجُرم والعصيان والوبال
ربنا يا ربنا فاغفر لنا

والمناجاة أي الإلتجاء في الدعاء مهم للغاية من الناحية الدينية؛ لأنه علامة التعبير بالعجز واللجوء إلى الله وحده، ويقول الله تعالى:

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ...﴾ (الفرقان، ٧٧)

ويقول الرسول ﷺ :

«**الدُّعَاءُ سِلاحُ الْمُؤْمِن...**» (الهيثمي، مجمع الزوائد،١٤٧،١٠)،

«**إِنَّ أَسْرَعَ الدُّعَاءِ إِجَابَةً، دَعْوَةُ غَائِبٍ لِغَائِبٍ**» (أبو داوود، جـ ٢، ٨٩/ ١٥٣٥).

ويُروى أن «السلطان أحمد الأول» مرض فترة طويلة ولم يبرأ، وببركة دعاء المؤمنين له شفاه الله، وقد قال السلطان في ذلك:

قُبِل دعاء المسلمين

والحمد لله وصلتنى السلامة

ولأن «السلطان أحمد الأول» لم يغتر بسلطنة الظاهر، وكان يرغب في سلطنة الحقيقة بالإرشاد المعنوي لهدائي، تضرع إلى الله قائلاً:

لقد أحسنت عليّ في الظاهر كثيرًا

ويسرت لي ملك سليمان

والقلب والروح ممتلئان بحبك

فاجعلني سلطانًا في عالم المعنى أيضًا

الطف بي بلطفك

فرضاك لا يكون بهذا التاج أو العرش

فأحسن إليّ بالإحسان الكلي يا رب

واجعلني سلطانًا في عالم المعنى

ليس في هذه الدنيا الفانية ما يؤال إليه

فالملك والمال كالخيال والظل

وامنحنا القدر العالي يوم الجزاء

فاجعلني سلطانًا في عالم المعنى

والمناجاة تعني أيضًا حب الله، ولهذا نظم الشاعر «أحمد داعي» ما يلي:

افصلني عن نفسي.... ولا تفصلني عنك

ونحن بدورنا أيضًا نقول مشاركين في تلك الأدعية الجميلة: "آمين"!!!.

❁

أما النعت فيمثل مكانة مستثناة في الدولة العثمانية لهذا النتاج الأدبي. ولأن حب النبي ﷺ مرتبط بحب الله ﷻ وعلامة عليه، فإن كل شاعر من الشعراء ترنم في حب رسول العالمين، وكأن كل واحد منهم قافلة من قوافل المحبة الممتدة إلى يوم القيامة.

تتمثل الموضوعات التي تناولها النعت في كون رسول الله ﷺ حبيب لله ﷻ، وقصة المعراج، وحب رسول الله لأمته وشفاعته لهم يوم القيامة. والنعت بمضمونه الثري، أصبح يمثل مظهرًا من مظاهر الحب، الذي لا غنى عنه في الشعر العثماني، وقد قدم كل الشعراء سواء من السلاطين أو من أفراد المجتمع نماذج جميلة على النعت. ومن النعت السلطاني المشهور نعت «السلطان سليم الأول» و«السلطان أحمد خان الأول»، كما أن نعت «فضولي» و«الشيخ غالب» من نماذج النعت الرائعة التي لا مثيل لها. ومن ذلك ما قاله فضولي [وهو يخاطب النبي ﷺ في خياله]:

ليترك البستاني الورود إلى السيل ولا يتعب نفسه

لأنه لو روى ألف حديقة لن يستطيع أن ينتج وردة في مثل جمال وجهك

ويقول الشيخ غالب:

أنت سيدي أحمد محمود محمد

فأنت سيدي السلطان المؤيد لنا من الله تعالى

وهذه الأبيات من الأبيات الرائعة في أدب النعت في الشعر العثماني، وأصبحت خالدة تنتقل بين الألسن بحب ومحبة معنوية.

❁

وقد خرج الشاعر «نَابِي» في عام ١٦٧٨م مع رجال الدولة إلى الحج، ولما اقتربت القافلة من المدينة لم يتمكن الشاعر «نَابِي» من النوم من شدة وجده.

وقد رأى الشاعر «نَابِي» أن أحد الباشوات المرافقين لهم مد قدمه وهو نائم في غفلة ناحية «المدينة المنورة»، فتأثر «نابي» للغاية وبدأ في نظم نعته المشهور.

ولما اقتربت القافلة مع صلاة الصبح من المدينة المنورة، سمع «نابي» أن الأبيات التي كتبها تُردد من فوق مآذن المسجد النبوي:

احترس من ترك الأدب فهذا ديار حبيب الله

وهذا المكان مقام المصطفى ومحط نظر الله

ادخل يا نابي إلى هذا المكان بشرط مراعاة الأدب

فهذا المكان هو مطاف الملائكة وعتبة الأنبياء

وقد اضطرب «نابي» لهذا كثيرًا وقابل المؤذن على الفور وسأله:

"من أين سمعت هذا النعت؟ ومن أين تعلمته؟"

فقال المؤذن:

"لقد رأيت النبي ﷺ الليلة في منامي، وقال لي: "إن شخصًا من أمتي يُدعى «نابي» أتى لزيارتي، وقد نظَّم أشعارًا تمتلئ بالحب لي، ولمحبته هذه استقبلوه بأبياته هذه من فوق المآذن"، وقد فعلت ما أمرني به الرسول ﷺ".

بدأ «نَابِي» يبكي بشدة، كان يبكي ويقول:

"لقد قال الرسول: عني «من أمتي»، وهذا يعني أن شمس الدارين قبلني في أمته!.."

وقد كانت النعوت المكتوبة للنبي ﷺ سببًا في الفوائد الدنيوية والأخروية.

❀



ومن ذلك شفاء «الإمام البوصيري» من مرض الشلل الذي أصابه ببركة قصيدته المسماة (بقصيدة البرأة) والمشهورة بين الناس باسم"قصيدة البردة"[1]

وقد قرأ «الإمام البوصيري» قصيدته البرأة على النبي ﷺ في المنام، وقد أبدى النبي ﷺ رضاه، وبدأ يتمايل على جانبيه برقة تمايل أوراق الشجر واهتزازها إعجاباً منه ﷺ، ثم تبسم ومسح على جسد «الإمام البوصيري» الذي كان مشلولاً، فبرأ البوصيري.

ولهذا أصبح من العادة قراءة قصيدة «الإمام البوصيري» على المرضى لينالوا الشفاء بإذن الله، نظرًا لأنها كانت سببًا في شفاء البوصيري بروحانية رسول الله ﷺ، حيث إنه يتم الإلتجاء إلى الله ﷻ عن طريق التوسل إلى النبي ﷺ بهذه المدحية.

❁

وقد كان «كمال أديب كُورْكْجو أوغْلو» من الذين نالوا تلك المظهرية أيضًا، حيث نال الشفاء من مرض السرطان عندما عزم كتابة نعته الذي يبدأ بالأبيات التالية:

ستحبه الروح إلى أبد الآبدين

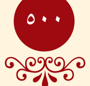
كشرط على العهد وكهدف للإيمان

ولما مرض المذكور بالسرطان، كان يرقد في المستشفى وقد قال الأطباء المعالجون له لأفراد أسرته:

"إن المرض انتشر في جسده بشكل كبير، ولا أمل في علاجه، وليس لدى مستشفانا بل للطب الحالي ما يقدمه من شفاء. ولهذا يرجى نقله إلى بيته ليعيش لحظاته الأخيرة من عمره بين أفراد أسرته".

---

١. قصيدة البردة قصيدة مشهورة نظمها الشاعر كعب بن زهير في مدح النبي ﷺ، وقد أعجب بها النبي ﷺ، ولهذا منح بردته كعب بن زهير.



ولما شعر «كمال أديب» بالموقف رفع يديه إلى السماء، ودعا قائلاً:

"يا رب! أنعم عليّ بالشفاء والصحة بحرمة حبيبك المصطفى حتى أتمكن من إكمال النعت الذي بدأت كتابته لأكون مظهرًا لشفاعة رسولك".

وقد كان هذا الدعاء الخالص النية مقبولا عند الله، وشفي «كمال أديب» من مرضه، واستمر في كتابة نعته. فَلَمَّا أكمل كتابة هذا النعت بعد سبع سنوات تقريبًا، انتهى عمره بظهور مرض جديد عليه.

وهذه الحوادث تعد إكرامًا ولطفًا منحه الله تعالى في تلك الدنيا إلى الخواص من عباده، الذين امتلأت قلوبهم بحب رسول الله ﷺ الذي تلطف على رسوله الكريم بأنه حبيبه. ويجب علينا أن نتفكر في مدى عظم مكافأة هذه المحبة في الآخرة.

وقد كان النعت وسيلة إظهار الأعمال الخالدة في حسن الخط وفي الموسيقى. وقد تم الترنم بالموسيقى المكتملة المقامات بالتوحيد والمناجاة وأيضًا النعت، كما تم الخط بها بأحسن الخطوط على اللوحات، التي تداعب الأرواح. ومن خلال تلك اللوحات الموجودة في المساجد، والموسيقا الموجودة في التكايا نَمَتْ محبة الرسول في القلوب.

لقد كانت تلك العبارات المكتوبة على اللوحات بمثابة المترجم الفياض لمشاعر الحب الجياش الموجود في الصدور، ومن ذلك على سبيل المثال:

أنا غريق بحر العصيان، دخيلك يا رسول الله!..

وصدى هذه العبارة يأخذ صاحب الحب ويجلبه إلى ميدان المحشر.

وقد أمرت السيدة «بَــزْمِ عالم والِدَه سلطان» بحك الأبيات التالية على خاتمها والتي تدل على أن العالم خُلق بمحبة النور المحمدي، وأن الكائنات أهديت له:

حصل محمد من المحبة

وماذا سيحصل من المحبة بدون محمد



ولعل نقش «بزم عالم» هذا الشعر على خاتمها كان نتيجة محبة خارقة للرسول ﷺ ظهرت في شكل النعت النبوي.

حتى الآن يتم الترنم ببعض تلك الأبيات في النعت النبوي للأطفال وهم في المهد:

نِينِّي يا محمّدِي نيني

نيني يا أحمد يا روحي نيني

وبهذا أصبحت تلك الترنمات بمثابة أول ترنمات فياضة تُنقش في ذاكرة أطفالنا الصغار. والنعت الذي نظم على شكل أناشيد دينية كثير للغاية، ومن أشهر ما قيل في ذلك ما نظمه يونس:

لتكن روحي فداءً لك

اسمه جميل وهو جميل : محمد

هلم للشفاعة لعبدك الحقير

اسمه جميل وهو جميل : محمد

جفاء المؤمنين كثير

ومتعتهم ولذتهم في الآخرة

إنه مصطفى للثمانية عشر ألف عالَم

اسمه جميل وهو جميل : محمد

ما ليونس والدارين لو كانتا ملكا له بدونك

فأنت النبي الحق لا شك في ذلك

ومن لم يتبعك يذهب بلا إيمان

اسمه جميل وهو جميل : محمد

وعلى هذا فإن وظيفة الشعر الأولى في الدولة العثمانية هي وكما رأينا نقش الحب والوجد والمحبة على القلوب. ولأن الشعر في بنيته يتضمن العمق والرقة والظرافة والفصاحة والبلاغة والسلاسة والطلاقة، فإن ساحته استخدمت كأرضية مختلفة لا يمكن الاستغناء عنها في تربية أهل العلم والعرفان والإدارة كأرواح رقيقة. من ناحية أخرى كان هناك اتجاه آخر للشعر وهو التلاعب بالألفاظ الذي كان يبدو وكأنه أحجيات، وبالتالي ازدادت الكنايات والرموز والفنون البديعية.

وبهذا عملوا على إكساب اللغة قابلية وبداهة عن طريق البنية الشكلية (الخارجية) للشعر، والمحتوى الداخلي، وعمق المعاني والمنطق، والعبارات التي تشكلت على شكل الألغاز، والكنايات والرموز والفنون البديعية.

ولهذا كان أحد أهم غايات الشعر في الدولة العثمانية هو التعمق في اللفظ والخصائص اللغوية، وكان يلزم من هذا فهم كتاب الله ومعانيه، الذي هو أبلغ وأعلى كلام. وذلك لأن العثماني كان يدرك بأنه سيمكنه الوصول بالخطوات التي سيخطوها تجاه إدراك كلام الله إلى هدفه، وذلك بعد إكساب كلام البشر القمة في البلاغة بالشعر. وهذا يعني أن الشعر في الدولة العثمانية كان أحد العوامل الرئيسية، التي تؤثر في سمو قلوب الأفراد. وأرباب العلم القدامى كانوا يتعلمون تعليمًا متعمقًا في الطلاقة والسلاسة والفصاحة والبلاغة، ثم بعد ذلك يدخلون في دقائق علوم الحديث والتفسير. لأنه لا يمكن بالتأكيد لإدراكٍ لم يتمكن من فهم كلام البشر أن يفهم أو يدخل إلى حكم وأسرار الكلام الإلهي.

ولهذا فإن إدراك وفهم الشخص القاصر من الناحية الأدبية، قاصر أيضًا من ناحية الفهم والشرح. وانشغال أشخاص كهؤلاء بعلم القرآن والحديث سيجعلهم ينجرون خلف الأخطاء.

حتى في يومنا هذا نجد بعض الأشخاص من غير ذوي الأهلية نجدهم بسبب حرمانهم من هذا الجانب ينحرفون عن فهم المعنى الأصلي المقصود في القرآن



الكريم من تشبيهات واستعارات وكنايات، ويعطون نتائج جافة غريبة بالتفسيرات الظاهرية التي يعطونها، وهذا بالطبع يوضح لنا أهمية ما نحن بصدده بشكل كبير. والقرآن ينبه الذين ينظرون إليه على أنه كتاب عادي – حاشا لله – أو الذين ينهضون لتفسيره أو توضيحه على أنه كتاب عادي.

يقول الله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (لقمان،٢٧)

وهذا يعني أنه يجب الإحاطة والوقوف عن قرب وتعمق بمعاني القرآن الظاهرية والباطنية، والوصول على الأقل إلى مرتبة جدية وعالية في سبيل فهمه، نظرًا لأنه لا يمكن الوقوف بشكل تام بمعانيه إلا بالإحاطة بالكلمات الموجودة فيه. وإلا فإن الحقائق والأسرار التي كان يدركها حتى الإنسان الأمي في الماضي، سيعجز عن إدراكها ما نطلق عليهم علماء في يومنا هذا.

والشعر في الدولة العثمانية علاوة على هذه النقطة المهمة، كان يقوم في الدولة بوظيفة الإعلام الإيجابي في الوقت الحالي. وحقيقة القول إن الشعر كان يحتل مكانة كبيرة ويمتلك نفوذًا ليس بالهين؛ لأنه كان يوجه التكتلات، ويتناول المشكلات الاجتماعية، ويجعل أصوات القلوب مسموعة. ولا يستطيع شخص أن ينكر الدور الذي قام بها شعراؤنا الكبار أمثال «يونُسْ أمْرَه» و«عاشق باشا» و«سليمان جلبي»، و«باقي» و«فضولي» و«الشيخ غالب» وغيرهم من الشعراء الممتازين.

وعندما كان الجيش العثماني يخرج إلى أية حملة، كان يرافقها ثلاث طوائف هم:

١- الوَقْعَه نُويسْ (كاتب الوقائع، المؤرّخ).

٢- سوسيولوجي.(عالم الإجتماع)

٣- الشاعر.

وذلك لأن الشعر وحده في المجتمع كان يقوم ولعدة عصور بالدور الذي تقوم به العديد من المؤسسات الإعلامية بما فيها من صحف ومجلات.

كان لهذه الحقيقة أيضاً دور في تنشأة الشعراء الأقوياء العمالقة. ويمكن القول بأنه إذا لا ينشأ عباقرة في الشعر في يومنا هذا، فإن مرد ذلك يرجع إلى التخريب الذي تعرضت له لغتنا، والجفاف الذي أصاب القلوب، والقلة في ساحة نفوذ وإمكانات الشعر بالنظر إلى الماضي.

وهنا يجب علينا التنبيه على ما يلي:

أنه كان للشعر مجموعة من المقاييس مثلما كان في الموضوعات المختلفة الأخرى للإسلام. فالإسلام يقسم الشعر إلى قسمين؛ مثبت أي إيجابى ومنفي أي سلبي. والمنفي منهي عنه تمامًا، أما المثبت فمصرح به. وقد قال النبي ﷺ :

«**هُوَ كَلامٌ، فَحَسَنُهُ حَسَنٌ، وَقَبِيحُهُ قَبِيحٌ**» (البيهقي، السنن الكبرى، ٥، ١١٠/ ٢١١١٣)

إضافة إلى هذا الحديث فإن الحديث التالي أيضاً يوضح لنا أن هناك تنبيهًا بالنسبة إلى هؤلاء الشعراء الذين يميلون بأشعارهم عن الأهداف الأصلية للشعر ويميلون به إلى البغضاء والتبصبص. فقد قال الرسول ﷺ:

«**لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا**» (البخاري، أدب، ٩٢/ ٦١٥٤)

ولهذا يقول الله تعالى:

﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ**﴾ (الشعراء، ٢٢٤)

ثم أعقب ذلك باستثناء حيث قال تعالى:

﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**﴾ (الشعراء، ٢٢٧)



وعندما كان النبي ﷺ ذاهبًا إلى عمرة القضاء كان «عبد الله بن رواحة» رضي الله عنه يسير أمامه ويقول:

خَلُّوا بني الكُفَّار عَنْ سَبِيله .... اليوم نضربكم على تَأْويله ...

كما ضربناكم على تنزيله ...... ضربًا يزيلُ الهام عَن مَقِيله ...

ويُذْهِل الخليل عن خليله ...... قد أنزل الرحمن في تنزيله ...

فقال عمر رضي الله عنه:

"يا بن رواحة! في حرم الله وبين يدى رسول الله ﷺ تقول الشعر؟!"

فقال رسول الله ﷺ :

«خَلِّ عَنْهُ يَا عُمَرُ فَلَهُوَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ» (ابراهيم جانان، كتب الستة،٨/ ١٩١)

حتى «غزوة بدر» التي كانت أهم غزوات الإسلام بدأت بنزال الطرفين في الشعر أولاً.

وكان النبي ﷺ يقول تجاه هجاء المشركين:

«جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ» (أبو داوود، جهاد، ١٨/ ٢٥٠٤)

«قُولُوا لَهُمْ كَمَا يَقُولُونَ لَكُمْ » (أحمد، مسند، ١٨٣١٤)

وفي إحدى المرات قال رسول الله ﷺ مقابل هجاء المشركين:

«مَنْ يَحْمِى أَعْرَاضَ الْمُؤْمِنِينَ؟» (شرح معاني الآثار، ص ٢٩٨، ٧٠٠٠٠)

وأمر المؤمنين بهجاء المشركين مقابل هجائهم، ثم قام «كعب بن مالك» و«عبد الله بن رواحة» و«حسان» فقال النبي ﷺ لحسان:

«اُهْجُهُمْ أنت يَا حَسَّانُ»

وتقول عائشة ﵂: إن النبي ﷺ وضع منبرًا في المسجد لحسان، حيث كان حسان يجلس عليه، وينظم الأشعار التي يدافع بها عن النبي ﷺ وقد قال النبي ﷺ في ذلك:

«إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ مَعَ حَسَّانَ مَا نَافَحَ عَنْ رَسُولِ اللهِ» (البخاري، أدب،٩١؛ أبو داود، أدب، ٩٥/ ٥٠١٥).

وقد قال النبي ﷺ لحسان «يوم قريظة»:

«اهْجُهُمْ (هَاجِهِمْ) وَجِبْرِيلُ مَعَكَ» (البخاري، أدب،٩١/ ٦١٥٣؛ مسلم، فضائل الصحابة، ١٥٣)

وبينما كان حسان يهجو المشركين كان النبي ﷺ يدعو قائلاً:

«...اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ» (مسلم، فضائل الصحابة، ١٥١/ ٢٤٨٥)

وإن تأييد روح القدس (جبريل ﵇) لحسان بن ثابت ﵁ يعني أن الله تعالى كان يلهمه الشعر في سبيل الله، وكان مؤيدًا بالتأييد الإلهي.

وفي إحدى المرات دعا رسول الله ﷺ «سلمان بن مالك» لهجاء المشركين، ولما وجد هجاءه غير كافٍ، دعا بعده «عبد الله بن رواحة»، ولما وجد الاثنين غير كافيين، دعا «حسان»، وبعد أن قام «حسان» بهجاء المشركين، قال رسول الله ﷺ:

«هَجَاهُمْ حَسَّانُ فَشَفَى وَاشْتَفَى» (مسلم، فضائل الصحابة، ١٥٧/ ٢٤٩٠)

وفي ظل تلك الحقائق تطورت "الهجاء" في الشعر وتكاملت لتصحيح الأخطاء في سبيل الله، والدفاع عن الحق ضد الظلم، والوقوف ضد أعداء الإسلام وغير ذلك. أما الأشعار التي خرجت عن تلك الغاية وأفرطت، فإنها غير مقبولة قطعًا.

وثمة طراز آخر مهم من أشكال نظم الشعر عند العثمانيين، ألا وهو الأشعار التي تتضمن الحكم المسمى بـ"الأشعار الحكمية"

وقد قال النبي ﷺ:

«إِنَّ مِنْ الشِّعْرِ حِكْمَةً» (البخاري، أدب،٩٠)



وهذا النوع من الأشعار كان له دور كبير في توجيه المجتمع والوصول به إلى الكمال. ولهذا فإن الكثير من الشعراء لم يتمكنوا من الاستغناء عن كتابة هذا الطرز من الشعر. حتى أفراد المجتمع أحبوا هذا النوع من الأشعار وكانوا يحفظونها، وكانوا يستفيدون منه ومن بحور التجارب والخبرة التي تملأ أبياته أمام العقبات والمشكلات التي تقابلهم. ولهذا فإننا نجد هذه الأبيات التالية لـ«القانوني» معلقة على كل الجدران ومحفورة في قلوب كل أفراد المجتمع:

لا شيء عند الناس أفضل من الدولة

ولكن الدولة في العالم لا تساوي نَفَسًا في صحة الإنسان

وأشعار «ضيا باشا» الذي كان واحدًا من الشعراء الموفقين في هذا الطراز مشهورة للغاية، فكل بيت من أبياته تمثل حكمة ومثلا وشعلة براقة تضيء حياة الإنسان.

أمثلة من أشعار «ضيا باشا» فيما يلي:

لا بد من التوبيخ لمن لا يستقيم بالنصح والوعظ

ومَنْ لا يستقيم بالتوبيخ يستحق الضرب بالفلقة

أيُّ صفاء للدهر؛ في ذهبه وفضته؟

يترك الإنسان كل شيء في سفره إلى العقبى

يُقال إن عرش سليمان سار في الهواء بالريح

أما الآن تهب الريح في محل هذه السلطنة

راح الحبيب تشتت الأصدقاء سال الشراب

هل يرجى خير في صباح هذه الليلة؟

لا عِبرة لقولٍ عَمَلُ المرء مرآته

تَظْهَر رتبة عقل الشخص في آثاره

يليق بالمرء الصدق ولو لقي إكراها

مُعين الصادقين ومؤيدهم هو الله!

وقد كان الرسول ﷺ لا يجد حرجًا في تلك "الأشعار الحكمية"، بل إنه نفسه ﷺ كان يترنم بالبيت التالي في بعض الأوقات:

"ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً".

وكما أنه كان يترنم بنفسه ببعض تلك الأبيات، كان يرغب أيضًا في أن تُقرأ عليه بعض هذه الأبيات الجميلة بين الحين والآخر.

قال بعض العارفين في القول الطيب:

"لو كان شيء عند الله أفضل من الكلام، لأنزله على الناس"

فالهدف من الشعر هو الوصول إلى هذا الجمال. ويُعَرِّف الشاعر الكبير «نجيب فاضل قيصه كورك» وهو من الشعراء الأتراك الكبار في العهد الأخير - الشعر بقوله:

"الشعر هو البحث عن الحقيقة".

ولا توجد وظيفة للشعر سوى البحث عن الله ﷻ؛ لأنه لا يوجد شيء في مكان يخلو من الدين، حتى العدم نفسه غير موجود هناك. أما الشعر والفن فإنهما غير موجودَيْن هناك أصلاً. وذلك لأن القيم المعنوية العلوية التي تجعل روح الإنسان مرتبطة بالدين إن فقدت مصدرها الأصلي، فإن الشعر هو أول ما يتأثر بذلك.

ولهذا فإن الشاعر من الناحية المعنوية وليس المادية، يعد أحسن وأفضل سائل لله من بين السائلين الذين يتكاثرون أمام الجوامع.

والشعر في المكان الخالي عن الإيمان والحب عبارة عن هرزمة وتملق.

أما الشعر الذي يأتي عبر السير إلى الله ﷻ ويسقط الحجب ويفتح الطريق إلى الله، هذا هو الشعر الحقيقى والشعر المقبول. والشاعر الحقيقي هو ذلك الشاعر، الذي يكون كالنحلة التي تمتص رحيقها من زهرة النبي ﷺ، وليس من الزهور الأخرى.

اللهم أنعم علينا في تلك الأيام التي خربت فيها لغتنا وقلوبنا بشعراء أمثال «يونُسْ أمْرَه» و«عاشق باشا» و«الشيخ غالب» و«فضولي» و«نابي» و«باقي» الذين ينظمون الأشعار التي تنقش على القلوب ويحيون القلوب الخربة من جديد!

آمين!..







سلطان العارفين والعاشقين

يونُسْ أمْرَه

(؟١٢٤٠-؟١٣٢٠م)

«يونُسْ أمْرَه» سلطان من سلاطين القلوب لدينا يأتي على رأس العارفين بالحق والحقيقة في الأناضول المسلم.

والمعلومات الخاصة بمولده ووفاته وحياته غير محددة. وبالرغم من هذا يروى أنه عاش طويلاً، وأنه وُلد في قرية «صَارِى كُوىْ» شمال «سِوْرِي حِصَارْ». على أية حال إن كل ما عُرف عنه كان عبارة عن المناقب المختلفة، والأمارات الموجودة في في أشعاره.

فتح «يونُسْ أمْرَه» طريقًا كبيرًا بثرائه من الناحية الشعرية التي استخدمها في عالم التصوف وفي التعبير عنه. إنه كان عبقريًا لامثيل له. ولا يزال صوته الذي يدعو إلى الله ﷻ، وأنفاسه التي أغرقت القلوب، وحملته السامية التي تسمو بالإنسان لا تزال مستمرة إلى اليوم. وبالرغم من أن التراب وارى جسده، إلا أن الموت لم يمسح اسمه من ذاكرة التاريخ كما هو الحال في كثير من أولياء الله. فما يزال تصرفه الروحاني الفياض

الموجود في القلوب موجودًا ومستمرًّا. لقد تخطى حدود الفناء بفضل ماء الحياة الذي شربه ووزعه فأصبح خالداً في ذاكرتهم.

إن العهد الذي عاش فيه «يونُسْ أمْرَه» يتوافق مع ذلك العهد الذي استولت فيه جحافل المغول على الأناضول، وقضت على دولة سلاجقة الأناضول، والأزمة التي خلفها هذا الانهيار، والمحاولات الجديدة للنهوض بأفراد المجتمع من جديد. كما يصادف أيضًا عهد «الغازي عثمان الأول». وخلاصة القول: إن العهد الذي عاش فيه «يونُسْ أمْرَه» كان عهدًا شهد انهيارًا كبيرًا، أعقبه سير سريع صوب تكوين عهد أكبر.

والعامل الأول في هذا هو سلسلة أهل الحق الذين هم أهل التصوف.

والأمم مثل الأفراد لا تستقر حياتها على خط مستقيم واحد، بل تتعرض لمنحنيات وتعرجات، فتارة تصعد وتارة تهبط، وفترات المصائب والسعادة تمر في التاريخ مثل سلاسل الجبال الموجودة في الطبيعة. وكانت الأرواح العظيمة التي تعمل على تسكين الأفراد في تلك الفترات المتأزمة، قد لعبت دورًا كبيرًا في تقوية الأفراد وإرشادهم إلى التوكل والثبات. فقد كان هؤلاء الأولياء بمثابة الأبطال القوميين بل في بعض الأحيان كانوا يؤدّون دورًا أكبر من هؤلاء الأبطال القوميين في طمأنينة الأفراد والمجتمعات، وضمد الجروح التي سببها المصائب، وتخفيف الآلام.

وكان «يونس أمرة» واحدًا من هؤلاء. ولو أردنا أن نعد سلسلة لتلك الأرواح العظيمة باعتبار قيمتها والدور الذي لعبته، لوجدنا وبلا أدنى شك «يونُسْ أمْرَه» يأتي في المقدمة. لأنه فضلا عن كونه مثل المرشدين المعنويين الذين جعلوا من الإيمان حياة أبدية في القلوب، أوصل وجده وعشقه الرباني إلى مدى يفوق زمانه وأهل زمانه، بشعره السهل الممتنع الذي يعبر المعاني العظيمة بأسلوب بسيط.

ففي الوقت نفسه الذي كان يعمل فيه «يونس أمره» على مداواة الجروح الظاهرية، كان أيضًا يعمل على سد الثغرات التي فتحتها التيارات الباطنية الباطلة على الإنسان في الأناضول. وقد عكس العشق الإلهي إلى الأفراد بالشكل الذي

انعكس عليه من العالم العلوي اللاهوتي للإسلام. ولهذا برز «يونس أمرة» في الأناضول كـ «أحمد يسوي» في وسط آسيا. فقد رأينا الأدب الصوفي يبدأ مع «أحمد يسوي» ويصل إلى ذروته بـ«يونس أمره»، حتى أن يونس كان قد حاز صفة أعلى شاعر في الأدب الصوفي.

ويتضح من أشعار «يونس أمره» بأنه تلقى تعليمًا جيدًا. فقد كان عالمًا بالعلوم الإسلامية كالقرآن الكريم والتفسير والحديث والفقه، ويتضح من أشعاره أيضًا أنه كان على دراية باللغة العربية واللغة الفارسية إلى جانب لغته الأصلية التركية.

أما الأبيات التي ذكر فيها يونس بأنه لا يعرف القراءة والكتابة إنما كانت من قبيل التواضع؛ لأنه استخدم في منظوماته بعض المقتطفات من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، وبعض كلام الحكماء والكبار، وقد قرأ مثنوي مولانا وقال:

منذ أن صوب مولانا أنظاره الينا

ونظره الرائع مرآة قلوبنا

كما أن ترجمته لغزلية الشاعر سعدي إلى اللغة التركية نظمًا تعطينا فكرة على هويته العلمية.

❁

وثمة سؤال يطرح نفسه وهو؛ ما الذي جعل من يونس يونسًا؟ وهو سؤال مهم للغاية، والإجابة عنه على ما يلي:

تذكر الروايات أن يونس كان شخصية فقيرة، وكان يتعيش من الزراعة. وقد حصل جفاف كبير، ولم يتمكن يونس من جمع أي محصول، وبالتالي ساء حاله كلية. وقد سمع أن هناك وليًّا يُدعى «الحاج بَـكْتاشْ» له كرامات كثيرة ويساعد كل من يذهب إليه للحاجة، فقرر يونس أن يذهب إليه ليحصل منه على بعض الطعام. وبينما كان في الطريق إذا به يفكر المثل القائل: "إن مَنْ يذهب فارغًا، يعود فارغًا"، فجمع بعض الفواكه من الجبل. ولما وصل إلى تكية الشيخ وقال للمريدين:

"هذه هديتي للشيخ، وأنا رجل فقير، ولعل الشيخ يقبل هذه الهدية المتواضعة ويعطيني بعض القمح".

ولأن «الحاج بكتاش» اكتشف الاستعداد المكنوز داخل يونس ضيّفه عدة أيام في التكية، ولكن يونس تذكر أهله فطلب من المريدين أن يخبروا الشيخ بأنه سيرحل ويريد بعض القمح.

ولما قال المريدون لبَـكْتاشْ ذلك قال لهم: "عودوا إليه واسألوه هل يريد القمح أم همة الأولياء؟"

فأجاب يونس المسكين: "القمح".

فكرر بَـكْتاشْ السؤال "هل يريد القمح أم يريد من نَفَسي بقدر تلك الحبوب من الفاكهة!"

فأجاب يونس: "وماذا أفعل بالأنفاس، أريد القمح."

فقال الشيخ: "اسألوه هل يريد أن أمنحه بدلا من القمح همة بعدد النواة الموجودة في تلك الفواكه!".

فأصر يونس على القمح. فأمر «الحاج بَـكْتاشْ» بأن يُعطى القمح. أخذ يونس القمح وغادر التكية فرحًا؛ لأنه حصل على بغيته منها. وبينما هو في الطريق إذا به يفكر فيما حصل بدقة، ويكتشف أنه وقع في خطأ كبير، فعاد من وسط الطريق إلى التكية مرة أخرى. ولما وصل نادى على المريدين، وقال لهم:

"أيها الأعزاء! خذوا قمحكم، وأخطروا الشيخ بأنني أريد همته، وليحسن إليّ بالنصيب الذي تحدث عنه!".

إلا أن الأمر قد فات، حيث قال بَـكْتاشْ لهم:

"أخبروه بأننا أعطينا نصيبه إلى «طابْدوقْ أمْرَه» وإنما مفتاح نصيبه عند «طابْدوقْ أمْرَه»".

وعلى الفور سار يونس إلى تكية «طابْدوقْ أمْرَه» ولما وصل إليه حكى له ما حدث، فقال «طابْدوقْ أمْرَه» له بعد أن أنصت إلى كلامه:

"يا يونس! اخدم نُعْطِكَ الهمة!"

وعهد إليه بمهمة جمع الحطب إلى التكية. بدأ يونس يؤدي مهام تلك الوظيفة التي أعطيت له بحماس وحب كبيرين، ليتمكن من حصول قلبه على أسرار الحق والحكمة.

تخلى يونس عن القمح الذي كان يمثل رغبته الفانية، في مقابل كونه طالبًا للنصيب الأبدي الذي في أبواب الحقيقة. وبسبب الغفلة تجاه العالم المعنوي للبعض، كان «عارف نهاد آسيا» يقول له:

"يا يونس، أنت هرولت صوب الهمة قائلاً: "ما ذا فعلت؟"، أما نحن فلا نزال في هم القمح".

حقيقة لا يزال الكثيرون في هم القمح، وفي مقابل ذلك نجد الذين يبحثون عن الهمة قليلين.

ويقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

"خَيْرُكُمْ مَنْ إِذَا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ اِخْتَارَ الْآخِرَةَ".

ويونس باختياره هذا بالتأكيد انضم إلى قافلة السعداء الأخيار.

أما بالنسبة لخدمة «يونس أمره» لـ«طابدوق أمره» في التكية، فكانت بمثابة الأسطورة التي تتناقلها الألسن. فقد أدى يونس خدمة جمع الحطب للتكية لعدة أعوام دون أن يُظهر أي ملل أو سأم وإنما بجد واجتهاد. فقد كان يحرص كل الحرص على أن يجلب حطبًا مستويًا للغاية، لدرجة أن «طابدوق أمره» انتبه لهذا، فأحضر بعض هذا الحطب وسأل يونس:

"هل الحطب كله مستقيمٍ؟"

فأجاب يونس:"نعم."



فقال: "ألا يوجد واحدة معوجة؟"

فقال يونس: "لا، كلها مستقيمة."

فقال: "ألم تصادف لعدة أعوام حطبًا معوجًا في الجبل؟"

فقال يونس مقولته الشهيرة: "يا سلطاني! أنا أعلم أنه لا يدخل معوج من بابك، حتى ولو كان حطبًا جافًّا!..". وهذه كانت خدمة يونس.

وتوجد أساليب وطرق مختلفة في العلاقات التي كانت موجودة بين المرشد والمريد في التصوف. ومن ذلك؛ أن المرشد لا يخطر المريد بالترقيات التي يسجلها وذلك بسبب مجموعة من الأخطار المعنوية، وإنما تكون جهوده منصبة في ترقية مريده بالسير والسلوك.

وقد طبق "طابدوق أمره" هذا الأسلوب لفترة طويلة حتى لا يتلقى يونس إرتقاءه المعنوي من نفسه ويكون ذلك حائلا دون ترقيه. وهذا هو يونس الذي اقتُرح عليه بالهمة من أول يوم يصل فيه إلى تكية «الحاج بكتاش» يظل يخدم سنوات طويلة في تكية «طابدوق أمره» دون أن يَرَى أي ترقٍ. وقد شعر بالحزن كثيرًا لهذا، وعجز عن التفكير، وخاطبته نفسه قائلة: "هذا العمل إلى أين سيوصلني؟"، رغم أنه قد تحمل من أجل أن ينال المنزلة المقصودة في سبيل الوصول إلى الله ﷻ، وخدم بحب عدة أعوام، إلا أنه لم ينتبه إلى هذا النضوج الذي أصبح في نفسه من خلال تلك الخدمة، وكأنه أصبح في وضع خالي الوفاض على الباب.

وفي النهاية أخذ يونس المسكين يفكر، وقرر في النهاية أن يبحث عن باب آخر يمكنه من الوصول إلى الكمال، وخرج من التكية بدون أن يعلم أحد. وبينما هو في الطريق إذا به يقابل شخصين آخرين يبحثان عن نفس الباب الذي يبحث عنه يونس. وتأسست بينهم صداقة، وفي يومهم الثاني ضربهم الجوع، فدعا واحد منهم فأكرمهم الله بمائدة، فأكلوا وشربوا وشكروا الله ﷻ. تحير يونس كثيرًا من هذا الوضع وقال في نفسه:

"يا للعجب، إن مثل هذا الشخص وصل إلى هذه الدرجة من الكمال ولم يقم بالخدمة في إحدى التكايا، وأنا خدمت سنوات طويلة ولم أصل إلى هذا الكمال، حسن أنني غادرت تلك التكية!". وفي اليوم التالي جاءوا فدعا المتصوف الثاني، فأنعم الله تعالى عليهم بمائدة، فأكلوا وشربوا وشكروا الله ﷻ.

وفي اليوم الثالث جاءوا، وكان الدور في الدعاء حينئذ على يونس.

فقال له الدرويش: "هيَّا أيها الصديق! الدور عليك في الدعاء"

فقال يونس باضطراب: "عذرًا أيها الأخوة، إنني في مرتبة متدنية جدًّا، ولست أهلاً مثلكما فدعائي لا يؤثر حتى على ورقة شجر"

فرد عليه الدرويشان: " لا يا أخانا الدرويش! هيًّا إلى دورك في الدعاء، ولا تفسد علينا ما اعتدناه."

فرفع يونس يديه إلى السماء وهو فاقد الأمل وقال:

"يا رب! أنعم على عبدك المسكين يونس بالمائدة التي أنعمت بها على الدراويش. يا رب! لقد حان الدور عليّ في الدعاء، فلا تنظر إلى تقصيري وذنوبي، ولكن الطف بي، يا رب! بحرمة من دعياك به وأنزلت عليهما المائدة به، أنعم على عبدك يونس بالمائدة لحرمته أيضًا".

ومسح بيديه على وجهه، ونزلت عليهم مائدة مزينة للغاية تكفي اثني عشر شخصًا، فتحير يونس كثيرًا، وسأله الدراويش:

"أيها الأخ الدرويش! كنت لا تعرف الدعاء، فقل لنا: كيف دعوت ليرسل لك الله مائدة كهذه؟!"

كان يونس المتألم الحيران عاجزًا أمام تلك الأسرار التي شاهدها، ولم يستطع أن يقول كلمة واحدة. لقد كان الوضع بالنسبة إليه أيضًا كاللغز، لدرجة أنه لم يستطع أن يحل بنفسه هذا السر المعنوي، فطلب من أصدقائه أن يحلوه له فقال لهما:

"أنتم قولوا لي أولًا كيف دعوتم؟"

فردا عليه قائلين: "لقد دعونا الله بحرمة العبد «يونُسْ أمْرَه» الذي خدم بإخلاص وصدق على باب تكية «طابدوق أمره» أربعين سنة".

ولما سمع يونس ذلك، وثب من مكانه وهو يرتعد ويقول بشكل لا إرادي: "يا الله!". ولم يتناول لقمة واحدة من المائدة، ودّع صديقيه ورحل عنهما. ولما وصل إلى بيت الشيخ «طابدوق أمره» طرق الباب، ففتحت زوجة الشيخ، ولما رأت يونس قالت له: "لماذا فعلت ذلك يا بني؟ لقد أحزنت الشيخ!"..

دمعت عينا يونس، فقالت له الزوجة:"يا بني! إن الشيخ سيخرج بعد قليل فانتظر هنا على عتبة المنزل، وإذا سألني الشيخ «مَن بالباب؟» وقلت له «يونس» وقال:«يونس مَنْ؟» فافهم أن الشيخ أخرجك من قلبه، أما إذا قال «يونسنا؟» فاعلم أن الشيخ عفا عنك." وضع يونس المسكين رأسه بكل ندم على عتبة الباب وبدأ ينتظر، وبعد قليل سمع طرق نعال الشيخ تقترب من الباب، كان الشيخ أعمى، ولكن قلبه مضيء كالشمس. ولما تعثرت قدم الشيخ في رأس يونس، قال الشيخ: مَنْ؟، فردت زوجته: إنه يونس. فسكت لبرهة، ثم تبسم وكأنه يشاهد بقلبه حالة يونس وهو يبكي من الندم:"يونسنا؟".

بعدها قال: " يونس! إن الفاكهة لا تعرف أنها نضجت، ولكن الذي يعرف ذلك هو البستاني. ولهذا فإن المعلم هو الذي يعلم جيدًا متى ينضج التلميذ، ولكنه يخفي عنه المرتبة التي وصل إليها من أجل أن يوصله إلى مرتبة أعلى وأعلى!..."

❀

قال «طابدوق أمره» الذي أخذ بيونس من مرتبة معنوية إلى أخرى في يومٍ تحدث فيه إلى مريديه: "يا ابني يونس! قل لنا الشعر الذي يتضمن الحِكم."

تحير يونس من هذا لأنه كان يسمع ذلك لأول مرة، وقال:

"يا أستاذي أنا لا أعرف إنشاد شعر".

فكرر عليه «طابدوق أمره»: "يا يونس! هيَّا قل لنا الشعر".

لم يكن يونس حتى تلك اللحظة ينظم الشعر، وبينما كان يتفكر بتعمق عن كيفية تنفيذ أمر الشيخ، انحلت عقدة لسانه، وطغى بحر الحكمة الذي كان ساكنًا هادئًا في قلبه. وبدأ ينصب من لسانه شعرًا:

لقد أخذني حبك من نفسي، لابد لي منك
لقد احترقت بالأمس واليوم، لابد لي منك

لست أفرح للوجود، ولست أتحسر للعدم
ولكني أتسلى بالحب، لابد لي منك

تجدر المصاحبة للصوفية، والآخرة للآخية
وتجدر ليلى للمجنون، لابد لي منك

اسمي يونس كلما مرت الأيام تزداد ناري
أنت مقصودي في الدارين لا بد لي منك

وقد تحدث يونس عن حب الله ﷻ المكنون في قلبه، وأحرقه حب رسول الله ﷺ لدرجة أنه بدأ يتلهب من هذا الحب وهو يعبر عنه بالأبيات التالية:

ليحترق بعشقك العاشقون يا رسول الله
وليشربوا شراب العشق وليرتووا بذلك يا رسول الله

اشفع لمن يحبونك يا رسول الله
أنت الروح لأجساد المؤمنين يا رسول الله

إني عاشق للحبيب، وأنا بلبل حديقة الحب
وليحترق بالنار مَنْ لا يحبك يا رسول الله

ومن بعدها صدرت عن إقليم فؤاد يونس الكثير من الشعر الذي لا مثيل له والذي كان أسلوبه سهلاً ممتنعًا.

وقد رأى «يونس أمره» أن السبب الرئيسي في الصراعات النفسانية الدائرة بين الناس في عصره هو فقدان العشق الذي يسبب نقص المحبة وانعدام المشاعر. وبذلك هبت أشعاره وهي تمر على الأناضول، وكأنها نفحات قوية استمرت حتى وقتنا هذا من أجل إزالة هذا النقص في الحب. وانتشرت من الروملي (أوروبا الشرقية) إلى وسط آسيا وكأنها سحب ممطرة منبتة مباركة تعم بالنماء في كل مكان حصل فيه الحريق.

ويعرض يونس عشقه ووجده على هذا الشكل:

أسير يحرقني الحب يحرقني
والعشق جعل لوني أحمر قانٍ
لست عاقلا ولا مجنونًا،
تعال وانظر ماذا فعل بي العشق

أهب مثل الريح حينا
وأتترب مثل الطرق حينًا آخر
وأكون مثل السيل المنتشى،
فتعال وانظر ماذا فعل العشق بي

ويخاطب«يونس أمره» من يدخلون في طريق العشق بقوله:

هل يكون عاشقًا من لم يَفْـدِ روحه طريق العشق
هل يكون عاشقًا مَنْ لم يصل إلى الصديق بعد جهد

من ترك شهواته وشرب من كأس العشق
هل يكون عاشقًا مَنْ لم يداوم على صحبته الإخوان

يا يونس! اصبر الآن على جفاء الصديق
وهل يكون عاشقًا مَنْ لم يحترق قلبه بنار العشق

ويأسى «يونُسْ أمْرَه» عمَنْ يعيش بقلب جاف محروم من العشق، فيقول:

اسمعوا أيها الأحباب إن العشق يشبه الشمس
وإن القلب الذي بلا عشق مثل الحجر

وقد ساق «يونُسْ أمْرَه» بأشعاره هذه الإنسان إلى التفكر والشعور وبالخاصة محاسبة نفسه. لقد استطاع بلسان روحاني أن يحرك كل الطاقة الموجودة في قلب الإنسان، وأصبح بطلا في المعنوية يحوّل الألم إلى اللذة، ويحوّل السم إلى العسل؛ لأنه قد وجد خلاصة العسل:

لقد وجدت روح الأرواح، ولتكن روحي نهبا
تركت الربح والخسارة ليكن حانوتي نهبا

لأن الوجود قد فنى أتى الولي إلينا
امتلأ القلب الخرب نورًا، وليكن عالمي نهبا

يونس لقد قلت شيئًا جميلًا، وأكلت العسل والسكر
لقد وجدت خلاصة العسل وليكن خليتي نهبا

فإن يونس الذي وجد خلاصة العسل بدأ يخاطب قلبه بأشعاره، وفي الحقيقة كان يدعو الناس إلى باب المولى الذي يُمنَح فيه الألطاف المعنوية، أي إلى الرب – جل ذكره –:

أيتها الروح تعالي لنذهب قبل توقف الروح وقبل أن تتركنا الصورة
وقبل أن يدخل العدو بيننا تعال أيها القلب لنذهب إلى الصديق

دون أن يأتي خبر الموت وقبل أن يأخذنا الأجل
قبل أن يقوم عزرائيل بعمله هلم أيها القلب إلى الصديق

لنصل إلى الولي الحقيقي ولنسأل عن خبر الحق
فهلم أيها القلب لنأخذ «يونُسْ أمْرَه» لنذهب إلى الصديق



إن العلم الحقيقي ليس عبارة عن معلومات تدرس في المدارس بل إن هذه المعلومات إنما تكون واسطة للعلم فحسب. إن العلم الحقيقي أن يتحول الكون إلى كتاب ذي أسرارٍ، وأن يقرأ هذا الكتاب في القلب. والمدرسة التي تدرس هذا هي



المحبة والعشق. ولهذا فإن «يونس أمره» لم يجعل من العلم غاية، بل جعله وسيلة، وتعبيره عن هذا ممتلئ بالمعاني والأسرار:

العلم أن تعرف العلم، العلم أن تعرف نفسك
وأنت إن لم تعرف نفسك، فما أهمية الدراسة؟

وما هو الهدف من الدراسة؟ إنه معرفة الحق
أنك درست ولكن لم تفهم، فهذاعمل جاف

تدرس تسعة وعشرين حرفًا، من الألف إلى الياء
وأنت تقول "ألف" يا أستاذ فما معناه؟

ويدرك يونس أهمية الدخول إلى القلب:

يقول يونس أمره يا أستاذ! لو حججت ألف حجة
الأفضل من الجميع، أن تدخل إلى القلب

وقد قرأ يونس كتاب معرفة الله جيدًا:

"يكتب العلماء الكتب ويكتبون الأسود على الأبيض
وتكتب في القلوب سورة هذا الكتاب"

كما لا يقبل "يونس أمره" تحصيل العلم بغفلة بعيدًا عن الحياة:

"الذي يقرأنا هو الصديق، هو الذي يغرد فوقنا
والذي يقرأ الآن أقل القليل من الكتاب يكون عالمًا متعمقًا "

كما يعبر يونس عن الزهد الذي هو الاستغناء عن الدنيا بقوله:

"إن الذي في رأسه عقل لا يعمل بالأجرة
ولا ينخدع بحور العين ويفدي بالعين والحاجب

إن هذه الدنيا للعارفين كالخيال والرؤيا
والذين وهبوا أنفسهم لك يفدون الخيال والرؤيا"

لم يعط «يونس أمره» مكانًا كبيرًا في أشعاره التي كتبها لتلك الموضوعات اليومية الخاصة بهذا العالم، بل تناول الموضوعات المتعلقة بالبشر والقدر الإلهي مثل الإيمان بالله والمناجاة والقضايا الدينية والقبر وفناء العمر وحب الله والنصائح والغايات السامية. ولقد شعر «يونُسْ أمْرَه» بذكر الله في كل نفس وفي كل شيء وفي كل مكان. لقد سمع يونس الهمسات والصدى السامي اللاهوتي الذي يقوله كل الكائنات التي يظن أنها لا تتكلم.

لقد كان «يونس أمره» متصوفًا غريبًا في تلك الدنيا، امتثالاً لقوله ﷺ :

«**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**» (البخاري، الرقاق، ٣/ ٦٤١٦)

ويقول يونس في ذلك:

يا تُرى هل يوجد في هذا المكان غريب مثلي؟
كأن في صدره رأس وعيناه دامعتان؟ غريب مثلي؟

ليقولوا مات غريبٌ، وبعدها بثلاثة أيام ليسمعوا
ليغسلوا بالماء البارد غريب مثلي

أيها المسكين "يونس أمره"! لا علاج لمرضك
هيَّا تجول من بلدة إلى أخرى كالغريب مثلي

كما يعبر «يونس أمره» عن حالة الغربة التي يعيشها في هذا السجن الدنيوي والكثير من الآلام التي يعيشها بسبب هذا الحال، وخاصة ألم فراقه عن الحسن المطلق يعبر عن أحاسيسه معاتبا البلبل فيقول:

هل أصبحت غريبًا هنا أيها البلبل، لماذا تبكي؟
هل تعبت وضللت الطريق فلماذا تبكي أيها البلبل؟

هل عبرت الجبال ذات الثلوج، وعبرت الأنهار العميقة
هل فارقت حبيبك، فلماذا تبكي أيها البلبل؟



ويقول في شعر آخر؛ عن غربته ووحدته في تلك الرحلة المعنوية وعدم تسليه إلا بالحبيب العلي. مبيناً أنه لا يمكن لكل إنسان أن يدخل إلى عالم الأسرار الإلهية والعرفان:

لقد أتيت بالعَجَبِ ولا يعرف أحد حالي

أنا أقول وأنا أسمع، ولا يعرف أحد لغتي

إن لغتي هي لغة الطير، ومكاني هو مكان الحبيب

أنا البلبل وحبيبي وردتي واعلموا أن وردتي لا تَذبل

وكم هو جميل تعبير «يونس أمره» الذي أنقذ نفسه من انخداع الثروة والمال، في تنبيهه لِمَنْ سقطوا وافتتنوا بحب المال والمُلك:

يا صاحب الملك والمال!

أين مالكه الأول؟

المال والمُلك كله كذب

فاذهب لِيُلْهِك المال ولتفرح به!

كما يلخص «يونس أمره» قِصَر الحياة في بيت واحد فيقول:

لقد أتينا من أرحام أمهاتنا إلى السوق

واشترينا الكفن وعدنا إلى القبر

وما أجمل ما صوره يونس عن حال من حل في مكان يغتر الموجودين فيه ثم ارتحل، حيث قال:

الذين حلوا وارتحلوا في هذه الدنيا الكاذبة

لا يقولون شيئًا ولايخبرون عن أي شيء

الذين تــنــبت الأعشاب المتنوعة على قبورهم

لا يقولون شيئا ولايخبرون عن أي شيء

ومنهم مَنْ تــنــبت الأشجار من فوق رأسه
ومنهم مَنْ تصفرّ الأعشاب فوق رأسه
ومنهم المعصوم ومنهم الشجاع
لا يقولون شيئًا ولا يخبرون عن أي شيء

الجلود الناعمة غرقت في التراب
تعطلت الألسن الحلو عن الكلام
فتعالوا ولا تنسوا هــؤلاء من الدعاء
لا يقولون شيئًا ولا يخبرون عن أي شيء

منهم مَنْ هو في الرابعة من عمره و مَنْ هو في الخامسة
ومنهم مَنْ ليس على رأسه تاج
ومنهم مَنْ هو في السادسة من عمره ومن هو في السابعة
لا يقولون شيئًا ولا يخبرون عن أي شيء

منهم البائع ومنهم المدرس
تجرع كأس الأجل من أصعب الأمور!
ومنهم مَنْ لحيته بيضاء ومنهم من هو شيخ كبير
لا يقولون شيئًا ولا يخبرون عن أي شيء

يونس يقول: انظر إلى أعمال القدر
تساقطت حواجبه وأهدابه
وعلى رءوسهم أحجار فيها حروف الهجاء
لا يقولون شيئًا ولا يخبرون عن أي شيء



لقد كان «يونُسْ أمْرَه» ولعدة عصور منبعًا فياضًا يغذي أرواح الأهالي من ناحية عمق الأحاسيس والتفكر بأشعاره التي ترنم بها والتي كانت تتسم بأنها السهل

الممتنع. لقد كان بحرًا كبيرًا لا ساحل له. وعندما يسمع الإنسان شعره لأول مرة يقول في نفسه لكم هذا بسيط، أنا بالتأكيد يمكنني أن أنظم مثله.

إلا أن التعبير بهذه البساطة عن فكر متعمق بهذا الشكل ليس ميسرًا لكل شخص، ومن ذلك على سبيل المثال قول يونس:

لقد تغطيت باللحم والعظم
وهكذا ظهرتُ في صورة يونس

وهذا مثال جميل على ما قلناه، فقد لخص «يونُسْ أمْرَه» التصوف كله من أوله إلى آخره في هذا المثال البسيط. ولأن أشعار «يونُسْ أمْرَه» تعرض تعمقًا تصوفيًّا، فإنه ليس من الممكن فهمها وتقييمها بالعلوم الظاهرية. وبالرغم من أن تلك الأشعار تبدو في الظاهر بأنها مفهومة وميسرة، إلا أنها تحمل أسرارًا ومعاني باطنية كبيرة، والبيت التالي مثال على ذلك:

لقد قال يونس قولا لا يشبه قولا آخر
والمعنى الحقيقي يخفي وجهه عند الجاهلين

هذا يعني أن المعاني الغامضة التي دفنها يونس في أشعاره تختفي عند الناس الذين هم عديمو العرفان.

وبالرغم من أن البعض يظن أن يونس شاعر شعبي، إلا أن الواضح من أشعاره أنه تعلم في المدرسة بشكل جيد، وأنه كان على دراية باللغتين الفارسية والعربية، وصاحب مرتبة علمية جيدة. ولأن يونس كان يعرف كيف يستخدم العَرُوض جيدًا، ولأنه كان يخاطب كل شرائح المجتمع بمبدأ تجاهل المعرفة، فإنه كان يتمكن من التعبير ببساطة وسهولة عن أفكاره المتعمقة وكأنه معلم يقدم أفكاره وعلمه المتعمق وخبرته إلى طفل صغير بكل بساطة. إلا أن ثمة بعض الموضوعات الصوفية المتعمقة كان لا يفهمها سوى مَنْ هم على استعداد لفهمها فقط، وأبرز مثال على ذلك ما يعرف في الأدب باسم (الشطحات):

صعدت على غصن البرقوق فأكلت من العنب؟

قال صاحب البستان لماذا تأكل جوزي؟

وقد أعد «نيازي المصري» شرحًا جميلا لهذه الأبيات، والبيت الأول بناء على ما أوضحه «نيازي المصري» معناه كالتالي:

لكل شجرة ثمار من نوعها، وكل ثمرة منها شجرة مستقلة. ولكل عمل آلة خاصة به. وبها يحصل العمل.

ومن ذلك على سبيل المثال؛ العلوم الظاهرية تقتضي اللغة والصرف والنحو والمنطق والأدب والكلام والتفسير والحديث والحكمة. أما العلوم الباطنية فيلزم لها القلب المخلص والمرشد الكامل، والتربية، والأكل قليلا، والنوم قليلا، والتحدث قليلا، والحياة المنعزلة. وعلم الحقيقة الذي يكمن في العلم الباطني ينبغي للحصول عليه ترك الدنيا والآخرة، وأن يكون الشخص فانيًا في الحق.

وبناءً على هذا فإن حضرة الشيخ يشبه الشريعة والطريقة والحقيقة، بالبرقوق والعنب والجوز؛ لأن البرقوق يُؤكل خارجه، أما النواة الصلبة الكبيرة الموجودة بالداخل لا تُؤكل، ولهذا فإن أعمال الذين يشبهون البرقوق مثال للظاهر، خارجهم يكون جميلا، أما داخلهم أي قلبهم يكون قاسيًا. أما العنب فيشبه باطن الأعمال، لأن العنب يُؤكل ويوجد به الكثير من النعم والشفاء، إلا أنه توجد بداخله بذور صغيرة متفرقة، وهذا يعني أن القلب لم يُطهر تمامًا من القسوة، أي توجد فيه بعض الأشياء – وإن كانت قليلة– التي يمكن تطهير القلب من الداخل منها وإلقاؤها في الخارج. أما بالنسبة إلى الجوز وهو الجوز الهندي فهو يعبر عن الحقيقة بعينها، فلا يوجد بداخلها شيء قط سيلقى، فهو يُؤكل ويكون منه شفاء لكثير من الأمراض أيضًا.

والآن، مَنْ طلب البرقوق فإنه يجلبه من شجرة البرقوق، وإن مَنْ طلب العنب فيجلبه من شجرة العنب، وإن مَنْ طلب الجوز يجلبه من شجرة الجوز، ولكن إن طلب البرقوق من شجرة العنب فإن هذا حماقة، ويعني أن تعبه يكون هباءً منثورًا.

وعليه فإن مَنْ يرغب في معرفة فوائد وأضرار العلوم الظاهرية فعليه أن يطلبها من العلوم الشرعية ومن الشريعة. ومَنْ أراد أن يعرف فوائد وأضرار وصعود وهبوط علوم الباطن فعليه أن يذهب إلى مرشد كامل ويتربى على يديه ويقرأ كتاب قلبه، ويسعى إلى السير والسلوك بالإخلاص. أما مَنْ أراد الوصول إلى متعة علم الحقيقة الذي يعني علم التصوف، فعليه أن يتجرد من كافة الصفات النفسانية أثناء تربية المرشد الكامل له، ويسعى إلى ألا يكون في قلبه سوى الله، وبذلك يصل إلى مرتبة «الفناء في الله ﷻ» و«البقاء بالله ﷻ».

ولكن يوجد للأحوال الثلاثة المذكورة أصول وطرق مختلفة. وإن طُلب كل حال منها بطريقه المعروف فإن الطالب حينئذ يصل إلى مراده بسهولة وفي أقصر وقت. وعلى النقيض إذا قام شخص بإهمال هذه الحقائق وراح يبحث من تلقاء نفسه وسار على دربه هو، فإنه بذلك سيكون مثل الذي يبحث عن العنب في شجرة البرقوق.

أما المراد من صاحب الحديقة أو البستان فهو المرشد الكامل.

وقوله له: "لماذا تأكل من الجوز الخاص بي؟" إنما هو إيقاظ وتنبيه له. ومع هذا قال له المرشد الكامل: "لماذا تتعب نفسك هباءً؟" لن تجد الثمرات الثلاث في شجرة واحدة. فلكل ثمرة شجرة مختلفة. وإذا طلبت الثمرات الثلاث، أي الطريقة والشريعة والحقيقة في آن واحد، فعليك أن تحصل كل واحدة منها من مكانها ومن أهلها".

وهنا تنبيه للذين يذهبون من تلقاء أنفسهم ويسلكون الدرب من غير دليل. فهم بمثابة الذين يسيرون هباءً ويتعبون أنفسهم لأنهم يدخلون الحديقة بدون استئذان وإرشاد، ويطلبون العنب من شجرة البرقوق.

ولهذا يجب علينا أولا إذا أردنا الحصول على ثمرة ما، أن نذهب إلى الحديقة تحت إشراف صاحبها، ليبين لنا في أي شجرة توجد تلك الثمرة، ثم نبذل الجهد بعد ذلك للحصول عليها. لأن الدخول إلى الحديقة بدون إذن يعد لصوصية. والبحث عن العنب في شجرة البرقوق إنما هو عبث وتعب بلا فائدة. والأشخاص الذين على

هذه الشاكلة يجب إيقاظهم وتنبيههم من قِبل أرباب العلم، ونفس الشيء أيضًا في الفنون. فإذا ما وجدنا شخصًا يشتري بماله أدوات وآلات حرفة ما، ويجتهد في صنع شيء ويظهر المهارة فيها بدون مرشد ومعلم، فإن أرباب تلك الحرفة سيقولون له على سبيل التنبيه والإيقاظ: "ما هذا الذي فعلت؟"

حتى في العهد العثماني كان هذا ساريًا، فقد وجدنا الحوانيت التي تُفتح على تلك الشاكلة كان يتم إغلاقها على الفور. ومع الأسف نجد في وقتنا الحالي بعض الأشخاص لم يتمكنوا من الوصول إلى تلك الحساسية والتعمق، فلذا يقيمون الأحداث والمسائل من وجهة نظر واحدة فقط، فيغفلون عن العديد من الأسرار والحكم في ذلك. وبالتالي يظهر "عُمْيُ الحقيقة" الذين يظنون أن جميع الألوان لون واحد وهو الأسود.

والدرس الذي يجب علينا تعلمه هنا هو أن من يريد التقدم في وادي التصوف قد ينال بعض المعلومات من الكتب، ولكنه في النهاية محتاج إلى كتاب حي أي إلى مرشد كامل. والزبدة الفياضة لهذا العلم تكون من القلب إلى القلب. حيث أن العلم والفيض في الأسطر كالزهرة في أصيصها، فتطورهما ونماءهما محدودان. أما العلم والفيض في الصدور فتشبه النباتات الموجودة على الأرض الربيعية المنبتة، وليس من عائق يمنعها إلا القابلية والاستعداد الخاص بهم. ولهذا فإن وضع شجرة صنوبر كبيرة في أصيص صغير يعني حرمانًا كبيرًا لها.

ولهذا يجب أن تكون تلك الشجرة الكبيرة موجودة في أرض منبتة بالدرجة الكافية لقابليتها واستعدادها الموجود في بنيتها. فإن هذه الأرض الخصبة المنبتة للناس هي: المرشدون الكاملون. كم من شخص له قابلية مثل الصنوبر، فلا يكون قد أدى حق قابليته إذا لم يصل إلى مرشد كامل وأخذ العلم والفيض من قلبه.

و«يونُسْ أمْرَه» الذي قام بدور الإرشاد في سبيل الكمال والنضوج منذ سبعة قرون، لو لم يتمكن من العثور على مرشده، لما نال تلك الرتب المعنوية التي وصل



إليها، وما كان لينظم أشعاره الحكيمة المتعمقة التي لا مثيل لها والتي ضمت داخلها العصور.

وبذلك كان مصيره أن يكون واحدًا من هؤلاء الذين فقدوا أنفسهم داخل صفحات التاريخ دون أن يجدوا مرشدهم. ولهذا فقد أوضح «يونُسْ أمْرَه» الحاجة بالتأكيد إلى دليل معنوي من أجل الوصول إلى الحق فيقول:

هيَّا أيها الأخ أقبل إذا تريد أن تجد الحق

فإن هذا لن يكون دون الوصول إلى مرشد كامل

وإذا تريد أن ترى جمال الرسول

فإن هذا لن يكون دون الوصول إلى مرشد كامل

وقد أفاد «يونُسْ أمْرَه» في الأبيات التالية أنه لم يصل إلى تلك النعم الإلهية واللذات المعنوية إلا بهذه الصورة وقال حامداً لله تعالى:

لقد شربنا الشراب الحلو النازل من عند الله فالحمد لله

وعبرنا بحر القدرة فالحمد لله

تم التسجيل في سند الملكية لـ«طابدوق»، وأصبحنا عبيدًا على بابه

أنا يونس المسكين، كنت كمادة خام ثم نضجتُ فالحمد لله

وبهذه الحِكم والأسرار استطاع «يونُسْ أمْرَه» أن ينفذ إلى أعماق الناس في أحلك الظروف في الأناضول، وأن يكون بمثابة إكسير الحياة والفيض الذي يريح القلوب ومنبع التسلي لهم.



ولـ«يونُسْ أمْرَه» الكثير من التعبيرات التي تبدو وكأنها مخالفة للظاهر ومبهمة وبدون معنى، ولا يفهمها إلا أهلها فقط. وخاصة العبارات المملوءة بالرموز والتي تحتاج لإيضاحها كتباً كثيرة.

يقول يونس:

إن الصراط أدقّ من الشعرة وأحدّ من السيف

أتمنى أن أبني فوقه المنازل

يوجد تحته الغي ممتلئ بالنيران

أتمنى أن أضطجع في هذه الظلة قليلا

والحقيقة التي عبر عنها «يونُسْ أمْرَه» هنا هي أن الصراط سيتسع طبقًا لحال المؤمنين بالرغم من أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف. وتذكر الروايات:

"يَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتُنَادِيهِمُ النَّارُ «يَا مُؤْمِنُ! جُزْ عَنِّي فَقَدْ أَطْفَأَ نُورُكَ لَهَبِي" (البيهقي، شعب الإيمان، ١، ٥٧٧)

ولهذا فإن يونس كان يقصد بقوله: "أن أضطجع في هذه الظلة قليلا!" أنه يريد أن يتوانى ويتماطل على الصراط حتى يكسر تأثير نيران جهنم، وبالتالي لا يكون لها تأثير على عصاة المؤمنين. إلا أن بعض أرباب العلم الغافلين الذين لم يتمكنوا من فهم هذا السر استخدموا في حقه كلمات ثقيلة في الظاهر، ولم يريدوا بذلك خيراً. ولذا رد عليهم يونس بالتورية قائلاً:

أيها الأساتذة! لا تطعنوا ليكن خاطركم طيبًا

أتمنى أن أصل إلى جهنم و أن أحترق فيها

والحكمة من قول يونس لهؤلاء المعلمين الذين اعتبروه من أهل النار "لا تقلقوا، فأنا أدخل النار"هي تلك النية الخالصة الممتلئة بالشفقة والرحمة الموجودة في دعاء «أبي بكر الصديق» رضي الله عنه:

"يا رب اجعل جسدي في النار كبيرًا، حتى لا يبقى مكان فيها لأحد غيري".

أما العبارات التالية ليونس فإنها تُروى على أنها كرامة: تقول الرواية أن عالمًا من علماء الظاهر كان يدعى «المُلاَّ قاسِمْ» كان موجودًا بعد وفاة يونس بمائة عام، وقد



أمسك هذا العالم بأشعار يونس وأخذ يقرؤها على ضفاف أحد الأنهار، وكان كلما قرأ في الأبيات لم يتمكن من فهمها. وكان يقول في نفسه: "ما هذه الأشياء التي لا معنى لها؟ "ثم يلقيها في النهر، وفجأة ظهرت العبارات التالية على الورقة:

أيها الدرويش يونس لا تقل هذا الكلام ملتوية

فسيأتي شخص باسم الملا قاسم ويحاسبك

ولما قرأ «الملا قاسم» تلك العبارات أدرك في تلك اللحظة الحقيقة وقال بندم كبير: "ما الذي فعلته؟ لم أتمكن من الانتباه إلى هذا البحر الكبير، كيف لم أتمكن من رؤية هذا العرفان وهذه الحكمة التي كانت أثرًا من آثار الروح والمعنى، وكانت أمام عيني. وهو قد أدرك حالي قبل مائة سنة"، وبدأت دموعه تنهمر كالسيل.

وحافظ بعدها على الأشعار المتبقية عنده من أشعار «يونُسْ أمْرَه» بعناية كبيرة. وقيل بهذا الشكل ضاع من أبيات يونس ما يقارب الألف.

يحث «يونُسْ أمْرَه» على الاعتماد على لطف الله ﷻ وعنايته لا على الأعمال ويقول:

ليس لي علم ولا طاعة وليست لدي قوة ولا طاقة

ولكن عنايتك يا ربي ستنير وجهي

وهذا يبدو أن «يونُسْ أمْرَه» لم يأخذه الكبر بسبب المرتبة المعنوية التي وصل إليها. فقد أحاط وظيفة الإرشاد التي قام بها بستار كبير من التواضع، حتى وصل إلى درجة لا يمكن التفريق بها بينه كمرشد وبين المريد. وفي أشعاره بشكل عام اختار أن يخاطب نفسه بقوله؛ «المسكين يونس» و«الضعيف يونس» و«الدرويش يونس»، وأراد بذلك إرشاد وإيقاظ نفسه معتبراً أنه أول شخص يستحق التنبيه والإرشاد.

ويقول في تواضع ومذلة كبيرة:

يونس أيها المسكين! كن ترابًا ولا تتكبر على الواصلين

فالكل ينبت من تراب والتراب لي حديقة ورود .



إن يونس الذي أصبح كالتراب في باب الواصلين لجني الثمار المعنوية، كان يحزن كثيراً على أوضاع هؤلاء الذين دخلوا في طريق التصوف ولم يراعوا أصوله وأركانه، وأخطؤوا في فهم أو تفسير الرحلة إلى الحقائق المعنوية. وكان يوقظهم وينبههم أي المتشيخين والمريدين المقلدين قائلاً:

إن الدروشة ليست عبارة عن خرقة وتاج
والذي جعل قلبه درويشًا لا يحتاج إلى الخرقة

الدروشة لوكانت بالخرقة والتاج
لكنا نشتريه بالثلاثين أوالأربعين

وذلك لأن «يونُسْ أمْرَه» كان من الذين يتوجهون إلى الروح. وينظر إلى ما في الأعماق، ويسعى دائمًا إلى الوقوف إلى الجوهر الذي يجرد الأشياء من غلافها ويتجه إلى أصلها أي إلى الوصل الإلهي. وقد عكس ذلك على أشعاره بشكل موجز للغاية:

أحبك من الأعماق في داخل الروح
فإن لي طريقًا يوصلني إلى داخل الأركان

الشريعة والحقيقة طريق لمن يصل
الحقيقة والمعرفة طريقان في هذا الطريق

لاتقولوا: أنا فيّ؛ لأني لست أنا فيّ
يوجد فيّ «أنا» في داخل أنانيتي

قالوا سليمان يعرف لغة الطير
هناك سليمان في داخل ذاك سليمان

و«يونُسْ أمْرَه» حساس للغاية في مسألة الأخلاق الإلهية أي الأدب اللازم رعايته تجاه الله والأنبياء والأولياء وكل المخلوقات. ويا لجمال هذا البيت الذي كتب أيضًا بحُسن خط النفس:

طلبت وبحثت بين أهل القلوب

فوجدت أن كل مهارة مقبولة؛ لكن الأدب لابد منه

كان «يونُسْ أمْرَه» مثل «مولانا» و«الشيخ السعدي» يرى أن القلب هو محل النظر الإلهي، ولهذا فإن عبارته التي قالها عن أهمية عدم إزعاج القلب الذي هو مظهر لهذا الشرف العظيم، كانت حادة وبها الكثير من العِبر:

إن دمّرت قلبا مرة فإن الصلاة التي صليتها ليست صلاة!

فواحد وسبعون أمة يغسلون وجوههم وأيديهم أيضا

ويقول في شعر آخر:

الشيخ المسن ذو اللحية البيضاء لا يستطيع أن يعرف حاله

لا قيمة في أن يحج إن كان قد هدم قلبا

الفؤاد عرش الله، لأنه قد نظر إليه

ومَنْ خرَّب قلبًا فهو شقي في الدارين

فكأن يونس قد أتى إلى الدنيا من أجل إغراق القلوب بالفيض ومن أجل العمل على رقيها، وتأليفها. وسعى إلى إثراء القلب الذي يعد أكبر إثراء وأكبر غنى. ويعبر بشكل جميل عن نموذجيته:

تعالوا نتعارف، ولنجعل الأمور يسيرة

ولنتداول الحب بيننا، الدنيا فانية لاتبقى لأحد!

ما جئت من أجل الدعوى، كل عملي من أجل الحب

مقر الأحباب هو القلوب، جئت من أجل إحياء القلوب

ولأن «يونُسْ أمْرَه» كان يؤمن بأن الكلمة الخارجة من فم الإنسان هي أهم عامل يدعو إلى العداوة بين الناس، فقد كان يركز على أهمية الانتباه الجاد إلى ذلك. ولهذا لم يستطع أن يمنع نفسه من الترنم بالعبارات التالية:

كلمة تُـنْهي الحروب، كلمة تقطع الرؤوس

كلمة تحول الطعام المسموم، زبدة وعسلا

❁

والموت الذي ظهر عند مولانا كأنه "ليلة العرس"، يأخذ نفس المعنى أيضًا عند يونس. فقد أدرك يونس بأن الموت كأنما رحلة خالدة لا نهاية لها، مدركاً حكمة القول التالي: "اَلْمُؤْمِنُونَ لا يَمُوتُونَ بَلْ يَنْتَقِلُونَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ"[١] .

وقد عكس هذا الإدراك في الأبيات التالية:

الجسد فانٍ أما الروح فلا، والذاهبون لا يعودون

إن مت فإن جسدك يموت، ولا موت للأرواح

والمهم في تلك الحالة هو وضع أعمالنا التي تنتقل معنا من دار الدنيا إلى دار الآخرة، لأن العبد سيحاسب في تلك الرحلة على حسب أعماله. ويا لجمال رحلة الإمام الغزالي: حيث تذكر الرواية أن «الإمام الغزالي» كان على فراش الموت وجاءه بعض أصحابه لزيارته، وقد حملوه معهم إلى الخارج إلى حديقة ليتنفس بعض الهواء. وقد تعجب «الإمام الغزالي» أمام تلك الحديقة التي يراها لأول مرة وتأسف قائلاً:

"كيف لم أرَ من قبل هذا المكان الجميل المجاور لبيتي؟"

وفي تلك الأثناء سمع صوت النحيب والصراخ من بيته، ورأوا أن جنازته خرجت من البيت. بعدها بقليل، أراد الذين أتوا بالإمام إلى الحديقة أن يذهبوا ويتركوه، ولما أراد الإمام أن يذهب معهم قالوا له: "يا إمام! أنت مت، وستبقى هنا".

إنها الحقيقة التي ذكرها مولانا وذكرها «يونُسْ أمْرَه»!..

ولكن يلزم لهذا، اغتنام الفرص والعمل الجاد في مزرعة الدنيا من أجل التمكن من الذهاب إلى وطن الآخرة بالأعمال المعنوية التي اكتسبها. وهذا يمكن أن يحدث

---

١. انظر: علي القارئ، مرقاة المفاتيح، ٣، ١٠٢٠.



بتقليد الأنبياء والأولياء في معيشتهم والتنسم بنسائم الرحمة والأخذ من عالم القلب الخاص بهم، وإلا لن يتم التوصل إلى أي نتيجة، وما أجمل ما قال يونس:

لو وضعت قدحك عند الأسبلة ولم تملأه بنفسك

ولو وقف ألف عام فإنه لن يمتلىء بنفسه

❁

وهنا يجب القول بأن هناك مجموعة من الغافلين الذين فهموا أشعار «يونُسْ أمْرَه» من حيث المعنى الظاهري فقط، ولم ينظروا إلى تلك الأشعار من الزاوية المعنوية. كانوا يكتبون وينشرون أن «يونُسْ أمْرَه» صاحب نظرة الفلسفة الإنسانية، وكانوا يحاولون استخدام ذلك في صالح فلسفتهم الإنسانية الخداعة الزائفة. ونرد عليهم بأن هناك فرقًا كبيرًا بين نظرة «يونُسْ أمْرَه» الذي تربى ونشأ على القيم الإسلامية، وبين النظريات الموجودة المنبعثة من الفلسفة الإنسانية حاليًا. فـ«يونُسْ أمْرَه» يعلم تمامًا قيمة الإنسان كوجود عزيز، ويسعى دائمًا من أجل السير بالإنسان للحفاظ على هذه المكانة الراقية ومن أجل عدم سقوط الإنسان في التدني أو السفلية. وهذا يعني أن جانب القيمة للإنسان بالنسبة لـ«يونُسْ أمْرَه» لا يعني إيقاظ وتحريك تهيجات النفس التي تجعل الإنسان في مرتبة متدنية أقل حتى من الأنعام، بل هو تزيين عالم القلب الذي ينال السمو الذي يغبط عليه حتى الملائكة. أما الفلسفة الإنسانية الموجودة حاليًا فهي قيام الأوروبيين بنشر ثقافتهم القومية والدينية عن طريق الكذب والمخادعة للأمم الأخرى على اختلاف أقوامهم وأديانهم. إنها مُرَاءاة واستثمار لمشاعر الرحمة والشفقة. ولهذا السبب لا تقوم إلا بوظيفة واحدة وهي تعريض القيم والخصال الروحية إلى الضمور. ولِنَرى تلك الحقيقة يكفينا أن نلقي نظرة على اللوحة المحزنة للعالم اليوم الذي عاد إلى حقل الظلم على يد الغرب الشهواني المدعي لفلسفة "الإنسانية" الذي أغرق البشر في المشاعر الحيوانية وترك طريق إصلاح النفس تمامًا.

وعلى هذا فإن وضع هذا العالم الذي أصبح مسرحًا لما لا يحصى من المظالم والتطرف إنما نبع بلا شك من الحرص النفسي للبشر الذي يشعل الأحقاد، ونبع من ابتعادهم عن خصال المحبة والخصال التي تُعلي الفرد.

ولهذا فإن فهم «يونُسْ أمْرَه» جيدًا، والإنصات بالقلب والروح إليه سيكون فيه فائدة كبيرة لنا في إدراك فناء هذه الحياة بزخرفها وكل ما فيها. لأن نفحاته المباركة تعتبر نبعًا فياضًا تحتاج إليه الإنسانية اليوم كثيرًا بقدر ما كانت تحتاج إليه في زمانه. إن أشعار «يونُسْ أمْرَه» الخاصة بالموت والحياة والتي كانت قادرة على هزيمة المنطق والعقل، أكسبت الأرواح الجافة حيوية وحياة من جديد، وستكون في الغالب غذاءً روحانيًّا، وسندرك بهذا الغذاء والحياة المعنوية كم أن الحرص على المنصب والملك والمال شيء مشين، وكم أنها ألعوبات مؤقتة، ووردية من فولاذ وسندرك أيضًا بها كيف فقدنا تلك السعادة الأبدية.

وبسبب حب «يونُسْ أمْرَه» الحقيقي نظم هذه الأبيات التالية التي تحتضن كل المخلوقات:

انظر إلى الأمام قم بالبيع والشراء جزافا

سَامِح المخلوقات من أجل الخالق

أليس كل ظالم وإرهابي في أي مكان في العالم الآن يحتاج إلى روح تنقذه في الدنيا والآخرة.

وهذا يعني أن كل الظالمين الموجودين اليوم لو أخذوا نصيبًا ولو قليلا من هذا الحب الذي تحدث عنه يونس، لما تجرؤوا أصلا على القيام بهذه الأذية التي تعرض لها ضحاياهم، وسينالون بركة الرحمة والعدالة؛ لأنهم سيشعرون بها في وجدانهم وإدراكهم.



لقد قام «يونُسْ أمْرَه» بعمل هذا البيع والشراء المعنوي الذي تم بين مولانا وشمس على باب حضرة طابدوق أمره. لقد وصل يونس إلى هذه الدرجة وهذا



المقام العالي، حتى أستاذ "طابدوق أمره" كان له مكانة في القلوب كأنه حصل على نصيب وحصة من هذا المقام الذي وصل إليه تلميذه يونس.

لقد أظهر «يونُسْ أمْرَه» احترامًا ومحبة كبيرة لأستاذه «طابدوق أمره» في حياته، حتى بعد وفاته أظهر نفس هذه الحساسية، وأوصى بتلك الوصية:

"ادفنوني على طريق ضريح أستاذي!".

وكما أنه لا توجد معلومات كثيرة عن حياته، توجد أيضًا روايات مختلفة عن قبره. فله الكثير من مقامات في أماكن مختلفة في الأناضول، وهذا أيضًا يُظهر أن الأهالي كانوا يحبونه جدًّا. إلا أن أشهر الروايات في ذلك هو أنه دُفن في قريته التابعة لقضاء «ميخالِ جِّيق» بـ«أسكي شهر».

رحمة الله عليه!..



مرت السنوات الطويلة على وفاة «يونُسْ أمْرَه»، حتى جاء عام ١٩٤٨م، وفي ذلك العام كان من المفروض تأسيس خط السكك الحديدية بين «أنقرة» و«أسكي شهر» ونظرًا لأن قبر «يونُسْ أمْرَه» كان واقعًا على الطريق مباشرة وكان - بالتالي- سيعترض طريق القطار، وكانت هناك آراء بهدم القبر، ولكنهم لم يستطيعوا تنفيذ ذلك، وكان من بين تلك الآراء أن يتم نقل القبر إلى الخلف ثمانية أمتار، أي يتم إحلال القبر وبناء قبر جديد وينقل الرفات إليه. وبناء على هذا الرأي تقرر ذلك، وفي يوم النقل حضر آلاف المسلمين من الأهالي إلى المكان بدون دعوة أو مراسم، وتم فتح القبر بعناية بين دعوات آلاف الحاضرين، وبالرغم من أن «يونُسْ أمْرَه» كان قد مات منذ سبعمائة سنة، إلا أن جسده كان يبدو نضرًا وكأنه قد وضع في القبر حديثًا، وذلك لأن يونس قال:

ينادون بالصلاة على النبي من أجل موت يونس

الحيوانات هي التي تموت أما العاشقون فلا

وبذلك فهو لم يمت بل تغير عالمه ودنياه. لا سيما وأن أخلاقه وإيمانه وفضائله وأعماله لا تزال حية في القلوب إلى وقتنا هذا. لقد ضرب «يونُسْ أمْرَه» على التاريخ بخاتم لن يُمحى. وقد أتى من بعده الكثير من الشعراء الذين ساروا على نفس نهجه وشكلوا حلقة باسم «شعراء يونس». كما أُطلق اسم «أمْرَه» أيضًا على الكثير من القرى والقصبات، وهذا بالطبع نتيجة مباركة لهذا الإخلاص. والآن فإن «يونُسْ أمْرَه» يمثل الذكاء المشترك لأمتنا علاوة على المقام الذي وصل إليه، وأظهر بذلك أكمل ثمرة لفكرنا وأحاسيسنا القومية. ولهذا فإنه بالرغم من مرور سبعمائة عام على وفاته، إلا أنه لا يعد قديمًا عفى عليه الزمن. والدليل على ذلك وجود ١٢ قبرًا وضريحًا له في أماكن مختلفة في الأناضول من فرط حب الناس لأن يكون «يونُسْ أمْرَه» عندهم.

وبالرغم من أن لغته الساحرة الروحانية ذات الأسرار كانت تحتوي نادرًا على كلمات فارسية وعربية، إلا أنها تُفهَم حتى بعد سبعمائة عام من وفاته على أنها لغة شعبية بسيطة.

ويقول الشيخ «إسماعيل حقي» عنه:

"إن المعارف التي نظمها باللغة التركية، لم تكن لأحد قط، وكل مَنْ نظم المعارف من بعده كالمتطفل على مائدته".

حقيقة إن «يونُسْ أمْرَه» نشر ظلاله منذ سبعمائة سنة على كل البلدان التي تتحدث باللغة التركية. وكان كل إنسان؛ العالم والجاهل يحفظ أشعاره. فقد كان دليلا نموذجيًّا للكثير من الشعراء الذين نظموا باللغة التركية الجميلة النظيفة بدءًا من «عاشق باشا» وحتى «نجيب فاضل».

إلا أن المحزن للغاية اليوم أن لغتنا التركية الجميلة تتعرض لحالة من الاغتيال الكبير، ولو يستمر هذا الوضع الذي يشارك فيه مجموعة من مفكرينا الغافلين، فسيكون واضحًا أننا سنُحرم اليوم أيضًا كما كنا بالأمس من الكثير من المصادر



الفياضة التي تغذي وجداننا القومي. وعلاوة على الجهود اللازمة من أجل إعاقة هذا الوضع، علينا بالتأكيد أن نعرّف شبابنا المتدين بشاعرنا يونس خاصة، والتعرف عليه سيسعد روحه إن شاء الله باستمرار تذكره بالأدعية وقراءة الفاتحة على روحه.

كيف لا نسمع؟ كلما هبت تلك الرياح من الماضي فإنها تجلب لنا هذا السلام من «يونُسْ أمْرَه» منذ سبعمائة عام:

"لقد رحلنا عن الدنيا فالسلام على مَنْ بقي
والسلام على مَنْ يتذكرنا بالدعاء بالخير"

ويا لسعادة مَنْ ترك السلام من خلفه هكذا لأولياء القلب!

اللهم اجعل لنا نصيبًا من إقليم قلب حضرة «يونُسْ أمْرَه»!

آمين!..







عاشق النبي ﷺ

محمد فضولي

(؟١٤٨٠-١٥٥٦م)

من أكبر شعراء الأدب التركي، ومن أصل «آذري»، واسمه «محمد». والده «سليمان أفندي» مفتي «الحِلّة». قضى «فضولي» سنوات طفولته في عهد دولة «الآقْ قُويُونْلو» التركية في «العراق»، وسنوات شبابه في عهد «الشاه إسماعيل الصفوي» الحاكم الصفوي، وسنوات هرمه في عهد «السلطان سليمان القانوني».

انضم «فضولي» إلى قائمة العلماء المشهورين في عصره بتحصيله الجيد، وقد ألّف العديد من المؤلفات القيمة المشهورة باللغات العربية والفارسية والتركية. وكانت أشعاره المنظومة باللغة التركية خاصة قيمة ومشهورة للغاية لدرجة أنه كان يطلق عليه «علي شير نوائي» الثاني، يعني "شاعر منذ أن ولدته أمه".

وتخلصه بمخلص «فضولي» له حكاية بها الكثير من النكات:

عندما بدأ «فضولي» نظم الشعر استخدم العديد من المخالص، ولكن عندما رأى أن الشعراء الآخرين قد استخدموا تلك المخالص تخلى عنها كلها. واختار لنفسه مخلصًا



كان يثق تمامًا بأن الشعراء الآخرين لن يستخدموه وهو «فضولي» الذي يأتي بمعنى الفضول. بل إنه أحب هذا المخلص ورجحه.

وذلك لأن هذه الكلمة أيضًا من كلمة الفضل التي تتعلق بالفضائل الشخصية.

وقد أورد «فضولي» في مقدمة ديوانه الفارسي سبب اختياره لهذا المخلص فقال:

لقد فكرت، وقلت في نفسي لو استخدمت مخلصًا يستخدمه الشعراء الآخرون ويكون مشتركًا بيني وبينهم، فإما أنني أظلم نفسي إن حالفني التوفيق، أو أظلم شريكي في المخلص إذا لم يحالفني التوفيق، ولهذا اخترت مخلصًا لم ولن يقبله شخص آخر، وبذلك أغلقت باب الأحزان التي يمكن أن تأتي بسبب المخلص. وقد نجوت بذلك من هم اختلاط الشعر. ويقول في شعره:

"تسميتي باسم سيء، جعلني بعيدًا عن الاختلاط بالشعب، وبهذه الصورة انزويت بنفسي إلى ركن وانشغلت بالعلم، والحمد لله والشكر له أن الشيء الذي ظننته سيئًا كان جيدًا، وأصبحت شوكتي وردة، وترابي ذهبًا، وحجري جوهرًا".

حقيقة إن «فضولي» تمكن من استخدام مخلصه في أشعاره بمعنيَـيْه بمهارة كبيرة، وأظهر معاني متعمقة وجميلة للغاية بالتوريات الخارقة.

لقد تمكن «فضولي» الذي تربى في «بغداد» مركز الثقافة والعلم من عمل تركيب فني عال يجمع بين العشق والإلهام والعلم. وبسبب حبه الكبير للعلم والعرفان أطلق عليه معاصروه لقب «مولانا فضولي» أو «المُولّا فضولي». وقد عمل «فضولي» على عكس ذلك في أشعاره وقال: "إن الشعر بدون علم كالحائط بلا أساس، والحائط بلا أساس لا قيمة له أصلا".

كما أن تربيته في المناخ المعنوي لبغداد أكسب شعره عمقًا وروحانية مستثناة، وبذلك استقر على موقعه المتميز في الأدب. لقد حصل «فضولي» على اللؤلؤ الذي لا يُقدر بثمن في تلك الديار الممتلئة بالفيض لكبار رجال التصوف أمثال «الإمام الأعظم» و«الحلاج المنصور» و«عبد القادر الكيلاني» و«السيد أحمد الرفاعي»

و«جنيد البغدادي» و«معروف الكرخي». فقد استطاع «فضولي» أن يوزع ورودهم من خلال أشعاره على القلوب الطالبة للورود.

لقد نظم «فضولي» العديد من القصائد من أجل كبار رجال الدولة الذين عاصرهم، وقد نظم قصيدة بغداد المشهورة التي قال فيها: "لقد وصل السلطان المشهور إلى برج الأولياء"، وذلك في المصراع الذي نظمه من أجل فتح القانوني لبغداد عام ١٥٣٤م. وقدم تلك القصيدة إلى «السلطان القانوني».

ولأن القانوني تعرف عن قرب بفضولي من خلال تلك القصيدة، أعطاه القيمة التي يستحقها، وربط له راتبًا من أوقاف بغداد. ولكنه ولسبب ما لم يتمكن من الحصول على هذا الراتب، فكتب قصيدته المشهورة "شكايت نامه" التي كتبها بأسلوب ساخر بسيط يحمل التوكل والصفاء.

وبالرغم من أن الشعراء يُرَون أنهم أصحاب فكر حساس فردي بصفة عامة، إلا أنهم في الأساس يعدون مترجمين لمشاعر المجتمع الموجودين فيه، بل ويجدون الرغبة في أشعارهم بالنسبة التي يتمكنون فيها من هذا. ولهذا فإن الشعراء يعدون بمثابة المتحدثين عن العصر وعن المجتمع الذي عاشوا فيه. ولأنهم يشتركون مع المجتمع في نفس الأقدار من الناحية الاجتماعية وقلوبهم تكون مرتبطة بهم، ولأنهم يتغذون على نفس الثقافة المشتركة فيما بينهم وبين الأهالي في المجتمع، فإنه ليس من الممكن تجريد الشعراء من الأوضاع الاجتماعية والسياسية للمجتمع الذي يعيشون فيه.

وهذا كان وضع فضولي في شعره «شكايت نامه».

مع ذلك فإن «فضولي البغدادي» عاش في أمان تحت حماية رجال الدولة العثمانية وعلى رأسهم "أويس باشا" و"أياس باشا" و"محمد باشا" في الفترة التي كانت بغداد فيها تحت الحكم العثماني، فقد قدم في هذا العهد أهم أعماله.

أما «فضولي»- من ناحية البنية الجغرافية لبغداد - فقد كان يطأ بأحد قدميه على الصحراء وبالأخرى على الماء. فنظم قصيدته المشهورة "قصيدة الماء" انطلاقا من تشبيه بين الماء والنبي ﷺ، إذ الماء رحمة من الله للناس والنبي ﷺ كذلك رحمة من الله للعالمين. فعبر بمفهوم ومعانٍ رقيقة وحساسة للغاية أن ضرورة الماء للصحراء هي مثل ضرورة النبي ﷺ للعالمين. وها هي بعض الأبيات من "قصيدة الماء":

أيتها العين لا تسكبي الماء من الدموع على النيران التي في القلب

لأن الماء ليس مانعًا لهذه النيران التي اشتعلت كثيرًا

هل قبة السماء الدوارة في لون الماء

أم أن ماء عيني أحاط بقبة السماء لا أدري؟

ليترك البستاني الورود إلى السيل ولا يتعب نفسه

لأنه لو أروي ألف حديقة لن يستطيع أن ينتج وردة مثل وجهك

أيها الأصدقاء لو أموت في سبيل تقبيل يد النبي

فاصنعوا من ترابي كوباً وأكرموا به الحبيب ماء

حتى يصل إلى التراب المبارك الذي وطأه النبي

فإن الماء يجري طوال العمر يضرب رأسه من حجر إلى حجر حيران،

ويقول «فضولي» الذي امتلأ قلبه بحب الرسول ﷺ في قصيدة أخرى:

يا رسول الله إن الدموع التي في عيني تنسكب دامية أمام وجهك الوردي،

كما أن المياه المنهمرة تجري متعكرة في الربيع موسم الورد.

لقد برع «فضولي» الذي وقف بدرجة كبيرة للغاية على أعماق التصوف، في إظهار هذه الدراية بمهارة من خلال الحدود العلمية، ووضع في آثاره حتى أدق الأسرار في ذلك المجال. وقد مزج بالغناء الشعري والعلم الذي كان يمتلكه بين العلم والتصوف، وقد صنع ذلك دون أن يُشعر القارئ بفنه، وبذلك جعل القلوب تسيح في أفق المعنى العميق.

لقد كان «فضولي» شاعرًا كبيرًا عبّر بشكل جميل للغاية عن العشق الذي كان مجازيا فعلا ووصل إلى درجة العشق الإلهي. وقد تقطر هذا العشق العميق الذي كان عند «يونُسْ أمْرَه» إلى قلب «فضولي» وقال:

أدركت أن العشق هو كل شيء في العالم

أما العلم فإنما كان الـ«قيل» والـ«قال»

وقال أيضًا:

يوجد فيّ استعداد للعشق أكثر من المجنون

ولكني أنا العاشق الصادق، أما المجنون فله من العشق اسمه فقط.

وهذا البيت كافٍ في إظهار عمق العشق الذي في قلبه؛ إذ «فضولي» نال عشقًا لدرجة أنه كان يتلذذ من جفاء هذا العشق. فألم العشق بمثابة الغذاء المعنوي له. وقد عبر عن صدق حبه بهذا البيت:

إن جفاء الحبيب كله وفاء وليس جفاء

ومَنْ يقول يجفو الحبيب عليّ فإنه ليس من أهل الوفاء

ويوقظ فضولي الورود أيضاً فيقول:

أيتها الوردة أنا من أهل التمكين لا تشبهيني بالبلبل

فلا يوجد طاقة للبلبل على الألم وله في كل لحظة ألف آه .

لم يكن «فضولي» يريد نفاد نار الحب؛ لأنه كان يرتبط بمقاييس الصداقة والوفاء للحبيب. ويقول في ذلك:

لا تضع المرهم لكي تصلح الجبل الدموي في صدري

فلا تطفئ بيدك القنديل الذي أضأته بيدك

إذ هذا القنديل هو قنديل الحب والإيمان، من ناحية أخرى فإن الإنسان يصل الى الكمال بجفاء العشق وليس بصفاء الحب. أما العشق الذي انحصر على الظاهر فقط



فإنه محدود وخانق. ولهذا فإن حب «فضولي» يرتقي من المادة إلى المعنى حتى يكون في النهاية عشقًا إلهيًّا. ويقول:

إن القلب لا يريد ميل الوصال ولكن يكتفي بالتسلي بالخيال

ولا يتخيل العاشق أن له حبيبًا غير القلب.

وهذه الإفادة تعد تلميحًا للحديث القدسي القائل:

"مَا وَسِعَنِي لَا سَمَائِي وَلَا أَرْضِي وَلَكِنْ وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ."

ومن الواضح من هذا أن «فضولي» كان عاشقًا حقيقيًّا غرق في حب الله ﷻ، وكان حساسًا بشكل كبير للجماليات الإلهية؛ لأن الحق هو الجمال، وهذا هو الذي يؤثر في العشق. وقد خلقت كل المخلوقات بسبب المحبة التي في العشق، وهذا الشعور ساق «فضولي» إلى كتابة «ليلى والمجنون» الذي هو أثر عشق كبير. وقد قال في بدايته معبراً عن هذا الشعور الذي ساقه إلى التأليف:

لو أسير في طريق المجاز من أجل طلب الحقيقة

لو أوضح الأسرار بوسيلة حكاية ليلى والمجنون

لو أتحدث عن أوصافك بواسطة ليلى

لو أظهر تضرعي ودعائي بنفس اللغة التي نادى بها المجنون

ويتضح لنا من هذه الكلمات أن الفضولي مع شرحه الحقائق الإلهية كغاية أصلية له، يشرح أيضاً أوصاف الله ﷻ التي هي منبع بحر العشق، ويعبّر عن عبوديته بالتضرع والدعاء في سبيل الوصول إلى الله ﷻ مثل المجنون.

وقد خرجت ليلى ذات ليلة أمام المجنون في الصحراء، ولكن المجنون لم يعرفها، فسأل: مَنْ أنت؟

وقد عبر «مجنون» عن حال لذة الوصول إلى ليلى الحقيقية والتجرد عن هذه الخيالية قائلاً:

إني سكران من حب ليلى الحقيقية (أي الله تعالى) لدرجة

أني أصبحت بعيدًا عن إدراك ماهية هذه الدنيا؛

ولا أدري من أنا؟

و ما شراب العشق؟ ومن الذي يسقي؟

أطلب من الحبيب شيئًا لتطييب خاطري

ولو سألني الحبيب: ماذا تريد؟ لا أدري ما أطلبه.

لتعلموا؛ أن الذي يعرف حكمة الدنيا وما فيها ليس عارفًا

فالعارف هو الذي لا يعرف ما هذه الدنيا وما فيها

والمجنون الذي قال ذلك اكتسب صفاءً معنويًّا وانتقل من المجاز إلى الحقيقة. ووصل إلى الكمال بسلوكه طريق الأولياء وأهل التوحيد. لم يعد يهتم بالدنيا وما فيها. فكان هدفه من النقش هو النقاش. وأما ليلى فعرفت حالته هذه وقالت:

"أيها الإنسان الكامل! لقد أدركت حالك الآن. لقد وصلت إلى درجة كبيرة، بارك الله عليك، أما أنا فكم كنت في غفلة وسكر بالجهل، لكن الآن صحوت ونحيت العلاقة والاعتبار النفساني جانبًا واخترت طريق العدم".

وهذا كله يُظهر أن فضولي قد رأى وحدة المجنون في الصحراء بعشقه. وعبر بشكل جميل للغاية عن هذا، ويقول أيضًا:

لا تسأل الجالسين بجانب سبيل ماء الحياة عن ألم ومحنة المجنون الذي يتجول في الصحاري. فالذين يعيشون بغير ألم في هذه الدنيا لا يعرفون شيئًا عن آلامنا، ولا يقدر الألم إلا المتألم.

وعلى هذا فإن الشعر بالنسبة لفضولي هو نتاج الألم والاضطراب، ويقول في ذلك:

"إن الألم هو رأس مال الشاعر، ولا تظن أنه يلزم الذوق والصفاء ليكون الشاعر شاعرًا، ولتعلم أن الذي يكسب في مسابقة الشعر هو الألم."

"لا تظن أن هناك حلاوة أو جمالا في شعر من لا ألم في فؤاده ولا جرح في كبده، فالذوق والصفاء والطمأنينة والراحة لا تعطي الشعر المتعة، فالشعر الأصلي هو الشعر المتولد من الألم فهو المؤثر في القلوب".

❁

لقد كان «فضولي» من الباحثين عن السعادة الحقيقية في حب الله. ولهذا فقد انزوى، وألقى بالحرص النفساني جانبًا، وينعكس هذا على أشعاره:

لو يعطيني الفلك الملك والمال فلن أكون سعيدًا

ولن أكون محزونًا إذا حرمت من المال والملك

وهذا الحال مقام مهم في التصوف، ويروى أنهم أخبروا «عبد القادر الجيلاني» بأن اللصوص سرقوا قافلة تجارية له، فسكت لفترة ثم قال: "الحمد لله."

بعدها بفترة جاءته الأخبار بأن القافلة نجت من يد اللصوص، فقال: "الحمد الله".

فتعجب الناس من ذلك وقالوا له:

"عندما أخبرناك بأن القافلة سرقت قلت «الحمد لله»، وعندما أخبرناك بأن القافلة نجت من اللصوص قلت «الحمد لله» أيضًا فما السر في ذلك؟".

فرد عبد «القادر الجيلاني» قائلاً:

"لما وصلني الخبر بأن القافلة سرقت نظرت في قلبي الذي هو محل النظر الإلهي هل فيه حب للدنيا، أي هل تلوث بحب الدنيا؟ ولأنني لم أجد فيه أي أثر لحب الدنيا قلت «الحمد لله». ولما جاءني الخبر بأن القافلة نجت من اللصوص نظرت في قلبي أيضًا هل فيه حب للمال والدنيا، فوجدت أن قلبي أنقذ من هذا الخطر العظيم فقلت «الحمد لله»".

وهذه هي النكتة التي جعلها فضولي شعرًا له!

❁

لقد كان فضولي شاعرًا محبوبًا ومشهورًا في كل الولايات التركية. وحتى في «العراق» التي كانت اللغة الرسمية فيها اللغة العربية، فإن آثار الفضولي كانت أول ثمرة عشقٍ ذاقته الكثير من القلوب المحترقة والأفواه المحزونة. ولا تزال أشعاره تقرأ في المجمعات الدينية والاجتماعية وفي دواوين الأغوات في «الصلاحية» و«كَرْكُوكْ» و«أربيل». ولا تزال قصيدته الماء التي كتبها بإثارة قلبية في حب رسول الله ﷺ تُقرأ ويترنم بها الأهالي بنفس درجة الوجد والعشق، ولعل استمرار هذه القصيدة وانتقالها من قلب إلى قلب عبر أربعة قرون ونصف قرن إنما هو تجل عن حب فضولي لرسول الله وإخلاصه في هذا الحب.

لقد كان «فضولي» بعيدًا كل البعد في أشعاره وأفعاله عن المصادمات المذهبية والعرقية، ولم يغرق قط في الصراعات السياسية التي كانت موجودة. ولهذا اكتسب «فضولي» حب وتقدير كل الطوائف السنية والشيعية. وانتشر نفوذه وتأثيره إلى كل الأقاليم التي يوجد بها أتراك. ويقول البروفسور «عبد القادر قَــرَه خانْ» وهو من الباحثين الذين أعدوا دراسات عن فضولي:

"إن من الصحيح مطالعة «فضولي» كشخصية علت وسمت عن المذهبية في مبحث السُنة والشيعة، أما من ناحية الطريقة فمن الصحيح مطالعته من أهل الطريق معنويًّا غلب عليه الذوق والشوق الصوفيان".

وهذه العبارة في محلها تمامًا؛ لأن مَنْ قرأ «فضولي» شعر بالوجد والحب الإلهي، وصار نهرَ عشقٍ بحب رسول الله ﷺ وبكى على ما حل بآل رسول الله، وأدرك معنى الحياة والموت، وعزموا على الجهاد مع النفس من أجل الوصول إلى المراتب المعنوية العليا السامية. واستطاع فضولي بذلك أن يطبع بطابعه بشكل لا يمحى على القرون التالية، وقد تناول «يحيي كمال» هذا في أبياته قائلاً:

إن الشعر القديم لا ينطفئ حتى صباح الحشر

فهو شعلة تنقل من يد إلى يد...

❀



ولفضولي ما يقرب من عشرين عملاً، ومن أشهرها قصيدته المسماة «أنيس القلوب» المكونة من ١٣٤ بيتًا، وقصيدة «ليلى والمجنون» و«حسن و عشق» و«صحت ومرض» و«قصيدة الماء» و«ساقي نامَه» و«رِنْدُو زاهِدْ» و«الرسائل» و«شِكايَتْ نامَه» و«حديقة السعداء». والعنصر الغالب في كل أعمال «فضولي» المذكورة هو الترنم بحب أهل البيت.

وقال كشاعر عاشق:

طلب الحبيب روحي ليس مناسبًا أن لا نعطيها

لماذا نتنازع؟ إن الروح ليست لي و لا لك.

لقد عاش «فضولي» في تلك الدنيا مثل عابر سبيل انضم إلى قافلة (الذين ماتوا قبل الموت). وقد قال من أجل التأكيد عن حاله هذا:

مَنْ يحب نفسه من أجل الحبيب فهو يحب حبيبه

ومَنْ يحب الحبيب لنفسه فهو يحب نفسه

حقيقة إن معرفة المحبوب والخضوع له ونيل الوصول بعشقه لا تتحقق إلا بنفس تفدى في سبيله. وفي هذه الحالة وإن كان الإنسان يحب نفسه إلا أن الغاية هي المحبوب. وعلى النقيض لو أحب شخص محبوبه من أجل سعادته ومتعته فإنه حينئذ قد أحب نفسه فقط، وجعل محبوبه وسيلة لسعادته.

غير أن المحبوب يُحب من أجل الوصول إلى أسرار البقاء بالله والفناء في الله، بعد تخطي النفس. ولا سبيل في ذلك لتفكير الذات [أو النفس]. لأن الميل إلى النفس يعني الأسارة إلى المادة. ولهذا فإن الأصل هنا هو تضحية النفس من أجل المحبوب. إن هذه التضحية يعني العدم، واسطة وعلامة على الوجود أبديا وبمعناه الحقيقي. وقد خلّص «فضولي» نفسه من كل العلاقات الدنيوية الفانية، وقال:

إن متُّ في ديار الحبيب فلا تضعوا على قبري حجرا

دَعوا ظل قامة الحبيب ينعكس عليَّ

وقد تُوفي «فضولي» الذي كان صاحب كمال روحي سامٍ بهذه الدرجة في «بغداد» عام ١٥٦٣م متأثرًا بمرض الطاعون، وقبره في «كربلاء».

وتاريخ وفاته بحساب الجمل يتصادف مع عبارة (رحل فضولي) ٩٦٣هـ

رحمة الله عليه!..

اللهم أحسن إلينا بشمة من المحبة التي ترنم بها «فضولي» في حبه لرسول الله ﷺ! آمين!..







الفضائل والأخلاق العثمانية

التي أدهشت أوروبا

لقد أبرز «ابن خلدون» المؤرخ وعالم الاجتماع الإسلامي الأسباب الجغرافية الخاصة برقي وانحطاط الدول، وأظهر أيضًا كل العوامل الأخرى التي يمكن أن ترد إلى العقل إلى جانب تلك الأسباب.

أوضح «ابن خلدون» في كتابه "المقدمة" الذي له ماهية كلاسيكية بين المؤلفات الإسلامية، القوى المادية للأمم والأسس المعنوية لها كالإيمان والأخلاق، وحللها بشكل مفصل. وأثبت «ابن خلدون» بمهارة كبيرة أن العوامل المعنوية هي التي تشكل الصف الأول بخصوص طول أو قصر الفترة الزمنية للدولة، أي الفترة بين ظهورها وحتى انهيارها. وعند مطالعة الأمر وتقييمه بشكل محايد سنجد أنه من اليسير مشاهدة أهمية الدور الذي لعبته العوامل المعنوية في حياة الأمم أو انهيارها.

ونحن نود هنا أيضًا الوقوف على الأخلاق والإيمان التي ضمنت استمرارية الدولة العثمانية لستة عصور، وعلى البنية الاجتماعية العظيمة المتكاملة التي كانت أثرًا لهذا. إننا



على قناعة هنا بأنه يجب علينا أن نذكر ولو نبذة عن المصدر المعنوي الذي عمل على ضمان تلك الفتوحات التي جعلت من الدولة العثمانية دولة عالمية، وعمل على تأمين وجود سلطة قوية لا تهتز استمرت لعدة قرون. ولهذا فإنا نقدم أقوالا تشهد على ذلك، ونفضل أقوال أهل الإنصاف من الباحثين الأجانب أكثر مما قاله الباحثون المحليون في هذا الشأن. لأن الفضيلة الحقيقية هي تلك الفضيلة التي يمدحها ويقر بها الأعداء. وقد رجحنا هنا الباحثين الأجانب خاصة، لأننا لو اسشهدنا من العثمانيين أنفسهم، سنتعرض للاتهام بأننا منحازون أو متعصبون.

وهذه هي بعض المشاهدات التي تحمل اعتراف بعض الأوروبيين المنصفين عن المزايا التي جعلت أجدادنا أعزَّة:

الخيرات والحسنات:

لم ينظر أجدادنا إلى اختلاف العرق أو المذهب في تلك الجغرافيا الشاسعة التي كانت تحت إدارتهم، فأسسوا مؤسساتهم الخيرية لكي ينهل منها كل عباد الله، المسلمون وغير المسلمين.

كما سنتحدث عن الخدمات الخيرية عند الكتابة عن الوقف عند العثمانيين أنهم قاموا بخدمات الجوامع والمدارس والمستشفيات والخانات والحمامات والنزل والأضرحة والأسبلة والصهاريج والآبار والجسور والطرق والأرصفة والعمارات الخيرية وغيرها من الخيرات والحسنات في أكمل شكل مستندا إلى رضاء الله تعالى.

ومن هذا القبيل:

١- تقديم المياه المبرَّدة بالثلج في الأسبلة في حر الصيف.

٢- استضافة المسافرين في النُزل والخانات لمدة ثلاثة أيام بلا مقابل.

٣- إكرام المحتاجين بالطعام كل يوم مجانًا في العمارات الخيرية.

٤- تأدية الدَّين عن المدينين الذين تم حبسهم بسبب الدين.

٥- أداء الدّين عن الأموات الفقراء.

٦- تقديم المساعدات سرًّا لِمَنْ يتعففون عن طلب المساعدة.

٧- عتق العبيد والجواري. (هذه العبادة كانت أصبحت كأنها من التقاليد)

٨- تأسيس المنازل مجانًا لِمَنْ احترقت منازلهم.

وهذه كلها فعاليات رأس مالها الأخلاق الإسلامية.

ولعل تأسيس ٤١٧ نزلاً للقوافل و ٥٩٣٥ سبيلا و ٥١٥ مدرسة شعبية في «إستانبول» فقط دليل كافٍ على التعبير عن تلك المرتبة المستثناة التي تم الوصول إليها في هذا الشأن.

إن الحسنات والخيرات في الدولة العثمانية لم تكن تشمل البشر فقط، بل كانت أيضًا تشمل الدواب والنبات، فقد كانوا يوزعون اللحم والكبد في بعض الأماكن المعينة في الأحياء من أجل إطعام الكلاب والقطط.

ومن الحقائق الثابتة أيضًا أنه تم تأسيس أوقاف خاصة من أجل ري الأشجار التي كانت بمثابة رئة البلدة، وقد عمّ ذلك حتى الأشجار التي لا تثمر والتي لها أوراق قليلة. حتى إن للفاتح قولاً شهيرًا وهو:

"سأقطع رأس الشخص الذي قطع غصنًا من غاباتي".

لقد جعلت تلك المسائل الأخلاقية السامية عيون العالم كله تبرق ناحية العثمانيين، بل إنها كانت سببًا في حيرة الرحالة الأوروبيين الذين كانوا أعداءنا لعدة عصور، والكلمات التي ذكرها الرحالة الأوروبي «فيلّامونْتْ» في كتابه عن الخانات، تعبر عن تلك الحقيقة:

إن الخان الذي نزلت فيه يستقبل النصارى كما يستقبل المسلمين، ويقدم لهم الطعام والإعاشة لمدة ثلاثة أيام، لأن هذه الخيرات في الدولة العثمانية شملت كل الناس دون النظر إلى أديانهم..."

وهذه النزل زينت بالأسبلة التي تأسست من أجل جلب المياه ربما من أماكن بعيدة للغاية. أما بالنسبة إلى خيول الضيوف فقد خُصص لها حظائر كبيرة.

وإلى جانب تلك الأعمال الخيرية كان هناك أيضًا خانات للضيافة على الطرق وفي المدن، كانت أبوابها مفتوحة للعموم على الدوام.

لقد شاهدت بكل الدهشة أن بعض العثمانيين أسسوا أسبلة المياه على الطرق للمسافرين الذين يفتقدون المياه، وأقاموا الأسبلة في طرقات المدن لنفع المارة. وكانوا يعينون عليها موظفين براتب، كالموظفين الذين يعملون في الدوائر الحكومية، كانت وظيفتهم تقديم المياه لمن يرغبون.

وقد كانت روح تلك الخيرات والحسنات تدفع بعض الناس إلى تأسيس الجسور على الأنهار، وبعضهم إلى القيام بتسوية الطرقات ورصفها وعمل الأرصفة عليها. والشيء اللافت للانتباه هنا والمثير للدهشة هو عدم رؤية أية علامة تدل على أنانية الباني في كل تلك الخيرات.

والصدقات التي قام بها الأفراد العادون أيضًا كانت بنفس درجة التدين، فقد كان الأغنياء يذهبون إلى السجون وينقذون مَنْ حكم عليهم بالسجن بسبب الدَّين".

كما يذكر «كُومْتْ دي مارْسيجْلِي» مشاهداته في الدولة العثمانية قائلاً:

"عندما أصبح الأتراك أصحاب إمكانات مالية اعتادوا على تأسيس الجوامع والأسبلة والجسور والخانات ومقر الضيافات. وأسسوا الأوقاف من أجل تأمين مصاريفها، كما أسسوا المكاتب والمدارس في المدن الكبرى من أجل تعليم الجيل. وكان يدرس فيها الكثير من العلوم وعلى رأسها العلوم الدينية".

الشجاعة والثبات في القول والوفاء بالعهد:

لقد كانت الفضائل السامية، مثل الشجاعة والثبات في القول والوفاء بالعهد، أخلاق العثمانيين تتزين قلوبهم بها. وفي أوروبا كان تعبير الأتراك يعني الإسلام،

ولهذا قيل: "إذا قيل التركي، فإن هذا يعني الإنسان الموثوق الكلمة، وإن العثمانيين ليسوا مثل النصارى يحلفون باطلا باستمرار".

ويلخص «كومْتْ دي بونَّوالْ» مشاهداته في جملة واحدة:

"إن الأتراك يظهرون صدقًا متدينًا في وعودهم".

أما السفير النمساوي «مورادِيجا دي أوهْسُونْ» فيقول:

"إن الأتراك المسلمين صادقون إلى أقصى درجة في وعودهم ويمينهم، وإذا ما نظرنا إلى ما يبذلونه من جهد من أجل ذكر الله على الدوام، فإننا سنرى أنهم لا يحتاجون إلى أي كلام قط سوى إظهار أن الله شاهد عليهم".

أما هَنْري مَاثْيُو فيقول:

"إن عدم تصديق مفهوم الأخلاق والشرف الموجود كخزينة لا مثيل لها في نفوس الأتراك، يعتبر عدم إنصاف، فهم أشخاص يعرفون أن الكلمة التي يتحدثون بها مقدسة، وأن الصدق هو أساس الفضيلة".

دولة بلا شحاذين:

لقد أصبحت الدولة العثمانية بفضل الأوقاف والخدمات المشابهة التي نسجت خيوط الرحمة والشفقة على بنيتها، بمثابة الدولة التي لا شحاذين فيها. لقد حل بالدولة العثمانية عهود عانى فيها الأغنياء كثيرًا من أجل البحث عن فقراء ليعطوهم الزكاة.

ولهذا فإن الشحاذة كانت مجهولة في تلك الأزمان، ومن الحقائق التاريخية المعترف بها أنه لم يكن هناك شحاذون أتراك في إستانبول التي كان يبلغ عدد السكان بها مليونين، وفي منطقة تركيا الحالية ومنطقة قرم. وإذا ما تم العثور بالمصادفة على شحاذين فإنهم كانوا أشخاصًا تابعين لأمم أخرى. إذ العثمانيون ما كانوا يريدون أن يحتاجوا إلى أحد حتى بعد موتهم، ولأجل ذلك كانوا يجهزون أموالا لشراء الكفن وكانوا يحملونها عندهم دائما، وهذه عادة معلومة ومشهورة عند الجميع.

ومذكور في رحلة «كُورْنيل لا بِريونْ»:

"لا شك أن الأتراك كانوا مغرمين بفعل الخيرات والحسنات، وأنهم صنعوا خيرات وحسنات أكثر بكثير مما صنعه النصارى، ولعل السبب في ندرة وجود الشحاذين في الدولة العثمانية هو تأسيس الأتراك لأوقاف الخيرات والحسنات".

ويذكر «كومْتْ دي بونَّوَالْ»:

"لقد كان في إستانبول ما يقرب من مليوني نسمة، وهذا كان يستوجب عدها ضمن أكبر المدن الأوروبية سكانًا، وبالرغم من هذه الكثافة السكانية الكبيرة، إلا أنه كان نادرًا ما يُصادف شحاذ واحد، إلا بعض الأشخاص الذين كانوا يتعيشون بالصدقات، ولكن هؤلاء لم يكن لهم اعتبار".

الأدب واللطافة والتربية:

إن المرتبة التي وصل إليها العثمانيون في الأدب واللطافة والتربية لا يمكن قياسها بأية أمة أخرى، فقد كانت آداب المعاشرة والسلوك عندهم تبرز رقة وكمالا لم يُرَ لهما مثيل من قبل. لقد كانت تلك الآداب بمثابة القانون الروحي والوجداني الذي يراعي كافة الناس دون التفرقة بين المذهب والدين. ولهذا فإن تعبير "العثماني" يعني الإنسان القدوة في اللطف والأدب. و لهذا الكثير من النماذج والأمثلة:

ولأن الإسلام الذي ارتبط به العثمانيون بقلوبهم وأرواحهم كان يحرِّم العداوة والبغضاء، فقد جعل العثمانيون من يوم الجمعة والأعياد مناسبات من أجل العفو عن أخطائهم والمساوئ التي تظهر فيما بينهم والتسابق لفعل هذا الخير. وبموجب الرحمة التي بينهم كانوا يسلكون طريق العفو، ويبتعدون عن الحقد والضغينة.

ويقول «فيلاّمونْتْ» عن هذا:

"... لو كان لشخص ما خصيم فإنه مكلف بالذهاب إليه وطلب العفو منه، والآخر مضطر لأن يتلفظ بكلمة العفو قبل أن يقوم الآخر بتقبيل يده ومصافحته.

وإذا ما حصل عكس ذلك فإن هذا يعني أن العيد لن يكون مباركًا. أما الأشخاص الذين لم يرعوا هذا فإنهم كادوا يعتبرون من الفساق".

وتوجد الكثير من مظاهر الأدب واللطافة عند العثمانيين وهي كثيرة بالدرجة التي لا يمكن حصرها. فقد كان يتميز الملك العثماني الذي مُزِج بالإسلام بما يلي:

١- لم تكن هناك منازعات أو مشاحنات كتلك الموجودة في البلدان الأوربية، فقد كانت كافة الطرق والطرقات آمنة بدون منازعات. وكانت الطرقات في هدوء وأمْن لا يبصق أحد في الطريق.

٢- كانوا لا يقطعون كلام المتحدث. كما كان المتحدث أيضًا يتكلم بسكينة ووقار، فقد كانت إفاداته بليغة وظريفة، وعندما رأى «تشارْلَزْ مَاكْ فَارْلَنْ» هذا لم يستطع أن يمنع نفسه من القول:

"إن حديث تلك الأمة جميل وكامل للغاية، ويمكن أن يكون نموذجًا لكافة الأمم".

٣- كان جلوسهم وقيامهم وذهابهم بوقار وسكينة ولطافة كبيرة.

٤- كان هناك احترام كبير للمسنين، لدرجة عالية.

٥- أما احترامهم للنساء فكان شيئًا تراثيًّا بصفة عامة، وكان يعرفون عن المرأة أنها الخالة أو العمة أو الأم أو الأخت.

وكانت هناك اعترافات وإثباتات كثيرة للمؤلفين الأوروبيين الذين قاموا بعمل تحليل عن هذا الموضوع.

ونُقل عن «جُويَرْ»:

"لدى الأتراك أصول تعامل اجتماعي في غاية الكمال. فقد كانوا يراعون كافة القواعد، وعندما كانوا يلاقون بعضهم بعضًا كانوا يسلمون بإحناء رؤوسهم ووضع يدهم اليمنى على صدورهم.

وكانوا يخاطبون بعضهم بالألقاب التي تدل على الاحترام والتبجيل كـ«السيد» و«الباشا» و«السلطان» و«الأغا» كل على حسب رتبته ومكانته".

ونُقل عن الليدي «كِراوَنْ»:

"يجب أن تكون المعاملة التي يعامل بها الأتراك نساءهم مثالا لكل الأمم، ومن ذلك على سبيل المثال: لو أُعدم شخص قانونًا وصُودرت كل أمواله، فإن زوجته تُعامَل بكل احترام، وتترك لها كافة مجوهراتها".

وينقل عن « أ. بِرايِرْ»:

"...عليكم بالتدقيق جيدًا في مجتمعاتهم التي لم تكن مزدحمة جدًّا، فإن رؤوسهم وأجسادهم تكون نظيفة للغاية، وستجدون في تصرفاتهم أصالة، وخشوعًا وحلاوة مرسومة على وجوههم، أما لغتهم التي يتحدثون بها فقد كانت متناغمة وجميلة للغاية!".

وينقل عن «فيجيور»:

"...إن تعبير المتحدث منهم يكون وجيزًا، وألفاظه نظيفة للغاية، وعندما يتبسمون نجد رقة، أما تصرفاتهم فكلها ظرافة وبساطة، وأكثر جانب حيّر الأجانب فيهم هو أنهم لا يتحدثون بشكل جماعي أبدًا، بل يتركون الحديث لفرد واحد، وإذا ما تحدث متحدث منهم فإنه يتحدث بإيجاز، وكان المستمع يستمع إلى الحديث وهو ينصت بشكل جميل، وكان كل واحد منهم يدافع بأدب عن فكره ورأيه، ولم يكن في حديث المتكلم منهم أية ألفاظ نابية أو تدل على السوء. كما كان هناك احترام ورعاية للكبار، ورعاية حقوقهم كانت تتم بشكل لطيف لا يمكن تخيله.

وبذلك يمكنني القول بأن الأخلاق العثمانية كانت تُدهش العقل، وليس للإنسان إلا أن يتحير أمام احتشام مشيتهم، والابتسامة التي تظهر على وجوههم عند استقبالهم للضيف، والأصول والعادات التي كانوا يراعونها أثناء دخولهم في ساحة البيت وخروجهم منها."

وينقل عن «أدْمونْدْ أميكِسْ»:

"...إن الشعب التركي في «إستانبول» على حسب ما بحثت ودققت يُعد بمثابة أكبر وأعظم مجتمعات أوروبا من ناحية الظرافة واللطافة. فلم يكن هناك خطر التعرض للضرر أو التحقير حتى للشخص الأجنبي في أبعد الطرقات في تلك المدينة الكبيرة، بل إن الأجنبي يمكنه التجول في الجوامع حتى في أوقات الصلاة. والأجنبي في تلك الزيارات سيكون واثقًا ومتأكدًا بأنه سيرى رعاية وحرمة كبيرة أكبر من الحرمة والرعاية التي يراها التركي الذي يتجول في كنائسنا.

ولا توجد نظرات سيئة بين الأهالي، وحتى لا يُصادَف في أي وقت نظرة تجسس. والقهقهة نادرة الحدوث فيما بينهم، ومن النادر جدًّا أن تجد الرُعاع يتنازعون في الطرقات، ولا يخرج صوت النساء أبدًا من النوافذ أو الأبواب أو الحوانيت."

درجة اجتناب المساوئ:

لقد سعى العثمانيون إلى اجتناب كافة المساوئ كالجنايات والانتحار والقمار والبغض والحسد والسب والافتراء، وسعوا إلى حماية أنفسهم من ذلك كله، والذين ينظرون إليهم نظرة من الخارج يحكمون عليهم بأنهم كانوا لا يعرفون تلك المساوئ أبدًا.

ويقول «دي ليورْ»:

"إن الأتراك يخشون جدًّا نمو مشاعر الانتقام لديهم، وبموجب الأحكام السائدة بينهم فإنهم قبل أن يشرعوا في صلاة الجمعة يقومون بإعلان العفو عن خصومهم، ويؤمنون بأنهم إن لم يفعلوا ذلك فإن صلاتهم لن تقبل منهم، كما أن أول يوم من أيام العيد عندهم يُعد بمثابة يوم السلام العام، فكلما قابل واحد منهم الآخر يوم العيد بادر بطلب السماح له والعفو عنه، وبعد أن يسلم الصغير على الكبير ويقبل يده، يضع يده على صدره ويقول: "عيد مبارك" ".

ويقول «دي ليورْ» أيضًا:

"إن السب نتاج لمشاعر الانتقام والغضب، ونتيجة طبيعية للقمار، وهذا منتشر وموجود بشكل عام عند الناس في البلدان النصرانية، أما في المنازل والطرقات العثمانية فلا يُسمع فيها سباب قط، والشيء الذي يخجلنا ويجعلنا نعجب أيضًا هو أن اللغة العثمانية لا يوجد بها كلمات للسباب، كما لا يوجد سباب في حديثهم، ولكنهم يقسمون بالله فقط على شكل: «والله»".

والمعروف أن الأشخاص المسنين الذين عاشوا في تلك العصور يعرفون جيدًا أن الشخص الذي كان يغضب من مخاطبه في مسألة مّا كان يقول له:

"لا حول....!" أو:

"ولا حول ولا قوة إلا بالله!" أو:

"أزال الله عنك مصيبتك!" أو:

"فسبحان الله!" أو:

"حسبنا الله ونعم الوكيل!"أو:

"يا صبر!"

كلها عبارات جميلة. كما توجد عبارات أخرى جميلة مكتوبة على اللوحات المعلقة على الجدران في التكايا والزوايا، وكل واحدة منها بمثابة التعليمات المشهورة. مثل:

«هذا أيضًا يمر، يا هو!»، و«تنازل يا هو!»، و«تسامح يا هو!».

الشخصية الإسلامية:

لقد بذل العثمانيون جهودًا من أجل أن يعيشوا حياتهم في محتوى الدين الإسلامي. لقد كانوا بذلك يمثلون وخاصة في القرون الثلاث الأول هوية الجيل المميز الذي يمثل الشخصية الإسلامية بعد الصحابة والتابعين. ولهذا كانوا مرتبطين جدًّا بتعاليم أوامر الدين. فعلى سبيل المثال حالة الانتحار التي كانت منتشرة بشكل

كبير في الدول الأوروبية وسائر الدول الأخرى، لم يُصادف مثلها في البلدان العثمانية قط، ونفس الشيء كان في القمار والخمور، لم يكن ذلك منتشرًا في الدولة العثمانية. وحتى لو كان هناك شخص واحد مُبتلى بالقمار بشكل استثنائي، فإن شهادته كانت لا تُقبل. ومشهور أن «القاضي فناري» لم يقبل شهادة «السلطان يلدريم بايزيد» ؛لأنه لم يؤدِ الصلاة جماعةً. وقد تمكن العثمانيون الذين تحركوا في إطار الشخصية الإسلامية بدءًا من الأفراد وحتى السلطان من تشكيل روحانيةٍ وتوحيدٍ قوي لا يهتز في بنيتهم، وأصبحوا قوة لا تنهزم. ومن أجل تحقيق الأخوة الإسلامية وحّدت العالم الإسلامي في بنيته وحكَمته لعدة عصور بالرفعة والشرف.

ونعرض هنا بعض مشاهدات «م. دي ثيفينوتْ» الذي وقف متعجِّبا أمام هذه الرفعة وهذا الشرف:

"إن العثمانيين أصحاب تدين وإنسانية وشفقة ورحمة، وقلوبهم ممتلئة بالغيرة الدينية والحمية. وعرفوا أن نشر الإسلام في كل العالم وظيفتهم، وإذا ما صادفوا شخصًا نصرانيًّا يقدرونه كانوا يدعونه إلى الدخول في الإسلام.

لقد كان العثمانيون يحترمون سلاطينهم جدًّا، ويظهرون الصدق والإخلاص لهم، ويطيعونهم طاعة عمياء، ولم أصادف تركيًا واحدًا خان سلطانه، وتعاون مع النصارى، ولا يعرفون التقاتل فيما بينهم، وعلامة ذلك عدم حملهم السيف في المدن.

حتى أن جنودهم يكتفون بحمل الخناجر فقط. ولهذا فإن المتحادين بعضهم بعضًا قليلون، ولعل السبب في هذا هو السياسة الحكيمة لهذا الدين الذي ارتبطوا به كثيرًا، وأحبوه كثيرًا، وهي سياسة حكيمة تقضي على أكبر منبعين للشر وهما الخمر والميسر ومنعهما".

الإيمان بالقدر والتوكل والتسليم:

إن خاصية الإيمان بالقضاء والقدر التي تُعد من أسس الدين الإسلامي وأركانه، كانت تمثل تقوية معنوية مختلفة بالنسبة إلى العثمانيين، فبفضل إيمانهم بالقضاء والقدر

لم يتراخوا بالفخر النفسي بالانتصارات التي اكتسبوها، ولم يسقطوا في الهزيمة النفسية التي تؤدي إلى الهلاك بسبب الخسائر الحربية التي كانوا يتعرضون لها أحيانا. بل على النقيض كانوا يعرفون ببركة الإيمان بالقضاء والقدر أن كل شيء من الله تعالى، وبالتالي كانوا يعيشون في خضوع وتوكل تام على الله تعالى. وعندما يمنحهم الله النصر كانوا يشكرونه عليه، أما عندما تصيبهم الهزيمة فكانوا يعتمدون على الصبر والثبات ويلحقون هذا التقصير بأنفسهم. ولأن النصر والشهادة كانا عزيزين عليهم فقد عاشوا حياة مستقرة طالبين لهاتين العزتين. وبذلك لم يسقط العثمانيون في براثن النفسانية التي هي الهزيمة الحقيقية، ولم تنفطر شجاعتهم أو جرأتهم حتى في أحلك الأوقات وأكثرها فقدانًا للأمل.

وهذا الحال من التوكل على الله ﷻ كان وسيلة لنيل العثمانيين الانتصارات العظيمة والكبيرة. والمفكر الغربي «ج. ب. طوارنير» وهو أحد المفكرين الغربيين الذين شاهدوا تلك الحقيقة بتدقيقهم يقول في ذلك:

"لأن الأتراك كانوا يؤمنون بأنهم لن يستطيعوا تغيير القضاء والقدر، فإنهم كانوا يظهرون طمأنينة ومتانة في قبول الموت".

أما «ديمتْرِيوسْ كانْتيمِرْ» فيقول:

"لقد كان الأتراك وبسبب إيمانهم الشديد بالقضاء والقدر يؤمنون بأن الإنسان لن يستطيع أن يتخلص من حكم القدر حتى لو كان صلبًا مثل الألماس. ولا يوجد شخص واحد منهم إلا ويؤمن بأن أجله مكتوب على جبينه، وأن هذا الخط المعنوي الذي لا يُرى بعين الإنسان مكتوب بقدرة الله".

أما «أ. ل. قاسْتَلاّنْ» فيقول:

"لقد ترسخت عقيدة القضاء والقدر في أذهان العثمانيين، وهذه العقيدة تأتي عندهم مكان الشجاعة، وتزيد من ثباتهم ومتانتهم، وهذا الذي يجعلهم يقبلون إلى الموت متوكلين. ولهذا فإنه كان لا يخيفهم تلك المخاطر المتحققة رؤيتها بالعين.

وحتى لو دخل واحد منهم تحت نيران العدو وتمزق بالسكاكين، فإنه لا يقطع الأمل في الحياة طالما أنه مقتنع بأن أجله لم يحن بعد".

وهذا كله نتيجة لإيمانهم بقدر الله ﷻ وتوكلهم عليه.

شفقة ورحمة عمت العالم كله:

لقد امتدت شفقة ورحمة العثمانيين في الدولة العثمانية إلى النبات والدواب، كما رأينا في بحث «الخيرات والحسنات» لقد كان كل العثمانيين في حماية النباتات والدواب بمثابة الأعضاء المتطوعين في مؤسسة موهومة أقيمت لهذا السبب.

ومن ذلك:

١- سُنَّ قانون بحظر تحميل الدواب أكثر من طاقتها، وكان هناك ضباط مخصصون من أجل تعقب أصحاب تلك الدواب، وإذا ما رأوا حيوانًا محملا أكثر من طاقته كانوا ينزلون عنه تلك الأحمال ويجعلونه يستريح، ويأمرون مَنْ حمّل هذا الحيوان أكثر من طاقته بأن يحمل نفس الأحمال. وسلسلة الفرمانات التي أعدها السلطان القانوني أثناء بناء جامع السليمانية عن الدواب وتحميلهم أكثر من طاقتهم دلالة واضحة على هذه الحساسية التي أظهروها تجاه هذا الأمر.

٢- تم الاعتناء أيضًا بالحيوانات التي كانت تُساق إلى المذبح للذبح، فكان يتم تغطية أعين تلك الحيوانات حتى لا ترى أي شيء متعلق بالذبح، كما كان هناك أمر بأن تكون السكين حادة للغاية حتى لا تُصاب الذبيحة بالألم.

٣- كان يتم شراء الطيور المحبوسة في الأقفاص في الأسواق وإخلاء سبيلها، وأصبحت هذه بمثابة العادة عندهم.

٤- أثناء تأسيس الأبنية الكبيرة: وضعوا في الحسبان عمل أعشاش مزينة من أجل الطيور. وأعشاش الطيور الجميلة المزينة على حوائط «الجامع الجديد» بـ«أسكدار» إنما تعكس بشكل بارز جدًّا رقة وحساسية أصحاب الخيرات في هذا الشأن.

نضيف إلى ذلك أن الصيد كان غير مقبول عند العثمانيين إلا في حالة الضرورة فقط. حتى إنه يُروى أن ولع «السلطان محمد الرابع» الملقب بالصياد وابنه «السلطان مصطفى الثاني» بالصيد كان سببًا رئيسيًّا في نفور الشعب منهما؛ وهذا النفور تسبب في خلعهما من العرش. والوصايا التي أوصى بها «الشيخ البورصوي» «السلطان محمد الرابع» في هذا الشأن مشهورة للغاية.

ويقول المحامي «جُويَر» المشهور بعداوته للأتراك:

"لقد شملت شفقة التركي المسلم كل شيء حتى الحيوانات، وكان لهم لذلك أوقاف وموظفون، كانت مهمة هؤلاء الموظفين توزيع اللحم على الكلاب والقطط الموجودة في الطرقات، لدرجة أن الحيوانات كانت قد اعتادت على صوت هؤلاء الموظفين الممتلئ بالشفقة، وبمجرد أن كانت تسمع أصواتهم كانت تهرع إليهم.

كما كان القصابون أيضًا يجعلون كل يوم مقدارًا معينًا من اللحوم للقطط والكلاب. وكان في دمشق مستشفى خاص بعلاج القطط والكلاب".

ويقول «دى ليور»:

"وهل هناك إنسان يخفي حيرته عندما يرى الأوقاف التي تأسست من أجل مسْكن وغذاء القطط في بعض بلدان الدولة العثمانية؟ ومن المثير للعجب والدهشة أيضًا أنهم كانوا يؤسسون الأماكن لمبيت الكلاب وصغارَها في الطرقات والشوارع، وكان مَنْ يفعل ذلك يعتقد بأنه اكتسب ثوابًا وأن أبواب الجنة قد تفتحت له".

ويقول «كورنيل لي بريون»:

"وكان من عادتهم ذبح الحيوانات من التي تُؤكل لحومها بسرعة كبيرة ما أمكن لهم ذلك، وسبب ذلك رغبتهم في عدم إيذاء هذا الحيوان".

أما «كومْتْ دي بونيوا» فيقول:

"لقد أسس الأتراك أوقافًا من أجل القطط وسائر الحيوانات الضالة، كما كان القصابون يخصصون مقدارًا معينًا كل يوم من لحومهم من أجل تغذية تلك الحيوانات".

الخير والإنسانية:

لقد عاش العثمانيون حياة ممتلئة بنماذج لطف ورقة الأخلاق الإسلامية التي كانت تزين قلوبهم. ولهذا فإنه في الوقت الذي كان الإنسان في أوروبا يعيش حياة مضطربة كالأسير تحت يد وسطوة الحُكام، كان المسلمون وحتى غير المسلمين في الدولة العثمانية يعيشون حياة هنيئة مستقرة مطمئنة.

ومن الحقائق التاريخية أن أهالي الكثير من البلدان والمدن الأجنبية التي رأت هذا الوضع كانت تدعو العثمانيين وتقول لهم: "تعالوا إلينا لنعش تحت حكمكم و إدارتكم." وقد حُكم بالإعدام على رجل علم مشهور مثل «جاليليو» في العالم الغربي في تلك الفترات؛ لأنه قال:«إن الأرض كروية» وهو ما أخذه من المصادر الإسلامية. كما أن الغربيين كانوا يلقون ببعض المرضى المصابين بالأمراض النفسية في النار أحياءً ويقولون: "لقد دخل فيهم الجن." ويا لها من جناية وجهالة كبرى!!.

وهذا كله يُظهر أن التركي المسلم كان نتيجة لتلك الأخلاق الإسلامية السامية يعامل الجميع بالحُسنى والإنسانية، وهو ما جعل غير المسلمين يرون منهم حُسنى وإنسانية لم يروها من إخوانهم في الدين.

ويقول «ل. هـ. ديلمار»:

"لقد شاهدت أثناء رحلاتي للمناطق المجاورة لإستانبول بأن تلك الأمة كلها تحب الضيافة واللطف، وعندما كنت أقابل أي تركي في الطريق وأسأله عن الطريق كان يرشدني بصدر رحب، أما بخصوص المأكل والمشرب فكان يقدم ما تملكه يده، إن الإنسان يلاحظ إنسانية كاملة في كل تصرفاتهم".

« د. أ. برايز» يقول:

" كان لدى العثمانيين روح ينظرون من خلالها بنظرة النعمة المقدسة لكل ضيف يأتي إليهم. و كان صاحب المنزل يخصص أجمل غرفة لديه للضيف، وكان يقوم بخدمته بكل ما يملك، حتى إنه كان يدفع أجرة الطبيب إذا ما مرض ضيفه،

وذلك لأنهم كانوا يعدون دفع الضيف لأية أموال عيبًا كبيرًا. وحتى عندما كان يحل موعد مغادرة الضيف، فإن صاحب المنزل كان يهديه بعض الهدايا لتكون ذكرى طيبة لشكر المضيف لضيفه بسبب تفضله بقبول النزول عنده (أي صاحب البيت)".

النظافة ونتائجها الصحية:

لقد تفنن العثمانيون في كتابة الأحاديث الشريفة: "اَلنَّظَافَةُ مِنَ الْإِيمَانِ" و"اَلطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ" بأجمل الخطوط، وعلقوها على جدران المنازل والمساجد، كما جعلوها ثابتة في قلوبهم ودستورًا وشعارًا لهم.

وقد تحققت تلك النظافة بشكل مادي ومعنوي، وذلك لأن النظافة متداخلة مع الوظائف الدينية، فقد كانوا يغسلون وجوههم وأيديهم وأرجلهم كل يوم خمس مرات من أجل الصلوات الخمس، واعتادوا على غسل أيديهم قبل الأكل وبعده، وكانوا لا يأكلون نهما ويغادرون المائدة وهم لا يشبعون تمام الشبع.

وقد تم تأسيس الحمامات في كل أنحاء المملكة حتى في القرى لكي لا يحدث تقصير في مسألة النظافة، أما البيوت التركية فكانت نظيفة للغاية، ولا يتم الدخول إليها مطلقًا بالأحذية، كان كل ركن في المنزل نظيفًا للغاية بالدرجة التي يمكن الصلاة في أي مكان منه، ولا يوجد في البيوت مكان مخصص لتربية الدواب، حتى الطيور لا تدخل إلى داخل المنازل.

وكنتيجة طبيعية لتلك الخصال الحميدة ظهر الأتراك أقوياء أصحاء. ويذكر الغربيون في ذلك أن عدد المرضى في مدينة أوروبية واحدة في تلك الفترات التي كانت محرومة فيها من النظافة كان يفوق بكثيرٍ الموجودَ في الدولة العثمانية كلها. وأن خلو "قصر اللوفر" المشهور من مرحاض لَمثال كافٍ لحالة النظافة - في أوروبا- في ذلك الوقت.

ويُروى أن الشمسية استخدمت في فرنسا للوقاية من الأبوال والمياه الوسخة التي تلقى من المنازل على الطرقات.

ويقول «م. دي ثيفونوت»:

"إن الأتراك يعيشون أصحاء، وعدد المرضى فيهم قليل، ولا يكون فيهم الأمراض المنتشرة في بلداننا، بل إنهم لا يعرفون حتى أسماء تلك الأمراض، وأنا أظن أن السبب الرئيسي في صحتهم هذه هو النظافة الدائمة، واعتدالهم في الطعام والشراب، فهم يأكلون قليلا جدًّا، وما يأكلونه ليس مختلطًا مثل طعام النصارى".

ويقول «ريكاوُتْ»:

"لقد كان غسل الأيدي قبل الطعام وبعده من العادات العامة التي لا تنازل عنها عند الأتراك".

ويقول «ج. ب. تاورينير»:

"بمجرد أن ينهض الناس من على المائدة في تركيا، يقومون بغسل الأيدي والفم. حيث يقف شخص بالماء والصابون أمام الضيف، وفي منازل علية القوم يتم إحضار مياه معطرة بالورد، أو أي عطر آخر، حيث يبللون طرف المنديل منه".

ويقول «ج. ر. دوردنت»:

"إن الأتراك مكلفون دينيًّا بإقامة الصلاة كل يوم خمس مرات، والوضوء عدة مرات، وهم يعتقدون أنهم بذلك يطهرون أرواحهم أيضًا".

ويقول « د / أ. برايرِ»:

"إن العثماني لم يهمل قط الاغتسال والتطهر، لو فرضنا أنه لا يقدر على الطهارة يتطهر بواسطة أولاده، أو خادمه، أو زوجته. حتى الموتى منهم لا يوضعون في التابوت دون الغسل بمراعاة أحكام الشريعة والتطيب. مع أن الأوروبيين ينسون الاغتسال إذا مرضوا، أو في حالة عدم القدرة لذلك، وإذا ما مات منهم شخص، فإنهم يلفونه في قماشة رديئة أكثر مما يكون في المنزل ويضعونه في التابوت، ولا يخطر ببال عائلته تغسيله ولو بشكل سطحي".

البلدة التي لم تحدث فيها وقائع شرطة:

لم يُصادف وقوع أية حادثة تتعلق بالشرطة في الدولة العثمانية وخاصة في الأناضول و«إستانبول» ونواحيها. والتي تقع نادرة كانت على يد عناصر النصارى عامة وعلى يد الروم خاصة. وهذه الحقيقة كافية لإظهار مدى تقدم العثمانيين باعتبار المرتبة الأخلاقية.

حقيقة القول لقد كانت اللصوصية وقطع الطريق والاحتكار والتزوير وغيرها من الجرائم أشياء مجهولة في المجتمع العثماني. وعلى هذا كانت معظم البيوت مفتوحة الأبواب، أو موصدة بقفل خشبي فقط. وكانت الحوانيت أيضًا على نفس الوضع. وكان الأمر كذلك في العشائر التركمانية والقرى. ولهذا فإن رجل الشرطة القديم في الدولة العثمانية كان بمثابة العاطل أو الذي لا عمل له.

ولا شك أن القرآن الكريم كان هو المصدر الرئيسي لتلك المرتبة الأخلاقية العالية؛ لأنه لم تُرَ تلك المرتبة في الأشخاص المنتسبين للأديان الأخرى، لا سيما وأن الدعوة إلى الانتباه وأخذ العِبرة التي توقظ النصرانية الغربية الواردة في المقال الذي نشرته جريدة التايمز اليومية إنما هو من هذا.

ويقول «دو ليور» عن الأمن والأمان الذي شاهده في الدولة العلية ما يلي:

"لا يمكن أن تحدث أية جناية في تلك البلدة، وإن ظهرت حادثة طارئة فإنها إما أن تكون بفعل قطاع الطرق، أو حادثة فورية طارئة لحظية".

وأثناء حملة «بُرُوتْ» للقائد الشهير« بَلْطَجِى» كان الرحالة المشهور «أ. دي موتراى» في المعسكر العثماني لفترة، وقد قال عن ملاحظته:

"لقد بقيت في الدولة العثمانية أربع عشرة سنة، كانت حوادث السرقة فيها نادرة الحدوث مثل سائر الحوادث، أما في «إستانبول» فمن النادر جدًّا حدوث سرقات بها. وكان عقاب من يقومون بقطع الطريق في الدولة العثمانية هو الموت بالخازوق، وخلال أربع عشرة سنة عشت في «إستانبول» ولم تُقَم تلك العقوبة إلاّ

ست مرات فقط، وكلهم كانوا من الجنس الرومي، وليس معلومًا عن الأتراك قطع الطريق، ولهذا ليس هناك خوف على الجيوب من خفة اليد".

أما السفير «السِّيرْ جَيْمِسْ بُورْتِرْ» الذي كان سفيرًا لإنجلترا في «إستانبول» فقد قال عن ذلك، بالرغم من عدائه للأتراك والإسلام:

"إن الحوادث مثل قطع الطريق ونهب البيوت كانت وكأنها غير معروفة في المجتمع العثماني، ففي الحرب أو السلم كانت الطرق آمنة مثل البيوت، ويمكن لأي شخص أن يسير بمفرده في الطرق الرئيسية في كل البلدان العثمانية، ومن المثير للعجب قلة الحوادث بشكل كبير بالرغم من كثرة عدد الرحلات والمسافرين، ففي عدة سنوات يمكن مصادفة بعض الحوادث النادرة الحدوث".

ويقول الجنرال الفرنسي «كومْتْ دي بونوال»:

"ولا يمكن مصادفة بعض الحوادث بين الأتراك كقطع الطريق والاحتكار واللصوصية. ويظهر الأتراك صدقًا بسبب العقيدة الوجدانية من ناحية وبسبب الخوف من العقاب من ناحية أخرى لدرجة أنهم يجعلون الإنسان يُدهش لهذا الصدق والإخلاص رضي أم أبى".

ويذكر «أ. أوبوجيني» عن مشاهداته قائلاً:

"إن أصحاب الحوانيت في تلك العاصمة العظيمة يتركون حوانيتهم مفتوحة كل يوم في الأوقات المعلومة ويذهبون للصلاة، وفي الليل يغلقون أبواب بيوتهم على العادة بقفل خشبي، وبالرغم من ذلك لا تحدث السرقة في العام إلا ثلاث أو أربع مرات فقط. أما «غَلَطَة» و«بَكْ أُوغْلُو» المشهور بأن معظم سكانها من النصارى، فلا يمضي يوم إلا ويحدث فيهما سرقات وجنايات.

لا فرق بين إستانبول وغيرها من المدن العثمانية في هذا الأمن والاستقامة. وأرجو منكم أن تقرؤوا تلك الحكاية التي أوردها أحد الرحالة الإنجليز والتي نشرت في جريدة «ديلي نيوز» في الأوقات الأخيرة:

"ذات يوم قمت باستئجار عربة نقل من أحد القرويين لنقل أغراضي وأغراض ضابط مجَري صديق لي، كانت كل الصناديق والأغراض مفتوحة ومكشوفة، فيها المعاطف والفراء والأوشحة أردت أن أشتري بعض الأعشاب الجافة، كي أضطجع عليها، لأنه لا يوجد هنا مفرش حتى خياله لا يوجد. وطلب مني أحد الأتراك الذين يتميزون باللطف والذوق أن يرافقني، بعدها أخرج الرجل الثيران من العربة و تركها في وسط الطريق مع أغراضنا.

ولما رأيته يبتعد ناديت عليه قائلاً:

"يجب أن يبقى أحد هنا".

فقال: "لماذا؟"

فقلت: " لحراسة أغراضنا".

فقال التركي المسلم: "ولم هذا؟ لا تهتم. إن بقيت أغراضكم في هذا المكان أسبوعًا كاملاً ليلاً ونهارًا فلن يمسها أحد".

ولم أصر أنا أيضًا على طلبي، وذهبت، ولما رجعت وجدت كل شيء في مكانه، فقد كان الجنود العثمانيون يمرون من المكان بشكل دائم.

إن هذه الحقيقة التي تواجه العين يجب أن تُعلن على كل النصارى من على كراسي الكنائس في لندن. فبعضهم سيظن أن هذا مجرد رؤيا، ولكن يجب أن يفيقوا من سباتهم هذا!".

ولأن المعيشة الدينية في الدولة العثمانية قوّت الإيمان، ولأنها أمّنت التوازن الاجتماعي، فإن طرق اللصوصية والنهب قد أغلقت بالمؤسسات الوقفية، وكان المؤثر في أساس الانتصارات المادية والمعنوية هو المكسب الحلال، ولهذا قال السلطان سليم خان مقولته المشهورة: "لو أنني رأيت ثمرة واحدة مقطوفة من أية حديقة ليست ملكًا لنا في حقيبة جندي من جنودي لكنت قد تنازلت عن حملة مصر، فالنصر لا يأتي بالحرام".

الاستقامة التامة التي لا مثيل لها والشرف:

لقد كان العثمانيون أصحاب بنية قلبية لا مثيل لها في موضوع الاستقامة، وبنية قلبية حساسة جدًّا في موضوع الشرف، وأحوالهم هذه تبين لنا فضيلة مستثناة وعالية جدًّا، و كل هذا أيضًا يعتمد على أحكام القرآن والسُنة.

من ناحية أخرى نقول: إن مفهوم الاستقامة والشرف لم يكن فيما بينهم فقط، بل كان بمثابة الشعور العام الذي يطبق تجاه كل الأمم دون تفرقة بين المذهب والعرق. ويمكن رؤية هذا في الكثير من الأمثلة. ومن بينها إسلام قسيسين في عهد «السلطان الفاتح» حيث كانا يفتشان وضع الدولة العثمانية فأرسلا بنتيهما إلى مدرسة في إحدى الليالي وعلما صباحا مدى شرف وعفة الأتراك المسلمين وأسلما. ولم ينكر حتى أعداؤنا هذه الحساسية التي برزت بشكل كبير سواء في التعليمات التي كان يصدرها السلاطين، أو التصرفات التي كانت من الأهالي والجنود.

وقد تم الكثير من المعاملات التجارية والاقتصادية بلا سند في المجتمع العثماني الذي انتشرت فيه تلك الفضيلة السامية. ولعل نقل الشخص الواحد للذهب من الجبال بمفرده لعدة أعوام دون تعرض أحد له، إنما هو ظاهرة تدل على مفهوم الاستقامة والشرف عند العثمانيين لم يُرَ مثلها في أي مكان آخر. وقد اعترف الأجانب بأن معظم التصرفات السلبية كالحيلة والخداع التي ظهرت في الدولة، كانت تقع على يد غير المسلمين أكثر من الأهالي المسلمين.

يقول «أ. دي لومتراي»:

"لن أتردد ولو لحظة واحدة عن التحدث عن شرف الأتراك. أنا شخص ذاهل فكريا جدًّا، وكثيرًا ما أنسى حافظة نقودي أو ساعتي بين الأغراض في الحوانيت، وأحيانًا لا أنتبه للأموال التي أدفعها لصاحب الحانوت، وأعطيه ضعف المبلغ المطلوب، وأذهب دون أن أنتبه لذلك، رغم كل ذلك ما ضاع لي أي شيء في حوانيت الأتراك. وإذا ما نسيت أي شيء من متعلقاتي وأنا في المحل، فإن صاحب

المحل يهرع خلفي بمجرد أن يكتشف ذلك، وإذا كنت قد ابتعدت عن المحل كثيرًا فإنه يرسل خلفي شخصًا حتى حي« بَكْ أوغْلو»، وهذا لم يحدث مرة واحدة فقط بل حدث عدة مرات".

أما «مورادج دي أوهسون» الذي عمل سفيرًا للنمسا في «إستانبول» وقام بعمل دراسات عن الدولة العثمانية بلغت سبعة مجلدات فيقول عن ذلك:

"إن الأتراك العثمانيين يلفتون الانتباه جدًّا بمزاياهم التي تستند إلى أحكام القرآن مثل الصدق والاستقامة والشرف وغير ذلك من الفضائل الأخرى. ومن المزايا التي يمدحون عليها صدقهم فيما يتكلمون، وهم يشعرون بعذاب كبير تجاه خداع الناس، أو استغلال طيبة الآخرين، أو سوء استعمال الأمن، ويُظهرون هذا الكمال الذي استقر على كل معاملتهم بنفس الشكل لكل الأجانب دون النظر إلى دينهم أو مذهبهم. ولهذا لا يُرى عندهم فرق في التعامل بين المسلم وغير المسلم. لأنهم يعدون كل مكسب غير مشروع حرامًا من الناحية الإسلامية، ويؤمنون إيمانًا قاطعًا بأن تلك الثروة التي تم جمعها بطريق غير مشروع ليس فيها خير في الدنيا و لا في الآخرة".

والحادثة التالية التي رواها «أ. ل. كاستيلان» عن الشرف العثماني إنما تحتوي على كثير من العبر:

"حكى أحد أصدقائي: كنت عائدًا من «إستانبول» إلى منطقة «بَكْ أوغْلو» ومعي حافظة بها ألف قرش. وبينما كنت صاعدًا إلى ميناء «الطوبْ خانَه» تمزقت الحافظة، وسقطت منها النقود وتفرقت على الرصيف، حتى إن بعضها سقط في البحر، وقبل أن أقول "يا ويلتي!" إذا بالناس تنكب على الأرض وكل شخص يجمع من الأموال ما يستطيع، تجمدت في مكاني من الحيرة ولم أدرِ ماذا أفعل، فقد كنت أراقب الوضع بحزن شديد، وفجأة رأيت كل شخص منهم يضع الأموال في الحافظة التي كانت ملقاة على الأرض، بدأت أشعر بالفرح، حتى إن أصحاب

القوارب نزلوا البحر وغاصوا إلى القاع وجمعوا لي النقود التي سقطت، ولما أردت أن أظهر لهم بعض الكرم على ما قاموا به، إذا بهم يقولون لي: "إن ما قاموا به هو واجبهم" وسار كل واحد منهم في طريقه، لا سيما وأنني لو أردت أن أوزع عليهم جميعًا العطايا لما كانت تكفيهم، وبعد أن وضعت الأموال في الحافظة وسرت إلى المنزل بدأت أعد النقود، وكنت أعتقد بأنني سأجد الأموال ناقصة ولو بمقدار بسيط، ولكني فوجئت بأن النقود لم تنقص ولو قرشًا واحدًا، لم أصدق عينيَّ فعددت الأموال مرة أخرى فوجدت أنها لم تنقص قرشًا واحداً".

وبالرغم من أن «تشارلز ماك فارلين» كان عدوًّا للأتراك إلاّ أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الاعتراف بالحق فقال:

"كان هناك قروي فقير اسمه «بُوجَه لِي مصطفى» يستخدمه صديقيM.W. أجيرًا بين «جَشْمَه» و«إزْميرْ» في موسم الحصاد، كان هذا الرجل المسكين يحمل حقائب الذهب ويتحرك بها من «إزْميرْ» في المساء، كان يسير في الطريق طوال الليل، يتخطى الجبال والتلال، وبعد أن يقطع ٣٠ فرسخًا كان يصل بحمولاته القيمة إلى «جَشْمَة». كان يسير أحياناً على البعير وينزل منه عندما يقترب من الجبال ليسير أسرع. لم يكن هناك من يخاف منهم سوى أهالي «سيسَامْ». ولأنه لم يصادفهم قط، كان يعتقد بأنه لن يقابلهم أبدًا، والشيء المثير للعجب هنا هو أن هذا الرجل كان معروفًا عند الجميع، كما أن الناس كانوا يعرفون ماذا يحمل، وبالرغم من هذا لم يتردد تجار «إزْميرْ» من إرسال أموالهم عبر هذا الطريق الخطر".

أما الشاعر الفرنسي الشهير «لا مارتين» فيحكي لنا كيفية تحركه من أمام مقهى في منطقة «أيوب سلطان» عندما كان مغادرًا إستانبول بعد رحلته لها:

"...اجتمع الأهالي حولنا لرؤيتنا، لم نتعرض للتحقير أو الإهانة ولم نفقد شيئًا قط من أموالنا. لقد كانت الاستقامة بمثابة الفضيلة المنتشرة في الشوارع، لقد كان الجالسون على المقهى والأطفال الذين يأتون من هنا وهناك يساعدوننا في تحميل

أغراضنا على العربة والحصان. وكانوا يلتقطون بأيديهم ما يسقط على الأرض من أغراضنا ويعطونه لنا مرة أخرى".

الحياء والتواضع:

كان الحياء الذي هو شعبة من الإيمان، والتواضع الذي يستقر في القلب ويرتبط بالحياء من الصفات المميزة للعثمانيين. وقد تصرف العثمانيون بحساسية شديدة في موضوع تطبيق مفهوم العصمة والعفة في الحياة، وبهذا استطاعوا أن يحافظوا على نظام المجتمع. وقد أظهروا ارتباطًا كبيرًا بالإسلام الذي هو منبع الأدب والتواضع والحياء. ولم يقدموا تنازلات في هذه الموضوعات وفعلوا نفس الشيء في كثير من الموضوعات الأخرى، وقد اعتبروا مد الكافر يده على شعر امرأة مسلمة سببًا في نشوب الحرب. لقد ارتقى العثمانيون برعايتهم لأسس الحياء واحتفظوا مبادئهم الأساسية. ويمكن تعريف المجتمع العثماني المتصف بتلك الصفات بأنه «مجتمع نظيف» بتعبير اليوم.

ويقول «مردادج دي أوهسون»:

"إن أسس الحياء تمنع كل مسلم من الكشف أو النظر إلى بعض الأماكن في جسد الرجل والمرأة، ولم يجيزوا ذلك إلا في بعض الحالات للضرورة. وهذا الجواز الذي في حالة الضرورة يكون منحصرًا في الطبيب والجراح والقابلة، والخاتن، حتى هؤلاء أيضًا لم يُسمح لهم إلا بالنظر إلى الأماكن التي تحتاج إلى ذلك فقط.

ويمكن للرجل أن ينظر إلى الرجل والمرأة أن تنظر إلى المرأة فيما ليس بعورة، فإن محل العورة مستور بحجاب الحياء وإن كان هذا النظر سيفتح باب الغواية فإن الشخص مضطر في تلك الحال إلى أن يغض بصره على الفور".

ويقول «أ. برابر»:

"كان الكبر والغرور اللذان هما نتيجة طبيعية لانعدام الحياء في حكم المعدوم



بين الأتراك المسلمين، لأن الكبر والغرور من السلبيات التي حرمها الإسلام بشدة، فقد قال الله تعالى:

﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا اِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَال فَخُور﴾ (لقمان، ١٨)

وقيل: "كن متواضعًا في حركاتك وليكن حديثك بصوت منخفض"

وقيل: "الجهل يؤدي إلى الكبر والعالم لا يكون متكبرًا"

وقيل: "التواضع يجعل الإنسان نجيبًا"

ولذا فإن العثماني كان يتصف بالوقار والأبهة في سيره، إلا أنه لم يكن يتصف بالكبر أو العظمة قط. فدائمًا ما كان يتحدث بصوت منخفض، ولم يكن يظهر أي تحكم في حركات يده أو ذراعه، بل كانت توجد سهولة وعذوبة في خدماته".

الوقار والجدية والهيبة:

اتصف العثمانيون بالتواضع بقدر ما كانوا يتصفون بالوقار والهيبة والجدية، ونتيجة لهذا كانوا يعتبرون الضحك بالقهقهة خفة، أما التبسم فصارت بمثابة الطبيعة الأصلية عندهم.

كان هؤلاء الأناس المتصفون بالوقار يعبرون عن أفكارهم بشكل موجز وقصير وما كانوا يحبون الثرثرة. ولأنهم كانوا يتصفون بالهيبة والوقار فقد كانوا لا ينفعلون أمام الأحداث، كما كانوا لا يحبون الصياح أو الصراخ أو الضوضاء.

ولم يكن هذا في الكبار فحسب، بل كان أيضًا في الصغار، فقد كان الأطفال لا يصيحون أو يثيرون ضجة في أي مكان، وكانوا يتحدثون بصوت منخفض في حضور آبائهم، ويلعبون الألعاب التي لا تزعج الآخرين.

ويذكر «ث. ثرونتون» مشاهداته فيقول:

"كان الأتراك يظهرون بهيبة ووقار، حتى ملاهيهم كانت في سكون، ومَنْ يصرخ أو يصيح منهم كان يُنظر إليه نظرة سيئة، كانوا يستمتعون بالسكون؛ حيث كان التأني الذي يطرأ في حركاتهم يعبر عن نضجهم ووقارهم. ويستغلون أوقات فراغهم بعد أعمالهم الجادة للاستراحة، وما كانوا يضيعون هذه الأوقات سدى. وكانوا ينامون مبكرًا ويستيقظون قبل شروق الشمس".

أما «أوبِجيني» فيقول:

"لقد كان الأتراك عمومًا مهندمي الهيئة والمظهر، لم يكن طعامهم كثيرًا، ولكنه صحي، ومشربهم الوحيد هو الماء، تحصيلهم كان سطحيًّا بالنسبة للمعلومات العامة، ولكنه متعمق وكامل من ناحية الحرفة الشخصية والتخصص.

فقد كانوا يحرصون على تعلم العلوم الشرعية قبل أي شيء، فيصبحون بذلك أصحاب رقة ظريفة وهيبة متواضعة تحير من يطلع على هذه الصفات. لقد كان هناك فرق كبير مثل الجبال بين لطافة هؤلاء وبين فظاظة أهل التجارة عندنا".

تربية الأسرة:

لا شك أن أول وأكبر عامل مؤثر في تقدم هذا القوام الأخلاقي المستثنى الذي كان يتصف به الأتراك هو القوة في بنية الأسرة، لا سيما وأن بعض التدهورات التي ظهرت في بنية الدولة في بعض الفترات لم تظهر في المجتمع بفضل بنية الأسرة، ولعل هذا هو الذي جعل تلك الأمة تنهض في أحلك ظروفها وتقف على قدميها بسهولة.

والعامل الرئيسي الذي كان يعمل على سلامة الأسرة في المجتمع العثماني هو القرآن والسُنة، فطبقًا لهذا اتخذ الرجل والسيدة مكانهما في المجتمع على حسب استعدادهما وقابليتهما، فالرجل كان يخدم في الخارج من أجل تأمين الرزق، أما السيدة فكانت تعمل في الداخل من أجل تأمين سلامة الأسرة والحفاظ عليها. وببركة هذا التقسيم الجميل: ظهر مبدأ أساسي وهو: "طاعة الكبير وتوقيره، ومحبة الصغير والشفقة عليه".

فقد كانت الأسرة تتكون من الأب الذي يتصف بأنه رئيس تلك الأسرة، والأم التي تعد رفيقته، والأبناء الذين هم نور عين الأب والأم، وكان لكل واحد منهم دور، وبذلك تحددت الأدوار بشكل واضح للغاية، وخاصة الأبناء كانوا مكلفين بطاعة واحترام الأب والأم وخدمتهما. وإذا كانوا في مكان غير المكان الموجود فيه الأب والأم فإنهم حينئذ مضطرون لصلة القربى، أي للذهاب إليهما وزيارتهما.

ويقول الدكتور «أ. براير» عن الفضائل التي رآها في الدولة العثمانية:

"إن الأطفال في الدولة العثمانية إذا ما بلغوا سن الرشد يفتخرون بأنهم إلى جانب آبائهم وأمهاتهم، لأنهم سيتعبون مع الأب والأم مثلما تعب الأب والأم معهم في تربيتهم، وسيشفقون عليهم، وهذا يكون شرفا وفخرا لهم. أما في البلدان الأخرى فإن الأطفال إذا ما بلغوا سن الرشد ينفصلون عن آبائهم وأمهاتهم، بل ويتنازعونهم في منافعهم المالية.

وحتى يتركون أباءهم يعيشون حياة المهانة والمذلة ولو كانوا (أي الأبناء) في رفاهية تامة؛ ويجعلون آباءهم وأمهاتهم بمثابة الأغراب عنهم في الفترة التي يشعر الآباء والأمهات فيها بأنهم في حاجة إليهم".

ويقول «أ. أوبجيني»:

"يمسك الأب يد ابنه أيام الجُمَع وأيام الأعياد ويخرج به إلى الخارج ويتنزه به، ويقصر الرجل خطوته على حسب خطوة ابنه، وإذا ما شعر الأب تعبا عند ابنه فإنه إما أن يحمله على كتفه، أو أن يستريح به بجوار أي مقهى، ويتحدث معه بشفقة كبيرة، ويتعقب تصرفات وحركات ابنه بانتباه كبير. وإذا ما رأى الشباب أو الرجال الجالسون أن مع الأب ابنه الصغير فإنهم يلقون السجائر التي بأيديهم، ويبتسمون للطفل، ويدعون للأب بأن يبارك الله له في ابنه، ويجعله نافعًا للأمة والدولة".

مشاهدات بِيَرْ لُوتِي:

لقد صوّر «بير لوتي» الأديب الفرنسي الشهير في كتاباته المشاعر الجميلة والآداب



والأخلاق الاسلامية النزيهة لدى الأتراك الذين يعيشون في إستانبول، رغم أن لغته، وثقافته، وجنسيته كانت مختلفة، فقال:

"إن حياة الأتراك المسلمين عالم مختلف بمعنى الكلمة، فلا يمكن رؤية تلك الدرجة من احترام الرجل مرأته وإعجابه بها في أي منزل آخر في العالم. والسر في تلك الحقيقة هو إعداد البيت من قبل المرأة. وإنني أقول: إن الغرف في المنزل التركي المسلم أسست على توازن مقصود وخاص في الألوان، حتى في أسلوب فرشها.

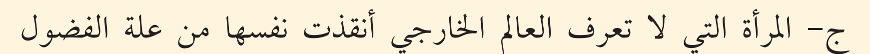
لقد كان زي المرأة صاحبة المنزل متوازنًا بدءًا من حجاب رأسها، وحتى النعل المصنوع من القماش المطرز النفيس، لقد كانت المرأة العثمانية مغرمة ببيتها لهذا الحد، وتهتم بنظافته كثيرًا، لقد كانت صاحبة ذكاء وتعليم بدرجة تجعل زوجها يشتاق للمنزل، لقد كانت نظافة المرأة صافية مثل الزهرة، وهي نظافة مادية، وأقول: إن تلك النظافة المادية إنما هي منبثقة من النظافة الروحية، فتلك المرأة كانت لا تعرف القمار أو الخمر أو العالم الخارجي".

من الجمل السابقة أعلاه يُفهَم ما يلي:

أ – لقد كانت النسوة في تلك الفترات بعيدات تمامًا عن الموضة الفارغة المؤدية إلى الإسراف والغلظة، بل كن صاحبات ذوق سليم. ويعلمن أن الله تعالى خلق جميع عباده على شكل مختلف؛ منهم الطويل والقصير والسمين والنحيف والأبيض والأسود والأصفر والأحمر. والذي يليق بواحد لا يليق بآخر. والأذواق لا نهاية لها. وترك هذا العالم من الذوق ولبس الزي العجيب باسم الموضة، ليس إلا أضحوكة وضعفًا في الشخصية وعدم فهم وجهالة.

ب– إن النظافة الحقيقية هي تلك النظافة الصافية المنبثقة من الروح، وبدون تلك النظافة الروحية لا معنى للنظافة المادية. فيجب أن تسير النظافة المادية جنبًا إلى جنب مع النظافة الروحية.

ج– المرأة التي لا تعرف العالم الخارجي أنقذت نفسها من علة الفضول





والتجسس، وتعيش حياة سعيدة في بيتها؛ حيث يكون قلبها مرتبطًا بالله ثم زوجها ثم أولادها، وهي سعيدة ومطمئنة؛ لأنها أنقذت ذهنها من الأشياء الفضولية. وأنها صاحبة أخلاق. وعندما تكون المرأة على هذه الحال فإنها تكون عنصرًا مشرفًا جديرًا بالاحترام في عشها.

❀

إن كل ما ذكرناه إلى هنا يتضمن في داخله العهود التي ارتقت فيها الدولة العثمانية والعهود التي تأخرت فيها، والعهود التي تقهقرت وتدهورت حالها فيها. وهنا علينا أن نقول: إن إظهار العثمانيين حتى في الرمق الأخير تلك الأخلاق والمزايا الجميلة ولو كان جزئيا يعد لافتًا للانتباه جدا. ولهذا رأينا أنه من المناسب أن نذكر هنا تلك المرتبة الأخلاقية التي أظهروها حتى في الرمق الأخير لهم وانسحابهم من على مسرح التاريخ ليكون عبرة لنا. وذلك لنتمكن من التعرف بشكل أكبر على تلك البنية المعظمة التي استطاعت أن تحقق تلك المرتبة.

المجتمع العثماني الأخير:

ينقل «موسى طوب باش أفندي» النظام والسجية والأخلاق التي كانت موجودة في المجتمع العثماني الذي عاصره في سنوات طفولته، فيقول:

كنت بين السابعة و الثامنة من عمري تقريبًا، و قضيت طفولتي في «أَرَنْ كويْ» كنت أقوم بعقد مقارنة بين ما كان عليه الأهالي في تلك الفترة وخاصة الأهالي في «أَرَنْ كويْ» من حب وصفات جميلة وبين ما هو موجود في وقتنا الحالي، وعندما أقوم بعمل تلك المقارنة أشعر بأسف وتأثر شديدين.

فقد كان كل فرد يحب الآخر بصدق وإخلاص، وكأنهم جميعًا أسرة واحدة، ففرحة الواحد منهم كانت تمثل فرحة للجميع، وحزن الواحد يمثل حزنًا للجميع.

كان كل فرد يشارك في مناسبات الأفراح والمآتم، كانت الأيام الجميلة تمر

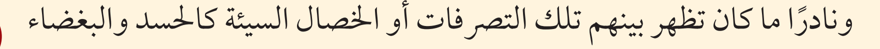
بالمصاحبات الجميلة القلبية وبالسعادة القلبية. كما أنهم كانوا يحرصون على زيارة المرضى، فكانت آلامهم تنقشع بالوجوه المبتسمة والكلمات العذبة الحلوى والهدايا. كما كان الجميع يتحابون ويتسابقون في مساعدة الغرباء والمساكين والفقراء حسب استطاعتهم وحُبّا منهم.

لقد كانت حافظات الأثرياء مفتوحة دائمًا أمام الفقراء، وكان الأطباء المتصفون بالرحمة والشفقة كثيرين، وكانوا يعاينون المرضى بشفقة الأب، وكانوا في معظم الأوقات لا يأخذون الأموال من الفقراء، بل إنهم كانوا في بعض الأوقات يعطون ثمن الدواء لهم. وإذا ما نشب حريق فإن عمال المضخات والإطفاء يتحركون بسرعة كبيرة بين الأحياء، وكان الناس يساعدونهم في إطفاء الحرائق.

كان لايخطر ببال واحد من هؤلاء الأناس المتصفين بالتضحية أصغر أعمال السوء أو السرقة، فقد كانوا يدركون أن المساعدات والخدمات التي يقومون بها إنما هي فرض عين عليهم. وعند وقوع حالة وفاة في الحي، فإن كل أهالي الحي يشاركون أهل المتوفى ويعزونهم، وكانوا يعدون الطعام لأهل المتوفى أيامًا طوالا.

كان الجميع يحترمون بعضهم البعض، كان الحياة كلها أدبا، كان هناك كثير من الأميين لكنهم كانوا عالمين مثقفين معترفين بالجميل؛ أما اليوم فهناك أناس منتسبون إلى العلم لكنهم جاهلون وهناك أصحاب دكاترة لكنهم محرومون من الأدب ومحتقرون شعبهم. كانت هناك أخوة بين المسن والشاب والغني والفقير، وكان الأثرياء متواضعين، حتى الأيتام والأرامل كانوا تحت رعاية وحماية أهل الحي. فقد كانوا يقدمون لهم الطعام والشراب والملبس، ولأنهم كانوا يعلمون أن المعطي هو الله فقد كانوا يشكرون الله تعالى كثيرًا. وكانوا يفرون من الإسراف والتبذير فيصرفون ما ادخر عندهم لحماية الفقراء والأرامل والأيتام. وكانوا يساعدون الشباب غير القادرين على نفقات الزواج في زواجهم، ويشعرون بسعادة كبيرة في ذلك.

ونادرًا ما كان تظهر بينهم تلك التصرفات أو الخصال السيئة كالحسد والبغضاء





والغيبة، وحتى إن كان هناك واحد يتجرأ على اقتراف ذلك فقد كان يعلم أن الجميع سيصدونه، ولهذا كان يخاف من أن يسقط من نظر الأهالي.

وكانوا يعرفون أيضًا أن امتلاك قلوب المؤمنين هو أهم عبادة بعد أداء الفريضة. وكانوا يبذلون جهدهم من أجل التفوه بكلمات تسكن الروح، وكانوا يعطون أمثلة من مناقب الأولياء.

كان الفرد لا يتشاجر مع الفرد الآخر، ولا يقوم أحد بتحقير أحد. كان الصغار يحترمون الكبار، والكبار يعاملون الصغار بالشفقة، وكانت تُراعى بشدةٍ حقوق الأب والأم. فلم يكن هناك تقصير قط في طاعتهم.

كان الكبار ينتبهون وهم أمام الصغار لئلا يتصرفوا تصرفًا يقلل من شأنهم وذلك حتى يتربى الصغار على الجدية والوقار والتواضع.

كما كانوا يعاملون الخادم في المنزل معاملة حسنة، ويتصرفون معه بلطف، ويأكلون معه على نفس المائدة، ويخصصون له الغرفة النظيفة لينام فيها، وأمام هذا كان الخادم يعد نفسه فردًا من أفراد الأسرة، وبذلك كان لا يتكاسل ويؤدي عمله كما يجب، ولا يفكر مطلقًا في الانتقال إلى بيت آخر، بل إنه كان يعد هذا التصرف نكرانًا للجميل وعيبًا.

وإن كان الخادم شابًّا زوجوه، وإن كان مسنًّا لا يغادر هذا البيت حتى الموت.

وكانوا يولون أهمية خاصة بتربية الأطفال، فكانوا يربونهم على حب الله والخوف منه، وحب النبي والدين، ويعودونهم العبادة والإنفاق بالحب. وما كانوا ينفذون كل مطالب الأطفال حتى لا يبطروا ويتهاونوا؛ بل كانوا يظهرون اهتمامًا كبيرًا بتربيتهم وتأديبهم. وكانوا يقومون بتلقين الأطفال التلقينات الخاصة بالدين والمجتمع. وكانوا يبذلون ما في وسعهم من أجل تربيتهم على الأخلاق الحسنة والحياء والصدق.

وكان أفراد الأسرة في الأوقات المعينة يجتمعون على المائدة ليأكلوا جميعًا في جو كله محبة. فلم تكن الأم تأكل بمفردها والأب كذلك والأبناء... بل كانوا يأكلون جميعًا، والجميع تقريبًا يكون في المنزل مساءً، وأحيانًا كانوا يزورون الأحباب والأقرباء، وإذا ما حل ضيف عندهم فإنهم يكرمونه أيضًا بالوجوه الحسنة والكلمات العذبة. وإذا بقوا بالبيت كانوا يتكلمون عن أشياء مفيدة بشكل يفهمه الأطفال.

والأطفال لم يكن يذهبون إلى أي مكان دون استئذان، وعندما يحصلون على الإذن يعودون في الوقت المحدد بالتمام.

وكانت اللوحات المكتوب عليها: "أيها المواطن! استخدم البضاعة المحلية" معلقة في الطرقات والشوارع. ولهذا فإن كل المواطنين كانوا يشترون من البضاعة المحلية بالرغم من أن الصناعة لم تكن قد اكتملت بعد. فالمنتجات في ذلك الوقت لم تكن بنفس الجودة الموجودة بها حاليًا، وخاصة القماش الرجالي كان سميكًا وقاسيًا؛ لأنه كان يُصنع من الصوف المحلي.

وبالرغم من ذلك كان الجميع يرتدون الألبسة المصنوعة من القماش المحلي عن حب و طواعية، لقد كان استخدام البضاعة المحلية وسيلة للفخر. وكان هناك القليل أيضًا ممَنْ يستخدمون البضاعة الأجنبية، وكان الجميع يعيبونهم على ذلك.

أما في وقتنا الحالي فبالرغم من أن منتجاتنا المحلية على درجة عالية جدًّا من الجودة، إلا أنها مع الأسف لا تلقى رغبة من الأهالي بسبب تأثير الدعاية الخارجية، أو بسبب السقوط والتدهور الوطني والديني والروحي لشعبنا في الوقت الحالي. يا للأسف أن المنتجات الأجنبية مع ما فيها من أخطاء وفساد تُشترى وتُباع مقابل أموال باهظة.

من ناحية أخرى لم يكن هناك في تلك الفترة إسراف أو تبذير، فكل واحد كان يقيس ميزانيته على حسب دخله، حتى إن الموظفين كانوا يشترون الملابس والصابون والزيت والأشياء الأخرى على حسب درجاتهم، فالموظف الذي يتقاضى راتبًا

ضعيفًا لا يشتري البضائع التي يشتريها الموظف الذي يتقاضى راتبًا كبيرًا، ولا يأكل من مأكله ولا يشرب من مشربه، ولكنهم مع هذا كانوا جميعًا سعداء وفي رفاهية.

لم يكن موجودًا حينئذ ولو واحد بالمائة من الحرص والتسابق والتنافس الموجود حاليًا، ولو رأى هؤلاء الناس في الماضي الأنانية وحب النفس الموجود في الوقت الحالي لتحجرت ألسنتهم ولمَاَ استطاعوا أن يقولوا كلمة واحدة.

ولأنهم كانوا يعيشون حياة خالية من المادية فقد كانوا بعيدين عن الأمراض النفسية ولم تُرَ بينهم اضطرابات روحية. حتى الطوائف التي كنا نطلق عليها العوام كانوا يتحدثون فيما بينهم بلهجة مهذبة، لا يمكن وصفها. - ليتهم كانوا على قيد الحياة حتى يشاهدوا التصرفات الغليظة الخشنة الجامدة لأناس يومنا، ويعلّموهم الظرافة والأدب وحسن المعاشرة - حتى البستانيون الذين كانوا يعملون في الحدائق في القصور وفي المنازل كانوا يرتبون وينظمون حدائقهم على الذوق السليم، وكانوا يتحملون تنظيم الأمور التي تجري خارج المنزل.

والحرفي أو البائع الذي يبيع بضاعة ما، لا يحزن لأن المشتري تركه واشترى من البائع الآخر، بل على العكس كان يشعر بارتياح نفسي؛ لأنهم كانوا يعيشون حياة بعيدة عن الحرص.

لقد كان الناس يحب بعضهم بعضًا حبًّا صادقًا من القلب وليس حب رياء.

وكان معظم أصحاب القصور من الناس المعتبرين ومن أصحاب السجايا، فقد كان الجميع ثريًّا كان أم فقيرًا يستفيد من تلك القصور، حيث كان يوجد رجل البيت في قسم الـ«سَلامْلِكْ» وسيدة البيت في قسم الـ«حَرَمْلِكْ» حيث يضيفون الضيوف دون تفريق بين غني أو فقير.

كان هناك وقت محدد لدخول وخروج الضيوف.

لقد كان كل شخص يفكر في مصلحة ومنفعة جاره وأقاربه قبل التفكير في نفسه، وكان القناعة رأس مالهم فكانوا يحرصون على المكسب الحلال بخلاف ما

يفعله بعض الناس اليوم من جمع المال حلالا كان أو حراما. وكان الرجل في حياة أسرته يدعو زوجته بالألقاب التي توقرها وتحمل معاني اللطف، ويظهر شفقة ورحمة تليق به، وكانوا يبذلون الجهد والسعي في تنفيذ أوامر الله بدون أي تقصير.

وكانت الزوجة أيضًا تحترم زوجها جدًّا، ولا تعترض على الأشياء التي يبديها، بل تعاونه في كل الأمور، ولا تصر على شراء الأشياء التي لا يستطيع أن يشتريها. ولهذا لم تحدث أزمة أو انفتاح في ميزانياتهم، كانوا يقضون حياتهم بشكل بهيج سعيد دون تفكير في الأزمات المالية. وكان الملبس ومحتويات المنزل تستخدم بعناية، فلا تُلقى مباشرة بحجة أنها قديمة، لم يكونوا يسعون وراء موضة التغيير.لقد كانت السعادة عندهم ليست في جمع المال الكثير بل في راحة البال.

وكان من المشهور المثل السائر القائل: "الأنثى من الطيور هي التي تجعل بيتها جنة" وكما أن الأمهات كن غير معتادات على الإسراف، فإنهن قمن بتربية وتعويد أبنائهن أيضًا على ذلك.

كان الآباء يضعون الأموال في جيوب الصغار الذين حصلوا على هذا الشعور، ولكنهم كانوا يلقنونهم عدم الإسراف أو التبذير، أو شراء ما لا ينفع، ويحضونهم على مساعدة الفقراء ما أمكنهم ذلك، وبذلك يعوّدون الأطفال على حب الغير والإنفاق.

كان هناك خوف شديد من حقوق الغير ومن الدين. فقد كان المدين يرضى حتى بالجوع في سبيل أداء دينه في ميعاده. ولأنهم كانوا يتميزون بتلك الأخلاق فإنه كان لكل شخص القدرة على الاقتراض في أية لحظة، لأنهم كانوا أهل الصدق والاستقامة.

وكانت المرأة مكلفة بشؤون المنزل وتربية الأطفال كربة البيت؛ أما الرجل فكان مشغولا بالأعمال الخارجية، وتأمين احتياجات المنزل.

والطفل الذي يتربى على تلك التربية الحسنة، لا يكون في شبابه عاصيًا، بل يكون عنصرًا وركنًا محبوبًا في المجتمع يكتسب تقدير الجميع.

كانوا يحترمون معلمي القرآن والعلومِ الدينية والشيوخَ. وكانوا يعظمونهم أكثر من غيرهم.

لم يكن الطعام يشغل الأذهان كما هو الوضع في الوقت الحالي. فأي طعام يُوضع أمام الشخص يأكل منه ويشكر الله، حتى إذا أكل الخبز الجاف فإنه يأكله وهو سعيد، ولا ينسى دعاء الحمد والشكر بعد الفراغ من الأكل. وبالرغم من أن والدنا كان صاحب ثروة إلا أننا لم نكن نأكل اللحم إلا قليلا، وما كنا نشتكي عن ذلك. لم يكن آنذاك رغبة إلى اللحم مثل يومنا هذا. كان نادرًا ما يصادفون أمراض القلب والمعدة والمثانة والأمراض الروحية.

فقد كان في كل حي طبيب واحد فقط، وكان يكفي الحي، ولأن الناس كانت تقيم الصلاة وتأكل قليلا وتمشي كثيرًا، فلم يكن هناك أمراض الروماتيزم وغيرها من الأمراض الموجودة حاليًا.

كان يوم الجمعة هو يوم الإجازة الأسبوعية، كانت تُغلق فيه كافة المؤسسات الخاصة والعامة والمدارس. فالبعض كان يستريح في ذلك اليوم، والبعض الآخر كان يتجول ويتنزه، حيث كانوا يرجحون الأماكن ذات الحدائق أو الغابات. والبعض كان ينشغل في ذلك اليوم بأعمال صيانة المنزل أو قضاء أية مصلحة للبيت. كان كافة الناس يلبسون الملابس الجديدة ويذهبون إلى صلاة الجمعة، وكان مسجد أيوب سلطان خاصة يزدحم كثيرًا بالناس، كانت الخطبة قصيرة، وكان الناس يؤدون ١٠ ركعات بعد الفريضة بطمأنينة وخشوع، ولا يفعلون في السجود كما تنقر الدجاجة. فقد كان الأئمة في غاية الدقة وفي منتهى الاحترام في هذا الموضوع. فقد كانوا جميعًا يعرفون السبب والمقصد من الصلاة.

كان هناك حب للزهور، فكل شخص كان يزرع الزهور بنفسه ويربيها، ولأن الدولة كانت قد نهضت حديثًا من تحت الاحتلال، فإننا لم نجد حتى الإناء الذي نقوم بزراعة الزهور فيه بسبب الفقر، إلا أننا كنا نستفيد من بعض العبوات

للمعلبات ونزرع فيها، وكانت تلك الزهور التي تزرع تداعب الروح بألوانها وتُشم رائحتها الذكية.

كانت النسوة الأصيلات في تلك الفترات تستخدم ماء الورد، بدلا من تلك الأسنسات والعطور والكريمات المسممة التي تعمل على أذية الجلد، ولهذا كانت جلود النسوة اللاتي في السبعين أو الثمانين غاية في النضارة والنورانية. أما النسوة في زماننا هذا فإننا نجدهن فقدن نور الوجوه لسببين؛ الأول: حرمانهن من نور العبادة، والثاني: نتيجة لفقدان نضارة جلودهن في سن الشباب بسبب الكريمات وغيرها من مستحضرات التجميل.

كان الناس ينتظرون شهر رمضان الكريم على شوق، وإذا ما بلغوا رمضان فإنهم كانوا يصومون بمتعة كبيرة. كانت المساجد تمتلئ عن آخرها في صلاة التراويح. وكان غير المسلمين يحترمون المسلمين فيأكلون خفية.

لم يكن هناك تلك الاحتفالات التي تقام في رأس السنة الميلادية من قطع لأشجار الغابات، وتزيين للموائد بالديوك الرومية كما هي العادة عند النصارى.

حتى الطُرَف التي تحكى كانت طُرَفًا لطيفة ذات مغذى رقيق، وليست مثل الموجودة حاليًا من التي تكسر القلوب والخاطر وتحمل الفظاظة. وفي مجالسهم كانوا يشربون ماء الورد الحلو، والشاي، والقهوة، والعصائر، ويحكون في تلك المجالس المناقب التاريخية التي تعطي العِبر، كما كان بعض الأشخاص ذوي الصلاحية يلقون الشعر.

لم يكن هناك سوء أدب ووجه عابس أو قلة احترام، بل كان كل الناس في بهجة وسعادة، وكانوا يحترمون أيام العيد، فالكل يتزاور في تلك الأيام المباركة، حيث يقرؤون القرآن الكريم والمولد النبوي الشريف، وبذلك كانت العديد من المنازل والقصور تأخذ نصيبها من هذه النفحات الربانية.

كان الجميع يتهادون، وكانوا يطيبون قلوب الضيوف بالإكرام والعزة، كما كانوا يعتبرون التحدث بصوت مرتفع أمام الشخصيات الكبيرة ذات الاعتبار عيبًا وعدم



لطف. ولأن الأطفال كانوا على تربية واضحة فإنهم كانوا لا يجلسون في الصدارة في مجالس الكبار.

وكما أننا لن نستطيع أن نصف طعم العسل لمن لا يذوقونه، فإننا لن نستطيع أن نصور الحياة في تلك الأيام لِمَنْ لا يعرفونها، والخلاصة أن الحياة في تلك الأيام كانت عبارة عن عالم رباني لا يمكن حتى تخيّله.

مقارنة بسيطة بين الجيل العثماني والجيل الجديد:

يجب علينا هنا أن نقول: إن الغربيين قديمًا كانوا في حال حرب مستمرة مع الدولة العثمانية التي كانت تُعد الخصم الأول للعالم النصراني، كما هو الحال اليوم، وبالرغم من هذا وجدنا بعضًا منهم كالرحالة والدبلوماسيين وأحيانًا رجال الدولة يترنمون بالتقدير والاحترام في الوقت نفسه بالآداب والأخلاق العثمانية وتفوقهم في النظم والعدالة، حتى وإن كان ذلك بهدف إيقاظ أبناء جلدتهم. ولعل هذا مما يحمل لنا كثيرًا من العِبر في الوقت الحالي. إن تخلفنا في الناحية المادية مع ما ضيعناه من المزايا القيمة معنويا لا تظهر وضوحا تاما إلا من خلال تلك الاعترافات التي أدلى بها الغربيون عنا.

يقول «أدموند دي أميكس» الذي شاهد وعاين تلك الحقيقة:

"...ويتفق العالم كله على أن الأتراك الحاليين ليسوا كأجدادهم. وذلك لأن الجيل الحالي أصبح يستخدم أقمشتنا ويأخذ بأسباب راحتنا النفسية، وأخطائنا وعيوبنا، بدلا من الأخذ بأسباب التقدم التقني والحضاري. ولن يتمكنوا من ذلك؛ لأنهم لم يهضموا بشكل تام أفكارنا وأحاسيسنا. فإن هناك حقيقة واقعة وهي أنهم فقدوا كل الجوانب الطيبة للسجية التركية العثمانية. والذي حصلوا عليه من الغرب لم ينفعهم شيئا سوى إخراج الجم الغفير من الموظفين الكسالى، الفاشلين، الجاحدين، المغرمين بالمال، المقلدين للغرب، الأعداءِ لكل القيم الدينية والقومية، ذوي النفوس الضعيفة؛ وإخراج طائفة من شباب لا يبلغون شراك نعل أجدادهم،

يتميزون بالوقاحة وقلة الحياء والأخلاق، لا يهتمون إلا بالمظهر الخارجي وبالأناقة.

❁

يا أبناء الفاتحين! بعد أن سردنا عليكم وشرحنا لكم تلك الأمثلة من آلاف الأمثلة المشابهة لها، عليكم بعدها أن تدركوا كما ينبغي من أين أتينا وإلى أين نسير؟ يجب أن تدركوا كيف فقدنا وطنًا يمتد لمساحة ٢٤ مليون كم٢؟ وبعدها علينا أن نسير بعزم وجهد كبيرين في الطريق المؤدي إلى الحصول على مزايا أجدادنا التي كانت تحير حتى الأعداء.

اللهم اجعل لنا نصيبًا من الأخلاق السامية التي اقتبسها أجدادنا من النبي ﷺ!

آمين!...

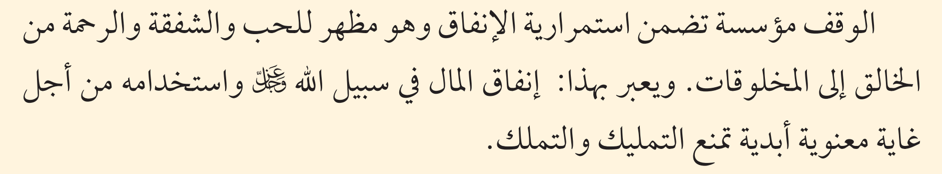




أحد أُسُس السلام والطمأنينة في المجتمع العثماني



الوقف



الوقف مؤسسة تضمن استمرارية الإنفاق وهو مظهر للحب والشفقة والرحمة من الخالق إلى المخلوقات. ويعبر بهذا: إنفاق المال في سبيل الله ﷻ واستخدامه من أجل غاية معنوية أبدية تمنع التمليك والتملك.

وقد بدأ الوقف أول ما بدأ في التاريخ في الأماكن التي يتعبد فيها الناس، ثم توسع بعد ذلك ليدخل فيه العديد من الساحات الاجتماعية الأخرى.

وتذكر الرواية أن «إبراهيم عليه السلام» كان قد خشع أمام جبريل عليه السلام لما ذكر لفظ الجلالة أمامه ثلاث مرات متتالية، فقام «إبراهيم عليه السلام» بوهب جميع قطعانه لله، فباعها كلها، واشترى أرضًا فسيحة قدمها لخدمة المسلمين، وبذلك يكون الوقف قد بدأ بسيدنا «إبراهيم عليه السلام».

وقد عرض النبي ﷺ في حياته النماذج الفعلية للوقف، فكما هو معلوم أن النبي ﷺ كان أسوة حسنة لكل أمته في كل الساحات. وقد أوقف النبي ﷺ سبع حدائق نخيل في المدينة المنورة، وأوقف بعدها حصته من مزارع نخيل «خيبر» و«فَـــدَكْ». وقد تبعه في



ذلك الصحابة الكرام رضوان الله عليهم؛ حيث أوقفوا أموالهم وأملاكهم بما لديهم من إمكانات. يقول «جابر» ﷺ: "ليس من أصحاب النبي أحد إلا و أوقف".

وهذا «عمر بن الخطاب» ﷺ وقع في نصيبه من غنائم «خيبر» حديقة نخيل جميلة للغاية، لكنه رأى في منامه أنه ينفقها في ثلاثة أيام، فذهب إلى الرسول ﷺ وقال له:

"أصبت أرضاً لم أصب مالاً قط أنفس منه، فكيف تأمرني به؟".

فقال له الرسول ﷺ : «**إِنْ شِئْتَ حَبَّسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا**» .

ولهذا أوقف «عمر» هذه الحديقة التي يمتلكها على المجاهدين في سبيل الله، وعلى العبيد الذين يريدون العتق من الأسر، وعلى أبناء السبيل، وكل أصحاب الحاجة. (البخاري، الوصايا، ٢٢/ ٢٧٧٢)

❀

أما بالنسبة للعثمانيين -الذين أظهروا حساسية ودراية كبيرة في تعقب نهج النبي ﷺ والطريق الذي سار عليه صحابته الكرام- فإنهم قدموا خدمات كبيرة جداً في مجال الوقف. ولا شك أن أكبر تطور في الأوقاف إنما كان في عهد العثمانيين. فالوقف مؤسسة للوفاء، تقدم الأموال التي اكتسب بوسيلة الناس لاستفادتهم وخدمتهم من جديد. فليس مؤسسة تهدف اكتساب المال وادخار الثروة بمفهوم مصلحي، بل إنه أثر تولد من قلوب تقدم الرحمة والإنسانية على كل شيء.

وقد اتخذ العثمانيون الحديث الشريف: "**خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ**" دستورًا لهم، وأسسوا بواسطة الأوقاف ما لا يحصى من الآثار والأعمال العظيمة الباقية.

وخدمات الأوقاف في الدولة العثمانية، إنما هي كثيرة ومتنوعة. وإظهار التنوع في تلك الأوقاف من حيث الزمان والمكان والميول بما يتفق مع هدف خدمة المجتمع، إنما هو دليل على أن نظام تلك الأوقاف كان في بناء ديناميكي وليس نظامًا إحصائيًّا عقيمًا.

وبالرغم من أنه لا يمكن إحصاء أنواع الأوقاف في الدولة العثمانية وساحات خدماتها بشكل تام، إلا أنه يمكننا ذكر بعض الأمثلة المهمة حتى نتمكن من أخذ فكرة شاملة عن تلك الأنواع والخدمات:

- إنشاء وترميم الجوامع والمساجد والزوايا والتكايا،
- بناء المؤسسات العلمية كالمدارس ودور الحفظ ودور الحديث،
- خدمات المطاعم الخيرية والحمامات والنزل والخانات ودور الشفا،
- المصليات والمكتبات والدكاكين ودور الضيافة،
- الآبار وقنوات المياه والجسور والأسبلة،
- الخانات والحمامات والأضرحة والمرافئ،
- منارة الملاحين، ميادين للمصارعة و رمى السهام،
- ملاجئ الأيتام ودور حضانات الأطفال،
- فك أسر العبيد والأسرى،
- تأمين الحطب للفقراء،
- شراء أقداح وأكواب جديدة بدلا من الأكواب التي يكسرها الخدم، وذلك حتى لا يغضب منهم سادتهم،
- تأدية الديون عن الغارمين المسجونين،
- تربية الخيول للغزاة،
- غرس الأشجار،
- تسهيل الطرق على الجبال،
- مساعدة اليتيمات في تجهيز العرس،
- تأدية الديون عن المدينين،
- مساعدة النساء الأرامل والمحتاجات،

- ترفيه الأطفال وملاعبتهم،
- تقديم المساعدات الغذائية للأطفال في المدراس،
- التكفل بجنازات الفقراء، ومن ليس لهم أقارب،
- إسعاد الفقراء والأطفال في الأعياد،
- تقديم المساعدات العسكرية للقلعات والمعسكرات،
- حماية النساء العجائز، ومن ليس لهن أقارب،
- تغذية الطيور في فصل الشتاء، العناية بطيوراللقلق التي لم تستطع الهجرة ومداواتهم،

وهناك أوقاف للمقاصد الخيرية الكثيرة التي يطول الذكر عنها هنا.

علاوة على ما ذكر من الأوقاف تأسست آلاف الأوقاف من أجل مكة المكرمة والمدينة المنورة. كان يطلق عليها بشكل عام «أوقاف الحرمين»، ويمكن رؤية هذا النوع من الأوقاف في كل أرجاء الدولة العثمانية من وسط أوروبا وحتى اليمن. وذلك من أجل تحقيق الرفاهية والاطمئنان والسلام الاجتماعي في تلك الأراضي المباركة التي لم يكن بها النفط في ذلك الوقت كما هو في الوقت الحاضر.

وقد تأسست إدارة مستقلة لكل واحدة منها. وعلاوة على دخل تلك الأوقاف كان السلاطين العثمانيون يرسلون الهدايا والأموال للحرمين والمجاورين أثناء إرسال أستار الكعبة التي كانت تنسج في إستانبول. وقد استمر هذا التقليد المسمى (موكب الصرة) حتى نهايات الدولة العثمانية.[١]

---

١. هذه الهدايا المرسلة قد كثرت داخل الحرمين. ان فخرالدين باشا الذي اشتهر بدفاعه عن المدية المنورة. وهذا الباشا قام بإرسال الهدايا الموجودة في حرم المدينة في الصناديق كي يمنع نهبها. بلغ عدد الصناديق المرسلة الى إستانبول أكثر من ثلاثمائة صندوق، وهذه الواقعة تعطينا فكرة حول عظمة الهدايا المهداة من قبل العثمانيين إلى حرم المدينة المنورة.



هذا هو نظام الوقف الذي جعل «قسطنتنابول» بعد فتحها ببشارة رسول الله ﷺ «إسلام بول». وهكذا بقى اسمها القديم في طيات التاريخ وحملت أسماء أخرى منها «در سعادت» و«باي تخت» و«آستانة» وعاشت إلى الوقت الحاضر.[٢]

وقد قامت خدمات كثيرة في مكة والمدينة على تلك الأوقاف التي أسسها المحبون للخير ورجال الدولة وعلى رأسهم السلاطين العثمانيون، وهذا جعلهم محل شكر وتقدير كل المسلمين.

وقد علّمنا الإسلام أن الدنيا دار استعداد للآخرة، والآخرة استمرار لهذه الدنيا، ولذلك فقد أسس الإسلام أجمل وأكمل توازن بين العالمين من ناحيتي الروح والبدن، والمادة والمعنى. وبذلك شكّل الإسلام أرضية ثابتة للغاية لمجتمع مطمئن مرفّه ومتناغم.

والأوقاف التي انتشرت في مساحات شاسعة وقدمت الخدمات، تُعد أجمل مؤسسات إنفاقية. والوقف بذلك يُعتبر أكمل شكل ومظهر للرحمة والشفقة التي هي شعار للإسلام تجاه كل المخلوقات من أجل الخالق. والوقف مسئولية حمّلها الإسلام للمسلم تجاه كل المخلوقات.

وقد أُمرنا في القرآن الكريم بأن ننفق مما نحب حتى يكتمل إيماننا ونتمكن من الوصول إلى الرضاء الإلهي. ففي هذا الأمر حِكَم كثيرة، وتوضيح أهمها ما يلي:

أهم وأغلى ما يملكه الإنسان في هذه الدنيا هو المال والروح، ويمكن بإنفاقهما في سبيل الله ﷻ دخول الجنة، والحصول على رضاء الله ﷻ. ولهذا أُطلق على كل من يبذل ماله وروحه، أي كل ما يملكه بسخاء في سبيل الله ﷻ، (إنسان الوقف). وهؤلاء يسعون لنيل رضاء الله ﷻ بتقديم ما لديهم من المال والروح لاستفادة العاجزين من الناس.

---

٢. إسلام بول: كثير الإسلام؛ در سعادت: دار السعادة؛ باي تخت: عاصمة؛ آستانة: مركز السلطنة.

إن الطمأنينة والسكون في المجتمعات إنما يستمران عن طريق أمثال هــؤلاء. إن شرف المجتمع وصيتَه مقدر بقدر أعمارهم غالبًا. من الضروري أن نلتقي بهذه البنية من جديد بأن نكسب أرواحنا عمقا في ظل الحقائق المعنوية.

ويأتي على أعلى قمّة رجال الوقف: الأنبياء ثم الأولياء ثم من تربوا على أيديهم من الواصلين. فهم قد حملوا هذه الثورة الإيمانية التي في قلوبهم إلى أنحاء العالم، وملأوا بأعمالهم صفحات التاريخ الذهبية.

المرشدون الكاملون عند العثمانيين كانوا بفيضهم وروحانيتهم وسيلة للهداية. والتكايا في الحياة الاجتماعية العثمانية كانت كل واحدة منها عبارة عن مؤسسة للتربية المعنوية المنتشرة إلى حد ما في المجتمع. فكانت كل واحدة منها بمثابة المركز الذي يلقن الثقافة شفهيًّا للأهالي، ويكسبهم النضوج الأخلاقي.

وهذا في الغالب كان يتحقق عن طريق الأوقاف التي هي نتيجة لجهود الناس الدينية إضافة إلى سعي الدولة. فكان الإيثار والحساسية والرقة القلبية والظرافة بمثابة الطبيعة الأصلية في الأفراد. فالذين تخطوا مانعة النفس كانوا يوزعون الرحمة إلى أنحاء الدولة بإرشاداتهم وخدماتهم المعنوية؛ فكانوا بمثابة الأمطار الربيعية المباركة.

إن هذه المؤسسات التي أسسها أجدادنا العظماء ما تزال باقية كواحدة من المؤسسات الأساسية في الوقت الحالي، إن الجوامع والأسبلة والمعسكرات والمستشفيات، بل حتى المياه التي نشربها، والكثير من الخدمات الخيرية الأخرى التي لا نستطيع حصرها إنما هي في الحقيقة أمانات وذكريات عزيزة باقية لنا إلى اليوم من تلك المؤسسات.

وهؤلاء العثمانيون الذين حكموا قسمًا كبيرًا من جغرافية العالم، ووجهوا الأحداث التاريخية من حيث يريدون، عملوا على توفير الطمأنينة والرفاهية في مجتمعاتهم بواسطة الأوقاف. وجعلوا كل فرد في المجتمع، الفقير والغني، القوي



والضعيف، يعيش في مناخ من الأخوة الروحانية. وتمكن المجتمع العثماني في وقته بفضل ثقافة الوقف الثرية هذه من بلوغ قمة "العدالة الاجتماعية" التي تنشدها وتتمناها الأمم في الوقت الحالي. ولهذا لم يكن فن "الرواية" موجودًا في الأدب العثماني حتى عهد انهيار الدولة.

ويوضح «جميل مريج» – رحمه الله– بتعبير رائع عن سبب تأخير ظهور الرواية عند العثمانيين ويقول:

"لم يكن عندهم المأساة حتى يظهر«الرواية»"

وبالرغم من أن الغرب يدعي أن الرحمة كانت شعارًا عند النصرانية خلال القرون الوسطى، إلا أن الأوقاف لم تكن منتشرة عندهم بقدر ما هي منتشرة لدينا، ومعظم الموجود منها لديهم إنما تأسس بتحريض من السفراء والدبلوماسيين الأجانب الذين أقاموا في الدولة العثمانية، ويتضح هذا جليًّا من مذكرات هؤلاء الدبلوماسيين. ومذكرات السفير الفرنسي الشهير «بوسبرج» إنما هي نموذج واضح على تلك الأعمال التي تحتوي على اعترافات من هذا النوع.

ومن الخصائص المهمة التي كانت تُراعى في تطبيق الخدمات الخيرية التي تتم بواسطة الأوقاف في الدولة العثمانية، عدم معرفة المتبرع للمحتاج. وبفضل ذلك شعر أصحاب الخيرات بأنهم تخلصوا من علة النفاق، وكان لهم نصيب من الأدعية الغيبية المقبولة بإذن الله. ولأن هذه المساعدات كانت توزع بواسطة المساجد والتكايا، فقد كانت سببًا في تقوية العالم الإيماني عند الناس.

لقد انتشر الوقف بشكل كبير في الدولة العثمانية، ولم يقتصر انتشاره على البشر فقط كما أوضحنا فيما سبق، بل انتشر ليشمل أيضًا الدواب والنبات، لقد أسس العثمانيون المراكز العلاجية لعلاج الطيور الجريحة، والدواب المريضة، والطيور التي لا تستطيع الطيران أثناء هجرتها، حتى تهاجر، وكان يتم الإنفاق على تلك المراكز من الأوقاف التي تأسست لهذا الهدف.

وبالرغم من أن العدد الحقيقي للأوقاف في الدولة العثمانية مجهول، إلا أن الثابت أنها بلغت ٢٦ ألف وقف، وهذا يعبر أجمل تعبير عن مدى حب أجدادنا لتأسيس الأوقاف. ألقد استمر الدور الذي قدمته الأوقاف حتى في أكثر العهود تعرضًا للمصائب الداخلية والخارجية، وأصبح مرهما شافيا لجروح المجتمع. لقد أصبحت الأوقاف في تلك الظروف الطارئة الحساسة بمثابة ملجأ الشفقة والرحمة المفتوح للمساكين والمستضعفين والأبرياء في المجتمع.

ورد في وقفية السلطان الفاتح:

"أنا العبد العاجز السلطان محمد الفاتح، فاتح إستانبول، أوقفت وقفًا صحيحًا بالشروط التالية: عدد ١٣٦ حانوتًا معلومة الحدود، وواقعة في «طاشْلِقْ» بإستانبول، كنت قد اشتريتها بمالي الخاص الذي اكتسبته من عرق جبيني؛ عيّنت شخصين على كل شارع في إستانبول بالمال الذي يتحصل من غير المنقول المذكور، على أن يتجول المذكوران في الشارع في أوقات معلومة من اليوم، ويكون في يد كل واحد وعاء فيه جص ورماد يضعان منه لإزالة أثر البصاق، وليأخذ كل واحد منهما ٢٠ أقجه يوميًّا. كما عينت ١٠ جراحين، و١٠ أطباء، و٣ مجبرين، حيث يخرجون هم أيضًا إلى شوارع إستانبول في الأوقات المحددة، ويطرقون كل الأبواب، ويسألون هل يوجد عندهم مريض أم لا، وإذا كان هناك مريض فليقوموا بتطبيبه، أويذهبون به إلى دار العجزة مباشرة، دون انتظار أي مقابل.

وإذا حدث، لا قدر الله، أية أزمة في المواد الغذائية، فليتم إعطاء أهل الأرباب ١٠٠ سلاح تركتها لمواجهة هذا، وليخرجوا إلى غابات البلقان، وليصطادوا الحيوانات الوحشية في غير وقت التبييض والولادة. وليأكل فقراء إستانبول وأسر الشهداء في المطعم الخيري أسسته في كليتي، بشرط ألا يخرج المذكورون بأنفسهم للحصول على الطعام المذكور، بل يُجلب الطعام إليهم في أوعية مغلقة دون أن يرى أي شخص الطعام وهو ذاهب إليهم، أي يتم الذهاب إليهم بالطعام في ظلمة الليل".

لقد أسس «الفاتح» – وكما رأينا – قواعد بمقاييس آداب حساسة للغاية لصالح أفراد المجتمع المحتاجين وذلك لحماية وصيانة المجتمع، بل حتى رأيناه ويتخذ التدابير تجاه الأفعال المكروهة مثل البصاق في الطريق، وفي الوقت الذي يأمر فيه بإطعام المرضى لحوم دواب الصيد، إلا أنه يؤسس توازنًا بيئيًّا بتحريمه صيد الدواب التي لديها مولود أو بيض، فإلى جانب رحمته وشفقته على أمته، نجده يراعي أيضًا حقوق الحيوان.

وإذا ما رأينا تصرف «الفاتح» هذا الذي صنعه قبل خمسمائة عام أو يزيد، سيتضح لنا أن ما صنعه يمثل عبرة وعظة لنا في الوقت الحالي الذي يحيط به فساد التوازن البيئي والتلوث البيئي الذي يعمل على إظلام مستقبل الأرض.

أما بخصوص أمره بتوزيع الطعام على أسر الشهداء في ظلمة الليل وفي أوعية غير مكشوفة لصيانة كرامتهم وعزة نفوسهم، فإنما يمثل نموذجًا للوفاء لا يمكن الوصول إليه في الوقت الحالي، إنه يمثل مبادئ سامية ونافعة للأجيال القادمة.

❁

الأوقاف التي تحيط المجتمع كشبكة رحمة هي مناظر السعادة والطمأنينة المقدمة إلى الإنسانية على يد أناس أخرجهم المسلمون من بينهم وربّوهم.

والمعلومات التالية التي أوردها «أوليا جلبي» عطفًا على وقفية «صوقولو محمد باشا»، فيما يخص المضيف تُظهر إلى أي مدى كانت ذات عبرة وعظة:

"إذا ما حل ضيف في وسط الليل، فلتفتحوا له الباب ولتدخلوه، ولتكرموه بالطعام الموجود، ولا تتركوا أحدا يخرج من الخان إلى الخارج في الليل حتى لو انهدمت الدنيا. وإذا ما حل وقت الرحيل في الصباح، ليقم مسئولو الخان بالنداء في الخان: "يا أمة محمد! هل أموالكم وأرواحكم وخيولكم وملابسكم تامة؟ هل لكم حاجة؟" وإذا رد المسافرون قائلين: "كل شيء تمام، رحم الله صاحب الخير." يقوم مسئولو الخان بفتح الأبواب وقت الشفق ويقولون: "ولكن انتبهوا، لا

تضيعوا بساطكم، ولا تتخذوا من لا تعرفونه صديقًا في الطريق، سيروا على بركة الله وتيسيره"، وبذلك يودعونهم بعد هذا الدعاء وتلك النصيحة.

وهذه الأسطر المأخوذة من وقفية نقيب الأشراف «أسعد أفندي» تُبرز العمق الروحي للمؤمن:

"ليتم تأمين الحطب والفحم والاحتياجات الأخرى للعاجزين الذين لا يقدرون على العمل بسبب المرض، أو الفقراء أو المسنين الذين يعيشون في الأماكن التي لا يلتفت إليها أهل الخير من رجال الدولة، وليتم شراء تجهيزات العرس لفقراء الفتيات، أو اللائي ليس لهن من يعولهن، إذا ما وصلن إلى سن الزواج".

والمقتطفات التالية التي أخذها الرحالة الغربي «هونكه» من رسالة كتبها شاب كان يرقد مريضًا في إحدى المستشفيات الإسلامية، تعد أجمل نموذج على رعاية الأوقاف للفقراء:

"والدي العزيز، تسألني هل أحتاج للمال أم لا، فأقول لك: إن المستشفى سيعطيني ملابس جديدة، وخمس قطع ذهبية، حتى لا أضطر للعمل مباشرة بعد خروجي من المستشفى، ولهذا لا داعي لأن تبيع شيئًا من القطيع. إنني لا أرغب في ترك هذا المكان، فالأَسِرَّة ناعمة، والملاءات ناصعة البياض، والبطانيات مثل المخمل، وبكل غرفة سبيل، وفي الليالي الباردة يتم تدفئة كل الغرف، والذين يقومون بعلاجنا أناس في قلوبهم رحمة وشفقة، والذي تقدر معدته على الهضم يعطونه كل يوم من لحوم الغنم والدجاج المشوية. تعال إلى هنا قبل أن تشوى لي الدجاجة الأخيرة فلنأكل معًا."

واللافت للانتباه أيضًا أن ١٤٠٠ وقف - من جملة ٢٦,٣٠٠ - وقف أسست في العهد العثماني كانت من أوقاف النساء.

ومن هؤلاء «نوربانو والده سلطان» التي أمرت ببناء العديد من الأبنية الخيرية في ضفتي مدينة إستانبول، أي في الروملي والأناضول، ومن جملة تلك الآثار الخيرية



الجديرة بالذكر «جامع عتيق والده» الموجود بحي «طوب طاشي» بـ«أسكدار» ومطعمها، ومدرستها، ودار الشفاء، والحمام المزدوج.

ومن هؤلاء أيضًا «مَاهْـبَـيْكَرْ كوسَمْ سلطان» فهي التي وضعت أساس جامع «يَـنِى جامع» وأسست في «أسكدار» أيضًا جامع «جِـيـنِلِي جامع» وأسست بجواره مدرسة وسبيلًا ودارًا للحديث وحمامًا مزدوجًا. كما أسست جامعًا في منطقة «أناضولي قواغي»، ولها وقف مشهور مهمته رعاية الفتيات اليتيمات و تزويجهن، فضلا عن الكثير من الأوقاف الخيرية.

واللافت للانتباه هنا أن «كَوسَمْ سلطان» رغم أنها كانت مشهورة بجلالها بين أمهات السلاطين إلا أن الرحمة والشفقة كانا بمثابة الطبيعة الأصلية عندها.

وبالرغم من أن « كَوسَمْ سلطان» كان لها شرف وضع حجر الأساس لـ«يَـنِى جامع» في إستانبول، إلا أنها توفيت قبل إتمام بنائه، أما شرف إتمامه وافتتاحه فكان مقدَّرًا لـ«خديجة طورخان سلطان» وبخلاف هذا كان لها أيضًا صنائع معروفة في إقامة المدارس والمطاعم الخيرية والمدارس والأسبلة وغيرها، وما يلفت الانتباه في وقفيتها لـ«يَـنِى جامع» انصباب شراب العسل من الأسبلة في ليالي رمضان وفي ليلة الإسراء والمعراج؛ ليتم توزيعه على جماعات المصلين. حتى إنها سجلت في الوقفية ضرورة كون العسل جيدًا، فكان العسل المذكور يُجلب من «أتينا» – وهي باسمها الجديد بازار، تابعة لمدينة ريزه في منطقة البحر الأسود – وكان من أجود العسل في ذلك الوقت. والتفصيل في الوقفية فيما يخص جودة العسل كالتالى: "يجب أن يكون العسل من «أتينا» مهما بلغ ثمنه، لا يجوز أن يكون مما سواها، ويخصص لكل باب من أبواب المسجد ٣٣ أوقية من العسل لشراب العسل، ويجب تأمين ٣٠,٠٠٠ أوقية من العسل سنويًا.

وقد أوقفت «خديجة طورخان سلطان» من ثروتها مصادر دخل كثيرة جدًّا في

سبيل استمرار أوقافها، وعيّنت ١١٦ موظفًا من أجل إدارة تلك الأوقاف.

وهذه أيضًا «بَـرْتَوْنِيالْ والده سلطان» التي أمرت بتأسيس «جامع الوالدة» في "آقسراي"، و«جامع يا ودود»، وكان لها أيضًا مكتبة وسبيل ومدرسة، وقد أسست لها أوقافًا.

أما «مهرماه سلطان» فقد أسست جامعًا باسمها في "أدرنة قابي"، وآخر في "أسكدار"، وبالرغم من الأوقاف العظيمة التي خلفتها، إلا أنها كانت ذات شخصية متواضعة للغاية، والمثال التالي يظهر ذلك بشكل جميل:

"كانت السيدة «زبيدة» زوجة «هارون الرشيد» قد أمرت بتأسيس قناة مائية تجلب الماء من بغداد إلى مكة وعرفات، إلا أن هذه القناة المائية كانت قد تعطلت بمرور الوقت، وشاعت الأخبار في عهد القانوني بذلك، وأن مصادر المياه قليلة لا تفي بالغرض، ولما علمت «مهرماه سلطان» بالأمر قالت لوالدها «السلطان القانوني» إنها تريد إحياء تلك القناة المائية، وطلبت منه أن يعين لهذا «المعماري سنان» وأن لا يفصح عن أثرها الخيري هذا لأحد، وأنفقت كل مجوهراتها وزينتها لهذا الغرض، وكان هذا هو السبب في اختفاء «المعماري سنان» لفترة، بعد أن وضع أسس مسجد السليمانية مباشرة، فقد ظن الناس أنه اختفى حتى يكمل توطيد أسس الجامع، ولكن السبب كان من أجل إتمام هذا الأمر الخيري الذي أرادت «مهرماه سلطان» أن يكون سرًّا".

ومن أشهر أمهات السلاطين من ناحية تأسيس الأعمال الخيرية أيضًا «بَزْمِ عَالَمْ والده سلطان» فقد كان لها العديد من الأوقاف الخيرية التي استمرت في التاريخ لعدة عصور، و«جامع والده» القريب من قصر "دولمه باغجه" من أكبر الجوامع التي أسستها، و"جسر غالطه" المشهور من أوقافها. وكان المرور عليه مجانا في بداية الأمر، وفي السنوات اللاحقة أصبح المرور بالأجرة لتأمين مصاريف الترميم.



ولها أيضًا وقف مهم للغاية أسسته في الشام، كان شرطه توزيع مياه الشرب العذبة على الحجاج، ودفع قيمة ما يكسره الخدم أو يتلفونه، حتى لا يتعرضوا للأذى.

ومن أكبر الخدمات الخيرية التي أسستها «بَزْمِ عَالَمْ والده سلطان» التي امتدت يدها بالخير إلى أبعد الأماكن، «مستشفى غرباء المسلمين» الذي أمرت بتأسيسه، وأوقفت له مبلغًا كبيرًا من ثروتها الشخصية، وقد افتتح هذا الوقف الكبير مع جامعها وسبيلها في عام ١٨٤٣م، والمستشفى المذكور منذ ذلك الوقت يوزع الأدوية على فقراء الأمة المحمدية.

لقد أسس أسلافنا المباركون هذه الأوقاف بالدعاء والتمني ليستمر عطاؤها إلى يوم القيامة، وقد كانت تلك الأوقاف تلبي الاحتياجات اللازمة للأهالي في يومهم وغدهم، كالجوامع والمدارس والمستشفيات والمعسكرات والأسبلة، والكثير منها لا يزال يعمل حتى الآن، وكل واحدة منها كانت صدقة جارية، ودليلا على عمق الإيمان في قلوب أسلافنا المباركين.



إن من الأشياء المهمة في الإنفاق في سبيل الله ﷻ أن يكون الإنفاق مما نحب، وأن نعطيه عن طيب نفس. فذات يوم اجتمع الصحابة الكرام في مسجد النبي ﷺ يستمعون إليه، فنزلت الآية الكريمة:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾. (آل عمران،٩٢). وعندما نزلت تلك الآية أنفق الصحابة الكرام جميعًا مما يحبون من الأشياء، فمنهم من تصدق ومنهم من أعتق عبدًا، ومنهم من أوقف.

هناك أنهار وجداول تنهمر منذ بدأ الخليقة بمياهها البراقة وأصواتها العذبة، وستظل تنهمر إلى يوم القيامة وهي تعطي الحياة للصدور المتعطشة، والأمل

والسعادة للقلوب المتألمة، والإلهام للأرواح العاشقة. ولهذا فإن الرسول ﷺ شبّه قسمًا من هذه الخيرات التي تكون في سبيل الله ﷻ بتلك الأنهار الجارية، إلا أن النهر الذي تحدث عنه الرسول ﷺ مختلف، وذلك لأن هذا النهر الذي تحدث عنه الرسول ﷺ لن ينهمر إلى يوم القيامة فحسب، بل سينهمر إلى الأبد، إنه نهر الخير الذي ينهمر دون توقف، ويجلب الأجر والدعاء للعبد، وكلما انهمر هذا النهر ملأ صحيفة أعمال صاحبه وحوض خيراته، إنه نهر سيغرقه في النور الأبدي، إنه نهر الصدقة الجارية.

وقد ورد في الحديث الشريف:

«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» (مسلم، الوصية، ١٤/ ١٦٣١)

وقد أوضح معظم علماء الإسلام أن المقصود بالصدقة الجارية هنا الوقف. والصدقة الجارية هي العمل الذي يقدم خدمة بصورة دائمة ابتغاء مرضاة الله. وهذا يكون بتأسيس مراكز العلم والعرفان، والطرق والجسور والمكتبات، وتقديم المنح للطلاب، أو تربية الأطفال الصالحين وجعلهم عناصر نافعة في المجتمع.

❀

والبركة الحقيقية للخيرات المُقدمة في سبيل الله ﷻ وابتغاء مرضاته، تكون على حسب النية والإخلاص. فالمهم أن يكون القلب على الإخلاص والتقوى، لأن الله تعالى يزكي حتى أصغر عمل خيري يتم في سبيله، ويبارك له أضعافاً وقد ورد في الآية الكريمة:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة،٢٦١)



وقال النبي ﷺ : **"مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لله كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ، أَوْ أَصْغَرَ، بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ"** (ابن ماجة، جـ١، ٢٤٢/ ٧٣٨).

لو لم يكن شعور الوقف لما تحقق فعاليات العلوم والعرفان والخير والحسنات والخدمات بهذا الشكل الكبير ولما ظهرت تلك الحضارة العالمية.

ومن أهم فوائد الأوقاف حماية أصحاب الثروة من الوقوع في السفه أو الإسراف. والغاية الأساسية لتأسيس الأوقاف هي اكتساب رضاء الله والوصول إلى السلامة في الآخرة. وقد تأسس الوقف على هذا المنوال، واستمر على نفس الشاكلة، وقد أُوجزت تلك الغاية في تعبير مختصر هو "التقرب إلى الله"، بل كانت شرطًا من شروط صحة الوقف.

ولهذا يجب التصرف بحساسية شديدة بخصوص الوقف، ورعاية تلك الأمانة أكثر من أي شيء آخر. وعلى مدار التاريخ تم الوقوف على هذا الموضوع بحساسية شديدة، لدرجة أنه إذا ما حصل الإخلال بتلك الأمانة، فإن العواقب تكون مؤلمة. ومن ذلك ناقة صالح التي كانت معجزة له، لم تكن تلك الناقة خاصة بأحد، بل كانت أمانة من الله للناس ليستفيدوا بها بواسطة نبيه صالح، وكانت نوعًا من المال الموقوف، فلبنها كالسبيل، وصاحبها هو الله تعالى، إلا أن قوم صالح الضالين خانوا الأمانة وعقروا الناقة. والنتيجة أنهم أُهلِكوا جميعًا.

وهذه القصة التي اشتهرت على ألسنة الناس ودارت بين سيدنا «سليمان» وبين الهدهد، ذات عبرة وعظة كبيرة.

فذات يوم عاتب سليمان عليه السلام الهدهد، فهدّد الهدهد سليمان قائلاً:

"لأمحون سيادتك وسلطنتك!"

فقال له «سليمان عليه السلام»:

"وما حجمك حتى تمحو سلطنتي؟"

فأجاب الطائر الصغير: "أبلل جناحي بالماء، ثم أرفرف على تراب وَقْفٍ من الأوقاف، ثم آتي إلى سطح قصرك وأنفض هذا التراب عليه، وهذا التراب المأخوذ من الوقف كافٍ لدمار قصرك".

وتعتبر هذه القصة في غاية الأهمية من باب بيان أهمية مال الوقف. وقد قال حكماؤنا: "عليكم بالشعور بالمسؤولية، وفروا من الواوات!" [واو الوالي، والواصي، والوقف]

ويجب علينا أن نفهم هذا المعنى الوارد هنا صحيحًا، فالأشخاص أصحاب الخبرة والإمكانات الذين يستطيعون التأدية كما ينبغي لا يجوز لهم الابتعاد عن الخدمة في الوقف؛ لأن ابتعادهم عن الخدمة فيه سيؤدي إلى وبال عظيم أيضًا. وعليه فإن الهدف من التخويف هنا، إنما هو لتوزيع حقوق المستفيدين من هذه المؤسسات بدقة وعناية، وصيانة أموال الوقف؛ لأن ملكية الوقف سواء كان منقولا أو غير منقول لله تعالى، وفائدته للمحتاجين من هذه الأمة.

أي أن المال الموقوف يخرج من ملكية صاحبه، ولا يورَث ولا يباع ولايعطى كهبة لأحد. ولهذا فإننا نجد دائمًا إما في بدايات الوقفيات أو في آخرها جملًا دعائية بالخير وأخرى بالشر، وذلك حتى يكون مسؤول الوقف جادًّا في مسألة استخدام الوقف بما يتفق مع مقصده. فالدعاء بالخير لِمَنْ لا يقصرون في خدمة الوقف، أما الدعاء بالشر فهو من أجل الأشخاص الذين لا ينفذون ما في الوقفية، أي الذين يسيؤون استخدام الوقف ويضرون به. ومعظم الدعاء بالشر يكون كما يلي:

"كل من يخل بشروط هذا الوقف أو يغيره، فإن عليه لعنة الله والأنبياء والملائكة والناس أجمعين"، وقد ذكر السلطان محمد الفاتح هذا الدعاء في وقفيته لـ«آيا صوفيا».



وهذا الدعاء بالشر الموجود في الوقفيات إنما هو نوع من التهديد المعنوي؛ لأن المؤمنين الموحدين الذين يحملون التفكير الدقيق، يخافون من عقاب الآخرة، ولا يريدون أن يعرضوا أنفسهم لدعاء بالشر كهذا، ولذلك يتصرفون بحساسية شديدة.

أسأل الله تعالى أن يمكّننا من أداء حق النعم التي أنعم بها علينا، وأن يجعل لنا نصيبًا من أن نكون رجال وقف يخدمون المخلوقين من أجل الخالق!

آمين!







المأساة بعد العثمانيين

لم تكن دعوة الدولة العثمانية التي كانت تسير منذ نشأتها في سبيل (إعلاء كلمة الله) دعوة حكم جاف في أي وقت من الأوقات في تلك الساحة الفسيحة التي انتشرت فيها. فقد كانت توزع كل رعاياها المسلمين وغير المسلمين العدالة والحضارة اللتين لا مثيل لهما، وأسست بذلك في القلوب عروشًا لها.

ويشهد التاريخ على أن الدولة العثمانية لم تكن دولة مستعمرة في كل الأماكن التي فتحتها، بل كانت تنفق أضعافًا مضاعفة من الأموال التي تحصلها كضرائب، وتنفقها في أوجه المنفعة للوطن. أما الأموال التي كانت تحصل من غير المسلمين فكانت تستخدم في العمل على توفير الأمن والخدمات الخاصة بهم فقط. أما فيما دون ذلك، كانت الدولة تعيد الأموال التي تم جمعها منهم باسم الضرائب. ومن ذلك إعادة الضرائب التي تم تحصيلها من غير المسلمين في «سلانيك» بعد خروجها عن حكم الدولة العثمانية بعد هزيمة «أنقرة». ومن ذلك أيضًا قيام الدولة بعمل استثمارات في المَجَرْ تقدر بمبلغ ٢١ مليون أقجه في العام التالي لتحصيلها ٧ ملايين أقجه من الأهالي، وهذا دليل على إنسانية كبيرة لم تصل إليها دولة أخرى.

هذا بالإضافة إلى أنه لم يحدث في الدولة العثمانية قط أي نوع من المظالم أو الإجراءات الإمبريالية، كالإمبريالية الثقافية أو التطهير العرقي أو الاضطهاد الديني لغير المسلمين الموجودين في الأماكن التي تقع تحت حكم العثمانيين. ولهذا كنا نجد في «بولندا» مثل مشهور يقول:

"طالما أن خيول العثمانيين لم تشرب من نهر فيستول [Vistül]، فإن تلك البلدة لن تنال حريتها ولا استقلالها".

وذلك لأن سلطة العدالة العثمانية كانت تشكل دائمًا عائقًا أمام كافة أنواع التجاوزات التي يقوم بها الروس، أو الظلم الذي كان يوقعه النصارى بعضهم ببعض كلما وجدوا فرصة لذلك.

وعندما قام «الفاتح» بحصار أسوار بيزنطة عسكريًّا، تباحث القادة البيزنطيون في آيا صوفيا في الأمر، ولما اقترح أحد القادة طلب المساعدة من البابا، قال جراندوق «نوتاراس» المسيحي صاحب الأصل البيزنطي قولته المشهورة:

"لأن أرى العمامة التركية في «إستانبول» أفضل من أن أرى قبعة الكاردينال".

أما «مارتين لوثر» المصلح الألماني الذي أسس المذهب البروتستانتي وتمرد على الأخطاء والمظالم الخارجة عن العقل والمنطق في الديانة المسيحية فقد قال: "يا رب! هات لنا الأتراك العظام على رؤوسنا ليكون لنا نصيب من عدلك بواسطتهم".

ويقول «مارتين لوثر» أيضًا منبهًا رجال الإدارة الذين استعمروا الأهالي بشكل وحشي:

"إننا نفضل العيش تحت إدارة العثمانيين أكثر من العيش تحت إدارة البرجوازيين والأمراء الشرهين؛ لأنهم أرحم منكم على الفقراء".

حتى القائد «سِتيفان» أمير «البُغْدانْ» الذي كان يتحارب مع العثمانيين في القرن السادس عشر وحظي بلقب «الفارس المسيحي» انتبه لعدالة العثمانيين التي لا مثيل لها، وقال لأولاده وهو على فراش الموت:

"ربما سيأتي عليكم وقت وأنتم تحتاجون فيه إلى الحماية، وإن أتى عليكم هذا الوقت فلا تقربوا الروس، فإنهم خونة وسيقهرونكم، ولكن استودعوا أنفسكم العثمانيين فهم أمناء وأصحاب رحمة وعدل".

وهذه الأقوال بعض من الأدلة التي لا حصر لها على السكون والطمأنينة التي أسسها العثمانيون في العالم المسيحي. ونتيجة لهذا السكون وهذه الطمأنينة التي عاشها النصارى تحت إدارة العثمانيين، وجدنا أنه لا يوجد تسجيل واحد فقط في تاريخنا عن أن النصارى قاموا في أوقات الحملات الصليبية بمساعدة النصارى ضد العثمانيين، ولم يكن هناك ما يعكر صفو تلك الحياة سوى «التمردات الجلالية» التي قام بها متمرد شيعي في الأناضول يدعى بـ«جلال».

أما بعد الثورة الفرنسية التي قامت عام ١٧٨٩م فقد وجدنا كل الأعداء وعلى رأسهم «روسيا» يقومون بتحريض النصارى الموجودين بالدولة العثمانية، وبدأت هذه التحريضات تعطي ثمارها في وقت قصير. وإضافة إلى ذلك ظهرت أوضاع محزنة بين الرعايا المسلمين أنفسهم والذين يتشكلون من أمم مختلفة، وكانوا يعيشون تحت إدارة الدولة العثمانية وذلك بفعل التيارات القومية التي بدأت تروج في تلك الفترة.

وعندما بدأت تلك الدولة العظيمة التي امتدت في قارات العالم الثلاث، تنسحب من ساحة التاريخ تاركة خلفها مجموعة من الدويلات اليتيمة، أصبح العالم أمام مأساة كبيرة. إن هذه المأساة التي بدأت منذ تلك الأيام واستمرت حتى اليوم بشكل محزن، لم تنته بشكل من الأشكال في الشرق الأوسط وفي البلقان خاصة، فلا تزال صرخات المظلومين التي تعلو إلى السماء، وأنين المعصومين، والصغار الموجودين المقطعين كأعواد الحطب، والحاملات اللاتي يضعن حملهن في الأوحال، كل هذه المصائب والأحزان لا تزال مستمرة، والمناظر الموحشة والظلم الذي يقطع القلوب، ومناظر الجنايات، والفجائع كل يوم تزداد بالجديد والجديد منها. وخص من ذلك الشرق الأوسط والبلقان، فهما يحترقان بنيران جهنمية مادية ومعنوية.

إن كل الفاعليات التي قامت بها كل القوى الإمبريالية من أجل القضاء على الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، وعلى رأسها «إنجلترا» كانت من أجل تحقيق الآمال السياسية اليهودية. وقد استوجب هذا الأمل تخطيط الميراث العثماني على شكل جدول، وتجزأته على شكل دويلات صغيرة.

ولهذا قامت «إنجلترا» بالتحريض ضد الدولة العثمانية، وتقسيم تلك المنطقة الجغرافية التي كان سكانها ولغتها ودينها وعرقها واحدًا على أب واثنين من أبنائه، كان من أجل إمكانية تحقيق الآمال اليهودية في «فلسطين» بسهولة. والمظالم اليهودية التي نشاهدها كل يوم في فلسطين المغتصبة، إنما هي نتيجة لهذه التفرقة التي حدثت في المنطقة بعد أن أصبحت بلا صاحب بعد العثمانيين. ونتيجة مفجعة لتلك الخطة.

ولا شك أن أول مظلوم لفلسطين هو «السلطان عبد الحميد خان الثاني». فقد أظهر «السلطان عبد الحميد» حساسية كبيرة تجاه مسألة فلسطين، وأظهر فراسة وبصيرة كبيرة تجاه آمال اليهود ومطالبهم التي كانت تبدو في أول الأمر وكأنها بريئة. وقد قال «السلطان عبد الحميد» لـ«تيودور هرتزل» الذي اقترح عليه أن يمنحه قطعة من «فلسطين» لليهود مقابل دفع كافة ديون الدولة العثمانية الخارجية:

"إنني لن أبيع ولو شبرًا واحدًا من أرض فلسطين؛ لأن هذا الوطن ليس لي، ولكنه ملك لأمتي، وأمتي اكتسبت هذا الوطن بدمائها، فأصبح ملكًا لها، وقطعة الأرض التي أمكن الحصول عليها بدم الشهداء لا يمكن أن تُباع بالمال، واعلموا أنني ما دمت حيًّا فلن أسمح أبدًا بهذه الخيانة التي تخططون لها". وللقضاء على هذا الخطر الكبير بدأ يتخذ بعض الإجراءات.

وقد أدرك هؤلاء الذين لم يتمكنوا من فعل أي شيء تجاه ما قاله لهم «السلطان عبد الحميد» أنهم لن يتمكنوا من تحقيق آمالهم طالما أن هذا السلطان على العرش، وفي النهاية تمكنوا من مخططهم المشؤوم هذا بمساعدة بعض المغفلين عام ١٩٠٨م.

لقد كان في «السلطان عبد الحميد» بعض العلامات التي تستدعي الانتباه وكانت تنعكس على الرعايا المسلمين. ومن ذلك تلك القصة التي يرويها «إيلخان بارداقجي» وعايشها عندما كان في إحدى زيارته للمسجد الأقصى في القدس:

"عندما كنت أصعد على السلم لأدخل المسجد الأقصى رأيت رجلًا يقف على السلم، كانت قامته طويلة تقارب المترين، كان جسده وكأنه تحول إلى هيكل عظمي، وكانت ملابسه غريبة. عندما نظرت في وجهه تملكني الخوف، كان وجهه كقطعة أرض جدباء حصدت حديثة، وقد كان بجانبي رئيس إدارة وزارة الخارجية اليهودي فسألته:

"مَنْ هذا؟"

فقال: "لا أعلم. ربما أحد المجاذيب"

ولما اقتربت من الرجل قلت له بمشاعر لم أعرفها من قبل:

"السلام عليكم يا والدي".

فرد الرجل السلام بلهجة أهل الأناضول التي أحبها: "وعليكم السلام يا بني".

تجمدت في مكاني وانكببت على يد الرجل قبلت فقبلت، وسألته:

"مَنْ أنت يا والدي؟"

نظر الرجل إلى وجهي بثبات وقال:

"أنا الأونباشي «حسن» قائد فرقة البنادق الرشاشة الثقيلة الحادية عشرة التابعة للبلوك الثامن بالطابور السادس والثلاثين بالجيش العشرين من الجيوش التي تركت هذا المكان يوم أن فقدنا القدس!".

ولما نظرت في وجهه في تلك المرة أحسست بأن وجه الرجل على أكتافه التي كانت مثل شرفات المئذنة، كان مثل الراية، انكببت على أيدي الرجل مرة أخرى لأقبلها، فقال الرجل:

"يا بُني! معي أمانة أحتفظها منذ سنوات هل تسلمها إلى صاحبها".

فقلت: "بالتأكيد."

قال الرجل: "عندما تعود إلى البلدة، اذهب إلى «طوقادْ» إن كان طريقك يمر من هناك. وابحث عن اليوزباشي «مصطفى أفندي» قائد فرقتي الذي استودعني الأمانة، وقبّل يده نيابة عني، وقل له: "إن الأونباشي «حسن الإغديرلي» قائد الفرقة الحادية عشرة بنادق ثقيلة لا يزال واقفًا في نوبته منذ أن تركته، ونوبته الآن تمام!".

وعندما سمعت هذا كدت أموت، فالرجل يقف في نوبته منذ ٥٧ عامًا!

إن الرجل لم يكن مجذوبًا، وإنما كان إنسانًا مخلصًا وفيًّا يسعى لإتمام خدمته في الأيام القديمة بصدق وإخلاص بشكل يفوق الشعور. ويا لحاجتنا – اليوم – كأمة لمثل تلك المشاعر السامية التي تفوق المشاعر؛ لأننا اليوم نعيش تلك المأساة المحزنة المؤلمة لفلسطين التي أصبحت بلا صاحب.

وما النسوة اللاتي وقفن يصرخن على رءوس أولادهن من الشهداء الأكراد الذين أطلق عليهم «صدام حسين» الغاز المسمم في قرية «حَلَبْجَه»، وقتل منهم عشرة آلاف، إلاّ أيتامًا للدولة العثمانية اليوم.

ويحترق العالم اليوم ألمًا لاحتياجه إلى هذا السلام وهذه الطمأنينة التي تحققت في البلقان والشرق الأوسط في عهد تلك الدولة العظيمة، ولا يستطيع «الناتو» و«أمريكا» و«أوروبا» تغطية هذا الفراغ، والحقيقة التالية دليل على هذا:

دُعيت تركيا إلى حضور مؤتمر عن «البوسنة» و«الهرسك» في عام ١٩٩٢م، حضر في المؤتمر كل من «ميلسوفيتش» و«قره دزتش»، ولم يستطع وزير الخارجية الأمريكي الذي عمل سفيرًا لأمريكا في «يوغسلافيا» سبع سنوات أن يمنع نفسه من التحدث لوزير الخارجية التركي قائلاً:

"كيف استطعتم أن تظلوا في تلك الأماكن التي تتصف بأنها مصيبة؛ ٥٠٠ سنة؟"

إلا أنه لم يفكر بأنهم هم المسؤولون الحقيقيون عن تلك المأساة التي حدثت بعد العثمانيين.

لأن القوى الإمبريالية عندما كانت تشكل تلك الدويلات الجديدة على الأراضي العثمانية أحدثت موضوعات كانت عنصر اختلاف دائمًا؛ حتى لا تكون هناك إمكانية لتشكيل تلك الدويلات قوة حقيقية جادة في مواجهتها. وعلى هذا كانت تلك الاختلافات التي وضعوها بمثابة المحرك لتلك الأراضي حتى بعد خروجها من تحت سلطتهم.

ولا يمكن التحدث عن تلك السلطة للعلويين الذين كانوا يشكلون ٥ ٪ فقط من الأهالي في «سوريا» التي كانت الأغلبية العظمى فيها من السنة، دون الانتباه إلى تلك المساندات والأفكار التي وضعتها هذه الإمبريالية.

حتى «لبنان» وهي صغيرة جدًّا، لم يجعلوها دولة مستقلة إلا من أجل استخدامها كمعسكر لهم في الشرق الأوسط، واحتياجهم لتأسيس دولة تكون الأغلبية فيها من النصارى. وعلى نفس الشاكلة تأسيسهم لدولة في «البحرين» التي كان عدد سكانها ٢٥ ألف نسمة فقط، ما كان إلا لجعلها بمثابة حجر الراعي بين كل من «العراق» و«إيران» و«الكويت». ونتيجة لتلك الفاعليات انهدم السلام وانهدمت الطمأنينة التي حققتها الدولة العثمانية. وبذلك بدأت تظهر تدريجيًّا الكوارث المختلفة في الأراضي التي كانت تابعة للدولة العثمانية بدءًا من «البوسنة والهرسك» وحتى جزيرة العرب. بل بدأت تلك المشكلات تظهر أيضًا في البلدان التي انفصلت عن الدولة العثمانية من قبل كـ«أذربيجان» و«القرم» و«القوقاز». وأصبحت تلك المشكلات بمثابة الصداع المزمن في رأس تلك القوى الكبرى التي كانت تزعم أنها تعمل لصالح السلام والطمأنينة للعالم وللأهالي الذين يعيشون في تلك المناطق. مع أنهم في الحقيقة كانوا يعملون لمصلحتهم فقط، ودفع ثمن ذلك بالطبع كل الأمم المختلفة الصغيرة والكبيرة التي تعيش في تلك المساحة الشاسعة بمالها وأرواحها.

ويمكن القول أيضًا بأن الثمن الذي تدفعه تركيا بالنزاع بين الأتراك والأكراد إنما هو لنفس السبب أيضًا.

والمعلومات التالية أوضحها الكاتب المنصف اليوناني «مايكل دي جريك» الذي استطاع أن ينظر للأسباب الأصلية والواجهة الداخلية لتلك النزاعات:

"إنني أشعر بالحزن الشديد من هدم الدولة العثمانية، لأنها كانت قوة تعمل على إيجاد التوازن في العالم. وأقول ذلك سواء أحببته أم لم تحبه، إن الصراعات الموجودة في البلقان والشرق الأوسط لم تعرف التوقف منذ انهيار الدولة العثمانية".

وقد بدأت النتائج المفجعة لانهيار السلطة والسلام الذي حققته الدولة العثمانية في البلقان خاصة، تظهر في وقت قصير. ذلك لأنه يعيش في تلك الأراضي مسلمون بقدر النصارى، والروس والصرب والبلغار الذين ساروا على نهجهم، لم يتركوا مجالًا فيه ظلم إلا وسلكوه، وذلك منذ الحرب العثمانية - الروسية عام ١٨٧٧/ ١٨٧٨م. أما الدول الأوربية فكانت تطلق على تلك الحركة في الأدب السياسي "مسألة الشرق"، وهذا يعني القضاء على كل العناصر التركية والإسلامية الموجودة في منطقة أوروبا. ولتكن حرب فعلية من أجل تحقيق ذلك أو لا تكون، والأهم هو قيام النصارى بقتل كل عنصر مسلم، ونهب أمواله، والنتيجة إجباره على ترك أوروبا، والنزوح إلى أية منطقة أخرى.

والشيخ «راجي أفندي» الذي كان مفتيًا على «زاغرا» التي خرجت من الحكم العثماني بحرب عام ٩٣ ذكر في كتابه المسمى «تاريخْجَهءِ وقعة زاغرا» أو نبذة تاريخية عن واقعة «زاغرا» المظالم والوحشية التي لا يتحملها أحد والتي وقعت هناك، ونقول: "إن مثل تلك المظالم لا تزال تتكرر كلما حانت الفرصة منذ ذلك اليوم." وتبدأ منظومته التي تعد أسطورة في الأدب بقوله: «لقد كنا عزيز قوم قد أذلنا الأعداء» وهي منظومة في قمة الأدب وممتلئة بالصور التي تصور المظالم، والقضاء على أمة.

والمظالم المستمرة اليوم في «البلقان» تستند إلى هذا التعصب الديني، أو أنه لا يمكن إيضاح المظالم التي واجهت «البوشناق» - الذين كانوا يعنون «السِّلافْ» وكانوا من المسلمين- والظلم الموجود في «قُوصُوواه» أيضًا دلالة على ذلك، والصرب يريدون وبأي شكل تنصير «قُوصُوواه» سواء بالقتل أو بنفي الأهالي عنها.

وبالرغم من أن الصرب أخفوا الكثير من تلك المظالم والمذابح، إلا أننا في الفترة الأخيرة تمكنا من رؤيتها بفضل الإعلام المتطور. ويمكن القول بأن الحقد الصربي والمذابح المفجعة التي قاموا بها إنما كان السبب فيها هو انتصارنا عليهم في «قُوصُواه» عام ١٣٨٩م. وأنهم كانوا يشعرون بمشاعر التدني التي تولدت من كونهم عاشوا تحت إدارتنا لعدة عصور.

وقد وقعت تلك المذابح التي بدأت باضطرار الدولة العثمانية للانسحاب من البلقان، تحت مسمى التوازن في السكان، ويشرح «محمد عاكف» هذه الحقيقة في الأبيات التالية:

كان عدد السكان المسلمين أكثر من عدد السكان غير المسلمين

وكانت الإدارة مشكلة، دون عمل توازن

وهذا يعني أن ذبح المسلمين هذا كان من أجل التوازن

فإذا تم حصول التوازن لن يُذبح رجل!

لقد كان واضحًا أن لم يحدث توازن، كل ناحية تحترق

ألا ترى تذبح صدور الآلاف، كأنها تقطع مثل أعواد حطب.

إلا أن هذا التوازن أُجري بشكل أكثر وضوحًا لملعنته وكأنه أظهر وجهته الأصلية، وكل هذه الأحداث الجارية تظهر أن العالم وخاصة منطقة الشرق الأوسط والبلقان لم تستطع أن تنجو حتى وقتنا هذا من احتياجها إلى هذا السلام والطمأنينة التي تحققت في العهد العثماني. ويوجد من الجناة «الصرب» من يدركون تلك

الحقيقة، والعبارات التالية هي بعض العبارات التي استخدمها الحزب المعارض في « بَلْغِرادْ» عاصمة «يوغسلافيا» عام ١٩٩٧م في حركة الاستنكار:

"الشوق للإدارة العثمانية"

"اين أنت أيها التركي (العثماني)، وأين تلك الأيام الجميلة التي كانت تحت إدارتك؟"

وقد وجدت مثل تلك العبارات الرغبة والاهتمام الكبيرين.

من ناحية أخرى أوضح زعيم حزب المعارضة الصربي «فُوقْ دراسكوفيتش» أن الصرب في الماضي كانوا يعيشون أيامًا أكثر طمأنينة تحت الإدارة العثمانية أكثر مما يعيشونه في الوقت الحالي، ثم قال:

"إن نظام ميلوسفيتش يجب أن يتعلم من العدالة العثمانية".

لأن المظالم التي استمرت في البلقان لعدة سنوات بعد الدولة العثمانية، والفكر الإمبريالي الذي ظهر بعد الدولة العثمانية، بدأ بظهور تلك الدويلات الصغيرة المعروفة حاليًا نتيجة لتقسيم الأراضي العثمانية إلى ما يقرب من أربعين قطعة. وذلك حتى تعوق ظهور وارث قوي ماديًّا ومعنويًّا يكون الوريث الطبيعي للدولة العثمانية. والخلاصة أن الغرب قسموا فروة الأسد ليصنعوا منها فراء لأربعين ثعلبًا، إلا أنه لم يكن واحد منها قط شبلا صغيرًا.

إن الكثير من العناصر التركية والمسلمة التي أصبحت يتيمة بعد خلع «السلطان عبد الحميد الثاني» باتت تبحث عن والد أو أخ أكبر وفيّ. وخاصة «البلقان» الذي يتعرض منذ ذلك الحين وحتى اليوم إلى مظالم ووحشية مفجعة.

وهُدمت القباب التي أسسها جيشنا الإيماني، والمآذن التي كانت بمثابة المعجزة في الفن. وأُسكت صوت الأذان، وأصبحت الأراضي الخضراء حمراء بدماء الأبرياء والمظلومين، ويرى العالم كله هذا:

كل مكان أحمر قانٍ تحت الأفق الأحمر

انظر لقد احمرت الأودية والجبال

لقد احمر وجه الدنيا ووجه السماء

ولا تزال المأساة الحزينة لتلك الجماعات من المظلومين الذين يتوافدون جماعات وجماعات من بعد الحرب الروسية العثمانية مستمرة، وقد قال «رجب بويا» مفتي «قوصوواه» الذي زار إستانبول عام ١٩٩٨م:

"بعد انسحاب الدولة العثمانية من أوروبا أصبحنا بلا صاحب، وعدنا إلى تحمل لطمات مَنْ يفوقنا قوة"

ووقوع هذه المظالم اليوم أمام أعين العالم كله بأبشع شكل يعد عيبًا للإنسانية، والحقائق التي أجبرت الشاعر بالأمس على أن ينظم الأبيات التالية من المحتمل أن تتكرر بشكل أكثر ألمًا:

إن هذا التراب الذي يخفي في داخله مراد الأول

انظر، يأن تحت أقدام من؟

في يد من تركنا أمانة من؟

حضور هيبة هذا السلطان الشهيد

هل ستحترز جنود الصرب في النهاية؟

هل ستأتي الموسيقى العسكرية متناولة الخمر أمامه

أنت أيها الشهيد العظيم صاحب الروح الفياضة

هل تشعر ماذا تبقى في الأرض من أنقاضك،

لتنزل علينا نفحة من تلك الروح بسرعة

إن الأموات الذين رأيتهم لن يستفيقوا بشكل آخر..!

إن المأساة بعد العثمانيين لا تزال موجودة ومستمرة. إننا نحن الوارثون لـ«لبوسنة» و«قوصووواه» يجب علينا محاسبة النفس والتاريخ. ونحن أيضًا مضطرون للعودة إلى أنفسنا وإلى تاريخنا في تلك الأيام الحزينة التي توافق الذكرى السبعمائة لتأسيس الدولة العثمانية. إن الحوادث ذات العبر مثل فاجعة «البوسنة» و«قوصووواه» أليست تضطرنا لأن نكون نحن الحاملين للأمانة العثمانية؟!

ولهذا فنحن مضطرون اليوم خاصة إلى أن نأخذ نصيبًا من تجليات "الرحمن الرحيم" وذلك لنتمكن من العيش بشعور "الرحمة للمخلوق لأجل خالقه" وهذا أكبر مؤثر للتقرب إلى الله ﷻ.

ولكم يحمل المثال التالي من العِبر التي تبين بوضوح أفق قلب المؤمن:

كان «بايزيد البسطامي» على سفر، فجلس في الطريق تحت ظل شجرة ليستريح، ثم قام يمشي، وبعد أن مشى فترة طويلة رأى أن نملة تتجول على حافظة طعامه، فحزن وقال: لقد أفقدت تلك النملة وطنها، وعلى الفور عاد إلى المكان الذي كان يأكل فيه وترك النملة هناك. لأنه كان يدرك أهمية رعاية حقوق المخلوقات ولو كانت صغيرة مثل النملة، وكان يعيش بشعور "الشفقة على خلق الله" أي بشعور "الرحمة للمخلوق لأجل خالقه".

إن الروح التي جلبت هذا الاهتمام وهذه العناية بالنملة مظهر من مظاهر نضج الإيمان والإسلام. وهي نفسها تدعونا لأن نهتم بالمأساة الموجودة اليوم في البلقان، ويجب أن نستمع إلى هذه الصرخة التي بدأت منذ سنوات وما تزال مستمرة حتى اليوم:

قوصووواه الخضراء أصبحت سوادًا مظلمة

«يَاقْ أُووَه» و«بِرْزَرِينْ» و«إيـبَــكْ» كلها تتجه إلى الشمال

تحولت صراخ المأتم إلى فضاء الحشر

ولا يوجد من يشفع في أرض محشر كهذه

لا حياة لصبي معصوم عمره عام وهو في المهد

كما لا نجاة لمظلوم بلغ الثمانين

فهذا قُطّع بالبلطة، وهذا ثُقب بحراب البندقية

وتجمعت العظام وخثارات الدم كدسا كدسا

ولا يُرى شيء سوى الديار المتهدمة

ولو كتبنا اليوم مجلدات عن المظالم التي رآها المسلمون الذين كانوا يمثلون العنصر الحاكم والسادة في تلك الأراضي، من الرعايا القدامى كثمن للعدالة التي أجروها هناك فلن تكفي تلك المجلدات.

وذات يوم كان المحدث «سري السقطي» يشرح لطلابه الحديث الشريف الذي في معناه:

«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَأَلَّمْ لِأَلَمِ الْمُؤْمِنِينَ»[1]

إذا بأحد الطلاب يقول له: "يا أستاذ! لقد احترق الحي بأكمله ولم ينج إلا بيتك".

فرد قائلًا: "الحمد لله".

ولكنه بعد فترة تعمق وتفكر في سر هذا الحديث النبوي الشريف الذي قرأه على طلابه، وتاب بعد أن ندم ندمًا كبيرًا. لأنه لم يفكر للحظة في ألم إخوته من المؤمنين الذين احترقت منازلهم، ولم يتمكن من تنفيذ الأمر النبوي الموجود في الحديث بأن يحزن لأحزانهم، فحزن جدًّا لذلك، ولم ينس تلك الحادثة لسنوات طويلة، وبعد ثلاثين سنة قال لأحد أصدقائه:

"نظرًا لأنني غفلت لحظة عن إخوتي المؤمنين، فإنني أتوب عن تلك اللحظة منذ ثلاثين سنة" وأظهر بذلك مدى الندم المتعمق الموجود في قلبه.

أمّا نحن...؟

---

١. الحاكم، ٤، ٣٥٢؛ الهيثمي، ١، ٨٧.



فإلى أي مدى نتألم اليوم لألم إخواننا أبناء «السلطان مراد الأول» الذين يقمعون بالقهر والظلم في «قوصوواه»؟ أم أن ما نسمعه مساءً ننساه في الصباح، من تلك الأخبار التي نسمعها كل يوم؟

كم توقظنا تلك الأحداث وتلك الجنايات؟ وإلى أي مدى يمكننا سماع صوت الشاعر الذي يرتفع من الماضي إلى وقتنا الحاضر وهو يقول:

من العائلات التي لا صاحب لها منهن من تذبح،

ومنهن مَنْ يهتك عِرْضها بآلاف من الفاجعات!

هذا يهدر عِرْضه، وهذا دمه حلال

... ...

أيها الأمة المرحومة! استيقظوا لقد حل الصباح!

والنتيجة أنه يا لسعادة من تمكنوا من العيش في تلك الأيام الصعبة وهم يدركون سر قوله تعالى:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُـنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران،٩٢)

اللهم اقهر الظالمين أعداءنا وأعداء الدين، واجعل العزة للإسلام والمسلمين ،وعاملنا بالعناية والنصرة. آمين!!!



الخلاصة

يقول المؤرخ «ابن خلدون»:

يقول المؤرخ المعروف ابن خلدون (١٣٣٢- ١٤٠٦) في مقدمته المشهورة لـ "كتاب العبر" الذي يتحدث عن التاريخ العالمي، إن حالة الدول في هذا العالم الفاني- من نظرة بيولوجية- تطابق حالة الإنسان تمامًا من حيث وجود عُمرٍ طبيعي لها يمر بثلاثة أطوار: الولادة، ثم الحياة، ثم الموت.

فالدول تُولد كعشيرة، ثم تتكامل وتصبح إمارة، وعندما تتطور بشكل أكبر فإنها تصبح دولة، ولكنها تبدأ في الصغر عندما تبدأ في فقدان مزاياها، وتختفي من على ساحة التاريخ حيث تترك مكانها لدولة جديدة، وتلك الدول الجديدة أيضًا تستمر حياتها طبقًا لإمكانياتها. وهذا الحال برنامج قدري لكل الدول على ساحة التاريخ.

وقد أظهر التاريخ دومًا أن رأي «ابن خلدون» هذا، الذي يحمل قطعية قانون الطبيعة، له نصيب من الحقيقة والقيمة المختلفة.

وبالرغم من أن العثمانيين الذين سموا دولتهم "الدولة الأبدية" لم يريدوا التبنِّي بتلك النظرية، إلا أنهم كانوا مجبورين على ما تستوجبه تلك الحقيقة.

لأن المولى ﷻ لم يعطِ أي مخلوق في هذا العالم نصيبًا من صفة "البقاء" الإلهية، لذا فإن هذا الكون كله محكوم بالفناء. ولا ريب أن الارتقاء والفناء – بمقتضى هذا القانون الإلهي – يتحققان في إطار مجموعة من الأسباب الظاهرية، فهذا العالم عالم أسباب، إذ تلعب الكثير من الأسباب الظاهرية دورًا في ارتقاء الدول وسقوطها مثل: صفات الإداريين، والميزات الجغرافية للدولة، وضعف القوى المنافسة أو قوتها.



والسبب الأساسي في إيمان العثمانيين بأن دولتهم ستبقى إلى الأبد لم يكن انطلاقًا من هذا الكيان السياسي الذي أسسوه فحسب، بل رؤيتهم أن دولتهم هذه جزء من "الدولة المحمدية" التي بناها سيدنا محمد ﷺ في المدينة المنورة. فعبارة "الدولة الأبدية" التي أطلقها العثمانيون على دولتهم لا تعني الأبدية حرفيًّا، بل هي كناية عن طول المدة. إذ استمرار الحقائق المحمدية حتى قيام الساعة حقيقة إيمانية. ولا شك أن هذه لا تتحقق إلا بالدولة التي تُعدُّ مركز السيطرة السياسية. لهذا السبب تبنَّى العثمانيون غاية أساسية لهم، وهي إخراج الشريعة المحمدية من القوة إلى الفعل، وعَدّوا هذه الغاية سببًا لوجودهم.

وبسبب هذا الفكر الإيماني العميق أطلقوا على دولتهم إلى جانب اسم «الدولة العَلِيَّة» اسم «الدولة العَلِيَّة المحمدية» تبركًا لاستمرارية تلك الروحانية. ويحتل هذا الاسم مكانًا في الكثير من الوثائق الرسمية.

❁

والاستمرارية في عمر الدول مرتبطة بالخصائص السامية كالحق والعدالة والعدل والأخلاق. لأن الفرد والأسرة والمال والملك والدولة كلها أمانة، والله تعالى يمنح العمر والسلطة بقدر التمسك بالأمانة، وعندما يضعف الاحتفاظ على الأمانة إلى أدنى درجة فإن الملك يتغير ويتحول إلى أناس آخرين.

فالنتائج التي تظهر أمامنا عندما ننظر إلى التاريخ، فهي مؤشرة لهذه الحقيقة. أي إن الله تعالى يمنح العمر لتلك الدول التي يتم تأسيسها، بقدر ما يملكه أصحابها من هذه الخصائص المعنوية. وهذه المظهرية للدولة العثمانية التي كانت أطول عمرا بين الدول الإسلامية على ضوء تلك الحقيقة مظهرية عظيمة للغاية. ولهذا فنحن على قناعة بأن ذكر نبذة مختصرة عن تلك المؤثرات التي شكلت الأساس فيها سيكون مفيدًا.

إذ إن الدولة العثمانية نالت الانتصارات العظيمة ببركة تلك المؤثرات التي شكلت اللبنات الأساسية لها. وأهدت ذكريات مليئة بالعز والشرف للتاريخ.

ويمكن جمع تلك المؤثرات في خمس مواد مختصرة:

١- الصدق والارتباط كما ينبغي بأوامر الله:

لقد سارت الدولة العثمانية في طريق التقدم والازدهار بسرعة بسبب الإيمان النقي البراق الذي كان موجودًا في روح الكتلة التي أسستها، وبسبب التكامل واللياقة في انعكاس هذا الإيمان على الحياة والأحداث. ولا ننسى هنا الدور الإرشادي والتوجيهي سواء من الناحية الظاهرية أو الناحية الباطنية لكل رجال المعنوية في تلك العصور[١].

إن الاحتشام والترقي الذي سجلته الدولة العثمانية بموجب أن الله تعالى وعد من يتمسكون بكتابه بالعزة في الدنيا وأنه سيجعلهم عبادًا صالحين في إدارة الدنيا، إنما هو ظاهرة وإثبات فعلي على هذا الحكم الإلهي.

---

١. ذُكِر في كتاب "تاريخ عطاء" أن آخر سلاطنة السلاجقة علاء الدين الثاني قد اتَّبع مرشدًا وضيعًا آنذاك. وقد كان مولانا جلال الدين الرومي، وهو من كبار العلماء والمتصوفة في ذلك الوقت، أحد الحاضرين في المأدبة التي أعدَّها السلطان علاء الدين الثاني لهذا السبب، لكن مولانا جلال الدين الرومي لم يعجبه قرار السلطان بالتبعية، فغادر المأدبة، وأثناء نزوله من درج القصر، التقى بباني الدولة العثمانية الولي عثمان الغازي، فأخذه معه إلى تكيَّته. وهناك أمر مولانا الشابَ الذي سيغدو أعظم السلاطين لاحقًا بقراءة سورة الفاتحة، ثم دخل مولانا عالمًا روحانيًا يستغرق فيه. وبعد حين استيقظ كأنه يستيقظ من النوم، وسأل: "كم مرة قرأت الفاتحة يا ولدي؟" فأجاب الشاب عثمان: "١٨ مرة يا سيدي"، فقال: "هذا لا يكفي". ثم قرأ مولانا بنفسه سورة الفاتحة ١٨ مرة أيضًا، وقدَّم لعثمان البشارة الآتية: "يا بني بارك الله لك ولنسلك في السلطنة الإسلامية التي ستؤول إليكم. ومن ذريتك أنت سيخرج ٣٦ سلطانًا عادلًا". [انظر: عطاء التاريخ، جـ١، ص١٨- ١٩]
إن هذه الرواية التي قدمناها باختصار من كتاب "تاريخ عطاء" دليل على التأييد الذي لقيته الدولة العثمانية من الجانب الروحاني.



من المعلوم أن الدولة العثمانية سجلت ترقياً دائمًا طوال عصور طويلة اتصف فيها كل فرد في إدارة الدولة بدءًا من رئيسها وحتى أصغر فرد فيها بالإخلاص والكمال الذي أوصى به الإسلام. ولأننا ذكرنا في كتابنا الأمثلة المختلفة والكثيرة عن هذا العامل المعنوي للترقي، فإننا لم نر أهمية لإعطاء تفصيلات أكثر عنها هنا.

٢- روح الجهاد:

تميز الأتراك قبل الإسلام أيضًا بروح البطولة والميل إلى حكم العالم كله، فانطلاق البطل أَتِيلَّا على ظهر فرسه مرتين للاستيلاء على مركز الدولة القديمة روما، وخضوع الصين لحكم أسرة تركية، وما شابهها من الحقائق هي بعض الوقائع الحقيقية التي تُظهر وجود هذا الميل إلى حكم العالم قبل الإسلام.

وجاء هذا الاستعداد الفطري الذي كان يعكس رغبات السيطرة النفسانية آنذاك منسجمًا مع مفهوم الجهاد في الإسلام، فكان استعمالهم لميولهم هذه تحت اسم الدعوة إلى الإيمان سببًا في ظهور مجاهدين مشهورين مثل "أَلْب أَرَنْلَر"[٢] و"رجال خراسان"[٣].

ومن ناحية أخرى، حين توجهت الجيوش الإسلامية التي كان معظم أفرادها من الصحابة في عصر "الخلفاء الراشدين" إلى «إيران» وتمكنت من فتحها، ووقفت على أبواب «تركستان»، لم تتأخر تلك الأمة التركية في إدراك أن سماتهم القومية تتوافق مع المبادئ الأساسية الإسلامية كالأخلاق والجهاد. وبهذا دخلت الأمة التركية الدين الإسلامي أفواجًا بميل طبيعي منها ودون قتال وأفرادها يصيحون "دخيلك يا رسول الله!". وبعد فترة قصيرة جدًا أصبحوا يشكلون جيشًا من المجاهدين يتسمون بروح الفتح، ونذروا أنفسهم في سبيل الدفاع عن هذا الدين الجديد الذي قبلوه بوجد روحي كبير.

---

٢. الأبطال الصالحون الذين جمعوا الجهاد والدروشة.

٣. الرجال الصالحون الذين أتوا من خرسان إلى الأناضول، وبذلوا الجهد لنشر الإسلام هناك.

ولما حمل العباسيون راية الإسلام بعد الدولة الأموية التي استمرت حوالي ٩٠ عامًا، أدركوا طبيعة الأتراك الميَّالة إلى الجهاد، ولهذا شكّلوا جيوشهم للفتح كاملة من الأتراك. وبعد انهيار الدولة العباسية انتقلت الراية الإسلامية إلى السلاجقة ، الذين كانوا مهرة في الناحية السياسية بقدر مهارتهم في الناحية العسكرية، ثم ملأ العثمانيون الفراغ الذي وقع بانهيار دولة السلاجقة. لقد انتقلت الدولة العثمانية بفضل روح الجهاد المنبعثة ضمن المعايير الإسلامية من حالة العشيرة المكونة من ٤٠٠ خيمة، إلى الإمبراطورية العظيمة التي تبلغ مساحتها ٢٤ مليون كم٢. وشكلت الدولة العثمانية جيوشاً تخلف وراءها قبباً متناثرة، وسعت نحو التفوق في مجالات الحضارة. وكانت بمثابة المرشد والدليل للإنسانية لعدة عصور في العلم والجهاد والإيمان والفنون. وأصبح روح الجهاد عندهم بمثابة الميراث الذي يتوارثه الابن من الأب.

وقد نال «السلطان محمد الفاتح» بشارة النبي ﷺ بهذه الروح بفتحه لإستانبول، إلى جانب هذا خطى خطوات جادة في سبيل فتح «روما» التي كان لها مكان في بشارة النبي ﷺ أيضًا، ففتح «أوترانتو» الواقعة جنوبي إيطاليا، بيد أن المنية حضرته قبل أن يحقق هذا الطموح الكبير بفتح «روما». ثم تسلم الحكم بعده ابنه بايزيد الولي، لكنه لم يتمكن من الاستمرار في الفتوحات على الجبهة التي بدأ بها الفاتح بسبب انشغاله بعصيان أخيه «جَمْ» وخروجه عن حكمه.

وبعد أن أعاد القائد «كَدِكْ أحمد باشا» ليستعمله في أمور أخرى، تحركت «مملكة نابولي» لتُنهي حكم العثمانيين في «أوترانتو» الذي دام ١٣ شهراً.

ولكم هو مدهش هذا الفكر الذي يعبر عن روح الجهاد التي لا تقبل النفاد عند «السلطان سليم خان» بعد فتحه لـ«مصر»:

"إن القلب يتمنى أن أصعد إلى «الأندلس» من شمال «أفريقيا»، ثم أعود إلى «إستانبول» عبر «البلقان»".

ومن الحقائق التي لا تخفى على أحد أن الجيوش الصليبية توجهت نحو الأناضول وسوريا وفلسطين بنيَّة القضاء على الإسلام، وجرت معارك على تراب هذه البلاد،



ولكن بعد ظهور العثمانيين، صاروا مجبَرين على البقاء ما وراء نهر طونة، وكانت المعارك كلها تجري في تلك الأراضي، وبقي الحال كذلك حتى «حرب ٩٣» التي جرت بين العثمانيين والروس في عامي ١٨٧٨- ١٨٧٩. إذًا عاش العالم الإسلامي في حالة صلح وسكينة على مدى قرون طويلة في ظل الدولة العثمانية.

ولهذا يجب إبراز أهمية الجهاد كعامل من عوامل ازدهار الدولة العثمانية، ذلك الجهاد الذي يحتل المرتبة الثانية مباشرة بعد الصلاة التي تعتبر فرضًا من الفرائض الإلهية، ويحتل المرتبة الأولى في التكاليف الاجتماعية.

ولم يكن ذلك الجهاد بالسيف فقط، بل على العكس كان يضم داخله -بعد التبليغ- كل الجهود والخدمات والنشاطات التي يمكن أن تكون مدارًا لتأمين غلبة النظام الذي وضعه الله تعالى.

وقد أدرك العثمانيون أن ارتباط دولتهم بالأوامر الإلهية أساس لهم، فجعلوا هذا الارتباط مظهرًا من مظاهر النضوج في كل النشاطات الاجتماعية لعصور طويلة. وقد استمرت تلك الروح في ازدهار حتى تعرضت الدولة للضعف بسبب عوامل داخلية وخارجية متنوعة. وهذا «عثمان الغازي» باني الدولة وضع هذه الروح في وصيته لابنه «أورخان» وهو على فراش الموت في خيمة تحت صليل السيوف في إحدى ضواحي «بورصة» قائلاً: "يا بُني! أسعِد روحي بعدم ترك الجهاد!...". وهكذا تجذرت هذه الروح فيهم، وصارت كأنها سبب وجود دولتهم.

وقد كانت وصية عثمان الغازي هذه لكل الأجيال التي ستأتي أيضًا من بعد «أورخان». هكذا فهموها، وهكذا قبلوها، وهكذا طبقوها!.. وتميزت الدولة العثمانية بالجهاد، ولم تتخلّ قط عن تطبيق هذه الغاية السامية لقرون طويلة مهما كان الثمن.

ولأن الله تعالى كتب الفناء على كل شيء في هذه الدنيا -كما ذكرنا فيما سبق- بدأت الدولة العثمانية التي وصلت إلى أعلى القمم بروح الجهاد، تسير إلى الزوال

تدريجيًّا بموجب هذا التقدير الإلهي، فانسحبت من ساحة التاريخ في بدايات القرن العشرين...فأصبح العالم الإسلامي كله بلا رئيس، أي ظل يتيمًا.

٣- تربية رجال الدولة:

إن المنتسبين للدولة العثمانية أو رجال الدولة فيها كانوا قد تربوا تربية تؤهلهم للمسئولية التي حملوها، كانت تلك التربية تربية خاصة. ويجب علينا أن نوضح هنا إضافة إلى هذا الجانب الظاهري أن الله تعالى كان معينًا لهم بتقديره الإلهي. فقد وهب الله المنتسبين للأسرة العثمانية أو لرجال الدولة أبناء على الفطرة والقابلية المميزة لاسيما في عهد الازدهار. ويمكن القول إن السلاطين العثمانيين الأوائل-دون استثناء-كانوا دهاةً لا مثيل لهم، فكان القادة تحت إمرتهم رجالًا يليقون بمثل هؤلاء السلاطين.

وحقيقة القول: إن الشخص حتى وإن تعلم تعليمًا جيدًا للغاية، لا يمكنه الحصول على نتيجة جيدة طالما أنه حرم من الأوصاف الأساسية التي هي موهبة من الله تعالى كالذكاء الفطري والشجاعة والإرادة. ولأن الأسباب الظاهرية في الدولة العثمانية كانت قد سارت جنباً إلى جنب مع هذه المؤثرات المعنوية المرتبطة بالتقدير الإلهي، فقد ارتقت الدولة العثمانية بلطف الله تعالى من حالة العشيرة الصغيرة إلى الدولة الكبيرة التي تمثل زعامة العالم الإسلامي كله في وقت قصير. وإذاما أمعنا النظر في الفترة التي بين وضع العثمانيين حجر الأساس للدولة في سوكوت وبين عبورهم لروملي وحصارهم البيزنطيين وانتصاراتهم المتكررة على الصليبيين وتقدمهم إلى داخل أوروبا في فترة تقدر بخمسين عاما تقريبا فسنفهم بصورة جيدة مدى عظمة هذا الازدهار. وسندرك بشكل أكبر أنهم لم يتمكنوا من نيل هذه القوة وهذا الازدهار بهذه السرعة بالأسباب الظاهرية فقط.

إن هؤلاء الحكام الذين حكموا العالم، تربى كل واحد منهم على يد كبار العلماء منذ سنهم صغيرة. ولكي يتمكنوا من إكمال عالمهم المعنوي، كانوا يتربون تحت إرشاد واحد من المرشدين الكاملين في عهدهم. فكل السلاطين بدءًا من «عثمان»



كانوا خدامًا لسلسلة «الشيخ أدبالي» من الأولياء ورجال الحق، وكانت النتيجة أنهم اجتنبوا عن الطمع في الدنيا بنسبة مستواهم القلبي أي بقدر قوتهم المعنوية، وضحّوا بأنفسهم وأموالهم من أجل إعلاء كلمة الله ﷻ. أما الأشخاص الذين وصلوا إلى الذروة في العلوم الظاهرية والباطنية، فكانوا بمثابة المرشدين للاستقامة في الدولة العثمانية في كل وقت. وبفضل هذا الإرشاد لم ير السلاطين العثمانيون أنفسهم في مكانة أو موقع مختلف عن الرعية، فلم يكونوا حكامًا مغرورين، وعرفوا كيف يكونون أشخاصًا يضحون بأنفسهم في سبيل الله ﷻ.

والمثال التالي برهان على تلك الحقيقة:

كان الديوان الهمايوني يجتمع يومًا في الأسبوع لسماع شكاوى الأهالي، وذات يوم كان «السلطان الفاتح» يجلس في الديوان مع الوزراء والباشوات، وإذا برجل قروي وفي قدميه أحذية بسيطة من الجلد، يدخل الديوان. لم يتمكن من تمييز السلطان عن الباقين من الجالسين لا من حيث المكان ولا من حيث الملبس واضطر أن يسأل: "من منكم السلطان؟!" وبعد هذا التاريخ جرت عادة استماع السلطان لمناقشات الديوان من وراء ستار دون أن يُظهر نفسه.

وهذا «السلطان سليم» سلطان الفتوحات، لم يغتر يومًا بفتوحاته، بل كان يدرك أن الانتصار الحقيقي هو الانتصار على النفس، وهو الذي وجد مكانًا في عالم القلب بإرشاد أحد الأولياء، وما أجمل ما عبّر عن هذا في البيت التالي:

أن تكون سلطانًا على العالم نزاع جاف

وأن تكون خادمًا لأحد الأولياء أعلى شأنًا من هذا كله.

لقد أظهر السلاطين العثمانيون الذين تربوا بإرشاد معنوي محبة واحترامًا أسطوريًّا للقرآن الكريم، واستمر هذا الاحترام منذ بداية تأسيس الدولة حتى نهايتها.

والحق أن عدم مد «عثمان الغازي» قدميه في الغرفة الموجود بها القرآن الكريم في بيت الشيخ أدبالي، وعدم نومه في تلك الليلة حتى الصباح، وأمر «السلطان سليم»

بأن يُتلى القرآن الكريم باستمرار دون انقطاع في الغرفة الموجود بها الأمانات المقدسة حتى أصبحت عادة على مر العصور، نموذج من هذا الاحترام والرعاية التي أولوها للقرآن الكريم. ولهذا كانت الدولة العثمانية مظهرًا لتأييد ولطف إلهي مستثنى، وقد ظهرت تلك الخاصية التي ارتقت بالدولة العثمانية، في الحديث الشريف:

«إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ» (مسلم، المسافرين، ٢٦٩/ ٨١٧)

وعندما جلب «السلطان سليم» الأمانات المقدسة إلى «إستانبول»، واهتم بها وأظهر لها رعاية كبيرة، كان هذا التصرف بمثابة البركة للدولة العثمانية، وما زالت إستانبول تحافظ على هذا الشرف والبركة إلى يومنا هذا.

وبالرغم من تلك الانتصارات التي نالها السلاطين العثمانيون إلا أنهم لم يغتروا بأنفسهم ولم يصبهم الكبر، ولم تصبهم النزاعات النفسية، وأدركوا أن كل شيء من الله تعالى. وأجمل ما عبر عن تلك الحقيقة هذا الخطاب الموجود في أشعار «السلطان القانوني» الذي استمر حكمه على العالم بقوة، والذي أظهر عالمه الداخلي:

"أيها المحبي! احترس من أن تغتر بالانتصارات التي حققتها وهذه السلطنة التي في يدك، ولا تقل: «لا يوجد أحد مثلي»!".

ولوحة النصر القوية لـ«بارباروس خير الدين باشا» الذي دخل الخليج فى إستانبول بأسطوله القوي جالبًا أمامه سفن الأعداء بعد انتصاره في «بِرَوَزَه» جعلت السلطان القانوني يقول للباشاوات الموجودين حوله: "إن الواجب علينا تجاه ذلك هو الشكرُ، وليس الفخر!". وهذا أيضًا يظهر عظمته المعنوية إلى جانب عظمته الظاهرية. ويكفي لفهم هذا النظرُ إلى ديوانه المليء بالحقائق الصوفية.

أما «السلطان سليم خان» والد «السلطان القانوني» فكان دخوله «مصر» منتصرًا، وعودته إلى «إستانبول» منتصرًا نموذجًا عظيمًا على التواضع. إذ كان يقول:

"إن تصفيق وهُتَاف الفانيين من العباد ومجاملاتهم لا يجعلنا نتغلب على أنفسنا نتيجة الغرور!.."



٤- البنية الروحية والاجتماعية للأهالي:

يعتبر الإحسان – وهو أن تعبد الله كأنك تراه – أحد المراتب الرئيسية للدين الإسلامي. أما العيش على تلك الحال فيسمى «التصوف». وأحد الغايات الرئيسية للتصوف الوصول بالقلب إلى مرتبة معينة، وجعل العبد أقرب من الله تعالى؛ حتى يظهر أناس طيبون ظرفاء أصحاب مشاعر طيبة، وهو ما يتطلبه الدين.

وقد أتى الأتراك من موطنهم الأصلي «وسط آسيا» بهذا الوصف، وانكشفت لديهم البنية الروحية، لأن البيئة في الأناضول كانت مساعدة من حيث الظروف والشروط، ووصلت تلك البنية إلى ذروتها في العهد العثماني، ونسجوا بهذا النسيج المعنوي الأراضي التي قاموا بفتحها. فأول الأمر كانت التكية تذهب أولًا إلى الأماكن التي سيفتحونها، لتعدّ الأرضية للفتح، وبعدها يذهب السيف. وبعد عودة السيف تأتي التكية مرة أخرى لتعزز الهداية، وبذلك يجد الأهالي المناخ الدافئ لتقوية حياتهم المعنوية.

لم يكتفِ العثمانيون في فهم وإدراك الدين بالآراء التي تعتمد على العقل فقط، بل تربوا في إقليم القلب المتعمق، ووصلوا إلى التكامل. ولهذا فإن التكايا كان لها أكبر دور مؤثر في رقيهم. ولم يكن الأهالي فقط هم الذين يعيشون على هذا المناخ المعنوي، بل كان كل أفراد الجيش بدءًا من السلطان وحتى أصغر فرد في الجيش يُسيّر حياته على هذا النهج المعنوي. حتى إن الجيش الانكشاري الذي كان يعني الجيش الخاص كان كله منسوبًا إلى الطريقة «البكتاشية» التي كانت تحوز على هوية مثبتة تتوافق مع السنة آنذاك، وخير شاهد على الدور العظيم الذي لعبه هذا الجيش في فتوحات "روملي" هو كثرة وجود التكيَّات البكتاشية في تلك المناطق إلى يومنا هذا.

وكان سلاطين المعنى يقلدون السلاطين العثمانيين بالسيف عند جلوسهم على العرش. وقد اتخذ كل منهم لنفسه نجماً معنوياً يهتدي به.

أما الأوقاف التي كانت إحدى المؤسسات ذات الأهمية الكبيرة في الدولة العثمانية، فنجد أنها زادت هي أيضًا وانتشرت أكثر نتيجة لهذا النضوج الروحي، وتحقق بذلك التوازن الاجتماعي والروحي في المجتمع.

لقد كانت الدولة العثمانية مثل مؤسسة خيرية كبيرة تقدم خدمات تنبع من الرحمة والرأفة بالإنسان والحيوان والنبات والمخلوقات كلها، وكل ذلك لوجه الله الكريم.

بفضل تلك المؤسسات الخيرية التي كانت تحمل الرحمة والشفقة ليس للأرامل والفقراء والمساكين فحسب، بل حتى للحيوانات والدواب والطيور، كان الأهالي يدعون من قلوبهم بالأدعية الفياضة بطول العمر لتلك الدولة. فببركة هذه الأدعية عاشت الدولة العثمانية فترة طويلة.

ولعل إنفاق كل أثرياء المؤمنين بدءًا من السلاطين وحتى الأفراد بصورة تفوق الوصف على تلك المؤسسات الخيرية كتأسيس المساجد والمكتبات والنزل والأسبلة وغيرها كان بموجب الآية الكريمة، ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ (التوبة، ١٠٤) وكان هذا العمل الصالح الذي يرضي الله بمثابة المجرى لمنبع الفيض الإلهي في الدولة العثمانية.

وبهذه البركة الإلهية تم توفير التوازن الاجتماعي بين الأثرياء والفقراء. وأصبح كل مسكين في المجتمع تحت تأمين الدولة، لقد كان المناخ الروحاني للمجتمع بمثابة حضن الأم الدافئ لهم. ونُسج البناء الاجتماعي الموجود بين الأفراد بمحبة الأخوة، حتى أصبحت وجوه الأيتام الشاحبة الذابلة مبتسمة. لقد كانت الأوقاف منبع الطمأنينة للأثرياء، ومصدر التسلية للمحتاجين.

لقد أصبح الإنفاق بالنسبة للسلاطين والقادرين من أفراد المجتمع بمثابة الطبيعة الأصلية فيهم، لدرجة أنهم كانوا ينفقون من أحب الأشياء إليهم. ولا تزال هذه البنية الاجتماعية مستمرة في يومنا هذا بتلك المؤسسات التي أسسها أجدادنا الكرام. لقد أصبحت المساجد والمكتبات والمدارس والمعسكرات والأسبلة والمستشفيات



حتى المياه التي نشربها، وغيرها الكثير من الخدمات الخيرية التي لم نذكر أسماءها، بمثابة الذكرى العطرة العزيزة الباقية لنا إلى يومنا هذا.

٥- العدالة وكون الادارة على أكمل وجه:

لا شك أن العدل من الأسس الرئيسية التي تعمل على بقاء الدولة، وقد أصبح القول القائل: "يمكن للدولة أن تثبت بالكفر، ولكن لا يمكن أن تقوم على الظلم!" بمثابة ضرب من ضروب الأمثال.

ولهذا السبب فإنه لا شك أن العدل كان أحد الأسباب الرئيسية التي عملت على ازدهار وبقاء الدولة العثمانية لعدة عصور.

لقد اتخذ العثمانيون من القول القائل: "العدل أساس الملك" شعلة يمسكونها في أيديهم جيدًا، وبها نشروا العدل بين الناس.

حقيقة القول: إن أوامر الله تعالى نُفذت في الدولة العثمانية على كل الأفراد، حتى على السلاطين، وأظهر العثمانيون جهدًا كبيرًا في عدم البعد عن العدل. وهذا هو «السلطان الفاتح» الذي أغلق عهدًا وفتح عهدًا جديدًا على الإنسانية، وقف هو ومعماري نصراني أمام المحاكمة وخرج الفاتح منها على أنه غير محق، ولم يتمكن من الخلاص من القصاص إلا بعد أن قبِل المعماري بأخذ الدية. هذا المثال الذي تدمع له العيون من أكبر الأدلة على قيام العدل بشكل لا مثيل له في الدولة العثمانية، وذكر هذا المثال فقط كافٍ لإيضاح العدل عند العثمانيين.

لقد كانت الحساسية الدينية لكل أفراد الجيش العثماني وعلى رأسه السلاطين في مسألة اللقمة الحلال مهمة للغاية. فقد كانوا يمتنعون عن أكل حقوق الناس متخذين المثل القائل: "من يأكل حرامًا يكون حرامـيًّا" دستورًا لهم.

وعندما كان «السلطان سليم الأول» في حملته على «مصر» كان هناك قلق يساور روحه من أن يأكل أحد جنوده ولو ثمرة من الأراضي التي يمرون عليها، ومقولته التي قالها في هذا الشأن وهي:

"لو عثرت على شيء أخذه أحد الجنود من الأراضي التي مررنا عليها في حافظته فكنت سأتخلى عن حملة مصر!.." مشهورة للغاية.

كانت الأعمال في إدارة الدولة العثمانية التي ربَّت سادة العالم، بيد من يكون أهلًا لها - إضافة إلى شرط الإسلام-، فمن كان يظهر أهليته للعمل، يكلَّف به دون أن يُنظر إلى عرقه، أما من يفتقد الأهلية فلم تكن تُفتَح له أبواب الدولة، لأن المصلحة العامة كانت تُرجَّح على المصلحة الخاصة.

ولهذا رأينا الدولة العثمانية حتى آخر عهد ازدهارها تعج بالأمراء الذين كانوا على درجة عالية من اللياقة والقوة والقابلية المادية والمعنوية. ولهذا رأيناهم يتولون منصب الولاة قبل سن الرشد ليتدربوا على ذلك بتلك العلوم النظرية. وعند وفاة السلطان كان يجلس على العرش أقوى أبنائه، إلا أن هذا كان يستوجب في بعض الأحيان قتل بعضهم البعض. ولهذا يلزمنا أن ننظر إليهم بعين العذر إذا ما تبين لنا أنهم كانوا يقومون بذلك من أجل وحدة الدولة والأمة.

وقد أوصى «الشيخ أدبالي» «عثمان الغازي» بهذه الوصية التي أنارت الطريق نحو بقاء الدولة: "إن الدولة ليست ملكًا مشتركًا يتقاسمه الأبناء والإخوة الذين يديرونها. بل إن الدولة للأمة، وهي أمانة في يد من يديرها، وعندما يموت، فإن إدارة الدولة تكون لمن يخلفه أيًّا كان. وقد أخطأ بعض أجدادنا في الماضي حين قسَّموا دولهم بين أبنائهم وإخوانهم وهم لا يزالون أحياء. ولهذا لم يكتب لهم البقاء طويلًا، لا لأنفسهم ولا لغيرهم". فالرعاية على هذا الدستور جعلت الدولة العثمانية تعيش لمدة ٦٢٣ عامًا.

وقد كانت الإدارة في الدولة العثمانية التي دامت بأجمل وأكمل المقاييس إدارة مركزية. ولأن تراب الوطن انتشر في مساحات شاسعة فقد تم تطوير نظام الولايات، وكانت إدارة الولايات تسند إلى الإداريين المحليين الذين اعتادوا على المكان. كما لم



يكن هناك تدخل في الخصائص التقليدية كاللغة والزي والدين للمجتمعات التي كانت تحت إدارتهم، وكان هذا تطبيقًا مدهشًا للعدالة في الدولة العثمانية.

وكان بالقصر العثماني جامعة تسمى «الأَنْدَرُونْ» يلتحق بها أبناء النخبة والصفوة من كل بلدة ومدينة، حيث كانوا يتعلمون بها وحدة الرأي السياسي والإداري، وعندما يعودون إلى بلدانهم كان يتم تعيينهم في الوظائف. وبالرغم من تطبيق نظام المركزية في الدولة العثمانية، إلا أن المناطق البعيدة كانت تُدار على شكل الولايات نصف المستقلة، ويُطلق عليها اسم "الولايات الممتازة" (أي الولايات ذات الامتيازات والإدارة الخاصة).

من ناحية أخرى كان الرعايا غير المسلمين الموجودون في الدولة العثمانية يحاكمون طبقًا للقانون الذي يسيرون عليه، أما في حالة وجود نزاع بين مسلم وغير مسلم فإن الاثنين حينئذ يُحاكمان في محكمة شرعية.

اليوم وبعد تأسيس الأمم المتحدة، كون الدول ذات ثقافات متنوعة، أي تتبعها سياسة تتحمل على الثقافات الأخرى، يُعدّ علامة نضوج لها. فإن العثمانيين كانوا في الذروة بالنسبة لهذا المفهوم طوال ستة قرون ونصف. ومن الحقائق التاريخية أيضًا أنه كان في الدولة العثمانية حتى انهدامها محكمة في البطريكية الرومية النصرانية، وأخرى في السفارة الفرنسية للاطلاع على الدعاوى القانونية لغير المسلمين الموجودين في الدولة.

ولا حاجة هنا لأن نذهب بعيدًا، فالمرحوم «السلطان عبد الحميد الثاني» طيب الله ثراه، أمر بتأسيس دار للعجزة في «إستانبول» عام ١٨٨٠م، كان بها جامع وكنيسة، ومعبد لليهود. وهذا يعد من آخر الأمثلة على هذا التطبيق. إن هذا التطبيق كان يعد أحد أجمل النماذج على الحرية الدينية والوجدانية في الدولة العثمانية.

إن العالم الذي يسعى اليوم صوب العولمة إنما هو في الحقيقة يبحث عن هذه النموذجية العثمانية، إلا أن الفرق بينهما أن الدولة العثمانية كانت تقدم الخدمة في كل

مكان تذهب إليه، وتزيل الظلم، وتسعى إلى سعادة الناس الدنيوية والأخروية، أما القوى العظمى اليوم تسعى إلى أن تستخدم الآخرين، وتستعملهم لمنافعها إضافة إلى السيطرة على مصادرهم الطبيعية، وتسعى إلى هذه العولمة من أجل الاستعمار.

إن هذه المواد المذكورة هي التي جعلت الدولة العثمانية دولة عالمية تحكم العالم كله، إلا أنها بمرور الوقت كانت تنزل من هذه الحساسية الروحية إلى التخطيط للنفس فقط، وكلما فعلت ذلك كانت رغبتها في الحفاظ على حدودها وثرواتها تزداد قوة.

ولما بدأت الدولة تفقد هذه القوة المعنوية التي جعلتها ترتقي، وبدأت تسعى خلف الميول النفسية والفخر الكاذب الفارغ، أصبحت روح الفتح سجينة، وتعرضت الفتوحات للعقم، وجاء الوقت الذي بيع فيه خزامى واحد بذهب. وتغير قدر هذه الدولة العظيمة.

والذي يدعو للعبرة أن كل القصور ما عدا قصر طوب قابي تأسست في السنوات الأخيرة للدولة. ومن الجلي أن هذه القصور قد بُنيت بأموال استدانها السلاطين من الغرب، وأن التصميم المعماري كان أيضًا غربياً. ومن قام بذلك هم مجموعة رعاع من الغافلين والخونة الذين أظهروا أنهم يريدون الحفاظ على الدولة.

وأحد الأسباب الأساسية في فساد الدولة وانحلالها وسقوطها هو وجود أشخاص ينافقون، إذ كانوا يُظهرون الهداية، لكنهم في الواقع عملوا على تحقيق مطامع أعداء الدولة. وبالطبع هناك أسباب أخرى غير هذا السبب.

وقد كان اكتشاف رأس الرجاء الصالح والدوران حوله للذهاب إلى الشرق الأقصى سببًا في إلغاء الدور المهم الذي لعبته الدولة العثمانية في التجارة الدولية. وقد أدرك السلطان سليمان القانوني هذا الأمر، فأعطى بعض الامتيازات للفرنسيين، كي يمنع اتحاد الدول الأوربية، ويستقطب التجارة إلى دولته. بيد أن من جاء بعده من السلاطين ابتعدوا عن الغاية الأساسية من هذه الامتيازات.



وإلى جانب ذلك منح اكتشاف القارة الأمريكية العالمَ الغربي ثروة لم يمسسها أحد، فكان عاملًا في ازدهار اقتصاده وانطلاق "الثورة الصناعية". و بسبب دخول من ادعى الهداية بيننا، لم تستطع الدولة آنذاك مسايرة التطور كما ينبغي، بل كانوا سببًا لـ"الشعور بالدونية" عند العثمانيين.

وقد كانت النتيجة الطبيعية لهذه التطورات كلها بدء الانحلال السريع للدولة، وليس من الخطأ أن نقول إن تأثير هذا الانحلال -إلى حدٍّ ما- مستمر إلى يومنا هذا.

وهذا كله يُظهر أن السبب الأساسي في مرحلة السقوط التي بدأت بنشاطات الأعداء السرية- إلى جانب التأخر الاقتصادي والصناعي- هو إهمال المؤثر المعنوي، وما نتج عنه من ضعف في الإخلاص والتقوى والأخلاق.

وهناك سبب آخر يعد من أكبر الأسباب التي أدت إلى تسريع سقوط الدولة العثمانية وهو خيانة الذين أُرسلوا إلى أوروبا من أجل إحضار الحضارة والتقنيات الغربية إلى الدولة لإيقاف انحطاطها، لأن هؤلاء ذهبوا ولم يحققوا الغاية التي أُرسلوا لأجلها، بل عادوا بأفكار فاسدة جديدة، وهكذا أصبحوا بمثابة الجيش الجديد الذي يدافع عن الغرب، وكان ذلك سببًا لخدمتهم أفكار الغرب وتقاليده وحياته الاجتماعية وسياسته تحت أوسمة عثمانية.

وقد تمكن بعض من هؤلاء من ترقي مناصب في الدولة حتى منصب الصدارة العظمى، كان زي هؤلاء الأشخاص عثمانيًّا لكن قلوبهم كانت غربية أو مع الغرب. فتسببوا في تعريض الثقافة الإسلامية للتشويه، وفي وصولنا إلى الحال الذي نعيشه اليوم. وعملوا على إضعاف ثقافتنا الإسلامية التي كانت العامل الوحيد الذي حافظ على نشاطنا، وخرَّبوا الأسس السامية التي ارتقت بنا.

وإذا أردنا أن نعطي أمثلة على هؤلاء الأشخاص فسنذكر منهم من كانت جهوده بارزة بشكل كبير:



مصطفى رشيد باشا:

لم يكن لدى «مصطفى رشيد باشا» تحصيل علمي جيد رغم أنه كان صدرًا أعظم، ومع هذا ارتقى إلى أعلى منصب في الدولة بمساعدة الأجانب، كان محرومًا من الأحاسيس القومية ومن المعلومات الإسلامية خاصة، كان متأثرًا بدرجة كبيرة بالأفكار الغربية، وقد سار بهذا التأثير في الطريق الغربي حتى الماسونية، وقد دفع هذا الباشا العثماني صاحب هذه الروح السلبية القادمُ من سفارة الدولة العثمانية في «لندن» ثمنَ مساندة الإنجليز له بتوقيعه معاهدة « بَـلْطَه لِيمَانِى» وقد اعترفت تلك المعاهدة بالكثير من الامتيازات الاقتصادية للإنجليز في الدولة العثمانية. إن رئيس الوزراء النمساوي «ميترنيك» لما علم بأمر هذه المعاهدة قال:

"بهذا انتهت الدولة العثمانية".

ولما تُوفي «السلطان محمود الثاني» تولى بعده ابنه «السلطان عبد المجيد خان» وكان عمره ١٦ عامًا، و«رشيد باشا» التعس هذا هو الذي جعله يوافق على الإصلاحات التي كانت تم التخطيط لها في «إنجلترا» وجعله – أي جعل السلطان – ينشر فرمان التنظيمات المشهور باسم «كُـلْخانَه خطِّ هُـمايونِي». وقد عبر الأهالي عن التمرد والغضب الذي تملكهم بهذا الفرمان بقولهم الذي يحمل الاستهزاء:

"الآن لن يطلق على الكافر لفظ كافر!".

ويبدأ فرمان التنظيمات هذا بجملة مفادها أن أسباب تخلف الدولة عن الغرب هو ابتعادها عن الأحكام الشرعية، وبالرغم من أن هذا الأسلوب كان يبدو وكأنه يدعو للعودة مرة أخرى إلى الشريعة، إلا أنه كان يشكل صراحة بداية الانحراف عن الشريعة. وبالرغم من أن بعض الانحراف كان قد حدث من قبل فرمان التنظيمات، إلا أنه أصبح رسميًّا بهذا الفرمان.

وأُطلق على هذا الفرمان «التنظيمات الخيرية» حتى يمكن الهروب بالحقائق التاريخية من أعين الشعب، إلا أنه في الأساس كان بمثابة «التنظيمات الشرية»



وهذه الحقيقة ثابتة بهويات وإجراءات الرجال الذين عملوا عليه بقدر ما كانت ثابتة بما يحتويه الفرمان. وبهذا الفرمان تم افتتاح العديد من الجمعيات الماسونية في «إستانبول» و«سلانيك» وبذلك أعدت الأرضية المريحة من أجل آمال الغرب في المياه العذبة. حتى «السلطان عبد المجيد خان» الذي كان له السبق في العديد من حركات التجديد الغافلة، كان قد سأم من هذا الشخص بسبب الأحوال المتطورة، ولم يجد أمامه حيلة سوى الذهاب إلى غرفة الخرقة النبوية وبكى هناك ودعا طالبا المدد من رسول الله:

"يا رسول الله أنقذني من هذا الرجل! ".

ولم تكن إجراءات «رشيد باشا» منحصرة على ما يقوم به هو من أفعال فقط، بل امتدت أيضًا إلى طلابه الذين تربوا على يديه من رجال الدولة، والذين كانوا سببًا في إطلاق عبارة: «الرجل المريض» على الدولة العثمانية.

لقد عمل «رشيد باشا» للدبلوماسية الأوربية أكثر مما عمل للدبلوماسية التركية، ومات وهو في الحمام بالسكتة القلبية.

عالي باشا:

من الصدور العظام الذين تربوا على يد «رشيد باشا» وكان متأثرًا بالأفكار الأوروبية. كان «عالي باشا» ماسونيًّا بواسطة «رشيد باشا» وكان معروفًا بخوفه وحرصه على المنصب، ولهذا أصبح عدوًّا حتى لـ«رشيد باشا» الذي هو ولي نعمته، لدرجة أنه أعطى الرعايا من غير المسلمين صلاحيات وامتيازات كثيرة بسبب منافسة كانت بينهما، ونشر فرمان الإصلاحات المؤرخ بعام ١٨٥٦م الذي أعده مع السفراء الأوروبيين.

ولهذا يعتبر «عالي باشا» هو العامل الرئيسي بعد فرمان التنظيمات في إعداد حركات الاستقلال لغير المسلمين والتي فتحت على الدولة العثمانية مصائب كبيرة.

لدرجة أن السفير الفرنسي نفسه تحير من هذه الجرأة الكبيرة التي وصل إليها «عالي باشا» وعبر عن حيرته هذه بقوله:

"كنا لا نأمل في وجود هذا القدر من التضحية عند الدولة العثمانية".

لقد كانت الأوضاع التي ظهرت بعد إعلان الفرمان مخيفة للغاية، وقد عملت الأحداث التي ظهرت نتيجة لهذا على اهتزاز «عالي باشا» بشكل كبير، وقد تُوفي «عالي باشا» هذا عام ١٨٧١م متأثرا بتلك الهزة العنيفة، والحادثة التالية التي عاشها الناس في جنازته تُبرز بشكل كبير مدى خيانته وسوء أعماله:

"وقف «عثمان أفندي» شيخ المولوية في « يَـنِي قابي» على رأس نعش «عالي باشا» كالعادة وسأل جماعة المسلمين :

"كيف عرفتم هذا الشخص؟"

فلم يجب أحد.

فكرر الشيخ سؤاله: "كيف عرفتم هذا الشخص؟"

فلم يجب أحد.

فسأل للمرة الثالثة: "كيف عرفتم هذا الشخص؟"

فلم يجب أحد.

وهذا بالطبع كان كافيًا لإظهار مكانة هذا الرجل في وجدان الناس.

ومن المشهور أن «السلطان عبد العزيز» قال عندما علم بوفاة علي باشا:

"لقد أنقذ الله دولتنا من بلاء هذا الرجل".

وبالرغم من التحذيرات المستمرة من استخدام النصارى في المناصب المهمة في «الباب العالي» إلا أن عالي باشا عيّن بعض النصارى في المناصب المهمة في «الباب العالي» وقد قال «جودت باشا» عن هذا:



"ويتضح من هذا أن «عالي باشا» كان يخشى أن يقوم بتربية أشخاص من أهل الإسلام فيكونوا جديرين بالأعمال الخارجية، وينافسوه على منصبه".

لقد عاش «عالي باشا» حياة بعيدة عن الحق والحقيقة، ولم يترك أثرًا واحدًا يُذكر به بعد موته.

كَجَه جي زاده فؤاد باشا:

من الصدور العظام في عهد التنظيمات. دخل عالم السياسية على يد «مصطفى رشيد باشا» وقد تجرأ الفرنسيون على افتتاح محفل ماسوني لما رأوا الإنجليز قد افتتحوا محفلا ماسونيًا مرتبطًا بمحفل «إسْكتلنده» وافتتح الفرنسيون أيضًا محفلاً ماسونيًا في «بَــكْ أوغْلو» وضموا «فؤاد باشا» إلى صفهم.

ونتيجة للسياسة الخاطئة التي سار عليها « فؤاد باشا» فقدت الدولة الكثير من أراضيها، وسُفك الكثير من دماء المسلمين، إلى جانب هذا كانت هناك الكثير من الانحرافات الظاهرة على «فؤاد باشا» نفسه، وقد أرسله «عالي باشا» إلى «سوريا» بصفته أمينًا عليها، ولكنه اغتصب من الأهالي ما يقرب من ٨٠٠ ألف كيس من الأموال بخلاف الرشاوي التي حصل عليها، وهذا فقط قسم مما عرف عنه. ولما مات له اثنان من أبنائه دفعة واحدة، واحترق قصران من قصوره تلو بعضهما البعض، أصبحت هذه الأحداث بمثابة القصص الجارية على ألسن الناس في «إستانبول». وكانوا يدركون أن هذه الأحداث التي حدثت له إنما كانت جزاء الانحرافات التي قام بها، وجزاء لدماء المسلمين التي سفكها.

كان «فؤاد باشا» بعيدًا عن المزايا الإسلامية، ويؤمن بأفكار «فولتير» وقد نقلت جريدة «العبرة» ما صرح به للسفير الفرنسي: "ينبغى أن تكونوا مُلَقِّــناً لنا، ولكن اتركوا لنا المسرح وإجراء الأدوار، فإن للدولة قوتين، أحدهما تنحدر من الأعلى والأخرى تأتي من الأسفل، وبما أننا ليست لنا قوة تأتي من الأسفل، فإننا نحتاج إلى الدعم من جهة، وهذا الدعم هو السفارات".

وهذا التسجيل الذي أورده «ابن الأمين محمود كمال» عن «فؤاد باشا» يستدعي الدقة والانتباه:

"عندما كان «فؤاد باشا» صدرًا أعظم وقائدًا للجيش ذهب في أحد أيام رمضان إلى «جامع بايزيد» لأداء الصلاة، ولأن صحن المسجد كان ممتلئًا، تمكن «فؤاد باشا» من إيجاد مكان له في ساحة المسجد، وبينما كان يقف للصلاة كرهًا، أمر مساعديه أيضًا بالصلاة، ولكن المساعدين قالوا له: «ولكننا لسنا على وضوء».

فقال لهم مظهرًا عدم اهتمامه بالأمور الدينية:

"ومن منا على وضوء؟"، وأمرهم بالوقوف للصلاة بسرعة.

والقصة التالية التي كانت مشهورة عند الجميع تبرز وبشكل كبير نيته الحقيقية وجهوده:

ذات يوم كان «فؤاد باشا» يجتمع مع الدبلوماسيين الأجانب الموجودين في «إستانبول» وكان محور الحديث عن قوة وقدرة الدول الأوروبية، وبينما كان كل واحد منهم يقول شيئًا، إذا بـ«فؤاد باشا» يعترض على كلام الموجودين قائلاً:

"لا يا سادة! إن الدولة العثمانية هي أقوى دولة، لأنكم تحاولون هدمها من الخارج ونحن نحاول من الداخل، وبالرغم من ذلك لم ننجح في ذلك!".

نعم لقد كانت شخصية «فؤاد باشا» على هذا النحو، وقد توفي في مدينة «نيس» الفرنسية عام ١٨٦٩م، مات وهو يتمتم بعبارات فرنسية دون أن يدري أنه في النفس الأخير له، مات دون أن يكون هناك مسلم واحد بجانبه، وما كُتب في جريدة «حُرِّيَّــتْ» في هذا الوقت عن وفاته مخيف للغاية: "بينما كان «فؤاد باشا» ذاهبًا إلى«نيس» مر بـ«روما» والتقى البابا وأخذ الدعوات منه كما هو معتاد، ولهذا حاولت كنيسة «نيس» أن تدفنه على الطقوس الكاثوليكية، وبالرغم من أن السفير العثماني أوضح عدم جواز ذلك، إلا أن الكنيسة أصرت على ذلك، وكانت النتيجة أن اكتفى النصارى بطقوسهم المعتادة على سرير الميت".

ويقول «أحمد جودت باشا» أيضًا:

"عندما أتوا بجثمان «فؤاد باشا» لدفنه في «إستانبول» كان المنظر يبدو وكأنه موكب غربي، لدرجة أن كل الحاضرين كانوا يستهزؤون بذلك".

وهو ما يؤكد أن المسلمين كانوا قد سروا وفرحوا بموته.

والأشخاص المماثلون لهؤلاء كثيرون جدًّا، ومن هؤلاء على سبيل المثال «م. علي باشا» الذي كان قائدًا على الجيوش العثمانية في الحرب العثمانية الروسية عام ٩٣ والذي كان سببًا في فقدان الدولة العثمانية كثيرًا من أراضيها، كان يهوديًّا من أصل «بولندي» ولم يقاتل الروس قصدًا، وكم من شخص يعرف أنه هو الذي أتى بالروس من غرب نهر «طونة» إلى «يَشيلْ كوىْ» في «إستانبول»؟

منذ ذلك التاريخ إلى يومنا نجد أناسًا بذلوا جهدا ضد الاسلام خاضعين لمنافعهم الشخصية، وبالرغم من ذلك خدعوا الأمة وتظاهروا أنهم أبطالها، موت أمثال هؤلاء الناس يحمل عبرة ودهشة كما أن حياتهم كذلك. هذه حقيقة لا يمكن تفصيلها هنا.

من الأشياء المحزنة أن الدين الاسلامي عندهم خرج من أن يكون منبع قوة للمجتمع بسبب وجود الخونة من الناس، وحلت محله فظاظة نفسية. ثم بدأت تتأصل ميول الاطمئنان بسلطة نفسية سفلية تخدم آمال أعدائنا. وتضايقت الآفاق الروحية بهذه الميول التي جعلت النفوس أسيرة في يد التقليد. ودخل الناس في ملقط المقاييس الضيقة والخشنة للعقل.

نتيجة لهذا الوضع جفّت عروق الحياة لثقافتنا الأصيلة والمعنوية التي تغذي الجيل الجديد، و بالتالي انضمرت درايتنا وخبرتنا التي نمسك بها الحاكمية العالمية، وضاعت صفتنا في أن نكون دولة ذات استقلال، وأصبح الجيل بِرُمَّتِهِ يفضل السعي وراء قوة غاشمة، و ينكر أصله، وذهب ضحية في أرضية مجدبة للفلسفة الوضعية والبراغماتية، ولكن سير التاريخ الذي ظهر نتيجة هذه الغفلة مؤسف و مؤلم جدا.

كنا نتصف بالأمس بأننا أمة العدل والحضارة التي وصلنا بها إلى كافة المناطق كوارثين وأصحاب حقيقيين للروح الإسلامية، فكيف حالنا اليوم؟

ويمكن القول بأن أكبر عامل لسقوطنا هو ذلك الخسران الذي عشناه في الساحة المعنوية. وإلا كان من الممكن أن تزال الموانع الظاهرية. وذلك لأن أكبر مؤثر في أوقات الازدهار هو وجود أناس راقين عظماء، ولكي ندرك هذا علينا أن نتفكر فيما قاله السفير النمساوي بخصوص «علي باشا» الذي كان صدرًا أعظم لـ «السلطان القانوني»: "أنا أرى أنه أثناء التحدث مع رجل ذكي كـ«علي باشا» علينا أن نكون جوعى حتى تكون أذهاننا متيقظة بما أمكن ".

أما باشوات عصر التنظيمات فكان كل واحد منهم بمثابة الدمية في يد الغرب.

ولو أننا تحدثنا عن الأسباب المادية التي أدت إلى سقوطنا، لأن الوقت قد حان لذكر تلك الأسباب، لقلنا:

إنه يأتي على رأس تلك الأسباب تغيير طرق التجارة، واكتشاف «أمريكا» وزوال غنائم الحروب، وازدياد المصروفات العسكرية، لأن الدولة كانت تحارب في أربع جبهات، ويمكن القول بأن تلك الأسباب أدت إلى تأخر التقدم الصناعي في الدولة.

وهناك حقيقة تاريخية ثابتة وهي أن الغربيين استخدموا الراية العثمانية لكسر مقاومة الأهالي في مناطق أفريقيا والمناطق الأخرى التي استعمروها للاستفادة من خيرات وثروات تلك المناطق، وبذلك بنوا مستعمرات لهم في تلك المناطق.

وإذا ما وضعنا تلك الحقيقة نصب أعيينا فإننا سنفهم بشكل أكثر وضوحًا أنه لو أعاقت الدولة العثمانية السقوط المعنوي لكان عنده الكثير من الإمكانيات لحل المشاكل الظاهرية.

ولهذا فإن أهل الغرب كانوا يسعون دائمًا لتخريبنا من الناحية المعنوية، وأحدثوا النزاعات غير اللازمة، وجعلوا الأفراد عندنا سجناء في بناء يتعلق بالمظهر الخارجي



فقط، وبذلك نجح الغرب أن يقطع مسافة كبيرة دون عناء، والأحوال والأوضاع التي نعيشها اليوم هي عبارة عن صفحات مستمرة لنفس المخططات تنفذ بمهارة شديدة.

والحاصل أن أسباب سقوط الدولة العثمانية كانت كثيرة، ولأننا لم نفهمها جيدًا، وكانت المخططات سرية، فإن الدولة العثمانية حُكم عليها بأن أوذيت من أبنائها أكثر من أعدائها. فبتخريب اللغة بقيت الأجداد في واد وأحفادهم في واد آخر، وبهذا رأينا تلك الأجيال التي سُحبت من يديها إمكانية الوقوف على جوهر الدولة العثمانية، وبالتالي تم توجيهها بسهولة لتكون عدوًّا لتاريخها؛ لأن هذه الأجيال جاهلة بتاريخها.

ومن الحقائق الثابتة أنه بالرغم من كل هذا، إلا أن تلك النشاطات الهدامة لم تعط ثمارها بالدرجة الكافية؛ لأن محبة الدولة العثمانية لم تذهب كلية من قلوب الناس -إلا فئة قليلة محدودة ومعروفة - إن ما يحدث في «البوسنة» وفي «فلسطين» وفي غيرها من النزاعات التي تعد وسيلة لأن نتذكر بوفاء كبير الدولة العثمانية التي يُعتقد بأنها دفنت ستكون سببًا في إحاطة تلك الدولة العظيمة بالاهتمام من جديد. ومن اللافت للانتباه استخدام الجناة في «الصرب» في بعض تعليقاتهم التي استخدموها من أجل معارضة حزب المعارضة في «بلغراد» عاصمة «يوغسلافيا» عام ١٩٩٧م تلك العبارات:

"أين تلك الأيام الجميلة التي كنا نعيشها تحت إدارة التركي (العثماني)؟".

"الشوق للإدارة التركية (العثمانية)".

من ناحية أخرى أهالي «فلسطين» الذين يعيشون تحت وطأة المظالم اليهودية منذ سنوات، كانوا يتذكرون الدولة العثمانية ويدعون لها بالخير، حتى إنهم كانوا يقولون:

"نحن أيتام «السلطان عبد الحميد»".

وهذا كله يعد وسيلة لتذكر الدولة العثمانية بالخير وتذكرها بمشاعر الوفاء.

وهذه الحقائق تُظهر أن زوال الدولة العثمانية كان مصيبة مفجعة على العالم كله. فقد خسر العالم أشياء كثيرة بزوالها، إلا أن زوال الدولة العثمانية من على ساحة التاريخ لم يكن بلا صوت أو صدى، كأن بعوضة قد ماتت، ولكن زوالها كان كموت أسد قوي مات داخل تراب ودخان كثيف، وذلك لأن الدولة العثمانية كتبت حتى في آخر صفحات تاريخها بطولات مشرفة، و«جَناقْ قَلْعَة» (الدردنيل) آخر تلك الصفحات المشرفة، فقد كانت الدولة تدافع وبقوة عن وطنها من «فلسطين» وحتى «القوقاز».

صمد الأتراك في«الدردنيل» وفي غيرها أمام جيوش أربع دول عظمى هي «إنجلترا» و«فرنسا» و«إيطاليا» و«روسيا». وبالرغم من أن الأمة العثمانية حاربت بجيوشها التسعة على أربع جبهات، إلا أن انهيارها كان مرتبطًا بنشاطات الخونة الداخليين وظروف الأعداء أكثر من أسباب وظروف الانهيار نفسه. ولأن هدفنا هنا ليس تكرار الأحداث التاريخية فإننا سنكتفي بقولنا:

"إن الدولة العثمانية حتى عند سقوطها كانت كبيرة ماديًّا ومعنويًّا، وبزوالها من على ساحة التاريخ خسر العالم أشياء كثيرة!".

لا سيما وأن العالم بدأ يعيش مشكلات كبيرة في تلك المساحات الجغرافية الشاسعة التي خلت بزوال الدولة العثمانية، واختل فيها النظام والتوازن.

ولهذا فإنك عندما تسأل فلسطينيًّا "من أنت؟" يقول: "أنا عثماني من أيتام «السلطان عبد الحميد»." وعندما تسأل أحد أبناء «قوصوواه» وتقول: "من أنت؟" فيقول: "أنا عثماني" تظهر لك تلك الحقيقة.

وعندما كنت في الحج قبل ثلاثين سنة قابلت مسنًّا أفريقيًّا ولما علم أني تركي، هز رأسه بأسف وقال: "نعم، الدولة العثمانية العظيمة!".

إن هذا تعبير لأحد الأفارقة تذكر الدولة العثمانية بالشوق وشعر بالجماليات التي كانت فيها.



وفي نفس تلك السنة قابلت في عرفات حاجًّا «إندونيسيًّا» ولما علم أنني تركي قال: "إن الخطبة عندنا في «إندونيسيا» كانت تُقرأ باسم السلاطين العثمانيين!".

إن الدولة العثمانية لم تذهب إلى «إندونيسيا» ولكنها وصلتها برحمتها وشفقتها وإنسانيتها.

إن المذاهب والمؤسسات الأيديولوجية التي تأسست اليوم في «القوقاز» و«الشرق الأوسط» كانت تروج لنفسها بشكل مكثف بهدف إيجاد مكان لها على الساحة، ولكن مقولة الأهالي في الشرق الأوسط: "نحن مسلمون عثمانيون" بأحاسيس مثبتة من داخلهم كانت كافية لرفض أي أفكار أخرى.

ولما أدرك أصحاب الأفكار الأخرى هذه الحساسية لدى الأهالي بدؤوا يطبعون صور المساجد العثمانية على أغلفة الكتب التي يوزعونها، وهذه حقيقة تلفت الانتباه بشكل كبير.

وهذا يعني أن كل شيء لم ينته بانتهاء الدولة العثمانية، فهذا المثال التالي الذي يعمل على إبراز تلك الحقيقة والذي يعود لأحد أفراد الطبقات البسيطة من أروع الأمثلة التي تعطي العبرة على ذلك:

دخل الأعداء «إستانبول» واحتلوها، نزل الجنود الإنجليز إلى «شارع الحربية» وأبعدوا جنود الجيش المحمدي بالأسلحة والحراب، وأنزلوا الراية العثمانية من فوق مقر الحربية، ورفعوا الراية الإنجليزية.

وفي تلك الأثناء كانت هناك امرأة عجوز أناضولية يتبين من ملابسها أنها عاملة، كانت تجلس على الرصيف المقابل تبكي، وفي ذلك الوقت مر عليها «أحمد حكمت مفتي ُوغلي»، وقال لها:

"يا أختاه لا تبكي، سيأتي اليوم الذي ينشأ فيه أولادنا وسيقومون بإنزال تلك الراية وتعليق الراية العثمانية مرة أخرى".

نظرت المرأة إليه نظرة أسد مجروح وقالت وهي تبكي:

"يا بني هل تظنني أبكي على هذا؟ لا، أنا أعلم أنه سيأتي يوم وينشأ أولادنا ويقومون بإنزال الراية الإنجليزية وتعليق الراية العثمانية مكانها، ولكني أبكي على شيء آخر، أما سمعت أقوال بعض جنود الجيش المحمدي الذين ضُرِبوا وأخذت من أيديهم أسلحتهم وهم يعبُرون قبل قليل يصيحون:

"لقد انتهى الإسلام، وانتهى دين محمد!". وأنا أبكي على نحيب أولادنا بهذا الشكل، ألا يعلم ابن الإسلام أن دين محمد باقٍ إلى يوم القيامة، كيف يقولون هذا؟ لو فقدوا هذا الإيمان، فسيصعب تغيير هذه الراية. أما إذا بقي هذا الإيمان فإن إنزال تلك الراية لن يكلفنا شيئًا أبدًا".

إن هذا الشعب هو الشعب الذي كان موجودًا وقت انهيار الدولة. والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا.

إننا لم نعمل في الأرشيف العثماني. وإن عملنا في الأرشيف ماذا يفيد؟ إن هذا الأرشيف به ما يقرب من ١٥٠ مليون وثيقة لم يتم تصنيفها بعد، وعليه فإنه لا يمكن التعرف والتعمق في أعماق الدولة العثمانية كما ينبغي. وما قمنا به فقط هو التجول في بطون الكتب والمصادر الموجودة على ضوء المقاييس الإسلامية، وما تمكنا من استخراجه منها قيمناه على ضوء المبادئ الإسلامية الأساسية. وكما أوضحنا سابقًا، أننا سعينا للإشارة فقط إلى العوامل المعنوية التي جعلت من الدولة العثمانية الدولة العثمانية، وسعينا لتقديم نسائم النصر الرحيمة والروائح العطرة من الإقليم المعنوي العثماني إلى شبابنا. وهذا بالطبع ليس عملًا كافيًا، ولكن ما أروع وأجمل أن نتمكن من إيقاظ الاهتمام لدى مجموعة من شبابنا الواعد بأجدادنا المباركين ومشاعرنا التاريخية، ولو أننا تمكنا من أن نجعل من شبابنا شبابًا لديه عزيمة إيمانية، ولا يسير كالسائح بين آثارنا يشاهد الكتابات المكتوبة على مشاهد القبور أو الأسبلة أو المكتبات فقط، فإن سعادتنا ستكون غامرة.

❀

حكمت الدولة العثمانية ٦٢٣عامًا حكمت خلالها ٦٠ دولة بالعدل وهي على ما يلي:

الدولة	المدة	الدولة	المدة
بلغارستان	٥٤٥	السعودية	٣٩٩
جزر إيجه	٥٤١	السودان	٣٩٧
يوغسلافيا	٥٣٩	مصر	٣٩٧
رومانيا	٤٩٠	ليبيا	٣٩٤
ألبانيا	٤٣٥	الكويت	٣٨١
سوريا	٤٠٢	الحبشة	٣٥٠
فلسطين	٤٠٢	جيبوتى	٣٥٠
الأردن	٤٠٢	الصومال	٣٥٠
لبنان	٤٠٢	الجزائر	٣١٣
اليمن	٤٠١	تونس	٣٠٨
كينيا	٤٠٠	أوكرانيا	٣٠٨
بورناي	٤٠٠	قبرص	٢٩٣
الإمارات العربية	٤٠٠	روسيا الأوروبية	٢٩١
غينيا	٤٠٠	جزر كريت	٢٦٧
موزامبيق	٤٠٠	المجر	١٦٠
تنزانيا	٤٠٠	الهند	١٠٠
أوغاندا	٤٠٠	باكستان	١٠٠
عُمان	٤٠٠	أذربيجان	٨٥
جورجيا	٤٠٠	المغرب	٥٠
النيجر	٤٠٠	موريتانيا	٥٠
زنجبار	٤٠٠	بولندا	٢٥
تشاد	٤٠٠	روسيا الغربية	٢٥
السنغال	٤٠٠	روسيا البيضاء	٢٥
قطر	٤٠٠	أندونيسيا	٢٥
نيجيريا	٤٠٠	مالايا	٢٥
البحرين	٤٠٠	سنغافورا	٢٥
الكاميرون	٤٠٠	تشيكوسلوفاكيا	٢٠
اليونان	٤٠٠	أرمينيا	٢٠
جامبيا	٤٠٠	تركستان الشرقية	١٥

وبخلاف تلك الدول المذكورة، أدارت الدولة العثمانية لفترات مختلفة في الجزر والمدن الساحلية لتلك الدول التالية: «إيطاليا» و«إنجلترا» و«النرويج» و«إيسلندا» و«فرنسا» و«موناكو» و«ألمانيا» و«إيرلندا» و«جبل طارق» و«إسبانيا» و«هولندا» و«البرتغال» و«إيران» و«الدنمارك».

وإذا أردنا أن نقوم بجولة لنتذكر تلك الآثار الغالية التي أسسها أجدادنا الأعزاء على تلك الأراضي لكي نزيل عن قلوبنا هذا الشوق لهم، فإننا مضطرون لأن نحصل على تأشيرات مرور من ٦٠ دولة.

إن العاقبة المحزنة الحالية لتلك الدولة العظيمة التي كانت أثرًا كبيرًا لرجال المعنى المؤثرين إلى جانب القوة المتواضعة المادية التي كانت لدى الأربعمائة فارس الذين كانوا موجودين عند تأسيسها، يجب أن تسوقنا تلك العاقبة المحزنة إلى محاسبة وجدانية. ويجب ألا نتأخر أكثر من ذلك في إدراك أننا لم نتمكن من الوصول إلى أي نقطة وصلوا إليها عن طريق تقليد الغرب الذين كانوا عبيداً لنا .

عاقبتنا المحزنة شاهدة للعيان اليوم، فالأزمات المادية والمعنوية المؤلمة اليوم وصلت إلى حد مخيف. لأن أسر المعنوية للمادية لن ينتج عنه إلا العودة إلى العصر الجاهلي. وقد لخص الشاعر تاريخ الدولة العثمانية المشرف الذي استمر لمدة ٦٢٣ عامًا في شعره التالي:

مَنْ كنت أنا؟

لو تسأل العصور أقل لك ماذا كنت أنا؟
لقد كنت البحر، وكان الربع المسكون لي
تحسبني النيران والقذائف قلعة
تطير أنقاض التيجان وتموج
كانت صورتي المنعكسة في بحر الأبدية عميقة
في أثر حصانى ذي الشرارة والدامي

تضرب نبضات قلب السماء في قبضة يد الهلال

كان طالع الأرض يهتز أمام أطراف طلقاتي

وتجري العصور في مجرى تخطه يدي

ولجوادي آثار في ثلاث قارات من الأرض

إذا ما طار فوق هذا الملك والأماكن المرتفعة

نظرة واحدة مني كانت تعتبر برق كرم وعناية

إلى ملك هو أكثر الملوك على الأرض صيتًا

تاجه كانت هديتي وأقاليمه هبتي

وكان خيالي خنجرا والأقوام غمدًا له

كأن كرة الأرض كانت سيدةً معشوقة إرادتي

كنت أمنح انسجام قلبي إلى أعصابها

وكنت أعطيها الشكل واللون كما أشاء

وكان العالم كله يعلم قيمتي؛ ما كنت كذلك

وما انحنيت منذ ستة قرون إلا مرة واحدة!

اللهم ارفع رؤوس المؤمنين التي تقف اليوم منحنية إلى أفق النصر والعزة بقوة وسطوة الإسلام، وأنقذ العالم الإسلامي من اليتم، وأكرمنا بمرتبة عالية مادية ومعنوية، تكسبنا الحق لننال اللطف كما كان أسلافنا في الماضي!

اللهم أسعد الأرواح العزيزة لأصحاب الهمة وأهل الغيرة الذين قاموا بالخدمة في طريق العلم والعرفان والفنون في سبيل الدين المبين، وأسعد أرواح سلسلة الشيخ أدبالي، الذين قاموا بتربية وتوجيه وإرشاد السلاطين العثمانيين، وأسعد أرواح هؤلاء السلاطين الذين تجهزوا بروحانياتهم!

آمين!...ه

الفهرس

القسم الثاني



